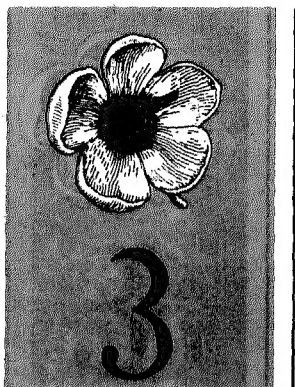


عيون الأدب الأجنبي

ترجمة : إلياس بدوي



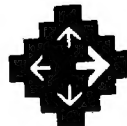
مارسيل P البحث عن الزمن المفقود پروست



جانب منازل غرمانت



« البحث عن الزمن المفقود »
 مغامرة كائن رائع الذكاء ،
 مريض الإحساس ، ينطلق
 من طفولته في البحث عن
 السعادة المطلقة ، فلا يلقاها
 في الأسرة ولا في الحب ولا في
 العالم . ويرى نفسه منساقاً
 إلى البحث عن مطلق خارج
 الزمان ، شأن المتصوفين من
 الرهبان ، فيلقاه في الفن ، مما
 يؤدي إلى اختلاط الرواية
 بحياة الروائي ، وإلى انتهاء
 الكتاب لحظة يستطيع
 الراوي ، بعدما استعاد
 الزمان ، أن يبدأ كتابه ؛
 فتقلب بذلك الحية الطويلة
 على نفسها لتغلق الحلقة
 العملاقة .
 رواية تقارب المليون كلمة ،
 بأشخاص تبلغ المائتين ،
 أشبه ما تكون بالتمثال
 الروحي الذي يصمدُ
 كالصخر في وجه العاديات .
 إنها مراثاة للدمار الذي
 يصنعه الزمن بالأشياء
 والناس إن غَفَلْت .



دار شرقيات للنشر والتوزيع

مارسيل بروست البحث عن الزمن المفقود

ترجمة : إلياس بديوي

البحث عن الزمن المفقود

مارسيل بروس

ترجمه: الياس بديوي

A la recherche du temps temps perdu

Marcel Proust

Gallimard, Paris

© جميع حقوق النشر لهذه الترجمة الكاملة

محفوظة لدار شرقيات ١٩٩٤

الجزء الثالث:

جانب منازل غرمانت

Le côté de Guermants

© الطبعة العربية الثانية لهذه الترجمة

دار شرقيات ١٩٩٨

دار شرقيات للنشر والتوزيع

٥ شارع محمد صدقي، من هدى شعراوي

رقم بريدي ١١١١١ باب اللوق - القاهرة.

ت: ٢٩٩٣ - ٣٩٠٠ س. ت: ٢٩٩٨

الغلاف الأخير: الصفحة الأخيرة من مخطوطة هذا

العمل بقلم مارسيل بروس

تصميم الغلاف: محيي الدين اللباد

صدر هذا الكتاب

بالتعاون مع

البعثة الفرنسية للأبحاث والتعاون

قسم الترجمة

القاهرة



رقم الإيداع ١٩٩٥/١٠٧٣٠

الترقيم الدولي 7 - 89 - 5406 - 977 ISBN

مارسيل بروست البحث عن الزمن المفقود

ترجمة : إلياس بديوي

3

جانب منازل غرمانت

دار شرقيات للنشر والتوزيع

إلى «ليون دوديه»،
إلى مؤلف «رحلة شكسبير» و«اقتسام الطفل»
و«الكوكب الأسود» و«أشباح وأحياء» و«عالم الصور»،
وروائع ما أكثرها.
إلى الصديق الذي لامثيل له،
عربون إقرار بالفضل وإعجاب.

م. پ

القسم الأول

بدت زقزقة العصافير الصباحية نافهة في نظر «فرانسواز».

كانت تنتفض لكل كلمة يقولها «الخدّام»، وتساءل النفس حولهم إذ تزعجهم جميع خطاهم، فقد كنّا أخلينا بيتنا. وما كان الخدم بالتأكيد أقل حركة في «السادس» من مسكننا السابق، ولكنها كانت تعرفهم وقد جعلت من غدوهم ورواحهم أموراً يطعمها الودّ.

والآن تولي الصمت نفسه انتباهها أليماً. ولما كان يبدو حيناً الجديد هادئاً بقدر صخب الشارع الذي كنّا حتى ذاك نطلّ عليه فإن أغنية رجل يعبر الطريق (وتميزها حتى من بعيد، آن هي ضعيفة كفكرة موسيقية ترددها أوركسترا) كانت تملأ بالدمع عيني «فرانسواز» في منفاها. ولئن سبق لي أن سخرت منها هي التي، إذ حرّ في نفسها أن وقع عليها هجر مبني يسعى إليك فيه أحسن التقدير من كل صوب، حرمت أمتعتها باكية، حسب طقوس «كومبريه»، ومعلنة أن ما كان بيتنا يفوق جميع البيوت الممكنة، فقد تقرّبت في مقابل ذلك، أنا الذي كان يتمثل الأشياء الجديدة بصعوبة تساوي اليسر الذي أهجر به القديمة، تقرّبت من خادمتنا المعجوز حينما رأيت أن الإقامة في بيت لم يحطها فيه البواب الذي لم يكن بعد يعرفنا بعلامات الاعتبار الضروري لحسن غذائها الروحي قد أغرقتها في حالة قريية من السقم. وحدها كانت تستطيع أن تفهمني، وما كان خادمتها بالتأكيد من يفعل ذلك، فالانتقال إلى بيت جديد والسكنى في حي آخر كانت بالنسبة إليه، هو الذي يبدو أقل ما يمكن من «كومبريه»، كمثّل أن تنعم بعطلة توليك جذّة الأشياء فيها ما يوليك السفر من راحة.

كان يحسب نفسه في الريف؛ لقد أولاه زكام ألمّ به، كمثّل «لفحة هواء» تصيبك في عربة قطار لا يطبق زجاجها بإحكام، انطباعاً لذيذاً بأنه طوّف في البلاد، فلقد كان يقتبط لمدى كل عطسة أن لقي محلاً أنيقاً إلى هذا الحد إذ رغب على الدوام موالى كثيرى الأسفار، لذلك انجذبت رأساً إلى «فرانسواز» دون أن أفكر فيه. ولما كنت قد ضحكت من دموعها في رحيل خلّف في نفسي اللامبالاة فقد أهدت فتوراً شديداً لآزاء حزني لأنها كانت تشاطرنى إياه. فإن أنانية العصبيين تكبر مع حساسيتهم المزعومة، ذلك أنهم لا يطبقون لدى الآخرين إبراز ضيق يعبرونه هم انتباهها متزايداً.

و«فرانسواز» التي ما كانت تغفل أقل ما ينتابها من ضيق كانت تدبر رأسها إن أنا تأملت كي لا يغيبني أن أرى ألمي موضع رثاء وحتى مثار اهتمام. كذلك فعلت حالماً أردت أن أحدثها عن بيتنا الجديد. ولما اضطرت «فرانسواز» على أي حال أن تذهب بعد انقضاء يومين لتجلب ملابس منسية في البيت الذي غادرناه منذ قليل فقد عادت، فيما كنت لا أزال عقب انتقالنا إلى البيت الجديد «محموماً» وأحس بي تحذّباً في النفس مجهداً من جراء صندوق طويل كانت عيناى تحاولان «ابتلاعه» كمثّل ثعبان ضخم أقدم على ابتلاع ثور، عادت تقول، تطبعها خيانة النساء، إنها أوشكت تختنق في شارعنا السابق وإنها رأت نفسها وقد ضلت طريقها تماماً في سعيها للذهاب إلى هناك وإنها لم تبصر قط أدراجاً صعبة إلى هذا الحد وإنها لن تعود للسكنى هناك «مقابل امبراطورية» ولو وهبها الملايين - وهي افتراضات مجانية - وإن كل شيء (وتعني ما يخص المطبخ والممرات) أفضل تربتياً في بيتنا الجديد. ولقد آن لنا أن نقول أن بيتنا هذا - وقد جئنا للسكنى فيه لأن جدتي كانت على غير ما يرام من الصحة، وهو سبب حرصنا ألا نذكره لها فكانت بحاجة إلى هواء أكثر نقاءً - كان شقة تابعة لفندق آل «غير مانت».

وفي العصر الذي تضطربنا فيه الأسماء، إذ تقدم لنا صور المجهول الذي سكبناه فيها في اللحظة نفسها التي تشير فيها كذلك في نظرنا إلى مكان حقيقي، إلى المماثلة بين هذا وذاك إلى حد أننا نمضي في البحث في مدينة ما عن روح لا يمكن أن نضمها ولكنه لم يعد بمقدورنا أن نقصدها عن اسمها، فإن هذه الأسماء لا تضفي شخصية على المدن والأنهار فحسب مثلما تفعل الرسوم الرمزية، وهي لا تلون العالم المادي فحسب بمواطن الاختلاف وتعمره بالخوارق، بل العالم الاجتماعي كذلك: وإذ ذاك يضحى لكل حصن ولكل فندق أو قصر مشهور سيده أو جنيته مثلما للغابات جنيتها وللمياه آلهاتها. وتتحول الجنية أحياناً، وقد اختبأت في أعماق اسمها، حسبما تقضي حياة مixelتنا التي تمدها بالغذاء، وعلى هذا النحو شرع الجو الذي كانت السيدة «دو غيرمانت» تمش فيه في داخلي، بعدما ظل على مدى سنوات محض ومضة زجاج فانوس سحري أو زجاج كنيسة ملون، شرع يخمد ألوانه حينما ملأته أحلام مغايرة تماماً بزيد السيول الندي.

يبد أن الجنية تتلاشى إن اقتربنا من الشخص الحقيقي الذي يقابله اسمها، فذلك الشخص إنما يأخذ الاسم حينذاك يعكس صورته ولا يتضمن من الجنية شيئاً ؛ ويمكن أن تولد الجنية ثانية إن ابتعدنا عن الشخص، أما إذا ظللنا بالقرب منه فإن الجنية تموت موتاً نهائياً ويموت الاسم معها، كممثل أسرة «لوزينيان» التي كانت ستنتفي يوم تختفي الجنية «ميلوزين» وإذ ذاك يضحى الاسم الذي ربما أمكن في النهاية أن نلقى تحت طبقاته اللونية المتعاقبة، أن نلقى في الأصل الرسم الجميل لغربة لم نعرفها في يوم، يضحى ذلك الاسم محض بطاقة هوية فوتوغرافية تعود إليها لنعلم إن كنا نعرف شخصاً يعبر طريقه وإن كان علينا أن نحبيه أم لا. فإن سمح شعور يعود إلى سنة سابقة - شأن آلات الموسيقى المسجلة التي تحتفظ بركة الفنانين المختلفين الذين عزفوا عليها وبأسلوبهم - إن سمح لذاكرتنا أن تسمعن ذلك الاسم بالنغمة الخاصة التي كان يحملها آنذاك بالنسبة إلى أذننا فإننا نحس، والاسم لم يتبدل في الظاهر، بالمسافة التي تفصل الواحد عن الآخر الأحلام التي عنتها على التوالي في نظرنا مقاطعه المتماثلة ونستطيع للحظة أن نستخلص من النغمة العائدة التي كانت نغمته في ذاك الربيع الغابر، شأننا من الأنابيب الصغيرة التي تستخدم في الرسم، اللون الصحيح المنسي الخفي الندي للأيام التي خلطنا فيها مضي أننا نتذكرها حينما كنا نضفي على كامل ماضينا المنشور على اللوحة الواحدة، كممثل الرديئين من الرسامين، ألوان الذاكرة الإرادية المبتذلة المتشابهة جميعها. ولكن كل واحدة من اللحظات التي شكلته كانت تستخدم على العكس، في سبيل إبداع أصيل وفي تناغم فريد، ألوان ذاك الحين، تلك التي، لا نعرفها من بعد والتي لا تزال، على سبيل المثال، تخلص لبني فجأة أن عاد اسم «غيرمانت»، بفضل صدفة ما، يتخذ لحظة بعد هذه السنوات الطويلة، الرنة الشديدة الاختلاف عن رنة اليوم والتي كانت رنته بالنسبة إليّ يوم زواج الآنسة «بيرسييه»، فيعيد إليّ هذا اللون الخيالي الشديد النعومة البالغ اللمعان المفرط في جدته الذي ترق به ربطة عنق الدوقة الشابة المنفخة وعيناها اللتان تشرق فيهما ابتسامة زرقاء مثل عناقية يستحيل قطافها وقد أزهرت من جديد. وإن اسم «غيرمانت» الأمس لهو أيضاً كأحد تلك التفاحات الصغيرة التي احتبس فيها الأوكسجين أو أي غاز آخر فاني حينما أفلح في شقه وإخراج ما يحتويه أتشوق هواء «كومبريه» لذلك العام، لذلك اليوم، تمتزج فيه رائحة زعرور أبيض حركتها ريح الزاوية في الساحة، الريح التي تنذر بالمطر والتي كانت تطرد الشمس تاره وطوراً تفسح لها أن تستلقي على سجادة الصوف الحمراء في السكرستيا وتكسوها بلون الجيرانيوم الزهري اللامع الذي يقرب أن يكون ودياً وبهذه العذوبة في الابتهاج، وتخالها «فاغنيرية»، التي

تغمر الاحتفال بهذا القدر من النبل. ولئن كانت الأسماء، حتى خارج الدقائق القليلة الشبيهة بتلك والتي نحس فيها فجأة بالكيان الأصلي يختلج ويستعيد شكله وخط نقوشه داخل المقاطع الميتة في يومنا هذا، لئن كانت قد فقدت كل لون في زوينة الحياة اليومية المدوخة التي لم يظل لها سوى استخدام عملي تماماً، كممثل خذروف موشوري يدور بسرعة مفرطة فيبدو رمادياً، فإننا في مقابل ذلك حينما نفكر في طور أحلامنا، حينما نحاول كيما نعود إلى الماضي أن نبطئ الحركة الدائمة التي تذهب بنا وإن نوقفها فإننا نعود فنرى الألوان التي توالى بها الاسم الواحد لناظرنا تبرز شيئاً فشيئاً متجاوزة ولكنما يتميز بعضها عن بعض تميزاً كلياً.

وإني دون شك لا أدري أي شكل كان يبرز لعيني في اسم «غيرمانت» هذا حينما كانت مريتي تهددني بهذه الأغنية القديمة- وهي تجهل دونما شك، شأني اليوم، على شرف من تم تأليفها: «العمة لمركيزة غيرمانت»، أو حينما كان الماريشال «دو غيرمانت» العجوز، بعد بضعة سنوات، يتوقف في «الشانز يلزيه» ليقول، وتمتلي خادمتي بذلك اعتزازاً: «بالطفل الجميل!» ويخرج من علبة «سكاكر» من جيبه قرصاً من الشوكولاته. إن سني طفولتي الأولى تلك لم تعد في داخلي، إنها في خارجي ولست أستطيع أن أعلم شيئاً منها إلا بفضل حكايات الآخرين، كما هو أمر ما جرى قبل مولدنا. بيد أنني ألقى فيما بعد على التوالي، في دوام هذا الاسم نفسه في داخلي، سبعة أو ثمانية وجوه مختلفة. كانت الأولى منها هي الأجمل: ثم يأخذ حلمي شيئاً فشيئاً، وقد اضطره الواقع أن يهجر موقفاً لا يمكن الدفاع عنه، بالتحصن ثانية دونه بقليل حتى يضطر إلى التراجع مرة أخرى. وفي الحين نفسه الذي تبدل فيه السيدة «غيرمانت» كان يتبدل منزلها المستخلص هو الآخر من ذلك الاسم الذي يخضبه سنة بعد سنة هذا القول أو ذاك أسمع فيديل أحلامي: كان ذلك المنزل يعكسها في حجارته ذاتها وقد أضحت عاكسة كسطح سحابة أو بحيرة. فهذا برج لاسماكة له، وهو محض شريط من الضوء البرتقالي كان السيد وعقيلته يبتان من عليائه أمر حياة أتباعهما وموتهم، قد أفسح المكان- في أقصى «جانب غيرمانت» هذا الذي كنت أحاذي فيه مجرى نهر الـ«فيفون» بصحبة والدي في الكثير من فترات العصر الجميلة- لهذه الأرض الكثيرة السيول التي كانت الدوقة تعلمني فيها صيد سمك «التروته» واسم الزهور ذات العناقيد البنفسجية والضاربة إلى الحمرة التي تزين الجدران الواطية للاسماكة المحيطة ؛ ثم كانت تلك الأرض المتوارثة والأملاك الشاعرية التي أخذت سلالة «دو غيرمانت» الأبية مذ ذاك تشمخ فيها، مثل برج مصفر ومزخرف بنقش الزهر يخرق العصور، فوق فرنسه في حين كانت السماء لا تزال خالية حيث ستبثق فيما بعد كنيسة «نوتردام» في باريس وكنيسة «نوتردام» في «شارتر»، وفي حين لم يقم على قمة رابية «لان» صحن الكاتدرائية مثل سفينة الطوفان على قمة جبل أرارات وقد غصت بالآباء^(١) والصالحين يطلبون قلقين من نوافذها ليصبروا إن كان غضب الله قد هدأ وحملت معها اصناف النباتات التي ستكاثر على الأرض وفاضت بالحيوانات التي تنطلق حتى من الأبراج حيث تجول ثيران بهدوء على السطح وتنظر من على إلى سهول «شامبانيه» ؛ وفي حين لا يرى المسافر بعد، وهو يغادر مدينة «بوفيه» في آخر النهار، أجنحة الكاتدرائية السوداء المتفرعة المسوطة على شاش الغروب الذهبية تتبعه محوطة. كانت «غيرمانت» تلك، شأن إطار روائي، منظرًا خيالياً كنت أجد مشقة في تمثله ورغبة تتزايد بذلك في اكتشافه، تكتنفه أراض وطرق

(١) آباء الكنيسة هم رؤساؤها وكبار معلمها.

حقيقية تشرب فجأة خصائص شعاعية، على بعد فرسخين من إحدى المحطات ؛ كنت أتذكر أسماء الأماكن المجاورة كما لو وقعت على حضيض جبل الـ«بارناس» أو «الهيليكون»^(١) وكانت تبدو لي ثمينة شأن الشروط المادية-في علم الطبوغرافية- في انتاج ظاهرة خفية. لقد عدت أرى الشعارات المرسومة على قواعد زجاج «كومبريه» الملون الذي امتلأت أقسامه قرناً بعد قرن بجميع البيوتات العريقة التي اجتذبها إليه ذلك البيت الشهير من سائر أركان ألمانيا وإيطالية وفرنسة بالزواج أو الشراء؛ فأراض شاسعة في الشمال ومدن قوية في الجنوب جاءت لتلقي وتتألف حول اسم «غيرمانت» وترسم بالرمز، بعدما فقدت ماديتها، برجها الذي من لون أخضر أو قصرها الذي من فضة في نطاقه اللازوردي. لقد سبق أن سمعت عن سجاد «غيرمانت» وأراها وسيطة زرقاء على شيء من السماكة تبرز كسحابة على الاسم الأرجواني الخملي الأسطوري على حضيض الغابة العتيقة التي كثيراً ما اصطاد فيها «شيلدير» وكان يبدو لي أنني ربما ولجت أسرار هذه الأراضي القصية الخفية وهذه القرون السحيقة، مثلما يتفق لي في رحلة، بمحض اقترابي لحظة في باريس من السيدة «غيرمانت» والية المكان وسيدة البحيرة كما لو أنبغي أن يمتلك محياها وأقوالها سحر الغابات والضفاف الخجلي والخصائص البالغة القدم نفسها التي تملكها مجموعة الأعراف القديمة في محفوظاتها. ولكنني كنت إذ ذاك قد عرفت «سان لو» وقد أخبرني أن القصر لم يدع «غيرمانت» إلا منذ القرن السابع عشر يوم اشترته أسرته. لقد أقامت حتى ذاك في الجوار ولم يأتها لقبها من تلك المنطقة. فلقد أخذت قرية «غيرمانت» اسمها من القصر الذي بنيت بعده وقد نظمت تداير قاسية ظلت سارية المفعول مخطط الشوارع وحددت ارتفاع المنازل كي لا تقضي على مناظره. أما الطنافس فكانت من أعمال «بوشيه» وقد اشتراها هاو من آل «غيرمانت» في القرن التاسع عشر ووضعت في صالة شديدة القبح مغطاة بقماش قطني أحمر وآخر طويل الخملة إلى جانب لوحات صيد ضحلة المستوى رسمها بنفسه. لقد أدخل «سان لو» على القصر بهذه التصريحات عناصر غريبة عن اسم «غيرمانت» لم تسمح لي من بعد بموالة استخلاص حجارة المباني من رثة المقاطع فحسب. حينئذ امحى في أعماق ذاك الاسم القصر الذي يتعكس في بحيرته ؛ أما مد بدا لي من حول السيدة «دو غيرمانت» على أنه مسكنها فقد كان فندقها في باريس، فندق «غيرمانت»، وهو صاف صفاء اسمها إذ لم يقم ثمة أي عنصر مادي عاتم يوقف شفافيته ويقضي عليها. وكما أن الكنيسة لا تعني المعبد فحسب بل جمهور المؤمنين كذلك، كان فندق «غيرمانت» هذا يضم جميع الذين يشاطرون الدقة حياتها، بيد أن هؤلاء الألاف الذين ما رأيتهم قط إنما كانوا في نظري محض أسماء مشهورة وشاعرية وهم إذ لا يعرفون سوى أشخاص هم بدورهم محض أسماء إنما كانوا يزيدون من سر الدقة الخفي ويحمونه إذ يمدون من حولها هالة واسعة أقصى ما يصيبها أن تنبته ألوانها شيئاً فشيئاً.

ولما كنت لا أنخيل، في الاحتفالات التي كانت تقيمها، أي جسد للمدعوين وأي شارب وأي حذاء وأية جملة منطوقة تبدو تافهة أو حتى مبتكرة على نحو إنساني ومطابق للعقل، فقد كانت زوينة الأسماء تلك التي تحمل من الملموس أقل مما يتوافر لوليمة أشباح أو لحفلة أطياق راقصة حول هذا التمثال الذي من بورسلين «ساكس» والذي تمثله السيدة «دو غيرمانت»، كانت تحتفظ لفندقها الزجاجي بشفافية الواجهات

(١) Le Parnasse et l'Hélicon من جبال اليونان واشتهر بتكريم ربات الشعر، والتكريم ربما أفضى إلى مسابقات شعرية.

الزجاجية. ثم اضحى فندق «غيرمانت» ، بعدما قص عليّ «سان لو» نوادر عن كاهن الكنيسة وبستاني ابنة عمه، أضحى - شأن ما أمكن أن يكون عليه بالأمس مبنى «اللوڤر» - ضرباً من القصور تحيط به، في وسط باريس نفسها، أراضيها التي تمت ملكيتها بالوراثة بموجب حق قديم مستمر على نحو غريب والتي لاتزال تمارس عليها امتيازات إقطاعية. على أن هذا المنزل الأخير قد تلاشى بدوره حينما جئنا للسكنى بالقرب من السيدة «دو فيلبارييس» في إحدى الشقق المجاورة لشقة السيدة «دو غيرمانت» في أحد أجنحة فندقها. لقد كان واحداً من تلك المساكن القديمة على غرار تلك التي لعلها لاتزال قائمة والتي غالباً ما تملك فيها باحة الشرف على جوانبها مستودعات دكاكين ومشاعل وحتى دكان حذاء أو خياط - وهي إما طمي حملته مياه الديمقراطية الصاعدة وإما تراث من أزمنة أكثر اغراقاً في الماضي كانت مختلف المهن تجتمع فيها حول السيد - كنتك التي تراها تستند إلى جنبات الكاتدرائيات التي لم تبرزها يد المهندسين الجئمة، وبواب حذاء يربي الدجاج ويزرع الزهور - وفي أقصاها، في المسكن «الذي له هيئة الفندق»، هناك «كوتيسه» كانت توزع دونما تمييز لدى خروجها في عربتها القديمة التي يجرها حصانان وتبرز فوق قبعتها بعض من أزاهير الجرجير تبدو وكأنها هربت من حديقة المقصورة (وإلى جانب حوزيها خادم ينزل ليوزع بطاقات في كل فندق ارستقراطي في الحي)، توزع دون تمييز بينهم بسمات وتلوينات تحية باليد لأولاد البواب والمستأجرين البورجوازيين في المبنى الذين يعبرون في تلك اللحظة والذين تخط بينهم في أنفسها المستعلي ونزعة المساواة المستكبرة لديها.

وفي المنزل الذي جئنا للسكنى فيه كانت السيدة الكبيرة التي في أقصى الباحة «دوقة»، وهي أنيقة ولا تزال شابة بعد وكانت السيدة «دوغيرمانت»، وقد توافرت لدي معلومات حول الفندق في مدة قصيرة بفضل «فرانسواز». ذلك أن عائلة «غيرمانت» (وغالباً ما تشير إليهم «فرانسواز» بكلمتي «في الأسفل» و«تحت») كانت تؤلف شغلها الشاغل منذ الصباح الذي ألفت فيه، فيما كانت تسرح والدتي، نظرة محظورة خفية لا تقاوم إلى الباحة، وكانت تقول: «عجباً، تكم راهبتان ؛ أنهما ذاهبتان بالتأكيد إلى أسفل أو: «آه! ما أجملها تدارج في نافذة المطبخ، ولا حاجة أن نسأل من أين جاءت، فالدوق لابد ذهب إلى الصيد»، وحتى المساء حيث تستخلص، إن هي سمعت، فيما تعطيني حوائجي الليلية، ضجة «بيانو» أو أصدااء أغنية: «لديهم جماعة « في الأسفل» والجو يميل إلى المرح» ؛ حيثئذ كانت بسمه من شبابها زاخرة بالحيوية والحشمة تضع لحظة واحدة كلا من ملامحها في مكانه وتطابق بينها في نظام معدّ ودقيق كما هي الحال قبل رقصة جماعية.

بيد أن اللحظة التي كانت تثير اهتمام «فرانسواز» أشد ما تثير في حياة آل «غيرمانت» وتخلف لديها أشد الرضى وتشق عليها كذلك كثيراً إنما كانت بالضبط تلك التي تنفتح فيها البوابة الرئيسية على مصراعيها وتصعد الدوقة إلى عربتها. كان ذلك يجري عادة بعدما ينتهي خدامنا بوقت قصير من الاحتفال بهذا الفصح المهيب الذي ينبغي ألا يقطعه أحد والمدعو غداءهم والذي كان من «المحرمات» إلى حد لا يأذن فيه حتى والذي لنفسه أن يستدعيهم في أثنائه وهو يعلم على أية حال أن لن يكلف أحد نفسه الجيء في دقة الجرس الخامسة أكثر مما يفعل في الأولى وأنه إنما يأتي على هذا النحو عملاً غير لائق لا يجديه نفعاً فيما لن يتم دونما اضطرار به. ذلك أنه ما كان ليفوت «فرانسواز» (التي كانت تتخذ لنفسها في كل لحظة، منذ أصبحت امرأة عجوزاً، ما يسمى بالسحنة المناسبة) أن تبرز إليه طوال النهار بوجه تغطيه علامات صغيرة مسمارية وحمرء

تنتشر بها في الخارج، ولكن على نحو قلما يمكن فك رموزه، مذكرة شكاواها الطويلة وأسباب استيائها العميقة. كانت تجرد بها على أية حال على حدة ولكن دون أن يمكننا تمييز الكلمات يوضح. وكانت تسمى ذلك- وتظنه مكدرًا بالنسبة إلينا ومؤلمًا ومزعجًا- التحدث إلينا طوال النهار القدسي بصوت خفيض.

وبعد إنجاز الطقوس الأخيرة كانت «فرانسواز»، وهي في آن واحد، كما هي الحال في الكنيسة الأولى، الكاهن الذي يقيم القداس وواحد من المؤمنين، كانت تسكب لنفسها كأساً أخيراً من النبيذ وتزرع فوطتها عن رقبتها وتطويها وهي تمسح عن شفتيها بقية ماء تخالطه حمرة وقهوة وتضعها في حلقة وتشكر بنظرة شاكية خادمها الذي يقول لها مبالغاً في الحماس: «هيا ياسيديتي. دونك أيضاً قليلاً من العنب، إنه للذي»، ويمضي في الحال لفتح النافذة بحجة أن الحر شديد جداً «في هذا المطبخ التعيس». وكانت إذ تلقي نظرة سريعة متجردة إلى أقصى الباحة، فيما تدبر في الآن نفسه قبضة النافذة وتستنشق الهواء، كانت تختلس منها اليقين بأن الدوقة لم تكن جاهزة بعد وتغمر مدى لحظة بنظرات ازدياء وشغف العربية المسرحية خيولها وبعدها تصرف عيناها لحظة الانتباه هذه الأمور الدنيا كانت ترفعها إلى السماء التي سبق أن استشفّت صفاءها إذ أحست بلطافة الهواء ودفع الشمس. كان تنظر في زاوية السطح إلى المكان الذي كانت تقبل إليه كل ربيع حمامات تبني عشها فوق موقد غرفتني بالتمام شبيهة بتلك التي كانت تهدل في مطبخها في «كومبريه».

وكانت تصرخ قائلة: «آه، كومبريه، يا كومبريه». (ولعل اللهجة المرتلة تقريباً التي كانت تلقي بها ذاك الدعاء كان يمكن أن تثير، فيما يخص «فرانسواز»، شكوكاً بمنشأ جنوبي، بقدر ما يفعل نقاء ملامح وجهها «الأرليزي»^(١)، وبأن الوطن المفقود الذي تبكيه لا يعدو كونه وطناً بالتبني. ولكن ربما كان المرء على ضلال إذ يبدو أن ليس من مقاطعة إلا ولها «جنوبها»، فكم من «سافاردي» و«بريتاني»^(٢) تلقى ممن تعثر لديهم على جميع صنوف التنقيل العذب ما بين مقاطع طويلة وقصيرة تطبع سكان الجنوب!) «آه! يا كومبريه، متى أعود فألقاك أيتها الأرض المسكينة! متى أستطيع قضاء النهار القدسي بطوله تحت أزاهير زعرورك وليلتنا المسكين وأنا أصغي إلى الحساسين وإلى نهر «فيقون» الذي يصدر كأنما همس من يسر إليك بسر عوضاً عن أن أسمع جرس معلمنا الشاب التعيس الذي لا يبقى نصف ساعة البتة دون أن يحملني على الجري على طول هذا الممر الشيطاني. والأنكى أنه يرى أنني لا أمضي بسرعة كافية كأنما ينبغي أن تسمع قبلما يدق وإن تأخرت دقيقة انتابته صنوف من الغضب مريعة. أواه يا «كومبريه»؛ قد لا أعود أراك إلا مئة حينما يرمونني رمية الحجر في حفر القبر. وإذ ذاك لن أشمها من بعد أزاهير زعرورك الناصعة البياض. ولكنني أظن أنني سأظل أسمع في رقدة الموت دقات الجرس الثلاث التي سبق أن قادتنني إلى التهلكة في حياتي».

ولكنما نداءات صانع الصداري في الباحة كانت تقاطعها، ذاك الذي راق جدتي فيما مضى إلى حد بعيد يوم ذهبت للقاء السيدة «دوفيلباريزيس» ولم يكن يشغل منزلة أدنى في مودة «فرانسواز». وكان قد رفع رأسه إذ سمع من يفتح نافذتنا وقد كان يحاول منذ فترة أن يسترعي انتباه جارته كي يقرئها التحية. وإذ ذاك

(١) نسبة إلى مدينة Arles في جنوب فرنسا.

(٢) نسبة إلى مقاطعتي Bretagne, Savoie في فرنسا

كان غنج الفتاة التي سبق أن كانت «فرانسواز» يضيء في نظر السيد «جويان» رقة على الوجه المتأفف الذي لطاهيتنا العجوز التي ثقلت من جراء السنين والمزاج المتكدر وحرارة الموقد وكانت ترسل لصانع الصداري بمزيج رائع من الحيلة والألفة والاحتشام تحية رقيقة ولكن دون أن تجيبه بصوتها لأنها إن كانت تخالف توصيات والدتي إذ تنظر إلى الباحة فما كانت لتجرؤ على تخديها إلى حد التحدث من النافذة، الأمر الذي كان من مزاياه، حسبما ترى «فرانسواز»، أن يسمعا «فصلاً كاملاً» على لسان السيدة. كانت تدله على العربة المسرجة وكأنما تقول: «جياذ عظيمة، هيه!» ولكنما تهمس في الوقت نفسه: «بالعجوز الشمطاء»، ولا سيما أنها تعلم أنه سيجيبها وهو يضع يده أمام فمه كيما يمكن سماعه فيما يتكلم بصوت منخفض: «وأنتم أيضاً تستطيعون اقتناء مثلها لو شئتم وربما أكثر منهم ولكنكم لاتحبون كل هذا».

وكانت «فرانسواز»، بعد إشارة متواضعة متهربة مفتونة تعني على وجه التقريب: «لكل طريقته، والاتجاه هنا إلى البساطة»، كانت تغلق النافذة مخافة أن تصل أمي. أما الـ «أنتم» الذين كان بإمكانهم اقتناء خيول أكثر من آل «غيرمانت» فتحن، ولكن «جويان» كان محققاً بقوله «أنتم» لأن «فرانسواز»، فيما عدا بعض متع الاعتزاز بالنفس الشخصية المحضة (كأن تزعم، حينما كانت تسعل دونما توقف حتى ليخشى البيت بكامله أن يصاب بركامها، تزعم بتهايف يغيثك أنها غير مصابة بالزكام)، مثلها مثل تلك النباتات التي يغذيها حيوان اتخذت به اتحاداً كلياً بالأغذية التي يلتقطها ويأكلها ويهضمها من أجلها ويقدمها لها عبر فضلاته الأخيرة القابلة للتمثل تماماً، كانت تعيش في اتحاد كلي معنا، فنحن من كان عليهم واجب أن يضعوا بفضلهم وثروتهم ونمط معيشتهم المسرات الصغيرات الصغيرة التي ترضي اعتزازها بنفسها والتي يتألف منها هذا القسم من الارتياح النفسي الذي لاغنى عنه لحياتها- مضافاً إليه الحق المعترف به في ممارسة طقوس الغداء ممارسة حرة وفق العرف القديم الذي يتضمن نشقة الهواء أمام النافذة بعدما ينتهي وتسكع في الشارع وهي تمضي لشراء حاجاتها ونزهة يوم الأحد لتذهب لزيارة ابنة أخيها.

واننا ندرك لذلك أن استطاعت «فرانسواز» أن تهزل في الأيام الأولى وقد وقعت- في بيت لم تكن جميع ألقاب والدي الفخرية معروفة فيه بعد- فريسه داء كانت تدعو هي نفسها السأم، السأم بالمعنى القوي الذي يكتسبه لدى «كورني» أو بريشة الجنود الذين ينتحرون في نهاية المطاف لانهم «يسأمون» أشد السأم حينئذ إلى خطيبتهم وقريتهم. أما سأم «فرانسواز» فسرعان ماتم شفاؤه وعلى يد «جويان» بالضبط لأنه أمدها في الحال بمتعة في مثل شدة تلك التي كانت توافرت لها، لو صممنا على اقتناء عربة، وأكثر رهافة. عائلة «جوليان» (إذ يطيب لـ «فرانسواز» أن تماثل بين المفردات الجديدة وتلك التي تعرفها من قبل)- يانعم الناس، إنهم جماعة طيبون، ذلك باد على وجوههم». وقد عرف «جويان» بالفعل كيف يدرك ويعلم الجميع أننا أن لم نقتن فريق خدم فلأننا لانبغي ذلك.

وصديق «فرانسواز» هذا قليلاً ما كان يعيش في منزله إذ حصل على وظيفة مستخدم في إحدى الوزارات. كان بادئ الأمر يضع الصداري مع «البنية» التي حسبها جدتي ابنته فلم تعد لديه أية فائدة في ممارسة الصنعة حينما اتجهت الصغيرة التي كانت تجيد مذ ذاك، ولاتزال بعد طفلة تقريباً، خياطة التنانير حينما ذهبت جدتي فيما مضى في زيارة للسيدة «دوفيلاريزيس»، وجهة الخياطة للسيدات وأصبحت خياطة تنانير.

كانت بادئ الأمر صانعة صغيرة لدى خياطة يعهد إليها بدرزة وخياطة كشكش و«تركيب» زر أو كباس وإحكام خصر بوساطة بكل، وسرعان ما انتقلت إلى مركز المساعدة الثانية ثم الأولى، وإذا اتخذت زبائن من سيدات أرقى المجتمعات أخذت تعمل في منزلها، يعني في ساحة دارنا، وفي الغالب مع واحدة أو اثنتين من رفيقاتها الصغيرات في المشغل تستخدمهما بمثابة متدربتين. ومنذ ذلك أصبح وجود «چويان» أقل فائدة. ما من شك أن الصغيرة، وقد أضحت كبيرة، كانت لاتزال تضطر أن تصنع الصداري. ولكنها بمساعدة صديقتها لم تكن تحتاج أحداً. ولذلك التمس عمها «چويان» عملاً. كان بادئ الأمر حراً في العودة ظهراً وبعداً حلّ نهائياً محل من كان يساعده فحسب لم يعد يفعل قبل ساعة العشاء. ولم يتم تثبيتته لحسن الحظ إلا بضعة أسابيع بعد سكناها، الأمر الذي أمكن معه أن يعمل لطف «چويان» فترة تكفي لمساعدة «فرانسواز» على اجتياز الأوقات الأولى البالغة الصعوبة دونما فرط عذاب. بيد أنه يجدر بي الإقرار بأن «چويان» لم يرقني كثيراً لأول وهلة دون أن أتجاهل الفائدة التي نالتها «فرانسواز» منه بوصفه «داو» انتقالياً. كانت عيناه على مسافة خطوات تنقضان تماماً الأثر الذي ربما خلفته لولاهما وجنتاه السمينتان ولونه المورّد، عيناها اللتان تفيض منهما نظرة مشفقة حزينة حاملة وتحملان على الظن بأنه شديد المرض أو أنه ألمّ به حزن كبير. ولم يكن من ذلك شيء بل كان يبدو بالأحرى، ساعة يتحدث، أحسن الحديث على أية حال، مجافياً ساخراً. وكان ينتج عن هذا التعارض بين نظره وحديثه شيء من الزيف لم يكن مستحباً وكان يبدو هو نفسه من جرائه وكأنما يحس بمثل ضيق مدعو باللباس العادي في سهرة يرتدي فيها الجميع اللباس الرسمي أو واحد يقع عليه أن يجيب أحد أصحاب السمو فلا يعلم بالضبط كيف يحدثه ويتخطى الصعوبة بخفض حجم جملة إلى لاشيء تقريباً. أما جمل «چويان» - والأمر مقارنة بحتة - فقد كانت على العكس رائعة. فسرعان ما تبينت لديه بالفعل، بما وافق اغراق العينين للوجه (وهو أمر لم يعد يسترعي الانتباه بعدما تعرفه)، ذكاء نادراً ومن أكثر ما تيسرت لي معرفته اتساماً بالطابع الأدبي العفوي بمعنى أنه اكتسب أو تمثل، دونما ثقافة على الأرجح، وبمحض قراءة عجلية لبعض الكتب، أكثر قوالب اللغة براعة. ولما كان أكثر الناس مواهب ممن سبقت لي معرفتهم قد قضوا نحبهم في مقبيل العمر فقد كنت على يقين بأن حياته سوف تنقضي بسرعة. كان قلبه عامراً بالطيبة والشفقة وأكثر المشاعر رقة وكرماً.

وسرعان ما كف دوره في حياة «فرانسواز» عن كونه ضرورياً. فقد تعلمت كيف تتخطاه. كانت «فرانسواز»، حتى حينما يجيء بائع أو خادم يحمل إلينا رزمة، أي رزمة، كانت تستغل، فيما تبدو وكأنها لانهتم به وتشير فحسب بمظهر اللامبالي إلى كرسي وهي توالي عملها، اللحظات القليلة التي يقضيها في المطبخ في انتظار جواب أمي، على نحو حاذق حتى ليندر أن يعود دون أن يكون قد انغرس في نفسه على نحو لا يحكي اليقين بأنه «إن لم يتوافر لدينا فلأننا لانريد». ولكن كانت شديدة التمسك من جهة أخرى بأن يعلم الناس أننا نملك «من المال»، (إذ كانت تجهل ما يدعوه «سان لو» غير المعروف وتقول «أقننى من المال» و«جلب من الماء») فليس يعني ذلك أن الغنى فحسب، الغنى المجرد عن الفضيلة، هو الخير الأسمى في نظر «فرانسواز»، ولكن الفضيلة دون الثروة لم تكن هي الأخرى مثلها الأعلى. لقد كان الغنى بالنسبة إليها بمثابة شرط لازم تبدو الفضيلة بدونه مجردة من القيمة والفتنة. كانت تفصل بينهما قليلاً جداً إلى حد أنها كانت تضي في النهاية على كل منهما مزاي الآخر وتطالب ببعض الرفاه في الفضيلة وتتعرف شيئاً من الصلاح في

الغنى.

وما أن يتم إغلاق النافذة، وذلك بالسرعة الكافية (والا حكت لها أمي)، فيما يبدو، «جميع ما يمكن تصوره من شتائم»، حتى تشرع «فرانسواز» متنهدة في ترتيب طاولة المطبخ.

ويقول الخادم: «ثمة جماعة من آل «غيرمانت» لازالت في شارع «دو لاشيز» وكان لي صديق عمل هناك واستخدم بمثابة حوذي معاون. واني أعرف أحدهم، لا رفيقي إذ ذاك، بل صهره وكان قد أمضى خدمته في الجيش برفقة ذواق خمرة لدى البارون «غيرمانت». ويضيف الخادم: «عليك به على كل حال، فليس والدي!» وقد تعود أن يزرع أقواله بالمزحات الجديدة مثلما يدمدم أغنيات العام.

وتبينت «فرانسواز» بعينها المتعبتين، عيني المرأة التي تقدم بها السن، وكانت تبصران على أية حال كل شيء في «كومبريه»، تبينت في البعيد المبهم لا المزاح الذي تضمنته هذه الكلمات بل إنها لابد تتضمن مزاحاً لأنها لا تمت بصلة إلى تنمة الحديث وقد انطلقت قوية على لسان واحد تعلم أنه مزاح. ولذلك ابتسمت ابتسامة العطف والاعجاب الشديد وكأنها تقول: «فيكتور هذا لا يتغير!» على أنها كانت سعيدة لأنها تعلم أن سماع نكات من هذا القبيل إنما يرتبط من بعيد بتلك المتع الاجتماعية النظيفة التي يسارع المرء في طبقات المجتمع كافة إلى التبرج لها ويعرض نفسه للبرد. ثم انها تعتقد أن الخادم الخاص صديق لها فهو لا يتفكك يندد أمامها حانقاً بالإجراءات الرهيبة التي ترمع «الجمهورية» اتخاذها بحق الاكليروس^(١). و«فرانسواز» لم تكن بعد أدركت أن أشد خصومنا قسوة ليسوا أولئك الذين يخالفوننا القول ويحاولون اقناعنا بل الذين يضخمون أو يتدعون الأخبار التي يمكن أن نغتمنا فيما يحترسون تماماً من أن ينفقوا عليها صبغة تبريرة قد تقلل من غمنا وربما خلفت لدينا تقديراً طفيفاً لفريق يهمهم أن يبرزوه لنا فظيماً ومظفراً في آن معاً في سبيل عذاب نساه كاملاً.

وقالت «فرانسواز» وهي تستعيد الحديث من جماعة آل «غيرمانت» الذين في شارع «لاشيز» مثلما تستعاد مقطوعة موسيقية بدءاً من «الاندانتيه»: «لابد للدقة علاقات مصاهرة مع هذا النفر كله. ولست أعلم من قال لي أن أحدهم زوّج الدوق واحدة من بنات عمه. والكل من «الطينة» نفسها على أية حال». وتضيف باحترام: «إنها لأسرة عظيمة أسرة آل «غيرمانت»! وهي تبني عظمة تلك الأسرة على عدد أعضائها وبريق شهرتها مثلما يبنى «باسكال» حقيقة الدين على العقل وسلطان الكتب المقدسة. فقد كان يبدو لها، وهي لاتملك سوى كلمة «عظيم» للتعبير عن الأمرين، أنهما إنما يؤلفان أمراً واحداً إذ يعتور مفرداتها على هذا النحو، شأن بعض الحجارة الكريمة، عيب في ناحية منها يلقي غموضاً حتى في فكر «فرانسواز».

- «اتساءل إن لم يكونوا هم الذين يقوم قصرهم في «غيرمانت» على عشرة فراخ من «كومبريه»، ولا

(١) رجال الدين.

(٢) Andante تعني ببطء معتدل، وهي من العلامات التي تسهل قراءة النص الموسيقي أو عزفه.

بد إذ ذاك من قرابة أيضاً بينهم وبين ابنة عمهم في «ألجي»^(١). (وتساءلنا طويلاً أنا وأمّي من يمكن أن تكون ابنة العم في «ألجي» ولكننا أدركنا أخيراً أن «فرانسواز» كانت تعني باسم «ألجي» مدينة «أنجي». فما كان بعيداً يمكن أن يكون معروفاً لدينا أكثر مما هو قريب. و«فرانسواز» التي كانت تعرف اسم «ألجي» بسبب تمور شنيعة تصلنا في رأس السنة كان تجهل اسم «أنجي». كانت لغتها ترصعها الأخطاء على غرار اللغة الفرنسية نفسها ولا سيما أسماء البلدان فيها). «كنت أود أن أحدث رئيس خدمهم في ذلك». وتوقفت كمن يطرح على نفسه سؤالاً في أصول التشريفات: «كيف يدعونه باتري؟» وأجابت نفسها قائلة: «أجل، يدعونه أنطوان»؛ كما لو كان «أنطوان» لقباً. «كان باستطاعته هو أن يروي لي عن ذلك، ولكنه سيد حقيقي ومتحذلق كبير، لكأنما قص لسانه أو هو نسي أن يتعلم الكلام». وتضيف «فرانسواز»: «أنه حتى لا يجود بجواب حينما تكلمه»، وتقول «جاد بالجواب» مثل السيدة «دو سيفينييه». وأضافت دونما صدق: «ولكن، ما دمت أعلم ما ينضج في قدري فلا أهتم بقدر الآخرين. وكل ذلك ليس من الاستقامة في شيء على أي حال. ثم إنه ليس بالرجل الشجاع (وربما أمكن أن يحمل هذا التقدير على الظن بأن «فرانسواز» غيرت رأيها في البسالة التي تحط الرجال، حسيما كانت ترى في «كومبريه»، في مراتب الوحوش المفترسة، وما كان شيء من ذلك، فلفظة شجاع إنما كانت تعني المجّد فحسب). ويقول كذلك إنه لص كطائر العقق، ولكن ينبغي ألا نصدق الشائعات دوماً فجميع المستخدمين يمضون هنا، فيما يخص المحفل، والبوابون حساد يثيرون حفيظة الدوقة. إلا أنه يمكن القول إن «أنطوان» هذا عنوان الكسل وليست «انطوانيت» أفضل منه»، تضيف «فرانسواز» التي لا بد كانت تحفظ، بغية العثور لاسم «انطوان» على مؤنث يدل على امرأة رئيس الخدام، ذكرى لاواعية لخوري وخورية في ابتداعها القواعدي. وما كانت مخطئة في ما تقول فلا يزال ثمة بالقرب من كنيسة «نوتردام» شارع يسمى شارع الخورية، وهو اسم أطلقه عليه (إذ لم يكن يسكنه سوى الخوارنة) فرنسيو الأمم، وكانت «فرانسواز» تعاصرهم في الواقع. ثم يأتيك في الحال فضلاً عن ذلك مثال جديد على هذه الطريقة في صياغة أشكال المؤنث إذ تضيف «فرانسواز» قولها: «الأكيد الأكيد أن قصر «غيرمانت» للدوقة. فهي التي تشغل في المنطقة مركز السيدة «المختارية». وهو أمر ذو بال».

ويقول الخادم قول المتيقن إذ لم يكشف السخريّة: «بالطبع الأمر ذو بال».

— «أنظن يابني أن الأمر ذو بال؟ ولكن المختار والمختارية» في نظر جماعة مثلهم لايساويان فلساً واحداً. ولو كان قصر «غيرمانت» ملك يدي لما أبصرني الناس كثيراً في باريس. أفينبغي مع ذلك أن يجتمع لأسياد، لأشخاص يملكون كفايتهم مثل السيد والسيدة، أفكار غريبة كي يظلوا في هذه المدينة الحقيمة بدلاً من أن يذهبوا إلى «كومبريه» بما أنهم أحرار أن يفعلوا ولا يمنعه أحد. ما عساهم ينتظرون الاحالة على التقاعد بما انه لا ينقصهم شيء؛ أن يطويهم الموت؟ أه! لو توافر لذي خبز جاف آكله وحطب أستدفي به في الشتاء لكنت من زمان بعيد في منطقتي في بيت أخي البائس في «كومبريه». هناك يحس المرء على الأقل أنه يعيش، فليس أمامك كل هذه الدور والضجيج قليل إلى حد أنك تسمع الضفادع ليلاً وهي تغني من مسافة تزيد على الفرسخين».

«ويصرخ الخادم الشاب بحماسة كما لو كانت هذه الميزة الأخيرة لاصقة بـ «كومبريه» بقدر ما تميز الحياة في مراكب الغندول البندقية: «لا بد أن ذلك جميل حقاً ياسيدتي».

ولما كان فضلاً عن ذلك أقرب عهداً في المنزل من الخادم الخاص فقد كان يكلم «فرانسواز» في موضوعات يمكن أن تثير اهتمامها هي وليس اهتمامه. و«فرانسواز» التي كانت تبدي استمئزازاً حينما يضعونها موضع الطاهية كانت تحيط الخادم بالعطف الخاص الذي يديه بعض أمراء الدرجة الثانية إزاء الشبان السليمي الطوية الذين يكيلون لهم لقب المعالي.

«أنت تعرف على الأقل ما تفعل وفي أي فصل تعيش، فليس الأمر مثله ههنا حيث لا يثبت زر ذهبي بئس واحد في الفصح المقدس أكثر مما يثبت في البلاد ولا أميز حتى ناقوس صلاة خفيف حينما أرفع هيكلتي العظمي الهرم. أما هناك فسمع دقات كل ساعة؛ إنه جرس بئس فحسب ولكننا نقول في نفسك: «هو ذا أخي يعود من الحقل»، وترى نور النهار يتناقص ويقرع الناقوس من أجل خيرات الأرض ويحج متسعين من الوقت لتلتفت ورائك «للمذاق» مصباحك. أما هنا فيطلع النهار ويحل الليل وتذهب إلى فراشك ولا تستطيع حتى أن تقول، أكثر مما تفعل الحيوانات، ما الذي فعلت».

ويقاطعها الخادم الشاب الذي اتخذ الحديث حسب رأيه مجرى على شيء من الغموض والذي كان يذكر اتفاقاً أنه سمعنا نتحدث على المائدة عن «ميزيكليز» «بيدو ياسيدتي أن ميزيكليز أيضاً جميلة جداً».

وتقول «فرانسواز»: «آه! ميزيكليز»، بالابتسامة العريضة التي ترسم أبداً على شفيتها حينما ينطقون بأسماء «ميزيكليز» و «كومبريه» و«تانسونفيل». فقد كانت تؤلف جزءاً من حياتها الخاصة إلى حد أنها كانت تحس إذ تصادفها في الخارج وتسمعها في حديث بجذل يكاد يقارب ذاك الذي يعثه أستاذ في صفه إذ يلحق إلى شخصية معاصرة لم يحسب تلاميذه أن اسمها يمكن أن ينطلق في يوم من أعالي المنبر. وتأيتها متحتها كذلك من الإحساس بأن هذه المناطق بالنسبة إليها غير ما هي بالنسبة إلى الآخرين وأنها من أصحاب قدامى أقمن معهم الكثير من الحفلات، فكانت تبتسم لها كما لو تلفي لديها روحاً لأنها تلقى فيها الكثير من ذاتها.

وتعود تقول وهي تضحك ضحكة ناعمة: «أجل، تستطيع أن تقول ذلك يابني، إن «ميزيكليز» على قسط من الجمال، ولكن كيف اتفق لك أنت أن تسمع من يتحدث عن «ميزيكليز»؟».

ويجب بانعدام إجرامي في الدقة يتصف به ناقلو الأخبار الذين لا يدعون لنا في كل مرة نحاول فيها أن نتبين بموضوعية الأهمية التي يمكن أن يكتسبها في نظر الآخرين أمر يتعلق بنا، امكانية الإفلاح في ذلك: «كيف سمعت من يتحدث عن «ميزيكليز»؟ ولكن الأمر معروف تماماً لقد حدثوني عنها، بل حدثوني مراراً عديدة».

«آه! أقول لك إن الحياة أفضل ههنا تحت أشجار الكرز منها بالقرب من موقد المطبخ».

كانت تروي لهم حتى عن «أولالي» وكأنما عن شخصية طيبة. ذلك لأن «فرانسواز» نسيت تماماً منذ أن توفيت «أولالي» أنها قليلاً ما أحببتها في حياتها مثلما لا تحب أي شخص لا يملك ما يأكله في بيته

ويموت جوعاً ثم هو يبجي بعدها، شأن من لا يصلح لأمر، يتصنع في سلوكه بفضل طيبة الأغنياء. ولم يعد يؤلها أن عرفت «أولالي» حق المعرفة كيف تأخذ في كل أسبوع قطعة نقودها من عمتي.

أما فيما يخص هذه الأخيرة فلم تكن تكف «فرانسواز» عن انشاد فضائلها.

ويسأل الخادم الشاب قائلاً: «أفي كومبريه» نفسها كنت حينذاك لدى إحدى بنات عم السيدة؟

- «أجل لدى السيدة «أوكتاف». آه! يالها من امرأة قديسة يا أولادي المساكين، وكان لديها على الدوام ما يكفي وما لذ وطاب، امرأة طيبة، ذلك ما يمكن أن تقولوه، ولم تكن تشتكي الحجال، ولا التدرج ولا أي شيء وكان يمكن الحضور إلى العشاء بصحبة خمسة أو ستة ولم يكن اللحم ما يفتقد ومن النوع الأول، والنبيد الأبيض والنبيد الأحمر وكل ما يحتاج إليه. (كانت «فرانسواز» تستخدم الفعل «اشتكي» بالمعنى الذي يستخدمه فيه «لابروير»). كان كل شيء على نفقتها دوماً وإن مكثت الأسرة شهراً وسنوات. (ولم يكن في تلك الفكرة ما يسيء إلينا لأن «فرانسواز» كانت تنتمي إلى زمن لم تكن «النفقة» فيه مقصورة على اللغة القضائية وكانت تعني الانفاق فحسب). آه! أؤكد لك أنك ما كنت تمضي من هناك وبك جوع. ومثلما أبرز لنا السيد الكاهن مرات عديدة، إن كان ثمة امرأة يمكن أن تأمل في السكنى بجوار ربها فانما هي بالتأكيد. مسكينة سيدتي، لا أزال أسمعها تقول لي بصوتها الضعيف: «تدريين يا «فرانسواز»، أنا لا أكل، ولكنني أريد أن يبجي الطعام في مثل جودته بالنسبة إلى الجميع كما لو كنت أكل». بالتأكيد لم يكن الطعام من أجلها. لو رأيتها، لم تكن تزن أكثر من صندوق كرز، كأنما لا وجود لها. ولا تريد أن تصدقني ولا شاءت في يوم أن تذهب إلى الطبيب، آه! ما كان المرء هناك ليأكل شيئاً على جناح السرعة. وتريد أن يكون خدماها حسني التغذية. أما ههنا فلم يتوافر لنا في هذا الصباح كذلك مجرد الوقت للافطار، وكل شيء يتم على عجل».

كان يشير حنقها على وجه الخصوص قطع الخبز المحمص الذي يأكله والدي، وكانت على يقين أنه يستخدمها بغية التصنع وكيفا يشغلها. ويصادق الخادم الشاب قائلاً: «يمكنني القول أنني لم أر ذلك في يوم!» كان يقول وكأنما رأى كل شيء وامتدت في داخله جذور تجربة سحيقة إلى جميع البلدان وإلى عاداتها ولا تبرز ضمنها البتة عادة الخبز المحمص. ويغمغم رئيس الخدم قائلاً: «أجل، أجل ولكن كل ذلك يمكن أن يتبدل فالعمال يزعمون القيام باضراب في كندا وقد قال الوزير في ذلك المساء لسيدي انه قبض في هذا السبيل مائتي ألف فرنك». وما أبعد أن يذمه رئيس الخدم لذلك، لا لأن هذا الأخير لم يكن شريفاً تماماً، ولكننا بحسب جميع رجال السياسة غير شرفاء فتبدل له جريمة الرشوة أقل وزناً من أدنى جرم سرقة. ما كان حتى يتساءل إن هو أحسن سماع هذه العبارة التاريخية ولا تدهشه استحالة أن يكون المذنب نفسه قد قالها لوالدي دون أن يطرده. ولكن فلسفة «كومبريه» كانت تحول دون أن تستطيع «فرانسواز» توقع أثر لاضرابات كندا على استعمال الخبز المحمص. كانت تقول: «تري، ما دام العالم عالماً فيكون ثمة أسياد يحملوننا على الجري وخدم لتنفيذ نزواتهم». وعلى الرغم من نظرية الجري المستمر هذا فقد أخذت أمي تقول منذ ربع ساعة، وما كانت على الأرجح تستخدم ما تستخدمه «فرانسواز» من وحدات قياس لتخمين طول غداء هذه الأخيرة:

«ولكن ماذا يمكنهم أن يفعلوا، لقد انقضى أكثر من ساعتين وهم على مائدة الطعام». وتقرع الجرس قرع المتهيب ثلاث مرات أو أربعا. كانت «فرانسواز» تسمع وخادمها ورئيس الخدم ضربات الجرس الصغير لاهتابة دعوة ودون التفكير بالهجيء ولكن بمثابة النغمات الأولى للآلات التي تتوافق حينما ترمع حفلة موسيقية على معاودة البدء وتحس أن لن يكون من بعد أكثر من بضعة دقائق للاستراحة. ولذلك كان خدما، حينما تشرع الضربات في التواتر وتضحى أكثر ألحاحاً، كانوا يأخذون في التنبه لها وإذ يقدر أن أنه لم يعد أمامهم الكثير من الوقت وأن معاودة العمل أضحت قريبة كانوا يطلقون زفرة لدى قرع الجرس الصغير قرعاً أشد رنيناً من سواء ويحزمون أمرهم وينزل الخادم الخاص لتدخين سيكارة أمام الباب، وتصد «فرانسواز»، بعد بضعة ملاحظات حولنا من مثل «لم يعودوا بالتأكيد يستطيعون المكوث في مكانهم» لترتب حوائجها في طابقها السادس ويأدر رئيس الخدم بعدما مضى لجلب ورق للمراسلات في غرفتي إلى الإسراع في إرسال مكاتباته الخاصة.

وقد استطاعت «فرانسواز» أن تطلعني، منذ الأيام الأولى، أن آل «غير مانت» على الرغم من هيئة رئيس خدمهم المتفطرة ما كانوا يسكنون فندقهم بموجب حق يعود إلى أقدم العهود، بل بموجب إيجار قريب العهد وأن الحديقة التي يطل عليها من الجانب الذي لم أكن أعرفه، على قدر من الضيق وتشبه جميع الحقائق الملائمة. وعلمت أخيراً أنك لا تبصر فيها لامشقة سيدة ولا طاحونة محصنة، ولا ترساً بشعار ولا برج حمام على أعمدة ولا فرناً اقطاعياً ولا هرباً يتوسطه صحن ولا حصناً صغيراً ولا جسوراً ثابتة أو متحركة ولا حتى معابر ولا ممرات مأجورة ولا مسلات ولا صكوكاً جدارية أو رجوماً تذكارية. ولكن مثلما أعاد «أيلستير» دفعة واحدة إلى خليج «بالبيك»، حينما فقد سره الدفين فأضحى في نظري جزءاً، أي جزء يمكن أن يستبدل به آخر سواء، من كميات المياه المالحة الكائنة على سطح الكرة، شخصية متفردة إذ قال لي إنه خليج «ويستلر» ذو اللون اللبني في تناسق ألوانه التي من زرقة الفضة. كذلك شهد اسم «غير مانت» آخر منزل تحدر منه يلفظ أنفاسه تحت ضربات «فرانسواز» حينما قال لنا ذات يوم صديق قديم لوالدي وهو يتحدث عن الدوقة: «إنها تتمتع بأعظم منزلة في حي «سان جيرمان» وتملك أول بيت في حي «سان جيرمان». شيء يسير جداً في مقابل المنازل الأخرى التي حلمت بها على التوالي. ولكن هذا البيت أيضاً، ولابد أنه الأخير، كان يملك أمراً يولف، مهما بلغ من الانضاع، سمة متميزة تتجاوز مادته الخاصة.

وكانت ضرورة إمكان البحث في منتدى السيدة «دو غيرمانت» وبين أصدقائها عن سر اسمها تتزايد بقدر ما كنت لا أجده في شخصها حينما كنت أبصرها تخرج سيراً على الأقدام في الصباح وبعد الظهر في عريتها. صحيح أنه سبق في كنيسة «كومبريه» أن بدت لي، في ومضة استحالة، بوجنتين لا يمكن ردهما، لا يمكن نفاذهما إلى ألوان اسم «غيرمانت» والعشيات على ضفاف نهر «فيفون»، بدت بدلاً من حلمي المحطم، بمثابة تم أو صفصافة تحوّل بهما إله أو حورية وسوف ينساب مذ ذاك، وقد أخضعت قوانين الطبيعة، على الماء أو تهبها الريح. بيد أنني ما كدت أهبجها حتى عادت تلك الومضات المتلاشية تتشكل مثلما التماعات الشمس الغاربة الوردية والخضراء خلف المجذاف الذي بددها وسرعان ما تم للاسم في وحشة فكري أن يملك ذكرى الوجه. ولكنني غالباً ما كنت أراها الآن إلى نافذتها وفي الباحة وفي الشارع، ولئن كنت لا أفصح أنا في

دمج اسم «غيرمانت» في شخصها وفي التفكير بأنها السيدة «دو غيرمانت» فقد كنت أنهم بذلك عجز فكري عن المضي حتى نهاية الفعل الذي كنت أطلبه منه. أما هي، وأقصد جارتنا، فقد كان يبدو أنها ترتكب الخطأ نفسه، وأنها أكثر من ذلك ترتكبه دونما ارتباك وبدون أي من مخاوفي وحتى دون أن يخامرها شك بأن ثمة خطأ. من ذلك أن السيدة «دو غيرمانت» كانت تبدي في فساطينها الاهتمام نفسه في مجارة الزي السائد كما لو حسبت أنها أضحت امرأة كالآخرات فصبت إلى هذه الاناقة في اللباس التي تستطيع نساء، أي نساء، أن يساوئنها فيها وربما أن يتفوقن عليها. فقد رأيتها في الشارع تنظر باعجاب إلى مثلة حسنة اللباس، وفي الصباح كنت أستطيع أن أراها، لحظة ترمع الخروج سيراً على الأقدام، تقف أمام المرأة، كما لو أمكن أن يكون رأى المارة الذين كانت تبرز سوقيتهم إذ تنقل ببساطة بينهم حياتها المغلقة دونهم مجلس قضاء بالنسبة إليها فتؤدي دور المرأة الأنيقة هذا الذي يقع دون مستواها بكثير باقتناع خلو من ازدواج الشخصية والسخرية، بشغف ونزق واعتزاز كملكة قبلت تمثيل دور الوصيفة في ملهاة كتبت للبلاط؛ وفي إغفال أساطيري لعظمتها الفطرية كانت تنظر إن كان برقعها مالمساً تماماً وتبسط كميها وتسوي معطفها مثلما يصنع التمس السماوي سائر حركات بني جنسه الحيواني ويحفظ بعينيه المرسوميتين على جانبي منقاره دون أن يحملها نظرات ويرتمي فجأة على زر أو شمسية ارتماء تم دون أن يذكر أنه إله. ولكن مثلما يقول المسافر في نفسه، وقد خيب أمله أول مشهد للمدينة، أنه ربما نفذ إلى سحرها بزيارة متاحفها وبالتعرف إلى شعبها وبالعمل في المكتبات، كنت أقول في نفسي أنه إن تم استقبالي في منزل السيدة «دو غيرمانت» وكنت من أصدقائها ونفدت إلى حياتها فسأعلم ما الذي يتضمنه اسمها حقيقة وموضوعياً في نظر الآخرين تحت غلافه البرتقالي اللامع إذ سبق أن قال صديق والدي إن وسط آل «غيرمانت» نسيج وحده في حي «سان جيرمان».

كانت الحياة التي افترض أنهم يعيشونها فيه مستمدة من مصدر شديد الاختلاف عن التجربة ويبدو لي أنها لا بد خاصة إلى الحد الذي ما كنت لأفصور معه وجود أشخاص سبق أن ترددت عليهم فيما مضى. أشخاص حقيقيين في أمسيات الدوقة. فلعلهم إذ لا يستطيعون أن يبدلوا في طبيعتهم تبديلاً فجائياً كانوا سيتفوهون هناك بأقوال شبيهة بتلك التي كنت أعرفها، وربما تواضع رفقاؤهم فأجابوهم باللغة البشرية نفسها، وكان ثمة في أثناء أمسية في أول منتدى من حي «سان جيرمان» لحظات ماثلة للحظات سبق أن عشتها، ولأمر مستحيل. صحيح أن فكري كان مربكاً من جراء بعض الصعوبات وما كان حضور جسد يسوع المسيح في القربان المقدس ليبدو لي سراً أكثر غموضاً من المنتدى الأول في الحي الواقع على الضفة اليمنى والذي كان يمكنني سماع نفثه في الصباح من غرفتي، ولكن الخط الفاصل الذي كان يفصل بيني وبين حي «سان جيرمان» ما كان ليبدو لي، مع أنه خيالي فحسب، إلا أكثر حقيقة. كنت أحس أن ممسحة آل «غيرمانت» المحدودة في الجانب الآخر من خط الاستواء ذاك والتي تجرأت والدي، بعدما لحتها مثلي، أن تقول في يوم كان بابهم فيه مفتوحاً إنها في حالة سيئة جداً، كنت أحس تماماً أنها طلائع الحي. وكيف لا يبدو لي على أية حال أن قاعة طعامهم وصالتهم المظلمة بأثاثها الذي من قماش أحمر طويل الخملة والذي كنت أستطيع مشاهدته أحياناً من نافذة مطبخنا، كيف لا يبدو لي أنهما يملكان السحر الخفي الكامن في حي «سان جيرمان» وأنهما يؤلفان جزءاً أساسياً فيه ويتخذان موقعهما الجغرافي فيه بما أن استقبال المرء في قاعة الطعام هذه إنما يساوي الذهاب إلى حي «سان جيرمان» واستنشاق هوائه إذ إن الذين كانوا يجلسون إلى جانب

السيدة «دو غير مانت» على الأريكة الجلدية في الصالة قبل الذهاب إلى مائدة الطعام إنما كانوا جميعاً من حي «سان جيرمان»؟ وما من شك أنه كان يمكن أن ترى أحياناً في غير هذا الحي وفي بعض الأسسيات أحد هؤلاء الرجال يتربع وسط دهماء من عامة الأنيقين، هؤلاء الرجال الذين هم محض أسماء ويتخذون، حينما يحاول المرء تمثلهم، شكل مباراة تارة وطوراً شكل غابة مقطعة. أما هنا وفي المنتدى الأول في حي «سان جيرمان»، في الصالة المظلمة، فليس ثمة سواهم. لقد كانوا الأعمدة التي تحمل المبد ومن مادة ثمينة. وما كانت السيدة «دو غير مانت» تستطيع اختيار مدعوها حتى في اجتماعات الآلاف إلا من بينهم، وكانوا يشبهون في حفلات العشاء التي تضم اثني عشر شخصاً، وقد تخلقوا حول المائدة الممدودة، تماثيل الرسل الذهبية في «الكنيسة الصغرى»، وهم أعمدة رمزية وقدسية، أمام المائدة المقدسة. وكيف لا أحسب، فيما يخص الحديقة الصغيرة التي كانت تمتد بين أسوار عالية خلف الفندق وحيث كانت السيدة «دو غير مانت» صيفاً تأمر بعد العشاء بتقديم المشروبات الروحية وشراب البرتقال، أن الجلوس ما بين التاسعة والحادية عشرة مساءً على كراسيها الحديدية- التي تتمتع بسلطان في مثل قوة الأريكة الجلدية- دون استنشاق الأنسام الخاصة بحي «سان جيرمان» في الوقت نفسه في مثل استحالة القيلولة في واحة «فيقيق»^(١) دون أن تكون لذلك في أفريقية؟ ليس سوى الخيال والظن بمقدورهما أن يميزا عن الأمور الأخرى بعض الأشياء وبعض الكائنات وينشأ جواً. وربما لم يتأت لي في يوم، وأأسفي، أن أضع قدمي بين هذه المواقع البديعة والعوارض الطبيعية والغرائب المحلية والقطع الفنية في حي «سان جيرمان». فكنت أكتفي بالعرشة وأنا ألمح من عرض البحر (دونما أمل في بلوغ الشاطئ يوماً) ممسحة الشاطئ البالية وكأنني بها مئذنة متقدمة، وكأنما نخلة أولى، وبداية الصناعة أو النباتات الغريبة.

ولكن كانت حدود فندق «غير مانت» تبدأ، فيما يخصني، عند باب ردهته، فلا بد أن ملحقاته كانت تمتد إلى أبعد بكثير حسبما يرى الدوق الذي كان يعد جميع المستأجرين مزارعين وقرويين ومتملكين على أراضي للدولة من لا يحسب لرأيهم حساب فكان يخلق ذقنه في الصباح أمام نافذته وهو في قميص النوم ويتنزل إلى الباحة حسبما ينال منه الحر كثيراً أو قليلاً بالقميص أو البيجاما أو سترة سكوتلندية نادرة الألوان طويلة الزغب أو بمعاطف صغيرة فاتحة أقصر من سترته فيما يركض أحد سؤاسه أمامه حصاناً جديداً سبق أن ابتاعه وهو يقبض على مقوده. وبلغ بالحصان أكثر من مرة أن أثلف واجهة «چوييان» الذي أثار حفيظة الدوق إذ طالب بالتعويض. كان السيد «دو غير مانت» يقول: «لكن لم نأخذ في حسابنا غير ما تفعل السيدة الدوقة من خير في الدار وفي الرعية فإنه من الخزي أن يطالبنا هذا المجهول بشيء». ولكن «چوييان» صمد وبدأ كمن لا يعرف إطلاقاً أي «خير» صنعتته الدوقة في يوم. بيد أنها كانت تفعل الخير، ولكن بما أنه لا يتسنى للمرء أن يشمل به كل الناس فإن ذكر إغداقه على هذا سبب في حجه عن ذاك الأمر الذي يثير لديه قدراً متزايداً من الاستياء. وما كان الحي يبدو للدوق على أية حال، من وجهات نظر غير وجهة عمل الخير، سوى امتداد لباحته وحلبة أكثر اتساعاً لجياده- وذلك إلى مسافات كبيرة- فبعدما كان يشهد كيف يجري جواد جديد وحده كان يأمر بشده إلى عربة وبأن يجتاز جميع الشوارع المجاورة فيما السائس يجري بجوار العربة وهو يمسك

(١) Figuig من مدن المغرب.

بالعنان ويمر به، ويعيد الكرة، أمام الدوق الذي توقف على الرصيف منتصب القامة عملاقاً ضخماً بثياب فاتحة وفي فمه سيكار، شارد الرأس فضولي النظرة حتى اللحظة التي كان يقفز فيها إلى المقعد ويقود الجواد بنفسه ليحجبه ويذهب في العرية الجديدة لملاقاة عشيقته في مجلة «الشانزليزيه». كان السيد «دو غيرمانت» يحيي في الباحة أسرتين اثنتين لاصقتين إلى حد ما بعالمه: فأسرة من أبناء عم له لا تمكث قط في المنزل، شأن أسر العمال، للاهتمام بالأطفال لأن الزوجة كانت تمضي منذ الصباح إلى «المدرسة» لتتعلم الطباخ الموسيقي وتقنية التتابع ويمضي الزوج إلى مشغله ليقوم بالحفر على الخشب ويضع الجلود النافرة. ثم البارون «دو نوربوا» والبارونة اللذان كانا يخرجان عدة مرات في اليوم للذهاب إلى الكنيسة، وهما أبداً في ثياب سوداء، الزوجة بأثواب مؤجرة الكراسي والزوج بأثواب دافني الموتى. كانا من أبناء أشقاء السفير السابق الذي كنا نعرفه والذي سبق أن التقى به والذي تحت قطرة الدرج ولكن دون أن يفهم من أين جاء. ذلك أن والدي كان يحسب أن شخصاً في مثل رفعة شأنه كان على علاقة مع أكثر رجال أوروبا شهرة ولا يبالى على الأرجح بالامتيازات الارستقراطية الفارغة ما كان ربما يتردد على هؤلاء النبلاء المغموين المناصرين للاكليروس المحدودين. كانا يسكنان البيت منذ وقت قليل. وكان «جويان» قد جاء ليقول كلمة في الباحة للزوج وهو يحيي السيد «دو غيرمانت»، فدعاه «السيد نوربوا» لأنه لا يعلم بالضبط اسمه.

وصاح السيد «دو غيرمانت» وهو يلتفت صوب البارون: «آه! السيد «نوربوا»! تلك لقية بالحقيقة! صبرك! عما قليل يدعوك هذا الفرد المواطن «نوربوا»! كان بمقدوره أخيراً أن يصب جام غضبه على «جويان» الذي كان يقول له «ياسيد»، لا «ياسيدي الدوق».

وفي يوم كان السيد «دو غيرمانت» فيه بحاجة إلى معلومات تتعلق بمهنة والدي قدم نفسه بنفسه بكثير من الظرف. وكثيراً ما أتفق له منذ ذاك أن تكون لديه خدمة حسن جوار يطلبها منه، وما أن يبصره الدوق نازلاً على الدرج، وهو يفكر بعمل ما ويرغب في تجنب أي لقاء حتى يترك القائمين على اسطبلاته ويقبل على والدي في الباحة ويرتب ياقة معطفه وبه هذا الاندفاع إلى خدمة الآخرين الذي يتسم به خدام الملك السالفون، ويأخذ يده فيحفظ بها في يده، بل يداعبها كي يبرهن له بقلة حياء الخلائل أنه لا يبخل عليه بملامسة لحمه الثمين ويصعبه مخفورا، وهو مرتبك إلى حد بعيد ولا يفكر إلا في النجاة، إلى ما بعد الباب الكبير. وكان قد حيانا تحيات واسعة في يوم التقى بنا فيه لحظة كان خارجاً في العرية بصحبة زوجته. لا بد أنه قال لها اسمي، ولكن أي احتمال كان ثمة أن تكون تذكرته أو تذكرت وجهي؟ ثم ما أبخسها توصية أن يشار إليّ فقط على أنني واحد من مستأجريه! ولعل ما كان يفوقه أهمية أن التقى بالدوقة في منزل السيدة «دو فيلباريزيس» التي اتفق أن طلبت إليّ بلسان جدتي أن أذهب للقاءها وقد أضافت، إذ علمت أنني كنت قد اعتزمت ممارسة الأدب، أنني سوف التقى في منزلها بكتاب. إلا أن والدي كان يرى أنني لأزال حديث، السن لا رتياد المجتمع، ولما كانت حالتي الصحية لاتزال تقلقه فلم يك مهتما في توفير فرص غير ذات جدوى لنزهات جديدة.

ولما كان أحد خدام السيدة «دو غيرمانت» يتحدث كثيراً إلى «فرانسواز» فقد سمعت أسماء بعض المنتديات التي كانت تذهب إليها ولكنني كنت لا أتمثلها: أفلم تكن تستعصي على التصور بما أنها تؤلف جزءاً من حياتها، حياتها التي ما كنت أراها إلا من خلال اسمها؟.

كان الخادم يقول: «تقام هذا المساء أمسية كبيرة لاختيلة الظل في منزل أميرة «بارما»، ولكننا لن نذهب لأن سيدتي تستقل في الساعة الخامسة قطار «شانتيني» لتذهب لقضاء يومين لدى دوق «أومال»، بل تذهب الوصيفة والوصيف. أما أنا فأبقى هنا. لن يسر ذلك أميرة «بارما»، فقد كتبت أكثر من أربع مرات إلى سيدتي الدوقة.»

- «لن تذهبوا من بعد إذن إلى قصر «غيرمانت» في هذا العام؟»

- «إنها المرة الأولى التي لن تكون فيها هناك: فقد منع الدكتور أن نعود إلى هناك قبل أن تتوافر تدفئة بسبب ما يعاني سيدتي الدوق من آلام رئوية، ولكننا قبل ذلك كنّا نقيم هناك في كل عام حتى كانون الثاني. وإن لم تجهز التدفئة فربما ذهبت سيدتي بضعة أيام إلى «كان» إلى منزل الدوقة «دوغيز»، ولكن الأمر ليس مؤكداً بعد.»

- «والمسرح هل تذهبون إليه؟»

- «نذهب مرات إلى الأوبرا، ومرات إلى أمسيات اشتراك أميرة «بارما»، وتقع كل ثمانية أيام. ويبدو أن ما يشاهد غاية في الأناقة: فهناك مسرحيات وأوبرا وما شئت. لم تشأ سيدتي الدوقة أن تشترك، ولكننا نذهب إلى هناك مع ذلك، مرة في مقصورة صديقة لسيدتي، وثانية في مقصورة أخرى وغالباً في مقصورة أميرة «غيرمانت» الخاصة، وهي زوجة ابن عم سيدتي الدوق. إنها شقيقة دوق «فافير».. ثم يقول الخادم الذي كان يحمل عن «الموالي» بعامة مفهوماً سياسياً يسمح له بمعاملة «فرانسواز»، على الرغم من أنه صار مثيل آل «غيرمانت»، بمثل الاحترام الذي يعاملها به لو أنها في خدمة دوقة: «وتصعدين على هذا النحو إلى البيت، إنك تتمتعين بصحة جيدة ياسيدتي.»

- «آه! لولا هاتان الساقان اللعيتان! وفي السهل لا يزال الأمر على ما يرام (والسهل كان يعني الباحة، الشوارع التي لا تكثره «فرانسواز» التنزه فيها، الأرض المنبسطة باختصار القول) ولكنها تلك الأدراج الشيطانية. إلى اللقاء ياسيد، ربما أمكن أن نراك أيضاً هذا المساء.»

كان يزيد من رغبتها في التحدث أيضاً إلى الخادم أنه أعلمها أن أبناء الدوقة غالباً ما يحملون لقب أمير يحتفظون به إلى حين وفاة والدهم. وما من شك أن التعلق بطبقة النبلاء الذي يمتزج بشيء من روح الثورة ضدها وينسجم معها لأبد، وهو مستمد بالوراثة من أراضي فرنسه، أن يكون قوياً في نفس شعبها. ذلك أن «فرانسواز» التي كان يمكن أن يتحدثها عن نبوغ نابليون أو اللاسلكي دون أن تغلح في لفت انتباهها ودون أن تبطل لحظة واحدة الحركات التي تستخرج بها الرماد من الموقد أو تعد المائدة، كانت تصرخ قائلة، إن أحيطت علماً فحسب بهذه الخصائص وبأن ابن دوق «غيرمانت» الأصغر كان يدعى بعامة أمير «أولبيرون»: «ذلك جميل!» وتظل مفتونة وكأنما أمام زجاج ملون.

وقد عرفت «فرانسواز» أيضاً على لسان وصيف أمير «أغريجان» الذي ربطته بها أواصر الصداقة من جراء مجيئه المتكرر ليحمل رسائل إلى منزل الدوقة أنه كثيراً ما سمعهم بالفعل يتحدثون في المجتمعات عن

زواج المركيز «سان لو» من الأنسة «داميروساك» وأن الأمر يكاد يكون مقرراً.

ما كانت تبدو لي تلك الدارة وتلك المقصورة اللتان تنقل السيدة «دو غيرمانت» حياتها إلى داخلهما أماكن أقل روعة من جناحها. كانت أسماء «بارما» و«غيرمانت بافييرو» و«غيز» تميز عن كل ما عداها أماكن الاصطياف التي تقصدها الدوقة والاحتفالات اليومية التي تربط فندقها بخط سير عربتها. ولئن كانت تنقل إلي أن حياة السيدة «دو غرمانت» إنما تتكون على التوالي من أماكن الاصطياف تلك، وتلك الاحتفالات فلم تكن تحمل إلي أي أيضاً حولها. كان كل واحد يضيفي على حياة الدوقة تحديداً مختلفاً ولكنه يقتصر على تبديل سرّها دون أن يسمح بتسريب شيء منه فيبدل من مكانه فحسب وقد احتفى نخلف حاجز واحتبس داخل إناء وسط أمواج حياة سائر الناس. كان بمقدور الدوقة أن تتناول طعام الغداء أمام البحر المتوسط في فترة الكرنفال، ولكن في دارة السيدة «دو غيز» حيث تستحيل ملكة المجتمع الباريسي بفسطانها الذي من قماش مدرّج أبيض، وسط العديد من الأميرات، محض مدعوة شبيهة بالأخريات، وهي بذلك أشد تأثيراً في نفسي وألفظ بذاتها لما تتجدد كنجمة رقص تقبل، في طرافة خطوة، لتحتل على التوالي مكان كل من الراقصات أخواتها. كان بمقدورها أن تشاهد أخيلة الظل ولكن في أمسية لأميرة «بارما»، وأن تشهد المأساة أو الأوبرا، ولكن في مقصورة أميرة «غيرمانت».

ومثلما نحدد في جسم شخص ما موقع جميع احتمالات حياته وذكر الأشخاص الذين يعرفهم والذين فارقهم منذ قليل أو يزعم اللحاق بهم، كنت، إن بلغني على لسان «فرانسواز» أن السيدة «دو غيرمانت» ستذهب سيراً على الأقدام للغداء في منزل أميرة «بارما» ورأيتها قرابة الظهر تنحدر من منزلها بفسطانها الذي من الساتين الزهري الفاتح ووجهها الذي من فوقه يماثل لونه، كسحابة في الشمس الغاربة، كنت أبصر جميع مباحج حي «سان جيرمان» يجتمع أمامي داخل هذا الحجم الصغير، وكأنما داخل محارة، بين هذين المصراعين اللامعين اللذين بلون الصدف الوردي.

كان لوالدي صديق في الوزارة يدعى «أ. ج. مورو» حرص أبداً، بغية التمييز عن سواه من آل «مورو»، أن يسبق اسمه هذان الحرفان البديهيان حتى كان يدعى اختصاراً «أ. ج.» ولست أدري كيف اتفق لـ «أ. ج.» هذا أن يحوز مقعداً لأمسية احتفالية في الأوبرا، وقد بعث به إلى والدي، ولما كانت «لاييرما» التي لم أرها تمثل منذ خيبة ألمي الأولى تزمع تمثيل فصل من رواية «فيدر»، فقد أفلحت جدتي في أن يعطيني والدي ذلك المقعد.

كنت والحق يقال لا أولي أي اهتمام امكانية سماع «لاييرما»، هذه التي أثارت في نفسي منذ بضع سنوات خلعت الكثير من الاضطراب. ولم ألاحظ لامبالاتي بما سبق أن فضله بالأمس على الصحة والراحة دونما اكتئاب. وليس يعني ذلك أن رغبتني في استطاعة تأمل عن كتب لأجزاء صغيرة ثمينة من الواقع الذي كان يستشفه خيالي كانت أقل حماسة منها بالأمس. ولكن خيالي لم يعد يضعها الآن في إلقاء مثله كبيرة. فلقد صبيت، منذ زيارتي إلى منزل «ابليستير»، على بعض صنوف السجاد، على بعض اللوحات الحديثة، الثقة الداخلية التي محضتها بالأمس هذا التمثيل وهذا الفن لدى «لاييرما». وإذ أضحي إيماني، إذ أضحي اشتياقي لا يحيط إلقاء «لاييرما» ووقفاتها من بعد بالإجلال المتصل فقد أخذ «الصنو» الذي كنت أحمله عنها داخل

فؤادي يهزل شيئاً فشيئاً كنتلك «الأصناء» الأخرى لأموات مصر القديمة التي كان ينبغي أن تغذى باستمرار للحفاظ على حياتها. لقد أصبح ذلك الفن زهيداً وهزياً وما من روح باتت تسكن أعماقه من بعد.

في اللحظة التي كنت أصعد فيها درج الأوبرا الكبير مفيداً من البطاقة التي تسلمها والدي، لحت أمامي رجلاً حسبته بادئ الأمر السيد «دو شارلوس»، وكان له مظهره. وحينما أدار رأسه ليستوضح أحد المستخدمين أدركت أنني أخطأت ولكنني لم أتردد مع ذلك في وضع المجهول في الطبقة الاجتماعية نفسها لا استناداً إلى الطريقة التي يكتسي بها فحسب، بل كذلك إلى الطريقة التي كان يكلم بها المراقب والعملات اللواتي يطلبن إليه الانتظار. ذلك لأنه كان لا يزال ثمة في ذلك الزمن فارق واضح تماماً، على الرغم من الخصائص الفردية، بين أي رجل أنيق وغني من هذا القسم من الارستقراطيين وبين أي رجل أنيق وغني من دنيا المال أو الصناعة الكبرى. فحينما ظن أحد هؤلاء أنه يؤكد أناقته بلهجة قاطعة مستكبرة إزاء من كان أدنى منه بدا السيد الكبير الدمث البشوش وكأنما يعتبر، كأنما يتعاطى اصطناع التواضع وطول الأناة والتظاهر بأنه واحد، أي واحد، من النظارة على أنها امتياز لجودة تربيته. ومن المرجح أن الكثير من أبناء أصحاب المصارف الموسرين لو دخلوا المسرح في تلك اللحظة لعدوا هذا السيد الكبير، إذ يروونه يخفي على هذا النحو خلف ابتسامة تنضج بالبساطة العتية المحرمة للعالم الخاص الصغير الذي يحمله في داخله، رجلاً هيناً لو لم يلفوا لديه شبهة مدهشة بالرسم الذي نشرته الصحف المصورة منذ فترة قريبة لابن شقيق الامبراطور النمسا هو أمير «ساكس»، وكان في باريس في ذلك الوقت بالضبط. كنت أعلم أنه صديق كبير لآل «غيرمانت». ولما وصلت بنفسني بالقرب من المراقب سمعت أمير «ساكس». أو من يفترض أنه كذلك، سمعته يقول مبتسماً: «لست أعرف رقم المقصورة وإنها ابنة عمي التي قالت لي إنه لا يقع عليّ سوى السؤال عن مقصورتها».

ربما كان أمير «ساكس» ؛ وربما كانت دوق «غيرمانت» (وقد أستطيع في هذه الحالة مشاهدتها وهي تعيش إحدى لحظات حياتها التي تمتنع على الخيال في مقصورة ابنة عمها) من كانت عيناه تبصران بالفكر حينما يقول: «ابنة عمي التي قالت لي إنه لا يقع عليّ سوى السؤال عن مقصورتها»، حتى أن هذه النظرة الباشة الخاصة وتلك الكلمات البسيطة أشد البساطة كانت تدغدغ فؤادي (أكثر بكثير مما قد يفعل احتلام مجرد) بهوائيات تتناول ما بين سعادة ممكنة وبجاه غير مؤكد. ولكنما كان على الأقل، إذ يقول تلك الجملة للمراقب، يصل بين أمسية عادية في حياتي اليومية وعبور ممكن إلى عالم جديد. كان الممر الذي دلوه عليه، بعدما لفظ كلمة «مقصورة»، والذي مضى فيه، كان رطباً مصدعاً يبدو وكأنما يقود إلى مغائر بحرية، إلى مملكة جنيات المياه الأساطيرية. لم يكن أمامي سوى سيد بلباس رسمي آخذ في الابتعاد، ولكنني كنت أنقل بالقرب منه، وكأنما بكاشف ضوئي غير حاذق ودون أن أفلح في تركيزه عليه بدقة، الفكرة القائلة بأنه أمير «ساكس» وهو في طريقة للقاء دوق «غيرمانت». ومع أنه كان وحده فقد كانت تلك الفكرة الخارجة عنه اللاملموسة الشاسعة المتقطعة كرشق أضواء تبدو وكأنما تتقدمه وتقوده كنتلك الآلهة اللامرئية بالنسبة إلى بقية البشر والتي تقف بالقرب من المحارب اليوناني.

انجذبت إلى مقعدي وأنا أحاول العثور على بيت من مسرحية «فيدر» لم أكن أذكره بدقة. ما كان يحوي، على نحو ما أنشدته لنفسني، عدد المقاطع المطلوب، بيد أنه كان يبدو لي، وأنا لا أحاول عدها، أن ليس

بين اختلال وزنه والبيت الكلاسيكي من سبيل إلى المقارنة. وما كان ليدهشني أن ينبغي طرح أكثر من ستة مقاطع من هذه الجملة الشوهاء كيما نؤلف منها بيتاً بائني عشر مقطعاً. ولكنني ذكرته فجأة فزالت كفضل السحر جميع مواطن الوعورة اللامتألفة من عالم غير إنساني، وملأت مقاطع البيت في الحال مقاس البحر الاسكندري^(١) وانقشع ما كان زائداً منه بمثل السهولة والمرونة اللتين تنقشع بهما فقاعة هواء تقبل لتضمحل على صفحة الماء. وبالفعل لم تكن الفظاعة التي كافحت ضدها سوى مقطع واحد فحسب.

كان عدد من مقاعد الصالة قد بيع في المكتب فابتاعه متحلقون أو فضوليون ينفون مشاهدة أناس ربما ما توافرت لهم فرصة أخرى لرؤيتهم عن كذب. والحقيقة أن ما كان يمكن مشاهدته على رؤوس الأشهاد إنما كان بعضاً من حياتهم الاجتماعية الحققة، ذلك لأن أميرة «بارم» وضعت بنفسها ما بين أصدقائها المقصورات والشرفات والمقصورات الخاصة فأضحت القاعة وكأنها صالة يغير كل فيها مقعده ويمضي للجلوس عنها أو هناك بالقرب من إحدى الصديقات.

وكان إلى جانبي أناس من العامة شأووا، وهم لا يعرفون المشتركين، أن يظهروا أنهم قادرون على التعرف إليهم فأخذوا يجهرن باسمائهم. ويضيفون أن هؤلاء المشتركين إنما يجيئون هنا وكأنما إلى صاليتهم ومرادهم أن يقولوا بذلك أنهم لا يعمرون المسرحيات المعروضة انتباهاً. وإنما العكس ما كان يجري. فالطالب العبقري الذي شغل مقعداً ليسمع «لايرما» لا يفكر إلا في ألأ يوسخ ققازيه وألا يزعج وأن يخطب ود الجار الذي وهبته إياه المصادفة وأن يلاحق بابتسامة متقطعة النظرة العابرة، أن يتجنب بمظهر وقح النظرة الملتقاة لشخص من معارفه اكتشفه في الصالة وقرر بعد فيض من الحيرة أن يذهب لتحتيته أن تضطره الضربات الثلاث، إذ تدوي قبل أن يصل إليه، أن يولي الأدبار كالعبرانيين في البحر الأحمر بين أمواج النظارة الهائجة من رجال وسيدات دفعهم إلى القيام وهو يمزق الفساطين ويطحن الأحذية. ولأن رجال المجتمعات الراقية كانوا على العكس في مقصوراتهم (خلف الشرفة المدرجة) وكأنما في صالات صغيرة معلقة أزيل أحد حواجزها، أو في مقاه صغيرة ترادها لتناول حليب ساخن بالشوكولاته دون أن تنهيب المرايا المؤطرة بالذهب ومقاعد الدار الحمراء التي من طراز نابولي - ولأنهم كانوا يضعون يداً لامبالية على قواعد الأعمدة المذهبة التي تحمل الفن الغنائي هذا، - ولأنهم ما كانوا يتأثرون بصنوف التكريم المفرط التي تبدو وكأنما تحيطهم بها صورتان منقوشتان تمدان صوب المقصورات سعف النخل وأوراق الغار فقد كانوا وحدهم من يتوافر لهم فكر خالٍ لسماع الرواية لو اتفق لهم فكر.

لم يسد بادئ الأمر سوى عتمة مبهمه تلقى فيها فجأة بريق عينين شهيرتين وكأنما التماعه حجر كريم لا تراه أو كأنما ميدالية لـ «هنري الرابع» تبرز على خلفية سوداء صورة دوق «أومال» الجانبية وهو ينحني وتصيح به سيدة محتجة: «ليأذن لي سيدي أن أنزع معطفه»، فيما يجيب الأمير قائلاً: «يا لك، ما هذا ياسيدة «دامبرساك». وكانت تفعل على الرغم من ذلك التمتع غير الصريح فيحسدها الجميع من جراء مثل ذلك الشرف.

(١) يتألف هذا البحر من ١٢ مقطعاً ويقابل البحر الطويل في الشعر العربي.

أما في المقصورات الخاصة الأخرى فقد كانت الآلهات البيضاء التي حلت في تلك المنازل المظلمة قابعة في كل مكان تقريباً بمحاذاة الجدران العاتمة وظلت محتجبة. إلا أن أشكالها البشرية الغامضة أخذت، كلما تقدم العرض، تبرز بلفظ، الواحد تلو الآخر، من أعماق الليل الذي كانت تغطي جنباته، وتدع بارتفاعها وجهة الضوء لأجسامها نصف العارية أن تطفو وتقبل لتتوقف على الحد العامودي والمساحة المهمة حيث تظهر وجوهها الملتمة خلف تدفق ريش مراوحها الضاحك الراغي الرقيق وتحت شعورها الأرجوانية المشبكة باللالئ التي تبدو وكأنها لواها تموج سيل الشعور. وبعدها تبدأ مقاعد الصلاة، مقام الفنانين المفصول إلى الأبد عن المملكة العاتمة الشفيفة التي تقيم لها عيون آلهات المياه الصافية العاكسة حدوداً على سطوحها المائعة المستوية. ذلك أن مقاعد الشاطئ الجانبية وأشكال الكائنات الخرافية في الصلاة كانت ترسم في تلك العيون تبعاً لقوانين الضوء وحدها ووفقاً لزوايا سقوطه كما هي الحال بالنسبة إلى هذين القسمين من الواقع الخارجي اللذين قد نحكم على أنفسنا بالجنون إن خصصناهما بابتسامة أو نظرة إذ نعلم أنهما لا يملكان نفساً شبيهة بنفسنا، مهما كانت بدائية، عنيت المعادن والأشخاص الذين لا تربطنا بهم علاقات. ولكن بنات البحر المشرقات كن، في الجانب الواقع قبل حدود موطنهن، يلتفتن على العكس في كل لحظة باسمات صوب سمادل ملتجة قابعة في تجاويف الغمر أو صوب نصف إله مائي جمجمته حصية مصقولة رد عليها الماء أشنة ملساء، وعينه أسطوانة من الكريستال الصخري. كن ينحنن صوبهم ويقدمن لهم السكاكر ؛ وتنشق اللجة أحياناً أمام جنية مائية جديدة جاءت متخلفة باسمه خجلى تتفتح من أعماق العتمة. ثم تغوص الشقيقات المختلفات دفعة واحدة ويتوارن في الظلام بعد انتهاء المشهد إذ لا أمل لهن من بعد في سماع ضوء الأرض الرخيم الذي قد اجتذبهن إلى السطح. بيد أن أكثر جميع تلك المعتزلات التي كان الاهتمام اللطيف بمشاهدة أعمال البشر يقود إلى الآلهات الفضوليات اللواتي لا يسمحن بالاقتراب منهن، إن أكثرها شهرة كان كتلة نصف العتمة المعروفة باسم مقصورة أميرة «غيرمانت» الخاصة.

وكمثل إلهة عظيمة تشرف من بعيد على ألعاب الآلهة الدنيا ظلت الأميرة عمداً في ركن قصي بعض الشيء على أريكة جانبية حمراء كصخرة مرجانية بالقرب من توهج زجاجي واسع هو مرآة على الأرجح وكان يذكر بمقطع اقتطعه شعاع في بلور المياه المفتون عامودياً غامضاً رجراجاً. وكان ثمة زهرة بيضاء كبيرة هي ريشة وتوبيج في آن معاً، كما هي حال بعض الأزهار البحرية، تنحدر، ناعمة الرغبة مثلما الجناح من جبين الأميرة على امتداد إحدى وجنتيها وترافق انحناءاتها بمرونة مغناجفة عاشقة زاخرة بالحياة وتبدو وكأنها تحتبس نصفها شأن بيضة وردية في دفء عش طائر الألسيون. وعلى شعر الأميرة تمتد شبكة صغيرة تنحدر حتى الحاجبين ثم تعود من جديد لتتشكل على مستوى الصدر، شبكة صنعت من تلك الأصداف البيضاء التي تلتقط في بعض البحار الجنوبية والتي تمازجها بعض اللالئ في فيسفساء بحيرة تكاد لا تخرج من الأمواج حتى تعود لتغوص بين الحين والحين في الظلام وفي أعماقه يتكشف حتى حينذاك حضور بشري تبرزه حركة عيني الأميرة الملتعتين. ولم يكن الجمال الذي يضع هذه الأخيرة في مرتبة تفوق بها كثيراً بنات العتمة الخرافيات الأخريات منقوشاً بكليته في قفا عنقها وفي المنكبين والذراعين والقامة. بيد أن خطها العذب غير المكتمل كان نقطة الانطلاق الأكيدة والبداية المحتمة لخطوط خفية لاتقوى العين إلا أن تمتد بها رائحة تتشكل حول المرأة كطيف صورة خيالية ترسم على صفحة الظلام.

وقالت جارتني للسيد الذي كان برفقتها: «إنها أميرة «غيرمانت»، وقد حرصت أن تضيف عدة ياءات إلى كلمة أميرة مشيرة بذلك إلى أن هذه التسمية مضحكة، «ولم توفر لآلتها. يبدو لي أنه لو تيسر لي مقدارها لما عرضتها على الملاء على هذا النحو، فلست أرى في ذلك وجه لياقة.»

غير أن جميع الذين كانوا يحاولون أن يعلموا من كان في القاعة كانوا يحسون، إذ يتعرفون الأميرة، بعرش الجمال الشرعي يرتفع في فؤادهم. ذلك أن ما كان يسمح، فيما يخص دوقة «لوكسمبور» والسيدة «دو مورينفال» والسيدة «دو سانت أوفيرت» وغيرهن كثيرات، بتعرف وجههن إنما كان الترابط بين أنف أحمر كبير وشفة مشرومة أو بين خدين جعدين وشارب دقيق. كانت تلك الملامح كافية على أي حال لتفتن بما أنها تسمح، إذ لا تملك سوى القيمة الاصطلاحية التي للكتابة، بقراءة اسم مشهور يفرض الاحترام، ولكنها تخلف إلى ذلك في نهاية الأمر الفكرة التي مفادها أن للقبح مسحة أرستقراطية وأن ليس مهماً أن يكون وجه السيدة الراقية جميلاً إن كان متميزاً. ولكن مثلما يضع بعض الفنانين في أسفل لوحاتهم، عوضاً عن حروف اسمهم، شكلاً جميلاً في حد ذاته، كفراشة أو حردون أو زهرة، كذلك كانت الأميرة إنما تضع في زاوية مقصورتها شكل جسم ومحايا بديعين فتبرز بذلك أن الجمال يمكن أن يكون أسمى أنواع التوقيع. ذلك لأن حضور السيدة «دو غيرمانت» التي كانت لا تصطحب إلى المسرح سوى أشخاص يؤلفون في الأوقات الأخرى جزءاً من جماعة المقربين إليها كان في نظر هواة الأرستقراطية أفضل شهادة على أصالة اللوحة التي تقدمها مقصورتها الخاصة وهي ضرب من تمثيل مشهد من حياة الأميرة المألوفة الخاصة في قصورها في ميونخ وباريس.

ولما كان خيالنا شبيهاً بأرغن شعبي مختلّ يؤدي أبداً غير اللحن المعلن فقد شرع ذكر بعض أعمال القرن السادس عشر الفنية يتساعى أناشيد في صدري في كل مرة سمعت فيها من يتحدث عن أميرة «غيرمانت»- بافير» كان لابد أن أجردها منه وأنا أراها الآن تقدم سكاكر ملبسة لسيد بدين بلباس رسمي. ما كان أبعدني بالتأكيد عن أن استخلص من ذلك أنها ومدعوها أناس يماثلون الآخرين. كنت أدرك تماماً أن ما يقولون به لا يعدو كونه تمثيلاً وأنهم بغية التمهيد لأعمال حياتهم الحقيقية (التي ما كانوا يقضون هنا دونما شك الجزء المهم منها) كانوا يتفقون، بموجب طقوس مجهولة لدي، بل يتظاهرون بتقديم سكاكر ورفضها، وهي حركة مجردة من دلالتها وقد نظمت سلفاً على غرار خطوات راقصة ترتفع تارة على أطراف قدميها وتدور أخرى حول مندبل. ومن ذا يعلم؟ فربما كانت الآلهة لحظة تقدم سكاكرها تقول بلهجة السخرية تلك (إذ كنت أراها تبسم): «هل لك في بعض السكاكر؟» وما همني؟ فلعلني وجدت من قبيل التأنق الرائع الجفاء المقصود على طريقة «ميريميه» أو طريقة «ميلاك» في تلك الكلمات التي توجهها إلهة إلى نصف إله كان يعلم، فيما يخصه، ما كانت الأفكار السامية التي يختصرها كلاهما لحظة يعاودان ولا شك حياتهما الحقيقية، ويعجب، وقد أخذ بتلك اللعبة، يجب بالمكر الغامض نفسه: «أجل، إنني أرغب في كزرة». وربما أصغيت إلى ذاك الحوار بالنهم نفسه الذي أسمع به هذا المشهد أو ذاك من «زوج المبتدئة» حيث يبدو لي غياب الشعر والأفكار العظيمة، وهي أمور جدّ مألوفة لديّ وأفترض أن «ميلاك» كان ألف مرة قادراً على زجها فيها، يبدو بمفرده أناقة، أناقة مصطنعة وتزداد من جراء ذلك أسراراً ومعلومات.

وقال جاري بلهجة العارف وكان قد أساء سماع الاسم المهموس به خلفه: «البدن هذا هو مركيز غانسيه» .

كان المركيز «دو بالانسي» ينتقل الهوينى، ممدود العنق مائل الوجه وعينه الكبيرة المستديرة تلتصق بزجاج نظارته، كان ينتقل في العتمة الشفافة ويبدو وكأنه لا يبصر جهور الصالة أكثر مما تفعل سمكة تمر غير عابئة بجمهور الزوار الفضوليين، خلف حاجز الحوض الزجاجي. ويتوقف بين الحين والحين وقوراً لاهناً مرغياً وما كان بمقدور النظارة أن يقولوا إن كان يتألم أو ينام أو يسبح أو يبيض أو يتنفس فحسب. ولم يكن أحد يثير في نفسي مقدار الحسد الذي يفعل من جراء تعود هذه المقصورة، التعود الذي يبدو أنه اكتسبه واللامبالاة التي يدع للأميرة بها أن تمد السكاكر إليه. كانت تلقي عليه إذ ذاك نظرة من عينيه الجميلتين اللتين قدتا في ماسة يبدو الذكاء والوداد في تلك اللحظات وكأنما يميّعانها ولكنهما حينما تهذآن وتقتصران على جمالهما المادي المحض والتماعهما المعدني وحده كانتا إن حركها أقل منعكس حركة خفيفة تلهان أعماق القاعة بأضوائهما القاسية الأفقية البديعة. وبما أن فصل مسرحية «فيدر» الذي تمثله «لايرما» كان يزمع أن يبدأ فقد جاءت الأميرة إلى مقدمة المقصورة. وإذ ذاك رأيت لون حليها بل مادتها تتغير في المنطقة المختلفة الأضواء التي اجتازتها كأنما هي نفسها شبح يتراءى في المسرح. وفي المقصورة المجففة التي برزت على الصفحة ولم تعد من عالم المياه ظهرت الأميرة، وقد كفت عن كونها جنية بحار، تتمر عمامة بيضاء وزرقاء وكأنما ممثلة رائعة لبست أثواب «زائير» أو ربما «أوروسمان». وبعدما جلست في الصف الأول، رأيت أن عش الالسيون الدافئ الذي يحمي برفق لؤلؤ وجنتيها الورديتين كان طائراً شاسعاً من الجنة، ناعماً لماعاً مخملياً.

بيد أن نظراتي تحولت عن مقصورة أميرة «غيرمانت» بفعل امرأة قصيرة رديئة الملبس قبيحة العينين جاءت يتبعها شابان لتجلس على بضعة مقاعد مني. ثم رفع الستار. ولم يكن بمقدوري أن ألاحظ دونما اكتئاب أنه لم يظل في النفس شيء من الميل الذي كان لي بالأمس إزاء الفن الدرامي و«لايرما» أن كنت، بغية ألا يفوتني شيء من الظاهرة الخارقة التي لعلني كنت أذهب إلى أقاصي العالم لاكمل العين بها، احتفظ بفكري جاهزاً كتلك الصفائح الحساسة التي يمضي الفلكيون فيقيمونها في أفريقية وجزر الانتيل في سبيل ملاحظة دقيقة للذنب أو لكسوف؛ أن كنت أرتعد أن تحول سحابة (سوء حالة الفنان النفسية أو حادث في الجمهور) دون أن يجري العرض بأقصى درجات الزخم، أن اعتقد أنني لا أحضره بأفضل الشروط إن كنت لم أقصد المسرح ذاته المكسرها على غرار مذبح وحيث يبدو لي أن المراقبين ذوي الفلة البيضاء الذين تسميهم بنفسها وقاعدة صحن المسرح فوق قاعة الجمهور الزاخرة بأناس رديئي الملبس والعمالات اللواتي يعن برنامجاً يحمل صورتها وأشجار الكستناء في الحديقة وجميع رفاق انطباعاتي آنذاك وأنجيتي الذين يدون لي وكأنهم لا ينفصلون عنها، يبدو أنهم لا يزالون يؤلفون إذ ذاك جزءاً من ظهورها تحت الستارة الحمراء الصغيرة وإن يكن ثانوياً. فقد كانت مسرحية «فيدر» و«مشهد البوح» و«لايرما» تحمل في نظري ضرباً من الوجود المطلق. كان وجودها ينبعث من ذاتها إذ هي واقعة خارج حدود عالم التجربة المألوفة وكان عليّ أن أذهب إليها فقد أدرك منها ما أستطيع وقد ارتشف منها كذلك القليل القليل إن أنا فتحت عيني ونفسي قدر وسعها. ولكن ما أمتع ما كانت تبدو لي الحياة! وما كان لتفاهة تلك التي أقضيها أية أهمية، شأنها في ذلك شأن الأوقات التي ترتدي فيها ملابسك وتستعد فيها للخروج بما أنه يقوم خلف حدودها على نحو مطلق تلك الحقائق الأكثر صلابة، عني «فيدر» وطريقة إلقاء «لايرما» وهي أمور يصعب الاقتراب منها ويستحيل تملكها بأكملها. ولما

كنت مشبعاً بتلك الأوهام حول الكمال في الفن المسرحي والتي كان من الممكن أن تستخلص منها كمية هامة لو تم في تلك الأوقات تحليل فكري في أية دقيقة من النهار وربما من الليل، فكنت على غرار بطارية تنتج كهرباءها. وقد بلغ بي أن كان ينبغي لي المبادرة لسماع «لايرما» وأنا عليل حتى لو حسبتني أموت من جراء ذلك. أما الآن فكرائية تبدو في البعيد مجبولة من زرقاء السماء وتعود عن قرب فتدخل في إطار رؤيتنا العادية للأشياء كان كل ذلك قد هجر عالم المطلق ولم يعد من بعد سوى أمر شبيه بالأمور الأخرى التي كنت أطلع عليها لأنني كنت في المكان، والفنانون كانوا أنا من جوهر من كنت أعرفهم يحاولون أن ينشدوا بأفضل طريقة ممكنة أبيات مسرحية «فيدر» تلك التي لم تعد تؤلف جوهراً سامياً فردياً مفصلاً عن كل شيء، بل أبيات يحالفها النجاح في كثير أو قليل وهي جاهزة للانخراط في مادة الأبيات الفرنسية الشاسعة التي تختلط بها. وكنت أحس من جراء ذلك بفتور في العزيمة يزداد عمقاً بقدر ما تستمر، إن تلاشي موضوع شوقي العنيد الناضج، الميول ذاتها إلى وهم ثابت يتبدل من عام إلى عام ولكنه يقودني إلى نزوة مفاجئة لاتعبأ بالخطرات فغشية أنطلق فيها، مريضاً، للذهاب إلى أحد القصور أبغني مشاهدة لوحة لـ «ايسلتيرو» وسجادة قوطية كانت تشبه إلى حد بعيد اليوم الذي اضطرت فيه أن أذهب إلى البندقية وذلك الذي ذهبت فيه لسماع «لايرما» أو انطلقت فيه إلى «باليك» حتى لاحس سلفاً أن موضوع تضحيتي الحاضر سوف يخلف في اللامبالاة بعد وقت قليل وقد أستطيع إذ ذاك المرور قريباً جداً منه دون أن أذهب لمشاهدة تلك اللوحة وذلك السجاد الذي لعنني كنت واجهته في سبيله في هذه اللحظة الكثير من ليالي الأرق والعديد من النوبات المؤلمة. كنت أحس من جراء تقلب موضوع جهودي بلا جدوى تلك الجهود وفي الوقت نفسه بضخامتها التي لم أصدقها شأن المصابين بالوهن العصبي الذين نضاعف تبعهم إذ نلقت انتباههم إلى أنهم متعبون. وبانتظار ذلك كان وهمي يضيف مهابة على كل ما يمكن أن يرتبط به. وربما أمكنتني حتى في أشد رغباتي الجنسية الموجهة أبداً وجهة معينة، المركزة حول حلم واحد، أن أعرف بمثابة محرك أول فكرة، فكرة لعنني كنت أضحي بحياتي في سبيلها، وتقوم في النقطة الأكثر مركزية فيها، كما هي الحال في أحلامي في أثناء قراءات ما بعد الظهر في حديقة «كومبريه»، فكرة الكمال.

لم يعد لدي التسامح نفسه الذي كنت أحس به بالأمس إزاء مقاصد الحنان أو الغضب المحقة التي لاحظتها آنذاك في إلقاء «أريسي» و«إيسمين» و«هيوليت» وتمثيلهم. وليس يعني ذلك أن هؤلاء الممثلين- ولم يتبدلوا- لا يحاولون على الدوام بالذكاء نفسه أن يضيفوا في هذا المكان على صوتهم لهجة رقيقة أو لبساً مدبراً وفي ذاك على حركاتهم اتساعاً مأسوياً أو وتوسلاً يقطر ألماً. كانت نبراتهم تأمر هذا الصوت قائله: «كن عذياً وأنشد كالعندليب ودغدغ» أو على العكس «كن حانقاً»، وتنقض إذ ذاك عليه محاول أن يجرفه في جنوبها. أما هو، المتمرد الغريب عن إلقاءهم، فكان يظل صوتهم الطبيعي لايتحول، بعيوبه أو مواطن سحره المادي، بعاميته أو تصنعه اليوميين، وينشر على هذا النحو مجموعة من المظاهر الصوتية أو الاجتماعية التي لم يفسدها الشعور بالأبيات التي أنشدوها.

وكذلك كانت تقول حركة هؤلاء الفنانين لسواعدهم ولردائهم أن «كوني مهيبة» ولكن الأعضاء العاصية كانت تدع عضلة الساعد التي لاتعلم شيئاً عن الدور تتبخر بين الكتف والمرفق. كانت تستمر في التعبير عن تفاهة الحياة اليومية وإبراز ترابطات عضلية بدلاً من ألوان شعر «راسين» وكان الجوخ الذي ترفعه

يعود فيهوي وفق خط شاقولي لاتنازع فيه قوانين سقوط الأجسام سوى مرونة نافذة نسيجية. وفي تلك اللحظة صاحبت السيدة الصغيرة التي كانت بالقرب مني:

– «لاتصفيق البتة! ويا لاثواب ترتديها! ولكنها طاعنة في السن ولاحول لها من بعد، وفي هذه الأحوال يتخلى المرء.»

وحاول الشابان اللذان كانا برفقتها أن يحملها على التزام الهدوء إزاء مطالبة من كانوا بجوارها بالصمت ولم يعد غضبها يتفجر إلا في عينيها. ولم يكن بوسع ذلك الغضب أن ينصب بأية حال إلا على النجاح والمجد لأن «لايرما» التي سبق أن كسبت الكثير من المال لم يظل لها سوى الديون. كانت تضرب على الدوام مواعيد ترتبط بالاعمال أو الصداقة ولا تستطيع الذهاب إليها فكان لها في كل الشوارع خدم يسارعون لالغاء مواعيدها، وفي كل الفنادق شققت حجزها سلفاً ولا تجيء قط لتشغلها، وبحور من العطور لغسل كلباتها وغرامات نكول تدفعها لسائر المديرين. ولكن كانت أقل تبذيراً لكن كانت أقل انصرافاً إلى اللذة من «كليوباترة»، فلعلها لقيت وسيلة في تبديد أقاليم وممالك في عجالات وفي سيارات عائدة لشركة نقل المدينة. ولكن السيدة الصغيرة كانت ممثلة لم يحالفها الحظ فأضمرت لـ «لايرما» بغضاً قاتلاً. كانت هذه الأخيرة قد اعتلت خشية المسرح. ويا للمعجزة حينذاك، فإنه على غرار تلك الدروس التي استنفدنا قوانا دونما جدوى في تعلمها مساء والتي نلقاها في صدورنا وقد عرفناها عن ظهر القلب بعد أن قد نمنا، وعلى غرار وجوه الأموات تلك التي تلاحقها جهود ذاكرتنا الحثيثة دون أن نلقاها والتي نراها أمام أعيننا، حين لانفكر فيها من بعد، وبها شبه الحياة، أخذت موهبة «لايرما» التي هربت مني حينما كنت أحاول باندفاع كبير أن أدرك كنهها، أخذت الآن بعد سنوات النسيان وفي ساعة اللامبالاة هذه تفرض نفسها على اعجابي بقوة البدهة. كنت فيما مضى، في محاولة لقرز تلك الموهبة، أسقط إلى حد ما مما أسمع الدور نفسه، الدور، هذا القسم المشترك بينها وبين جميع الممثلات اللواتي يؤدين دور «فيدر» والذي سبق أن درسته سلفاً لأتمكن من طرحه جانباً وألا أجمع بمثابة بقية باقية سوى موهبة السيدة «لايرما». بيد أن تلك الموهبة التي كنت أحاول تبينها خارج الدور انما كانت تؤلف كلاً واحداً معه. ذلك هو شأن الموسيقى العظيم (وهي حال «فانتوي» فيما يبدو حين كان يعزف على البيانو) فأن عزفه عزف ضارب على البيانو عظيم حتى لاتعلم من بعد البتة إن كان هذا الفنان عازف بيانو، لأن هذا العزف (إذ لا يوضع بينك وبينه كل هذا الحشد من جهد الأصابع الذي تتوجه ههنا وهناك لحات رائعة، وكل هذا التناثر في النوطات الذي يظن السامع، ذاك الذي لا يعلم كيف تساس الامور على الأقل، انه واجد فيه الموهبة في حقيقتها المادية الملموسة) قد أضحي شفافاً يفيض مما يترجمه إلى حد أنك لاتحس به من بعد وقد أصبح محض نافذة تطل على رائعة فنية وإذا كانت المقاصد تحيط كمثّل حاشية فخمة أو ناعمة لصوت «آريسي» و«ايسمين» و«هيبوليت» وإيماءاتهم فقد استطعت تمييزها، أما «فيدر» فكانت قد استطنتها ولم يفلح فكري في أن ينتزع من الإلقاء والوقفات. وأن يضع يده في شح بساطة مساحتها المستوية على تلك اللقيات، على تلك اللّمحات التي لاتبرز عنها لشدة ما انغrust فيها بعمق وما كان صوت «لايرما» الذي لم يظل به نفاية واحدة من مادة جامدة تستعصي على الفكر، ما كان يدع لك أن تميز من حوله هذا الفائض من الدمع الذي تراه يسيل فوق مرمر صوت «آريسي» أو «ايسمين» لأنه لم يستطع التغلغل فيه، بل كان قد تم تلبينه بلطف في أصغر خلاليه على غرار آلة عازف كمان كبير مراد المرء، حينما يقول إن له رنة جميلة، لا أن يمتدح صفة مادية مميزة فيه بل تفوقاً في الروح. ومثلما هي الحال في المناظر الطبيعية

القديمة حيث يحل ينبوع لآحياة فيه محل حورية توارت فقد استحال فيه مقصد واضح ومحسوس صفة في النبرة ذات صفاء غريب مناسب لإحارة فيه. وذراعا «لابيرما» اللذان تبدو الأبيات نفسها وكأنها ترفعهما فوق صدرها بالنفثة نفسها التي تطلق بها صوتها من بين شفتيها كتلك الأغصان التي يزيحها الماء في انطلاقه ؛ ووقفتها على خشبة المسرح التي شكلتها شيئاً فشيئاً وربما بدلت فيها أيضاً والتي تتألف من محاكمات عقلية تختلف عمقاً عن تلك التي كنت تلمح أثرها في حركات رفاقها، ولكنها محاكمات فقدت منشأها الإرادي وقد انصهرت في ضرب من الإشعاع فتحيط شخصية «فيدر» بعناصر غنية ومعقدة تخفق من حولها ولكن المشاهد المقترون كان يعدها لآبمثابة نجاح يحققه الفنان بل بمثابة أحد معطيات الحياة ؛ وتلك الاستار البيضاء نفسها التي كانت تبدو، مضناً أمينة، وكأنها مادة حية قد غزلها العذاب الذي نصفه وثنية والنصف «يانسينية»^(١)، العذاب الذي تتقلص من حوله كشرنقة حشة مقرورة ؛ فالصوت والمواقف والحركات والأستار، لم يكن كل ذلك من حول جسد الفكرة هذا الذي هو بيت الشعر (وليس هذا الجسد بخلاف الأجساد البشرية حاجز لا ينفذ النور بل كساء مطهر روحاني) سوى غلف إضافية كانت تعبر تعبيراً أوفر روعة عن النفس التي سبق أن تمثلتها وانتشرت فيها بدلاً من أن تحجبها، سوى حمم من مواد مختلفة أصبحت شفافة ولا يقضي تراكمها إلا إلى أن يعكس على نحو أوفر بهاء الشعاع المركزي الجحيس الذي يخرقها وأن يزيد في اتساع المادة المشبعة باللهب التي تحيط به كالغمد وفي كرم معدنها وجمالها. كذلك كان تمثيل «لابيرما» إنما يؤلف من حول العمل الفني عملاً فنياً ثانياً تبعث العبقرية فيه الحياة أيضاً.

ولم يكن انطباعي، وهو الحق يقال أكثر امتاعاً منه بالأمس، مختلفاً عنه. بيد أنني لم أعد أضع قبالته فكرة مسبقة مجردة زائفة عن النبوغ المسرحي وأخذت أدرك أن النبوغ المسرحي إنما هو ذاك بالضبط. كنت أفكر منذ قليل أنني لم أستمع أول مرة سمعت فيها «لابيرما» فلأني، شأني بالأمس حينما كنت ألتقي بـ «جيلبيرت» في «الشانزيليزه»، كنت أجيء إليها وبني شوق مفرط. ربما لم يكن الخيبتين وجه الشبه هذا فحسب بل آخر كذلك أكثر عمقاً. إن الانطباع الذي يخلغه فينا شخص وعمل فني (أو تمثيل دور) متميزان إلى حد بعيد إنما يتسم بطابع خاص. لقد جلبنا معنا أفكار «الجمال» و«رحابة الأسلوب» و«المساواة» التي ربما توهمنا أننا نتعرفها في تفاهة موهبة ووجه مقبولين، ولكن فكرنا المتنبة يرى أمامه إلحاح شكل لا يملك له مقابل فكرياً وينبغي له استخلاص المجهول منه. إنه يسمع صوتاً حاداً ونبرة استفهامية غريبة ويسائل النفس قائلاً: «أجميل هذا؟ أمن الإعجاب ما أحس به؟ وهل ذاك غني الألوان والسمو والقوة؟» أما ما يجيبه من جديد فصوت حاد ولهجة تسائل مسائلة غريبة، إنه الانطباع المستبد الذي يثيره فيك كائن لا تعرفه، وهو مادي كله ولم تترك فيه أية مساحة فارغة لـ «رحابة التمثيل». وإنما الأعمال الجميلة حقاً هي التي لا بد لها بسبب ذلك، أن تم سماعها بصدق، أن تخيب آمالنا أكثر ما تخيب لأنه ليس في مجموعة أفكارنا فكرة واحدة توافق انطباعاً فردياً.

ذلك بالضبط ما كان يكشفه لي تمثيل «لابيرما» ؛ والنبل والذكاء في الالتقاء كانا ذلك بالتمام. لقد أخذت أتبين الآن مزايا التمثيل الذي يمتاز بالرحابة والشاعرية والقوة، أو ذلك بالأحرى ما اتفق أن يمنح تلك

(١) حركة دينية مسيحية مترتبة ظهرت في فرنسا في القرن السابع عشر على يد اللاهوتي الهولندي «يانسن» (١٥٨٥ - ١٦٣٨).

الألقاب ولكن على نحو ما يطلق اسم المريح والزهرة وزحل على نجوم لا تملك شيئاً من دنيا الميثولوجيا. إننا نشعر في عالم ونفكر ونسمي في عالم آخر، ويمكننا إقامة توافق ما بين الاثنين لاردم المسافة الفاصلة. تلك كانت إلى حد ما المسافة، الثغرة التي وقع عليّ اجتيازها حينما لقيت في أول يوم ذهبت فيه لمشاهدة تمثيل «لايرما»، وبعدما صرّفت إليها كامل انتباهي، بعض المشقة في اللحاق بأفكاري عن «سمو التمثيل» و«الأصالة» ولم أنبر أصفق بحرارة إلا بعد لحظة فراغ وكما لو ينطلق التصفيق لامن انطباعي نفسه، بل كما لو كنت أربطه بأفكاري المسبقة، بالمتعة التي أحس بها في أن أقول في نفسي: «ها إني أخيراً أسمع لايرما». وإن الفارق الكائن بين شخص وعمل فني بارز الفردية وفكرة الجمال إنما هو كائن بالمقدار ذاته بين ما تولينا هذه من مشاعر وأفكار الحب والإعجاب. ونحن لذلك لاتعرفها. فأنني لم أصب متعة في سماع «لايرما» (كما لم أصب متعة في رؤية «جلبيرت» حينما كنت أحبها). وقلت في نفسي: «إني غير معجب بها إذن». ولكني ما كنت أفكر آنذاك إلا في تعميق تمثيل المثلثة، ولا يشغلني إلا ذاك الأمر فأجهد في فتح فكري على أرحب نحو ممكن لأزود بكل ما يتضمنه: وإني لأدرك الآن أن الإعجاب إنما كان ذلك.

وتلك العبقرية التي لم يكن تمثيل «لايرما» سوى كشف لها فحسب، أكانت عبقرية «راسين» وحدة؟.

لقد ظننت ذلك أول المطاف، وكان لابد أن أعود عن ضلالي بعدما انتهى فصل مسرحية «فيدر» وبعد إلحاح الجمهور طلباً لعودة الممثلين التي انتصبت جازني القديمة الحانقة في أنائها بقامتها الصغيرة جداً ووضعت جسمها بالورب وجمدت عضلات وجهها وصالت ذراعيها على صدرها لتبدي أنها لاتشارك الآخرين تصفيقهم ولتبرز على نحو أوضح احتجاجاً حكمت أنه شديد الوقع ولكنما لم يشعر به أحد. كانت المسرحية التالية واحداً من الأعمال الجديدة التي كان يبدو لي بالأمس أنها لابد ستبدو هزيلة وخاصة بما أنها لا وجود لها خارج الدور الذي تؤدي به. ولكني إلى ذلك لم تملكني الخيبة أن أبصر خلود العمل الفني لايمتد إلا امتداد خشبة المسرح وإلى مدة دوام العرض الذي يؤدي على نحو ما يؤدي مسرحية مناسبات. ثم إني كنت أضيف إلى كل مقطع أحس أن الجمهور أحبه وقد يضحى ذات يوم شهيراً، كنت أضيف، بدلاً من الشهرة التي لم يتسن لها أن تحوزها فيما مضى، تلك التي ستحوزها في المستقبل بجهد فكري معاكس للجهد الذي قوامه تمثل روائع فنية في زمن صدورها الهزيل حين لم يكن يبدو أن عنوانها الذي لم يطرق الأسماع بعد سوف يتم وضعه فيما بعد بجانب عناوين مؤلفات الكاتب الأخرى وسوف تختلط في الضياء نفسه. وربما أدرج هذا الدور ذات يوم في لائحة أجمل أدوارها إلى جانب دور «فيدر». وليس يعني ذلك أنه لم يكن في حد ذاته خلواً من أية قيمة أدبية ولكن «لايرما» سمت فيه سموها في «فيدر». وأدركت حينذاك أن مؤلف الكاتب لم يكن بالنسبة إلى المثلثة سوى مادة غير ذات بال تقريبا في حد ذاتها من أجل ابداع رائعته في التمثيل، مثلما سبق لـ «ايلستير» الفنان الكبير الذي عرفته في «بالبيك» أن وجد موضوع لوحيتين تتساويان قيمة في بناء مدرسي لاطابع له وكاتدرائية هي في حد ذاتها رائعة فنية. ومثلما يذيب الرسام البيت وعربة النقل والشخص في دفقة ضياء كبيرة تجعلها متجانسة كذلك كانت «لايرما» تمتد طبقات واسعة من الرعب، من الرقة على الكلمات التي انصهرت بالتساوي فاستوت كلها أو سمت، ولعل الفنانة الضحلة كانت تبرزها الواحدة تلو الأخرى. وليس من شك أنه كان لكل منها نبرة خاصة وما كان إلقاء «لايرما» يحول دون

أن يتبين المرء بيت الشعر. أفليس ثمة عنصر أول من التعقيد المنظم والجمال حينما يحس المرء، إذ يسمع قافية، يعني أمراً هو في الآن نفسه مثيل ومغاير للقافية السابقة التي تجدد علتها فيها ولكنها تدخل فيها تغير فكرة جديدة، بمنظومتين تتناضدان، إحداهما على صعيد الفكر والأخرى على صعيد الوزن الشعري؟ بيد أن «لايرما» كانت تدخل حتى الأبيات، وحتى المقاطع في مجموعات أرحب منها يفتنك أن تراها مضطرة للتوقف والانقطاع على حدودها؛ كذلك يستمتع شاعر في أن تتردد لحظة في القافية الكلمة التي توشك الانطلاق، وموسيقى في خلط كلمات الكتيب المختلفة في إيقاع واحد يعاكسها ويجتذبها. وهكذا كانت تعرف «لايرما» كيف تدخل في جمل كاتب الدراما الحديث وأشعار «راسين» على حد سواء هذه الصور الراجعة من الألم والنبل والهوى التي تؤلف روائعها هي وحيث كان يتم تعرفها مثلما يتعرف الرسام في رسوم شخصية نقلها عن نماذج مختلفة.

ما كنت لأتمنى من بعد، شأني بالأمس، أن استطيع تجميد وقفات «لايرما» ومسحة اللون الجميلة التي كانت تخلفها مقدار لحظة فحسب في ضوء سرعان ما يتلاشى ولا يتشكل من جديد، ولا أن أحملها على أن تكرر مرة مرة بيتاً من الشعر. فقد أخذت أدرك أن رغبتني القديمة كانت أكثر طلباً من مشيئة الشاعر والمثلة والفنان الكبير مهندس المناظر، وهو مخرجها، وأن هذا السحر المسفوح خطفاً على بيت من الشعر، وهذه الحركات غير الثابتة التي تبدل باستمرار وهذه اللوحات المتعاقبة إنما كانت النتيجة السريعة الزوال والهدف الوقتي والرائعة الفنية المتموجة التي يهدف إليها الفن المسرحي والتي قد يقضي عليها انتباه مستمع شديد الافتتان في سعيه إلى تثبيتها. بل إنني لم أعد أهتم بالجيء يوماً آخر لأسمع «لايرما» ثانية، فقد كنت مكفي النفس منها. ذلك أنني حينما كنت معجباً أشد الإعجاب إلى الحد الذي لا يخيب ظني موضوع إعجابي، سواء أكان ذلك الموضوع «جيليرت» أو «لايرما» إنما كنت إذ ذاك أطلب سلفاً من انطباع الغد المتعة التي حجبها عني انطباع البارحة. ودون أن أحاول تعميق البهجة التي داخلتنني من قليل والتي لعلني كنت استطيع استخدامها استخداماً أوفر خصباً كنت أقول في نفسي شأن واحد من رفاق المدرسة فيما مضى: «إنما «لايرما» بالحقبة من أضع في المقدمة، فيما ينتابني شعور غامض بأن عبقرية «لايرما» ربما لم يترجمها أدق الترجمة هذا التوكيد لإيثاري لها وللمكان «الأول» الذي امنحها إياه أياً كان الهدوء الذي يجلبانه لي.

آن بدأت تلك المسرحية الثانية نظرت إلى جانب السيدة «دو غيرمانت» وكانت هذه الأميرة قد أدارت رأسها. بحركة ولدت خطأ عذباً كان فكري يتابعه في الفراغ، باتجاه الركن القصبي في مقصورتها. كان المدعوون وقوفاً يلتفتون بدورهم نحو الباب وبين الصفيين اللذين يؤلفونهما دخلت، تلفها تماماً أثواب المسلمين البيضاء، دقة «غيرمانت»، دخلت وسط ثقتها الظافرة وعظمة الآلهة لديها، ولكنما بها علوية مجهولة ناجمة عن الخجل الذي يمتزج التصنع فيه بالبسمات من جراء وصولها متأخرة إلى هذا الحد وحملها الجميع على القيام في أثناء العرض. وذهبت رأساً إلى ابنة عمها وحيث بانحذاء واسعة شاباً أشقر كان يجلس في الصف الأول واستدارت صوب الكائنات الخرافية البحرية المقدسة التي تموج في ركن المغارة القصبي وحيث أنصاف آلهة نادي الفروسيه - الذين ألفوا في ذلك الوقت من لعلني فضلت أكثر ما أفضل أن أحل محلهم، ولا سيما منهم السيد «دو بالانسي» - تحية ألفة من صديقة قديمة تشير إلى اليومي من علاقاتها بهم منذ خمسة عشر

عاما. كنت أحس ولكن لا أستطيع أن أستجلي سرّ هذه النظرة المشرقة التي تخص بها أصدقاءها في البريق الأزرق الذي تلتصق به فيما تدع يدها لهؤلاء وأولئك، هذه النظرة التي لعلها كانت تكشف لي، لو تسر لي أن أحلل ألوان موشورها وتبلوراتها، ماهية الحياة المجهولة التي كانت تبرز فيها في ذلك الحين. وكان دوق «غيرمانت» يتبع زوجته، فيما تنفرج بانعكاسات نظارته الجذلي وضحكة أسنانه وبياض قرنفله أو صدره المثني حاجباه وشفته وسترته الرسمية لتوسع مكاناً لضبياتها. وأشار بحركة من يده الممدودة التي انحدر بها، منتصب القامة لايحرك الرأس، إلى أكتافهم، أشار إلى السجاد الأدنى مرتبة الذين كانوا يوسعون له المكان بالجلوس وانحنى انحناء كبيراً أمام الشاب الأشقر. وربما خيّل لك أن الدوقة حزرت أن ابنة عمّها، وكانت تسخر، فيما يقال، ممّا تدعوه غلواء هذه الأخيرة (والغلواء هي الاسم الذي سرعان ما يتخذ الشعر والحماصة الجرمانيان من وجهة نظرها الفرنسية الذكية المعتدلة) ستكون هذا المساء في واحد من تلك الأتواب التي ترى الدوقة أنها متكررة فيها وأنها أرادت أن تلقنها درساً في الذوق. فبدلاً من الريش الناعم الذي كان يتحدّر من رأس الأميرة حتى عنقها، وبدلاً من خمارها الذي من أصداف ولآلئ لم تكن الدوقة تضع في شعرها سوى خصلة ريش بسيطة تبدو فيما تعلو أنفها المعقوف وعينيها غير البارزتين وكأنها خصلة ريش على رأس طير. كان عنقها ومنكبها تطلع جميعاً من سيل ثلجي من المسلمين تخفق فوقه مروحة من ريش التمس، ولكن القسطنطين الذي لا يزين صدره سوى شذرات لا تحصى إما من معدن على شكل عصيات وحبات وإما من ماسات كان يقوّل جسمها بدقة بريطانية تامة ولكن مهما اختلفت ملابس اللاتنتين بعضها عن بعضها الآخر فقد شوهدتا، بعدما قدمت الأميرة لابنة عمها الكرسي الذي كانت تشغله حتى ذاك، تستديران الواحدة نحو الأخرى لتتبادلا نظرات الإعجاب.

ربما علت ابتسامة ثغر السيدة «دو غيرمانت» في الغد حينما تتحدث عن تسريحة الأميرة الشديدة التعقيد إلى حدّما، ولكنها سوف تعلن بالتأكيد أن تلك التسريحة لم تكن لذلك أقل روعة وترتيباً بديعاً. أما الأميرة التي كانت تجدد بعض الفتور وبعض الجفاف وبعض الصنعة في الطريقة التي تكتسي بها ابنة عمها فسوف تكتشف في هذه البساطة الصارمة أنقاً مستعذباً. أضف أن الانسجام بينهما والجاذبية الشاملة المسبقة لتربيتهما كانا يطلان وجوه التعارض لافي ترتيب الملابس فحسب بل في المواقف. فعلى أقدام هذه الخطوط اللامرئية الممخطة التي كانت أناقة السلوك تمدّها ما بينهما كان طبع الأميرة الصريح يلفظ أنفاسه فيما تنجذب باتجاهها استقامة الدوقة وتلتوي وتصبح عذوبة وسحراً. ومثلما لم يكن علينا، في المسرحية التي يتم تمثيلها، كيما ندرك مدى ما تبعث «لايرما» من شاعرية شخصية، سوى أن نكلف بالدور الذي كانت تمثله، والذي تستطيع وحدها تمثيله، أية ممثلة أخرى، فإن المشاهد الذي لو رفع عينيه إلى شرفة المسرح لرأى في مقصورتين طريقة في اللباس تضيف على بارونة «مورينفال»، وكانت تحسب أنها تذكر بطريقة أميرة «غيرمانت»، محض هيئة شاذة متكلفة سيئة التهذيب، وجهداً متأنياً باهظ التكليف في سبيل محاكاة أتواب دوقة «غيرمانت» وأناقتها ييسر للسيدة «دو كامبرير» محض شبه بتلميذة داخلية رقيقة سدت على سلك من الحديد منتصب القامة جافة حادة الهيئة وفي شعرها تنتصب عمودياً ريشة عربية موتى. ربما لم يكن مكان هذه الأخيرة في قاعة كانت تشكّل فيها المقصورات (وحتى مقصورات أعلى الطوابق التي تبدو من الأسفل وكأنها سلال ضخمة زرعت بالزهور البشرية وعلقت بقوس القاعة بالسيور الحمراء التي لحواجزها المخملية) من ألح

نساء العام فحسب منظراً عابراً سوف يدل فيه عما قليل الأموات والفضائح والأدواء والخلافات ولكنما يثبت في هذه اللحظة الاهتمام والحر والدار والغبار والأنافة والسأم في ما يشبه اللحظة الخالدة المأساوية لحظة الانتظار اللاواعي والخدر الهادئ التي تبدو بعد فوات الأوان وكأنها سبقت انفجار قبلة أو اللهب الأول في حريق.

فأما السبب الذي من أجله كانت السيدة «دو كامبر مير» هناك فقوامه أن أميرة «بارم»، وهي بعيدة عن السنوية كأكثر صاحبات السمو الحقيقيات، ولكنما تتأكلها في المقابل الكبرياء والتوق إلى التصديق الذي يساوي لديها الميل إلى ما تحسبه الفنون، كانت قد تخلت ههنا وهناك عن بعض المقصورات لنساء من طراز السيدة «دو كامبر مير» لا ينتمين إلى المجتمع الأرستقراطي الراقى ولكنها كانت على علاقة بهن لغرض أعمالها الخيرية. لم تكن السيدة «دو كامبر مير» ترفع نظرها عن الدوقة وعن أميرة «دو غيرمانت»، الأمر الذي يزيد من يسره لديها أنه لا يمكن أن تبدو وكأنها تلمس تحية منهما لأنها لم تكن على علاقات حقيقية بهما. مع أن الهدف الذي كانت تلاحقه منذ عشرة أعوام بصبر لا يعرف الكلل إنما كان أن يتم استقبالها لدى هاتين السيدتين الكبيرتين. لقد قدرت أنها لاشك ستفلح في ذلك في مدى خمسة أعوام. ولكنها تخشى، وقد أصابها داء لا يرحم تحسب أنها، إذ تباهي بمعلومات طبية تعرف طبيعته الحمية، كانت تخشى ألا تستطيع العيش حتى ذلك. بيد أنها كانت سعيدة في ذلك المساء أن تفكر بأن جميع أولئك النساء اللواتي لا تعرفهن سوف يشاهدن بالقرب منها رجلاً من أصدقائهن وهو المركز الشاب «دو بوسيرجان» شقيق السيدة «دارجنكور» الذي كان يتردد بالتساوي على المجتمعين والذي كانت نساء المجتمع الثاني يملن كثيراً إلى التباهي بحضوره إلى جانبهن أمام أنظار نساء الأول. وكان قد جلس خلف السيدة «دو كامبر مير» على كرسي وضع بالعرض ليستطيع استراق النظر إلى المقصورات الأخرى. كان يعرف الجميع فيها وكان بغية التحية يرفع، إلى جانب الأنافة الساحرة التي لشكله الجميل المقوس ولرأسه الناعم ذي الشعر الأشقر، كان يرفع نصف رفة جسمه المنتصب وفي عينيه الزرقاوين تشرف ابتسامة وبه مزيج من الأجلال والوقاحة فينقش على هذا النحو نقشاً دقيقاً في مستطيل المستوى المائل الذي يجلس فيه كأنما واحدة من تلك الصور المطبوعة القديمة التي تمثل سيداً كبيراً متعالياً متزلفاً. كان غالباً ما يرتضي الذهاب على هذا النحو إلى المسرح برفقة السيدة «دو كامبر مير». وكان يظل ببساطة بالقرب منها في القاعة وفي الردهة لدى الخروج، وسط جمهور الصديقات الأكثر شهرة اللواتي كن هنالك واللواتي كان يتجنب التحدث إليهن إذ لا يبغي إزعاجهن وكأنما هو بصحبة سوء. فإن مرت آنذاك أميرة «غيرمانت» في جمال «ديانا» ورشاقتها، تجر وراءها معطفاً لامثيل له وتستلفت سائر الرؤوس وتتبعها جميع العيون (وعينا السيدة «دو كامبر مير» أكثر من كل ما عداهما)، كان السيد «دو بوسيرجان» يستغرق في حديث مع جارته ولا يستجيب لابتسامة الأميرة الودود الفاتنة إلا مرغماً مضطراً وبالتحفظ المهذب والجفاء المتسامح الذي يديه امرؤ يمكن أن يكون لطفه قد أضحى إلى حين مصدر إزعاج.

ولم تعلم السيدة «دو كامبر مير» أن المقصورة الخاصة إنما تعود للأميرة لعرفت مع ذلك أن السيدة «دو غيرمانت» كانت المدعوة وذلك لما تظهر من اهتمام أكبر بمنظر المسرح والقاعة كي تبدو لطيفة إزاء مضيفتها. بيد أن قوة معاكسة تزامن هذه القوة النابذة وتنميتها رغبة التودد نفسها كانت ترد انتباه الدوقة باتجاه ملابسها الخاصة إلى ريش قبعتها وعقدها وصدارها وباتجاه ملابس الأميرة نفسها كذلك، الأميرة التي تبدو ابنة عمها وكأنما تعلن أنها من أتباعها وعبدتها لها جاءت إلى هنا لمحض لقاءها. وهي مستعدة أن تتبعها إلى مكان

آخر لو خطر لصاحبة المقصورة أن تذهب، ولا تنظر إلى باقي القاعة إلا على أنها مؤلفة من غرباء يدهشك منظرهم مع أنها تضم العديد من الأصدقاء الذين كانت في مقصورتهم في أسابيع أخرى والذين ما كان يفوتها أن تبدي إزاءهم الولاء الحصري والنسبي والأسبوعي نفسه. كان يدهش السيدة «دو كامبرمير» أن ترى الدوقة هذا المساء. فقد كانت تعلم أن هذه الأخيرة تظل في «غيرمانت» إلى وقت متأخر جداً وتفترض أنها لا تزال هناك. ولكنما نجي إليها أن السيدة «دو غيرمانت» كانت تأمر، بعدما تتناول الشاي مباشرة مع الخدم، بتجهيز إحدى عرباتها حينما يتوافر في باريس عرض يحكم أنه شيق وتنطلق بسرعة لدى غروب الشمس عبر الغابة التي يلونها الشفق ثم على الطريق لتستقل القطار في «كومبريه» فتكون مساء في باريس. وتفكر السيدة «دو كامبرمير» يهزها الإعجاب: «ربما جاءت من «غيرمانت» عمدا لتسمع «لايبرما». وكانت تذكر أنها سمعت «سوان» يقول بهذه اللغة الخاصة الملتبسة التي يشاركه فيها السيد «دو شارلوس»: «إن الدوقة من أكثر الناس سموً خلق في باريس ومن الصفوة الأكثر رهاقة ذوق والأوفر رقياً. أما بالنسبة إليّ، أنا الذي كان يشتق من اسم «غيرمانت» واسم «بافير» واسم «كونديه» حياة ابنتي العم وفكرهما (ولا يعني ذلك من بعد فيما يخص وجهيهما بما أنه أتفق لي أن رأيتهما) فلعلي كنت أفضل معرفة رأيهما في «فيدر» على رأي أعظم ناقد في العالم. لانني ما كنت لأجد في رأيه سوى الذكاء، ذكاء يفوق ما اجتمع لي، ولكنه من الطينة ذاتها. فأما ما كانت تفكر فيه دوقة «غيرمانت» وأميرة «غيرمانت» والذي زودني بوثيقة لانقدر بشمن حول طبيعة هاتين المخلوقتين الشاعرتين فقد كنت أنصوره بوساطة اسميهما وافترض فيهما سحراً غير معقول، وإنما سحر عشيات الصيف التي تنزهت أثناءها إلى جانب «غيرمانت» ما كنت أطلب، بظماً المحموم وحنينه، أن يرده إليّ رأيهما في «فيدر».

كانت السيدة «دو كامبرمير» تحاول تمييز نوع الملابس التي ترتديها ابنتا العم. أما فيما يخصني فما كنت أشك أن تلك الملابس خاصة بهما، لابعني أن الحلة ذات الياقة الحمراء أو الثنية الزرقاء كانت تخص حصراً فيما مضى آل «غيرمانت» وآل «كونديه» فحسب، بل كما هو بالأحرى بالنسبة إلى الطير أمر الريش الذي لا يقتصر على أنه حلة جماله ولكنه امتداد لجسمه. كانت ملابس هاتين المرأتين تبدو لي بمثابة تجسيد تلجي أو مزركش لنشاطهما الداخلي، وكما هو شأن الحركات التي سبق أن رأيت أميرة «غيرمانت» تقوم بها والتي ما شككت أنها توافق فكرة خفية، فقد كان يبدو الريش الذي يتحدّر من جبين الأميرة وصدار ابنة عمها الباهر البراق وكأنهما دلالتهما، وكأنما يؤلفان بالنسبة إلى كل من المرأتين ميزة تنطبق عليها وحدها وكنت أرغب معرفة دلالتها: فقد كان طائر الجنة يبدو وكأنما لا يمكن فصله عن الواحدة مثلما الطاووس عن «يونون»^(١) وما كنت أحسب بمقدور أية امرأة أن تغتصب صدار الأخرى البراق أكثر مما تفعل بترس «مينيرفا»^(٢) اللامع ذي الحواشي. وحينما كنت أوجه ناظري صوب تلك المقصورة فكأنما تيسر لي أن أبصر، أكثر ما يتفق لي في سقف المسرح حيث رسمت صور رموز جافة، بفضل تمزق السحب المألوفة العجائبي، مجلس الآلهة وهو يتأمل منظر الناس تحت ستارة حمراء في فرجة مضيفة بين اثنين من أعمدة السماء. كنت أتأمل هذا الظهور الإلهي المؤقت باضطراب يمزج به الشعور بأنني مجهول لدى جماعة الخالدين

(١) Junon إلهة رومانية ترمز إلى الحب الشرعي.

(٢) Minerve إلهة الحرب عند الرومان وينسبون إليها حماية الفنون والعلوم.

طمأنينةً. لقد سبق للدوقة أن رأيت مرة مع زوجها بيد أنها لابد لا تذكر ذلك بالتأكيد، وما كان يؤمنني أن يتفق لها من جرّاء المكان الذي تشغله في المقصورة الخاصة أن تنظر إلى تشابك المرجانيات المفصلة المشتركة في جمهور الصالة لأنني كنت أشعر شعور السعادة بكياني يذوب فيما بينهم حينما أبصرت، لحظة أقبل يرتسم ولاشك، بفضل قوانين الانكسار الضوئي، في مجرى العينين الزرقاوين الهادئ الشكل المبهم لوحيد الخلية المجرد من الوجود الفردي الذي كنته، أبصرت ضياء يشرق فيهما: فقد رفعت الدوقة، وقد انقلبت من إلهة امرأة ربدت لي فجأةً بذلك ألف مرة أكثر جمالاً، رفعت نحوي يدها التي لفها قفاز أبيض، وكانت تستند بها على حافة المقصورة، وحركتها عربونا للصدقة، وأحسّت نظراتي بالتوهج غير المقصود والبرق المنبعثين من عيني الأميرة يلتقيان بها، وقد ألهمتني الأميرة دونما علم منها بمحض تحريكهما لمحاولة أن ترى من حيث ابنة عمها، وقد أمطرتني هذه الأخيرة، بعدما تعرفتني، بوابل من بروق ابتسامتها السماوية.

كنت أمضي الآن كل صباح، قبل ساعة خروجها بكثير، لأقف بعد عطفة في زاوية الشارع الذي تنحدر فيه عادةً حينما كان يبدو لي أن لحظة مرورها أضحت قريبة كنت أعود بهيئة شاردة أنظر في اتجاه معاكس وأرفع عيني إليها حالماً أصل بمحاذاتها ولكن كما لو لم أتوقع البتة رؤيتها. وقد بلغ بي في الأيام الأولى أن انتظر أمام بيتها كي أكون أكثر يقيناً من أنني لن أخطئها. وفي كل مرة يفتح فيها الباب الرئيسي (ليسمح بمرور العديد من الأشخاص على التوالي ممن ليسوا من انتظار) كانت حركته تتوالى في فؤادي اهتزازات تستمر فترة طويلة لتهدأ. ذلك أنه ليس من متحمس لمثلة كبيرة لا يعرفها ويمضي في انتظار طويل أمام مخرج الفنانين، ليس من جمهور ساخط أو متعشق اجتمع ليستم أو يحمل على الاكتاف المحكوم أو الرجل العظيم الذي يخيل إليهم أنه وشيك المرور كلما تناهت إلى الاسماع ضجة من داخل السجن أو القصر، ليس منهم البتة من كان بمثل اضطرابي وأنا أنتظر رحيل هذه السيدة الكبيرة التي كانت بأثوابها البسيطة تدرك، بفضل رشاقة مسيرتها (التي تختلف كلياً عن المشية التي تتخذها حينما تدخل إلى صالة أو إلى مقصورة)، كيف تصنع من نزهتها الصباحية - وليس في نظري من يتنزه في العالم سواها - قصيدة كاملة من الأنافة وأرق أنواع الزينة وأطراف أزاهير السماء الصباحية. ولكنني مضيت بعد ثلاثة أيام إلى أبعد من ذلك بكثير وحتى نقطة ما من خط سير الدوقة المعهود كي لا يستطيع البواب أن يتنبه لحيثي. غالباً ما كنت أقوم على هذا النحو، قبل هذه الأمسية في المسرح، ينزهات قصيرة قبل الغداء حينما يكون الطقس صحواً. فإن سبق أن هطل المطر كنت أنحدر للسير بضع خطوات فألح فجأةً طالبة داخلية تتبعها معلمتها أو بائعة حليب بأكمامها البيضاء تتقدم على الرصيف الذي لا يزال مبتلاً وقد استحال بفعل الضياء لكأ ذهبياً في اشراقه مفترق طرق يعصف به ضباب تدبغه الشمس وتشقره، فأظلل لأحرك بي أضغ يداً على قلبي الذي انطلق مذ ذاك نحو حياة غريبة، وكنت أجهد في تذكر الشارع والساعة والباب الذي اختفت خلفه البنية (التي كنت أتبعها أحياناً) دون أن تعاود الخروج. كانت سرعة زوال تلك الصور التي أداعبها والتي أمني النفس بمحاولة رؤيتها من جديد، كانت تحول لحسن الحظ دون أن تنغرس بشدة في ذاكرتي. وماهم، لقد كنت أقل حزناً أن أكون مريضاً وأنني لم تحالفني الشجاعة بعد في يوم للشروع في العمل ومباشرة كتاب، وتبدو الأرض في عيني أمتع للسكنى وقضاء الحياة أبعث على الاهتمام منذ أخذت أرى أن شوارع باريس، شأن طرقات «باليك» تزدان بتلك الحسان المجهولات اللواتي ما أكثر ما حاولت أن يطلعن من أحراج «ميزيكليز» واللواتي كانت كل منهن

تثير رغبة واشتهاء تبدو وحدها قادرة على اشباعهما.

كنت قد أضفت للغد، لدى عودتي من دار الأوبرا، إلى الصور التي كنت اتمنى لقبها ثانية منذ بضعة أيام، صورة السيدة «دو غيرمانت» بقامتها المديدة وتسريحة شعرها الاشقر اللطيف العالية وعود الحنان هي الابتسامة التي وجهتها إليّ من مقصورة ابنة عمها. سوف أتبع الدرب الذي روت لي «فرانسواز» أن الدوقة تسلكه وسوف أجهّد مع ذلك أن لا تفوتني ساعة الانصراف من درس ومن تعليم مسيحي بنية أن أعود فألتقي بفتاتين كنت رأيتهما قبل البارحة. إلا أن ابتسامة السيدة «دو غيرمانت» المتألفة والاحساس بالعدوية الذي خلفته فيّ كانا يعودان إليّ في تلك الأثناء بين حين وآخر. ودون أن أعلم بالتمام ما كنت أفعله، كنت أحاول وضعهما (مثلما تنظر امرأة إلى الاثر الذي قد يخلفه على أحد الفسطين نوع معين من أزرار أحجار كريمة جيئت بهامند قليل) إلى جانب الافكار الخيالية التي كنت أحملها منذ فترة طويلة والتي أطلقها من عقاليها فتور «ألبيرتين» ورحيل «جيزيل» المبكر ومن قبلهما الانفصال المتعمد والمطول جدا عن «جيلبيرت» (كأن تحبني امرأة على سبيل المثال وأن تكون لي حياة مشتركة معها). ثم كنت أقرب من تلك الافكار صور هذه أو تلك من الفتاتين وأجهّد بعدها في الحال في مواءمة ذكرى الدوقة معها. كانت ذكرى السيدة «دو غيرمانت» في الأوبرا أمراً هيناً جداً بالمقارنة مع تلك الأفكار، وما يشبه النجمة الصغيرة بالقرب من الذيل الطويل الذي لمذنبها الملتهب. ثم إنني إلى ذلك كنت أعرف هذه الأفكار تمام المعرفة قبل تعرّفي بالسيدة «دو غيرمانت» بفترة طويلة، أما الذكرى فقد كنت على العكس أملكها على نحو غير تام، وكانت تغيب عني بين الحين والحين. كان عليّ في أثناء الساعات التي انتقلت فيها شيئاً فشيئاً من شكل غير ثابت في نفسي على غرار نساء أخريات جميلات إلى ترابط وحيد ونهائي - يستبعد أية صورة انثوية أخرى - مع أفكار الخيالية التي سبقتها بكثير، كان عليّ في أثناء بضع الساعات هذه التي كنت اذكرها فيها أفضل الذكرى أن انتبه لأعرف بدقة أية ذكرى كانت ؛ على أنني ما كنت أعلم آنذاك الأهمية التي كانت ترمع أن تتخذها بالنسبة إليّ ؛ ولكنها عذبة كانت كموعِد أول للسيدة «دو غيرمانت» في داخلي، لقد كانت الصورة الأولى، الحقيقية وحدها والتي صنّعت وحدها نقلاً عن الحياة والوحيدة التي كانت حقاً السيدة «دو غيرمانت» وطوال الساعات القليلة التي أسعدني أن تكون فيها ملك يدي دون أن أعرف كيف أصرف انتباهي إليها كان لا بد أن تكون، وأقصد تلك الذكرى، شديدة الروعة مع ذلك بما أن أفكاري في الحب كانت تعود أبداً إليها، ولا تزال تفعل بملء الحرية في ذلك الحين دونما عجلة ولا كلل ودون أن يداخلها شيء من الضرورة أو الضيق. ثم هي اكتسبت من تلك الأفكار، كلما رسختها هذه الأخيرة ترسيخاً نهائياً متزايداً، قوة أعظم ولكنها أضحت أشد إبهاماً، ولم يعد قليل أن أعود فألقاها، وما من شك أنني كنت أشوهها تماماً في أحلام يقظتي فقد كنت في كل مرة أبصر فيها السيدة «دو غيرمانت» ألاحظ فارقاً، دائم الاختلاف على أية حال، بين ما سبق أن تخيلت وما كنت أشاهد. كنت لا أزال أبصر الآن في كل يوم بالتأكيد، لحظة تطلع السيدة «دو غيرمانت» في أعلى الشارع، قامتها المديدة وذاك الحيا ذا النظرة الصافية تحت شعر خفيف، هذه الأشياء كلها التي من أجلها كنت هناك. ولكنني بالمقابل، وبعد مرور بضع ثوان حينما كنت أرفع ناظري، بعدما أشحت بهما في اتجاه آخر كي أبدو وكأنني لا أتوقع ذلك اللقاء الذي جئت أبحث عنه، إلى الدوقة في الوقت الذي كنت أبلغ فيه ما بلغت من سوية الشارع فإن ما كنت أراه آنذاك إنما كان علامات حمراء، لا أعلم إن كان مردها الهواء الطلق أو

تبتلع الجلد، تكسو وجها متجهماً يرد بإشارة شديدة الجفاء وبعدة جداً عن لطافة آسمية مسرحية «فيلدر» على تلك التحية التي كنت أتوجه بها إليها في كل يوم بمظهر الدهشة الذي ما كان يبدو أنه يسرها بيد أنه بعد انقضاء بضعة أيام كافحت في أثنائها ذكرى الفتاتين على نحو غير متكافئ في سبيل السيطرة على أفكار العشق لديّ ضد ذكرى السيدة «دو غيرمانت» كان أن عادت هذه الأخيرة في لنهاية أكثر المرات وكأنما من تلقاء ذاتها فيما أخذت منافساتها في الزوال. وكان أن نقلت في النهاية كامل خواطري في الحب إليها ولا أزال أفعل باختصار القول بملء إراداتي وكأنما باختياري ولمسرتي. لم أعد أفكر بينات التعليم المسيحي ولا ببائعة حليب معينة، مع أنه لم يعد بي أمل أن ألقى ثانية في الشارع ما كنت جئت أبحث عنه ولا الحنان الموعود في المسرح عبر ابتسامة ولا القوام وصفاء الحيا تحت الشعر الأشقر وما كانا كذلك إلا من بعيد. فما كنت حتى أستطيع الآن أن أقول كيف كانت السيدة «دو غيرمانت» ولا بما أتعرفها لأن الوجه في كل يوم وفي مجمل شخصيتها كان مختلفاً شأن القسطنطين والقبة.

فلماذا كنت أعلم ذات يوم، إذ أرى وجهاً عذباً أجلس يتقدم مواجهة تحت معطف خبازيّ وقد وزعت مواطن الفتنة فيه بالتناظر حول عينين زرقاوين وبدا فيه خط الأنف غائراً، لماذا كنت أعلم من جراء انفعال جذلان أنني لن أعود دون أن تتم لي رؤية السيدة «دو غيرمانت»؟ لماذا كنت أحس بالاضطراب نفسه، وأصطنع اللامبالاة نفسها وأشيح بعيني بطريقة شرود البارحة نفسها لدى الظهور الجانبي في طريق مختصرة وتحت قلنسوة نيلية لأنف على شكل منقار الطير على صفحة جنة حمراء تعترضها عين ثاقبة وكأنما إلهة من آلهة مصر؟ وذات مرة لم أبصر امرأة بأنف كمنقار الطير فحسب بل أبصرت كأنما طائراً؛ كان فسطان السيدة «دو غيرمانت» وحتى قلنسوتها من القراء فتبدو بهما إذ لا يسمحان برؤية أي قماش وكأنها مغطاة بفرو طبيعي ك بعض النسور التي يبدو ريشها الكثيف الأملس الأصهب الناعم وكأنه ضرب من القرو. وفي وسط هذا القرو الطبيعي كان الرأس الصغير يقف أنفه الذي كمنقار الطائر وكانت العينان البارزتان ثاقبتين زرقاوين.

وفي بعض الأيام كنت أفرغ من ذرع الشارع جيئة ورواحاً على مدى ساعات دون أن ألمح السيدة «دو غيرمانت» حينما يبرز فجأة في أقصى دكان لبان تختبئ بين فندقين في هذا الحي الارستقراطي والشعبي الوجه المبهم والجديد لامرأة أنيقة تستعرض «جينة بيضاء» عليها، وقبل أن يتسع لي الوقت لتمييزها كانت نظرة الدوقة تنطلق فتصيني وكأنما برق استغرق للوصول إليّ زمناً أقل من بقية الصورة. وكنت أدرك في مرة أخرى، إذ لم التق بها وسمعت الساعة تدق الثانية عشرة ظهراً، أن لاداعي من بعد لأن أظل انتظر فكنت أعود أدراجي حزينا إليّ لبيت ؛ ثم أدرك فجأة، وأنا مستغرق في خيبة ألمي أنظر إلى عربة تبتعد دون أن أراها، أن حركة الرأس التي قامت بها سيدة من الباب كانت موجهة إليّ وأن تلك السيدة التي تؤلف ملامحها المفككة الشاحبة أو المشدودة الزاهية على العكس في ظل قبة مستديرة أو في أسفل خصلة ريش عالية وجه غريبة خللتي لا أعرفها إنما كانت السيدة «دو غيرمانت» التي لم لي أن تخيني دون أن أرد حتى تخيتها. وأحياناً كنت ألقاها، وأنا عائد، في زاوية المقصورة حيث كان البواب المقيم الذي كنت أكره نظراته المتحرية يحييها تحيات واسعة ويقدم لها دون شك أيضاً «تقاريره». ذلك أن مستخدم آل «غيرمانت» كافة، كانوا يترصدون وهم يختفون خلف ستائر النوافذ، يترصدون بخوف الحوار الذي لا يسمعونونه والذي لم يكن يفوت الدوقة على إثره أن تحرم هذا الخادم أو ذاك، وقد وشى به البواب، نزهاته.

ولم يكُ حبي، بسبب جميع الأشكال المتعاقبة للوجوه المختلفة التي كانت تبرزها السيدة «دو غيرمانت»، وهي وجوه كانت تشغل مساحة نسبية ومختلفة تضيق تارة وتوسع طوراً في مجمل زينتها، لم يكُ متعلقاً بهذا الجزء أو ذاك من أجزاء الجسم والقماش، هذه المتغيرة التي كانت تخل حسب الأيام محل الأخرى والتي كان بوسعها أن تبدل فيها وتجدها ما يقارب التجديد التام دون أن تنال من اضطرابي لأنني كنت أحس عبرها، عبر الياقة الجديدة والوجنة المجهولة بأنها أبدأ السيدة «دو غيرمانت». فإن ما كنت أحبه إنما الشخصية الخفية التي تبعث الحركة في كل ذلك والتي يغمني عداؤها ويهزني قريبا والتي أردت لو أشد إليّ حياتها وأطرد أصدقاءها. كان بوسعها أن تضع ريشة زرقاء أو تبرز لوناً نارياً دون أن تفقد أعمالها من أهميتها بالنسبة إليّ.

ولو لم أشعر بنفسني أن السيدة «دو غيرمانت» قد عيل صبرها من جراء التقائي بها كل يوم لعلمت ذلك على نحو غير مباشر من الوجه الذي يفيض جفاء واستنكاراً واشفاقاً والذي تتخذه «فرانسواز» حينما تعينني في الاستعداد لهذه النزهة الصباحية. فما أن أطلب منها حوائجي حتى أحس بريح مضادة تهب في ملامح وجهها المنقبضة المتعبة. وما كنت أحاول حتى كسب ثقة «فرانسواز» لشعوري بأنني لن أفلح في ذلك. فقد كانت تملك سلطة ظلت طبيعتها غامضة أبداً عليّ تعلم بها في الحال كل ما يمكن أن يقع لوالدي ولي من أمر مكدر. ربما لم تكن خارقة لطبيعة وأمكن تفسيرها بوسائل اعلام كانت خاصة بها. من ذلك أن أقواماً متوحشة تستقي بعض الأخبار عدة أيام قبل أن ينقلها البريد إلى المستوطنين الأوروبيين وقد نُقلت إليهم في الواقع لا بالتخاطر بل من تلة إلى أخرى بوساطة نيران مشعلّة. وهكذا ربما سبق لخدم السيدة «دو غيرمانت»، في الحالة الخاصة المتعلقة بنزهااتي، أن سمعوا مولاتهم تعبر عن سأمها من أنها تلقاني دون مناص على دربها وردودا هذه الأقوال لـ «فرانسواز». كان بمقدور والديّ بالحقيقة أن يلحقا بخدمتي آخر غير «فرانسواز» وما كنت لأكسب في ذلك، فقد كانت «فرانسواز» في بعض الوجوه أقل «خادمية» من الآخرين. فقد كانت في طريقة إحساسها وظهورها طيبة ومشفقة، وقاسية ومستكبرة، ومرهفة ومحدودة وفي امتلاكها بشرة بيضاء ويدين حمراوين، كانت أنسة القرية النبيلة التي كان أهلها «من أصل مؤكّد» ولكنهم اضطروا، وقد ضاعت أموالهم، أن يزجوها في دنيا التخديم. وإنما كان وجودها في بيتنا جوّ الريف والحياة الاجتماعية في المزارع منذ خمسين عاماً وقد نقلاً إلى بيتنا بفضل ضرب من الرحلة المقلوبة يسعى فيها مركز الاصطياف إلى المسافرين. ومثلما تزدان الواجهة الزجاجية في متحف إقليمي بهذه القطع الغريبة التي لاتزال الفلاحات ينفذنّها ويزيننها بالشرائط في بعض المقاطعات كانت شقنتنا تزدان بأقوال لـ «فرانسواز» مستلهمة من وجهة نظر موروثية ومحلية وتخضع لقواعد مغرقة في القدم. وكانت تعلم كيف تعيد فيها، كأنما بخيوط ملونة، رسم أشجار الكرز والطيور في طفولتها والسرير الذي ماتت فيه والدتها والذي لاتزال تراه. بيد أنها على الرغم من كل ذلك أخذت، حالما بدأت تعمل لدينا في باريس، تشاطر الخدم في الطوابق الأخرى أفكارهم وأحكام تفسيرهم - ولعل أية واحدة أخرى كانت من باب أولى تفعل ذلك محلها - وتعوض الإجلال الذي تضطر أن تبديه لنا بأن تردد على مسامعنا ما كانت تقولها طاهية الطابق الرابع من بذيء القول عن مولاتها وتفعل بارتياح الخادم الذي بلغ حداً أخذنا نقول معه، وقد أحسنا للمرة الأولى في حياتنا بضرب من التضامن مع مستأجرة الطابق الرابع المقيّنة، أننا ربما كنا بالحقيقة أسياداً. وربما كان هذا الفساد في طباع «فرانسواز» محتما. فبعض ضروب الحياة شاذة إلى الحد الذي لا بد أن تورث معه حتماً بعض العيوب، كالحياة التي كان يقضيها الملك في قصر فرساي بين

رجال بلاطه، وهي في مثل غرابة حياة فرعون أو دوج، وأكثر من حياة الملك حياة رجال البلاط. على أن حياة الخدم هي دونما شك من غرابة أكثر فظاعة وإنما تحجبها عنا العادة وحدها. على أنني حتى لو صرفت «فرانسواز» لكان محتموا عليّ أن أحتفظ بالخدام نفسه حتى ضمن حدود تفاصيل أكثر خصوصية. ذلك أن آخرين عدة استطاعوا فيما بعد أن يعملوا في خدمتي، ومع أنهم كانوا يحملون من قبل العيوب العامة التي تطبع الخدم فما كان ذلك يحول دون أن يلمّ بهم لديّ تحول سريع. وبما أن قوانين الهجوم تحكم قوانين الرد فقد كان الجميع، لكي لا تنال منهم مواطن التنوعات في طباعي، يجعلون في طباعهم مواضع غائرة متماثلة وفي المكان نفسه، وكانوا في مقابل ذلك يغيّدون من الثغرات لديّ ليقيموا فيها مراكز متقدمة. تلك الثغرات ما كنت أعرفها. ولا التنوعات التي تسببها فرجاتها، لأنها بالضبط ثغرات. إلا أن خدمي أطلعونني عليها من جراء فسادهم التدريجي. فلقد عرفت عبري الطبيعية اللا متغيرة من جراء عيوبهم المكتسبة على نحو لا يتبدل، وزودتني طباعهم بضرب من الصورة السالبة عن طباعي. لقد سبق أن سخرنا كثيراً فيما مضى، أنا وأمي، من السيدة «سازرا» التي كانت تقول في حديثها عن الخدم: «هذه الطائفة وهذا الصنف». إلا أنه لا بد لي أن أقول إن السبب الذي من أجله لم يكن من داع لأتمنى استبدال أي شخص آخر بـ «فرانسواز» أن هذا الآخر إنما سيكون بالمقدار نفسه وعلى نحو محتم من طائفة الخدم العامة ومن صنف خدمي الخاص.

ثم إنني فيما يخص «فرانسواز»، لم أعان في حياتي قط ذلاً إلا لقيت له سلفاً على وجه «فرانسواز» تعازي جاهزة تماماً. وحينما كنت أحاول، عبر سخطي من أنها ترثي لحالي، الزعم بأنني حققت بالعكس نجاحاً كانت أكاذيبي تحطم دون جدوى على جدار تشككها الذي يفيض احتراماً ولكنه ظاهر للعيان وعلى الشعور الذي بها بمعصوميتها. ذلك أنها كانت تعرف الحقيقة، وكانت تكتنها وتقوم بمحض حركة صغيرة بشفتيها كأنما لا يزال فمها ملآن وتأتي على آخر قطعة طيبة. أو كانت تكتنها؟ لقد اعتقدت ذلك طويلاً على الأقل لأنني كنت لا أزال أتصور في تلك الفترة أن الحقيقة يتم نقلها إلى الآخرين بوساطة الكلمات. فحتى الكلمات التي يقولونها لي كانت تلقي في فكري الحساس مدلولها الذي لا يتغير لدرجة أنني ما كنت أعتقد بإمكان أن لا يجني واحد سبق أن قال لي إنه يجني أكثر مما تستطيع «فرانسواز» نفسها أن تشك بأن يتمكن كاهن، أو أي رجل آخر، بعدما تم لها أن تقرأ ذلك على صفحة جريدة، أن يعث إلينا بالبحان، في مقابل طلب تم إرساله بالبريد، بدواء ناجع ضد جميع الأمراض أو بوسيلة لمضاعفة دخولنا مئة مرة. (أما إذا أعطاها طبيبنا، بالمقابل، أبسط المراهم ضد الزكام فقد كانت ثمن، هي الصلبة في وجه أقسى العذابات، مما ينبغي لها أن تنتشقه مؤكدة أن ذلك كان «ينتف أنفها» وأن المرء لا يعلم من بعد أين يعيش). ولكن «فرانسواز» أعطتني، أول من أعطى، المثال (الذي لن يقدّر لي إدراكه إلا فيما بعد حينما زودني به ثانية وعلى نحو أشد إيلاماً، مثلما سئري في المجلدات الأخيرة من هذا الكتاب، شخص أغلى عليّ) بأن الحقيقة لا حاجة بها أن يقال لتبرز للعيان أننا ربما استطعنا التقاطها على نحو أوثق، دون أن ننتظر الكلمات وحتى دون أن نأخذها في حسابنا، في ألف من العلامات الخارجية وحتى في بعض الظواهر غير المرئية الشبيهة في عالم الطباع بما هي عليه التقلبات الجوية في الطبيعة المادية. ولعله كان بمقدوري الشك في الأمر إذ كثيراً ما كان يتفق لي حينئذ أن أقول أموراً لا تدخلها أية حقيقة في حين كنت أبرزها في الكثير من النجوى اللامقصودة الصادرة عن جسمي وأفعالي (التي كانت تفسر أحسن التفسير على يد «فرانسواز»؛ لعله كان بمقدوري الشك في الأمر،

إلا أنه كان ينبغي لذلك أن أعلم أنني كنت آنذاك كذاباً ومخادعاً في بعض الأحيان. ولكن الكذب والمخادعة كانت تحكمهما لدي، كما هي الحال لدى جميع الناس، تحكمهما على نحو مباشر وعارض، وفي سبيل أن يدافع فكري عن نفسه، مصلحة خاصة إلى حد أن فكري المنصب على مثل أعلى نبيل كان يدع لطباعي أن تنفذ في الظلام تلك الأعمال الملحة والهزيلة ولا يلتفت إليها ليراها.

وحينما كانت «فرانسواز» لطيفة معي في المساء وكانت تستأذني في الجلوس في غرفتي كان يخيل إليّ أن وجهها أضحى شفافاً وأني ألمح فيها الطيبة والصرامة. ولكن «جويان» الذي كانت له أدوار في إفشاء الأسرار لم أعرفها إلا فيما بعد كشف مذ ذاك أنها كانت تقول إنني لا أساوي الجبل الذي أشق به وإنني حاولت أن الحق بها كل ما أمكن من أذى وأخرجت أقوال «جويان» هذه أمامي في الحال وفي لون مجهول لديّ صورة عن صلاتي بـ «فرانسواز» مختلفة عن تلك التي كان كثيرا ما يطيب لي أن أحط بنظراتي عليها والتي كانت «فرانسواز» دون أدنى تردد تعبدني فيها ولا تضيع فرصة في الاشارة بي إلى حدّ أنني أدركت أن العالم المادي لا يختلف وحده عن المظهر الذي نشاهده فيه، وأن كل حقيقة ربما كانت في مثل اختلافه عن تلك التي نحسب أننا ندرکها مباشرة والتي نكوّنها بوساطة أفكار لا تبرز للعيان ولكنها ناشطة، مثلما لن تبدو الأشجار والشمس والسماء على مثلما تبصرها لو عرفتها كائنات لها عيون كونت تكويننا مغايراً لعيوننا أو هي تملك من أجل هذا العمل أعضاء غير العيون تزودنا عن الأشجار والسماء والشمس بمقابلات لها ولكنها غير بصرية. وقد روعتني هذه الفرجة المفاجئة، على النحو الذي تمت به هذه الفرجة التي فتحتها ذات مرة «جويان» أمامي على العالم الحقيقي، مع أن الأمر لم يكن يتعلق إلا بـ «فرانسواز» التي قلما كنت أهتم بها. فهل كان الأمر كذلك في سائر العلاقات الاجتماعية؟ وإلى أي يأس يمكن أن يقودني ذلك ذات يوم إن كان الأمر واحداً في الحب؟ كان ذلك سرّ المستقبل. أما آنذاك فكان الأمر يدور حول «فرانسواز» وحدها. فهل كانت تعتقد اعتقاداً صادقا بما قالت لـ «جويان»؟ وهل قالتها لحض أن تخلف بين «جويان» وبينني، وربما كي لا يتم استخدام ابنة «جويان» لتحل محلها؟ ومهما يكن من أمر فقد أدركت استحالة أن أعلم على نحو مباشر وأكيد إن كانت «فرانسواز» تحبني أو تمقتني. وهكذا كانت أول من زودني بالفكرة التي مفادها أن الشخص، أي شخص، ليس واضحاً وثابتاً أمامنا بصفاته وعبوبه ومشروعاته ومقاصده لإزاءنا، كما سبق أن ظننت، (شأن حديقة تنظر إليها بجميع أحواضها عبر سياج) بل هو ظلّ لا نستطيع البتة النفاذ إليه وليس من معرفة مباشرة به ونشئ من حوله فيما يخصه ظنوناً عديدة بوساطة أقوال وحتى أفعال، ولا تزودنا هذه وتلك إلا بمعلومات غير كافية ومتناقضة على أي حال، ظلّ يمكن أن نتصور على التوالي وبمقدار الاحتمال نفسه أن الكراهية والحب يلتمعان فيه.

كنت أحب السيدة «دو غيرمانت» حقاً. ولعل أعظم سعادة كان يمكن أن أطلبها من الله كانت أن يصب عليها الفواجع كافة وأن تقبل عليّ بعدما تفقد كل مالها واعتبارها وتززع منها جميع الامتيازات التي تفصلني عنها، ولا بيت لها من بعد تسكنه ولا جماعة يقبلون أن يحيوها، أن تقبل عليّ لتسألني المأوى. كنت اتخيلها تفعل ذلك. وحتى في العشيات التي كان يجلب فيها تبدل ما في الجو أو في صحي لفيقة منسية إلى ساحة وعيي، وقد سجلت عليها انطباعاتي بالأمس، كنت أفضل بدلاً من الإفادة من قوى التجديد

التي ولدت منذ قليل في داخلي، وبدلاً من استخدامها لأستجلي في صدري أفكاراً كانت تخفى عليّ عادة، وبدلاً من مباشرة العمل، أن أتكلّم بصوت مرتفع وأفكر بطريقة مضطربة خارجية ما كانت سوى قول وحركة يدين لاجدوى منهما ورواية كاملة من مغامرات محضة عقيمة لا حقيقة لها تقبل فيها الدوقة وقد حل بها البؤس لتتوسل إليّ أنا الذي أصبح بفعل ظروف معكوسة غنياً ومقتدراً. وبعدما أقضي ساعات على هذا النحو أنخيل ظروفاً وانطق بجمل سوف أقولها للدوقة وأنا استقبلها تحت سقفي كان الوضع يظل على حاله. فقد اخترت في الواقع، والأسفي، اخترت بالضبط من أجل أن أحبها المرأة التي ربما جمعت أكبر قسط من الحسنات المختلفة والتي ما كان لي من جراء ذلك أن أتوقع حيازة أية مكانة في عينيها، فقد كانت بمثابة ثراء من كان أوفر الناس ثروة دون أن يكون من النبلاء ؛ ولا يدخل في الحساب ذلك السحر الشخصي الذي يفرض زيتها الخاص ويجعل منها من يبنهن جميعاً ما يشبه الملكة.

كنت أحس أنني لا أروقها أذ أمضي كل صباح للقائها. ولكن حتى لو توافرت لي الشجاعة لأظلم يومين أو ثلاثة دون أن أتّي ذلك، فربما لم تلاحظ السيدة «دو غيرمانت» هذا الامتناع الذي يمثل في نظري تضحية ذات بال، أو ربما ردتّه إلى حائل لادخل لإرادتي فيه. وما كان بالفعل باستطاعتي أن أفصح في التوقف عن الذهاب على طريقها إلا إذا تدبرت أمري ليستحيل عليّ إتيان ذلك، لأن الحاجة المتجددة دوماً إلى لقاءها وإلى أن أكون مقدار لحظة موضع اهتمامها والشخص الذي يوجه إليه سلامها، تلك الحاجة التي كانت أقوى من همي من أن أسوء في عينيها. كان ينبغي أن أبتعد إلى حين، وما كنت أجرؤ على ذلك. كنت أفكر في الأمر بين الحين والحين، وأقول لـ «فرانسواز» إذ ذاك أن ترتب حقائبي، ثم أن تفرغها بعد ذلك في الحال^(١). وما كانت تحب ذلك وتقول إني «أترجّح» أبدأ، إذ كانت تستخدم حين لا تبغي منافسة المحدثين لغة «سان سيمون» ذاتها. وصحيح أنه كان يروقها أقل من ذلك أيضاً حينما كنت أتحذّر بلهجة الأسياد. كانت تعلم أن الأمر غير طبيعي لديّ ولا يلائمني، وهو ما كانت تعبّر عنه بقولها «إن الارادي لا يماشي شخصيتي». وما كانت لتتوافر لي الجراءة في الذهاب إلا في اتجاه يقربني من السيدة «دو غيرمانت». ولم يكن ذلك بمستحيل. أفليس يعني بالفعل أنني أكثر قرباً منها مما كنت صباحاً في الشارع وأنا وحيد مُدّلّ أشعر أن ليس تصلها في يوم فكرة واحدة من الأفكار التي أردت لو أبعث بها إليها، وفي هذه المروحة في المكان نفسه التي تتم بها ترهاتي التي قد تدوم إلى ما لا حدود دون أن تجديني نفعا، — إن أنا ذهبت على بعد فرائس عديدة من السيدة «دو غيرمانت»، ولكن إلى منزل شخص تعرفه وتعلم أنه متصعب في انتقاء معارفه وهو يقدرني حق قدرتي ويستطيع أن يحدثها عني وإن لم يحصل منها على ما أريد فإن يعلمها على الأقل بذلك، شخص أضفي بفضل على أحلام يقظتي المتوحدة البكماء شكلاً جديداً منطوقاً ناشطاً يبدو لي تقدماً وما يقرب أن يكون انجازاً بمحض أن أنظر معه إن كان يستطيع أو لا يستطيع أن يأخذ على عاتقه إبلاغها هذه الرسالة أو تلك؟ وما كانت تفعله في أثناء الحياة الغامضة التي تقضيها سليله آل «غيرمانت»، ذاك الذي كان يؤلف موضوع تفكيري الحالم المستمر، أليس التدخل فيه، وإن على نحو غير مباشر وكأنما بعثة، وذلك بتحريك شخص لا يحظر عليه دخول فندق الدوقة وأمسياتها والحديث المستفيض معها، أليس ذلك اتصالاً أكثر بعداً ولكنه أوفر حقيقة من

(١) وبما أن شيطان التقليد والامتناع عن الظهور بحظّهم من ولت لأهمه يفسد الشكل الأقرب إلى الطبيعة والأوفر ثقة بلماته فقد كانت «فرانسواز» تقول إني «هبل» وكتب هذا التعبير من مفردات ابتنتها (وردت الحاشية في متن النص).

تألمي لها كل صباح في الشارع؟

كان يبدو لي أنني لم أكن أهلاً للصداقة والاعجاب اللذين يكنهما لي «سان لو» وظلاً لا يثيران اهتمامي.

وفجأة أوليتهما أهمية ووددت لو يكشف عنهما للسيدة «دو غيرمانت» ولعلني كنت قادراً أن أطلب إليه القيام بالأمر. ذلك أن المرء ينبغي حالماً يعشق أن يكون بمقدوره إذاعة سر جميع الامتيازات الصغيرة المجهولة التي يملكها على المرأة التي يحبها مثلما يفعل في الحياة المحرومون والثقلاء. ويعذبنا أنها تجهلها ونحاول أن نعزي النفس بقولنا إنها ربما تضيف إلى الفكرة التي تحمّلها عنك، بما أن هذه الامتيازات لا تظهر قط للعيان، هذا الاحتمال لميزات لا يعلمها المرء.

كان «سان لو» لا يستطيع منذ فترة طويلة المجيء إلى باريس إما بسبب متطلبات مهنته، حسيماً كان يقول، وإما بالأحرى بسبب صنوف غم كانت تسببها له عشيقته التي أوشك مرتين أن يقطع علاقاته بها. لقد سبق أن قال لي مراراً عن المتعة التي أوفرها له إن ذهب لرؤيته في تلك الحامية التي بحث اسمها في نفسي، بعد غد اليوم الذي غادر فيه «بالبيك»، الكثير من السرور حينما قرأته على مغلف أول رسالة وصلتني من صديقي. كانت، وهي أقل بعداً عن «بالبيك» مما قد يوهمك المشهد الأرضي كلياً، كانت واحدة من تلك المدن الصغيرة الأرستقراطية العسكرية المخاطة بحقول واسعة كثيراً ما يخفق فوقها أيام الصحو في البعيد ضرب من البخار الرنان المتقطع الذي يكشف - مثلما يرسم حاجز من شجر الحور بتعرجاته مجرى نهر لا تبصره - تبدلات مطارح كتبية في مناورة حتى ليبلغ الأمر بجو الجادات والشوارع والساحات أن يكتسب نوعاً من الاهتزاز الموسيقي والحربي وأن تتردد فيه الضجة الأكثر فظاظاً المنبعثة من عربة نقل أو من حافلة نداءات بوق غامضة يرددها السكون إلى مالا نهاية في الاسماع الواهمة. لم تكن بعيدة عن باريس إلى الحد الذي لا استطيع معه إذ أنزل من القطار أن أعود وألقى أمني وجدتي وأنا في سريري. وحالماً أدركت ذلك هزنتي رغبة مؤلة ويجمع لدي القليل جداً من الإرادة كيما أقرر الامتناع عن الرجوع إلى باريس والبقاء في المدينة. ولكننا القليل جداً كذلك لامنح مستخدماً أن يحمل حقيبتني إلى عربة وكي لا أتخذ وأنا أسير وراءه النفس الخالية التي لمسافر يراقب حوائجه ولا تنتظره أية جدة، ولا أصعد إلى العربة بطلاقة من يبدو، بعدما كف عن التفكير بما يريد، وكأنه يعلم ما يريد، ولا لأزود الحوذي بعنوان حي الفرسان. كنت أحسب أن «سان لو» سوف يجيء لينام تلك الليلة في الفندق الذي سأحل فيه كي أجعل أول اتصال بهذه المدينة المجهولة أقل إقلاقاً لي. ومضى رجل من الحرس في طلبه وانتظرته على باب المحلة أمام هذه السفينة التي تدوي بريح تشرين والتي كان يخرج منها في كل لحظة، إذ كانت الساعة تبلغ السادسة مساءً، يخرج رجال إلى الشارع أزواجاً يتنحنحون كما لو ينزلون إلى اليايسة في مرفأ غريب توقفوا فيه مؤقتاً.

ووصل «سان لو» وهو يتحرك في كل جهة ونظارته تطير أمامه. ولم أكن أعريت عن اسمي وكنت أتلهف إلى الاستمتاع بدهشته وغبطته.

وصاح إذ أبصرني فجأة فأحمر حتى أذنيه: «آه بالمشكلة، لقد حصلت على إجازتي الأسبوعية منذ

قليل ولن يمكنني الخروج قبل ثمانية أيام!

وإذ شغلته فكرة أن يراني أقضي هذه الليلة الأولى وحدي، لأنه يعرف أفضل من أي إنسان ما يعتريني من صنوف ضيق في المساء وكثيراً ما لاحظتها وهون منها في «بالبيك»، فقد كان يقطع شكواه ليلتفت إليّ ويوجه إليّ بسمات صغيرة ونظرات رقيقة غير متساوية يأتي بعضها من عينه مباشرة وبعضها الآخر عبر نظارته، وكلها تشير إلى الانفعال الذي يهزه من جراء لقيائي كما تشير إلى هذا الأمر الهام الذي ما كنت بعد أدركه ولكنه أضحي يهمني الآن، عنيت صداقتنا.

— «ياإلهي! وأين تزمع أن تنام؟ حقا إني لا أشير عليك بالفندق الذي تنزل فيه فهو إلى جانب المعرض حيث تزمع أن تبدأ الاحتفالات وسيكون ثمة جمهور ضخم. لا، الأفضل لك فندق «فلاندر» فهو قصر صغير قديم من القرن الثامن عشر بمفروشات قديمة، و«يلبس» إلى حد ما «لبوس النزل التاريخي القديم».

كان «سان لو» يستخدم في كل مناسبة عبارة «يلبس لبوس كذا» بدلاً من «يبدو» لأن اللغة المحكية، شأن اللغة المكتوبة، تحس بين الحين والحين بحاجة هذه التغيرات في معاني الالفاظ وصنوف التأنيق في التعبير. ومثلما يجهل الصحفيون في الغالب إلى أية مدرسة أدبية تعود «وجوه الأناقة» التي يلجؤون إليها، كذلك كانت مفردات «سان لو» وإلقاؤه نفسه مصنوعة من محاكاة ثلاث نزعات جمالية مختلفة لا معرفة له بأي منها ولكنه تشرب صيغها الكلامية على نحو غير مباشر. واختتم كلامه قائلاً: «إن هذا الفندق على أية حال يوافق إلى حد ما فرط حساسيتك السمعية، فلن يكون لك جيران. إني أعترف أن تلك مزية ضئيلة، فَمَا أنه يمكن أن يصل مسافر آخر في الغد فليس من داع لاختيار هذا الفندق في سبيل نتائج غير ثابتة. لا، إنما أوصيك به بسبب المظهر. فالغرف قريبة إلى القلب إلى حد ما والأثاث كله قديم ومريح مما يوحي بالاطمئنان». أما بالنسبة إليّ أنا الأقل ولماً بالفن من «سان لو» فقد كانت المتعة التي يمكن أن يوليها منزل جميل سطحية وتكاد تكون معدومة ولا يمكن أن تهدئ تباشير قلقي، وهو شاق كالذي كان بي بالأمس في «كومبريه» حينما لايجيء والدتي لتقول لي ليلة سعيدة أو ذاك الذي ألم بي يوم وصولي إلى «بالبيك» في الغرفة المفرطة الارتفاع التي تبعث منها رائحة «طيب العرب». وأدرك «سان لو» ذلك من نظرتي الثابتة.

— «ولكنك لا تبالي البتة يا صغيري المسكين بهذا القصر الجميل، وأنتك شديد الشحوب. وأحدثك أنا حديث البهيم عن أثاث لن يطاوعك الفؤاد حتى في النظر إليه. إني أعرف الغرفة التي قد يخصصونك بها، وإني شخصياً أجدها بهيجة ولكنني أتبين تماماً أن الأمر بالنسبة إليك وبالنظر إلى حساسيتك مختلف. لا تحسب أنني لا أفهمك، أنا لا أحس الأحساس نفسه ولكنني أضع نفسي مكانك».

وابتسم ضابط صف كان يجرب حصاناً في الباحة وهو شديد الاهتمام بحمله على الوثب ولا يستجيب لتحيات الجنود بل يصب وابلأً من الشتائم على رأس الذين كانوا يقفون في دربه، ابتسم في تلك اللحظة لـ«سان لو» وحيّ إذ لاحظ آنذاك أن ثمة صديقاً معه. ولكن حصانه انتصب بكامل قامته وهو يزيد. وارتمى «سان لو» على رأسه وأخذ بمقوده وأفلح في تهدئته وعاد إليّ وقال لي:

«أجل، أؤكد لك أنني أتبين ماتعانيه وأتألم من جرائه». وأضاف يقول، وهو يضع يده بحنان على

كنتني: «يتعسني أن أفكر أنني لو استطعت البقاء بالقرب منك فربما أمكنني بالتحدث إليك حتى الصباح أن أزيل عنك قليلاً من حزنك. وكنت أعرتك كتباً ولكنك لن تستطيع القراءة إن كنت على هذا النحو. ولن يتسنى من يحل محلي هنا، فقد أقدمت على الأمر مرتين على التوالي لأن صغيرتي كانت قد جاءت.»

وكان يقطب حاجبيه بسبب انزعاجه وبسبب جهده في البحث، شأن الطبيب، في أي دواء يمكن أن يستعمل في دائي. وقال لجندي يعبر طريقه:

«أسرع وأشعل نارا في غرفتي. هيا أسرع من ذلك، استعجل.»

ثم يلتفت إليّ من جديد وكانت النظارة والنظرة القصيرة تشيران إلى صداقتنا العظيمة.

«لا، فأنت ههنا في الحي الذي كثيراً ما فكرت فيه بك: لا أستطيع أن أصدق عيني وأحسني أحلم. والصحة، في نهاية المطاف، هل هي بالأحرى في شخص؟ سوف تروي لي عن كل ذلك بعد قليل. سوف نصعد إلى غرفتي ويحسن ألا نمكث كثيراً في الباحة فالهواء يهب قوياً هناك، أما أنا فكنت لا أحس به من بعد، ولكننا أخاف بالنسبة إليك، أنت الذي لم يتعوده، أن يصيبك البرد. والشغل هل باشرته؟ لا؟ ياما أغربك! لو اتفقت لي مواهبك ظننتني أكتب من الصباح إلى المساء. إنك تجد تسليّة أكبر في ألا تفعل شيئاً. وأية مصيبة أن يكون الضحال أمثالي من هم أبداً على استعداد لعمل ولا يريد من يستطيعون! ولكني لم أسالك حتى عن أخبار السيدة جدتك. إن كتابها عن «برودون» لا يفارقني.»

وطلع من أحد الأدراج ضابط مديد القامة جميل مهيب يمشي بخطى وثيدة جلييلة، وحياء «سان لو» وجمد تقلقل جسمه المستمر لم يكن ليرفع يده إلى جانب قبعته بحركة بالغة السرعة وتركها تسقط حال انتهاء التحية بحركة مفاجئة وهويديل جميع مواقع الكتف والساق والنظارة حتى بدت تلك اللحظة أقل جموداً منها توتراً عنيفاً تتعادل فيه الحركات المبالغ فيها التي جرت منذ قليل وتلك تزمع أن تبدأ. أما الضابط فقد رفع هو الآخر يده إلى قبعته العسكرية ولكن دونما استعجال ودون أن يقترب فبدأ هادئاً لطيفاً رزيناً امبراطوري المظهر يمثل باختصار القول نقيض «سان لو» تماماً. وهمس «سان لو» في أذني قائلاً:

- «يجب أن أقول كلمة للنقيب، فكن لطيفاً وامض فانتظرنني في غرفتي، إنها الثانية إلى اليمين في الطابق الثالث وسألتحق بك بعد لحظة.»

وانطلق مهرولاً تسبقه نظارته التي كانت تطير في كل اتجاه ومشى رأساً إلى النقيب الرزين الوثيد الحركة الذي كان يقاد إليه حصانه في تلك اللحظة والذي كان يصدر قبل استعداده لامتطاء صهوته بعض الأوامر نبيل في الحركات مدروس كأنما في بعض اللوحات التاريخية وكأنما هو ذاهب ينشد معركة زمن الامبراطورية الأولى في حين كان عائداً إلى منزله فحسب في البيت الذي استأجره للفترة التي سيمكث فيها في «دونسير» والذي كان يقع على ساحة سميت، وكأنما بفعل سخرية سابقة لأوانها إزاء هذا النابليوني النزعة، ساحة الجمهور. وتقدمت في الدرج وأنا أكاد أترحلقي لدى كل خطوة على تلك الدرجات المزروعة بالمسامير وأبصر

غرفاً عارية الجدران بصف أسرتها المزدوج وأمتعتها. ودلوني على غرفة «سان لو» فظللت فترة أمام الباب المغلق إذ كنت أسمع من يتحرك، كانوا يحركون شيئاً ويدعون آخر يسقط. كنت أحس أن الغرفة غير خالية وأن ثمة أحداً. ولم يكن ثمة سوى النار المشتعلة تحترق. لم تكن تستطيع الهدوء وكانت تبدل مواضع الحطبات تبديلاً أبعد ما يكون عن البراعة. فدخلت وتركت واحدة منها تنهاوى وجعلت أخرى يتعالى دخانها. وحتى حينما لا تبدي حراكاً، فقد كانت تُسمعك في كل حين، شأن السوق من الناس، أصواتاً كانت تظهر أمامي، بما أنني أشاهد اللهب يرتفع، على أنها أصوات تطلقها النار، إلا أنني لو كنت في الجانب الآخر من الجدار لخلتها تنطلق من شخص ينفّ ويمشي. وأخيراً جلست في الغرفة. كانت هنالك ستائر من قماش «الليبرتي» وأقمشة ألمانية من القرن الثامن عشر تحميها من الرائحة التي تنبعث من باقي البناء غليظة تفهه متفسخة كرائحة الخبز الأسمر. ولعلني كنت هنا، في هذه الغرفة، تناولت عشايتي ونمت بسعادة وهدوء. كان «سان لو» يبدو وكأنه حاضِر تقريباً فيها بفضل كتب العمل التي كانت على طاولته إلى جانب صور شمسية عرفت من بينها صورتني وصورة السيدة «دوغيرمانت» وذلك بفضل النار التي تعودت، في نهاية المطاف، الموقد فأخذت، شأن حيوان يرقد في انتظار حار وصامت ووفّي، تدع بين الحين والحين فحسب لجمرة أن تسقط فتتفرط أو تلعق جانب الموقد بلهبها. كنت أسمع تكتكة ساعة «سان لو»، ولا بد أنها لم تكن بعيدة عني. كانت تلك التكتكة تبدل في كل لحظة موقعها لأنني لم أكن أبصر الساعة. كان يبدو لي أنها تجيء من خلفي، عن يميني، عن يساري وتلاشي أحياناً كأنما هي بعيدة جداً. وفجأة اكتشفت الساعة على الطاولة. حينئذ سمعت التكتكة في مكان ثابت لم تتزحزح عنه بعد ذلك. كنت أحسب أنني أسمعها في ذلك المكان، وما كنت أسمعها هناك بل أراها إذ ليس للأصوات مكان. بيد أننا نقرنها على الأقل بحركات وهي بذلك نفيدنا في اتقائها وفي أنها تبدو وكأنها تجعلها ضرورية وطبيعية. ويتفق أحياناً بالطبع ألا يسمع من بعد مريض سدت أذناه سداً محكماً صوت نار شبيهة بالتي كانت تردد أصواتها في هذه اللحظة في موقد «سان لو» فيما تعمل على صنع جمرات ورماد تسمح لها فيما بعد بالسقوط في سلتها، وأن لا يسمع كذلك مرور الحافلات التي كانت تنطلق موسيقاها، على فترات منتظمة، في ساحة «دونسيير» الكبرى. وليقرأ المريض حينذاك فإذا الصفحات تقلب دونما ضجة وكأنما يقلبها إليه. وتخف الضجة المتناقلة المنبعثة من حمام يتم إعداده وتلطف وتبتعد كزقزقة سماوية. إن تراجع الضجة ونخفتها تجردها من كل قدرة عدائية لإزعاجنا. بعدما جئنا منذ قليل من جراء ضربات مطرقة كانت تبدو وكأنها تزلزل السقف على رأسنا يروقنا الآن أن نجمعها خفيفة رقيقة بعيدة كهمس الأوراق تلهو مع الأنسام على الطريق. إننا نحز نحاحات بورق لعب لا نسمعه إلى حد أننا نظن أننا لم نحركه وأنه يتحرك من تلقاء نفسه واستيق رغبتنا في اللعب معه فشرع يلعب معنا. ويمكن بهذا الصدد أن تساءل إن كان لا يجدر بنا بشأن «الحب» (نضيف إلى «الحب» أيضاً حب الحياة وحب المجد بما أن ثمة فيما يبدو أناسا يعرفون هاتين العاطفتين الأخيرتين) أن نفعل ما يفعله هؤلاء الذين يسدون آذانهم دون الضجة عوضاً عن أن يلتمسوا توقفها، وأن نصرف انتباهنا وحالتنا الدفاعية، شأنهم، إلى داخل ذاتنا وأن نعطيها لا الكائن الخارجي الذي نحبه بل قدرتنا على التألم من جرائه وذلك بمثابة حاجة يخضعانها.

وإما عدنا إلى الصوت، فلنزد من سماكة الكرات التي تسد القناة السمعية فإذا هي تضطر الفتاة التي كانت تعزف فوق رأسنا لحناً صاخباً للتخفيف التام. ولنطّل واحدة من تلك الكرات بمادة دهنية وفي الحال يخضع البيت كله لاستبدادها وتمتد قوانينها نفسها إلى الخارج، فالتخفيف التام ليس كافياً من بعد بل تقوم

الكرة على الفور بإغلاق المضارب ويختتم درس الموسيقى على نحو مفاجئ، والسيد الذي كان يسير فوق رأسنا يوقف طوافه دفعة واحدة، وينقطع سير العربات والحفلات كما لو يتم انتظار رئيس دولة. وإن تقليص الأصوات ليبحث أحياناً في النوم الاضطراب عوضاً عن أن يحميه. فالضجيج المتواصل كان لا يزال البارحة يحمل إلينا النوم في النهاية، شأن كتاب ممل، إذ يصف لنا على نحو لا ينقطع التحركات في الشارع وفي البيت. أما اليوم فتقلع صدمة أشد من الأخريات في أن تبلغ الأسماع، خفيفة كما الزفرة، لا يربطها رباط بأي صوت آخر، زائخة بالأسرار، على صفحة الصمت الممتد فوق نومنا، ويبدو الاستفسار الذي تبعته كافياً لإيقاظنا. ولننزع على العكس، مدى لحظة، قطع القطن المراكمة فوق غشاء طبلة المريض. يطلع فجأة ضياء الصوت، بل شمس الساطعة، تعمي الابصار وتنبعث من جديد في الكون. ويعود جمهور الضجيج المنفي بأقصى السرعة، ونشهد انبعاث الأصوات من الموت كما لو رتلها ملائكة موسيقيون. وتمتلئ الشوارع الخالية مدى لحظة بأجنحة الحفلات المنشدة، أجنحتها السريعة المتعاقبة. وما أن المريض قد أبدع في الغرفة نفسها لا النار، شأن «بروميثيوس»، بل صوت النار. وإن نحن زدنا من قطع القطن، إن نحن أطلقناها فكأنما نحرك بالتناوب هذه وتلك من الدواستين اللتين تمت إضافتهما إلى دوي العالم الخارجي.

يبد أن ثمة أيضاً إزالات للضجة ليست مؤقتة. فالذي أضحي كليّ الصمم لا يستطيع حتى تسخين زجاجة حليب على مقربة منه دون أن يضطر أن يرقب بعينه على الغطاء المفروح الوهج الأبيض الذي من أقاصي الشمال والشماليه بوهج عاصفة ثلجية وهو العلامة المنبئة التي يبدو من التعقل الانصياع لها بسحب المآخذ الكهربائية مثلما الرب يوقف الأمواج. ذلك أن الشكل البيضوي الصاعد المنقبض للحليب الذي يغلي إنما يتم مذ ذاك فيضانه في بضعة من التموجات المائلة وينفخ بضعة أشعة نصف منقلبة سبق أن غصنتها القشدة، ويدورها ويقذف منها في العاصفة شراعاً صديقاً، وإن تمّ تفادي العاصفة الكهربائية في الوقت المناسب، فإنما يجعلها انقطاع التيارات تدور جميعها على نفسها ثم يقذف بها إلى التهلكة وقد انقلبت تويجات «مانويليا». ولو لم يتخذ المريض الاحتياطات اللازمة بالسرعة الكافية لاضطر، إذ تكاد كتبه وساعته الغارقة لا تبرز بعد قليل على صفحة بحر أبيض، بعد هذا التيار المعاكس من الحليب، أن يستغيث بخادمته العجوز التي سوف تقول له، وإن كان رجلاً سياسياً شهيراً أو كاتباً كبيراً، إنه ليس أكثر تعقلاً من ابن خمس سنوات. وأحياناً أخرى يطلع شخص لم يكن هنا منذ قليل في الغرفة المسحورة أمام الباب الموصد، إنه زائر لم يتم سماع دخوله ويقوم بإشارات فحسب كما هي الحال في واحد من مسارح العرائس الصغيرة المريحة إلى حد بعيد بالنسبة إلى أولئك الذين كرهوا لغة الكلام. وبما أن فقدان أحد الحواس، بالنسبة إلى هذا الأصم الكلي، إنما يضيف إلى العالم مقداراً من الجمال يساوي ما يفعله اكتسابه، فهو ينتزه الآن مستمتعاً على أرض قاربت أن تكون من جنات عدن ولم يتم بعد فيها خلق الصوت. إن أكثر الشلالات ارتفاعاً تبسط لعينه وحدهما صفحتها البلورية وهي «أشد هدوءاً من البحر الساكن وفي صفاء شلالات الجنة. وبما أن الضجة حركة كانت تؤلف بالنسبة إليه قبل صممه الشكل المحسوس الذي يرتديه سبب حركة ما فإن الحاجات التي يتم تحريكها دون ضجة تبدو وكأنما تم لها ذلك دون سبب، وهي تظهر بعدما خلت من أية ميزة صوتية نشاطاً تلقائياً وتبدو وكأنما تدب الحياة فيها ؛ إنها تتحرك وتستن وتشتغل من تلقاء ذاتها. ومن تلقاء ذاتها تطير شأن وحوش ما قبل التاريخ الخرافية المجنحة. والخدمة التي كانت تبدي، قبل أن تكتمل العاهة، في منزل الأصم المنعزل الذي لا جيران له، حذراً أكبر منذ ذلك الحين وتتم في صمت، إنما تتم الآن بشيء من الخلعة على

يد بكم مثلما يتفق ذلك للملك من عالم الغرائب. وكما هي الحال على خشبة المسرح أيضاً لا يعدو البناء الذي يبصره الأصم من نافذته - ألكنة كان أم كنيسة أم دار مختار - كونه محض زينة. فإن اتفق أن ينهار ذات يوم فيمكن أن يبعث سحابة من الغبار ويخلف أنقاضاً مرئية، ولكنه يتهاوى، وهو أقل كثافة حتى من قصر مسرحي لا يملك مع ذلك رفته، يتهاوى في العالم المسحور دون أن يلوث تهاوي حجارتها المنحوتة الثقيلة نقاء السكون بتفاهة أية ضجة.

فأما السكون الذي يفوقه نسبة بكثير والذي كان يسود الغرفة العسكرية الصغيرة التي كنت فيها منذ حين فقد تحطم. لقد انفتح الباب ودخل «سان لو» مسرعاً وقد ترك نظارته تهوي. وقلت له:

- «آه! يا «روبير» كم يشعر المرء بالراحة لديك، وما أجمل أن يسمح بالعشاء والنوم ههنا!»

وأية راحة لا يشوبها غم كنت تذوقتها بالفعل، لو لم يكن الأمر ممنوعاً، يحميني هذا الجو الذي قوامه الاطمئنان واليقظة والمرح تغذيها جميعها ألف مشيئة منظمة لا قلق فيها وألف فكر غير مبال في هذه الجماعة الكبيرة التي هي الثكنة حيث اتخذ الزمان شكل العمل فحلت محل ناقوس الساعات الحزين الجوقة المفرحة نفسها المؤلفة من تلك النداءات التي كانت ذكرها الداوية معلقة باستمرار فوق رصيف المدينة، مفتتة مطحونة - هذا الصوت المتيقن من بلوغ الأسماع والموسيقى لأنه لم يكن أمر السلطة للطاعة فحسب، بل أمر الحكمة للسعادة!

وقال لي «سان لو» وهو يضحك: «آه! لعلك تفضل النوم ههنا بالقرب مني على الذهاب وحدك إلى الفندق».

فقلت له: «ويحك يا «روبير»، إنك قاسي القلب في حملك الأمر محمل السخرية بما أنك تعلم أنه مستحيل وأنتي سوف أقاسي الكثير هناك».

فقال: «يا لك! إنك ترضي كبريائي فقد خطرت لي هذه الفكرة تلقائياً، فكرة أنك ربما فضلت البقاء ههنا هذا المساء، وذلك بالضبط ما ذهبت أطلبه من النقيب».

وصححت قائلاً: «وهل أذن؟»

- «دون أية صعوبة»

- «آه! إنني أعبد»!

- «لا، تلك مغالاة». وأضاف قوله، فيما كنت أستدير لأخفي دموعي: «والآن دعني أنادي حاجبي كي يهتم بأمر عشاءنا».

ودخل عدة مرات هذا أو ذاك من رفاق «سان لو» فكان يلقي بهم خارجاً.

- «هيا، ارحل من هنا».

وكنت أطلب إليه أن يسمح لهم بالبقاء.

- لا، لا! فقد يرهقونك: فإنهم قوم غير مثقفين على الإطلاق ولا يستطيعون التحدث إلا عن سباقات الخيول، إن لم يتحدثوا عن حبس الدواب. ثم انهم حتى فيما يخصني قد يفسدون عليّ هذه اللحظات الثمينة جداً التي شد ما تفت إليها. ولأظن أنني إن أتحدث عن ضحالة رفاقي فليس يعني أن كل عسكرياً يفتقر إلى الفكر، وما أبعد أن يكون ذلك. إن لدينا رائداً هو رجل رائع. فقد ألقى دروساً عولج فيها التاريخ العسكري بمثابة برهان، بمثابة نوع من الجبر، وإن ذلك ليبلغ حتى على الصعيد الجمالي روعة استقرائية تارة وطوراً استنتاجية ولن تظل بارد الشعور إزاءها.

- «أفليس النقيب الذي سمح لي بالبقاء هنا؟»

- «لا، والحمد لله، لأن الرجل الذي «تعبده» لامر زهيد إنما هو أكبر معنوه حملته الأرض في يوم. إنه لا عيب فيه للاهتمام بالطعام ولباس رجاله، إذ يقضي ساعات برفقة الرقيب الأول ورئيس الخياطين، تلك عقليته. وهو شديد الازدراء على أية حال، شأن جميع الناس، للرائد الرائع الذي أحذثك عنه. وليس من يتردد على ذلك الأخير لأنه ماسوني ولا يبادر إلى كرسي الاعتراف. ولعل أمير «بورودينو» لا يستقبل البتة لديه هذا البورجوازي الصغير. بيد أنها وقاحة لاتدانيها وقاحة من رجل كان أبو جده مزارعاً صغيراً ولعله ظل على الأرجح مزارعاً لولا حروب نابليون. وإنه ليتبين قليلاً على أية حال الوضع الذي «لا هو خل ولا خردل»، وضعه في المجتمع. ويكاد هذا الأمير المزعوم لا يذهب إلى نادي سباق الخيل لشدة ما يشعر فيه بالضيق»، يضيف «روبير» الذي كان يجمع، وقد قادته روح المحاكاة إلى تبني نظريات أسياذه الاجتماعية ومزاعم والدته المجتمعية، يجمع دون أن ينتبه للأمر إلى حب الديمقراطية ازدراء نبلاء الامبراطورية.

كنت انظر إلى صورة عمته وزادت الفكرة التي قوامها أن «سان لو» ربما استطاع، إذ يملك هذه الصورة، أن يعطيني إياها، من محبتي له وتمنيتاني أن أردّ له ألفاً من الخدمات التي كانت تبدو لي من زهيد الأمور في مقابلها. ذلك أن تلك الصورة الضوئية إنما كانت بمثابة لقاء آخر يضاف إلى اللقاءات التي سبق أن تمت لي بالسيدة «دو غيرمانت»، بل وأفضل من ذلك لقاء مطول كما لو توقفت بالقرب مني، بفعل تقدم مفاجئ في علاقاتنا، وعلى رأسها قبعة حدائق، وأتاحت لي لأول مرة أن أنظر غير معجل إلى سمين وجنتها وعطفة عنقها وزاوية حاجبيها (هذه التي حجبته عني حتى ذلك سرعة مرورها ودوار انطباعاتي ولا تماسك الذكري لدي)؛ وكان تأملها بمثابة اكتشاف لذيذ ومنة بالنسبة إليّ بقدر ما هو تأمل الصدر والذراعين لدى امرأة ما رأيته قط إلا في فسطاط عالي القبة. وهذه الخطوط التي كان يبدو لي النظر إليها محظوراً تقريباً سوف يمكنني دراستها هنا وكأنما في بحث للهندسة الوحيدة التي تحمل قيمة في نظري. وتبينت فيما بعد وأنا أنظر إلى «روبير» أنه يبدو هو الآخر إلى حد ما وكأنه صورة لعمته، وفي جو من الاسرار يقارب أن يحمل إليّ الانفعال نفسه بما أن وجهيهما يشتركان في أصل واحد وإن لم ينتج وجهها هي وجهه على نحو مباشر. إن ملامح دوقة «غيرمانت» التي كانت مثبتة في الصورة التي أحملها عن «كومبريه»، الأنف الذي كمنقار الصقر والعينين الثاقبتين. كانت تبدو وكأنها أفادت كذلك- في نسخة أخرى ماثلة ودقيقة من بشرة مفرطة الرقة - في تحديد صورة «روبير» التي تطابق تقريباً صورة عمته. كنت أنظر نظرة حاسدة إلى هذه الملامح المميزة لآل «غيرمانت»، لهذه السلالة التي ظلت متميزة إلى حد بعيد وسط العالم الذي لا تضع فيه والذي

تظل منفردة فيه في أمجادها الرائعة التي من عالم الطير إذ تبدو وكأنها انحدرت إبان عصور الميثولوجية من اقتران الهة بطائر.

لقد اهتزت مشاعر «روبير» من جراء تأثري دون أن يعرف أسبابه. وكان ينضاف إلى هذا التأثير من جهة أخرى الارتياح الذي يسببه دفء النار وخمرة «شامبانيا» التي كانت ترصع في آن معا جيبني بقطرات العرق وعيني بالدموع. كانت تسقي فراخ حجال وكنت أكلها بدهشة غير المطلع أيا كان حينما يلقي في عيشة لم يكن يعرفها ما ظن أنه يتنافى وإياها (كدهشة الملحد يصيب عشاء لذيقاً في بيت كاهن رعية). وفي صباح الغد بادرت حينما استيقظت إلى القاء نظرة من نافذة «سان لو» التي كانت بموقعها الشديد الارتفاع تشرف على كامل المنطقة، نظرة فضول للتعرف بالسهل الجاري الذي لم أتمكن من مشاهدته بالأمس لانني وصلت في ساعة متأخرة جداً أن كان يغني في الظلام. ولكنني لم أره، مهما بكر في استيقاظه، لم أره وأنا أفتح النافذة إلا مثلما يرى من نافذة قصر الغدير، إلا وهو يدثر بعد ثوبه الصباحي الناعم الأبيض الذي من ضباب ويكاد لا يتيح لي أن أميز شيئاً. ولكنني كنت أعلم أنه سيكون قد خلعه قبل أن ينهي الجنود الذين يهتمون بالخيال في الباحة عملية حسها. وما كنت أستطيع أن أبصر بانتظار ذلك سوى تلة قليلة الخصب ترفع بجانب الحي تماماً ظهرها الهزيل الخشن الذي خلغ الظلام عنه؛ ولا كنت أرفع ناظري من خلال الستائر التي يخرمها الصقيع عن هذه الغربة التي كانت تنظر إلي لأول مرة. ولكن حينما تعودت المجيء إلى الحي فقد أفضى الشعور بأن التلة كانت هناك وأكثر حقيقة بالتالي، حتى حين لا أراها، من فندق «البليك» ومن بيتنا في باريس اللذين كنت أفكر فيهما وكأنما في غياب، كأنما في موتي، أي دون أن أعتقد بوجودهما من بعد، أفضى إلى أن ارتسم شكلها المنعكس باستمرار، حتى دون أن أنتبه للأمر، على أدنى الانطباعات التي وقعت لي في «دونسيير»، ولئن بدأت بهذا الصباح فعلى الانطباع الطيب بالدفء خلفته في الشوكولاته التي أعدها حاجب «سان لو» في هذه الغرفة المريحة التي وكأنها مركز بصري لمشاهدة التلة (إذ أن فكرة القيام بغير النظر إليها كفكرة التنزه عليها مستحيلة من جراء هذا الضباب نفسه الذي يغطيها). وأقبل هذا الضباب الذي يبلل شكل التلة ويقترب بطعم الشوكولاته وبكامل أرضية أفكاري آنذاك. أقبل دون أن أمحضه أقل فكرة يبلل كل أفكاري في ذلك الحين كما سبق أن ظل ذلك الذهب الخالص الذي لا يفسد يقرن بانطباعاتي عن «البليك» أو كما كان يضيفي وجود صخور رملية سوداء بجوار الأدراج الخارجية بعض الرمدة على انطباعاتي عن «كومبريه». على أنه لم يستمر حتى وقت متأخر في الصباح فقد بدأت الشمس فاستخدمت ضده دون جدوى بعض سهام زيتته بشرائط ماسشية ثم أحرزت الغلبة عليه. واستطاعت التلة أن تعرض أردافها الشهباء لاشعة الشمس التي كانت تضيء على حمرة أوراق الأشجار وعلى حمرة اللصائق الانتخابية الموضوعة على الجدران وزرقتها حماسة تهزني بدوري وتجعلني أذرع وأنا أغني الطريق الذي أتمالك نفسي فيه كي لا أقفز من الفرع.

بيد أنه انبغى لي منذ اليوم الثاني أن أمضي لأنام في الفندق. وكنت أعلم سلفاً أنني أزمع حتماً أن ألقى فيه الكآبة. كانت بمثابة أريج خائق تنشأ بالنسبة إليّ منذ مولدي كل غرفة جديدة وأعني كل غرفة؛ ففي تلك التي أسكنها عادة لم أكن حاضراً إذ كان فكري يمحث في مكان آخر ويبعث مكانه بالعادة فحسب. غير أنه لم يكن بمقدوري تكليف هذه الخادمة الهينة الإحساس بالاهتمام بأمواري في بلد جديد كنت أسبقها فيه وأصل إليه وحدي وينبغي لي فيه أن أقيم الاتصال بين الأشياء وهذه «الأنا» التي ما كنت ألقاها إلا قبل

سنوات خلّت ولكنها واحدة لا تتبدل على الدوام ولم تكبر منذ «كومبريه»، من قديمي الأول إلى «باليك» أبكي، دون أن يمكن مواساتي، على زاوية حقيبة مفتوحة.

بيد أنني كنت مخطئاً، فلم يتسع لي الوقت للكتابة إذ لم أظل وحدي لحظة واحدة. ذلك أنه بقي من القصر القديم فائض من البذخ لا يستفاد منه في فندق حديث وقد دب فيه في بطالته بعدما جرّد من أي تخصيص عملي نوع من الحياة: فممرات تعود أدراجها ونلتقي في كل لحظة بندوقها ورواحها اللذين لا هدف لهما، وردّهات طويلة كحماش ومزخرفة على غرار صالات وتبدو وكأنها تسكن هناك أكثر من أنها تؤلف جزءاً من المسكن، ولم يسع أحداً أن يدخلها إلى أية شقة ولكنها كانت تطوف حول شقتي وأقبلت في الحال تعرض عليّ صحبتها - وهي من هؤلاء الجيران البطالين ولكنهم غير صاحبين، ومن أطيايف الماضي الثاني التي أذن لها بالبقاء دون صخب على باب الحجرات المؤجرة والتي كانت تبدي لي في كل مرة ألقاها فيها على دربي تودّدا صامتا. وقصارى القول أن فكرة المسكن، أي ما يحتوي فحسب حياتنا الراهنة ويقينا البرد فقط وعيون الغير، لم تكن تنطبق البتة على هذا المسكن وهو مجموعة من الحجرات حقيقية حقيقة جمهرة من الأشخاص تحيا بالحقيقة حياة صمت ولكنما يضطر المرء أن يلاقيها ويتجنبها ويرحب بها ساعة يعود. ويحاول الامتناع عن الازعاج ولا يستطيع أن ينظر بغیرما لإجلال إلى الصالة الكبيرة التي تعودت منذ القرن الثامن عشر أن تمتد ما بين دعائمها التي من ذهب عتيق وتحت سحب سقفها المرسوم. وكان يأخذك فضول أكثر الفة إزاء الحجرات الصغيرة التي تجري من حولها دونما اهتمام البتة بالتناظر، عديدة لا تخصى ذاهلة تهرب في فوضى حتى الحديقة حيث تنحدر بيسر كبير بثلاث درجات مثلثة.

وان شئت الخروج أو الدخول دون أن أسفل المصعد ودون أن يشاهدني أحد على الدرج الكبير كان ثمة درج أصغر خاص لم يعد يصلح للاستخدام، كان يقدم لي درجاته التي رصفت بمهارة كبيرة الواحدة بملاصقة الأخرى حتى ليبدو أن في تدرجها تناسبا تاماً من نوع ذاك الذي في الألوان والعطور والطعوم والتي غالباً ما تتحرك فينا شهوات خاصة. على أن الشهوة الكامنة في الصعود والنزول كان لابد لي أن أجيء إلى هنا لاعرفها، كمحالي بالأمس في محطة جبلية لأعلم أن فعل التنفس الذي لا نلاحظه عادة يمكن أن يكون لذّة مستمرة. وتم منحي هذا الإعفاء من الجهود الذي تهينا إياه وحدها الأشياء التي يطول استخدامها لها وذلك حينما وضعت قدمي أول مرة على تلك الدرجات المألوفة قبل أن أعرف كما لو امتلكت العذوبة لعادات لم أكتسبها بعد ولا يمكن حتى إلا أن تضعف عندما تضحي عاداتي أنا، تلك العذوبة التي ربما وضعها بل دمجها فيها أساندة الماضي الذين كانت تستقبلهم كل يوم. وفتحت غرفة فانغلق الباب المزدوج من ورائي وأدخلت ثنيات الستائر سكونا أحسست لنفسني عليه ضرباً من الملكية المسكرة. وكان موقد من المرمر مزين بقطع من النحاس المنقوش يوقد لي ناراً إذ من الخطأ الظن بأنه لا يفلح إلا في تمثيل فن «حقة المديرين»، وساعدني مقعد صغير قصير الأرجل على الاستدفاء استدفاء مريحاً كما لو كنت جالساً على السجادة. كانت الجدران تحتضن الغرفة فتفصلها عن بقية العالم، ثم تتباعد، كيما تدخل فيها، كيما تحتبس فيها ما يضفي عليها التمام، تباعد أمام المكتبة وتخلي جانباً تغور السرير، وعلى جانبيه أعمدة تحمل برشاقة سقف المجدع المعلي. وكانت الغرفة تستطيل في اتجاه العمق بفعل حجرتين يمثل عرضها تعلّق الأخيرة على جدارها لتعطر الخشوع

الذي نبحت عنه فيها مسبحة شهية من حبات قزحية. والأبواب إما تركتها مفتوحة بينما كنت اختلي في هذا المعتزل الأخير، ما كانت الأبواب تكتفي بتلثه دون أن يكف عن كونه متناسقاً ولا تسمح لنظراتي بتذوق متعة الاتساع بعد لذة التركيز فحسب بل تضيف كذلك إلى متعة عزلي، التي تظل لاثوبها شائبة وتكف عن كونها محتجزة، الشعور بالحرية. كانت هذه الخلوة تطل على باحة، على متوحدة جميلة سعدت بأن تكون جارتي حينما اكتشفتها صباح الغد سجينة بين أسوارها العالية التي لاتمدّها بالنور أية نافذة ولا تملك سوى شجرتين مصفرتين كانتا تكفيان لإضفاء عذوبة بنفسجية على السماء الصافية.

وأردت قبل النوم أن أخرج من غرفتي لاستكشاف كامل مملكتي الساحرة وسرت وأنا أتبع رواقاً طويلاً كرمّني على التوالي بكل ما يسهه أن يقدمه لي إن لم أشعر بالنعاس، فمقعد يقبع في زاوية ومعزف قيثاري، وفوق طاولة جدارية وعاء من الخزف الأزرق مليء بالنباتات التزيينية، وفي إطار قديم طيف سيدة من الماضي ذات شعور معقّرة بالمساحيق تخالطها أزاهير زرق وتمسك بيدها طاقة من زهر القرنفل. ولما وصلت آخر الرواق قال لي جداره المصمت الذي خلا من أي باب، قال بسذاجة: «الآن ينبغي أن تعود أدراجك ولكن أنت في بيتك، كما ترى»، فيما تضيف السجادة الوثيرة كي لاتؤخذ بالقصور أنني أستطيع إن لم أتم هذه الليلة أن أجيء حافي القدمين، وتؤكد لي النوافذ التي لامصارع لها والتي كانت تتأمل السهول أنها سوف تقضي ليلة بيضاء وأني إن جئت في الساعة التي أريدها فليس لي أن أخشى إيقاظ أحد. على أنني فاجأت ستارة حجرة صغيرة استوقفها الجدار ولم تستطع الهرب فاختبأت هنا خجلى تنظر إليّ بهلع من كوثها التي انقلبت إلى زرقة من جراء ضياء القمر. وأريت إلى فراشي ولكن وجود اللحف والاعمدة الصغيرة والموقد الصغير حال، إذ وضع اهتمامي في درجة لم يكن فيها في باريس، دون أن أصرف نفسي إلى رتبة أحلامي المعتادة. ولما كانت حالة الاهتمام الخاصة هذه هي التي تغلف النوم وتؤثر فيه وتبدله وتضعه على سوية واحدة مع هذه السلسلة أو تلك من ذكرياتنا فإن الصور التي ملأت أحلامي في هذه الليلة الأولى قد استمدت من ذاكرة مختلفة اختلافاً كلياً عن تلك التي كان يستعين نومي بها. ولو أغرائي أثناء النوم أن أسمح لنفسي بالانجذاب باتجاه ذاكرتي المألوفة فإن السرير الذي لم أعوده والاهتمام الرقيق الذي اضطّر أن أصرفه إلى أوضاع جسمي حين كنت أقلب كانا كافيين لتقويم مجرى أحلامي الجديد أو للحفاظ عليه. فالنوم أمره كأمر إدراك العالم الخارجي ؛ يكفيك تبدل في عاداتنا كي ينقلب شاعرياً، يكفي أن نكون أثناء خلج ملابسنا قد أغفينا على سريرنا دون أن نبغي ذلك حتى تتغير أبعاد النوم ويتم الإحساس بجماله. ونستفيق ونرى أنها الساعة الرابعة في ساعتنا ؛ إنها محض الرابعة صباحاً ولكننا نظن أن النهار كله انقضى لشدة ما بدت لنا هذه الاغفاءة التي امتدت بضع دقائق والتي لم نسع إليها وكأنها انحدرت من السماء بموجب حق إلهي ضخمة ملآنة مثل كرة امبراطور ذهبية. وإذا أزعجني في الصباح أن أحسب أن جدي كان جاهزاً وأنهم ينتظرونني للذهاب من جهة «ميزيكليز» فقد أيقظتني موسيقى كنيية ظلت تمر كل يوم تحت نافذتي. ولكن النوم الواقع بيني وبينها أبدى مرتين أو ثلاث مرات - وأقول ذلك لأن المرء لا يستطيع وصف حياة الناس وصفاً صحيحاً إن لم ينمسه في النوم الذي ينفوس فيه والذي يلتف من حولها ليلة إثر ليلة مثلما الجزيرة يحيط بها البحر - من المقاومة ما يكفي ليحتمل صدمة الموسيقى ولم أسمع شيئاً. وفي الأيام الأخرى تراجع لحظة ولكن وعيي، ولا يزال يغطيه مخمل النوم كذلك

الأعضاء التي سبق تخديرها والتي لا تحس بكَيّ، ظلّ بادئ الأمر خارج الإحساس، إلا في أقصى نهايته وبمناة حرق طفيف، لكن وعيي لم تمسه إلا مساً رقيقاً تنمات الناي الحادة التي كانت تداعبه بزققة صباحية مبهمة وندية. وبعد هذا الانقطاع الطفيف الذي استحال السكون فيه موسيقى كان يعود فيغشاني مع النوم حتى قبل أن يكون الخيالة قد أنهوا عبورهم فيختلس مني الحزم الأخيرة المتفتحة للباقة المتدفقة الرنانة. وكانت منطقة وعيي التي لامستها تلك السوق المتدفقة لمساً رقيقاً ضيقة ويلفها النوم إلى الحد الذي لم أكن متيقناً معه فيما بعد، حينما سألتني «سان لو» إن كمنت سمعت موسيقى، إن لم يكن صوت الموسيقى وهمياً قدر ذلك الذي كنت اسمعه يرتفع في النهار على إثر أقل ضجة فوق بلاط المدينة. فلعلني ما سمعته إلا في حلم وخشية أن أستيقظ أو لا أستيقظ على العكس فلا أشاهد العرض. ذلك أنني حينما كنت أظل نائماً في الفترة التي ظننت فيها على العكس أن الضجة لا بد أيقظتني، كثيراً ما كنت أعتقد ذلك على مدى ساعة فيما أوالي النوم وأمثل لنفسي بظلال رقيقة على شاشة نومي المشاهد المختلفة التي كانت تحول دون مشاهدتي لها ولكنني أتوهم أنني أشهدها.

فما لعلنا كنا فعلنا في النهار إنما يتفق بالفعل إذ يحل النوم أن لا نقوم به في الحلم، يعني بعد عطفة النعاس، يسلك درب غير الذي قد نسلكه في اليقظة. فالحقصة نفسها تدور ولها نهاية مختلفة. وعلى الرغم من كل شيء فإن العالم الذي نعيش فيه في أثناء النوم مختلف إلى حد أن الذين يصادفون مشقة في الإغفاء إنما يحاولون قبل كل شيء الخروج من عالمنا. فبعدما يقلّبون على نحو يائس وعلى مدى ساعات، والعيون مغمضة، أفكاراً شبيهة بتلك التي ربما ساورتهم وعيونهم مفتوحة إذا بهم يستعيدون عزميتهم إن تبينوا أن الدقيقة السابقة قد أفلتتها تماماً محاكمة تتناقض تناقضاً صريحاً مع قوانين المنطق وبداهة الحاضر إذ يعني هذا «الغياب» القصير أن الباب مفتوح ذاك الذي ربما كان بمقدورهم أن يفتلوا منه في الحال من إدراك الواقع وأن يبادروا إلى استراحة بعيداً عنه في كثير أو قليل، الأمر الذي سيمنحهم نوماً عميقاً إلى حد ما. ولكننا يتم انجاز خطوات كبيرة حينما نولي الواقع ظهراً وحينما نبلغ الكهوف الأولى التي تعد «الابحاث الذاتية» فيها، شأن الساحرات، «الطبخة» الجهنمية للأمراض الوهمية أو لتفاهم الأمراض العصبية، وترصد الساعة التي تنطلق فيها النويات المراكمة في أثناء النوم اللاواعي بما يكفي من القوة لإيقافه.

وعلى مسافة غير بعيدة تقع الحديقة المخصصة التي تنمو فيها كزهور مجهولة أصناف النوم الشديدة الاختلاف بعضها عن بعضها الآخر، فنوم الداتوره الشائكة والقنب الهندي وخلاصات الأثير العديدة، ونوم حشيشة «ست الحسن» والأفيون والناددين، تلك الزهور التي تظل مطبقة حتى اليوم الذي يجيء فيه المجهول المصطفى منذ الأزل ليلمسها ويفتح أكمامها ويبعث على مدى ساعات طويلة شذا أحلامها الخاصة في كائن ذاهل مفتون. وفي أقصى الحديقة الدير ذو النوافذ المفتوحة حيث يوافي الأسماع ترداد الدروس المتعلمة قبل النوم والتي لن نعرفها إلا لدى الاستيقاظ، فيما يردد صوت تكنته ذاك المنبه الداخلي، وهو نذير الاستيقاظ، المنبه الذي احسن اهتمامنا ضبطه إلى حد أن خادمة المنزل سوف تلقانا على أتم استعداد عندما تجيء لتقول لنا: إنها السابعة. وعلى الجوانب المظلمة لهذه الغرفة التي تنفتح على الأحلام والتي يعمل فيها دون انقطاع نسيان غموم الحب ذاك الذي ينقطع فيه أحياناً ويفكك بفعل حلم مزعج مليء بالذكريات عمله الذي سرعان ما تتم معادته، على جوانبها تتدلى حتى بعدما نستفيق ذكريات الأحلام ولكنها مظلمة إلى حد أننا غالباً ما لا

نلمحها للمرة الأولى إلا في تمام فترة ما بعد الظهر حينما يقبل شعاع فكرة مشابهة إلى إضاءتها على نحو مفاجئ، وبعضها متناسق الوضوح في أثناء نومنا ولكننا بضحي مجهول المعالم إلى حد أنه لا يسمعنا بعد أن لم نتعرفه إلا أن نسارع ونرده إلى الأرض كما هو شأن أموات تفسخوا بسرعة كبيرة أو تحف دبّ فيها التلف إلى حدّ خطير وقاربت أن تنقلب تراباً حتى لا يستطيع أمهر المرممين أن يعيد إليها الشكل أو يستخرج منها شيئاً.

وبالقرب من السياج يقع المقلع الذي تبادر صنوف النوم العميق إلى البحث فيه عن المواد التي تغطي الرأس بطلاءات قاسية إلى حد أن إرادة النائم نفسها تضطرّ في سعيها لابقاظه، حتى في صباح ذهبي، أن تضرب بالفأس ضربات قوية على غرار «سيغفريد» شاب. وثمة فيما وراءها الأحلام لمزعجة كذلك التي يزعم الأطباء بنباء أنها متعبة أكثر من الأرق فيما تسمح للنائم على العكس أن يهرب من الانبعاث، الأحلام المزعجة بمجموعات صورها الطريقة التي يقع لوالدينا الميتين فيها حادث خطير لا يتنافى وشفاء قريباً. وإننا بانتظاره نقيهم في قفص صغير للفئران هم فيه أصغر من الفئران البيضاء ويوجهون إلينا، وقد غطتهم بثور حمراء كبيرة وانتصبت ريشة فوق كل منهم، خطابات شيشرونية. وعلى مقربة من كتاب الصور هذا تقوم أسطوانة المنبة الدوارة التي نعاني لحين بفضلها متعبة التزام الدخول عما قليل إلى بيت هدم منذ خمسين عاماً وتمّحي صورته، كلما ابتعد النوم، بفعل أخرى كثيرة قبل أن نصل إلى البيت الذي لا يبرز إلا بعدما توقف الأسطوانة ويطابق ذلك الذي سنراه بعينينا المفتوحتين.

ولم أكن قد سمعت شيئاً في بعض الأحيان وقد غرقت في واحد من صنوف النوم هذه التي يهوي فيها المرء وكأنما في حفرة يسعده أشد السعادة أن يرفع منها بعد قليل ثقيلًا متخماً يهضم كل ما جاءتنا به، على غرار الحوريات اللائي كن يغذين «هيركوليس»، هذه القوى المبهمة الرشيقة التي يتضاعف نشاطها في أثناء نومنا.

ذلك يدعي نوماً ثقيلاً كالرصا، ويبدو أن المرء ينقلب حتى على مدى بضع لحظات بعد توقف مثل هذه الاغفاءة محض دمية من الرصاص. وليس المرء من بعد أحداً. فكيف يعود في النهاية فليقي «أناه» الخاصة أكثر من أي سواها وهو يبحث عن فكره وشخصيته مثلما يجري البحث عن غرض مفقود؟ وحينما نعاود التفكير، لم لا يكون ثمة شخصية أخرى غير السابقة تتجسد فينا؟ فليس يبصر المرء ما يملئ عليه الخيار ولماذا يضع يده بالضبط، من بين ملايين الكائنات الإنسانية التي يمكن أن يكونها، على ذلك الذي كانه البارحة. وما الذي يقودنا حينما كان ثمة انقطاع حقاً (إما لأن النوم كان تاماً أو الأحلام مختلفة أتم الاختلاف عنا)؟ لقد وقع ثمة موت بالحقيقة كما هي الحال حينما يكف القلب عن الخفقان وترد إلينا الحياة عمليات شد منتظمة للسان. ليس من شك أن الغرفة إنما توقظ، وإن لم نرها سوى مرة واحدة، ذكريات علقت بها أخرى أكثر تقادماً، أو أن بعضاً منها كان ينام في داخلنا فوعيناه. والقيامة لدى الاستيقاظ - بعد نوبة الاستلاب العقلي المفيدة هذه التي هي النوم - ينبغي أن تشبه في الأساس ما يجري حينما نعود فنعثر على اسم وبيت شعر لازمة منسية. وربما أمكن أدراك قيامة النفس بعد الموت بمثابة ظاهرة تذكر.

وبعدما انتهي من النوم كنت أرفع رأسي وأمد عنقي فيما أبقى جسمي نصف مخبأ داخل الأغشية، وقد

اجتذبتني السماء المشمسة ولكنما تمسك بي برودة تلك الصبيحات الأخيرة الشديدة الإشراق الشديدة البرودة التي يبدأ فيها الشتاء، كيما أنظر إلى الأشجار التي لم يعد يشير إلى الأوراق فيها سوى لمسة أو لمستين ذهبيتين أو ورديتين تبدوان وكأنهما ظلتا في الهواء في لحظة خفية. وكمثل خادرة في طور التحول كنت مخلوقاً مزدوجاً لا يوافق مختلف أجزائه الوسط نفسه. فلعيني يكفي اللون دون الحرارة. أما صدري فكان يهتم على العكس بالحرارة لا باللون. وما كنت أنهض إلا حينما يتم إشعال ناري وكنت أنظر إلى اللوحة الشفافة الشديدة العذوبة التي تؤلفها الصبيحة الخبازية المذهبة التي أضفت إليها اصطناعاً منذ قليل أجزاء الدفء التي كانت تفتقر إليها وأنا أحرك ناري التي تشتعل وتنفث الدخان على غرار غليون لذيد وتوليني، كما لعله فعل، متعة تجمع الغلاظة لأنها تقوم على ارتياح مادي إلى الرقة إذ يحتجب خلفها محض خيال. كانت جدران حجرة ملابسي مكسوة بورق من حمرة فاقعة تنثر فوقه أزهار سود وبيض كان ينبغي لي فيما يبدو أن أعاني بعض المشقة لتعودها. على أنها اقتصررت على أن تبدو لي جديدة وعلى أن تضطرنني إلى الدخول لا في نزاع معها بل في صلات بها، وعلى تبديل مرحي وأناشيدي لدى استيقاظي، واقتصررت على وضعي عنوة في صميم نوع من الخشخاش الأحمر كيما أنظر إلى العالم الذي كنت أراه يختلف أشد الاختلاف عنه في باريس من هذا السائر البهيج هو هذا البيت الجديد الذي يختلف اتجاهها عن بيت والدي والذي يتدفق فيه هواء نقي. وكان يهزني في بعض الأيام الشوق للقاء جدتي أو الخوف من أن تكون متوعدة الصبحة، أو هو استذكار مسألة ظلت في طور التنفيذ في باريس وتتعثر، وإلى ذلك أحياناً بعض صعاب لقيت السبيل إليها حتى ههنا. لقد حال هذا الهم أو ذاك دون أن أنام وكنت لأحول لي في مواجهة حزني الذي كان يملأ في نظري كامل الوجود في مدى لحظة. حينئذ كنت أرسل أحدهم من الفندق إلى الثكنة أحمله كلمة لـ «سان لو»: كنت أقول له أن يتكرم بالمرور حيناً إن كان ذلك ممكناً من الناحية العملية - وأنا أعلم أن الأمر بالغ الصعوبة. ويصل بعد انقضاء ساعة فأحس أنني أنقذت من شواغلي أن أسمع صوت الجرس. كنت أعلم أنها إن كانت أقوى مني فقد كان هو أقوى منها فكان اهتمامي ينفصل عنها ويتجه إليه هو الذي كان عليه أن يقرر. وما أن دخل حتى أشاع من حولي الجو الطلق الذي كان يبدل فيه الكثير من النشاط منذ الصباح، هذا الوسط الحيوي الشديد الاختلاف عن غرفتي والذي كنت اتكيف معه في الحال بردود فعل مناسبة.

«أمل أنك غير حاقد عليّ لأزعاجك، فإن لدي شيئاً يعذبني ولا بد أنك حارزته.»

«لا، لا، حسبت فقط أنك راغب في لقيائي ورأيت أن ذلك لطيف جداً. لقد أبهجني أنك أرسلت في طلبي. ولكن ماذا؟ أليست الأمور إذن على مايرام؟ وما عساي أن أفعل في خدمتك؟»

وكان يصغي لشروحي ويجيبني بدقة. بيد أنه كان قد جعلني شبيهاً به حتى قبل أن يحدثني، فإلى جانب المشاغل الهامة التي كانت تظهره شديد العجلة كثير النشاط بالغ السرور أخذت الغنوم التي كانت تحول منذ قليل دون بقائي لحظة واحدة دون عذاب تبدو لي، كما تبدو له، غير ذات بال. وكنت كرجل لا يستطيع أن يفتح عينيه منذ عدة أيام فيستدعي طبيباً يباعد جفنه بمهارة ولطف وينزع له حبة رمل ويريه إياها، فإذا بالمرضى يشفى ويطمئن. كانت جميع متاعبي تلاقي حلها في برقية يأخذ «سان لو» على نفسه أن يعث بها. وتبدو لي الحياة شديدة الاختلاف شديدة الجمال ويغمرنني فيض من القوة عظيم إلى حد أن أبني التحرك.

فكنت أقول لـ «سان لو» :

– «ماذا تفعل الآن؟»

– «سأتركك، لأنهم يذهبون سيراً على الأقدام بعد ثلاثة أرباع الساعة وهم بحاجة إليّ.»

– «أفأزعجك الحجيء إذن إزعاجاً كبيراً؟»

– «لا، لم يزعجني ذلك، لقد كان النقيب لطيفاً جداً وقال إنه ينبغي لي أن آتي بما أن الأمر يتعلق بك، ولكن لست أريد أن أبدر وكأنني استغل الموقف.»

– «ولكنني لو نهضت بسرعة وذهبت بدوري إلى المكان الذي ستناورون فيه فسوف يستهويني الأمر كثيراً وربما استطعت التحدث إليك في أثناء فترات الاستراحة.»

– «ليست أشور عليك بذلك، فقد ظللت مستيقظاً وامتألت هماً من أجل أمر بالتأكيد غير ذي شأن البتة فأما وأنه لا يشغلك من بعد فانقلب على وسادتك ونم، الأمر الذي سيكون رائعاً لخاربة نقص المعادن في خلاياك العصبية. ولا تُغف سريعاً لأن موسيقانا اللعينة ستمر تحت نوافذك. بيد أنني أظن أنك ستنعم بالسكينة بعدها في لحال ونعود فلتلقي هذا المساء على العشاء.»

ولكنني كثيراً ما ذهبت بعد ذلك بفترة وجيزة لأرى الكتيبة تؤدي خدمتها في السهل حينما شرعت أهتم بالنظريات العسكرية التي كان أصدقاء «سان لو» يشرحونها على مائدة العشاء وأصبح يؤلف الأمر شوق نهاري في أن أرى رؤساءهم المختلفين عن كتب، شأن من يجعل من الموسيقى دراسته الرئيسية ويعيش في جو الحفلات الموسيقية فيسره أن يختلف إلى المقاهي حيث يهتم المرء بحياة عازفي الاوركسترا. وكان لابد لي كيما أبلغ أرض المناورات من القيام بمسيرات طويلة. وفي المساء كانت الرغبة في النوم تهوي برأسي بين الحين والحين بعد العشاء وكأنها دوار. وكنت أفطن في الغد إلى أنني لم أسمع الجوقة الموسيقية أكثر مما سمعت الحفلة الموسيقية على الشاطئ في «بالبيك» غداة العشيات التي اصطحبني فيها «سان لو» للعشاء في «ريفييل». ولحظة أبغني النهوض كنت أحس إحساساً لذيذاً بعجزتي عن ذلك. كنت أحسني موثقاً إلى أرض خفية وعميقة بمفاصل يجعلها التعب محسوسة لدي، مفاصل من جذيرات قوية العضلات مغذية. كنت أحسني ملآن بالقوة وكانت الحياة تمتد أمامي وهي أوفر طولاً. ذلك أنني تراجعت حتى متاعب طفولتي الكبيرة في «كومبريه» في اليوم التالي للأيام التي كنا قد تنزهنا فيها في جانب «غيرمانت» والشعراء يزعمون أننا نعود فنلقى حيناً ما سبق أن كنا بالأمس ونحن ندخل إلى هذا البيت أو ذاك، إلى هذه الحديقة أو تلك حيث عشنا أحداثنا. وتلك صنوف من الحج تنطوي على مخاطر كثيرة نعدّ على إثرها من خيبات الأمل ما يوازي وجوه النجاح. إن الأماكن الثابتة التي تعاصر سنوات مختلفة نما يجدر بنا أن نلقاها بالأحرى داخل ذواتنا. وذلك ما يمكن أن يجلبه لنا من فائدة إلى حد ما تعب عظيم تليه ليلة مريحة. وكما ينحدر بنا هذان الأخيران إلى دهاليز النوم الأكثر عمقاً حيث لا يثير أي شعاع من البارحة وأية ومضة ذاكرة من بعد المناجاة الداخلية، إن اتفق لهذه المناجاة نفسها أن لا تتوقف فيها، فانهما يقلبان أرض جسدنا وأعماقها إلى حد أنهما

يعينانا على العثور، حيث تنغمس عضلاتنا وتجدل تفرعاتها وتمتص الحياة الجديدة، على الحديقة لتي ذهبا إليها أطفالاً. ولا حاجة بنا إلى السفر لنراها ثانية وإنما ينبغي الانحدار للعثور عليها من جديد. إن ماغطى الأرض لم يعد فوقها بل تحت صفحتها فالرحلة لا تكفي لزيارة المدينة الدارسة، والحفريات ضرورية لذلك. ولكننا سوف نرى إلى أي مدى تردنا بعض الانطباعات السريعة الزوال والمفاجئة على نحو أفضل إلى الماضي وبدقة أشد وجناح أكثر خفة وأوفر شفافية وأكثر سرعة وأبعد عن الخطأ وأقرب إلى الخلود من تلك التفككات العضوية.

ويتجاوز تعبى أحياناً ذاك الحد: فلقد تابعت المناورات على مدى بضعة أيام دون أن يمكنني النوم. ما أكثر ما كانت العودة إلى الفندق مباركة آنذا! كان يبدو لي وأنا أندس في فراشي أنني أفلت أخيراً من أيدي سحر من أولئك الذين يعمرن روايات قرننا السابع عشر المحبوبة. وتضحى اغفائي ونومي حتى ضحى اليوم الثاني محض رواية جنياث فائنة، فائنة وربما مفيدة أيضاً. كنت أقول في نفسي إن لأسوأ العذاب مكاناً يأوي إليه وأنا نستطيع على الدوام إن نلقى الراحة إن لم نلق خيراً منها، وكانت تلك الأفكار تقودني إلى مكان بعيد جداً.

وكنتم أمضي كثيراً في الأيام التي خصصت للراحة، ولا يستطيع «سان لو» مع ذلك الخروج فيها، لمشاهدته في الشكنة. كان المكان بعيداً وكان لابد من مغادرة المدينة واجتياز الجسر فوق الوادي وعلى جانبه يمتد أمامي منظر شاسع. كان ثمة نسيم قوي يهب على الدوام تقريباً فوق تلك الأماكن العالية ويملا العمارات المبنية على جوانب ثلاثة من الباحة، عمارات تهدر دون انقطاع وكأنها عرين رياح. وفيما كنت أنتظر «روبير» في حين تشغله خدمة ما، أمام باب غرفته أو في قاعة الطعام وأنا أتحدث إلى بعض من أصدقاء له سبق أن عرفني بهم (وقد جئت أحياناً فيما بعد لمشاهدتهم حتى حين لم يكن بالتأكيد هناك) وأشاهد من النافذة على مئة متر تحتي السهل الأجرد، ولكنما ههنا وههناك مزروعات جديدة، ولا يزال المطر في الغالب ييللها والشمس تمنحها النور، تضع فيه شرائط خضراء لها التماح المينا وصفافها الشفاف، كان يتفق لي أن أسمع من يتحدث عنه. وسرعان ما أمكنني أن أثبتني إلى أي حد كان محبوباً وشعبياً، وكان التعاطف الذي يثيره لدى الكثير من المجندين التابعين لكثائب ثانية من بورجوازيين شباب أغنياء لا يشاهدون الطبقة الارستقراطية الراقية إلا من الخارج ودون أن ينفذوا إليها، التعاطف الذي يثيره لديهم ما يعلمون من طباع «سان لو» إنما تبطنه المهابة التي يمتلكها في نظره الشباب الذي كثيراً ما رأوه مساء السبت، حينما يجيئون في إذن إلى باريس، يتناول طعام العشاء في قهوة «السلام» مع دوق «أوريس» وأمير «أورليان» وقد أدخلوا لذلك في حياة الجميل وفي طريقته المفككة في السير والتحية وفي قذفة نظره الدائمة وفي غرابة قبعاته المفرطة في علوها وسراويله التي من قماش بالغ النعومة مفرط في لونه الوردي مفهوماً للأناقة يؤكدون افتقار أكثر الضباط تأنفاً في الكتيبة إليه وحتى النقيب المهيب الذي سبق أن دنت له بنومي في الشكنة، وكان يبدو، إذا ما قورن به، مفرط الأبهة ويكاد أن يكون عامياً.

كان أحدهم يقول إن النقيب ابتاع جواداً جديداً، فيجيب الآخر قائلاً: «يستطيع ابتياح جميع ما يشاء من جياد. لقد التقيت «سان لو» صبيحة الأحد في مر الأكاسيا وأنه يمتطي الجياد بأناقة مختلفة!» ويقول قول العارف لان هؤلاء الشباب كان ينتسبون إلى طبقة لا تختلف بفضل المال وأوقات الفراغ عن الارستقراطية في

خبرة جميع صنوف الأناقة التي يمكن شراؤها. وإن لم تتردد على جماعة الطبقة الراقية نفسها. وأكثر ما هنالك أن أناقتهم كانت تتسم، فيما يخص الملابس على سبيل المثال، بما كان أكثر اجتهاداً وأكثر خلواً من العيوب من أناقة «سان لو» الطليقة اللامبالية تلك التي كانت تروق جدتي أكثر ما تروق. كان يداخل أبناء أصحاب المصارف الكبيرة أو الصيارفة، فيما يتناولون أصناف المحار بعد المسرح، اضطراب طفيف لما يصرون ضابط الصف «سان لو» إلى طاولة بجوار طاولتهم. وما أكثر القصص التي تقص في الثكنة نهار الاثنين لدى العودة من المأذونية على لسان واحد منهم كان من كتيبة «سان لو» وقد حياه هذا الأخير «بلطف شديد» وعلى لسان آخر لم يكن من الكتيبة نفسها ولكنه يعتقد تماماً أن «سان لو» قد عرفه على الرغم من ذلك فقد سدّد نظارته باتجاهه مرتين أو ثلاث مرات!

- «أجل، لقد لمح شقيقي في قهوة «السلام»، يقول آخر أمضى نهاره لدى عشيقته، «ويبدو أنه كان يرتدي بزة فضفاضة ولا تناسبه تماماً».

- «وكيف كانت صدرته؟»

- «لم يكن يرتدي صدرية بيضاء، بل خيازية وبها أنواع من السعف، مذهل!»

أما بالنسبة إلى القدامى (وهم من عامة الشعب يجهلون نادي السبق ويضعون «سان لو» في فئة ضباط الصف الأغنياء جداً فحسب، وفيها يدخلون جميع الذين يعيشون حياة من مستوى معين، سواء أفقدوا أموالهم أم لا، ويملكون رقماً عالياً إلى حد ما من العائدات أو الديون وهم كرماء بحق جنودهم) فإن نظارة «سان لو» وسراويله وقبعاته ما كانت لتبدو، وإن لم يبصروا فيها أية سمة أرستقراطية، أقل إثارة ودلالة مع ذلك. لقد كانوا يتعرفون في هذه الصفات المميزة السمة والنمط اللذين خصوا بهما نهائياً هذا الأكثر شعبية بين أصحاب الرتب في الكتيبة، من تصرفات لا تشبه تصرف أحد وإزدراء لما يمكن أن يدور في خلد الرؤساء وما يبدو لهم بمثابة النتيجة الطبيعية لطيفه على الجنود. وكانت تبدو قهوة الصباح في حجرة النوم أو الاستراحة على الأسرة أثناء فترة ما بعد الظهر فضل منها حينما يطلع أحد القدامى على الجماعة النهمة الكسلى بأحد التفاصيل الطريفة قُبعة كانت لـ «سان لو».

- «في مثل ارتفاع رزمتي».

ويقاطعه مجاز شاب في الآداب قائلاً: «ويحك ياعم، تريد أن «تقطعها» في رقابنا، لا يمكن أن تكون بمثل ارتفاع رزمتك»، يحاول باستخدام هذه اللهجة ألا يظهر بمظهر الغرّ ولِيَحْمِلَهُ بتجرّئه على هذه المعارضة على أن يثبت له أمراً كان يتمتع.

- «ليست بمثل ارتفاع رزمتي؟ لعلك قستها. أقول لك إن المقدم كان يحقد إليه كما لو أراد أن يودعه السجن. وينبغي ألا نحسب أن «سان لو» المحترم كان يتباهى، فقد كان يروح ويجيء ويخفّض رأسه ويرفعه إلى جانب قذفة النظارة تلك على الدوام. لابد أن نرى ما سيقوله النقيب. آه! من الممكن أن لا يقول شيئاً ولكن الأمر لن يسره بالتأكيد. والقُبعة هذه ليس فيها ما يدesh. ويبدو أنه يملك في منزله في المدينة أكثر

من ثلاثين» .

ويسأل الشاب متحذلقاً: «كيف تعلم ذلك أنت يا عم، على لسان عريفنا اللعين؟»، وهو يعرض الأشكال القواعدية الجديدة التي لم يتعلمها إلا منذ عهد قريب والتي كان يفخر أن يزين حديثه بها.

— «كيف أعلم ذلك؟ على لسان مرافقه، ويحك!»

— عندي أنه ينبغي ألا يكون أمثاله تعساء!

— «معلوم! والأكد أنه أوفر مالا مني! وهو يعطيه إلى ذلك كل حوائجه، كل شيء. لم يكن ينال كفايته في الندوة، فاذا «سان لو» يقبل وقد سمع «العشي» منه: «أريد أن تحسنوا تغذيته، وليبلغ الثمن ما بلغ».

وكان المتقدم يستعيز عن تفاهة الأقوال باللهجة الحازمة في تقليد ضعيف كان يصيب أكبر قسط من النجاح.

كنت أقوم بجولة لدى خروجي من الثكنة ثم أتوجه بانتظار الوقت الذي أذهب فيه يومياً لتناول طعام العشاء مع «سان لو» في الفندق الذي اتخذته واصدقاءه لنومهم وطعامهم، أتوجه إلى فندقي فور غياب الشمس كي تتوافر لي ساعتان للراحة والقراءة. وفي الساحة كان المساء يضع على سطوح القصر التي على هيئة مخزن بارود سحباً صغيرة وردية تنسجم مع لون القمر ويدكّر التوافق بتلطيف هذا الأخير بنور منعكس وكان يتدفق في أعصابي تيار من الحياة قوي حتى لتعجز أي من حركاتي عن استنفاده؛ كل خطوة من خطاي كانت تعود فتشب بعدما تلامس واحدة من بلاط الساحة فيبدو في عقبي جناحاً رسول الآلهة. كان أحد الينبوعين مليئاً بوهج أحمر وفي الثاني يحيل ضوء القمر الماء إلى لون اللبن. وبين الاثنين يلعب صبية صغار ويطلقون صيحات ويرسمون دوائر يخضعون في ذلك لضرورة الساعة على غرار الخطف أو طيور الطواط. وإلى جانب الفندق كانت القصور الوطنية القديمة ومبنى «الاورانجيري» للويس السادس عشر الذي حل فيه الآن صندوق التوفير وكتيبة الجيش، كانت تضيئها من الداخل مصابيح الغاز الشاحبة المذهبة التي أضيئت منذ ذلك والتي كانت تنسجم والنهار لم يول بعد وتلك النوافذ العالية الواسعة التي من طراز القرن الثامن عشر والتي لم يمح فيها آخر انعكاس للشمس الغاربة، كما لعله كان شأن زينة من قشرة شقراء على رأس تلهبها الحمرة، ويقنعني بالذهاب للقاء ناري ومصباحي الذي كان يكافح وحده في واجهة الفندق الذي أسكن فيه أنوار الشفق، مصباحي الذي كنت أعود من أجله، قبلما يكتمل الليل، بداعي السرور مثلما يفعل المرء بالنسبة إلى العصرية. وكنت أحتفظ في مسكني بتمام الإحساس نفسه الذي تملكني في الخارج فقد كان يقوِّس مساحات ظاهرة تبدو لنا في الأغلب مسطحة خاوية: فلهب النار الأصفر وصحيفة السماء الشديدة الزرقة التي سود عليها المساء. شأن تلميذ مدرسة، لوالب خطوطه الوردية وغطاء الطاولة المستديرة ذو الرسوم الفريدة والذي كان ينتظرني فوقه ماعون من ورق التلامذة ومحبرة بالإضافة إلى رواية لـ «بيرغوت»، يقوِّسها على نحو استمرت معه هذه الأشياء منذ ذلك تبدو غنية بنوع خاص من الوجود يخيل إلي أنني أستطيع استخلاصه منها لو قدر لي أن ألقاها ثانية. كنت أفكر بابتهاج بهذه الثكنة التي غادرتها منذ قليل والتي تتطلق دوائر الريح فيها مع جميع الرياح. وكمثل غطاس يتنفس في أنبوب يرتفع فوق سطح الماء كان إحساسي بهذه الثكنة بمثابة نقطة

ارتباط لي، هذا المرقب العالي المطل على السهل الذي تخترقه أقيّة من المينا الخضراء، الذي كنت أعدّ إمكان الذهاب ساعة أشاء تحت عنابرهِ وداخل أبيته، وأنا متيقن أبداً من حسن الاستقبال، بمثابة امتياز ثمين أتمنى ديمومته، كان ذلك بالنسبة إليّ بمثابة ارتباط بالحياة الصحية وبالهواء الطلق.

كنت أرثدي ثيابي في الساعة وأخرج ثانية من أجل أن أذهب للعشاء مع «سان لو» في الفندق الذي اتخذهُ للسكن والطعام. كنت أحب أن أمضي إلى هناك سيراً على الأقدام؛ كان الظلام حالكاً ومن اليوم الثالث شرعت تهب فور حلول الليل ريح باردة جداً تبدو وكأنها تبشر بالثلج. ولعله كان عليّ فيما كنت أسير ألا أكف عن التفكير في السيدة «دو غيرمانت»، وإنما جئت إلى ثكنة «روبير» لأجهد في الاقتراب منها. ولكن الذكري، والغم، أي غم، متحرّكان. فثمة أيام يمضيان فيها بعيداً حتى نكاد لا نبصرهما ونظنهما وليّا، وإذا ذلك نصرف انتباهنا إلى أمور أخرى. وشوارع هذه المدينة لم تكن بعد في نظري، شأن المكان الذي تعودنا العيش فيه، محض وسائل للذهاب من مكان إلى آخر فقد كان يبدو لي أن الحياة التي يقضيها سكان هذا العالم المجهول لابد أن تكون رائعة وغالباً ما كان الزجاج المضاء في منزل. أي منزل، يسمّرني طويلاً في الظلام إذ يضع نصب عينيّ المشاهد الحقيقية الزاخرة بالأسرار لحيوات لا أنفذ إليها. فهنا يريني جني النار في لوحة بلون الأرجوان مقهى بائع كستنا يلعب فيه ضابطاً صف بالورق، وقد وضعا نطاقيهما على كراسي، دون أن يرتابا بأن ساحراً كان يبرزهما من الليل، كما هو أمر ظهور في المسرح، ويحدد خطوطهما كما كانا بالفعل في تلك الدقيقة نفسها ليعتبي عابر سبيل متوقف لا يستطيعان أن يبصرهما. وفي مخزن صغير لسقط المتاع كانت ترسل شمعة نصف ذائبة نورها الأحمر على صورة مطبوعة فتحيّلها بلون المفرة فيما يكافح ضوء المصباح الكبير الظلام فيلون بالسمرّة قطعة من الجلد ويرصع خنجراً بشذرات سوداء لامعة ويخلف فوق لوحات إن هي الا نسخ رديئة طلاء ذهبياً ثميناً كالقشرة التي يخلّفها الزمان أو كلمعة أساتذة الفن فتجعل من هذا الكوخ في النهاية حيث لا شيء سوى «التنك» والقشور لوحة لـ «رامبرانت» لا تقدر بثمن. وكنت أرفع عيني أحياناً إلى شقة قديمة لم تغلق مصاريحها يعود فيها رجال ونسوة برمائيون إلى التكيف من جديد في كل مساء مع العيش في وسط غير وسط النهار، ويسبحون ببطء في السائل اللزج الذي ينبع دونما انقطاع لدى حلول الليل من مستودع المصابيح ليملأ الحجرات حتى حافة جدرانها التي من حجر وزجاج، وينشرون فيه بتنقيل أجسامهم تموجات ناعمة مذهبة. وكنت أعاود السير وكثيراً ما يستوقفني عنف شهوتي في الجادة المظلمة التي تمر أمام الكاتدرائية، كما كانت حالي بالأمس في طريق «ميريكليز»؛ كان يخيّل إليّ أن امرأة سوف تطلع فجأة لتشيّعها؛ وإن أحسست فجأة في الظلام فسطاناً يمر فإن عنف اللذة التي أحس بها كان يحول دون اعتقادي بأن هذه الملامسة الخفيفة كانت عارضة فأحاول أن أحتبس بين ذراعي عابرة سبيل مذعورة. كانت تلك الجادة القوطية تبدو في نظري حقيقية إلى حد أنني لو لحقت بامرأة فيها وامتلكتها لاستحال عليّ ألا أخال أنها اللذة العتيقة التي ترمع أن تجتمع بيننا، وإن كانت المرأة محض مومس تقف هناك كل مساء ولكننا أضفى عليها الشتاء وأضفت الغربة والظلمة والعصر الوسيط جو أسرارها. وأخذت أفكر في المستقبل: كانت تبدو لي محاولة نسيان السيدة «دو غيرمانت» أمراً فظيماً ولكنه معقول وللمرة الأولى يمكن بل ربما سهل. وكنت أسمع من أمامي في هدوء هذا الحي المطلق أقوالاً وضحكات لابد تردني من متزهين نصف مخمورين يعودون إلى منازلهم. فكنت أتوقف لأراهم وأنظر إلى الجانب الذي سمعت الضجة منه. بيد أنه كان لزاماً عليّ أن أنتظر

طويلاً لأن السكون المحيط كان عميقاً إلى حد أن سمح بانتقال ضجيج لايزال بعيداً بأقصى الوضوح والقوة. ويصل المتنزهون في نهاية المطاف لامن أمامي كما سبق أن ظننت بل بعيداً جداً من الخلف. لقد أخطأت الظن في المسافة والاتجاه على حد سواء، إما لأن تقاطع الشوارع وتواسط المنازل قد أحدثا هذا الخطأ السمي بسبب ظاهرة الانكسار، وإما لأنه من العسير جداً تحديد موقع صوت مجهول المطرح لدينا.

وتأخذ الريح تتعاضد. لقد كانت تتقبض وتقشع من إثلاج قريب، فكنت أعود إلى الشارع الكبير وأقفز إلى الحافلة الكهربائية الصغيرة حيث يرد ضابط من أرضية الوقوف تحيات جنود يبدو وكأنه لايراهم، جنود ثقال يملون على الرصيف وقد ألقى البرد لطبخ ألوان على وجوههم ؛ وانها لتذكرك، في هذه المدينة التي تبدو وكأنما دفعتها وثبة الخريف المفاجئة داخل بداية الشتاء هذه قدما إلى الشمال، بالوجوه الحمراء التي يعطيها «بروغيل» لفلاحيه المتهللين المولمين المصقعين.

وكان ثمة بالضبط في الفندق الذي كنت فيه على موعد مع «سان لو» وأصدقائه وحيث يجتذب الاحتفالات، وهي في بداياتها، كثيراً من الناس من الجوار ومن الأجانب، كان ثمة، فيما كنت أجتاز مباشرة الباحة التي تطل على مطابخ بلون النُجمر تدور فيها فراريج على أسياخ وتشوى خنازير وتلقى صنف من سرطان البحر في ما كان يدعوه الفندق «بالنار الأبدية»، كان ازدحام خلّيق بما كان من قبيل لوحة «التعداد أمام بيت لحم» من مثل ما كان يرسم أرباب الفن الفلامنديون القدامى) لوافدين يجتمعون زمراً في الباحة يسائلون صاحب الفندق أو أحد أعوانه (يفضلان أن يشارا عليهم بمسكن في المدينة حينما لايجدان أن لهم مظهراً حسناً) إن كان يمكن أن يقدم لهم الطعام والمسكن بينما يمر خادم وهو يمسك بيده عنق طير يتخطى. وفي قاعة الطعام الكبيرة التي اجتزتها في اليوم الأول، وقبل أن أبلغ الحجرة الصغيرة التي كان ينتظرني فيها صديقي، إنما كان يذكرني عدد الأسماك والفراخ المسمنة وديوك الغابات ودجاج الأرض والحمام التي جاء بها مزينة يتصاعد بخارها نذل فقدوا أنفاسهم ينزلقون على الأرضية الخشبية كيما يزدوا من سرعتهم ويضعونها على الطاولة الجدارية القسيحة حيث يتم في الحال تقطيعها وحيث تتكدس مع ذلك غير مستخدمة— إذ كان الكثير من وجبات الطعام يشارف على الانتهاء حينما وصلت —إنما كان يذكرني كذلك بمأدبة في الانجيل مثلت بسذاجة الزمن الغابر ومغالاة بلاد الـ «فلاندر»، فكما لو أن الكثرة المسرفة فيها وتعجل الذين يحملونها إنما يستجيبان لاحترام النصوص المقدسة التي تتم مجازة حرفها بدقة كبيرة، ولكنما يتم توضيحها توضيحاً ساذجاً بتفاصيل حقيقية مستقاة من الحياة المحلية، وللاهتمام الجمالي والديني الرامي إلى إبراز رونق الاحتفال للعيان بفيض الأطعمة وعجلة الخدم أكثر مما يستجيبان لطلبات المتعشين. وكان واحد بينهم يحلم في أقصى القاعة وقد وقف لا يدي حراكاً قرب خزانة آنية ؛ وكما استعلم هذا الأخير، وكان يبدو وحده على شيء من الهدوء كي يجيني، في أية حجرة أعدت مائدنا مضيت رأساً، وأنا أقدم بين السخانات الصغيرة الموقدة ههنا وهناك لتحول دون أن تبرد قصعات المتخلفين (الأمر الذي ما كان يحول دون أن تمسك الحلوى في وسط القاعة يدا دمية ضخمة يحملها أحياناً جناحاً بطة من البلور فيما يبدو ولكنهما في الواقع من مثلجات ينمقها كل يوم بالحديد المحمي طاه نحات وفق ذوق «فلامندي» تاماً). مضيت، وأنا عرضة لأن يطرحني الآخرون أرضاً، إلى هذا الخادم الذي حسبته أعرف فيه شخصية تماشي التقليد في هذه الموضوعات المقدسة، شخصية كان يعيد بدقة رسم وجهها المطفح الساذج الرديء الخطوط وملامحها الحاملة التي ربما

أدركت مذ ذاك سلفاً معجزة حضور إلهي لم يرتب الآخرون بأمره بعد. ونضيف إلى أنه أضيف، بداعي الأعياد المقبلة دونما شك، إلى هؤلاء الممثلين ملحق سمائي جرى انتقاؤه بأسره في فئة من «الشيرويم» و«السيرافيم»^(١) وكان ثمة ملاك موسيقي شاب له شعر أشقر يظلل وجه ابن أربعة عشر ربيعاً، وما كان يعزف بالحقيقة على أية آلة بل يحلم أمام صنج أو كومة صحن فيما يسرع ملائكة أقل طفولة عبر مسافات القاعة المتراصة وهم يحركون هواءها بارتعاش لا يتوقف للقوط التي تنحدر على طول أجسامهم على أشكال أجنحة لرسمين قدامى حادة الأطراف. وشققت لنفسي درياً، وأنا أجنب هذه المناطق غير المحددة تماماً والتي يحجبها ستار من ورق النخيل يبدو فيها الخدام السماويون من البعيد وكأنهم يجيئون من الجنة، حتى القاعة الصغيرة التي كانت مائدة «سان لو» معدة فيها. ولقيت فيها بعضاً من أصدقائه الذين كانوا يتناولون طعام العشاء باستمرار معه، وهم نبلاء فيما عدا واحداً أو اثنين من طبقة العامة اشتم فيهما النبلاء منذ المدرسة الإعدادية رائحة الأصدقاء وصادقهما راضين فبرهنوا بذلك أنهم لا يعادون البرجوازيين مبدئياً ولو كانوا جمهوريين بشرط أن يكونوا نظيفي اليد وأن يترددوا إلى القديس. ومنذ المرة الأولى وقبل أن تجلس إلى المائدة انتحيت بـ «سان لو» في زاوية من قاعة الطعام وقلت له أمام الآخرين جميعهم، وما كانوا يسمعوننا:

«روبير، لم أحسن اختيار الزمان والمكان لأقول لك ذلك، ولكن الأمر لن يدوم سوى ثانية. يفوتني دوماً أن أسالك ذلك في الشكنة: أليست السيدة «دو غيرمات» هذه التي تملك صورتها على طاولتك؟».

«بلى إنها عمتي الطيبة».

«ذلك صحيح، ويحي، وأني مجنون، لقد عرفت ذلك فيما مضى ولم أفكر فيه في يوم. يا إلهي، لا بد أن أصدقاءك عيلوا صبراً، فلنتحدث بسرعة فهم ينظرون إلينا، أو فليكن ذلك في مرة ثانية فليس للأمر أي أهمية».

«بلى، بلى، امض في حديثك، فإنهم هنا لينتظروا».

«لا، يهمني أن أكون مهذباً فإنهم لطاف جداً، وتعلم على أية حال أن الأمر لا يهمني أكثر من ذلك».

«وتعرفها، هذه الطيبة «أوريان»؟»

وما كانت عبارة «هذه الطيبة أوريان»، كما لعله كان قال «هذه المسكينة «أوريان». لتعني بأن «سان لو» كان يعد السيدة «دو غيرمات» طيبة على نحو خاص. فالصفات «طيبة» و«رائحة» و«لطيفة» إن هي إلا محض عناصر تعزيز «لهذه» وتشير إلى شخص يعرفه كلانا، ولكنك لا تعلم تماماً ما الذي تقوله لمن ليس من ألاك. إن «طيبة» تستخدم بمثابة مقبلات وتتيح لنا التريث لحظة ريثما يستنى لنا أن نجد عبارة: «هل تراها كثيراً؟» أو «لقد انقضت شهور دون أن أراها» أو «سألقاها يوم الثلاثاء» أو «لا بد أنها لم تعد في أول شبابها».

(١) من فئات الملائكة في السماء.

- «لا أستطيع أن أقول لك إلى أي مدى يسرني أن تكون هذه صورتها لأننا نسكن الآن في بيتها وقد بلغني عنها أمور لاتصدق (وربما أصابني الكثير من الحرج في أن أقول أية أمور كانت) تجعلني أهتم بها كثيراً. من وجهة نظر أدبية بالطبع، ما عساني أقول. من وجهة نظر «بلزاقية» إنك تدرك ذلك بالتلميح أنت الذكي جداً. ولكن هيا ننتهِ بسرعة فما عسى يقول أصدقاؤك بتريبي!»

- ولكنهم لا يفكرون بشيء على الإطلاق، لقد قلت لهم إنك رائع وهم أكثر توجساً منك.

- «إنك بالغ اللطف، ولكن هاك بالضبط: إن السيدة «غيرمانت» لاترتاب في أنني أعرفك، أليس الأمر كذلك؟»

- «دعني أقول لك، لقد أكدوا لي أنها تحسبني معتوها تماماً.»

- «هذا مالا أعتقده: فليست «أوريان» عبقرية ولكنها ليست غبية مع ذلك.»

- «تدري أنني لا أهتم على الإطلاق بعامة أن تذيب المشاعر الطيبة التي تكنها لي لأنني لست على شيء من الاعتزاز بالذات. وبؤسفي لذلك أنك نقلت عني أشياء لطيفة إلى أصدقاءك (الذين سنلحق بهم بعد ثائيتين). بيد أنه لو وسعتك، فيما يخص السيدة «دو غيرمانت»، أن تنقل إليها، ولو بشيء من المغالاة، ما تعتقده بشأني فسوف تسرني أعظم السرور.»

- بكل طيبة خاطر، وإن لم يكن لديك ما تسألني إياه سوى هذا فليس الأمر بالغ الصعوبة ولكن أية أهمية يمكن أن يرتديها ما تستطيع أن تحمله عنك؟ لدي أنك لاتبالي بالأمر إطلاقاً. ومهما تكن الحال فباستطاعتنا، إن اقتصر الأمر على ذلك، أن نتحدث فيه أمام الجميع أو حينما نكون بمفردنا لأنني أخشى أن يصيبك التعب في التحدث واقفاً وعلى نحو غير مريح إلى هذا الحد في حين نملك فرصاً عديدة للقاءات منفردة.»

وإنما كان ذاك الوضع غير المريح بالضبط مازودني بالجرأة للتحدث إلى «روبير» فقد ألف حضور الآخرين بالنسبة إليّ حجة خولتني أن أضفي على أقوالي طابعاً مقتضباً غير مترابط أستطيع بفضلله أن أخفي على نحو أيسر الكذبة التي افعلها إذ أقول لصديقي أنني نسيت قرابته من الدوقة وكي لا أتيح له الوقت لي طرح عليّ، حول دواعي رغيتي في أن تعلم السيدة «دو غيرمانت» أنني صديق له، وأني ذكي... الخ، أسئلة ربما بعثت لدي مزيداً من الاضطراب بساوي عجزني عن الإجابة عنها.

- «روبير»، يدهشني، بالنسبة إلى من كان بوافر ذكائك، ألا تدرك أنه ينبغي ألا نناقش ما يسر الأصدقاء بل أن نفعله. أما أنا، فإن سألتني أمراً أياً كان، وإنني لاهتم كثيراً أن تسألني أمراً ما، فاني أؤكد لك أنني لن أسالك إيضاحات. إنني أجازم ما أرغب فيه فليس يهمني أن أعرف السيدة «دو غيرمانت» لكنما كان يجدر بي أن أقول لك. بغية امتحانك، إنني أرغب في تناول العشاء مع السيدة «دو غيرمانت» وأعلم أنك ما كنت لتفعل.»

- «لعلني كنت فعلت ؛ وليس ذلك فحسب، بل سوف أفعل» .
- «ومتى؟»
- حالماً أجيء إلى باريس، بعد ثلاثة أسابيع دونما شك» .
- «سوف نرى، ولكنها لن تقبل على أي حال. لا أستطيع أن أقول لك إلى أي مدى أشكر» .
- «لا، لا، ليس ما يستحق الشكر» .
- «لا تقل ذلك، فالأمر هائل لأنني أرى الآن أي صديق أنت. فسواء أكان ما أسالك هاماً أم لا، مزعجاً أم لا، وسواء أهتمني في الواقع أم كان لحض تجربتك، فالأمر قليل الأهمية ؛ تقول إنك ستفعل ذلك، وتبرهن به على رهافة ذكائك ورقة قلبك. أما الصديق الغني فربما ناقش» .
- كان ذلك ما أقدم على فعله بالضبط. ولكني ربما أردت أن أوقعه في شرك الاعتزاز بالذات، وربما كنت إلى ذلك صادقاً إذ يبدو أن محكّ الفضل الوحيد انما هو الفائدة التي يمكن أن تقدم لي فيما يخص الأمر الوحيد الذي كان يبدو لي هاماً، عنيت حبي، ثم أضفت، إما رياء وإما لفرط حنان حقيقي بعثه الامتنان والمصلحة وكلما سبق أن وضعته الطبيعة من ملامح السيدة «دو غيرمانت» نفسها في ابن أخيها «روبير» :
- «ولكن، ها انه ينبغي أن نلحق بالآخرين ولم أسالك سوى واحد من الأمرين، وهو أقلهما. أما الآخر فأكثر أهمية في نظري، ولكنني أخشى أن ترفضه، فهل يزعجك أن نرفع الكلفة بيننا؟»
- «كيف يزعجني، ويحك! أيها الفرح! يادموع الفرح! أيتها السعادة المجهولة!»
- «كم أنا شاكر لك. حينما تكون قد بدأت! إن ذلك ليفرحني إلى حد أنك تستطيع ألا تفعل شيئاً فيما يخص السيدة «دو غيرمانت» إن شئت، فرفع الكلفة يكفي» .
- «سنقوم بالأمرين معاً» .
- وقلت له «سان لو» كذلك في أثناء العشاء: «آه! اسمع يا «روبير»! آه! إنها لمضحكة هذه المحادثة المتقطعة، ولست أعلم لماذا، على أي حال- تعلم، السيدة التي حدثتك عنها منذ قليل؟»
- «أجل!»
- «تعلم تماماً من أقصد؟»
- «ويحك، تعدني غيباً من منطقة الـ«فاليه». ومتخلفاً» .
- «ألا تتكرم بإعطائي صورتها؟»
- كنت أنوي أن أسأله إعارتي إياها فحسب. ولكنني أحسست لحظة الكلام ببعض الرجل ورأيت أن

مطلبي بعيد عن التحفظ فصغته، كي لا أبدي من ذلك شيئاً، صياغة أكثر فظاظاً وزدت فضخمته كما لو كان طبيعياً تماماً.

وأجابني قائلاً: «لا، فلا بد أن أستأذنها أولاً».

وكست الحمرة وجهه في الحال ؛ وأدركت أن لديه مقصداً خفياً وأنه يعزو إليّ آخر وأنه لن يمد يد العون لحبي إلا إلى حد مع مراعاة بعض مبادئ أخلاقية وكرهته.

ولكنما كان يؤثر في معذلك أن أرى إلى أي حد كان «سان لو» يبدو مختلفاً لِرأسي منذ أن لم أعد وحدي معه وأن أصبح أصدقاؤه طرفاً ثالثاً. ولعل لطفه المتزايد كان سيخلف اللامبالاة في نفسي لو ظننت أنه مقصود، ولكنني كنت أحسه غير مقصود لا يؤلفه سوى ما كان لابد قائله بشأنني حينما أكون غائباً ويكتمه حينما أكون وحيداً معه. كنت بالتأكيد أضمن المتعة التي كان يصيها في التحدث إليّ في جلساتنا المنفردة، ولكن تلك المتعة كانت تظل حبيسة الصدر على الدوام تقريباً. والأقوال نفسها التي كان يتذوقها بالعادة دون أن يظهر ذلك، كان الآن يرقب من طرف عينه إن كانت تثير لدى اصدقاؤه الأثر الذي توقعه والذي كان ينبغي أن يوافق ما سبق أن أخبرهم به. وليست تركّز أم إحدى المبتدئات انتباهها على ردود انتهت وعلى موقف الجمهور أكثر مما يفعل. وكان يخشى، إن قلت كلمة ما كان ليحضرها أمامي وحدي سوى ابتسامة، أن لا يكون تم إدراكها على أحسن وجه فيقول لي: «كيف، كيف؟» كي يحملني على التكرار وكي يحمل على الانتباه. وملتفت في الحال إلى الآخرين ويجعل من نفسه، غير قاصد، فيما ينظر إليهم بضحكة عريضة، الدافع إلى ضحكهم فيقدم لي للمرة الأولى الفكرة التي يحملها عني والتي لابد أنه كثيراً ما أفصح لهم عنها. إلى حد أنني كنت أبصر نفسي فجأة من الخارج كممثل من يقرأ اسمه في الجريدة أو يرى نفسه في مرآة.

واتفق لي في إحدى تلك العشيات أن رغب في رواية قصة مضحكة إلى حد ما عن السيدة «بلانديه»، ولكنني توقفت في الحال إذ ذكرت أن «سان لو» يعرفها وأنه قاطعني يوم ابتغيت أن أقولها له في اليوم التالي لوصولي، قاطعني بقوله: «لقد سبق أن رويتها لي في بالبيك». لقد أدهشني إذن أن أراه يحثني على المتابعة وهو يؤكد لي أنه لا يعرف هذه القصة وأنها سوف تسره كثيراً. وقلت له: «إنك تعاني من لحظة نسيان، ولكنك سوف تتعرفها عما قليل». «لا، لا، أقسم لك أنك تخطئ، فما قلتها لي في يوم، هيا». وظل طوال القصة كلها يحديق بنظرات محمومة مفتونة إليّ طوراً وإلى رفاقي تارة أخرى. وأدركت بعدما انتهيت فقط وسط ضحكات الجميع أنه فكر أنها ستزود رفاقي بفكرة رقيقة عن ذكائي وأنه تظاهر لذلك بأنه لا يعرفها، تلکم هي الصداقة.

وفي العشية الثالثة تحدث إليّ أحد أصدقاؤه طويلاً جداً ولم يسبق أن سنحت لي الفرصة للتحدث إليه في المرتين الأوليين. وكنت أسمعته يروي لـ «سان لو» بصوت منخفض عن المتعة التي يلقاها في الحديث. وتحدثنا بالفعل معاً طوال الأمسية تقريباً أمام أقداح نبيذ «سوتيرن» التي لانفرغها وقد عزلنا عن الآخرين وحمائنا منهم واحد من ضروب التعاطف تلك التي تتسم وحدها بالإبهام التام حينما لا تقوم على أساس الجاذب الجسدي. هكذا سبق أن بدت لي في «بالبيك» تلك العاطفة الغامضة في طبيعتها التي كان «سان لو» يكنها

لي والتي ما كانت تختلط بمتعة أحاديثنا وقد انفصلت عن أي رباط مادي، خفية غير ملموسة، ولكننا كان يحس بوجودها في داخله كضرب من اللهب الكامن، من الغاز وعلى قدر كاف ليتحدث عنها وهو يبتسم. وربما اتفق ما كان أكثر إدهاشاً بعد في هذا التعاطف الذي ولد ههنا في عشية واحدة كمثل زهرة تفتحت في مدى يضع دقائق في دفء هذه الحجرة الصغيرة. ولم أتمالك نفسي أن أسأل «روبير»، فيما يحدثني عن «بالبيك»، إن كان قد تقرر حقاً أن يتزوج الأنسة «دامبرسك». فأقر لي بأن الأمر لم يتقرر، وليس ذلك فحسب بل هو لم يكن البتة موضوع بحث وإنه لم يرها قط ولا يعلم من عساها تكون. ولو اتفق أن رأيت في تلك اللحظة بعض أفراد المجتمع الراقي الذين أعلنوا عن هذا الزواج لأعلموني عن زواج الأنسة «دامبرسك» بواحد لم يكن «سان لو» وزواج «سان لو» بواحدة لم تكن الأنسة «دامبرسك». ولعلني كنت ادهشهم كثيراً بتذكيرهم بتكهناتهم المغايرة والتي لاتزال قريبة جداً. وكما يمكن أن تستمر هذه اللعبة الصغيرة وأن تكثر الأخبار الكاذبة بأن تراكم على التوالي أكبر عدد ممكن منها على كل اسم، فقد زودت الطبيعة هذا الصنف من اللاعبين بذكرة يتزايد قصرها بقدر ما تتعاطم سرعة تصديقهم.

وكان «سان لو» قد حدثني عن آخر من رفاقه كان هنالك أيضاً وكان يتفق وإياه على أحسن وجه إذ كانا وحدهما في هذا الوسط يناصران إعادة النظر في دعوى «دريفوس».

وقال لي صديقي الجديد: «إنه ليس على غرار «سان لو»، فهو متهوَس وليس حتى سليم النية. كان بادئ الأمر يقول: «ماعلينا الا أن نتنظر، فثمة رجل أعرفه تمام المعرفة يفيض رقة وطيبة، إنه اللواء «بواديفر»، ويمكن أن نقبل برأيه دونما تردد». ولكن حينما علم أن «بواديفر» كان ينادي بتجريم «دريفوس» أصبح «بواديفر» لايساوي شيئاً من بعد. كانت النزعة الاكليروسية وآراء قيادة الأركان المتحيزة تحول دون أن يحكم بصدق مع أنه ليس من كان ييدي اتجاهاً اكليروسياً مثل صديقنا قبل قضية «دريفوس» وقد قال لنا حينذاك إن الحقيقة سوف تعرف لأن القضية سوف يتم وضعها بين يدي «دو سوسيه» وأن هذا الأخير، وهو جندي جمهوري (وصديقنا من أسرة تغالي في مناصرة الملكية)، رجل فولاذي ووجدان لايلين. ولكنه حينما أعلن «دو سوسيه» براءة «ديستراهزي» وجد لهذا الحكم تفسيرات جديدة لافي غير صالح دريفوس، بل في غير صالح اللواء «سوسيه»، فالروح العسكرية إنما تعمي «سوسيه» (ولاحظ أنه هو الآخر عسكري النزعة بقدر ما هو اكليروسيها أو بقدر ما كانه على الأقل لاني لم أعد أعلم ما أعتقد بشأنه) وإن أسرته شديدة الاعتماد إذ تراه بهذه الأفكار.

وقلت وأنا ألتفت نصف التفاتة صوب «سان لو» كي لا يبدو أنني انتحي جانباً وصوب رفيقه كذلك كي أحمله على المشاركة في الحديث «تري، ذلك أن التأثير الذي يعزونه إلى البيئة إنما يصدق على وجه الخصوص فيما يخص الوسط الفكري. فانما الرجل نتاج فكرته، وثمة أفكار أقل بكثير من عدد الرجال. وهكذا يتماثل جميع رجال الفكرة الواحدة. وبما أن الفكرة لاتنسم بأي سمة مادية فان الرجال الذين لايحيطون برجل الفكرة الا ماديا لايدلّون فيها شيئاً».

وفي هذه اللحظة قاطعني «سان لو» لان أحد الجنود الشبان دله عليّ وهو يقول مبتسماً: «ديروك، إنه

بالتمام ديروك. وما كنت أدري ما يعني ذلك ولكنني كنت أحس أن تعابير الوجه الذي تملكته الخشية كانت تنم عما هو أكثر من العطف (*) فحينما كنت أتحدث كانت موافقة الآخرين لاتزال تبدو نافلة في نشر «سان لو» وكان يطالب بالسكوت. ومثلما يستوقف قائد أوركسترا موسيقية وهو يضرب بقوسه لأن أحدهم أثار ضجة، فقد أنب المشوش وقال: «جيبيرغ، ينبغي أن تصمت حينما يتحدث الناس، وتقول ذلك فيما بعد». وقال لي: «هيا، تابع!».

وتنفس الصعداء إذ خشيت أن يحملني على إعادة كل شيء. وأضفت قائلاً: «ولما كانت الفكرة أمراً لا يستطيع المشاركة في المصالح البشرية ولا يمكن أن يحظى بمكاسبها فإن رجال فكرة ما لا يتأثرون بالمصلحة».

وبعدما أتيت على آخر كلامي استعجب «سان لو» الذي كان لاحقني بنظراته بالعطف القلق نفسه كما لو أنني سرت على الجبال، استعجب قائلاً: «هيا قولوا يا أولادي، إن ذلك يزيد من معلوماتكم. ما الذي كنت تبغي قوله يا «جيبيرغ»؟

— «كنت أقول إن السيد يذكرني كثيراً بالرائد «ديروك». حسبتي أسمعه».

وأجاب «سان لو»: «لقد فكرت في ذلك كثيراً، فثمة الكثير من أوجه الشبه، ولكنك ستري أنه يتحلى بألف من الأمور لا يتحلى بها «ديروك».

ومثلما كان لا يفكر شقيق لصديق «سان لو» هذا طالب في «المعهد الموسيقي» بصدد أي عمل موسيقي جديد على نحو ما يفكر أبوه وأمه وأبناء أعمامه ورفاقه في النادي، بل يفعل بالضبط مثل جميع طلاب المعهد الآخرين، كذلك كان لصف الضابط هذا (الذي كَوّن «بلوك» عنه فكرة خارقة حينما حدثته عنه إذ أثر في نفسه أن يعلم أنه من حزبه نفسه ولكنه أخذ يتصوره مع ذلك بسبب منشئه الارستقراطي وتربيته الدينية والعسكرية يختلف عنه أشد الاختلاف ويزدان بالسحر نفسه الذي يحيط بأحد مواليد منطقة قصية) «ذهنية». حسبما أخذ الناس يقولون، مماثلة لذهنية جميع مناصري «دريفوس» بعامة و«بلوك» بخاصة ولا يمكن لتقاليد

(*) لم يكتف «سان لو» بهذه المقارنة، فقد أخذ في سورة من الفرح كان يضاعف منها دونما شك الفرح الذي يحسه من جراء إتاحة الفرصة لي للتألق أمام أصدقائه، أخذ يردد لي بدلاقة عظيمة وهو يداعيني على غرار حصان كان أول الواصلين إلى خضبة الحاجز، «تدري، أنت أذكى من أعرف من الرجال». واستدرك وأضاف: «إلى جانب «إيلستير»، ليس يفضيك الأمر، أليس كذلك؟ مسألة دقة كما تعلم. هذه مقارنة: أقول ذلك كما ربما قيل لـ «بلزوك»: إنك أعظم روائي في هذا القرن، إلى جانب «ستاندال». فرط دقة كما تعلم، وفي الأساس إعجاب لامحدود. «لا؟ لا توافق فيما يخص «ستاندال»! يضيف قوله وبه ثقة ساذجة بما أحكم به ترجمتها إسامة متسائلة ساحرة وتكاد تكون طفولية في عينيه الخضراوين. «حسن! أرى أنك من رأيي. أن «بلوك» يكره «ستاندال»، وفي رأيي أن الأمر غيبي فيما يخصه. مع أن رواية «الشارتروز» شيء ضخم. ويسرني أن ترى ما أرى». ثم يملئ علي باندفاع الشباب: «ما الذي تفضله في رواية «الشارتروز»؟ أجب، وتضفي قوته البدنية ما يقرب أن يكون مرعباً على سؤاله. «أهو موسكا؟ أهو فابريس؟» وكنت أجبج باستحياء بأن لدى «موسكا» بعض ما في السيد «دونوروبوا»، فإذا عاصفة من الضحك يطلقها «زيغفريد سان لو» الشاب. وما أن انتهى من إضافة قلبي: «ولكن «موسكا» أشد ذكاء بكثير وأقل حذقة حتى أسمع «روبير» يصيح قائلاً: مرحي، وهو يصفق بالفعل ويضحك حتى ليختنق ويصرخ قائلاً: «بالصحة! التعبير ممتاز، إنك لامتثل لك».

أسرته ومصالح عمله أن يكون لها أي تأثير عليها. من ذلك أن إين عم لـ «سان لو» تزوج أميرة شابة من الشرق كانت تنظم فيما يقولون أشعاراً في مثل جمال شعر «فيكتور هوغو» أو «ألفريد دو فينيي» ويفرضون لها على الرغم من ذلك روحاً غير ما يمكن أن يتصور المرء، روح أميرة من الشرق حبيسة في أحد قصور ألف ليلة وليلة وقد خص الكتاب الذين حظوا بالاقتراب منها بخيبة الأمل أو بالأحرى بالمسرة لسماع حديث يخلف لديهم لافكرة عن «شهرزاد» بل فكرة عن إنسان عبقرى من نوع «ألفريد دو فينيي» أو «فيكتور هوغو».

كان يسرنى على وجه الخصوص أن أتحدث إلى هذا الشاب وإلى أصدقاء «روبير» الآخرين أيضاً وإلى «روبير» نفسه عن الشكثة وضباط الشكثة والجيش بعامه. وكنت قد باشرت، بفضل هذا المقياس المضخم إلى ما لا حدود والذي نرى به الأشياء التي نأكل وسطها ونتحدث ونعيش حياتنا، مهما صغرت تلك الأشياء، وبفضل هذه الزيادة الضخمة التي تقع لها والتي تؤدي إلى أن البقية لا يمكنها، وقد غابت عن العالم، أن تنافسها وهي تتخذ لإزاءها لانماسك الحلم، باشرت أهتم بمختلف شخصيات الشكثة والضباط الذين كنت ألتهم في الباحة حينما أذهب للقاء «سان لو» أو حينما كانت الكتبية تمر تحت نوافذي إن كنت مستيقظاً. ووددت لو تيسر لي تفاصيل حول الرائد الذي كان «سان لو» ينظر إليه باعجاب، وحول مقرر التاريخ العسكري الذي كان سيفتني - حتى على الصعيد الجمالي. كنت أعلم أن لدى «روبير» نزعة لفظية هي في الأغلب فارغة بعض الشيء ولكنما كانت تعني في مرات أخرى تمثل أفكار عميقة كان قادراً تماماً على إدراكها. بيد أن «روبير» لسوء الحظ كان، فيما يخص الجيش، مهتماً كل اهتمام في هذه الفترة بقضية «دريفوس». كان قليل الحديث عنها لأنه الوحيد بين جلسائه من مناصري «دريفوس» فالآخرون يناهضون بعنف إعادة النظر، فيما عدا جاري على المائدة، وهو صديقي الجديد الذي كانت تبدو آراؤه على شيء من التردد. فقد سبق أن بلغ جاري، وهو معجب أكيد بالعقيد الذي كانوا يعدونه ضابطاً مرموقاً وقد ندد بالفتنة التي وقعت ضد الجيش في أوامر يومية مختلفة عدّوه بها بمثابة مناهض لـ «دريفوس»، بلغه أن أمره أطلق بعض التأكيدات التي حملت على الظن بأنه كان يشك في تجريم «دريفوس» ويحتفظ بتقديره لـ «بيكار». على أن شائعة وقوف العقيد النسبي إلى جانب «دريفوس» كانت فيما يخص هذه النقطة الأخيرة دون أساس متين في جميع الأحوال شأن جميع الشائعات التي تنطلق من حيث لا نعلم والتي تتشكل من حول أية مسألة كبرى. ذلك أن هذا العقيد كان قد كلف بعد ذلك بقليل التحقيق مع رئيس مكتب الاستخبارات الأسبق فعامله بوحشية ووزارة لم يبلغهما بعد أحد في يوم. ومهما يكن من أمر ومع أن جاري ما كان يسمح لنفسه بالاستعلام مباشرة لدى العقيد فقد تطف و قال لـ «سان لو» - باللهجة التي تصرح بها سيدة كاثوليكية لسيدة يهودية أن خوري رعيتهما يندّد بمذابح اليهود في روسيا وينظر باعجاب إلى أريحية بعض الاسرائيليين^(١) - إن العقيد لم يكن بالنسبة إلى مناصري «دريفوس» - بالنسبة إلى الاتجاه معين على الأقل بين مناصري «دريفوس» - الخصم المتعصب الضيق الأفق الذي صوّره.

وقال «سان لو»: «لست أعجب لذلك، فإنه رجل ذكي. ولكنما تعميه مع ذلك المواقف المنشقية المتحيزة ولاسيما النزعة الاكثيوسية». ثم أردف يقول لي: آه الرائد «ديروك»، أستاذ التاريخ العسكري الذي حدثتك

(١) بالمعنى الديني واللفظة ترجمة لـ israelites

عنه، هالك واحدا يماشى أفكارنا إلى أقصى حد فيما يبدو. ولعل العكس كان يدهشني على أية حال لأنه ليس رائع الذكاء فحسب، بلهو اشتراكي راديكالي وماسوني».

وسألت جاري، بداعي التأدب إزاء أصدقاء «سان لو» الذين كانت تشق عليهم تصريحاته العلنية في مناصرة «دريغوس» ولأن الأمور الباقية كانت أكثر إثارة لاهتمامي، إن كان صحيحاً أن هذا الرائد يحيل التاريخ العسكري براهين ذات مسحة جمالية حقيقية.»

- «صحيح بوجه الإطلاق.»

- «ولكن ما عساک تعني بذلك؟»

- «خذ، على سبيل المثال، إن كل ما تقرأه، افتراضاً، في رواية أحد الرواة العسكريين، أصغر الوقائع وأصغر الأحداث إن هي إلا علامات فكرة ينبغي استخلاصها وهي في الغالب تغطي غيرها كما هي الحال في الطروس، وبذلت تتكون لديك مجموعة فكرية بقدر أي علم أو أي فن وتبدو مرضية للعقل.»

- «هات أمثلة، إن لم أثقل عليك.»

وقاطعني «سان لو» قائلاً: «من الصعب أن أقول لك هكذا. أنت تقرأ على سبيل المثال أن هذه القطعة العسكرية حاولت.... وقبل المضي إلى أبعد من ذلك فليس اسم القطعة وتأليفها خاليين من الدلالة. فإن لم تكن المرة الأولى التي تتم فيها محاولة العملية وإن رأينا قطعة أخرى تبرز على الساحة من أجل العملية نفسها فربما أشار ذلك إلى أن القطعات السابقة قد أبيضت أو ألحقت بها العملية المذكورة أضراراً بالغة وإنها لم تعد قادرة على النجاحها. ولا بد أن تنقصى من كانت تلك القطعة التي أبيضت اليوم، فإن كانت فرق صدام احتفظوا بها بمثابة احتياطات لعمليات اقتحام ضخمة فإن قطعة أدنى تملك حظاً أقل في الإفلاح حيث أنقضت تلك. وإن لم يتم الأمر، إلى ذلك، في بدء حملة عسكرية فإن هذه القطعة الجديدة نفسها يمكن أن تتألف من عناصر مشتتة، الأمر الذي يمكن أن يزودنا بشأن القوات التي لاتزال في حوزة المتحاربين وبشأن قرب اللحظة التي ستضحى فيها أدنى سوية من قوات الخصم، بمعلومات تضفي على العملية نفسها التي ستقدم عليها تلك القطعة مدلولاً مختلفاً لأنها إن لم تعد قادرة أن تعوض عن خسائرها فإن انتصاراتها نفسها لن تقودها حسابياً إلا إلى الإبادة النهائية. وليس بأقل دلالة من ناحية أخرى الرقم الذي يتضمن خصائص القطعة التي تنصدي لها. فإن كانت على سبيل المثال وحدة أضعف بكثير وسبق أن قضت على وحدات هامة للخصم فإن العملية نفسها تتبدل في طبيعتها، ذلك أنها وأن أنتهت بخسارة الموقع الذي كان المدافع يسيطر عليه فإن سيطر عليه إلى حين يمكن أن يشكل انتصاراً كبيراً إن كَفَتَ الاستعانة بقوات ضئيلة جداً للقضاء على قوات كبيرة جداً لدى الخصم. ويمكنك أن تدرك أننا إن لقينا هكذا أموراً هامة في تحليل القطعات المزجوجة في المعركة فإن دراسة الموقع نفسه والطرق والسكك الحديدية التي تتحكم بها وصنوف التموين التي يحميها أوفر أهمية» وأضاف ضاحكاً: «ولا بد من دراسة ما أدعوه بكامل الظروف الجغرافية المحيطة.» (وقد سر بالفعل لهذه العبارة إلى حد أن الضحكة نفسها وافته على الدوام في كل مرة استخدمها فيها حتى عقب شهور من ذلك.) فإن أنت قرأت، أثناء ما يتم الإعداد للعملية على يد أحد الأطراف المتحاربة، أن إحدى دورياته قد أبيضت في جوار

موقع على يد الطرف الآخر فإن أحد الاستنتاجات التي يمكن استخلاصها هو أن الأول كان يحاول تبين الأعمال الدفاعية التي ينوي الثاني بها تفشيل هجومه، ويمكن لعملية عنيفة على نحو خاص في نقطة معينة أن تشير إلى الرغبة في الاستيلاء عليها، وكذلك إلى الرغبة في إيقاف الخصم هناك والامتناع عن الرد عليه حيث هاجم، أو حتى أن لا تكون سوى خدعة وأن تخفي خلف مضاعفة العنف هذه عمليات سحب قوات من ذلك المكان. (وإنها لخدعة تقليدية في حروب نابليون). وليس غير ذي بال، من أجل إدراك دلالة مناورة معينة وهدفها المحتمل وأية مناورات بالتالي سوف ترافقها أو تليها، أن تستطلع ما تصرح بها القيادة عنها، مما يمكن أن يكون معداً لتضليل الخصم وإخفاء فشل ممكن، أقل بكثير مما نستطلع أن أنظمة البلاد العسكرية. إذ ينبغي الافتراض أبداً بأن المناورة التي ابتنى أحد الجيوش تنفيذها إنما هي تلك التي ينص عليها النظام المطبق في الظروف المشابهة. فإن نص النظام على سبيل المثال على مراقبة هجوم تصادمي بهجوم جانبي وإن فشل هذا الهجوم الثاني فرغمت القيادة أن لا علاقة تربطه بالأول وأنه محض عملية إلهاء فالحتمل أنه يجدر البحث عن الحقيقة في النظام لا في تقولات القيادة. وليس ثمة الأنظمة الخاصة بكل جيش فحسب، بل ثمة تقاليدهم وعاداتهم ومذاهبهم. ويجدر كذلك ألا نهمل دراسة العمل الديبلوماسي وهو على الدوام في حالة مستمرة من الفعل أو رد الفعل العسكري. فسوف توضح لك حوادث غير ذات شأن في ظاهرها ولم يتم فهمها في زمانها أن العدو الذي اتكل على معونة كشفت هذه الحوادث أنه حرماً لم ينفذ في الواقع سوى جزء من عمله الاستراتيجي. وهكذا فإن ما كان رواية مبهمة في نظر عامة القراء أضحي بالنسبة إليك، إن عرفت كيف تقرأ التاريخ. ترابطاً في مثل معقولة لوحة بالنسبة إلى الهاوي الذي يعرف كيف ينظر إلى ما يرتدي الشخص من ملابس وما يمسك بين يديه فيما زائر المتاحف الداهل الدوار والصداع من جراء ألوان غامضة. ولكن هذه العمليات العسكرية، كما هو شأن بعض اللوحات التي لا يكفي معها أن نلاحظ أن الشخص يمسك فيها بكأس بل ينبغي أن نعلم لماذا وضع المصور بين يديه كأساً وما الذي يرمز إليه بذلك. منسوخة بالعادة، حتى خارج هدفها المباشر، في ذهن اللواء الي يقود الحملة عن معارك أكثر قدماً هي، إن شئت، بمثابة ماضي المعارك الجديدة، بمثابة مكتبتها وعلمها الواسع وأصولها وإستراتيجيتها. ونلاحظ أنني لا أتكلم في هذه اللحظة عن الهوية المحلية للمعارك، ما عساي أقول، الهوية المكانية. وإنها لقائمة أيضاً. إن ميدان معركة ما لم يكن ولن يكون عبر القرون ميدان معركة واحدة. ولئن كان ميدان معركة فلأنه كان يجمع بعض شروط في الموقع الجغرافي والطبيعة الجيولوجية وحتى العيوب التي من شأنها إعاقة الخصم (كنهر على سبيل المثال يقطعه قسمين) جعلت منه ميدان معركة يفى بالغرض. لقد كان كذلك إذن وسوف يظل. لست تقيم مشغل رسم باللجوء إلى أية غرفة، ولست تصنع ميدان معركة باللجوء إلى أي مكان. فهناك أمكنة مصطفة سلفاً، ولكنني، وأقولها ثانية، ما كنت أتحدث عن ذلك، بل عن طراز المعركة التي تتم محاكاتها، عن نوع من النسيج الإستراتيجي، من المحاكاة التكتيكية إن شئت: كمعركة «أولم» و«لودي» و«لايبيغ» و«كان». لست أدري إن كانت ستقع حروب أيضاً ولا بين أية شعوب؛ أما إذا وقعت فتأكد أن ستكون ثمة (وعلى نحو مقصود فيما يخص القائد) معركة «كان» ومعركة «أرستريتز» و«روزباخ» و«واترلو»، ناهيك عن الأخريات. ولا يشعر بعضهم بالحرص في قول ذلك، فقد أعد المشير «فون شليفن» واللواء «دو فالكنهاوزن» سلفاً ضد فرنسا ما يشبه معركة «كان» من طراز هنيئيل يرافقها تثبيت الخصم على سائر الجبهة والتقدم بطريق الجناحين ولاسيما الميمنة في بلجيكا، في حين يفضل «برنهاردت» نظام «فريدريك» الأول المائل، بفضل «لوتين» على «كان» ويعرض

آخرون آراءهم عرضاً أقل فجاجة، ولكني أؤكد لك تماماً يا صاح أن «بوكونيسي» قائد السرايا الذي قدمتك إليه ذاك اليوم، وهو ضابط ينتظره مستقبل باهر، قد درس بجد هجومه الصغير على «براتزن» ويعرف خبايا زواياه ويضعها في جعبة احتياطه، فإن سنحت له في اليوم فرصة تنفيذه لم يتوان وقدمه إلينا في أوفى خطوطه. لسوف يعاد اختراق الوسط إن ظل ثمة حروب، فليس ذلك أقدم عهداً من الإلياذة. وأضيف أنه مقضي علينا تقريباً باللجوء إلى الهجوم التصادمي لأننا لا نود أن نرتكب ثانية خطيئة عام السبعين بل نود القيام بالهجوم ولا شيء سوى الهجوم. والأمر الوحيد الذي يقلقني أنني كنت لا أبصر سوى عقول متخلفة تقاوم هذا المذهب الرائع فإن أحد أحدث أساتذتي سنا، وهو رجل عبقرى يدعى «مانجان»، يود أن يحتفظ للدفاع بمكانه، مكان مؤقت بالطبع. وتلفي نفسك محرّجاً بالرد عليه حينما يستشهد بـ «أوسترليتز» حيث لا يعدو الدفاع أن يكون فاتحة الهجوم والنصر.

كانت نظريات «سان لو» هذه تبعث في السعادة؛ فقد كانت تحمل إليّ الأمل بأنني ربما لم أكن، في حياتي في «دونسيير»، إزاء أولئك الضباط الذين كان يوافيني الحديث عنهم وأنا أحسني خمور «سوتيرن» التي تعكس عليهم أثرها الساحر، لم أكن ضحية ذاك التضخيم نفسه الذي ضخّم في عيني طوال إقامتي في «باليك» ملك أوقيانيا وملكتها وجماعة الذواقة الأربعة الصغيرة واللاعب الشاب وشقيق زوجة «لوغراندان» وقد تقلصوا الآن في ناظري حتى ليخيل إليّ أنهم غير موجودين وربما لم يصبح ما كان يروفي اليوم غير دي بال في نظري غدا مثلما وقع لي على الدوام حتى الآن. وربما لم يكن محكوماً على الكائن الذي لا أزال أولفه في تلك الفترة بافناء قريب لأن «سان لو» كان يضيف إلى الغرام المتهب والسرعة الزوال الذي كنت أبديه في تلك الأماسي القليلة لكل ما يتعلق بالحياة العسكرية من جراء ما قاله مما يخص فن الحرب، كان يضيف أساساً فكرياً يتصف بالاستمرار ويستطيع أن يشدني إليه بما يكفي من القوة ليمكنني الاعتقاد، دون محاولة مني لخداع نفسي، بأنني سأوالي بعدما أرحل الاهتمام بأشغال أصدقائي في «دونسيير» ولن يطول بي الأمر حتى أعود فيما بينهم. وكما أزداد مع ذلك ثقة بأن فن الحرب هذا فن أكيد بمعنى اللفظة الفكري قلت لـ «سان لو»:

— «تثيرون» اهتمامي، عفوك، تثير اهتمامي إلى حد بعيد، ولكن قل لي، ثمة نقطة تقلقني. أحس أنه يمكنني التوكله بالفن العسكري، بيد أنه ينبغي لذلك أن لا أحسبه مختلفاً إلى هذا الحد عن الفنون الأخرى وأن لا تمثل القاعدة المتعلمة كل شيء فيه. تقول لي إنه يتم نسخ معارك، وانني أرى الأمر بالفعل جميلاً، حسبما كنت تقول أن يصبر المرء خلف معركة حديثة معركة أكثر قدماً، ولا يسعني أن أقول لك إلى أي حد تروقني هذه الفكرة. ولكن أترأه لايساوي شيئاً نبوغ القائد حينذاك؟ أو لايقوم بالحقيقة إلا بتطبيق القواعد؟ أم أن هنالك، بتساوي العلم، قواداً عظاماً مثلما هنالك جراحون عظام يحسون، فيما العناصر التي تزودهم بها حالتان مرضيتان واحدة على الصعيد الجسمي، يحسون انطلاقة من أمر زهيد ربما صنعتهم تجربتهم ولكنما تم تفسيره أنه يقع عليهم في هذه الحالة أن يفعلوا بالأحرى هذا الأمر وفي تلك أن يفعلوا بالأحرى ذلك، وأنه حريّ بهم أن يجروا العملية في هذه الحالة وأن يمتنعوا في تلك؟»

— ذلك بالتمام ما اعتقد! سوف ترى نابليون لا يهاجم حينما كانت القواعد جميعها تفرض أن يهاجم،

ولكن تكهنًا غامضًا كان ينهيه عن ذلك. هاك «أوسترليتز» مثلاً أو تعليماته عام ١٨٠٦ إلى «لأن» ولكنك سترى قادة يقلدون تقليداً مدرسياً هذه المناورة أو تلك لنابليون ويصلون إلى نقيض نتيجته تماماً. ثمة عشرة أمثلة من هذا القبيل في عام ١٨٧٠. ولكن، حتى على صعيد تفسير ما يمكن أن يفعله الخصم، ليس مايفعله سوى ظاهرة يمكن أن تعني الكثير من الأمور المختلفة. ولكل من هذه الأمور مقدار الحظ نفسه في أن يكون هو الصحيح إن اقتصرنا على المحاكمة العقلية وعلى العلم، مثلما لا تكفي علوم العالم الطبية بكاملها في بعض الحالات المعقدة لتقرير ما إذا كان الورم الخفي ليفياً أم لا وإن كان ينبغي إجراء العملية أم لا. إنها حاسة الشم، إنه التكهن على طريقة السيدة «دوتيب» (أنت تفهمني) الذي يحكم بالأمر لدى القائد الكبير والطبيب الكبير على حد سواء. من ذلك أنني قلت لك، لأضرب لك مثلاً، ما يمكن أن يعنيه الاستطلاع في بدء إحدى المعارك. بيد أنه يمكن أن يعني عشرة أمور أخرى، كأن تحمل العدو مثلاً على الاعتقاد بأنك ترمع المهاجمة في نقطة معينة في حين تبغي الهجوم في نقطة أخرى، أو ترخي ستاراً يحجب عنه رؤية الاستعدادات للعملية الحقيقية، أو تضطره إلى جلب القطعات وتثبيتها وتجميدها في غير المكان الذي هي ضرورية فيه، أو تبين القوات التي بحوزته وتلمسه وتضطره إلى كشف أوراقه. وحتى أمر زج قطعاً ضخمة لعدد في عملية ما ليس البرهان أحياناً على أن هذه العملية هي الحقيقية، إذ يمكن تنفيذها جدياً مع أنها محض خدعة كي يتجمع لهذه الخدعة فرص أكثر في التضليل. ولو اتسع لي الوقت لاروي لك حروب نابليون من وجهة النظر هذه فاني أؤكد أن هذه الحركات الكلاسيكية البسيطة التي ندرسها والتي سترانا نقوم بها أثناء الخدمة في الحقول، لمحض متعة الزهرة أيها الخنزير اللعين (لا، أعلم أنك مريض، عفوك!)، حسن، حينما نحس خلفها في إحدى الحروب يقطعة القيادة العليا ومحاكمتها وبحوثها العميقة فإنما تهتز مشاعرنا أمامها شأنها أمام مجرد أضواء منارة وهي نور مادي ولكنها صادرة عن الفكر وتجوب فسيح المكان لتنبه السفن إلى الخطر. وربما كنت حتى على ضلال في أن أحدثك بلغة أدب الحرب فحسب. فمثلما يشير تكوين الأرض واتجاه الرياح والضوء إلى الجهة التي ستنمو الشجرة فيها تحكم الشروط التي تتم فيها حملة ما وبميزات المنطقة التي تم المناورة فيها، تحكم في الواقع نوعاً ما الخطط التي يستطيع القائد أن يختار من بينها ويحد منها. حتى ليتمكنك التنبؤ بمسيرة الجيوش، بما يقارب صفة الضرورة والجمال الرائع في منهارات الثلوج، على سفوح الجبال وفي مجموعة من الوديان وفي هذه السهول أو تلك.»

— «انك تنكر عليّ الآن الحرية لدى القائد والتكهن لدى الخصم الذي يود تبين خططه، وكنت وهبتني إياهما منذ قليل.»

— «لا، بوجه الإطلاق! تذكر كتاب الفلسفة ذاك الذي كنا نقرؤه سوياً في «البليك»، والوفرة في عالم الممكنات بالنسبة إلى العالم الحقيقي. حسن! إن الأمر لكذلك في فن الحروب. ففي حالة معينة ثمة أربع خطط تفرض نفسها واستطاع القائد أن يختار من بينها، مثلما يمكن أن يتبع مرض خطوط سير مختلفة يجدر بالطبيب أن يتوقعها. وههنا أيضاً يبدو ضعف الإنسان وعظمته بمثابة أسباب جديدة للحيرة. فلنفرض أن أسباباً طارئة (كأهداف ثانوية بلوغها أو الوقت الضيق أو العدد القليل في قواته وسوء تمويها) تحمل القائد على أن يفضل من بين هذه الخطط الأربع الخطة الأولى، وهي أقل كمالاً ولكن تنفيذها أقل كلفة وأوفر سرعة وتمتد ساحتها على منطقة أوفر غنى لإطعام جيشه. وقد يتفق له، بعدما يشرع بهذه الخطة الأولى التي سيتبينها العدو

عما قليل بعدما حار بادئ الأمر فيها، أن لا يستطيع النجاح فيها بسبب عقبات كبيرة جداً- الأمر الذي أدعوه بالاحتمال الصادر عن الضعف الإنساني - وإن يهجرها ويحاول في الخطوة الثانية أو الثالثة أو الرابعة. بيد أنه يمكن كذلك ألا يكون أجرى محاولة- وهذا أدعوه بالعظمة الإنسانية- إلا بداعي الخدعة ولتثبيت الخصم على نحو تفاجئه فيه حيث ما كان يحسب أنه سيهاجم. من ذلك أن «ماك» الذي كان ينتظر العدو في «أولم» من الغرب قد تم تطويقه من الشمال حيث كان يحسب أنه في أتم الطمأنينة. وليس مثالي موقفاً جداً على أية حال. «وأولم» نمط أفضل في معارك الالتفاف سوف نراه يستعاد في المستقبل لأنه ليس مثالا كلاسيكياً سوف يستلهمه القادة فحسب بل صيغة ضرورية إلى حد ما (ضرورية بين صيغ أخرى الأمر الذي يوفر الخيار والتنوع) كمثال نمط من التبلور. ولكن ذلك كله لاطائل تحته لأن هذه الأطر مصطنعة على الرغم من كل شيء. أعود إلى كتابنا الفلسفي، الأمر يشبه المبادئ العقلية أو القوانين العلمية والواقع ينطبق عليها تقريباً، ولكن عد بالذاكرة إلى الرياضي العظيم «بوانكاريه»، فليس أكيداً أن الرياضيات صحيحة كل الصحة. فأما الأنظمة نفسها التي حدثت عنها فهي بإجمال القول ثانوية في أهميتها ويتم تبديلها على أية حال بين الحين والحين. من ذلك أننا نعيش، نحن الفرسان على نظام التدريب الحي لعام ١٨٩٥ الذي بوسعنا القول إنه تقادم عهده بما أنه يركز على المذهب القديم البالي القاتل بأن قتال الفرسان لا يملك سوى أثر معنوي تقريباً بالذعر الذي تبعه غارة الخيالة في الخصم. ولكن أكثر رؤسائنا ذكاء، وهم أفضل من في الفرسان ولاسيما الرائد الذي كنت أحدثك عنه ؛ يرون على العكس أن الحسم يتم بلوغه في اشتباك حقيقي يتم فيه القتال بالسيف والرمح وينتصر فيه من كان أوفر صلابة لاعلى صعيد محض معنوي ويتأثر الذعر بل على صعيد مادي».

وقال جاري: «إن «سان لو» على حق والأرجح أن نظام التدريب الحي المقبل سوف يحمل أثر هذا التطور».

وقال «سان لو» ضاحكاً: «لست غاضباً من جراء موافقتك إذ يبدو أن آراءك أكثر تأثيراً في صديقي من رأيي»، إما لأن هذه المودة الوليدة بين رفيقه وبينني كانت تزعجه بعض الشيء وإما لأنه رأى من اللطف أن يكرسها بانثباتها رسمياً. «ثم إنني ربما قللت من أهمية الأنظمة. إنه يتم تغييرها، ذلك أمر أكيد، ولكنها حتى ذلك تحكم الوضع العسكري وخطط المعارك وحشد القوات. فإن عكست تصوراً استراتيجياً خاطئاً أمكن أن تكون المصدر الأولي للهزيمة». ثم قال لي: «كل ذلك على شيء من التقنية بالنسبة إليك. فاعلم أن أكثر ما يسرع تطور فن الحرب إنما هو في الأساس الحروب نفسها. فأنت ترى أحد المتحاربين في أثناء حملة ما، إن هي طالت قليلاً، يفيد من الدروس التي تلقنها إياها نجاحات الخصم وأخطاؤه ويحسن طرائق هذا الأخير الذي يغالي فيها بدوره. على أن ذلك أضحى من الماضي. فسوف تصبح حروب المستقبل. إن ظل ثمة حروب، بفضل تقدم المدفعية المخيف، قصيرة جداً حتى ليمت السلام قبل أن يفكر المرء في الإفادة من الدرس الملقن».

وقلت لـ «سان لو»: «لاتك شديد الحساسية، فقد أصغيت إليك بقدر من النهم كاف»، وأنا أرد بذلك على ما سبق أن قال قبل هذه الأقوال الأخيرة.

وأضاف صديق «سان لو» يقول: إن تفضلت فلم تغضب دونما سبب وسمحت بذلك فسوف أضيف

إلى ما قلته منذ قليل أن المعارك إن هي تمت محاكاتها وتطابقت فما الأمر بسبب نباهة القائد فحسب. فقد يتفق للقائد أن يسوقه أحد أخطائه (كتقدير غير كاف لقيمة الخصم على سبيل المثال) إلى مطالبة قواته بتضحيات مفرطة، تضحيات تنفذها بعض الوحدات بتجرد رفيع إلى حد أن دورها يضحي بذلك شبيهاً بدور هذه الوحدة أو تلك في أي معركة أخرى وسوف يذكرها التاريخ على أنها أمثلة قابلة للمبادلة فيما بينها؛ فإن اكتفينا بعام ١٨٧٠، فالحرس البروسي في «سان لو» و«التركوك»^(١) في «فروشيلر» وفي «فيستبورغ».

وقال «سان لو»: «قابلة للمبادلة فيما بينها! هذا صحيح تماماً! ممتاز! وبإنعم الذكاء

وما كنت لامبالاً بهذه الامثلة الأخيرة شأني في كل مرة يبرزون لي العام فيها خلف الخاص. على أن عبقرية القائد، ذلكم ما كان يثير اهتمامي، فقد كنت أود تبين ما تقوم عليه وكيف يتصرف في ظرف معين لا يستطيع القائد غير العبقرى الصمود فيه أمام الخصم، كيف يتصرف القائد العبقرى ليعيد لصالحه المعركة التي مالت كفتها، وهو أمر ممكن تماماً، حسبما يقول «سان لو»، وقد تحقق مرات عدة على يد نابليون. وكما أفهم أي شيء هي القيمة العسكرية، كنت أطلبهم بمقارنات بين القادة الذين كنت أعرف أسماءهم، من منهم يملك قدراً أكبر من طبيعة القائد، ومواهب المخطط الحربي وإن بلغ بي أن أزعج أصدقائي الجدد الذين ما كانوا يبدون من ذلك شيئاً وكانوا يجيبونني بلطف لا يعرف الكلل.

كنت أحسني مفصلاً لا عن الليل الكبير الجليدي الذي يمتد في البعيد فحسب، والذي كنا نسبح فيه بين الحين والحين صفارة قطار كانت تزيد فحسب من متعة أن تكون هنا، أو رنات ساعة لاتزال لحسن الحظ بعيدة عن تلك التي ينبغي لهؤلاء الشبان أن يستعيدوا سيوفهم فيها ويعودون- بل عن جميع الشواغل الخارجية كذلك، ولولا القليل، وعن ذكرى السيدة «دو غير مانت»، من جراء لطف «سان لو» الذي يضيفي عليه كأنما كثافة أكثر لطف أصدقائه الذي ينضاف إليه، وكذلك من جراء الحر في قاعة الطعام الصغيرة هذه، ومن جراء الأطباق الفاخرة التي تقدم لنا فيها. لقد كانت تولي خيالي من المتعة ما تولي نهمي. فقد كانت رقعة الطبيعة الصغيرة التي استخرجت منها، جرن الحمار الخشن الذي بقيت فيه بعض قطرات من الماء المالح، أو غصن كرمة أعقد وأوراق اصفرت حول عنقود عنب، كانت لاتزال تحيط بها أحياناً غير صالحة للأكل شاعرية بعيدة كمثل منظر طبيعي تتعاقب بها في أثناء العشاء إبحاءات بقليل في ظل كرمة وينزهة في البحر. وكان يتم إبراز خاصية الأطباق الفريدة هذه في عشيّات أخرى على يد الطاهي وحده، وكان يقدمها في إطارها الطبيعي على غرار عمل فني؛ فسمكة مطهوه بالمرق الأبيض يتجلب في قصعة طويلة من الفخار وتبدو فيها، إذ تبرز فوق ثارات من أعشاب ضاربة إلى الرقة، متماسكة ولكنها لاتزال تلتوي من جراء أن ألقيت حية في الماء الغالي تحيط بها دائرة من الاصداف، من حيوانات تدور في فلكها كالسراطين والقرادس وبلح البحر، تبدو فيها وكأنها تظهر في قطعة خزفية من أعمال «بيرنار باليسي».

وقال لي «سان لو» نصف هازل ونصف جاد وهو يشير إلى الاحاديث الجانبية التي لا تنتهي والتي كانت بيني وبين صديقه إنني أغار، وأنا حانق! فهل تراه أوفر ذكاء مني؟ وهل تحبه أكثر مني؟

(١) فرق من الجنود الجزائريين.

وليس والحالة هذه من أمر إلا وتخصه به؟ (إن الرجال الذين يحبون امرأة حباً جماً ويعيشون في مجتمع رجال مبالغين إلى النساء يسمعون لانفسهم بمزحات لا يجرؤ عليها آخرون ربما أبصروا فيها قدراً من البراءة أقل).

كانوا يتجنبون، حالما يضحى الحديث عاماً، التحدث عن «دريفوس» مخافة أن يجرحوا شعور «سان لو» بيد أن اثنين من رفاقه أبديا بعد أسبوع كم يبدو غريباً أن يكون من مناصري «دريفوس» بهذا المقدار ويكاد يناهض الروح العسكرية وهو يعيش في بيعة عسكرية إلى هذا الحد، فقلت ومرادي ألا أدخل في التفاصيل: «ذلك لأن تأثير البيعة لا يملك ما نظن من أهمية...» كنت أنوي بالتأكيد الوقوف عند هذا الحد وألا أعود إلى الأفكار التي سبق أن عرضتها لـ «سان لو» قبل بضعة أيام. وعلى الرغم من ذلك فقد كنت أزعج، إذ سبق أن قلت له هذه الكلمات على الأقل بما يقرب أن يكون حرفياً، الاعتذار عن ذلك بأن أضيف: «وهو بالضبط ما كنت في ذلك اليوم...» ولكنني لم آخذ في حسابي الوجه الآخر الذي يملكه إعجاب «روبير» اللطيف بي وبيع بعض الأشخاص الآخرين. فقد كان هذا الإعجاب يكتمل بتمثل تام لأفكارهم إلى حد ينسى معه بعد انقضاء ثمان وأربعين ساعة أن تلك الأفكار لاتصدر عنه. ولذلك حسب «سان لو» من واجبه، فيما يخص طرحي المتواضع وكأنما بالتمام أقام على الدوام في دماغه، وكأني إنما أطوف في مملكته، أن يهنئني بسلامة الوصول تهنئة حارة وأن يقرني في ما قلت:

— «بالطبع! البيعة لا أهمية لها.»

وأضاف كما لو خشي أن أقاطعه أو ألا أفهمه وبالقوة نفسها:

— «التأثير الحقيقي هو تأثير الوسط الفكري، فالإنسان نتاج فكرته!» وتوقف لحظة وبه ابتسامة من هضم تمام الهضم وترك نظارته تهوي وثبت كالمثقب نظرتة عليّ، وقال لي بلهجة متحدية:

— «جميع رجال الفكرة الواحدة متشابهون». ولم يكن يتذكر دونما شك أنني قلت له قبل أيام ما تذكره على العكس تماماً.

لم أكن أصل كل مساء إلى مطعم «سان لو» وأنا في الحالة النفسية ذاتها. فلئن أمكن للذكرى وأمكن لغم أن يهجرانا حتى لا نراهما من بعد فانهما يعودان كذلك ولا يتركاننا أحياناً على مدى فترة طويلة. فثمة عشيات كنت أأسف فيها على السيدة «دوغيرمانت»، وأنا أجتاز المدينة لأمضي باتجاه المطعم إلى حد يشق عليّ معه التنفس لكان جزءاً من صدري قد تم بتره عليّ يد مشرّح ماهر ونزع واستبدل به جزء مساو له من العذاب اللامادي وما يقابله من حنين وحب. وعبثاً خيطلت القطب على أحسن وجه فأنت يشق عليك العيش حينما يحل الأسف على شخص محل الأحشاء إذ يبدو وكأنه يحتل أكثر مما تحتل من مكان فتحس به أبداً، ثم أي ليس ذلك أن تضطر إلى «تفكير» جزء من جسمك! على أنه يبدو أنك تساوي أكثر من ذلك. فلا أقل نسمة تزفر من ضيق، بل من تباريح الهوى. أيضاً كنت أنظر إلى السماء، فإن كانت صافية قلت في نفسي: «ربما كانت خارج المدينة تنظر إلى النجوم عينها، ومن يدري إن كان «روبير» لن يقول لي وهو يدخل إلى المطعم: «ثمة خبر سار، لقد كتبت إليّ عمتي لتوها، إنها تود لقاءك وستأتي عما قليل إلى هنا.» وما كنت أضع في القبة الزرقاء وحدها فكرة السيدة «دو غيرمانت»، فهبة هواء على شيء من العذوبة تمر تبدو وكأنها تحمل إليّ رسالة منها كما بالأمس من «جيبليبرت» في أقماح «ميزيكليز»: فالمرء لا يتبدل بل يقحم في الشعور

الذي يرده إلى كائن ما الكثير من العناصر الغافية التي يوقظها ولكنها غريبة عنه. ثم أن شيئاً في داخلنا يجهد أبداً في إضفاء حقيقة أكبر على هذه المشاعر الخاصة، أعني في حملها على الاقتران بشعور أكثر عمومية تشارك فيه الإنسانية جمعاء ويبدو به الأفراد والعموم التي يسببونها لنا محض فرصة للاتحاد فيه: إن ما كان يمزج بعض المتعة بغمي أنني أعلم أنها جزء صغير من الحب الشامل. ما كنت أخلص، دونما شك، مما كنت أحسب أنني أعرفه من الأحزان التي سبق أن أحسست بها بشأن «جيلبيرت»، أو حينما لاتمكث أمني مساء في «كومبريه» في غرفتي وكذلك تذكر بعض صفحات لدى «بيرغوت»، داخل العذاب الذي كنت أعانيه والذي لم تكن ترتبط به السيدة «دو غيرمانت» وجفاؤها وغيابها ارتباطاً واضحاً مثلما العلة بالأثر في ذهن العالم، ما كنت أخلص إلى أن السيدة «دو غيرمانت» لم تكن تلك العلة. أفليس ثمة ألم جسدي منتشر يمتد اشعاعاً إلى مناطق خارج القسم المريض ولكنه يهجرها ليتبدد كلياً إن لمس طيبب النقطة المحددة التي يصدر عنها؟ مع أن امتداده قبل ذلك كان يوليه بالنسبة إلينا طابعاً من الإبهام والحماية إلى حد ظننا معه وقد عجزنا عن تفسيره وحتى عن تحديد مكانه أنه يستحيل شفاؤه. وكنت أقول في نفسي فيما أنا سائر إلى مطعم: «لقد انقضى أربعة عشر يوماً ولم أشاهد السيدة «دو غيرمانت» (أربعة عشر يوماً، الأمر الذي ما كان يبدو شيئاً هائلاً إلا في عيني أنا الذي كان يعد بالدقائق إن تعلق الأمر بالسيدة «دو غيرمانت»). وما كانت تتخذ النجوم وحدها والنسيم في نظري شيئاً من الألم والشاعرية بل تبلغ مبلغها حتى تقسيمات الزمن الحسائية. لكننا أصبح كل يوم الآن الذروة المتحركة لتلة ثابتة المعالم: فأحس من جانب أنني استطيع الانحدار صوب النسيان، وتحملني من الآخر حاجة لقاء الدوقة. وكنت حيناً أكثر قرباً من هذا أو ذاك لا أملك توازناً مستقراً. وقلت ذات يوم في نفسي: «ربما كان ثمة رسالة هذا المساء». وتجرأت وأنا أقبل للعشاء فسألت «سان لو» قائلاً:

— «تري، ألا أخبار لديك من باريس؟»

فأجابني متجهماً الوجه: «بلى، وإنها لسيئة».

وتنفست الصعداء وقد أدركت أن به وحده غمماً وأن الأخبار أخبار عشيقته. ولكنني أبصرت بعد قليل أن من نتائجها أن تحول فترة طويلة دون أن يصطحبني «روبير» لدى عمته.

لقد علمت أن شجاراً وقع بينه وبين عشيقته إما بالرسائل أو هي جاءت ذات صباح لتلقاه بين موعد قطارين. كانت الشجارات التي وقعت بينهما حتى الآن، حتى تلك الأقل خطورة، كانت تبدو أبداً وكأنما ينبغي أن تظل دون حل. ذلك أنها كانت معكزة المزاج تخبط الأرض بقدميها وتبكي لأسباب متعذرة الفهم شأن الأطفال الذين يعتصمون داخل غرفة مظلمة ولا يحضرون للعشاء ويرفضون أي استفسار ويزدادون انتحاباً فحسب حينما يضربون بعد أن أعيت الحيلة.

وتألم «سان لو» ألماً فظيعاً من جراء ذلك الخلاف، على أن هذه طريقة في رواية الأمر بسيطة جداً وهي تفسد بذلك الفكرة التي يجدر أن يكونها المرء عن ذاك الألم. فحينما ألقى نفسه وحيداً لا يملك من بعد سوى التفكير بعشيقته التي مضت تحمل معها الاحترام الذي أحست به إذ رآته حازماً إلى هذا الحد انتهت صنوف القلق التي انتابته في الساعات الأولى لإزاء مالا يمكن تداركه، وإن توقف قلق ما أمر عذب إلى حد أن الخلاف

اتخذ في نظره، بعدما تأكد، شيئاً من ذات نوع السحر الذي قد تكسبه المصالحة. فأما ما أخذ يعذبه بعد ذلك بقليل فألم وعارض ثانويات كان دققهما باستمرار من ذاته لدى لتفكير بأنها ربما كانت تود التقارب وأن ليس يستحيل أنها تنتظر كلمة منه وأنها بانتظار ذلك ربما فعلت بغية الثأر لنفسها هذا الشيء أو ذاك في إحدى العشيات وفي مكان أي مكان، وأنه يقع عليه محض الإبراق إليها بأنه قادم حتى لا يتم الأمر، وأن آخرين ربما كانوا يفيدون من الوقت الذي يسمح بضياعه وأنه قد يفوت الاوان بعد بضعة أيام كيما يلحقها ثانية إذ قد تكون ملك سواه. إنه لا يعرف من كل تلك الاحتمالات شيئاً فعشيقته تلتزم صمتاً بلغ مبلغاً جن به ألمه حتى انتهى به إلى التساؤل إن لم تكن تختبئ في «دو نسير» أو هي ذهبت إلى الهند.

لقد قيل إن الصمت قوة، وإنه لقوة رهيبة في يد المعشوقين، بمعنى يختلف تمام الاختلاف. فهي تزيد من قلق الذي ينتظر. ليس ما يدعو إلى الاقتراب من شخص كمثل ما يفصلك عنه، وأي حاجز أكثر امتناعاً من الصمت؟ لقد قيل أيضاً إن الصمت عذاب وهو قادر أن يذهب بعقل من كان يفترض عليه في السجن. ولكن أي عذاب ذاك - وهو أشد من التزام الصمت - أن تكابده على يد من تحب! كان «روبير» يقول في نفسه: «ماعساها تفعل حتى تصمت هذا الصمت؟ لاشك هي تخونني مع آخرين؟» وكان يقول في نفسه أيضاً: «ماعساني فعلت حتى تصمت هذا الصمت؟ لعلها تكرهني، وإلى الأبد». فكان يتهم نفسه. وهكذا كان الصمت يفقده صوابه من جرّاء الغيرة ومن جرّاء تأنيب الضمير والصمت هذا على أية حال أشدّ قسوة من صمت المسجون فهو سجن في حدّ ذاته. وإنها لسور لاماديّ دون شك، ولكنه منيع. شريحة الأجواء الفارغة تلك القائمة إزاء المرء، ولكن أشعة بصر الذي تمّ هجره لا تقوى على اجتيازها. هل ثمة إثارة أشدّ رهبة من الصمت الذي لا يربنا غائبة بل ألفاً تنصرف كل واحدة منهم إلى خيانة أخرى؟ وأحياناً يظن «روبير» في انفراج مفاجئ أن هذا الصمت سوف يتوقف في الحال وأن الرسالة المترقة سوف تصل. كان يبصرها، إنها قادمة، ويترصد كلّ ضجة، لقد ارتوى، ويهمس قائلاً: «الرسالة! الرسالة!» وبعدما يلمح على هذا النحو واحة خيالية من الحنان كان يلقي نفسه يراوح في صحراء الصمت الحقيقية التي لا حدّ لها.

كان يعاني سلفاً جميع آلام قطيعة يظنّ في فترات أخرى أنه يستطيع تجنبها، دون أن يفوته صنف من تلك الآلام، شأن الذين يرتبون أمورهم جميعها بقصد هجرة لن تتمّ فيما يضطرب فكرهم مؤقتاً وهو لا يعلم من بعد على أيّ موقع سيقوم في الغد وينفصل عنهم شبيهها بذلك القلب الذي ينتزع من صدر مريض ويستمرّ في الخفقان وقد انفصل عن باقي الجسم. وعلى أيّ حال كان ذلك الأمل بأن عشيقته سوف تعود يزوده بالشجاعة في موالاة القطيعة مثلما الاعتقاد بإمكان الرجوع حياً من القتال يساعد على مواجهة الموت. وبما أن العادة أقلّ النباتات البشرية جميعها حاجة إلى أرض مغذية كيما تعيش وهي أول ما يبرز على الصخر الأكثر إفقاراً في الظاهر، فربما انتهى به الأمر إن لجأ باديّ ذي بدء مخادعاً إلى القطيعة أن يتعوّدها تعوداً صادقاً. بيد أن الحيرة كانت تخلف لديه حالة اقترنت بذكرى تلك المرأة فشا بهت الحب. ولكنه كان يرغب نفسه على الإحجام عن الكتابة إليها (ظناً منه بأن العذاب ربما كان أقلّ قسوة في العيش بدون عشيقته منه إلى جانبها ضمن بعض الشروط أو أن انتظار اعداها بعد الطريقة التي افترقا بها ضروري كيما تحفظ ما كان يحسب أنها تكنه له إن لم يكن من حبّ فأقله من تقدير واحترام). كان يكتفي بالذهاب إلى الهاتف الذي أقيم منذ قليل في «دونسير» وباستقاء أخبار من وصيفة أقامها بالقرب من صديقته أو باصدار تعليماته إليها. كانت تلك الاتصالات معقدة على أية حال وتكلفه وقتاً أكثر لأن عشيقته «روبير» استأجرت لتوها عقاراً صغيراً في ضواحي

«فيرساي» طبقاً لآراء أصدقائها من الأدباء فيما يخص قباحة العاصمة وعلى وجه الخصوص نظراً لحيوانتها، لكلاهما وقردها ونِزَاتها وبنائها وقد كفَّ مؤجَّرها في باريس عن احتمال أصواتها المستمرة. ولكنه لم يعد ينام بدوره لحظة واحدة أثناء الليل في «دونسير». وذات مرَّة أغفى لديه قليلاً وقد غلبه التعب. ولكنه أخذ يتكلم فجأة، كان ينبغي الجري والحوول دون أمر ما ويقول: «إنني أسمعها، ألسْتُ...» واستيقظ. قال لي إنه وافاه في الحلم أنه خارج المدينة لدى الرقيب الأول. لقد حاول هذا الأخير أن يقصيه عن قسم من المنزل، وأدرك «سان لو» أن في منزل الرقيب ملازماً شديد الثراء كثير الفسق يعرف أنه يشتهي صديقته إلى حدٍّ بعيد. وسمع فجأة في الحلم وعلى نحو واضح الصرخات المتقطعة المنتظمة التي تعودت عشيقته أن تطلقها في لحظات اللذة. وأراد إرغام الرقيب على اصطحابه إلى الغرفة، وكان هذا يمسه به ليمنعه من الذهاب إليها فيما يبغي استيائه لهذا القدر من التطفل، استياء قال «روبير» إنه لن يقوى البتة على نسيانه.

وأضاف يقول، ولا يزال متقطع الأنفاس: «إن حلمي لسخيف».

ولكنني أبصرت تماماً أنه أوشك عدَّة مرَّات في أثناء الساعة التي تلت ذلك أن يتصل هاتفياً بعشيقته ليسألها المصالحة. كان والدي قد حصل على الهاتف منذ وقت قريب، ولكنني لا أدري إن كان «سان لو» سيفيد كثيراً من ذلك. وما كان يبدو لي لائقاً جداً على أي حال أن أكلف والدي بل حتى جهازاً موضوعاً في منزلهم فحسب النهوض بدور الوسيط هذا بين «سان لو» وعشيقته مهما استطاعت هذه الأخيرة أن تبلغ من التهذيب ونبل المشاعر. وزال الحلم المزعج الذي وافى «سان لو»، زال قليلاً من ذهنه. وجاء شارل النظرة ثابتها، ليلقاني طوال جميع هذه الأيام الفظيعة التي رسمت بالنسبة إليّ في تعاقبها كأنما المنحنى الرائع لحاجز شقَّتْ صنعته ما انفك «روبير» يتساءل من وراء أي قرار ستتحذه صديقته.

وأخيراً سألتُه إن كان يرضى بأن يصفح. وما أن أدرك أن القطيعة تم تجنبها حتى رأى مساوئ التقارب كافة. لقد أخذ يتألم مذ ذاك أقل من ذي قبل على أية حال وكاد يقبل بألم ينبغي له، ربما بعد بضعة شهور، أن يلقي من جديد لسعته إن بدأت علاقته ثانية. ولم يتردّد طويلاً، ولعله لم يتردّد إلا لأنه أيقن أخيراً أنه يستطيع استعادة عشيقته، أنه يستطيع، وأنه فاعل إذن. ولكنها كانت تطالبه كيما تعود إلى هدوئها ألا يعود إلى باريس في الأول من كانون الثاني. بيد أنه لم يكن يملك الشجاعة في الذهاب إلى باريس دون أن يراها. ثم إنها ارتضت أن تسافر معه، ولكنما كان ينبغي أن يتوافر له في سبيل ذلك عطلة حقيقية لا يريد النقيب «دو بورودنيو» أن يمنحه إياها.

— «يزعجني ذلك بسبب الزيارة التي سنقوم بها لعمتي والتي ستؤجل. سوف أعود دونما شك في الفصح إلى باريس».

— «لن نستطيع الذهاب إلى منزل السيدة «دو غيرمانت» في تلك الفترة لأنني سأكون قبل ذاك في «باليك». ولكن لا أهمية لذلك على الإطلاق».

— في «باليك»؟ ولكنك لم تذهب إلى هناك إلا في شهر آب

— «أجل، ولكنهم سيرسلونني هذا العام قبل الأوان بسبب صحتي».

كان كلّ خوفه أن أسيء الظنّ بعشيقته بعد ما سبق أن رواه لي. «إنها عنيفة لمجرد أنها بالغة الصراحة كثيرة الصلابة في عواطفها. ولكنها كائن رائع. لست تستطيع تخيل الرقة الشعرية التي بها، إنها تمضي في كل عام لقضاء يوم الأموات في «بروج». اليس ذلك حسناً؟ إن قدر لك أن تعرفها في يوم فسوف ترى، إن لديها سمواً...» ولما كان مشبعاً بلغة معينة كان يتم التحدث بها من حول تلك المرأة في أوساط أدبية: «إن بها شيئاً عجيباً بل نبوياً، أنت تدرك ما أبغي قوله، الشاعر الذي كاد يكون كاهناً».

ويبحث طوال العشاء عن ذريعة تسمح له «سان لو» أن يطلب عتمته باستقبالي دون أن تنتظر مجيئه إلى باريس. وقد وفّرت لي تلك الذريعة الرغبة التي بي في أن أرى ثانية لوحات لـ «ايلستير»، الفنان الكبير الذي عرفته أنا و«سان لو» في بالبيك. وفي الذريعة على كل حال شيء من الحقيقة لأنني إن كنت طالبت فنّ ايلستير في الرسم أن يقودني، أثناء زيارتي له، إلى إدراك أمور أفضل منه وإلى حب ما كان أفضل منه، كذوبان ثلج حقيقي وساحة أصيلة في الريف ونسوة ينبضن بالحياة على الشاطئ (ولعلني كنت طلبت إليه على الأكثر رسم وجوه الواقع التي لم أفلح في تعميقها، كدرب أزاهير الزعرور، لا ليحفظ لي بجمالها بل ليكشفه لي)، أما الآن فقد كان الابتكار والفتنة في تلك الرسوم، على العكس، ما يثير اشتياقي، وإنما ما كنت أودّ على وجه الخصوص مشاهدته لوحات أخرى لـ «ايلستير».

كان يبدو لي من ناحية أخرى أن أقلّ لوحاته شيء يغير روائع رسامين حتى أعظم منه. لكناًما أعماله مملكة مغلقة منيعة الحدود ومن مادة لاثاني لها. وإذ كنت أجمع بينهم المجلات النادرة التي نشرت فيها دراسات حوله، فقد علمت فيها أنه لم يشرع إلا منذ عهد قريب في رسم مناظر ولوحات طبيعة جامدة. ولكنه بدأ بلوحات ميثولوجية (وقد سبق أن رأيت صورتين منها في مشغله) ثم تأثر فترة طويلة بالفن الياباني.

كان بعض أكثر ما يميز أساليبه المختلفة من أعماله في الريف. وهذا البيت أو ذاك في «أندليس» الذي يحوي أحد أجمل مناظره كان يبدو لي قيماً ويبحث في توقاً إلى السفر شديداً بقدر ما تفعل قرية من منطقة «شارتر» نزلت في حجارته الصوّائية لوحة زجاجية مجيدة. وكنت أحسني مدفوعاً نحو مالك هذه الرائعة الفنية، نحو هذا الرجل الذي يقبع في ركن قصي من منزله الوضيع المطل على الطريق وقد احتبس داخله شأن منجمّ يسأل واحدة من مرأيا هذا العالم التي تشكلها لوحة لـ «ايلستير» ربّما ابتاعها لقاء عدة آلاف من الفرنكات، أحسني مدفوعاً بذلك التواجد الذي يوحد حتى قلوب أولئك الذين يفكرون بالطريقة نفسها التي نفكر بها بصدد موضوع جوهرى وحتى طباعهم. وكان قد أشير في إحدى تلك المجلات إلى ثلاثة أعمال فنية هامة لرسمي المفضل على أنها تخص السيدة «دو غيرمانت» فكان إذن أن استطعت باختصار القول، في المساء الذي أعلمني «سان لو» فيه بسفر صديقه من «بروج»، أن ألقى إليه بصدق في أثناء العشاء وفي حضرة أصدقائه وكأنما على نحو مفاجئ:

— «إسمع، تسمح؟ حديث أخير بشأن السيدة التي تحدثنا عنها. أتذكر «ايلستير»، الفنان الذي عرفته في «بالبيك»؟

— «ويحك، بالطبع».

- «أوتذكر إعجابي به؟»
- «تماماً، والرسالة التي قمنا بتسليمه إياها.»
- «حسن، إن واحداً من الأسباب، وليس من أهمها، بل سبب ثانوي أرغب من جرائه التعرف إلى السيدة المذكورة، لازلت تعلم تماماً من هي؟»
- «أجل، أجل! ما أكثر المعترضات!»
- «ذلك أنها تملك، لديها على الأقل لوحة جميلة جداً لـ«إيلستير».
- «عجباً، ما كنت أعرف.»
- «سوف يكون «إيلستير» في الفصح دون شك في «البليك»، وأنت تعلم أنه يقضي الآن السنة بكاملها تقريباً على هذا الشاطئ. كنت أودّ كثيراً أن أكون قد رأيت هذه اللوحة قبل رحيلي. لست أعلم إن كنت على صلة وثيقة إلى حد ما بعمتك؛ أفلا تستطيع أن تطلب إليها، إذ ترفع من قدرتي في عينيها بحفاوة تحول دون أن ترفض، أن تسمح لي بالذهاب لمشاهدة اللوحة بدونك بما أنك لن تكون هناك؟»
- «اتفقنا، إني أقوم مقامها وسأخذ الأمر على عاتقي..»
- «كم أحبك يا «روبير»!
- «لطيف منك أن تحبني، ولكنك ستبدي اللطف نفسه لو «رفعت التكليف» بيننا مثلما سبق أن وعدت وبدأت تفعل.»
- وقال لي أحد أصدقاء «روبير»: أمل ألا يكون رحيلك ما تدبران. تدري، إن رحل «سان لو» في إجازة فينبغي ألا يبدل الأمر شيئاً فنحن هنا. ربما تناقصت التسلية إليك ولكننا سنكلف أنفسنا الكثير من العناء لنحاول أن ننسيك غيابك!»
- لقد وافاهم بالفعل منذ قليل، فيما كانوا يحسبون أن صديقة «روبير» سوف تذهب بمفردها إلى «بروج»، أن النقيب «دو بورودينو» قد أذن، وكان حتى ذلك؛ من رأي مخالف، بمنح ضابط الصف «سان لو» إجازة طويلة إلى «بروج». وهاك ما حصل. كان الأمير، وهو شديد الاعتزاز بشعره الغزير، زبوناً مواظباً لدى أعظم حلاق في المدينة كان فيما مضى صانع الحلاق الأسبق لنابليون الثالث. وكان النقيب «دو بورودينو» على أحسن علاقة بهذا الحلاق فقد كان بسيطاً مع صغار القوم على الرغم من مسلكه الذي يتصف بالأبهة. ولكن الحلاق الذي كان للأمير لديه قائمة حساب مضى عليها مالا يقل عن خمس سنوات وتزيدها قوارير «البرتغال» و«ماء الملوك» ومكاوي الشعر والأمواس والجلود بقدر ما تفعل مستحضرات غسل الشعر والقصّات، الخ، كان يضع «سان لو» في مكانة أرفع إذ هو يدفع في الحال ويملك عدّة عربات وجياد ركوب. ولما بلغه أسف «سان لو» ألا يستطيع الذهاب مع عشيقته روى عن ذلك بحرارة للأمير المقيد داخل قميص أبيض وفي

اللحظة التي كان الحلاق يمسك فيها برأسه مشدودة إلى الخلف ويهدد عنقه. وانتزعت رواية هذه المغامرات الغرامية لأحد الشبان من شفتي النقيب الأمير ابتسامة تسامح بونابرتية. ومن غير المرجح أنه فكر في قائمة حسابيه غير المدفوعة، ولكن توصية الحلاق كانت تشجيع السرور في نفسه بقدر ما تعكر مزاجه توصية دوق. كان الصابون لا يزال يغطي ذقنه حينما وعد بالإجازة وقد تم توقيعها في المساء نفسه. أما الحلاق الذي من عادته أن يتباهى باستمرار وأن يخص نفسه كيما يستطيع ذلك بصنوف من الجاه مبتدعة كلياً وذلك بقدرة على الكذب خارقة فإنه في المرة التي أدى فيها خدمة مرموقة لـ «سان لو» لم يقم بنشر فضائلها، وليس ذلك فحسب بل هو لم يعد البتة إلى الحديث عن ذلك أمام «روبير» وكأنما الغرور بحاجة إلى الكذب فإن لم يكن مجال لافتماعه تخلى عن مكانه للتواضع.

قال لي جميع أصدقاء «روبير» أنه مهما طاللت فترة مكوثي في «دونسيير» أو في أية فترة عدت إليها فإن عرباتهم وجيادهم وبيوتهم وساعات فراغهم ستخصص لي إن لم يكن هنالك فكنيت أحس أن هؤلاء الشبان كانوا يضعون ترفهم وشبابهم وقوتهم في خدمة ضعفي.

وأضاف أصدقاء «سان لو» يقولون بعدما ألحوا عليّ بالبقاء: «ولمَ لا تعود في كل عام؟ فأنت ترى أن هذه الحياة البسيطة تروقك! وإنك حتى تهتم بكل ما يجري في الكتيبة شأن المتقدمين».

ذلك أني ظلمت أسألهم بتلهف أن يصنفوا مختلف الضباط الذين كنت أعرف أسماءهم حسبما يبدو لهم أنهم يستحقون من اعجاب كثير أو قليل، مثلما كنت بالأمس أطلب رفاقي أن يفعلوا بشأن ممثلي المسرح الفرنسي. فإن قال أحد أصدقاء «سان لو» بدلا من أحد الألوية الذين كنت أسمع ذكر اسمهم أبداً على رأس جميع الآخرين، من أمثال «غاليقي» أو «نيغريه»: «ولكن نيغريه ضابط قائد من أكثرهم ضحالة» وألقى باسم «بو» أو «جيسلان دو بورغوني» جديداً ناصعاً طريفاً كنت أشعر بالدهشة السعيدة نفسها التي كنت أحس بها فيما مضى حينما يقضي النجاح المفاجئ لاسم «أموري» غير المألوف أسماء «تيرون» أو «فيفر» المستفدة. «يفوق حتى نيغريه؟ ولكن بمَ يفوقه؟ هات مثلاً» كنت أريد أن تكون ثمة فوارق عميقة حتى بين ضباط الكتيبة الأعوان وأمل إدراك جوهر ما يؤلف التفوق العسكري في علة هذه الفوارق. ولعل من بين من كان يهمني أكثر ما يهمني سماع من يتحدث عنهم إنما كان الأمير «دو بورودينو» لأنه هو من سبق أن أبصرت أكثر ما أبصرت. ولكن كان «سان لو» وأصدقائه ينصفون فيه الضباط الجميل الذي يضمن لكتيبتهم مظهراً لا يضاهي إلا أنهم ما كانوا يحبون الرجل لا هو ولا أصدقائه. لم يكن يبدو أنهم يضعون السيد سديو بورودينو، دون أن يتحدثوا عنه بالطبع بذات اللهجة التي يستخدمونها بحق بعض ضباط ترفعوا بالقدم وهم ماسونيون لا يخالطون الآخرين ويحتفظون إلى جانبهم بمظهر مساعدين مخيف، لم يكن يبدو أنهم يضعونه في عداد باقي الضباط النبلاء الذين كان والحق يقال يختلف كثيراً عنهم في موقفه حتى إزاء «سان لو». أما هم فكانوا يستغلون كون «روبير» مجرد ضابط صف وأن أسرته المقتدرة تستطيع أن تسعد والحالة هذه أن تتم دعوتهم لدى رؤساء لعلها لولا ذلك احتقرتهم، فلا يضيعون فرصة يستقبلونه فيها على مائدتهم حينما يكون ثمة واحد من كبار القوم قادر أن يفيد رقيباً شاباً. وحده النقيب «دو بورودينو» كانت له مع «روبير» علاقات ناجمة عن الوظيفة فحسب، وكانت ممتازة على أي حال. ذلك لأن الأمير الذي أصبح مشيراً ودوقاً أميراً على يد

«الامبراطور» والذي صاهر أسرة هذا الأخير بعد ذلك بزواجه ثم تزوج والده ابنة عم نابليون الثالث وأصبح مرتين وزيراً بعد الانقلاب، ذلك لأنه كان يحس أنه على الرغم من ذلك ما كان يساوي الكثير في نظر «سان لو» ومجتمع آل «غير مانت» الذين كانوا لا يساؤون شيئاً على وجه التقريب في نظره بما أنه لم يكن ينظر من وجهة نظرهم. كان يشك أنه - هو قريب أسرة «هوهنزوليرن» بالمصاهرة - لم يكن في نظر «سان لو» نبيلًا حقيقياً بل حفيد مزارع. ولكنه كان يعدّ «سان لو» بالمقابل بمثابة ابن رجل تم تثبيت إقطاعه الكونتي على يد «الامبراطور» - كانوا يسمون ذلك في حي «سان جيرمان» بالكونتات المجددين - وقد التمس منه منصب محافظ ثم منصباً آخر هيناً جداً يأتمر بأمر معالي الأمير «دو بورودنيو» وهو وزير دولة كان يكتب إليه بلقب «صاحب السيادة» وكان ابن شقيق الملك.

وربما كان أكثر من ابن شقيق. فأميرة «بورودنيو» الأولى اشتهرت بأنها أبدت صنوفاً من اللطف لنابليون الأول الذي لحقت به إلى جزيرة «إيلبا»، والثانية لنابليون الثالث. ولئن كنت تلقى في وجه النقيب الهادئ على الأقل جلال قناع نابليون الأول المدرس إن لم تلق ملامح الوجه الطبيعية، فقد كان لدى الضابط، ولاسيما في النظرة الكتبية الطيبة وفي الشارب المتهدل، ما يذكر بنابليون الثالث. وذلك على نحو ملفت إلى حدّ أنه إذ طلب بعد معركة «سودان» أن يؤذن له باللاحق بالامبراطور وإذ صرفه «بيسمارك» الذي جيء به إليه ورفع هذا الأخير عينيه مصادفة إلى وجه الشاب الذي كان يتأهب للمغادرة تولته الدهشة فجأة إزاء هذا التشابه فاستدرك واستدعاه ومنحه الإذن الذي حجه عنه منذ قليل شأنه مع الجميع.

وإن لم يشأ «بورودنيو» أن يحاول التقرب من «سان لو» ومن أفراد حيّ «سان جيرمان» الآخرين الذين ضمتهم الكتبية «في حين كان كثير الدعوة للملازمين أولّين من طبقة العوام وكانا رجلين ممتعين» فلاّنه كان يقيم إذ ينظر إليهم جميعاً من عالي عظمته الامبراطورية، بين هؤلاء الأدنى مرتبة هذا الفارق الذي قوامه أن بعضهم كانوا من الأدين الذين يعرفون أنهم كذلك والذين يفتنه أن يقيم صلات معهم إذ هو خلف مظاهر الجلال بسيط المزاج مرحه، والبعض لآخر من الأدين الذين يحسبون أنهم أرقى مستوى، الأمر الذي لم يكن يقبل به. وفي حين كان جميع ضباط الكتبية يرحبون بـ «سان لو» فقد اكتفى أمير «بورودنيو»، وكان المشير «س» قد أوصاه به، بأن يكون لطيفاً معه في أثناء الخدمة التي كان «سان لو» مثالياً فيها على أي حال، ولكنه لم يستقبله قط في بيته إلا في مناسبة خاصة اضطر فيها إلى حدّ ما أن يدعوه وقد طلب إليه، إذ وقعت في أثناء إقامتي، أن يصطحبني. وأمكنتني في ذلك المساء وأنا أشاهد «سان لو» إلى مائدة النقيب، أن أميز بيسر حتى في سلوك كل منهما وأناقته الفارق الكائن بين الأرستقراطيين: طبقة النبلاء القديمة ونبلاء عصر الامبراطورية. كان «سان لو» سليل طبقة سرت معانيها، وإن رفضها بكامل عقله، في دمه ولا تری، بعدما كفت عن ممارسة سلطة حقيقية منذ مالا يقلّ عن قرن، لا تری من بعد في اللطف الحاني الذي يؤلف جزءا من التربية إلى تنشأ عليها سوى تمرين كركوب الخيل أو لعبة الشيش يمارس دونما هدف جدّي وبداعي التسلية خلافاً للبورجوازيين الذين تزدهرهم طبقة النبلاء هذه بما يكفي لتحسب أن ألقتها ترضي غرورهم وأنّ تماديها قد يشرفهم، كان يأخذ على نحو ودي يدي بورجوازي تمّد إليه، ولعله لم يسبق له أن سمع باسمه، ويدعوه في حديثه إليه «يا عزيزي» (دون أن يكفّ عن مصالبة ساقية وفكهما وهو ينقلب إلى الوراء لا يبالى ورجله في يده). وعلى العكس من ذلك كان الأمير «دو بورودنيو»، وهو من طبقة أشرف لا تزال ألقابها تحتفظ

بمدلولها إذ ظلت تزخر بإقطاعات غنية جاءت جزاء خدمات مجيدة وتعيد إلى الأذهان ذكرى وظائف رفيعة يسيط فيها سلطته على العديد من الناس ويجدر به فيها أن يعرف الناس، كان يعد مكانته - إن لم يكن على نحو واضح وفي صفاء وعيه الشخصي فعلى الأقل في جسمه الذي كان يكشف عن ذلك بمظهره ومسلكه - بمثابة امتياز فلهي. لقد كان يتحدث إلى هؤلاء العوام أنفسهم، الذين ربما ريت «سان لو» على كتفهم وأخذ ذراعهم، بلطف يتسم بالمهابة ويلطف من بشاشة الطيبة الطبيعية لديه تحفظ يفيض بالعظمة، وذلك بلهجة بطبعها العطف الصادق والترفع المقصود في آن معا. كان مرد ذلك دونما شك أنه كان أقل بعداً عن السفارات الكبرى وعن البلاط الذي سبق أن اضطلع فيه والده بأرفع المناصب وحيث قد لا يقلى تصرف «سان لو» ومرفقه على الطاولة ورجله في يده أي ترحيب؛ على أن مرد ذلك على وجه الخصوص أن تلك البورجوازية إنما كان أقل ازدراء لها وأنها كانت الخزان الكبير الذي استقى الامبراطور الأول منه مشيريه وأشرفه ووجد الثاني فيه أمثال «فولد» و«روهيه».

وليس من شك أن اهتمامات والد السيد «دو بورودينو» وجدّه ما كانت لتستطيع البقاء حقاً داخل فكره لنيناب الأشياء التي تنصب عليها، فهو ابن امبراطور أو حفيد له لم يبق له من أمر غير بسط سلطته على سرية، ولكن مثلما تظل روح الفنان تكيف التمثال الذي نحت على مدى سنوات كثيرة بعدما تنطفئ جذوته، كانت تلك الاهتمامات قد تكونت في داخله واتخذت شكلاً مادياً وتجسدت فهي ما كان يعكسه وجهه. فبحيوية الامبراطور الأول في صوته كان ينحي باللائمة على أحد العرفاء، وبكتابة الثاني الحاملة كان ينفث دخان لفافة. وحينما كان يمر في شوارع «دونسيير» بثياب مدنية ينطلق بريق في عينيه من تحت القبعة يتألق به من حول النقيب حضور ملكي متخف، وبرتجف القوم حينما يدخل مكتب الرقيب الأول يتبعه المساعد وضابط الإطعام وكأني بهما «بيرتييه» و«ماسينا»^(١). وحينما كان يختار قماش بنطال لسريته كان يثبت على العريف الخياط نظرة قادرة أن تفسد خطط «تاليران» وتخدع «الكسندر». ويتوقف أحياناً وهو يستعرض إقامة إنشاءات ويسلم للأحلام عينيه الزرقاوين الرائتين ويقتل شاربه فكأني به بيني «بروسيا» و«إيطاليا» جديدين. ولكنه يلفت الانتباه في الحال، وقد انقلب نابليون الأول، إلى أن المتاع لم يكن ملمعاً وأنه يريد تذوق طعام الجنود. وكان يأمر في بيته وفي حياته الخاصة بأن تقدم لنساء ضباط بورجوازيين (شرط ألا يكونوا ماسونيين) لا آتية طعام من خنزف «سيفر» الأزرق الملكي فحسب مما يليق بالسفراء (وهي هبة نابليون لوالده وكانت تبدو أوفر قيمة في المنزل الريفي الذي كان يسكنه في المنتزه العام، شأن ذلك الخزف الصيني ذي القطع النادرة التي يتأملها السياح بمتعة أكبر داخل الخزنة القروية لقصر ريفي قديم تم تحويله مزرعة كثيرة الزوار مزدهرة) بل هدايا أخرى كذلك قدمها الامبراطور؛ تلك التصرفات الكريمة الرائعة التي ربما أتت بالعجب في هذه الممثلة أو تلك، لو لم يكن «كرم المحتد» في نظر البعض إنما يعني أن يحكم على المرء مدى حياته كلها بأشد صنوف الإبعاد ظلماً، والحركات الأليفة والطيبة والظرف والذخيرة الراضية بالأسرار المشعة التي لاتزال حية. ذخيرة العين التي تحتبس خلف مينا زرقاء ملكية هي الأخرى صوراً مجيدة.

أما بصدد العلاقات البورجوازية التي كان يقيمها الأمير في «دونسيير» فيجدر أن نقول مايلي: كان

(١) من ضباط نابليون بونابرت الأول.

العقيد يعزف على البيانو عزفاً رائعاً وزوجة رئيس الأطباء تغني وكأنها نالت جائزة أولى في المعهد الموسيقي. كان هذان الزوجان الأخيران يتناولان طعام العشاء كل أسبوع في منزل السيد «دو بورودنيو» شأن العقيد وزوجته كان ذلك يرضي غرورهم بالتأكيد إذ يعلمون أن الأمير إنما يتناول طعام العشاء في منزل السيدة «دو بورتاليس» وفي منزل آل «مورا» الخ، حينما يذهب في إجازة إلى باريس. ولكنهم كانوا يسرون فيما بينهم: «إنه مجرد نقيب وهو شديد السعادة من أننا نجىء إلى منزله، وأنه على أي حال صديق حقيقي لنا». ولكن حينما عين السيد «دو بورودنيو» في مدينة «بوفيه»، وكان يقوم منذ فترة طويلة بمساح للاقترب من باريس، قام بنقل أثاث بيته ونسي الزوجين الموسيقيين نسياناً تاماً مثلما نسي مسرح «دونسير» والمطعم الصغير الذي كثيراً ما كان يطلب منه إحضار غدائه، ولم يبلغ العقيد ولا رئيس الأطباء اللذين كثيراً تناولوا على مائدته طعام العشاء، لم يبلغهما طوال حياتهما شيء من أخباره، مما أثار حفيظتهما.

وذات صباح أقر لي «سان لو» أنه كتب إلى جدتي ليزودها بأخباري ويوحى إليها بفكرة التحدث إليّ بما أن الخدمة الهاتفية أخذت تعمل بين «دونسير» وباريس. وقصارى القول انها عزمت أن تطلبني على الهاتف في اليوم نفسه فأشار عليّ بالحضور إلى البريد في حوالي الرابعة إلا رباعاً.

ولم يكن استعمال الهاتف في تلك الحقبة قد شاع بعد شيعه اليوم ومع ذلك فإن العادة تستغرق وقتاً قصيراً جداً لتجريد القوى المقدسة التي يتم اتصالنا بها من أسرارها إلى حد أن الفكرة الوحيدة التي راودتني، حين لم أحصل على الاتصال في الحال. هي أن الأمر تطاول كثيراً وبلغ من الازعاج حداً وكاد يخطر لي أن أقدم بشكوى: فما كنت أجد، شأننا كلنا الآن، على ما أشتهي من سرعة في تغيراتها المفاجئة هذه الفتنة الرائعة التي تكفيها بضع لحظات حتى يظهر بالقرب منا الشخص الذي كنا نبغي التحدث إليه، خفياً ولكنه هنا، الشخص الذي نراه فجأة ينقل مئات الفراسخ (هو وكامل الأجواء التي يظل مغموساً فيها) بالقرب من أذننا لحظة قضت نزواتنا بذلك، وهو باقٍ إلى طاولته في المدينة التي يسكنها (وهي باريس فيما يخص جدتي) تحت سماء تختلف عن سمائنا وفي طقس ليس واحداً بالضرورة وسط ظروف واهتمامات نجهلها ويزرع هذا الشخص أن ينقلها إلينا. وإننا لنشبه رجل الحكاية الذي تبدي ساحة لعينيه، بناءً على الأمانة التي صدرت عنه، وفي ضياء خارق. جدته أو خطيبته وهي تقلب صفحات كتاب وتسكب دموعاً وتقطف زهوراً على مقربة من المشاهد مع أنها بعيدة جداً وفي المكان الذي تقيم فيه بالحقيقة. ولا يقع علينا، كيما تتم هذه الأعجوبة، إلا أن ندني شفتينا من اللوحة السحرية الصغيرة وننادي- يطول الأمر كثيراً في بعض الأحيان، إنني مقر بذلك - «بالعذارى اليقظات» اللواتي نسمع صوتهن كل يوم ولا نرى وجههن في يوم وهن ملائكتنا الحراس في الظلمات المدوّخة التي يراقبن أبوابها مراقبة الغياري، المقتدرات اللواتي يطلع بهن الغياب إلى جانبنا دون أن تتاح رؤيتهم، بنات الخفاء اللواتي لا يفتأن يفرغن أجاجين الأصوات ويملأنها ويتناقلنها، إلهات الثأر الساخرات اللواتي يصحن بنا قاسيات، لحظة نهمس بسر في أذن صديقة أملين أن ليس من يسمعنا: «إنني مصغية»، خادومات «السرو» الغاضبات أبداً، كاهنات اللامرئي المحاذرات، آنسات الهاتف!

وما أن يدوي نداؤنا في الليل المليء بالأشباح الذي تنفتح آذاننا وحدها عليه حتى تبرز ضجة طفيفة- ضجة غامضة - وهي ضجة المسافات المقهورة ويحدثنا صوت الحبيب.

هذا هو، هذا صوته يحدثنا، إنه ههنا. ولكن ما أبعدنا! وكم مرة لم استطع الاصغاء إليه دونما قلق كما لو كان بي، إزاء استحالة أن أرى قبل ساعات طويلة من السفر تلك التي كان صوتها قريباً جداً من أذني، إحساس أفضل بما في ظاهر التقارب الأكثر عذوبة من خيبة أمل وأية مسافة يمكن أن تفصلنا عن الأحباء لحظة يبدو أنه يكفيننا أن نمدّ يداً كيما نمسك بهم. وإنه لحضور حقيقي ذلك الصوت القريب جداً - داخل الفراق الفعلي! ولكنه إلى ذلك استباق لفراق أبدي! فكثيراً ما بدا لي وأنا أصغي على هذا النحو دون أن أشاهد من كانت تحدثني من البعيد البعيد أن ذلك الصوت يهتف من الأعماق التي لا يعود المرء منها، وعرفت القلق الذي سيعتريني ذات يوم حينما يعود صوت على هذا النحو (وحيداً لا يرتبط من بعد بجسد لن يتأتى لي أن أراه ثانية في يوم) فيهمس في أذني كلمات وددت لو أقبلها لدى مرورها بين شفتين استحالتا تراباً إلى الأبد.

ولم تقع المعجزة للأسف في «دونسير» في ذلك اليوم. فحينما بلغت مكتب البريد كانت جدتي قد طلبتني ودخلت إلى غرفة الهاتف وكان الخط مشغولاً إذ كان ثمة أحدهم يتكلم ولا يدري دونما ريب أن ليس هناك من يجيبه، فقد أخذت قطعة الخشب تلك حينما جذبت إليّ السماعة تتكلم كما يفعل كراكوز، وأسكتها مثلما يتم الأمر في مسرح العرائس باعادتها إلى مكانها، ولكنها كانت تعاد ثرثرتها ما أن أعيدها بالقرب مني. وانتهى بي الأمر بعد استنفاد كل الوسائل إلى إعادة السماعة نهائياً فقضيت بذلك على اختلاجات هذا القسم الرنان الذي ثرثر حتى الثانية الأخيرة. ومضيت فجئت بالمستخدم الذي قال لي أن انتظر لحظة؛ ثم تكلم، وبعد بضع لحظات صمت سمعت فجأة ذاك الصوت الذي حسبته خطأ أنني أعرفه تمام المعرفة لأن ما كانت تقوله لي جدتي حتى ذاك كل مرة تحدثت فيها إليّ تابعت على الدوام على أنغام وجهها المفتوحة حيث تشغل العينان مكاناً كبيراً. أما صوتها نفسه فقد كنت أسمع اليوم للمرة الأولى. واكتشفت إلى أي حد كان ذلك الصوت عذباً لأن ذلك الصوت كان يبدو لي وقد تغير في أحجائه منذ اللحظة التي أضحي فيها كلاً واحداً وأخذ يبلغ مسامعي وحده ودون مرافقة ملامح الوجه. ولعلّه لم يكن عذباً إلى هذا الحد في يوم لأن جدتي ظنّت، وقد أحست أنني بعيد وتعبس، أنها تستطيع الاستسلام لتدفق حنان كانت تكتمه وتخفيه بالعادة بداعي تربوية. كان عذباً، ولكن كم كان حزينا كذلك بسبب عذوبته نفسها بادئ الأمر وقد تخلص أكثر مما أمكن أن يتم ذلك للقليل من الأصوات البشرية من كل خشونة ومن كل عنصر مقاومة للآخرين وكل أنانية! كان يبدو في كل لحظة، هو الهش لفرط رفته، أنه على شفا أن ينكسر ويفيض دفقة صافية من الدمع. ثم إنني. لاحظت فيه للمرة الأولى، وقد أضحي وحيداً بالقرب مني أراه دون قناع الوجه، الغموم التي صدّعته في بحر حياتها.

وعلى أي حال هل كان الصوت بمفرده ما كان يشيع فيّ هذا الانطباع الجديد الذي يمزقني، لأنه كان وحيداً؟ لا، بل بالأحرى لأن عزلة الصوت هذه كانت بمثابة رمز، بمثابة استذكار، وأثر مباشر لعزلة أخرى، عزلة جدتي التي انفصلت عني للمرة الأولى. إن ضروب الأمر أو النهي التي كانت توجهها إليّ في كل لحظة في الحياة العادية، وسأم الطاعة أو حمى التمرد وكلاهما كان يشلّ الحنان الذي أحس به نحوها، قد زالت في هذه اللحظة بل ربما أمكن أن تزول في المستقبل (بما أن جدتي لم تعد تصرّ على الاحتفاظ بي إلى جانبها وتحت سيطرتها وكانت تنقل إليّ أملها في أن أبقى نهائياً في «دونسير» أو أن أطيل إقامتي فيها في جميع الأحوال أطول فترة ممكنة إذ يمكن أن يحسن ذلك من صحي وعملي)؛ ولذلك فإن ما كان تحت

هذا الجرس الصغير الذي أقربه من أذني إنما كان مودّتنا المتبادلة وقد زالت عنها ضغوط متعارضة كانت في كل يوم توازنها فإذا هي مذ ذاك لا تقاوم وتدفعني بكليتي. لقد بعثت بي جدتي إذ أشارت عليّ بالبقاء حاجة متلهفة مجنونة بأن أعود. لقد بدت لي تلك الحرية التي تدعها لي مذ ذاك والتي لم يراودني في يوم أنّها تستطيع القبول بها، بدت لي فجأة في مثل ما يمكن أن تكون عليه حريتي من أسى بعد موتها (يوم أظل على حبها وتكون قد تخلت عني إلى الأبد). وصرخت قائلاً: «جدتي، يا جدتي» ووددت لو أقبلها، بيد أنه لم يكن بالقرب مني سوى ذاك الصوت، ذاك الطيف المتهرب تهرب الطيف، الذي ربما عاد يزورني بعدما تكون جدتي قد ماتت. «حدثيني»؛ ولكنّما حدث إذ ذاك أن كفت فجأة عن سماع ذاك الصوت وقد تركني أكثر وحدة من ذي قبل. لم تعد تسمعي جدتي، لم تعد على اتصال بي، لقد توقفت قيامنا الواحد قبالة الآخر، وأن يظل واحدنا يسمع الآخر، والبيت النداء وأنا أتلمس الليل وأحس أن نداءات لها كان ينبغي أن تضيح هي الأخرى. وكان يهزني القلق نفسه الذي أحسست به بالأمس في يوم كنت فيه طفلاً وفقدتها داخل الجمهور، والقلق من ألا أجدها أقل من الأحساس بأنها تبحث عني، والإحساس بأنها كانت تقول لنفسها إنّني أبحث عنها. قلق يشبه إلى حدّ ما القلق الذي سينتابني يوم يتحدّث المرء إلى من لا يستطيعون الإجابة من بعد وعمن يودّ على الأقلّ كثيراً أن يسمعهم كلّ ما لم يقله لهم والتأكيد بأنه لا يتعذّب. كان يخيل إليّ أنّه مذ ذاك طيف حبيب سمحت منذ قليل أن يضيح بين الأطياف وأني وحدي أمام الجهاز أو آلي الترداد دونما جدوى: «جدتي، يا جدتي» مثلما يرّد «أورفيوس»، وقد بقي وحده اسم الميتة. وقرّرت مغادرة البريد والذهاب لللافة «روبير» في مطعمه كي أقول له إنني ربما كنت على وشك تسلّم بريقة قد تضطرّني للعودة وأودّ لذلك معرفة مواعيد القطارات تحسباً لكلّ طارئ. ومع ذلك فقد وددت قبل اتخاذها القرار أن أضرع مرّة أخيرة إلى بنات الليل ورسولات الكلمة والآلهات اللواتي لا وجه لهنّ. ولكنّ الحارسات المتقلبات الطباع لم يشأن يفتحن لي الأبواب المسحورة أو هنّ لم يستطعن ذلك دون شك، وعبثاً ضرعن دونما كلل حسب عاداتهنّ إلى مخترع الطباعة الجليل والأمير الشاب هاوي الرسم الانطباعي والسائق معاً (وكان ابن أخ للفتيق «بورودينو») فقد ترك «غوتنبرغ» و«فاغرام» توسلاتهنّ دون جواب ومضيت وأنا أحس بأنّ اللامنتظر المبهتل إليه سوف يظلّ أصمّ.

ولدى وصولي بالقرب من «روبير» وأصدقائه لم أقرّ لهم بأنّ فؤادي لم يعد معهم وأنّ رحيلي قد تقرّر قراراً لا رجعة فيه. وبدا أنّ «سان لو» يصدقني، ولكني علمت مذ ذاك أنه أدرك منذ الدقيقة الأولى أنّ حيرتي متصنعة وأنّه لن يلقاني في الغد. وفيما كان أصدقاؤه يبحثون معه في لوحة الدليل، ويدعون أصناف الطعام تبرّد إلى جانبهم، عن القطار الذي يمكن أن استقله للعودة إلى باريس. وتتناهى إلى الاسماع في الليل المنجم البارد صفارات القاطرات، لم أعد بالتأكيد أحس بالطمأنينة نفسها التي سبق أن أولتني إيّاها ههنا على مدى العديد من الأمسيات صداقة هؤلاء ومرور تلك في البعيد. مع أنها لم تقل عدداً هذا المساء وقد اتخذت شكلاً آخر في هذه الغرفة نفسها. لقد أضحي رحيلي أقلّ إرهاقاً لي حين لم أعد مضطراً إلى التفكير به وحدي وحين شعرت أنه يستخدم في تحقيق ما يجري النشاط الأوفر طبعيةً والأكثر سلامة، نشاط أصدقائي الحازمين رفاق «روبير» وتلك الكائنات القوية الأخرى، عنيت القطارات التي كان غدوها ورواحها صبح مساء من «دونسيير» إلى باريس يفتتان، باتجاه الماضي، ما كان في انفصالي الطويل عن جدتي من كثافة شديدة لانطلاق، إمكانيات عودة يومية.

وقال لي «سان لو» ضاحكاً: «لست أشك في صحة كلامك وأنت لا تعترزم الرحيل بعد، ولكن تصرف كما لو أنك ترحل وتعال فودّعني صباح غد في ساعة مبكرة، وإلا تعرضت لخطر أن لا أراك. إني أتناول طعام الغداء في المدينة فقد صرّح لي النقيب بذلك، وينبغي أن أكون عدت إلى الشكنة في الساعة الثانية لأننا سنذهب في مسيرة طوال النهار. وليس من شك في أن السيد الذي أتغذى في منزله على بعد ثلاثة كيلومترات عن هنا سوف يعيدني في الوقت المناسب لأكون الساعة الثانية في الشكنة.»

وما أن قال هذه الكلمات حتّى جاؤوا يطلبونني من فندقتي. لقد أرسلوا في طلبي من البريد إلى الهاتف. وأسّرع إلى هناك إذ كان يزعم إغلاق أبوابه. كانت لفظة «الهاتف الخارجي» تتردّد دون انقطاع في الأجوبة التي تأتيني على لسان المستخدمين. كنت في قمة الاضطراب لأن جدّتي هي التي أرسلت في طلبي. كان المكتب يزعم إغلاق أبوابه. وأخيراً تمّ لي الاتصال «أهذه أنت يا جدّتي؟» وأجابني صوت امرأة ولكنها انكليزية ظاهرة: «أجل، ولكنني لا أعرف صوتك» ولم يتم لي أكثر منها تعرّف صوت من كان يحدثني، ثم إن جدّتي لم تكن تخاطبني بالجمع. وأخيراً أتضح كلّ شيء. ذلك أن الشاب الذي أرسلت جدّتي تطلبه إلى الهاتف كان يحمل اسماً يكاد يماثل اسمي وكان يقطن في أحد ملاحق الفندق. وإذ نادى عليّ في اليوم نفسه الذي ابتغيت فيه الاتصال تلفوياً بجدّتي فإني لم أشك لحظة واحدة أنها هي التي طلبتني، وكان أن ارتكب البريد والفندق معاً خطأ مزدوجاً من جراء المصادفة المحضة.

وفي صبيحة الغد تأخّرت ولم ألق «سان لو» الذي كان قد ذهب لتناول طعام الغداء في هذا القصر الجوار. وفي نحو الساعة الواحدة والنصف كنت استعدّ للذهاب إلى الشكنة على سبيل الاحتياط لأكون هناك حال وصوله حينما رأيت وأنا أجتاز أحد الشوارع الكبيرة المؤدية إليها وفي ذات الاتجاه الذي كنت ماضياً فيه عربة اضطررتني لدى مرورها بالقرب مني إلى التنحي عن الطريق. كان يقودها ضابط صف فوق عينه نظارة، فإذا هو «سان لو» كان إلى جانبه الصديق الذي تناول طعام الغداء فيبيته والذي سبق أن التقيته ذات مرّة في الفندق حيث كان «روبير» يتعشى. ولم أجروا على مناداة «روبير» إذ لم يكن وحيداً، إلا أنني أردت أن يتوقّف ليحملني معه فلفت انتباهه بتحية واسعة يفترض أن الدافع إليها وجود مجهول. كنت أعرف «روبير» قصير النظر، على أنني ظننت أنه لو يراني فلن يفوته أن يتعرّفني. ولكنه أبصر التحية وبادلني إياها ولكن دون أن يتوقّف. وابتعد بأقصى سرعة دون أن يتسمّ ابتسامة واحدة ودون أن تهتّز عضلة في وجهه، واكتفى بأن تظلّ يده مرفوعة على رفرق قبّته مدة دقيقتين كما لو أنه يجيب جندياً لم يعرفه. وجريت حتّى الشكنة، ولكنها كانت لا تزال بعيدة؛ وحينما وصلت كانت الكتيبة تتشكل في الباحة فلم يسمح لي بالبقاء فيها، وقد غمني أن لم أتمكن من وداع «سان لو». وصعدت إلى غرفته فلم يكن فيها، واستطعت أن استعلم عنه جماعة من الجنود المرضى ومجنّدين تمّ إعفاؤهم من السير، حامل البكالوريا الشاب وأحد المتقدّمين وكانوا ينظرون إلى الكتيبة في تشكلها.

وسألت قائلاً:

— «ألم تروا الرقيب «سان لو»؟

فقال المتقدّم: «لقد نزل ياسيدي»

وقال حامل البكالوريا: «لم أراه».

وقال المتقدم دون أن يعيرني من بعد انتباها: «لم تره. لم تر «سان لو» الشهير، ما أنقه ببرّته الجديدة! وحينما تقع عين النقيب على ذلك، إنّه قماش ضباط!»

— «آه! إنك حلو النكته، قماش ضباط»، يقول حامل البكالوريا الشاب الذي لم يكن يشارك في تدريبات السير، وهو مريض يلازم غرفته، وكان يحاول، ولا تخلو المحاولة من بعض القلق، أن ييدي جرأة مع المتقدمين، «قماش الضباط هذا قماش عادي».

وسأل المتقدم الذي تحدّث عن البرّة غاضباً: «ياسيد؟»

لقد أثار سخطه أن شكّ حامل البكالوريا أن تكون البرّة من قماش الضباط، ولكنه، وهو البريتاني المولود في قرية تدعى «بانغرين ستيريدن» والذي تعلّم الفرنسية بصعوبة من كان انكليزياً أو ألمانياً، حينما كان يحس أنه تحت وطأة انفعال ما، كان يقول مرتين أو ثلاثاً «ياسيد» كي يدع لنفسه وقتاً يلقي به كلماته، ثم يستسلم بعد هذه التهيئة ليلاغته مكتفياً بترداد بضع كلمات يعرفها أكثر من سواها. ولكن دون عجلة واتخاذ الاحتياطات إزاء قلة اعتياده في اللفظ.

عاد يقول بغضب كانت تتنامي به شيئاً فشيئاً شدة إلقائه وبطئته معاً: «آه! إنه قماش عادي؟ آه! إنه قماش عادي! حينما أقول لك إنه قماش ضباط، حينما أقول — ل — ذ — لك، بما أي أقول — ل — ذ — لك فمعناه أنني عالم به، فيما أرى. ولسنا ممن يقال لهم كلام معسول بجوز الهند».

وقال حامل البكالوريا وقد غلبته هذه الحجة: «آه! إن كان الأمر كذلك».

— «ويحك، هذا هو النقيب يمرّ. لا، انظر قليلاً إلى «سان لو»، وهذه الطريقة في قذف ساقه، هاك وأسه. أترأه ضابط صف؟ والنظارة، إنها تنطلق في كل مكان تقريباً»

وطلبت إلى هؤلاء الجنود الذين لم يكن حضوري لبشير اضطرابهم أن اتطلع بدوري من النافذة. فلم يمنعونني عن ذلك ولم يكلفوا أنفسهم عناء. ورأيت النقيب «بورودنيو» يمرّ بجلال وهو يحمل جواده على الخب وببدو وكأنه يتوهم أنه يمعركة «أوستيرليتز». وكان بعض المارّة مجتمعين أمام حاجز الثكنة المشبك ليشاهدوا الكتيبة خارجة. كان لا بدّ أن يكون الأمير، وهو منتصب القامة على ظهر جواده والوجه على شيء من السمّة والوجنتان ممتلئتان على نحو امبراطوري والعين ثاقبة، كان لا بدّ أن يكون ضحية هلوسة ما كما كانت حالي في كلّ مرّة كان يبدو لي، بعد مرور الحافلة الكهربائية، أن السكون الذي يلي جلجلته يسري فيه ويخدّه خفقان موسيقي مبهم. لقد غمني أن لم أودّع «سان لو» ولكنني رحلت مع ذلك لأن همي الوحيد كان العودة بالقرب من جدتي: فحينما كنت أفكر حتى ذلك النهار وفي تلك المدينة الصغيرة بما كانت تفعله جدتي وحدها، كنت أتمثلها مثلما كانت معي تماماً ولكنني أحذف نفسي من الصورة دون أن أضع في الحسبان آثار هذا الحذف عليها. وكان عليّ الآن أن أتخلص بأسرع ما يمكن، وأنا بين ذراعيها، من الشيخ الذي لم أرتب بوجوده حتى ذلك والذي يوحى به صوته على نحو مفاجئ، شبح جدّة افترقت عني افتراقاً

حقيقياً وسلمت بالأمر، وبدت معمرة، الأمر الذي لم أكن بعد عرفته، وقد تسلمت رسالة مني في الشقة الخالية التي سبق أن تخيلت أمني فيها حينما رحلت إلى «بالبيك».

كان ذلك الشيخ، وأسفي، هو الذي أبصرته حينما دخلت إلى الصالة دون أن تكون جدتي قد أخطرت بعودتي فوجدتها تقرأ. كنت هناك، أو لم أكن بعد هناك بالأحرى بما أنها ما كانت تعلم بالأمر، وكما هي حال امرأة نفاجتها وهي آخذة في انجاز شغل سوف تخفيه إن نحن دخلنا، كانت مستسلمة لأفكار لم يسبق أن كشفت عنها البتة أمامي. ولم يكن مني هناك - بفضل هذا الامتياز الذي لايدوم والذي تتوافر لنا فيه، في أثناء اللحظة القصيرة التي تتم فيها العودة، القدرة على أن نشهد فجأة غيابنا الخاص - سوى الشاهد، سوى المراقب ببقعته ومعطف السفر. الغريب الذي من غير أهل البيت، المصور الذي جاء يلتقط صورة للأماكن التي لن نراها من بعد، فما تمّ آلياً في تلك اللحظة في عيني حينما أبصرت جدتي إنّما كان صورة فوتوغرافية. نحن لا نرى أحبائنا البتة إلا داخل المنظومة الحية والحركة الدائمة التي تطبع حناننا المستمر الذي يحمل في زوابعه الصور التي يزودنا بها معيّاهم قبل أن يسمح لها بالدخول إلينا ويردّها إلى الفكرة التي نكتنّها عنهم على الدوام ويحملها على الالتصاق بها ومطابقتها. فكيف لأغفل، بما أن جبين جدتي ووجنتيها إنّما كنت أحملها ما كان الأكثر رقة والأوفر استمراراً في روحها، كيف لا أغفل بما أن كل نظرة معتادة استنباء أموات، وكل وجه نجه مرآة الماضي. كيف لا أغفل فيها كلّ ما أمكن أن يتناقل لديها ويتغير، في حين تهمل عيننا، إن يثقلها الفكر، حتى في أقلّ مشاهد الحياة إثارة لاهتمامنا، تهمل، مثلما قد تفعل مأساة كلاسيكية، جميع الصور التي لاتسهم في سير الحوادث ولا تحتفظ إلا بالتي تساعد على جعل هدفها في متناول الإدراك؟ فإن تكن نظرة عدسة محض مادية وصفيحة فوتوغرافية بدلاً من عيننا فإنّ ماسوف نرى آنذاك في باحة المعهد مثلاً بدلاً من خروج أحد أعضاء الجمع اللغوي يريد استدعاء عربة إنّما هو ترنّة وصنوف احترازه كي لايهوي إلى الخلف ومسار سقوطه كما لو كان ثملاً أو كانت الأرض مغطاة بالجليد. والأمر واحد حينما نحول خدعة قاسية للصدفة دون أن تبادر مودتنا الذكية البارة في الوقت المناسب لتخفي عن أبصارنا ما ينبغي ألا تتأمل فيه البتة حينما تسبقها عيوننا التي تعمل، بعدما تصل المكان على رأس القادسين وتتصرف على هواها، تعمل آلياً علي نحو ما تعمل الأفلام وترينا، بدلاً من المحبوب الذي لم يعد موجوداً منذ فترة طويلة ولكنها لم تشأ في يوم أن يكشف لنا عن موته، الكائن الجديد الذي كانت تضفي عليه مئة مرة في اليوم شيئاً عزيزاً كاذباً. ومثلما المريض الذي لم ينظر إلى نفسه منذ فترة طويلة ويؤلف في كل لحظة الوجه الذي لا يراه وفقاً للصورة المثالية التي يحملها عن ذاته في فكره، مثلما يتراجع إذ يبصر في مرآة وسط وجه جاف مقعر الارتفاع المائل الوردي لأنف عملاق كأحد أهرام مصر - كذلك أبصرت أنا الذي كانت جدته بالنسبة إليه لاتزال وكأنها ذاته، أنا الذي لم يرها قط إلا في نفسه وعلى الدوام في الموضع عينه من الماضي عبر شفافية الذكريات المتلاصقة المترابكة، أبصرت في صالتي التي أصبحت جزءاً من عالم جديد، عالم الزمن الذي يعيش فيه الغريب الذي نقول عنهم «إنه بادي الشيوخشة»، أبصرت، للمرة الأولى وعلى مدى لحظة فحسب، إذ سرعان ما اختفت، على أريكة تحت مصباح الضوء امرأة عجوزاً متهاككة ما كنت أعرفها، محمرة متفاولة عامية المظهر مريضة حاملة تنقل فوق كتاب عينيّن يطلّ منهما بعض الجنون.

كان «سان لو» قد قال لي لدى طلبي الذهب لرؤية لوحات «ابليستير» التي تملكها السيدة «دو

غير مانت: «إني أقوم مقامها». وكان للأسف وحده بالنسبة إليها الذي استجاب. فإننا نوب يسر عن الآخرين حينما نرتب في خاطرن الصورة الصغيرة التي تمثلهم فنحركها على ما نشتهي. وليس من شك أننا نأخذ في حسابنا حتى في تلك اللحظة الصعوبات الناجمة عن طبيعة كل واحد، وهي مختلفة عن طبيعتنا، ولا يفوتنا أن نلجأ إلي هذه الوسيلة أو تلك في التأثير القوي عليها، من اهتمام أو اقناع أو انفعال يطل مفعول الميول المعاكسة. ولكن تلك الاختلافات عن طبيعتنا إنما تتخيلها طبيعتنا نفسها، وتلك الصعوبات إنما نرفعها نحن، وتلك الدوافع الفعالة إنما نعايرها نحن، وتلك الحركات التي حملنا الشخص الآخر في فكرنا على ترددها والتي تجعله يتصرف على هوانا إن نحن ابتغيينا حمله على تنفيذها في الحياة تبدل كل شيء واصطدمنا بصنوف من المقاومة غير متوقعة ويمكن ألا تغلب عليها. وإن من أكثرها قوة دونما شك تلك التي يمكن أن ينميها لدى امرأة لا تحب القرف التنن الذي لا يقاوم والذي يوحى به إليها الرجل الذي يحبها؛ فلم تطلب إلي عمته، في أثناء الأسابيع الطويلة التي ظل فيها «سان لو» لا يجيء إلى باريس، لم تطلب إلي مرة المجيء إلى منزلها لمشاهدة لوحات «ايلستير»، وما شككت أنه كتب يتوسل إليها أن تفعل.

ولاقبت بعض مظاهر الجفاء على يد شخص آخر في الدار. كان ذلك على يد «جويان». فهل كان يرى أنه يجدر بي الدخول لتحيتته لدى عودتي من «دونسير» حتى قبلما أصعد إلى منزلي؟ لقد أجاب والدتي بالنفي وأنه ينبغي ألا ندهش للأمر. فقد سبق أن قالت لها «فرانسواز» إنه هكذا، تنابه نوبات غضب مفاجئة ودونما سبب. ويزول ذلك على الدوام بعد وقت قليل.

كان الشتاء في تلك الأثناء يقترب من نهايته. وذات صباح سمعت في موقدي، بعد بضعة أسابيع من وابل المطر والعواصف، سمعت - بدلاً من الريح الفارقة الشكل المطاطة القائمة التي تبعث في الرغبة في الذهاب إلى شاطئ البحر - هديل الحمام الذي كان يعيش في الجدار؛ متقزحاً غير متوقع كحدقية أولى تمزق بلطف قلبها المغذي كي تنشق منه زهرتها الرنانة، خبازية صقيلة، تدفع، شأن نافذة مفتوحة، إلى غرفتي، ولا تزال مغلقة سوداء، الدفء والذهول والتعب في أول يوم صباح. ولقيتني فجأة في ذلك الصباح أدمم لحن مقاه نسيته منذ السنة التي اضطرت فيها إلى الذهاب إلى «فلورنسه» والبنديقية، إذ الجو حسب الأيام يؤثر تأثيراً عميقاً في جسمنا ويستخرج الألحان المسجلة التي لم تكشفها ذاكرتنا من المستودعات المظلمة التي نسيناها فيها. وبعد قليل صاحب حالم أشد وعياً ذاك الموسيقي الذي كنت أصغي إليه في داخلي حتى دون أن أكون قد تعرفت في الحال ما كان يعزفه.

كنت أحس تماماً بأن الأسباب لم تكن خاصة بـ «البليك» تلك التي لم أعد من جرائها ألقى لكنيستها بعدما وصلت إليها السحر الذي يطبعها في نظري قبلما أعرفها؛ وأن خيالي لن يفلح في الحلول محل عيني في «فلورنسه» أو «بارما» أو البنديقية لينظر إليها. كنت أحس بهذا وقد اكتشفت كذلك ذات مساء في الأول من كانون الثاني لدى حلول الليل، اكتشفت أمام عامود للإعلانات الروم الكامن في الاعتقاد بأن بعض أيام الأعياد تختلف اختلافاً جوهرياً عن الأيام الأخرى. بيد أنه لم يكن بمقدوري الحؤول دون أن يستمر ذكر الزمن الذي خيل إلي في أثناءه آتي أقضي أسبوع الآلام^(١) في «فلورنسه» في أن يجعل منها ما يشبه

(١) الأسبوع الذي يسبق عيد الفصح لدى المسيحيين

أجواء مدينة الزهور وأن يضيفي على يوم الفصح شيئاً من الطابع الفلورنسي وعلى «فلورنسه» شيئاً من أجواء الفصح في الآن نفسه. كان أسبوع الفصح لا يزال بعيداً، ولكن أسبوع الآلام كان يبرز في سلسلة الأيام التي تمتد أمامي أكثر جلأً في آخر الأيام الفاصلة. كان يعلق بها شعاع، شأن بعض منازل قرية تشاهدها في البعيد في جو من الظلام والضياء، فتحجز فوقها الشمس كلها.

كان الطقس قد أضحى أكثر دفئاً وكان أهلي أنفسهم يوفرون لي إذ يشيرون عليّ بالخروج إلى النزهة الحجة لمتابعة نزهاتي الصباحية. وقد سبق أن ابتغيت الكف عنها لأنني كنت ألتقي فيها بالسيدة «دو غيرمانت». والآن لهذا السبب عينه كنت أفكر الوقت كله بتلك النزهات، الأمر الذي كان يوجد لي في كل لحظة سبباً للقيام بها لاصلة له إطلاقاً بالسيدة «دو غيرمانت» سبباً يقنعني بأنه ما كان ليفوتني الخروج في نزهة في تلك الساعة نفسها حتى ولو لم تكن موجودة.

ولئن كان سواء عندي لقاء أي شخص غيرها فقد كنت أحس وأسفي أن لقاء أي شخص باستثنائي أنا متحمل بالنسبة إليها. كان يتفق لها في نزهاتها الصباحية أن تتقبل تحية الكثير من البلهاء، وهي تحكم أنهم كذلك. ولكنها كانت تعدّ ظهورهم من قبيل المصادفة على الأقل إن لم يكن وعداً بالمتعة. كانت تستوقفهم أحياناً، فثمة فترات يحتاج فيها المرء أن يخرج من ذاته وأن يقبل ضيافة نفس الآخرين شرط أن تكون تلك النفس، مهما بلغت من الانضاع والقبح، نفساً غريبة، فيما تحس بحق أن ما قد تلاقية في فؤادي إنما هو شخصها. فكنت أرخف شأن المذنب ساعة مرورها حتى حينما يدعوني إلى اتخاذ الدرب نفسه غير سبب لقاءها ؛ وكنت أحياناً، بغية إبطال ما قد تنسم به مبادراتي من مغالاة، أكاد لا أستجيب لتحيتها، أو أهدق إليها دون أن أحيتها ودون أن أفلح إلا في زيادة غضبها وفي حملها فضلاً عن ذلك، على الشروع في اعتباري وقحاً وسعى التهذيب.

كأن ترتدي الآن فساتين أكثر رقة أو أرهق لونا على الأقل وتندحر في الشارع حيث كانت ستائر قد أرخيت اتقاءً للشمس، وكأنما الوقت ربيع، أمام الدكاكين الضيقة المحشورة بين الواجهات الفسيحة التي للفنادق الارستقراطية القديمة وعلى إفريز بائعة الزبدة والفواكه والخضار. كنت أقول في نفسي إن المرأة التي كنت أشاهدها من البعيد تسير وتفتح شمسيتها وتجتاز الشارع هي حسبما يرى العارفون بالأمر اعظم فنانة حاضرة في فن القيام بتلك الحركات وأن تجعل منها أمراً رائعاً. كانت تتقدم إذ ذاك: وكان جسمها الجاهل بتلك الشهرة المتناثرة، كان جسمها الضيق المتمرد الذي لم يتشرب شيئاً منها ينحني على نحو مائل تحت شال من الحرير الهندي البنفسجي اللون. وكانت عيناها المختمتان الصافيتان تنظران ساهيتين أمامها وربما محتانين. كانت تعض طرف شفرتها، وأراها ترفع فروة يديها وتتصدق على فقير وتشتري باقة بنفسج من إحدى البائعات بالفضول نفسه الذي ربما عصف بي في النظر إلى رسام كبير يرسم خطوطاً بريشته. وحينما كانت تصل بمحاذاتي فتخصني بتحية تنضاف إليها ابتسامة طفيفة فكأنما تنفذ من أجلي مائة هي رائعة فنية وتضيف إليها إهداء. كان يبدو لي كل فستان من فساتينها بمثابة جو طبيعي ولازم ومثابة إسقاط لمظهر خاص من نفسها. وفي إحدى صبيحات الصياف، وكانت ذاهبة للغداء في المدينة، صادفتها ترتدي فساتناً من الخمل الأحمر الفاتح وكان هين التقوية حول العنق. كان وجه السيدة «دو غيرمانت» يبدو حالماً تحت شعرها الأشقر؛

وكنّت أقلّ اغتماماً من المعتاد لأنّ كآبة ملامحها وما يشبه العزلة التي يقيمها اللون الصارخ بينها وبين باقي البشر كانا يضيفان عليها شيئاً من التعاسة والعزلة يبعث في الطمأنينة. لكنّنا يجسّد ذلك القسطنطين من حولها أشعة قرمزية تنبعث من قلب ما كنت أعهد له لديها وربما استطعت مؤاساته. كانت تذكرني، وقد هربت داخل النور الخفيّ المنبعث من القماش ذي الثنيات اللطيفة، بقديسة من العصور المسيحية الأولى. ويعتريني الخجل إذ ذاك من أن تبعث رؤيتي الأسى في قلب تلك الشهيدة. «ولكن الشارع على كلّ حال ملك لجميع الناس».

وأعيد الكرة فأقول: «الشارع ملك لجميع الناس، وأنا أضفي على هذه الكلمات معنى مختلفاً وأستعجب أن تمزج السيدة «دو غير مانت» بالفعل في الشارع المزدهم الذي غالباً ما يبلله المطر فيضحى رائعاً كما هي حال الشارع أحياناً في مدن إيطاليا القديمة. أن تمزج بالحياة العامة فترات من حياتها الخفية فنبذو على هذا النحو في عين كلّ واحد محفوفة بالأسرار، يمرّ الجميع بجانبها، وبها المجانيّة الرائعة التي لكبريات الروائع الفنية. ولما كنت أخرج في الصباح بعدما أظّل مستيقظاً الليل كلّهُ فقد كان يقول لي والدائي بأنّ أستلقي قليلاً وأبحث عن النوم. ولا حاجة للكثير من التفكير لامكان العثور عليه ولكنّ العادة مفيدة جدّاً في ذلك وحتى غياب التفكير. بيد أنني كنت أفقر إلى كليهما في تلك الساعات. كنت قبلما أنام أفكر تفكيراً طويلاً إلى الحدّ الذي لا أستطيع معه التفكير ويظّل لي معه قليل من الفكر حتى أثناء نومي. كان ذلك محض بصيص وسط ما يقارب الظلام التامّ ولكنه كان كافياً كي تنعكس به في نومي أول الأمر الفكرة التي مفادها أنني لن أقوى على النوم، ثمّ أتّي، وهو انعكاس لذلك الانعكاس. إنمّا وافقتني أثناء النوم فكرة أنني لم أكن نائماً، ثم استيقاظي، من جراء انعكاس جديد...، في نوم جديد كنت أبغي فيه أن أروى لأصدقاء دخلوا غرقتي أنني ظننت منذ لحظة في أثناء نومي أنني لم أكن نائماً. كانت تلك الأشباح صعبة التمييز، ولعله كان ينبغي لإدراكها رهافة في الإحساس كبيرة وعقيمة إلى حدّ بعيد. فقد رأيت على هذا النحو فيما بعد في البندقية، وبعد مغيب الشمس بفترة طويلة، حينما يخيّل إليك أن الليل قد حلّ تماماً، رأيت، بفضل الصدى، مع أنّه غير مرئي، المنبعث من رتّة نور أخيرة تتردّد إلى مالا نهاية فوق الأقفية وكأنّما بفعل دواصة ضوئية ظلال القصور تنتشر وكأنّماً إلى الأبد مخملاً أشدّ سواداً على رمدة المياه الغسقية. كان أحد أحلامي اثتلاف ما سعت مخيلتي كثيراً إلى تمثله في البقطة بين منظر بحريّ معيّن وماضيه في العصر الوسيط. كنت أبصر في نومي مدينة قوطية وسط بحر جمعت مياهه كأنّما على زجاج ملوّن، والمدينة يشطرها شطرين خليج ضيق، والماء الأخضر يمتدّ تحت قدمي، ويحيط بكنيسة شرقية على الضفة المقابلة، ثم بمنازل كانت لاتزال قائمة في القرن الرابع عشر حتى ليعني الذهاب إليها الصعود في مجرى العصور، كان يبدو لي أنّ هذا الحلم قد وافاني كثيراً، ذلك الذي تعلّمت الطبيعة فيه الفنّ والذي أضحي البحر فيه قوطياً، ذاك الحلم الذي كنت أتوق فيه إلى بلوغ شاطئ المستحيل ويخيّل إليّ ذلك. وبما أنّ من شأن ما يتخيله المرء في أثناء النوم أن يتضاعف في الماضي وأن يبدو مألوفاً مع أنّه جديد، فقد ظننت أنني أخطأت. وتبين على العكس أنني غالباً ما كنت أحلم ذاك الحلم.

كانت الانتقاصات نفسها التي تطبع النوم تنعكس في نومي ولكن على نحو رمزيّ: فما كنت أقوى في الظلام على تمييز وجوه أصدقائي الحاضرين لأنّ المرء ينام مغمض العينين؛ وكنّت أحس، أنا الذي كان يردّد لنفسه في الحلم إلى مالا نهاية حججاً كلامية، أنّ الصوت يتوقف في حنجرتي ما أن أبغي التحدّث إلى هؤلاء

الأصدقاء لأن المرء لا يتحدث بوضوح في نومه؛ وكنت أودّ الذهاب إليهم ولا أقوى على نقل ساقني إذ المرء لا يمشي فيه كذلك، وفجأة يعتريني الخجل من الظهور أمامهم لأنّ المرء ينام بدون ثيابه. هكذا كانت تبدو هيئة النوم التي يسقطها نومي نفسه فاقدة العينين، ملصقة الشفتين، مربوطة الساقين، عارية الجسم. تبدو وكأنّها من تلك الوجوه الرمزية الكبيرة التي مثل فيها «جونو» الحسد وفي فمه حيّة، وكان «سوان» قد أعطاني إياها.

جاء «سان لو» إلي باريس لبضع ساعات فقط. وقال لي، وهو يؤكد أنّ الفرصة لم تمنح له ليحدّث ابنة عمّه، ويفضح نفسه بسداجة: «أوريان غير لطيفة على الإطلاق. لم تعد «أوريان» الأمس، لقد تبدّلت. أوكد لك أنّها ليست جديرة باهتمامك. إنك تمحضها الكثير من التكرمة. ألسنت تريد أن أقدمك لابنة عمي «بواكتيه»؟ يضيف قوله دون أن يتبين أنّ الأمر لا يمكن أن يوليني آية مسرة. «ف تلك امرأة شابة ذكية وقد تحسن في عينيك لقد تزوّجت ابن عمي دوق «بواكتيه» وهو رجل طيب ولكنه على شيء من البساطة بالنسبة إليها. لقد حدّثتها عنك وسألتني أن أصطحبك. إنها أجمل من «أوريان» وأصغر سنّاً. إنها لطيفة، لو تدري وتحسن في العين». كانت تلك عبارات تنبأها «روبير» حديثاً - مما يزيد في اندفاعه - وتعني أنّ الشخص يملك طبيعة مرهفة. «لا أقول لك إنّها من مناصري «دريفوس»، فلا بد كذلك من أخذ يثبتها في الحسبان، ولكنّها تقول: «إن كان بريئاً، فما أبشع أن يكون في جزيرة الشيطان!» هل تدرك ذلك؟ ثم إنّها أخيراً تفعل الكثير من أجل معلّمتها السابقات، فقد حظرت أن يشار إليهنّ بالصعود من درج الخدم. أوكد لك إنّها شيء يروق جداً. و«أوريان» لا تحبها في الأساس لأنّها تحسها أشدّ ذكاءً».

لقد حرّز في نفس «فرانسواز»، مع أنّها كانت تشغلها الشفقة التي يثيرها لديها أحد خدم آل «غيرمانت» - ربما كان يستطيع المبادرة إلى لقاء خطيبته حتى بعدما تخرج الدوقة إذ يتمّ نقل الأمر في الحال على لسان المحفل - حرّز في نفسها أن لم تكن حاضرة حين قام «سان لو» بزيارته، وذلك لأنّها كانت تخرج الآن بدورها. كانت تخرج حتماً في الأيام التي أكون فيها بحاجة إليها. كان ذلك على الدوام كيما تذهب لرؤية أخيها وابنة أخيها ولاسيما ابنتها التي وصلت منذ قليل إلى باريس. كانت الطبيعة العائلية لتلك الزيارات التي تقوم بها «فرانسواز» تزيد من تبرّمي لحرمانني من خدماتها إذ كنت أتوقع أنّها سوف تحدّثني عن كلّ واحدة وكأنّها عن واحد من تلك الأشياء التي لا يمكن أن تكون في غنى عنها بحسب القوانين التي تمّ تعليمها في «سانت أندريه دي شان». لذلك لم أكن قطّ استمع إلى اعتذارها دون تكرّر شديد الاجحاف يدفعه إلى أقصى درجاته الطريقة التي تقولها بها «فرانسواز» فلا تقول: «ذهبت لرؤية أخي، ذهبت لرؤية ابنة أخي»، بل تقول: «ذهبت لرؤية الأخ، دخلت «راكضة» اقريء ابنة الأخ السلام (أو ابنة أخي اللحامة)». أمّا بشأن ابنتها، فقد ودّت «فرانسواز» لو تراها تعود إلى «كومبريه». ولكنّها هي كانت تقول، وتستخدم، شأن الأنيقات، كلمات مختصرة بيد أنّها عامية، إن الأسبوع الذي يقع عليها فيه الذهاب لقضائه في «كومبريه» سوف يبدو لها طويلاً جداً دون أن يتوافر لها حتى جريدة «المتشدّد». وكانت تبدي رغبة أقلّ في الذهاب لدى شقيقة «فرانسواز» التي تقطن في محافظة جبلية «لأنّ الجبال أمر غير مفيد تقريباً»، تقول ابنة «فرانسواز» وهي تتحمّل لفظة «مفيد» معنى قبيحاً وجديداً. ما كانت تستطيع أن تحمل نفسها على العودة إلى «ميزيكليز» حيث الناس بلهاء إلى حدّ بعيد، وحيث قد تكتشف «الخلاات» في السوق صلة قرابة بها ويقطن: «ويحك، أليست هذه ابنة المرحوم بازيرو؟» لعلّها تفضل الموت على العودة للسكنى هناك «لأنّ قد ذاق طعم الحياة في باريس»،

و«فرانسواز» المتمسكة بالتقاليد كانت تبتسم بلطف مع ذلك إزاء روح التجديد الذي تجسده «الباريسية» الجديدة حينما تقول: «حسن يا أمي، إن لم تحصلني على يوم عطلتك فما عليك إلا أن تبعثني إليّ ببرقية».

كان الطقس قد عاد فأصبح بارداً. وكانت «فرانسواز» تقول، وهي تفضل المكوث في المنزل في أثناء الأسبوع الذي ذهبت فيه ابنتها والشقيق واللحامة لقضائه في «كومبريه»: «أخرج؟ لماذا؟ ليدركني الموت». وكانت «فرانسواز» تضيف قولها في حديثها عن هذا الطقس الذي في غير أوانه، وهي على أي حال آخر نصيرة ظلت تعيش في صدرها على نحو غامض عقيدة عمّتي «ليونني» فيما يخصّ الفيزياء: «إنه بقية غضب الله!» وما كنت أجيب على شكواها إلا بابتسامة يملؤها الوهن ويزيد من لامبالاتي بتلك التنبؤات أن الطقس سوف يكون صافياً بالنسبة إليّ في جميع الأحوال. فقد كنت أبصر مذ ذاك شمس الصباح تشرق فوق تلة «فيزيول» واندفاً بأشعتها، وكانت قوتها تصطرني إلى فتح جفني وغماضيهما نصف اغماضة فيما ابتسم فيمتلئان بضياء ورديّ شأن مصباحين من المرمر. ما كانت الأجراس وحدها تعود من إيطاليا فقد جاءت لإيطاليا معها. وسوف لن تخلو يدي المخلصتان من الزهور لأكرم ذكرى الرحلة التي وقع عليّ أن أقوم بها في الماضي، فمئذ أن عاد الطقس فأصبح بارداً في باريس، على نحو ما كانت الحال في عام آخر حين كنتا نعدّ للسفر في آخر الصيف، أخذت أشجار الدلب في الشوارع والشجرة التي في باحة منزلنا تفتح أوراقها في الهواء اللزج القارس الذي يغمر أشجار الكستناء، كما في كوب من الماء الصافي أزاهير النرجس والجنكيل والشقائق على «الجسر القديم».

كان والدي قد روى لنا أنه يعلم الآن على لسان أ. ج. أين كان يذهب السيد «دو نوربوا» حينما كان يصادفه في المنزل.

- «إلى منزل السيدة «دو فيلباريزس»، لأنه يعرفها تماماً وما كنت أعلم شيئاً من ذلك. ويبدو أنّها شخصية جذابة وامرأة متفوّقة». وقال لي: «يجدر بك أن تبادر إلى لقائها. لقد دهشت أشدّ الدهشة على أيّ حال. لقد حدثني عن السيد «دو غيرمانت» وكأنما عن رجل أتيق تماماً وكنت قد حسبته دوماً انساناً متوحشاً. ويبدو أنّه يعرف أموراً لا تخصني ويتمتع بدوق رفيع، إلا أنه فخور جداً باسمه وبأنسابه. ولكن وضعه المالي من جهة ثانية، على حدّ قول «نوربوا»، متين جداً، لاهنا فحسب، بل إنه كان في أوروبا. لقد قال لي العمّ «نوربوا» إن السيدة «دو فيلباريزس» تحبك كثيراً وإنك سوف تتعرّف في متنها إلى شخصيات ذات بال. وقد أثني عليك ثناء كبيراً في حضرتي وسوف تلتقي به في منزلها ويمكن أن يسدي إليك أحسن النصيح حتى إن ابني أن تعاطي الكتابة، فإني أرى أنّك لن تفعل غير ذلك. يمكن عدّها مهنة جميلة، أمّا أنا فليس ذلك ما كنت أشتهي لك، ولكنك ستضحي رجلاً عمّا قريب ولن نكون على الدوام إلى جانبك وينبغي ألا نحول بينك وبين اتباع ميولك».

ليتنني استطعت على الأقل أن أباشر الكتابة! ولكن، آية كانت الشروط التي أتناول فيها ذلك المشروع (كما هو للأسف أمر ألا أتناول الكحول من بعد وأن أوي إلى فراشي في ساعة مبكرة وأن أنام وأن أتمتع بصحة جيّدة)، أكان ذلك باندفاع، بمنهجية، بلذة، بالامتناع عن نزهة، بإرجائها وأدخارها بمثابة مكافأة، بالإفادة من ساعة أتمتع فيها العافية، باستخدام البطالة القسرية في يوم من أيام المرض، فإنّ ما كان ينتج أبداً في

نهاية المطاف عن جهودي إنما كان صفحة بيضاء لاتدّسها أية كتابة، محتمة كذلك الورقة التي لا مفرّ من سحبها في النهاية في بعض أدوار اللعب أية كانت الطريقة التي تمّ بها سلفاً «خلط» الورق. فلم أكن سوى أداة لعادات في الامتناع عن الشغل والاستلقاء في سريري والنوم، عادات كان لابدّ أن تتحقّق أيّا كان الثمن. فإن لم أقاومها، وإن رضيت بالعذر الذي كانت تتخذه من أوّل ظرف طارئ يوفّره لها ذلك اليوم كيما أدّعيها تعمل على هواها كنت أنجو بنفسى دونما ضرر كبير وأستريح بضع ساعات مع ذلك في آخر الليل وأقرأ قليلاً ولا أسرف إلى حدّ بعيد. أمّا إذا شئت مقاومتها، وإن عزمت أن أوي إلى فراشي في ساعة مبكرة وألا أشرب سوى الماء وأن أعمل فقد كانت تغتاض وتلجأ إلى أعظم الوسائل وتحمل إليّ المرض الأكيد فأراني مضطراً إلى مضاعفة كمية الكحول ولا أوي إلى الفراش طوال يومين ولا أقوى حتى على القراءة من بعد وأعدّ النفس في مرة أخرى أن أكون أكثر تعقلاً، وأعني أقلّ حكمة كضحية تقبل بأن تسرق مخافة أن تذيب إن هي قاومت.

سبق لوالدي أن التقى مرّة أو مرتين بالسيد «دو غيرمانت» في هذه الأثناء، أمّا الآن وقد نقل إليه السيد «دو نوربوا» أنّ الدوق رجل مرموق فقد أخذ يعير أقواله انتباهاً أكبر. واتفق أن تحدّثنا في الباحة عن السيدة «دوفيلباريزيس». «قال لي إنها عمّته، ويلفظها «فيباريزي». لقد قال لي إنّها خارقة الذكاء، وبلغ به أن أضاف أنّها تدبر «مكتباً فكرياً»، يضيف والدي، وقد أثر فيه غموض هذه العبارة التي قرأها بالحقيقة مرّة أو مرتين في مذكرات إلا أنّه لم يكن يعبرها معنى دقيقاً. وكانت والدتي تكتنّ له من الاحترام ما حكمت معه، وقد رأت أنّه لايجد غير ذي شأن أن تدبر السيدة «دوفيلباريزيس» مكتباً فكرياً. أن الأمر على شيء من الأهمية. ومع أنّها عرفت على الدوام على لسان جدّتي ما تساوي المركيزة بالضبط، فقد كوّنت عنها في الحال فكرة مشرّفة. أمّا جدّتي التي كانت متوعكة بعض الشيء فلم تقف بادئ الأمر إلى جانب الزيارة ثمّ لم تعبأ بها بعد ذلك. فمعد أن سكّنا في شقتنا الجديدة طلبت إليها السيدة «دوفيلباريزيس» عدّة مرّات أن تأتي لزيارتها. وقد أجابت جدّتي على الدوام أنّها لم تكن تخرج في هذه الآونة في واحدة من تلك الرسائل التي لم تعد، من جراء عادة جديدة لم تكن نفهمها، تلصقها بنفسها وتدع لـ «فرانسواز» مهمّة إغلاقتها. أمّا أنا فما كان ليدهشني كثيراً، وإن كنت لا أتصوّر تماماً هذا «المكتب الفكري»، أن أجد السيدة العجوز التي من «البليك» مستقرة أمام أحد «المكاتب»، الأمر الذي وقع على آية حال.

ودّ والدي، علاوة على ذلك، أن يعلم إن كان دعم السفير سوف يكسبه الكثير من الأصوات في المجمع الذي كان يعتمز التقدّم إليه بصفة عضو حرّ. ومع أنّه لم يكن يجرؤ على الشكّ بدعم السيد «دو نوربوا»، إلا أنّه، والحقّ يقال، لم يكن مع ذلك على يقين. وقد حسب أنّه يواجه بعض السنة السوء حينما قيل له في الوزارة إن السيد «دو نوربوا»، رغبة منه في أن يمثل وحده المجمع، سوف يقيم جميع العراقيل الممكنة في وجه ترشيح قد يزعمه من ناحية ثانية على نحو خاص في هذه الفترة التي كان يساند فيها ترشيحاً آخر. على أنّه تأثّر، حينما أشار عليه «لوروا بوليو» بالتقدّم وقام بتخمين فرص نجاحه، أن يرى أنّ الاقتصادي اللامع لم يذكر السيد «دو نوربوا» في عداد الزملاء الذين يمكنه الاعتماد عليهم في هذا الظروف. ولم يكن والذي يجرؤ على طرح السؤال مباشرة على السفير السابق ولكّنه كان يأمل أنني سأعود من منزل السيدة «دو فيلباريزيس» وقد تمّ انتخابه. كانت تلك الزيارة وشيكة الحدوث. وكانت دعاوة السيد «دو نوربوا» القادر فعلاً على ضمان ثلثي المجمع لوالدي، كانت تبدو له من ناحية أخرى محتملة يزيد من احتمالها أنّ لطف السفير كان مضرب

الأمثال، إذ يعترف الناس الذين يكونون له أقلّ الحبّ أن ليس من يحبّ اسداء الخدمات بقدر ما يفعل. وكان من جهة أخرى ييسر في الوزارة حمايته على والدي على نحو أكثر بروزاً منه على أيّ موظف آخر.

وقد تم للوالدي لقاء آخر ولكن هذا اللقاء أحدث لديه دهشة بالغة أعقبها سخط بالغ. لقد مرّ في الشارع قرب السيدة «سازرا» التي كان فقرها النسبي يقصر حياتها في باريس على إقامات قليلة لدى إحدى الصديقات. وما من أحد كان يزجج والدي بقدر ما تفعل السيدة «سازرا» إلى حدّ أن والدتي كانت تضطرّ مرة في العام أن تقول له بصوت ناعم ومتوسل: «اسمع يا صديقي، لابدّ لي أن أدعو السيدة «سازرا» ذات مرة، ولن تمكث حتى ساعة متأخرة، بل وتقول: «اسمع يا صديقي، سوف أطلب منك تضحية كبيرة، هيّا قم بزيارة قصيرة للسيدة «سازرا». أنت تعلم أنني لا أحبّ ازعاجك، ولكن كم سيكون الأمر لطيفاً فيما يخصّك فكان يضحك ويغضب قليلاً ويبادر إلى القيام بتلك الزيارة. على الرغم إذن من أن السيدة «سازرا» لم تكن تسليه فقد أقبل عليها، إذ التقى بها، وهو يكشف عن رأسه، ولكن السيدة «سازرا» اكتفت، لدهشته العميقة، بتحية جافة يضطرّك إليها التأدّب إزاء شخص متهم بفعلة شائنة أو حكم عليه أن يعيش مذ ذاك في نصف آخر من الكرة. وعاد والدي غاضباً مذهولاً. وفي الغد التقت والدتي بالسيدة «سازرا» في أحد المنتديات فلم تمدّ هذه الأخيرة يدها وابتسمت لها بهيئة غامضة حزينة وكأنما لامرأة لعبت معها في طفولتك ولكنك قطعت مذ ذاك جميع علاقاتك بها لأنها عاشت حياة خليعة وتزوجت محكوماً بالأشغال الشاقة أو رجلاً مطلقاً، وذلك أدهى. ولكن والدي كانا على مدى الأيام يحضنان السيدة «سازرا» أعمق التقدير ويوحيان به إليها. بيد أن السيدة «سازرا» (وهو أمر كانت تجله والدتي) كانت وحدها من بنات جنسها في «كومبريه» مناصرة لـ «دريفوس». أما والدي، وهو صديق السيد «ملين»، فقد كان مقتنعاً بذنب «دريفوس» وقد سبق أن طرد بغضب زملاء طلبوا إليه التوقيع على لائحة تطلب بإعادة الدعوى. ولم يعد إلى التكلّم معي طوال ثمانية أيام حينما علم أنني سلكت خط سير مختلفاً. كانت آراؤه معروفة وما كان يستبعد أن يؤخذ مأخذ الوطني. أما فيما يخصّ جدتي التي كان يبدو أن الشك المتسامح لابدّ أن يلهب عواطفها وحدها في الأسرة، فقد كانت تهزّ رأسها في كل مرة يحدثونها فيها عن براءة «دريفوس» المحتملة هزة لم تكن نفهم معناها آنذاك وتشبه مايقوم به شخص تأثي لإزعاجه في غمرة أفكار أكثر جدية. أما والدتي التي كان ينتازعها حبّها للوالدي وأملها في أن أكون ذكياً فقد كانت تلوذ بحيرة ترجمها بالصمت. وما كان جدّي أخيراً، وهو يعبد الجيش (مع أن التزاماته كحرس وطني كانت هاجسه في سنّ النضج) ما كان يصبر قطّ في «كومبريه» كتيبة تمرّ أمام السياج دون أن يكشف عن رأسه لدى مرور العقيد والعلم. كان كل ذلك كافياً كيما تبادر السيدة «سازرا» التي كانت تعرف تمام المعرفة حياة التجردّ والشرف التي قضاها والدي وجدّي إلى اعتبارهما بمثابة محرّضين على «الظلم». والمرء يصفح عن الجرائم الفردية لا عن المشاركة في جريمة جماعية. فما أن عرفت أنّه من مناهضي «دريفوس» حتى جعلت بينها وبينه قارات وقروراً. والأمر يوضح أن تكون تحيتها قد بدت للوالدي من مثل تلك المسافة في الزمان والمكان غير ملحوظة بالعين وأنّها لم تفكّر في مصافحة وأقوال لعلها لاتقوى على اجتياز العوالم التي تفصل بينهما.

لما كان «سان لو» يزعم المجيء إلى باريس فقد سبق أن وعدني باصطحابي إلى منزل السيدة «دو فيلياريز» حيث كنت آمل، دون أن أكون صرحت له بذلك، إمكان التقاء السيدة «دو غيرمانت». وطلب

إليّ أن أنغذّي في المطعم برفقة عشيقته التي سنصحبها فيما بعد إلى تجربة مسرحية. كان علينا أن نذهب في طلبها صباحاً في ضواحي باريس حيث كانت تقطن.

وكنت قد سألت «سان لو» أن يكون المطعم الذي سنتناول طعام الغداء فيه (المطعم في حياة النبلاء الشباب الذين ينفقون المال يقوم بدور في مثل أهمية صناديق القماش في الحكايات العربية) أن يكون بالأحرى المطعم الذي أعلمني «إيميه» أنه يزمع الدخول فيه بمثابة رئيس خدم بانتظار موسم «البليك». كانت بهجة كبيرة بالنسبة إليّ أنا الذي كان يحلم بالكثير من الرحلات ويقوم بالقليل القليل منها أن أعود فألقى شخصاً هو أكثر من جزء من ذكرياتي في «البليك»، إنه جزء من «البليك» نفسها، شخصاً يذهب إليها في كلّ عام ويظل ينظر، حينما يضطرني التعب أو دروسي إلى البقاء في باريس، أثناء أواخر عشيات تموز الطويلة وبانتظار أن يفد الزبائن للعشاء، إلى الشمس تنحدر وتغيب في البحر، عبر ألواح زجاج قاعة الطعام الكبرى، ومن خلفها، ساعة تنطفئ، تبدو الأجنحة الساكنة للمراكب البعيدة الضاربة إلى الزرقة وكأنها فراشات غريبة ليلية في واجهة زجاجية. وإذا تمنّعت رئيس الخدم هذا نفسه من جرّاء تماسه مع مغناطيس «البليك» القوي فقد أضحي بدوره مغناطيساً بالنسبة إليّ. فكنت أمل في حديثي معه أن أكون مذكّراً في تواصل مع «البليك» فأحقق دون أن أبرح مكاني بعضاً من روعة السفر.

غادرت البيت منذ الصباح وتركت «فرانسواز» تتأوّه فيه لأن الخادم الخطيب لم يستطع مرّة أخرى مساء البارحة أن يذهب لرؤية خطيبته. لقد وجدته «فرانسواز» باكياً؛ وقد أوشك أن يبادر فيصفع البواب ولكنه تمالك نفسه لأنه كان متمسكاً بمركزه.

وقبلما أصل إلى منزل «سان لو» الذي سينتظرنني على عتبة بابيه صادفت «لورغراندا» الذي غاب عن أبصارنا منذ «كومبريه» والذي احتفظ رغم تشييه بمظهره الفتى الساذج. فوقف وقال لي:

— «آه! هذا أنت، رجل أنيق وبالمسترة الرسميّة أيضاً! ذلك لباس قد لا يناسب طبعي الاستقلاليّ. صحيح أنك لا بدّ رجل مجتمع وأنت تقوم بزيارات! وليست ربطة عنقي وسترتي في غير محلّهما كيما أمضي وأحلم مثلاً أفعّل حيال قبر نصف مهتمّ. أنت تعلم أنّي أقدر جودة نوعية قلبك، وإنما أعني بذلك إلى أيّ حدّ يؤسفني أن تذهب فتتركها بين الوثنيين. وإنك لتصدر ضدّ مستقبلك حكم النبيّ، بل لعنته إذ تستطيع البقاء لحظة في جوّ الصالات النتن الذي لا يطاق في نظري. إنني أبصر الأمور من هنا، أنت تتردّد على ذوي الأفئدة الخفيفة ومجتمع القصور؛ ذلك هو عيب البورجوازية المعاصرة. بالاستقراطين! لقد كان ذنب «عصر الإرهاب» عظيماً إن لم يضرب رقابهم جميعاً. إنهم جميعهم فسق مشؤومون، هذا إن لم يكونوا محض بلهاء مقبّتين. فأما أن كان ذلك يسليك يا ولدي المسكين!، وبينما تذهب أنت إلى حفلة شاي الخامسة يكون صديقك القديم أسعد منك لأنه سوف يشاهد وحيداً في حيّ شعبي طلوع القمر الورد في السماء البنفسجية. والحقيقة أنّي لست البتة من هذه الأرض التي أحسنني منفياً فيها، ولا بدّ من كامل قوة قانون الجاذبية كي تمسك بي فيها ولا أفرّ إلى كرة أخرى. إنني من كوكب آخر، الوداع، ولا تأخذ على محمل سوء صراحة فلاح الـ«فيفون» العتيق الذي ظلّ إلى ذلك فلاح «الدانوب». وكما أبرهن أنّي أقدرك حقّ قدرك سوف أبعث إليك بروايتي الأخيرة. ولكنها لن تروقك فليست على قدر كاف من التمتع ومن روح

أواخر القرن بالنسبة إليك، إنها مفرطة الصراحة، مفرطة الاستقامة ؛ أما أنت فإنك بحاجة إلى طراز «بيرغوت» ، وقد أقررت بالأمر، إلى أشياء متخمرة تصلح لحلوق متبلدة لدى أرباب المتع المتأنقين. لابد أنهم يعدونني في جماعتك عسكرياً عتيقاً. ذنبي أنني أغلف ما أكتب بالعاطفة ولم يعد ذلك محتملاً ؛ ثم إن حياة الشعب ليست على قدر من الأناقة كافٍ لتثير اهتمام متحذلقائك. هيّا، حاول أن تتذكر بين الحين والحين قول المسيح: «أصنعوا هذا فتحيا». إلى اللقاء أيها الصديق.

لم أفارق السيد «لوراندان» وأنا شديد التكدر منه. فإن بعض الذكريات شبيه بالأصدقاء المشتركين ويعرف كيف يقوم بالمصالحات. فقد كان الجسر الخشبي الصغير المرمي وسط الحقول المغطاة بالأزوار الذهبية والتي تتكدس فيها خرائب اقطاعية، كان يجمعنا أنا و«لوراندان» كما يجمع ضفتي نهر الـ«فيغون».

بعدما غادرتُ بصحبة «سان لو» باريس حيث كادت أشجار الشوارع على الرغم من بدايات الربيع لانفطئها أوراقها الأولى، وحينما توقف بنا القطار المحيطي في قرية الضاحية التي تقطن فيها عشيقته أخذتنا الدهشة أن نرى كل حديقة صغيرة تزدان بالهياكل البيضاء الفسيحة التي تؤلفها أشجار الفاكهة المزهرة. لكننا ذلك واحد من تلك الاحتفالات الفريدة الشاعرية العابرة المحلية التي تجيء من البعيد لتشاهدها في فترات محدّدة، ولكن الاحتفال هذا تقيمه الطبيعة. فترى أزهار أشجار الكرز تلتصق بالأغصان التصاقاً وثيقاً على هيئة راب أبيض حتى ليمكنك الظن أنك تبصر من الأشجار التي تكاد تخلو من الأزهار والأوراق وفي هذا النهار الشمس الذي لايزال قارس البرد، ثلجاً ذاب هناك وظلّ هنا خلف الشجيرات. ولكن أشجار الإجاص الكبيرة تغمر كل بيت وكل باحة متواضعة ببياض أكثر اتساعاً وأكثر توحداً لوناً وأشدّ التماساً كأن المساكن جميعها وأسيجة القرية جميعها تقيم في التاريخ نفسه حفلة مناوئتها الأولى.

ولا تزال قرى ضواحي باريس هذه تحتفظ على أبوابها برياض من القرنين السابع عشر والثامن عشر هام بها وكلاء البيوتات والمخيمات. وقد استخدم جنائني واحداً منها كأثناً إلى سفح الطريق من أجل زراعة الأشجار المثمرة (أو ربّما احتفظ فقط بتصميم بستان فيسح يعود إلى ذلك العهد). كانت أشجار الإجاص هذه التي زرعت على شكل مخمسات أكثر تباعداً فيما بينها وأقل اقتراباً من تلك التي رأيته، كانت تشكل رباعيات أضلاع من الزهر الأبيض، تفصل بينها جدران خفيفة، وعلى ضلع كل منها يقبل الضوء فيرتسم ألواناً مختلفة حتى لتبدو كل تلك الحجرات غير المسقوفة في الهواء الطلق وكأنها حجرات «قصر الشمس» على نحو ما قد يمكن العثور عليه في جزيرة «كريت». كانت تذكر كذلك بحجرات خزّان أو ببعض أجزاء من البحر يقسمها الإنسان من أجل صيد أو تربية محار حينما كنت ترى الضوء يقبل، حسب تعرّضها للشمس، فيتراقص على خطوط الأشجار، مثلما يفعل على صفحة المياه الربيعية، وتتدفق به ههنا وهناك الرغوة المبيضة لزهرة منورة راغية تلتصق بين شبك الأغصان المفرغ الذي تملؤه زرق السماء.

كانت قرية قديمة ببلديتها العتيقة المشوية المحمرة التي ترتفع أمامها بمثابة صواريّ للحفلات وبيارق ثلاث شجرات إجاص ازدانت بالسائين الأبيض الأنيق وكأنما لاحتفال وطني محلي.

لم يحدثني «روبير» في يوم عن صديقه بلهجة أكثر رقة مما فعل في أثناء ذلك المشوار. كنت أحس أن

لها وحدها جذوراً في فؤاده ؛ فمستقبله في الجيش ومركزه الدنيوي وأسرته، كل ذلك لم يكن بالتأكيد غير ذي شأن لديه ولكنه لا يساوي شيئاً إزاء أقل الأمور التي تتعلق بعشيقته. ذلك وحده يتمتع بمهابة في نظره، بمهابة أكبر بما لا يقاس من آل «غير مانت» وملوك الأرض كافة. ولست أدري إن كان هو يعرب لنفسه عن أنها من جوهر يسمو على كل شيء، ولكنه لم يكن يبدي إجلالاً واهتماماً إلا لكل ما يتعلق بها. كان بها قادراً أن يتعذب ويسعد وربما أن يقتل. وما كان أمر يثير اهتمامه بالحقيقة ويستهو به إلا ما تبغيه عشيقته وما قد تفعله، وإلا ما كان يجري في المساحة الضيقة التي تؤلف وجهها وخلف جبينها المحفوظ، وكان يستبين بالأكثر بأمارات عابرة وكان يتطلع إلى فكرة زواج رفيع، هو البالغ الرقة في كل ما عداه مجرد أن يستطيع متابعة الإنفاق عليها والاحتفاظ بها. ولئن تساءل المرء بأي ثمن كان يقدرها فاني أعتقد أنه لا يمكننا في يوم تصوّر ثمن مرتفع إلى حد كاف. وإن كان لا يتزوجها فلأن غريزة عملية كانت تشعره أنها سوف تهجره أو تعيش على الأقل على هواها منذ اللحظة التي لن يظل لها فيها ما تنتظره منه، وأنه لابد من شدّها إليه بعملية انتظار الغد هذه. فقد كان يفترض أنها قد لا تكون على حبه. وليس من شك أن المرض العام المسمى بالحب كان لابد يضطره - مثلما يفعل بجميع الرجال - إلى الظن بين الحين والحين بأنها تحبه. بيد أنه كان يحس عملياً بأن ذاك الحب الذي تكته له ما كان يحول دون أن تظل معه بسبب ماله فحسب وأنها سوف تسارع إلى هجرانه يوم لن يبقى لها ما تنتظره منه (وقد وقعت ضحية نظريات أصدقائه في عالم الآداب وفيما تظل على حبه حسبما يعتقد)، وقال لي:

- «سوف أقدم لها اليوم، إن كانت لطيفة، هدية تدخل السرور على نفسها. إنه عقد رأته لدى «بوشرون». ثلاثون ألف فرنك. ذلك باهظ الثمن إلى حد ما بالنسبة إليّ في هذه الفترة. ولكن المسكينة لا تلاقي الكثير من المسرة في الحياة. سوف تفرح أشد الفرح، فقد سبق أن حدثتني عنه وقالت لي إنها تعرف واحداً ربما وهبها إياه. لا أحسب الأمر صحيحاً ولكنني تحسباً مني لكل طارئ اتفقت مع «بوشرون»، وهو مورد أسرتي، كي يحتفظ لي به. أنا سعيد إذ أفكر أنك ستراها عمّا قليل. ليست خارقة على صعيد الوجه، تدري (ورأيت تماماً أنه يفكر عكس ذلك ولا يقول ما يقول إلا ليزداد إعجابي)، فهي تمتاز على وجه الخصوص بفهم رائع ؛ ربما لم تجرؤ أمامك على التحدث كثيراً، ولكنني أبتهج سلفاً مما ستقوله لي عنك فيما بعد. تدري. إنها تقول أشياء يمكن التعمق فيها إلى مالا حدود، إن لديها بالحقيقة شيئاً من العرافة!».

كنا نسير بمحاذاة حدائق صغيرة لنصل إلى البيت الذي تسكنه، وما كنت أقوى على الامتناع عن التوقف لأنها كانت تخلب الأبصار بزهو أشجار الكرز والإجاص الزهرة. كانت بالأمنس لاشك خالية بعد ونخاوية مثل عقار لم يتمّ تأجيرها فإذا بتلك الوافدات الجديديات اللواتي، وصلن البارحة واللواتي كنا نلتمس من خلال الأسيجة فساطينها البيضاء الجميلة في زوايا الممرات تعمرها فجأة وتزينها.

وقال لي «روبير»: «اسمع، بما أنني أرى أنك تودّ النظر إلى كل هذا وأن تتصرف كالشعراء فلا تتحرك من هنا، إن صديقتي تقطن قريباً جداً وسأضحي لإحضارها.»

وقمت ببضع خطوات بانتظاره، وكنت أمرّ أمام حدائق متواضعة. كنت أبصر أحياناً، إن أنا رفعت رأسي، فتيات في النوافذ، بيد أنه كان ههنا وهناك حتى في الهواء الطلق وعلى سوية طابق صغير طاقات من

الليلك الفتى طيبة رشيقة في أثوابها النديّة الخيازيّة معلقة بين الأوراق تدع للنسيم أن يرجحها دون أن تهتم بعابر السبيل الذي يرتفع بعينيه حتى سوية طابقتها الأخضر. لقد تعرّفت فيها الفصائل البنفسجية المصفوفة على مدخل حديقة السيد «سوان» في عشيات الربيع الدافئة من أجل مطرزة ريفية رائعة. وسلكت دربا يقضي إلى مرج. كان يهبّ فيه هواء بارد وقارس كما في «كومبريه» وفي وسط التربة الطينية الرطبة الريفية التي كان يمكن أن تكون على ضفة نهر «فيفون» انبثقت فجأة، لا تخلف بالموعود المضروب كسائر زمرة رفيقاتها، شجرة إيجاص كبيرة بيضاء تحرك باسمة وتعرض للشمس أزهارها التي يقبضها النسيم ولكننا تصقلها أشعة الشمس وتلمعها بلون القضة، وكأنها ستارة من نور أضحت محسوسة ملموسة.

وفجأة طلع «سان لو» تصحبه عشيقته، وإذ ذاك عرفت في الحال في تلك المرأة التي كانت كلّ الحب بالنسبة إليه وكلّ الحلاوات الممكنة في الحياة، والتي تمثل شخصيتها الخجأة على نحو خفي وكأنما داخل بيت قربان الموضوع الذي تنشط دون انقطاع من حوله مخيلة صديقي، والتي يحس أنه لن يعرفها في يوم ويتساءل عما تكون في حدّ ذاتها خلف حجاب النظرات والجسد، - عرفت فيها «راجيل حينما الرب»، تلك التي كانت تقول للقوادة منذ سنين خلت (والنساء سرعان ما يبدّلن من وضعهنّ في هذه الفترة، أن هنّ بئكن): «في الغد مساء اذن إن كنت بحاجة إليّ من أجل أحدهم فابعثي في طلبي».

وبعدما «يأتون في طلبها» وتجند نفسها وحدها في الغرفة مع هذا «الأحد» كانت تعلم تمام العلم ماينى منها حتى أنها كانت تشرع، بعدما أغلقت الباب بالمفتاح من جرّاء حيطة تتخذها المرأة الحذرة أو من جرّاء حركة طقسية، في خلع سريع لجميع ألبستها كما يفعل المرء أمام الطبيب الذي يزعم أن يفحصك، ولا تتوقف في تلك الأثناء إلا إذا قال لها ذلك «الأحد»، وهو لا يحبّ العري، إنها تستطيع الاحتفاظ بقميصها، مثلما يفعل الأطباء الذين يتمتعون بأذن مرفقة إلى حدّ بعيد وبخشون أن يصيب العبد مريضهم فيكتفون بالاصغاء إلى التنفس وخفق القلب من خلال القماش. لقد انصبّ قلبي «سان لو» وعذابه وحبه على تلك المرأة التي كانت حياتها كلّها وجميع أفكارها وكل ماضيها وسائر الرجال الذين أمكن أن يمتلكوها أمراً غير ذي بال بالنسبة إليّ إلى حدّ أنني ما كنت أصغيت إليها، لو روت لي عن ذلك، إلا تأدباً وما كنت سمعتها، حتى جعلت، مما كان بالنسبة إليّ دمية آليّة، موضوع عذابات لانتهمي يساوي متساوي الحياة. وإذ كنت أرى هذين العنصرين منفصلين (لأنني كنت قد عرفت «راجيل حينما الرب» في أحد بيوت الدعارة) فقد كنت أدرك أن العديد من النساء اللواتي يعيش الرجال من أجلهنّ ويتعذّبون ويقتلون أنفسهم يمكن أن يكنّ في ذاتهنّ أو بالنسبة إلى الآخرين ما كانت «راجيل» بالنسبة إليّ. كان يذهلني أن يعاني المرء من فضول مؤلم حيال حياتها. وكان بوسعي أن أعلم «روبير» بالكثير من خلواتها الغرامية التي تبدو لي أقلّ أمور الدنيا أهمية. وكلم لعلها كانت نغمة! وما أكثر ما أعطى ليعرفها دون أن يقلع!

كنت أثبتن كلّ ما يمكن أن تضعه مخيلة بشرية خلف قطعة وجه صغيرة على نحو ما كان عليه وجه هذه المرأة إن كانت المخيلة أول من عرفها، وإلى أي عناصر مادية بائسة خالية من أية قيمة كان يمكن على العكس أن يتفكك ما كان هدف الكثير الكثير من الأحلام لو تمّ إدراكه على نحو معاكس بأكثر أنواع المعرفة إسفافاً. كنت أدرك أن ما بدا لي لايساوي عشرين فرنكاً حينما قدم لي مقابل عشرين فرنكاً في بيت الدعارة

حيث كان في نظري محض امرأة تتوق إلى كسب عشرين فرنكاً يمكن أن يساوي أكثر من مليون ومن جميع الاحوال المشتهاة وأكثر حتى من صنوف حثان الأسرة إن بدأنا بتخيل كائن خفيّ فيها تشوقنا معرفته ويصعب القبض عليه والاحتفاظ به. ليس من شك أننا كنا نبصر أنا و«روبير» الوجه النحيل الضيق ذاته، بيد أننا بلغناه بطريقين متعاكسين لن يتصلا في يوم ولن نبصر البتة منهما الصفحة نفسها. ذلك الوجه عرفته أنا بنظراته وبسماته وحركات فمه من الخارج على أنه وجه امرأة، أي امرأة، قد تفعل كل ما ينبغي مقابل عشرين فرنكاً. ولذلك بدت لي النظرات والبسمات وحركات الفم دالة على أفعال عامة فحسب دون أي شيء فردي، وما كان الفضول ليدفعني إلى البحث عن شخص خلفها. بيد أن ما قدّم لي، إن صحّ القول، في البداية، ذلك لوجه المرتضي، إنما كان في نظر «روبير» نقطة الوصول التي اتجه وجهتها عبر آمال وشكوك وريبات وأحلام ما كثرها! أجل، لقد وهب أكثر من مليون كي يحصل على ماسبق أن قدم لي ولكل واحد على حدّ سواء، مقابل عشرين فرنكاً، وكي لا يكون لآخرين سواء. فلأي سبب لم يحصل عليها بذلك الثمن، ذلك أمر يمكن رده إلى لحظة صدفة، لحظة تتهرّب من كانت تبدو على أهبة تسليم نفسها لأن لديها موعداً محتملاً، أوسيباً، أي سبب، يجعلها أكثر عسراً في ذلك اليوم. فإن كان أمره مع أحد العاطفيين، حتى لو لم تتبين ذلك، بل على وجه الخصوص إن تبينته، بدأت لعبة رهيبية. وإذا يعجز عن التغلب على خيبة أمله وأن يكون في غنى عن ملك المرأة فإنه يلحق بها فتعرب منه فإذا الابتسامة التي لم يعد يجزّو على توقعها تساوي ألف مرة ما كان ينبغي أن تساوي المنّ الأخيرة. وربما اتفق في هذه الحالة أحياناً، حينما يصيب الجنون المرء، من جرّاء سداجة لي الإدراك تمترج بتخاذل أمام العذاب، فيجعل من الفتاة صنماً عزيز المثال، أن لا ينال البتة تلك المنّ الأخيرة، أو لا ينال حتى القبلة الأولى ولا يجزّو حتى على المطالبة بها من بعد كي لا يكذب تأكيدات تقول «حبّ أفلاطوني». وإنه لعذاب عظيم آنذاك أن تفارق الحياة دون أن تكون علمت في يوم ما يمكن أن تكون بلة المرأة التي أحببتها أكثر ما أحببت. أما من «راحيل» فقد سبق أن أفلح «سان لو» لحسن الحظ في نيلها جميعها. صحيح أنه لو علم الآن أنها عرضت على جميع الناس مقابل ليرة ذهبية لتألم دونما شك أشدّ الألم لكانه ما كان ليحجم عن إعطاء هذا المليون للاحتفاظ بها، فما كان كلّ ما علمه قادراً على إخراجه - إذ لا يمكن أن يحدث ما كان مهماً لدى الإنسان إلا رغم أنفه وبفعل قانون طبيعي عام - من الدرب الذي كان والدني لا يمكن أن يتبدى له هذا الوجه منه إلا من خلال الأحلام التي سبق أن كونها. كان جمود ذاك وجه النحيل يبدو لي، شأن جمود طلحية من الورق تتعرّض للضغوط الهائلة المنبثقة من جويّ اثنين، وكأنما رازنه لانهايتان تفضيان إليه دون أن تتلاقيا إذ هو يفصل بينهما. كنا ننظر إليها كلانا، أنا و«روبير»، فلا نراها من جهة السرّ الخفيّ نفسها.

وليست «راحيل حينما الربّ» التي كانت تبدو لي قليلة الشأن، وإنما قوّة الخيلة البشرية والوهم الذي تكثر عليه صنوف عذاب الحبّ ما كنت أجده عظيماً، ورأى «روبير» أنني بادي التأثير، فأشحت بوجهي إلى سجاد الإحاص والكرز في الحديقة المقابلة كي يحسب أن جمالها هو الذي يؤثر في نفسي. لقد كان يؤثر في حدّ ما بالطريقة نفسها، إذ كان يضع كذلك بالقرب مني أشياء لا يصرها المرء بعينيه فحسب وإنما يحس في قلبه. فتلك الشجيرات التي رأيتها في الحديقة أما أخطأت، إذ احتسبتها آلهة غريبة، شأن المجذلية حينما صرت في حديقة أخرى في يوم ترمع ذكره أن تحلّ عما قريب شكلاً بشرياً «فظننت أنه البستاني»؟

والخلوقات البيضاء الضخمة بانحناءتها الرائعة فوق الظل المواتي للقيولة والصيد والقراءة، حارسه ذكريات العصر الذهبي، الضامنة للوعد بأن الواقع ليس ما نحسب وأن روعة الشعر وبريق البراءة العجيب يمكن أن يتألفا فيها وقد يؤلفان المكافأة التي سنجهد في استحقاقها، تلك المخلوقات أما كانت الملائكة بالأحرى؟ وتبادلت بضع كلمات مع عشيقة «سان لوه». ومررنا في القرية. كانت بيوتها قذرة بيد أن مسافراً من عالم الأسرار، مسافراً توقف يوماً واحداً في البلدة الملعونة، ملاكاً متألفاً كان ينتصب بالقرب من أكثرها بؤساً، تلك التي تبدو وكأنها أحرقتها مطر من ملح البارود، يسط فوقها ألن جناحيه البريعين: إنها شجرة إرجاص مزهرة. وخطا «سان لوه» بضع خطوات إلى الأمام برفقتي:

- «كان بودي لو نستطيع الانتظار سوية أنا وأنت. ولعلي كنت أكثر سروراً في تناول طعام الغداء وحيداً معك أن نظلّ وحدنا حتى لحظة الذهاب إلى منزل عمتي. بيد أن طفلي المسكينة يسرها الأمر كثيراً وهي شديدة اللطف بحقي، تدري، فما استطعت أن أحرما ذلك. على أنها ستروك بأي حال. فمبولها أدبية وهي مرهفة الأحاسيس، ثم ما ألفت أن تتناول طعام الغداء معها في المطعم فهي ممتعة وبسيطة إلى حد بعيد ودائمة الرضى عن كل شيء»

وأظنّ مع ذلك أن «روبير» قد هرب في ذلك الصباح بالضبط. وللمرة الوحيدة على الأرجح، خارج المرأة التي سبق أن ألفها على مهل حنائاً تلو حنان ولح فجأة على مسافة منه «راحيل» أخرى، لح صنواً لها ولكنه يختلف عنها تمام الاختلاف ويمثل مجرد بلهاء صغيرة. كنا، وقد غادرنا البستان الجميل، في طريقنا لنستقل القطار بغية العودة إلى باريس حينما تم التعرف في المحطة على «راحيل» التي كانت تسير على بعد خطوات منا وصاحب بها «ساقطات» مبتدلات، كما كانت حالها، وصرخن وقد ظنننا وحدها بادئ الأمر: «ويحك، يا راحيل، هل تصعدين؟ إن «لوسيين» و«جيرمين» في العربة ولا يزال ثمة مكان، تعالي، ونذهب سوية إلى التزلج». كنّ يتأهبن لتعريفها بمستخدمين، هما عشيقاهما، وكانا يرافقانها حينما رفعتا أعينهما باستغراب إلى أبعد بقليل إزاء ما بدا من ضيق طفيف على «راحيل» فأبصرتنا واعتذرتنا واستودعناهما وجاءهما منها تحية وداع كذلك، تحية ودية ولكننا بها بعض الاضطراب. كانتا اثنتين مسكيتين من بنات الهوى بياقتين من فراء ثعالب الماء الزائفة تبدوان على وجه التقريب بالمظهر الذي بدت به «راحيل» حينما لقيها «سان لوه» أول مرّة. وما كان يعرفهما ولا يعرف اسمهما ولما رأى أنّهما تبدوان على أوثق الصلات بصديقه خطر له أن هذه الأخيرة ربّما كان لها مكانها، ولعلها لا تزال، في حياة لم يرتب بها شديدة الاختلاف عن تلك التي يقضيها معها، حياة تتوافر فيها النساء للمرء مقابل ليرة ذهبية. ولم تتراء له تلك الحياة فحسب، بل تراءت كذلك وسطها «راحيل» مختلفة تماماً عن تلك التي يعرفها، «راحيل» شبيهة بهاتين «الساقطتين» الصغيرتين، «راحيل» تساري عشرين فرنكاً. قد أصبح لـ «راحيل» باختصار القول شبهها مقدار لحظة، وقد لح على مسافة ضئيلة من «راحيله» التي من بنات الهوى، «راحيل» الحقيقية. إن أمكن القول أن تكون «راحيل» الساقطة أكثر حقيقة من الأخرى. وربما خطر لـ «روبير» آنذاك أن جهنم هذه التي كان يعيش فيها، إلى جانب التطلع إلى زواج ثري وضرورته وإلى بيع اسمه كي يستطيع الاستمرار في تقديم مئة ألف فرنك لـ «راحيل» في العام، ربّما تأتي له أن يفلت منها بسهولة وأن ينال من عشيقته، مثلما ينال هؤلاء المستخدمين من بائعات الهوى، في مقابل التزّ اليسير. ولكن كيف عساه يفعل؟ فهي لم تأت ما تستحقّ عليه اللوم. وقد

تضحى، إن أقل من نعمه عليها، أقل لطفاً ولن تقول له ولن تكتب إليه من بعد شيئاً من تلك الأمور التي كانت تهز مشاعره إلى حد بعيد والتي كان يذكرها لرفاقه بشيء من التباهي ويحرص أن يلفت الانتباه إلى أي حد كان ذلك لطيفاً من جانبها، ولكنه يغفل أنه ينفق عليها ببذخ، وحتى أن يكون قدم إليها أي شيء وأن تلك الهدايا على صورة فوتوغرافية أو تلك الصيغة التي تختم بها عجالة إنما هي تحول الذهب إلى الشكل الأكثر اقتضاباً والأعلى ثمناً. ولئن كان يتحاشى أن يقول إن لطائف «راحيل» النادرة تلك كانت مدفوعة الثمن فمن الضلال أن نقول إن ذلك كان بداعي الاعتزاز بالنفس والغرور - مع أن هذا الاستدلال الساذج يتم استخدامه بسخف بحق جميع العشاق الذين «يدفعون» وبحق العديد من الأزواج - كان «سان لو» على قدر كاف من الذكاء كي يتبين أن جميع متع الغرور ربما لقيها بيسر ودون مقابل في المجتمع بفضل اسمه الكبير ومجياه الجميل وأن علاقته بـ «راحيل» هي التي وضعت على العكس خارج المجتمع إلى حذم وأسهمت في كونه أقل تقديراً فيه. لا، إن هذا الاعتزاز في ابتغاء الظهور مظهر من ينال بدون ثمن علامات الإيثار الظاهر لدى من يحب إنما هو محض أمر ناتج عن الحب والحاجة في أن يعطي المرء لذاته وللآخرين صررة عن ذاته بوصفه محبوباً لدى من يحبه هو حباً جماً واقتربت «راحيل» منا تاركة المرأتين تصعدان إلى مقصورتهما؛ بيد أن اسمي «لوسيين» و«جيرمين» استبقيا «راحيل» الجديدة فترة لا تقل عمماً فعلت فراء ثعالب الماء الزائفة ومظهر المستخدمين المتصنع فيه. لقد تخيل لحظة حياة في ساحة «بيغال» برفقة أصدقاء مجهولين وثروات ضخمة قدرة وعشيات من المتع الساذجة في باريس هذه التي لم يبد لها فيها ضياء الشمس في الشوارع الممتدة من شارع «كليشي» على أنه الضياء ذاته الذي كان ينتزه فيه بصحبة عشيقته لأن الحب والعذاب الذي يؤلف وإياه شيئاً واحداً يتمتعان، شأن السكر، بالقدرة على التفريق بين الأشياء بالنسبة إلينا. كان ما ارتابه يقارب أن يكون باريس أخرى وسط باريس ذاتها؛ وتبدت له علاقته بمثابة استكشاف لحياة غريبة، فلئن كانت «راحيل» معه شبيهة إلى حد ما بذاته فإنما كانت «راحيل» تعيش معه جزءاً من حياته الحقيقية، وحتى الجزء الأعلى ثمناً من جراء المبالغ الطائلة التي كان يغدقها عليها، الجزء الذي كانت تستدسها عليه الصديقات إلى حد بعيد وسوف يسمح لها ذات يوم بالاعتزال في الريف أو أن تسعى إلى الشهرة في المسارح الكبرى بعدما يتم لها جني المكاسب. كان بود «روبير» أن يسأل صديقه من كانت «لوسيين» و«جيرمين» وما لعلهما قالتا لها لو انها صعدت إلى مقصورتهما وبما كن سيقضين النهار سوياً هي ورفيقتاها، نهاراً ربما انتهى، بعد التزلج، في مقهى الأوليا بمثابة التسلية القصوى لو لم تكن حاضرين، هو، «روبير»، وأنا. وأثارت مشارف الأوليا التي سبق أن بدت له حتى ذاك ملة فضوله وعذابه وخلفت في نفسه شمس ذلك النهار الربيعي المطل على شارع «كومارتان»، حيث ربما ذهبت «راحيل» بعد قليل وكسبت ليرة ذهبية لو لم تكن عرفت «روبير»، حيناً مبهماً. ولكن أية جدوى أن يطرح أسئلة على «راحيل» حين يعلم مسبقاً أن الجواب سوف يكون إما محض صمت وإما كذبة وإما أمراً محزناً بالنسبة إليه ولا يصف أي شيء؟ لقد دام ازدواج «راحيل» بما جاوز الحد.

كان المستخدمون يغلقون الأبواب، فصعدنا بسرعة إلى عربة من الدرجة الأولى ونقلنا لآلي «راحيل» الرائعة إلى «روبير» ثانياً أنها امرأة عظيمة القيمة فداعبها وأدخلها إلى قلبه حيث تأملها، بعدما استبطنها، مثلما فعل على الدوام حتى هذا الحين - فيما عدا هذه الفترة الوجيزة التي أبصرها فيها في ساحة «بيغال» من وحي رسام انطباعي - وانطلق القطار.

كان صحيحاً أن لها ميولاً أدبية. فلم تكف عن التحدث إليّ عن الكتب والفن الجديد والنزعة التولستوية إلا لتنجي باللائمة على «سان لو» لأنه يفرط في احتساء الخمر.

- «آه! لو استطعت العيش معي عاماً واحداً لرأيت، كنت حملتك على شرب الماء ولأضحيت أحسن حالاً بكثير.»

- «أنا موافق، فلنمضِ بعيداً جداً.»

- «ولكنك تعلم أن لديّ عملاً كثيراً (إذ كانت تأخذ الفن المسرحي على محمل الجد). وما عسى تقول عاقلتك على أي حال؟»

وشرعت توجه أمامي لعائلة «روبير» صنوفاً من اللوم بدت لي مصيبة جداً وقد تنبأها «سان لو» كلياً فيما خرج على طاعة «راجيل» فيما يخص الشامبانيه. أما أنا الذي كان يخشى عليه أشد الخشية من الخمر ويحس بتأثير عشيقته الخير عليه فقد كنت على أهبة أن أشير عليه برذل أسرته، وتساعد الدمع إلى عيني المرأة الشابة لأنني غفلت فتحدثت عن «دريفوس». وقالت وهي تغالب زفرة:

- «أيها الشهيد المسكين، سوف يقضون عليه هناك.»

- «اطمئني يا «زيزيت»، فسوف يعود وتتم تبرئته ويعترفون بخطأهم.»

- «ولكنه يكون قد فارق الحياة قبل ذلك! على أن أبناءه سيحملون على الأقل اسماً لاغبار عليه. ولكن التفكير بها ينبغي أن يعانیه، ذلك ما يذبحني! وهل تصدّق أن والدة «روبير»، وهي امرأة تقيّة، تقول إنه ينبغي أن يظلّ في جزيرة الشيطان وإن كان برئياً، أليست تلك فظاعة؟»

وأكد «روبير» قائلاً: «أجل ذلك صحيح تماماً، إنها تقول به. إنها والدتي ولا اعتراض لديّ، بيد أن الأكيد أنّها لا تملك حماسية «زيزيت».

ولكن وجبات الغداء، تلك «الأمور اللطيفة جداً»، كانت تتمّ أبداً في الواقع على أسوأ حال. فما أن كان «سان لو» يغشى مكاناً عاماً برفقة عشيقته حتى يخيل إليه أنها تنظر إلى جميع الرجال الحاضرين فيبتجهم، وتتبيّن سخطه الذي ربّما تلهث بتأجيجه، أو هي ما ابتغت على الأرجح، بداعي اعتزاز بالنفس أبله، وقد جرحتها لهجته أن تبدو وكأنها تحاول أن تهدئ منه. فكانت تتظاهر برفض تحويل عينيها عن هذا الرجل أو ذاك، ولم يكن ذلك على الدوام لحض التسلية على أيّ حال. فإن اتفق للسيد الذي صادف أن يكون جاراً لهما في المسرح أو المقهى، أو اتفق بكلّ بساطة لحوذيّ العربّة التي استقلّاها أن يكون على شيء من الإمتاع لاحظ «روبير» ذلك قبل عشيقته وقد نهته غريته في الحال. كان يبصر لثوه فيه واحداً من تلك الكائنات القذرة التي سبق أن حدثني عنها في «البليك» والتي تفسد النساء وتلحق بهنّ العار بداعي التسلية، فيتوسل إلى عشيقته أن تصرف عنه نظراتها ويلفت بذلك نظرها إليه. فكانت ترى أحياناً أن «روبير» قد أعرب عن حسن ذوق بالغ في شكوكه إلى حدّ أنها كانت تكفّ في النهاية عن مضايقته كي يهدأ بالاً ويرضى بالذهاب في مشوار ليفسح

لها الوقت في مباشرة الحديث مع الرجل المجهول وفي ضرب موعد في الغالب، وحتى في اشباع نزوة عاجلة أحياناً.

وقد رأيت تماماً فور دخولنا إلى المطعم أنّ «روبير» كان يبدو مشغول البال. فقد لاحظ في الحال أنّ «إيميه» وسط رفاقه العاميين، وهو ماخفي علينا في «البليك»، كان يبعث من حوله على نحو غير مقصود، وبألق متواضع، الجوّ الخياليّ العاطفي الذي ينشأ على مدى عدد من السنين من جرّاء شعر خفيف وأنف يوناني، الأمر الذي كان يميّزه وسط جمهرة الخدم الآخرين. فقد كان هؤلاء، وكلهم تقريباً مسنون إلى حدّ ما، يمثلون نماذج قبيحة أيّما قبح جلّية كل الجلاء لخوارنة مرائين ومرشدين روحيين منافقين، بل في الغالب لممثلين هزليين سابقين لا وجود تقريباً لجباهم التي على شكل قوالب السكر إلا في مجموعات الرسوم المعروضة في الاستراحة التاريخية المتواضعة لمسارح صغيرة متقدمة العهد يمثلون فيها بأدوار الخدم أو كبار الكهّان، وكان يبدو هذا المطعم، بفضل انتقاء اصطفاي وربّما بفضل طريقة تعيين وراثية، وكأنّه يحافظ على أنموذجها المهيّب في ضرب من المجمع العرافيّ. ولما عرفنا «إيميه» فقد أقبل بنفسه لسوء الحظّ ليسجّل طلبنا فيما ظلّ ينساب باتجاه موائد أخرى موكب كبار الكهّان المسرحيّ. وسأل «إيميه» عن صحة جدّتي وسألته عن أخبار زوجته وأولاده، فنقلها إليّ بحماسة إذ كان رجل أسرة. كان يبدو ذكياً وحازماً ولكنّه مجلّ لغيره. وأخذت عشيقته «روبير» تنظر إليه بانتباه غريب. ولكنّ عيني «إيميه» الغائرتين اللتين يضيف عليهما قصر نظير طفيف شيئا من العمق المخادع لم يفصحا عن أيّ انطباع على صفحة محيّا الجامد. ولا بدّ أن الخطوط الجميلة التي اصفرّت قليلاً وأرهقت الآن والتي تؤلف وجهه، تلك التي كانت تشاهد أبداً على مدى سنوات عديدة، شأن تلك الصورة التي تمثل الأمير «أوجين»، في المكان ذاته وفي أقصى قاعة الطعام الخالية على الدوام تقريباً، لا بدّ أنّها لم تجتذب الكثير من النظرات الفضولية في الفندق الريفيّ الذي عمل فيه سنوات عديدة قبل مجيئه إلى «البليك». لقد سبق إذن أن ظلّ فترة طويلة، لقلة توافر العارفين بالأمر دونما شك. جاهلاً لقيمة محيّا الفنية وقابل الاستعداد على أيّ حال للفت الأنظار إليها إذ كان يتسم بالجفاء. وأكثر مافي الأمر أن تكون باريسية عابرة سبيل قد توقفت مرّة في المدينة ورفعت ناظرها إليه وطلبت أن يجيء ليقدّم لها الطعام في غرفتها قبلما تستقلّ القطار ثانية ودفنت في الفراغ الشفاف الرتيب العميق لحياة الزوج الصالح والخدام الريفيّ سرّ نزوة مضت دون رجعة، ولن يجيء من يكتشفها هناك في يوم. بيد أنّ «إيميه» لا بدّ لاحظ الإلحاح الذي بقيت فيه عينا الفنانة الشابة تحدّقان إليه. ولكن الإلحاح لم يفت «روبير» على أيّ حال، فقد أخذت أرى حمرة تتجمع تحت وجهه، ولم تكن شديدة كالتّي تلهبه إن هزّه انفعال مفاجئ بل طفيفة مبشرة. فسأل عشيقته بعدما صurf «إيميه» بشيء من الجفاء:

— «رئيس الخدم هذا ظريف جداً يا «زيزيت»؟ يخيل إليّ أنّك تودّين إجراء دراسة تمهيدية عليه».

— «ها نحن قد بدأنا، كنت متيقنة من ذلك».

— «ولكن ما الذي بدأناه يا صغيرتي؟ إن كنت مخطئاً فلست أنكر، ذلك لك. ولكن لي الحقّ مع ذلك أن أحذرك من هذا الخدام الذي أعرفه من «البليك» (ولولا ذلك لما باليت)، فهو واحد من أعظم ماحملت الأرض من أوغاد في يوم».

وبدا أنها تودّ طاعة «روبير» وبدأت معي حديثاً أدبياً شارك فيه. لم أشعر بالسأم وأنا أتحدّث إليها فقد كانت تعرف تمام المعرفة الأعمال التي كنت معجباً بها وتكاد توافقني الرأي في أحكامها، ولكنني ما كنت أولي تلك الثقافة أهمية كبيرة إذ كنت قد سمعت على لسان السيدة «دوفيلباريزس» أنها عديمة الموهبة. كانت تمزج بظرافة حول ألف أمر، ولعلها كانت ممتعة حقاً لو لم تتصنّع على نحو مزعج اللغة الخاصة بالندوات الأدبية ومشاكل الرسم. وكانت تمدها على أية حال لتشمل كل شيء، وإذ تعودت على سبيل المثال أن تقول عن لوحة، إن كانت انطباعية، وعن أوبرا إن كانت من النهج الفاعنيري: «أه! ذلك حسن»، قالت في يوم قبلها فيه شاب في أذنها وأبدى انتضاعاً، وقد أثر فيه أنها تظاهرت برعشة: «بلى». على صعيد الإحساس، أجد أنّ ذلك حسن. ولكنّ ما كان يثير دهشتي أنّ العبارات الخاصة بـ«روبير» (والتي ربّما جاءته من أدباء تعرفهم) كانت هي تستخدمها في حضرته، وهو في حضرته كما لو كانت تلك لغة ضرورية ودون أن يتبيناً عديمة أصالة هي ملك للجميع.

كانت إذ تتناول الطعام غير حاذقة في استخدام يديها إلى حدّ يدعو إلى افتراض أنها لا بدّ تظهر غير ماهرة إلى حدّ بعيد وهي تمثل على خشبة المسرح. وما كانت تستعيد شطارتها إلا في الحبّ بفضل هذا التكهن المؤثر لدى النساء اللاتي يجبن الرجل إلى حدّ يحزن معه من أوّل مرّة ما سيحبب أعظم المتعة لهذا الجسد المختلف إلى حدّ بعيد عن جسدهنّ.

وكففت عن المشاركة في الحديث حينما أخذنا في الكلام عن المسرح لأن «راحيل» كانت مفطرة الإساءة في هذا الشأن. لقد دافعت، والحق يقال، عن «لايرما» بلهجة المشفق - ضدّ «سان لو»، الأمر الذي يبرهن على أنها كانت كثيراً ما تهجمها في حضرته - قائلة: «لا، لا، إنها امرأة مرموقة. إن ما تفعله لا يؤثر من بعد فينا بالطبع، إذ لم يعد يوافق تماماً ما نبحث عنه، ولكن ينبغي لنا أن نضعها في مكانها في الفترة التي جاءت فيها، إن لها الكثير بدمتنا. لقد قامت بأشياء حسنة، لو تدرى. ثم إنها امرأة طيبة إلى حدّ بعيد، وهي كبيرة القلب، هي لا تحبّ بالطبع الأمور التي تثير اهتمامنا، بيد أنها تمتعت بميزة ذكاء حلوة إلى جانب وجه مؤثر بعض الشيء». (والأصابع لاتوافق جميع الأحكام الجمالية على نحو واحد. فإن تعلق الأمر بالرسم بالألوان اكتفى المرء، كيما يبدى أنها قطعة جميلة ومن عجيبة بمنازة، برفع الإبهام. ولكنّ «ميزة الذكاء الحلوة» أكثر طلباً. فلا بدّ لها من أصبعين، أو ظفرين بالأحرى كما لو اقتضى الأمر أقصاء ذرّة غبار). ولكن عشيقة «سان لو» - إن استثنينا ذلك - كانت تتحدّث عن أكثر الفنانين شهرة بلهجة من السخرية والاستعلاء كانت تثير حنقي إذ كنت أحسب - وأنا مخطئ في ذلك - أنها هي من كانت أدنى منهم. ولأحظت تماماً أنّي لا بدّ أعتبرها فتانة ضحلة وأنّي أكنّ على العكس الكثير من التقدير لأولئك الذين تحتقرهم. ولكنها لم تستأ لذلك لأن في الموهبة العظيمة التي لم تحظ بعد بالاعتراف، كما كانت حالها، وأية كانت نقتها بنفسها، ضرباً من التواضع وأتينا نقيس علامات الاحترام التي نطالب بها لا بمواهبنا الخفية بل بوضعنا المكتسب. (كنت أزمع بعد ساعة رؤية عشيقة «سان لو» في المسرح تبدي الكثير من الاحترام حيال الفنانين ذاتهم الذين كانت تصدر بحقهم حكماً قاسياً إلى هذا الحدّ. ولذلك لم تقلّ إلحاحاً، مهما صغر الشكّ الذي كان لا بدّ أن يخلفه سكوتي في نفسها، على أن نتعشى معاً في المساء مؤكدة أنّ لم يرقها حديث إنسان قطّ بقدر ما فعل حديثي. ولكن لم تكن بعد في المسرح حيث كنّا نزمع الذهاب بعد الغداء، فقد كان يبدو لنا أننا في استراحة

مسرح تزيينه رسوم قديمة للفرقة لكثرة ماتوافر لرؤساء الخدم من وجوه تبدو وكأنها تختلط بجيل كامل من الفنانين المبرزين. كانوا يدون كذلك وكأنهم أعضاء مجامع لغوية؛ فهذا توقّف أمام طاولة معدّة يتفحص إجابات بالوجه والفضول المتجرد الذي ربّما استطاع أن يديه السيد «دو جوسيو». وآخرون إلى جانبه ينقلون في القاعة نظرات تتسم بالفصول والفتور من تلك التي ينقلها في الجمهور أعضاء من المعهد سبق أن وصلوا فيما يتبادلون بضع كلمات لاتسمعها. كانت وجوها مشهورة بين الرواد. بيد أنهم كانوا يشيرون إلى وafd جديد مغضن الأنف معسول الشفة تبدو عليه، حسبما كانت تقول «راحيل» في لفتها، هيئة الكهّان، فينظر كلّ باهتمام إلى المصطفى الجديد. وبعد قليل شرعت «راحيل» تغمز بعينها طالباً شاباً كان يتناول غداءه إلى طاولة مجاورة مع أحد الاصدقاء وربّما ابتغت بذلك حمل «روبير» على الرحيل كي تظلّ وحدها مع «إيميه».

وقال «سان لو» الذي تركّزت على وجهه الحمرة المترددة، التي كسته منذ قليل، سحابة بلون لدم تمدّد ملامح صديقي المشدودة وتغتمق لونها: «زيزيت، أرجوك ألا تنظري على هذا النحو إلى هذا الشاب. أفضل، إن انبغى أن تجعلي منا فرجة المتفرّجين، أن أتناول الغداء بمفردي وأمضي لانتظارك في المسرح».

وفي هذه اللحظة جاء من يقول لـ «إيميه» إنّ سيداً يرجوه المجيء للتحديث إليه على باب عربته. ونظر «سان لو»، وما يزال قلقاً يخشى أن يكون ثمة مهمة عشق يقع عليه أن ينقلها إلى عشيقته، نظر من الزجاج فأبصر السيد «دو شارلوس» في أقصى عربته مشود اليدين في قفازين أبيضين مخططين بالأسود وفي عروة سترته زهرة. وقال لي بصوت منخفض:

– «تري، إن أسرتي تعمل على ملاحظتي حتى هنا. رجوتك، أنا لا أستطيع، ولكن بما أنّك تعرف رئيس الخدم حقّ المعرفة، وهو سيشي بنا بالتأكيد، فاطلب إليه ألا يذهب إلى العربية. وليكن على الأقلّ خادماً لايعرفني. فإذا ما قيل لعمي إنهم لا يعرفونني فأنا أدري بطبيعته، إنه لن يأتي للبحث في المقهى فهو يمقت هذه الأماكن. وإنه لن المقرّف على أيّ حال أن يعطيني زبر نساء عجوز مثله لم يرو بعد دروساً على نحو مستمر وأن يجيء للتجسس عليّ».

وبعدما أبلغ «إيميه» أوامري أرسل واحداً من خدمه كان عليه أن يقول إنّه لا يستطيع أن يكلف نفسه وإن تمّ السؤال عن المركز «دو سان لو» فهم لايعرفونه. وانطلقت العربية في الحال. ولكن عشيقته «سان لو» لم تسمع أقوالنا المهموس بها بصوت منخفض وحسبت أن الأمر يتعلق بالشاب الذي كان «روبير» يلومها أن تغمزه فانفجرت بالشتائم:

– «عجبا! جاء دور هذا الشاب الآن؟ حسناً تفعل أن تخذرنني. ما أحلى تناول الغداء ضمن هذه الشروط! لانهتم بما يقول فهو مهزوز العقل إلى حدّ ما وهو على وجه الخصوص»، تضيف قولها وهي تلتفت إليّ، «إنّما يقول ذلك لأنه يظنّ أن الظهور مظهر الغيران يضفي أناقة ويلبسك لبوس السيد الكبير».

وأخذت تصدر بقدميها ويديها بوادر توتر عصبي.

– «ولكنّ الأمر محرج بالنسبة إليّ أنا يا «زيزيت». فأنتك تضعيننا موضع سخريّة هذا السيد الذي سيدخل في روعه أنّك تحاولين التقرب منه والذي يبدو لي من أسوأ السوء».

— «أما أنا فيروفتي جدلاً بالعكس. إن له بادئ الأمر عينين أخاذتين لهما طريقة في النظر إلى النساء تحس معها أنه لابدّ يحبهن».

وصاح «روبير» قائلاً: «اصمتي على الأقلّ إلى ما بعد رحيلي إن كنت مجنونة. إليّ بحوائجي يا غلام».

وما كنت أدري إن انبغى أن أتبعه ؛ فقال لي باللهجة نفسها التي حدّث بها عشيقته منذ هنيهة وكما لو كان غاضباً مني بالمقدار نيسه: «لا، إن بي حاجة إلى أن أكون وحدي». كان غضبه كجملة موسيقية واحدة تنشد وفقها في الأوبرا عدّة محاورات تختلف كلّ الاختلاف فيما بينها في نصّ الكلام من حيث معناها وطبيعتها ولكنّها تجمّعها في شعور واحد. وبعدما ذهب «روبير» نادت عشيقته «إيميه» وسألته معلومات مختلفة. كانت تريد بعد ذلك أن تعلم كيف كنت أراه.

— «إنّ له نظرة مسلية، أليس كذلك؟ تفهم، ماقد يفرحني أن أعلم ما يمكن أن يفكر فيه وأن يقدم لي الطعام غالباً أن اصطحبه في السفر ؛ ولكن لا أكثر من ذلك. فلو اضطرت أن تحب جميع الذين يروقونك لكان الأمر في الأساس ثقيلاً إلى حدّ ما. و«روبير» ليس على حقّ في ما يخطر له من ظنون. فكلّ ذلك يتشكل وينتهي في رأسي، وعلى «روبير» أن يطمئن بالأ. (وكانت توالي النظر إلى «أيميه»). هيّا انظر إلى عينيه السوداوين، إنني أودّ معرفة ما وراءهما».

وبعد قليل جاء من يقول لها إن «روبير» أرسل في طلبها إلى حجرة خاصة ذهب إليها، مروراً بمدخل آخر، لينهي غداءه دون أن يجتاز المطعم ثانية. وهكذا ظلت وحدي، ثم أرسل «روبير» يناديني بدوري. فوجدت عشيقته مستلقية على أريكة تضحك تحت وابل القبلات والمداعبات التي يغدقها عليها. كانا يحسبان الشمبانية، وكانت تقول له بين الحين والحين «مرحى يا أنت!» إذ كانت قد تعلمت منذ وقت قريب هذه الصيغة التي تبدو لها آخر ما وصل إليه الحنان والذكاء. كنت قد أقللت في طعام الغداء وأحس أنّي غير مرتاح، وأخذت أسف، دون أن تسهم أقوال «لوغراندان» في شيء من ذلك للتفكير بأنّي أبدأ عشية الربيع الأولى هذه في حجرة مطعم وسوف إختتمها في كواليس مسرح. وبعدما نظرت «راجيل» إلى ساعتها لترى إن كانت لن تتأخر قدّمت لي الشمبانية ومدّت لي واحدة من سكايرها الشرقية وانتزعت من أجلي وردة من صدارها، وإذا ذاك قلت في نفسي: «ليس لي أن أسف كثيراً على نهاري، فلم تذهب تلك الساعات التي قضيتها إلى جانب هذه المرأة الشابة هدراً إذ توافر لي بوساطتها وردة وسيكارة معطرة وكوب شمبانية، وهو أمر لطيف ولا يمكن دفع مقابل كافٍ له». كنت أحدث نفسي بذلك إذ كان يبدو لي أنني أضفي طابعاً جماً على ساعات الضجر تلك وأناي بذلك أبررها وأنقذها. ولعله كان ينبغي لي أن أفكر بأن ما كنت أحس به من حاجة إلى سبب يحمل إليّ العزاء لما لحق بي من ضجر كان كافياً ليبرهن أنني ما كنت أحس بأيّ أمر جمالي. فأما «روبير» وعشيقته فقد بدا أنّهما لا يحتفظان بأيّ ذكر للمشاجرة التي قامت بينهما قبل بضع لحظات ولا بأنّي شهدتها. فلم يلحقا إليها البتة ولا بحثا لها عن أيّ عذر ولا للتناقض الذي تورثها إياه تصرّفاتهما الآن. ولكنّ ما احتسيت من الشمبانية معهما أخذت أشعر بشيء من النشوة التي كنت أحس بها في «ريفيل»، ولعلها لم تكن واحدة على الأرجح. فليس يكشف فينا كلّ نوع من النشوة فحسب، من تلك التي توليها الشمس أو السفر إلى نشوة التعب أو الخمرة، بل كل درجة من النشوة، ولا بدّ أن تحمل «رقما»

مختلفا كما هي حال الأعماق في البحر، إنما تكشف فينا عن إنسان خاص في العمق الذي تبلغه بالضبط. كانت الحجرة التي يجلس فيها «سان لو» صغيرة، ولكن المرأة التي تزينها قد وضعت بحيث تبدو وكأنها تعكس ثلاثين غيرها على مدى منظور لا ينتهي. وكان لابد للمصباح الكهربائي الموضوع في أعلى الإطار حينما يضاء ويلحق به قرابة ثلاثين من الأضواء المنعكسة التي تشبهه أن يولي الشارب، وإن كان وحيداً، الفكرة التي قوامها أنَّ المكان يتضاعف من حوله في الوقت الذي تتضاعف فيه أحاسيسه التي تثيرها النشوة وأنه إن سجن وحده داخل هذا المقر الصغير فإنما يمدُّ سلطانه مع ذلك على شيء أكثر امتداداً في خطه المنحني اللامحدود المضيء من ممر في «حديقة باريس». ولما كنت إذ ذاك في تلك اللحظة ذلك الشارب فقد بحث عنه في المرأة فأبصرته فجأة ينظر إليّ، قبيحاً مجهولاً. وكانت بهجة النشوة أكثر قوة من القرف، فخصصته، يدفعني المرح أو التحدي، بابتسامة ردّ يمثلها. وكنت أحسني تحت السلطان العابر والقوي للدقيقة التي تبدو الأحاسيس فيها شديدة القوة إلى أنني لم أعلم إن لم يكن حزني الوحيد يكمن في التفكير بأن الأنا القبيحة التي لاحتها منذ قليل ربما كانت في يومها الأخير وأني لن ألتقي البتة من بعد بذاك الغريب في بحر حياتي.

أما «روبير» فقد أغضبه أنني «لم أشأ التائق أكثر مما فعلت في عيني عشيقته.

– «ويحك، هذا السيد الذي التقيت به هذا الصباح والذي يمزج الحذقة بعلم الفلك، قصّ عليها ذلك، فإني لا أذكر تماماً» – وكان ينظر إليها من طرف عينه.

– «ولكن ليس ثمة ما يقال، يا صغيرتي، غير الذي قلت منذ قليل.

– «كم أنت مزعج. إرو إذن عن أمور «فرانسواز» في محلة الـ«شانزليزيه» فسوف يسرّها ذلك كثيراً.

– «أجل، فما أكثر ما حدثني «بويه»^(١) عن «فرانسواز». وأخذت بدقن «سان لو» وعادت تقول، لعجز في الابتكار، وهي تجذب ذاك الذقن وجهة الضوء: «مرحبى يا أنت!».

منذ لم يعد الممثلون حصراً، في نظري، هم المؤتمنين في إلقائهم وتمثيلهم على حقيقة فنية أخذوا يحظون باهتمامي في حدّ ذاتهم. كنت أتلهى، ظناً مني أنني أنامل شخصيات رواية هزلية قديمة، برؤية الفتاة الساذجة تتابع، ساهية، على الوجه الجديد العائد لسيد شاب دخل إلى القاعة منذ هنيهة، التصريح الغرامي الذي يسمعها إيّاه البطل الشاب في المسرحية، فيما لا يتورّع هذا الأخير، وهو في قمة مقالته الغرامية، عن اختلاس نظرة لاهبة إلى سيدة عجوز تجلس في مقصورة مجاورة، وقد أدهشته لآلتها الرائعة؛ وهكذا كنت أشهد، ولا سيما بفضل المعلومات التي كان يزودني بها «سان لو» عن حياة الفنانين الخاصة، رواية أخرى صامتة معبرة يتمّ تمثيلها تحت صفحة المسرحية المحكيّة التي كانت تثير اهتمامي على آية حال على ضحالتها؛ ذلك أنني كنت أحس بتلك الشخصيات العابرة المعمّرة في آن التي تؤلفها شخوص المسرحية تنمو وتتفتح على مدى ساعة تحت أضواء المسرح وقد تشكلت من التصاق وجه آخر من أصبغة وكروتون فوق وجه الممثل ونص كلمات الدور فوق نفسه الخاصة به، وهي شخصيات فائقة إلى ذلك، نجّها ونعجب بها وزلّني لحالها ونوّد لو

(١) تصغير «روبير» للتعجب.

نلقاها مرة أخرى بعدما تغادر المسرح ولكنها تنفرط مذ ذاك ممثلاً لم يعد في وضعه الذي كان عليه في المسرحية، ونصاً لا يريك وجه الممثل من بعد، ومسحوقاً ملوناً يزيله المنديل؛ لقد عادت باختصار القول عناصر لم يظل فيها شيء منها بسبب انحلالها الذي اكتمل فور انتهاء العرض والذي يحملك، شأن زوال المحبوب، على الشك بحقيقة الأنا وعلى التأمل في الموت.

وقد حز في نفسي إلى حد بعيد مشهد من مواد البرنامج. فقد كان على امرأة شابة تمقتها «راحيل» وكثيرات من صديقاتها أن تتم في إطار اغنيات قديمة بدايات بنت عليها جميع آمالها المستقبلية وآمال ذويها. وكان لهذه المرأة الشابة مؤخرة شديدة البروز تكاد أن تكون مضحكة وصوت جميل ولكنه نحيل إلى حد بعيد يضعفه إلى ذلك الانفعال ويتناقض وذلك الهيكل الجبار. وكانت «راحيل» قد وزعت في القاعة عدداً من الأصدقاء والصديقات يتناول دورهم إرباك المبتدئة. ويهدونها خجولة، يتهمهم الجارح وإفقادها أعصابها على نحو تفشل معه فشلاً ذريعاً لا يرم المديرة بعده تعهداً معها. ومنذ النغمات الأولى التي فاهت المسكينة بها أخذ بعض النظارة ممن. ثم انتقاهم لهذا الغرض يتدلون ظهرها ضاحكين، وتضحك بعض النساء المشاركات في المؤامرة بصوت عال وتزيد كل نغمة ناحلة من الضحك المقصود الذي أخذ ينقلب فضيحة. وحاولت المسكينة التي تصبب عرقها من ألم تحت مساحيقها أن تقاوم فترة، ثم ألقت من حولها على الجمهور نظرات يمتزج فيها الأسى والحنق فكان أن ضاعفت من صيحات الاستنكار. وجرت غريزة التقليد والرغبة في الظهور بمظهر الذكاء والشجاعة مملات لم يسبق اعلامهن بالأمر ولكنهن كن يرمين الآخرين بنظرات مختلطة يطلنّها التواطؤ والخبث وتلويّن من الضحك بقهقهات عالية حتى إن مدير المسرح أمر باسدال الستار في نهاية الأغنية الثانية مع أن البرنامج كان يتضمن خمساً غيرها. وجهدت ألا أفكر في هذا الحادث أكثر مما كنت أفعل بعداب جدتي حينما كان عمّ والدتي يأمر، بغية تنكيدها. بإعطاء جدّي بعض الكونياك، لأن فكرة الخبث تتضمن في نظري شيئاً مؤلماً إلى أبعد الحدود. ولكن كما أن الإشفاق على الشقاء قد لا يكون صحيحاً كل الصحة لأننا نعيد بالخيلة خلق ألم كامل لا يفكر الشقي أن يرثي لحاله منه إذ هو مضطّر لحارته، كذلك من المرجح أن ليس للخبث في نفس الشرير تلك القسوة المحضة المتلذذة التي يؤلنا تخيلها أشد الألم. فالغضباء تلهمه والغضب يضيفي عليه حدة ونشاطاً لا يتسمان بما يهيج القلوب، ولا بد من السادية كيما نستخلص منه المتعة، فالشرير يظن أنه إنما يعذب شريراً. كانت «راحيل» تتصور بالتأكيد أن الممثلة التي أذاقتها المر لا أهمية لها البتة وأنها على أية حال إذ تدعو إلى استنكار فأنما تثار للذوق السليم وتلقن الرفيقة الرديئة درساً. وقد فضلت مع ذلك ألا أروي عن تلك الحادثة بما أنني لم أملك لا الشجاعة ولا القدرة للحؤول دونها. فقد كان شقّ علي كثيراً إن تناولت الضحية بالخير أن أشبه المشاعر التي شجرك جلاّدي هذه المبتدئة بمباهج القسوة.

على أن بداية هذا العرض قد أثارت اهتمامي بطريقة أخرى. فقد أفهمتنني جزئياً طبيعة الوهم الذي وقع «سان لو» ضحيته إزاء «راحيل» والذي جعل هوة سحيقة بين الصور التي كنا نكونها، أنا و«روبير» عن عشيقته حينما كنا نبصرها في هذا الصباح نفسه في ظلّ أشجار الإيجاض المزهرة. كانت «راحيل» تمثل دور محض ممثلة صامتة تقريباً في المسرحية الصغيرة. وكان لـ «راحيل» واحد من تلك الوجوه التي يرسم البعد خطوطها - وليس البعد بالضرورة بعد المسرح، إذ العالم لا يعدو كونه مسرحاً أوسع رقعة - والتي تنهال هباء إن تمت رؤيتها عن كثب. فما كنت ترى إن اتخذت مكانك إلى جانبها سوى سديم، سوى مجرة من بقع النمش

ويثور في غاية الصغر، ولا شيء سوى ذلك. وتتوقف امكانية رؤية كل ذلك على مسافة مناسبة ويطلع من الوجنتين المتراجعتين الغائرتين، كما الهلال، أنف دقيق نقي الخطوط إلى حدٍّ تودُّ معه لو تكون موضع انتباه «راحيل» وتلقاها إلى مالا حدود وتمتلكها بالقرب منك إن لم يتفق لك البتة أن رأيها على نحو آخر وعن كُتب. ولم تك تلك حالي، بل كانت حال «سان لو» حينما رآها تمثل أول مرة، وقد تساءل حينذاك كيف يقترب منها، كيف يتعرّف بها، وانكشف داخله مجال كامل رائع - ذاك الذي كانت تعيش فيه - تصدر عنه اشعاعات للذيذة ولكنه لن يستطيع ولوجه. وانطلق من مسرح المدينة الريفية الذي جرى ذلك فيه، لعدة سنوات خلت، وهو يقول في نفسه إن الكتابة إليها قد تكون جنوباً وإنها لن تجيبه، وهو على أتم الاستعداد لمنح ثروته واسمه المخلوقة التي كانت تعيش في صدره في عالم يسمو كثيراً على هذه الحقائق المألوفة تماماً، عالم يزيده الشوق والحلم جمالاً حينما أبصر على مدخل الفنانين الفرقة المرحلة بقبعاتها اللطيفة، فرقة الفنانين الذين قاموا بالتمثيل خارجة من أحد الأبواب. وكان ثمة في انتظارهم شبّان ممن كانوا يعرفونهم. ولما كان عدد البيادق البشرية أقل من عدد التشكيلات التي يمكن أن تولّفها، فإنّه يتفق في قاعة غاب عنها جميع الأشخاص الذين يمكن أن نعرفهم أن نلقى ثمة شخصاً ظننا أننا لن نحظى بملقها ثانية في يوم ويوفينا في الوقت المناسب حتى لنبدو المصادفة ربانية ولعلّ مصادفة أخرى كانت حلت دونما شكّ محلها لو كنا لافي هذا المكان بل في آخر مختلف ربّما ولدت فيه رغبات أخرى وافق أن نصادف فيه آخر من معارفنا القداماء ليرفدها. لقد انغلقت أبواب عالم الأحلام الذهبية على «راحيل» قبل أن يراها «سان لو» خارجة من المسرح مما جعل يقع النمش والبثور قليلة الشأن. ولكنها على ذلك كثرت، يزيد من الأمر أنه لم يعد وحيداً فلم يتوافر له من القدرة على الحلم ما توافر له في المسرح. ولكنها هي ظلت تحكم أفعاله. مع أنّه لم يتفق له من بعد أن يراها، شأن تلك الكواكب التي نتحكمنا بجاذبيتها حتى في أثناء الساعات التي لا نراها فيها بأعيننا. ولذلك فقد نجم عن الشوق إلى المثلة ذات الملامح الدقيقة التي لم تكن حتى حاضرة في ذاكرة «روبير» أن ارتدى على الرفيق القديم الذي كان هنالك مصادفة وحمله على تعريفه بالمرأة فاقدة الملامح وصاحبة بقع النمش، إذ هي المرأة نفسها، قائلاً في سرّه إنه سوف يفكر بعد ذلك في معرفة من من الاثنين كانت في الواقع الممثلة. وكانت في عجلة من أمرها فلم تتعبه حتى بالكلام إلى «سان لو» في تلك المرة ولم يتيسر له أخيراً إلا بعد بضعة أيام أن يعود معها وقد حصل منها على فراق رفاقها. كان مذ ذاك يجها. فإنّه يتجم عن الحاجة إلى الحلم والرغبة في أن يسعد المرء على يد من حلم بها أنّ الكثير من الوقت غير لازم كي نعهد بجميع احتمالات سعادتنا لتلك التي كانت قبل بضعة أيام محض ظهور على خشبة المسرح مفاجئ مجهول لانبالي

وحينما انتقلنا إلى خشبة المسرح بعدما أسدل الستار أردت، وقد تملكنتي الرهبة من التنقل عليها، أن أتحدث إلى «سان لو» بحدة، فيجيء مظهري، وما كنت أدري أي مظهر ينبغي اتخاذه في هذه الأمكنة الجديدة عليّ، وقد استأثرت به محادثتنا كلياً ويطنون أنني منغمس فيه وساه إلى الحدّ الذي يرون من الطبيعي معه أن لا أتخذ الملامح التي كان يجدر بي اتخاذاها في مكان أكاد لا أعلم أنني موجود فيه لاستغراقي في ما كنت أقول. واغتممت، بغية الإسراع، أول موضوع حديثه خطر لي فقلت لـ «روبير» :

- تعلم أنني ذهبت لوداعك في يوم رحيلي، إذ لم يتسن لنا البتة التحدّث في الأمر. لقد حيّيتك في الشارع.

وأجانبني قائلاً: «لأنكلمني عن ذاك فقد اغتممت من جرّائه. لقد تلاقينا قرب الشكنة تماماً ولكنني لم أستطع التوقف لأنني كنت متأخراً جداً. أوكد لك أنني كنت شديد الغم».

لقد تعرّفتني إذن! كنت لأزال أستعيد التحية اللاشخصية تماماً التي وجهها إليّ وهو يرفع يده إلى قبعته العسكرية دون أية نظرة تكشف عن أنه عرفني ودون أية إشارة تبرز أنه يأسف لفقدته القدرة على التوقف. ولا بدّ أن الإيهام الذي اعتمده في ذلك الحين بأنه لا يتعرّفني قد بسط بالطبع الكثير من الأمور. ولكنني ذهلت أن عرف كيف يقرّ الرأي عليه بتلك السرعة وقبل أن يكشف ردّ فعل لديه عن انطباعه الأول. لقد سبق لي أن لاحظت في «بالبيك» أن جسمه، إلى جانب تلك الصراحة الساذجة للحياه الذي كانت بشرته تسمح شفوفاً برؤية تدفق بعض الانفعالات المفاجيء، قد درّبه التربية تدريباً رائعاً على عدد من وجوه النفاق الذي تفرضه اللياقة وأنه يستطيع، شأن فنان مجلّ أن يمثل في حياته العسكرية وفي حياته الاجتماعية أدواراً مختلفة الواحد تلو الآخر. ففي أحد أدواره كان يحبني حباً عميقاً ويتصرف حيالي وكأنه أخ لي. لقد كان أنحاً لي وعاد فأضحاه ثانية، بيد أنه أصبح مقدار لحظة شخصاً آخر لا يعرفني وقد رفع يده، وهو يمسك بالأعنة ونظّارته على عينه ودونما نظرة أو ابتسامة، إلى واقية عمرته كي يردّ لي تحيتي العسكرية على نحو صحيح!

كانت مناظر المسرح التي أمرّ بينها لانزال قائمة وقد بدت بائسة إذ تمت رؤيتها على هذا النحو عن كئيب وفقدت كلّ ما يضيفه عليها البعد والإضاءة اللذين قدّرها الرسّام الكبير الذي نفذها، ولم تتعرّض «راحيل» حينما اقتربت منها لقوة تدميرية أقلّ شأنًا. فقد بقيت فتحتاً أنفها البديع عالقتين في المنظور بين القاعة والمسرح شأن بروز المناظر تماماً. فلم تعد هي نفسها وما كنت أتعرفها إلا بفضل عينها اللتين احتمت فيهما هويتها. لقد زال شكل هذا الكوكب الفتيّ الشديد اللمعان منذ قليل وزال ألقه، ولم أعد أميز في مقابل ذلك فوق هذا الوجه المتسق تماماً منذ قليل سوى تنوعات وبقع وأخاديد، كما لو تقربّ عيننا من القمر ويكف عن الظهور بلون ورديّ وذهبيّ بالنسبة إلينا.

وسرّني أن ألمح ما بين صحفيتين أو رجال مجتمع من أصحاب الممثلات كانوا يحيون ويتحدثون ويدخنون كما هوشأنهم في المدينة، شاباً بقلنسوة من الخمّل الأسود وتنوّرة بلون الأرطنسيه ووجنتين خططتا بالأحمر كصفحة من دفتر رسوم لـ «واتو»، وكان يبدو، والبسمة في فمه وعيناه عالقتان في السماء وهو يخطّ إشارات حلوة براحتي يديه ويقفز بخفة، كان يبدو وكأنه إلى حدّ بعيد من جنس غير جنس الناس المتعقلين الذين يرتدون السترة وحلة المراسم والذين كان يتابع فيما بينهم كالجنون حلمه المشدوء، ويبدو بعيداً عن مشاغل حياتهم، سابقاً لعادات حضارتهم، محرراً من قوانين الطبيعة حتى ليبدو الأمر مريحاً ندياً كأن ترى فراشة تاهت وسط جمهور، وأن تلاحق بعينيك ما بين الأفاريز الخطوط المتعرجة الطبيعية التي تخطها صنوف لهوها المجنح المتقلب الملون. إلا أنّ «سان لو» تصور في اللحظة نفسها أنّ عشيقته تولي اهتمامها هذا الراقص الذي يعيد للمرّة الأخيرة شكلاً من الملهاة الراقصة التي يزمع الظهور فيها فتجهّم وجهه وقال لها بهيئة عابسة:

- «بوسلك أن تتطلعي إلى جهة أخرى. فإنك تعلمين أن هؤلاء الراقصين لا يساوون الحبل الذي لعلهم يحسنون فعلاً بالصعود عليه كي تقصم ظهورهم، وهم من قوم يمشون فيما بعد متبجحين بأنهم كانوا موضع اهتمامك. وتسمعين على أية حال أنهم يطلبون إليك الذهاب إلى مقصورتك لارتداء ملابسك».

واقترب سادة ثلاثة - ثلاثة صحفيين - وقد رأوا هيئة «سان لو» الحانقة، اقتربوا، وقد انفرجت أساريرهم، ليسمعوا ما كان يقال. ولما كانت تقام مناظر مسرحية من الجهة الأخرى فقد تراصت صفوفنا إليهم.

وصاحت عشيقة «سان لو» وهي تنظر إلى الراقصين: «أوه! ولكنني أتعرفه، إنه صديقي. هاك عملاً متقناً، وتطلع لي إلى هاتين اليدين الصغيرتين اللتين تتراقصان كسائر بقية جسمه!»

وأدار الراقص رأسه نحوها وكان شخصه البشري يبرز خلف جنّي الهواء الذي كان يتدرب على الظهور بمظهره، وارتعش خط هلام عينيه الرمادي والتمتع بين أهدابه المصلبة المطلية وطاولت ابتسامة جانبي فمه في وجهه الملون بالحمرة. ثم أخذ، شأنه شأن مغنية تدمدم لنا تلطفاً للحن الذي قلنا لها إننا اعجبنا بها فيه، أخذ يعيد حركة راحتيه وهو يقلد نفسه بدقة المقلدين ومرح الأطفال.

وصاحت «راجيل» وهي تضرب ما بين يديها: «شيء في منتهى اللطف هذه الفعلة في تقليد المرء ذاته.»

فقال لها «سان لو» بصوت حزين: «رجوتك، يا صغيرتي، لا تجعلي من نفسك فرجة للناس، فإنك تقتلينني؛ أفسدت لو فهمت بكلمة أخرى فلن أرافقك إلى مقصورتك، وأمضي في سبيلي؛ هيا، لا تقسي عليّ». وأضاف، وهو يلتفت إليّ، بذلك العطف الذي كان يديه لي منذ «بالبيك»: «لا تبق هكذا في دخان السيكار فسوف يضرك ذلك.»

- «آه! أية سعادة لو تمضي في سبيلك!»

- «احذرك من أنني لن أعود من بعد.»

- «تخونني الجرأة في توقع ذلك.»

- «اسمعي، تعلمين أنني وعدتك بالعقد إن كنت لطيفة، ولكن بما أنك تعامليني كما تفعلين...»

- «آه! إليك مالا يدهشني منك. لقد سبق أن وعدتني ولعله كان يجدر بي التفكير أنك لن تبرّ بوعدك. تريد أن تعلن على الملأ أنك تملك المال، ولكنني لست نفعية مثلك. أنا لا أبالي بعقدك، ولديّ من سيهيني إياه.»

- «ليس من يستطيع سواي أن يهيك إياه، فقد احتجزته لدى «بوشرون» وقد وعد بألا يبيعه لغيري.»

- «عظيم ما فعلت، لقد أردت أن تهتدديني واتخذت مسبقاً جميع احتياطاتك. هذا بالتمام مايقال: «مارسانت»، «ماتر سيميتا» Mater Semita من هنا تنبعث رائحة العرق، تجيب راحيل قولها مرددة تأثيلاً يركز على خطأ فادح لان Semita^(١) إنما تعني «الدرب» وليس «السامية»، ولكن الوطنيين كانوا ينعنون بها

(١) تظن راحيل أن «سان لو» من والده يهودية، وهو ما تعنيه لفظة «سامي» في اللغة السياسية آنذاك ولا يزال المعنى واردا في لفظة antisémitisme (معاداة السامية).

«سان لو» بسبب آراء معادية لـ «دريفوس» كان يدين بها للممثلة. (وكان أقل من يحق له نعت السيدة «دو مارسانت» باليهودية، وما كان بمقدور علماء الأجناس في المجتمع أن يلقوا من يهوديتها سوى قرباها بأل «لاوي ميربوا»). «ولكن كن على ثقة من أن كل شيء لم ينته. فالوعد المقطوع في مثل هذه الشروط لا قيمة له البتة. لقد تصرفت معي تصرفاً غادراً. وسوف يعلم «بوشرون» بالأمر ويدفع له الضعف ثمناً لعقده. اطمئن، عما قليل يوافقك بأخباري».

كان «روبير» مئة مرة على حق. ولكن الظروف متشابكة أبداً إلى حد أن من كان مئة مرة على حق يمكن أن يكون مرة على ضلال^(١). ولم أفلح في الحؤول دون تذكر تلك الكلمة غير المستحبة والبريئة كل البراءة مع ذلك والتي أطلقها في «بالبيك»: بهذه الطريقة أضمن سيطرتي عليها.

— «لقد أسأت فهم ما قلته لك بشأن العقد. فلم أعدك به وعداً قاطعاً. وبما أنك تفعلين كل ما ينبغي فعله كيما أهجرك فمن الطبيعي ويحك ألا أهلك إياه. ولست أفهم أين ترين الغدر في ذلك ولا كوني نفعياً. لا يمكن أن يقال إنني أذيع على المثلأ مالي فإنني أقول لك على الدوام إنني رجل مسكين لا يملك فلساً واحداً. لست على حق في فهم الأمور على هذا النحو، يا صغيري. فيماذا تراني نفعياً؟ تعلمين حق العلم أن اهتمامي الوحيد إنما هو أنت».

وقالت له بلهجة ساخرة وهي ترسم حركة من يحلق لك ذنك: «أجل، أجل، بوسعك أن تتابع». ثم التفتت إلى الراقص وقالت: «إنه رائع حقاً بيديه؛ ولعلي لا أستطيع، أنا المرأة، أن أفعل ما يفعله هنا». والتفتت إليه وهي تربه ملامح «روبير» المتشنجة وقالت له بصوت خافت في الاندفاع المؤقتة لقسوة سادية لا تتناسب مطلقاً على أي حال ومشاعر الود الحقيقي الذي تكنه لـ «سان لو»: «أنظر، إنه يتألم».

— «اسمعي، للمرة الأخيرة أقسم إنني عبثاً ستسعين ويمكنك أن تبدي بعد ثمانية أيام جميع صنوف الأسف في العالم فلن أعود، لقد طفح الكيل، احذري فالأمر لا رجعة فيه وسوف تندمين عليه ذات يوم ولات ساعة مندم».

ربما كان صادقاً وبدا له عذاب هجر عشيقته أقل قسوة من عذاب البقاء إلى جانبها في شروط معينة.

ثم أضاف قوله وهو يلتفت إلي: «ولكن لا تظلل ههنا يا صغيري، قلت لك، عما قليل تأخذ في السعال».

وأريته المناظر التي كانت تمنعني من التنقل ولبس قبعته لمسة خفيفة وقال للصحفي:

— «ياسيد، هلاً تكرمتم برمي سيكارك فاللدخان يضرب بصديقي».

وكانت عشيقته ماضية، لا تنتظره، إلى مقصورتها، واستدارت وقالت للراقص في أقصى المسرح بصوت

(١) إن اللورد «ديربي» يعترف بنفسه ان انكلترا لا تبدو دوماً وكأنها على حق حيال أيرلندا. (وردت في متن النص)

بادى التصنع في رخامته وبراعة الفتاة الساذجة فيه :

– «تراهما تتصبرّ فان هكذا أيضاً مع النساء هاتان اليدان الصغيرتان؟ إنك تبدو امرأة بدورك، وأظن من الممكن التفاهم معك وواحدة من صديقتي.»

وقال الصحفي: «ليس التدخين ممنوعاً فيما أعلم، وعلى المرء ملازمة بيته إن كان مريضاً.»

وابتسم الراقص للمثلة ابتسامة زاخرة بالأسرار، وصاحت به: «اصمت، فإنك تجنّني، وكأ أكثر ماسنقيم من حفلات!»

وقال «سان لو» للصحفي: «لست لطيفاً جداً على أي حال ياسيد»، قالها لا يبدّل من لهجته المهذبة اللطيفة وبمظهر من وقف على أمر وقام بالحكم على حادثة انتهت حكماً ينطبق على الماضي.

وفي تلك اللحظة رأيت «سان لو» يرفع ذراعه عامودياً فوق رأسه كما لو أنه أشار إلى شخص ما كنت أراه، أو مثل قائد أوركسترا – ودونما تمهيد أكثر ممّا تعقب إيقاعات عنيفة لحناً بطيئاً حلولاً بمجرد حركة قوس – أهوى بيده، بعد الأقوال المهذّبة التي قالها قبل قليل، بصفحة مدوّية على خدّ الصحفي.

أما الآن وقد أعقب أحاديث الديبلوماسيين الموزونة وفنون السلام الضاحكة الاندفاع المجنون إلى الحرب وبما أن الضربات تستدعي الضربات فلعلني ما كنت سأعجب كثيراً لرؤية الخصوم يسبحون في دهمهم. ولكنّ ما كنت لا أستطيع فهمه (كما هي حال الأشخاص الذين يرون من غير المنطقي أن تقع حرب بين بلدين في حين لم يبحث بعد إلا في تعديل للحدود، أو أن توافي النية مريضاً في حين لم يتحدثوا إلا عن تضخّم في الكبد) كيف استطاع «سان لو» أن يتبع تلك الأقوال التي تنم عن بعض ألوان اللطف بحركة لاتنبع البتة منها ولاهي تؤذّن بها، حركة تلك الذراع المرفوعة دون مراعاة لحق الناس، وليس ذلك فحسب بل دون أن تأبه بمبدأ السببية، بنوع من توالد الغضب التلقائي، تلك الحركة الناشئة من لاشيء. ولم يردّ الصحفي لحسن الحظّ وقد فقد توازنه من شدّة اللطمة وامتنع لونه وتردّد لحظة. أما اصداؤه، فقد أشاح أحدهم في الحال بوجهه وهو ينظر باهتمام في جبهه الكواليس إلى شخص لم يكن بالطبع موجوداً فيها، وتظاهر الثاني بأنّ ذرّة غبار دخلت إلى عينه فأخذ يقرص جفنه ويتكشّر ألماً؛ أما الثالث فقد اندفع صائحاً: «يا إلهي، أظنهم يرمعون رفع الستار ولن نحصل على مقاعدنا».

وددت لو أكلّم «سان لو» ولكنما اغتياظه من الراقص كان قد عمر صدره حتى لقد التصق تمام الالتصاق على صفحة الأحداق، وكمثل هيكل داخلي كان يشدّ وجنتيه إلى حدّ لم يعد يملك معه، وقد انقلب اضطرابه الداخلي جموداً خارجياً كاملاً، حتى الارتواء وإمكان التحريك اللازم ليستقبل كلمة منّي ويجب عنها. وإذا رأى أصدقاء الصحفي أن كل شيء قد انتهى فقد عادوا بالقرب منه ولا يزالون يرتجفون. ولكنهم كانوا يحرسون كل الحرس. وقد أحجلهم أنهم تخلوا عنه، أن يظن أنهم لم يلاحظوا شيئاً. ولذلك كانوا يسترسلون في الحديث هذا عن الغبرة في عينه، وذلك عن التخوف الكاذب الذي وقع له إذ تخيل أنّ الستارة ترفع، والثالث عن الشبه الخارق بشقيقه لشخص مرّ ساعتها. بل بلغ بهم الأمر أن أبدوا له شيئاً من

الاستياء أن لم يشاركهم انفعالاتهم.

- «كيف، ألم يدهشك ذلك؟ أفلا ترى الأمور على حقيقتها؟» وغمغم الصحفي المصفوع قائلاً:
«أعني أنكم كلكم جبناء».

وبدا أنهم يناقضون الهمم الذي أخذوا به والذي كان يجدر بهم بموجه- ولكنهم لم يفكروا فيه - أن يظهرها مظهر من لا يفهم ما يقصد إليه فتفوهوا بجملة متعارف عليها في المناسبات: «هذا أنت تثور فلا تغضب بدون سبب، لكننا نجمع بك نفسك!».

لقد أدركت في الصباح أمام أشجار الإحاص المزهرة الهمم الذي كان يستند إليه حب «روبير» لـ «راجيل حينما الرب». وما كنت أقل أدراكاً بالعكس لحقيقة العذاب الناجم عن هذا الحب. وتقلص العذاب الذي كان يكابده منذ ساعة شيئاً فشيئاً دون أن يتوقف وغار في صدره، ولاحت في عينيه منطقة شاغرة مرنة. وغادروا المسرح أنا و«سان لو» وسرنا بادئ الأمر قليلاً. واتفق أن تأخرت لحظة في زاوية من شارع «غابرييل» غالباً ما كنت أبصر «جيلبيرت» تصل منها بالأمس. وحاولت قدر بضع ثوان أن أتذكر تلك الانطباعات البعيدة، كنت أزمع اللحاق بـ «سان لو» بخطأ رياضية حينما أبصرت سيداً رديء الملبس إلى حد ما يبدو وكأنه يحدثه عن قرب. فجزمت أنه صديق شخصي لـ «روبير» ؛ وبدا إذ ذاك أنهما يواليان الاقتراب الواحد من الآخر ؛ وفجأة، ومثلما تبرز في السماء ظاهرة نجمية، رأيت أجساماً بيضوية الشكل تتخذ بسرعة مدوخة جميع المواقع التي تسمح لها بتأليف مجموعة غير ثابتة من النجوم أمام «سان لو» وبدا لي أنها سبعة على الأقل قدفت كأنما بمقلع. بيد أنها لم تكن سوى قبضتي «سان لو» وقد ضاعفت منهما سرعتهما في تبديل موقعهما في تلك المجموعة المثالية والتزيينية في ظاهرها. ولم تكن تلك اللعبة النارية سوى مجموعة لكلمات يوجهها «سان لو» وقد كشف لي في الحال عن طابعها العدواني، بدلاً من الجمالي، مظهر السيد الرديء الملبس وقد بدا أنه يفقد في الوقت نفسه كامل رباطة جاشه وكفاً وكثيراً من الدم. وقد أعطى ايضاحات كاذبة للشخصين الذين اقتربوا لسؤاله وأدار رأسه ولما رأى «سان لو» يتعد نهائياً للحاق بي ظل ينظر إليه بهيئة متمرج فيها الضغينة بالارهاق، ولكنها غير غاضبة البتة. أما «سان لو» فكان غضاباً على العكس مع أنه لم ينل شيئاً وكانت عيناه لا تزالان تسطمان غضباً حينما لحق بي. ولم يكن للحادثة أية صلة بصفحات المسرح كما سبق أن ظننت. لقد كان متنزهاً متقد الحب أبصر العسكري الجميل الذي يمثله «سان لو» فراوده عن نفسه. وكان صديقي لا يزال مندهشاً من جرأة هذه «الطغمة» التي لم تعد تنتظر حتى ظلام الليل لتغامر بنفسها، وكان يتحدث عن العروض التي قدمت إليه بالحقن الذي تتحدث به الصحف عن سرقة بقوة السلاح جرى الإقدام عليها في وضوح النهار في أحد أحياء باريس المركزية. بيد أن السيد الذي ضرب كان يكمن عذره في أن مستويًا مائلاً يقرب بسرعة كافية الرغبة من المتعة كيما يبدو الجمال وحده وكأنه مذ ذاك قبول. ولم يكن موضع جدال أن «سان لو» كان جميلاً. أما اللكمات التي تشبه تلك التي كالهيا «سان لو» منذ قليل فقائدها بالنسبة إلى رجال من نوعية الذي وقف بجانبه منذ قليل أن تحملهم على التفكير جدياً ولكن على مدى من الوقت أقل من أن يستطيعوا معه إصلاح أنفسهم ويحجب العقوبات القضائية. ومع أن «سان لو» كال لكلماته دون تفكير كثير فإن جميع اللكمات التي من هذا القبيل لا تفلح، وإن هي جاءت عوناً للقوانين، في مجانسة الأخلاق.

وقد خلقت هذه الحوادث، ومن بينها دونما شك الحادثة التي كان «روبير» يصرف إليها أكثر تفكيره، لقد خلقت في نفسه الرغبة في شيء من الوحدة: ذلك أنه طلب إليّ بعد فترة أن نفترق وأن أذهب فيما يخصني إلى منزل السيدة «دوفيلباريزيس» وسوف يلتقاني هناك ولكنه يفضل ألا ندخل معاً كي يظهر بمظهر من يصل لتوه إلى باريس بدلاً من أن يبعث على الظن بأنه قد سبق لنا أن أمضينا الواحد مع الآخر قسماً من بعد الظهيرة.

كان ثمة فارق كبير، مثلما سبق أن افترضت قبل التعرف إلى السيدة «دوفيلباريزيس» في «بالبيك»، بين الوسط الذي تعيش فيه ووسط السيدة «دوغيرمانت». فقد كانت السيدة «دوفيلباريزيس» واحدة من تلك النساء اللواتي ولدن في أسرة ذات أمجاد ودخلن بطريق زواجهن في أسرة أخرى لا تنقل عن تلك أمجاداً، ولكنهن لا يتمتعن بمكانة اجتماعية رفيعة، فإنه فيما عدا بعض دوقات هن بنات أشقائهن أو زوجات أسلافهن أو حتى واحداً أو اثنين من سلالات ملكية من معارف الأسرة القديمة، لا يرتاد صالتهن سوى جمهور من الدرجة الثالثة من بورجوازية وأشراف ريفيين أو من أبواب مفاصد أقصى وجودهم منذ زمن بعيد جماعة الأنيقين والمتخلّطين الذين لا تضطّرونهم إلى المجيء واجبات القرى أو الألفة البعيدة العهد. صحيح أنني لم أصادف بعد بضع لحظات أية مشقة في أدراك السبب الذي اتفق من أجله للسيدة «دوفيلباريزيس» في «بالبيك» أن تكون على أتم اطلاع، وأن تفضلنا في ذلك، على أدق تفاصيل الرحلة التي كان يقوم بها والدي آنذاك في إسبانية برفقة السيد «دونوربوا». بيد أنه لم يكن من الممكن على الرغم من ذلك أن تستوقفنا الفكرة التي مفادها أن علاقة السيدة «دوفيلباريزيس» منذ أكثر من عشرين عاماً بالسفير ربما كانت السبب في هبوط مكانة المركيزة في عالم كانت النساء الأكثر شهرة فيه يجاهرن بعشاق أقلّ جدارة بالاحترام من هذا الأخير الذي لم يعد على الأرجح منذ زمن طويل بالنسبة إلى المركيزة سوى صديق قديم. فهل وقع للسيدة «دوفيلباريزيس» في الأمس البعيد مغامرات أخرى؟ أو لم تغلغ، وهي آنذاك من طبيعة أكثر هوى منها الآن في شيخوخة هادئة ورة ربما دانت مع ذلك بشيء من طابعها المميز لتلك السنوات المضطربة المستنفدة، ألم تغلغ في الريف الذي سبق أن قضت فيه زمناً طويلاً في تجنب بعض فضائح مجهولة لدى الأجيال الجديدة التي كانت تشهد أثرها فحسب في التركيب المخلط الفاسد لصالة أهل لتكون، لو لذلك، من أنقاه من كل خليط ضحل؟ «لسان السوء» ذاك الذي كان ابن أخيها يخصها به هل صنع لها في ذلك الزمان أعداء؟ وهل دفعها إلى الإفادة من بعض صنوف التوفيق لدى الرجال كي تمارس صنوف ثأر على النساء؟ كل ذلك ممكناً. وليست الطريقة العذبة الحنون التي كانت السيدة «دوفيلباريزيس» تتحدث بها عن الحياء والطبيعة - والتي لا تضفي ألواناً رقيقة على العبارات فحسب، بل على التبرات كذلك - ما كان يمكن أن يضعف ذاك الافتراض؛ ذلك لأن الذين يحسنون التحدث عن بعض الفضائل، بل حتى الذين يحسون روعتها ويفهمونها على أحسن وجه (والذين يفلحون في مذكراتهم في رسم صورة لائقة عنها) إنما ينتحلون في الغالب من الجيل الصامت الفظ غير المخادع الذي مارسها، بيد أنهم ليسوا بأنفسهم في عداده. إن هذا الجيل ينعكس فيهم ولكنه لا استمرار له فيهم، وإنك واجد بدلاً من الحزم الذي كان بها حساسية وذكاءً لا جدوى منهما في العمل. وسواء أكان أم لم يكن في حياة السيدة «دوفيلباريزيس» من تلك الفضائح التي قد تطمسها شهرة اسمها، فإنما ذلك الذكاء، ويكاد أن يكون ذكاء كاتب من الدرجة الثانية أكثر منه ذكاء امرأة مجتمع، الذي كان بالتأكيد سبب تدني مكانتها في المجتمع.

ليس من شك أن السيدة «دوفيلباريزيس» إنما كانت تشيد على وجه الخصوص بمزايا لاثثير الحماسة إلى حد بعيد كالرزانة والاعتدال. ولكن الاعتدال لا يكفي كيما نتحدث عن الاعتدال بما يطابقه كلياً ولا بد من بعض مزايا لدى الكاتب تفترض حماسة قليلة الاعتدال. كنت لاحظت في «بالبيك» أن عبقرية بعض كبار الفنانين كانت تظل بعيدة عن مدارك السيدة «دوفيلباريزيس» وأنها ما كانت تجيد سوى أن تسخر منهم سخرية رقيقة وتضفي على قصور فهمها شكلاً ذكياً وظريفاً. بيد أن ذاك الذكاء وتلك الظرافة يضحيان بدورهما، بالدرجة التي يبلغانها لديها، -على صعيد آخر وعلى الرغم من استخدامهما لانتقاص قدر أرفع الأعمال الفنية- مزايا فنية حقيقية. والأكد أن مثل هذه المزايا إنما تمارس على أي وضع اجتماعي تأثيراً مرضياً مختاراً، على نحو ما يقول الأطباء. تأثيراً مفككاً، إلى الحد الذي تعسر على أمتها أساساً مقاومتها بضعة أعوام. فما يدعوه الفنانون ذكاءً إنما يبدو إدعاء محضاً في نظر المجتمع الأنيق الذي يعجز عن الانطلاق من وجهة النظر الوحيدة التي يحكمون منها على كل شيء ولا يدرك البتة الجاذب الخاص الذي ينقادون له في اختياريهم ل عبارة أو قيامهم بمقارنة ما فيحسّ بالقرب منهم ببجاء وإزعاج سرعان ما ينجم عنه النفور. مع أن السيدة «دوفيلباريزيس» لم تكن تظهر في حديثها، كما هو الأمر في مذكراتها التي نشرت منذئذ. سوى ضرب من الظرافة الاجتماعية إلى أبعد الحدود. فقد مرت بجانب أمور عظيمة دون أن تتعمق فيها، وبدون أن تميزها أحياناً فلم تستبق من السنوات التي عاشت فيها، والتي كانت تصفها على أية حال بالكثير من الدقة والروعة، سوى ما قدمت من أكثر الأمور طيشاً. على أن المؤلف يظلّ عملاً من أعمال الفكر وإن لم يتناول سوى موضوعات ليست فكرية، ولا يدّ كيما نخلف في كتاب أو في حديث، وهو قليل الاختلاف عنه، الانطباع التام عن الطيش، لا بد من قدر من الرزانة قد يعجز عنه محض الطائش. فهذه الجملة أو تلك التي يستشهدون بها على أنها نموذج الظرافة الرشيدة في بعض المذكرات التي سطرتها امرأة ويعدونها من الروائع قد حملتني أبداً على افتراض أن المؤلفة لا بد امتلكت فيما مضى، كيما تبلغ هذا الحد من الرشاقة، علماً على شيء من التثاقل وثقافة منقرة وأنها كانت على الأرجح تبدو لصديقاتها، ولا تزال فتاة، دعية أدب لانتطاق. وإن الترابط بين بعض المزايا الأدبية والفشل الاجتماعي ترابط لازم حتى لتكفي القارئ، إذ يقرأ اليوم مذكرات السيدة «دوفيلباريزيس»، هذه الصفة الصحيحة وهذه الصور المجازية التي تتلاحق كيما يستعيد بوساطتها التحية العميقة والجافة مع ذلك التي لا بد كانت ترفعها إلى المركزية العجوز على درج إحدى السفارات هذه المتحذلة أو تلك من أمثال السيدة «لوروا» التي ربما كانت تخصصها ببطاقة دعوة، وهي في طريقها إلى منزل آل «غيرمانت»، ولكنها لا تطأ قدماها في يوم صالتها مخافة أن يحط من مكانتها هناك بين مجموعة نساء الأطباء والكتّاب المدل ربما كانت السيدة «دوفيلباريزيس» في أول شبائها دعية أدب وأنها ربما لم تفلح، وقد انتشت إذ ذاك بعلمها، في الامتناع عن إرسال سهام حادة لا ينساها المجروح ضد جماعة من المجتمع أقل ذكاء منها وأقل علماً.

ثم إن المهوبة ليست ملحقة زائداً يضاف على نحو مصطنع إلى تلك المزايا المختلفة التي تضمن النجاح في المجتمع كي تصنع من كل ذلك ما يدعوه رجال المجتمعات الراقية «بالمرأة الكاملة». فهي النتاج الحي لبنية خلقية تفتقر بعامة إلى كثير من المزايا وتسود فيها حساسية يمكن أن يبرز منها إلى حيز الإحساس على نحو ملحوظ خلال الحياة تجليات أخرى لانتبينها في صفحات كتاب، من مثل ضروب من الفضول والنزوات

والرغبة في الذهاب إلى هنا أو هناك سعيًا وراء المتعة الخاصة لابتغية إنما العلاقات الاجتماعية أو صيانتها أو مجرد تسييرها. لقد سبق لي أن رأيت السيدة «دوفيلباريزيس» في «البليك» يحيط بها قومها ولا تلقي نظرة واحدة على الأشخاص الجالسين في بهو الفندق. بيد أنني داخلني حدس بأن ذاك الامتناع لم يكن لامبالاة ويبدو أنها لم تلازمه على الدوام. فقد كان يأخذها شغف بمعرفة هذا الفرد أو ذاك ممن لا يملكون ما يخولهم حقّ الاستقبال في منزلها لأنها وجدته جميلًا أحيانًا، أو لأنه نقل إليها فحسب أنه كان طريفًا، أو لأنه بدا لها مختلفًا عن الأشخاص الذين تعرفهم، وكلهم ينتمي، في تلك الفترة التي لم تكن بعد تقدرهم فيها حقّ قدرهم لأنها تحسب أنهم لن يتخلوا عنها في يوم، إلى الصفوة في حي «سان جيرمان». فهذا البوهيمي، هذا البورجوازي الصغير الذي لفت نظرها أضحت مضطرة أن توجه إليه الدعوات التي لا يستطيع تقدير قيمتها، وذلك بالحاح كان يحطّ شيئًا فشيئًا من قدرها في أعين المتحدلقين الذين تعودوا تقدير المنتديات بعدد من تستبعدهم ربّة البيت أكثر منهم بعدد الذين تستقبلهم. ولئن تلهت السيدة «دوفيلباريزيس» بالتأكيد في فترة معينة من شبابها، وقد أورتها اللامبالاة اعتزازها بالانتماء إلى زهرة الاستقراطيين، لكن تلهت إلى حدّ ما بإثارة استنكار الجماعة التي كانت تعيش بين ظهرانيها وبتخريب مقصود لوضعها الاجتماعي فقد أخذت تولي ذلك الوضع أهمية بعدما أرادت أن تظهر للدوقات أنها تفوقهم إذ تقول وتفعل كلّ ما لا يجرؤ على القيام به. أمّا الآن وقد امتنعت، باستثناء من كنّ من قريباتها، عن المجيء إلى منزلها، فقد أخذت تحسّ بانتقاص مكانتها وتتمنى أن تستمرّ سيادتها ولكن عن غير سبيل العقل. ودّت لو تجتذب إليها جميع اللواتي اهتمت إلى حدّ بعيد بأقصائهنّ. وكم من حياة امرأة، حياة قلما تكشف على أي حال (لأن لكلّ حسب سنه ما يشبه العالم المختلف، ويحول تكتّم الشيوخ دون أن يكون الشبان فكرة عن الماضي ويحيطوا بكامل دورته)، فسمت هكذا فترات متعاكسة صرفت الأخيرة منها كلها في استعادة ما قذفت به الثانية عن طيب خاطر في مهبّ الريح! وبأية طريقة قذفت به في مهبّ الريح؟ إن الشبان أقلّ قدرة على تخيل الأمر بقدر ما تخطر أمام أعينهم مركبة عجوز جلييلة هي المركبة «دوفيلباريزيس» ولا يراودهم أن صاحبة المذكرات الرزينة في يومنا، وهي شديدة الوقار بعجمتها المستعارة البيضاء، استطاعت أن تكون بالأمس جليسة موائد مرحة ربّما أمتعت يومها قلوب رجال يرقدون مذ ذاك في القبر وربما التهمت ثروتهم. وليس يعني كونها سعت أيضًا بجذّ دؤوب وطبيعي إلى تخريب مكانتها التي آلت إليها من كرم محتدها، ليس يعني ذلك مطلقًا أن السيدة «دوفيلباريزيس» لم تعلق أهمية كبيرة على مكانتها حتى في تلك الفترة البعيدة. كذلك يمكن للعزلة والخمول اللذين يعيش فيهما أحد المصابين بالوهن العصبي أن يحاكا على يده من الصباح إلى المساء دون أن يبدو له محتملين من جرّاء ذلك ومن الممكن ألا يحلم إلا بالحفلات الراقصة والصيد والرحلات فيما يسارع إلى إضافة حلقة جديدة إلى الشبكة التي تحتبس. إننا نعمل في كل لحظة على إعطاء حياتنا شكلها، بيد أننا نفعّل بأن ننسخ رغما عنا كما ينسخ الرسم ملامح الشخص الذي نمثله لاذك الذي ربّما سرّنا أن نكونه. كان يمكن أن تعبّر نحيات السيدة «لوروا» المتعالية بطريقة أو بأخرى عن طبيعة السيدة «دوفيلباريزيس» الحقيقة ولكنها لم تكن تستجيب إطلاقًا لرغبتها.

وفي اللحظة التي كانت السيدة «لوروا» تقاطع فيها، حسب تعبير عزيز على قلب السيدة «سوان»، المركبة، كان يمكن لهذه الأخيرة أن تحاول مؤاساة نفسها بتذكّرها أنّ الملكة «ماري أميلي» قالت لها ذات

يوم: «أحبك محبة الابنة». ولكن مثل تلك الألفاظ الملكية الخفية المجهولة لم تكن موجودة إلا بالنسبة إلى المركيزة، وقد كساها الغبار كشهادة فائز قديم بالجائزة الأولى في الكونسرفاتوار. فالامتيازات الاجتماعية الوحيدة هي تلك التي تبدع حياة، تلك التي تستطيع أن تزول دون أن يقع على من أفاد منها أن يسعى إلى الاحتفاظ بها أو فضح سرها لأن مئة غيرها تعقبها في النهار نفسه. ولعل السيدة «دوفيلباريزيس» إذ تذكر أقوالاً للملكة من هذا القبيل، لعلها كانت تبادل بها مع ذلك راضية القدرة الدائمة في تقبل الدعوات التي تحظى بها السيدة «لوروا»، مثلما يؤدّ فنان كبير مغمور في أحد المطاعم، ولم يسطر نبوغه لأفي ملامح وجهه الخجول ولأفي قصة سترته البالية التي بطل زيتها، أن يكون حتى السمسار الشاب الكائن في آخر مراتب المجتمع ولكنه يتناول غداءه إلى مائدة مجاورة برفقة ممثلتين ويهرع نحوه في رحلة مجاملات لاتقطع صاحب المطعم ورئيس الخدم والبرابون وحتى الطهاة الذين يخرجون من المطبخ مواكب لتحيته كما هي الحال في قصص الجنّ فيما يتقدم الساقى، وهو في مثل اغبرار زجاجاته، مقوس الساقين مبهوراً كما لو التوت قدمه قبل أن يخرج إلى النور في طريقه من القبو.

على أنه لا بدّ أن نقول إن غياب السيدة «لوروا» عن صالة السيدة «دوفيلباريزيس» إن هو يغمّ سيدة البيت فقد كان خافياً عن أبصار عدد كبير من مدعوها. لقد كانوا يجهلون كلياً وضع السيدة «لوروا» الخاص الذي يعرفه جماعة المجتمع الراقي فحسب ولا يشكون أن استقبالات السيدة «دوفيلباريزيس» إنما تمثل أكثر الاستقبالات تألقاً في باريس على نحو ما اقتنع به اليوم قراء مذكراتها.

وفي هذه الزيارة الأولى التي قمت بها لدى فراقى «سان لو» للسيدة «دوفيلباريزيس» بناء على النصيحة التي سبق أن زود بها السيد «دو نوربوا» والدي، لقيتها في صالتها الممدودة بالحرير الأصفر الذي تبرز عليه الأرائك والمقاعد الرائعة المكسوة بقماش «بوفيه» بلون وردّي يكاد أن يكون بنفسجياً، لون توت العليق اللين. كنت ترى إلى جانب رسوم آل «غير مانت» وآل «فيلباريزيس» رسوماً أخرى - قدمها النموذج نفسه - للملكة «ماري أميلي» وملكة بلجيكا والأمير «دو جوانفيل» وامباطورة النمسا. كانت السيدة «دوفيلباريزيس» تعتمر قلنسوة من الدانتيل السوداء من الزمن الغابر (كانت تحتفظ بها بغريزة اللون المحلّي أو التاريخي المتيقظ نفسه الذي يديه صاحب فندق بريثاني يظنّ أنّ ثمة مهارة أكبر في حمل خادmates على الاحتفاظ بالعمره والأكمام العريضة مهما أغرق زياته في انتمائهم الباريسي) وتجلس إلى مكتب صغير كان عليه، إلى جانب ريشاتها ومزجة ألوانها ولوحة أزهار مائية باشرتها، ورود راغبة وزينيات وشعور جنّ في أكواب وصحون وفناجين وقد توقفت عن رسمها بسبب ازدحام الزيارات في تلك الفترة فبدت وكأنها تغطي طاولة بائعة زهور في صورة مطبوعة من القرن الثامن عشر. كان في تلك الصالة المدفاة بعض الشيء عن قصد لأنّ المركيزة أصابها رشح لدى عودتها من قصرها، كان بين الحضور ساعة وصولي أمين محفوظات صنف مع السيدة «دوفيلباريزيس» في الصباح الرسائل المسطرة بيد شخصيات بيد شخصيات تاريخية والتي وجهت إليها وكانت معدة لبرازها صور طبق الأصل بمثابة وثائق ثبوتية في المذكرات التي كانت في طور تحريرها، ومؤرخ رسمي السلوك بادي الفرع علم أنّها تملك بطريق الإرث رسماً لدوقة «مونمورانسي» فجاء يستأذنها نسخ هذا الرسم في لوحة من كتابه حول «حركة التمرد»، وقد انضمّ إلى هذين الزائرين رفيقي السابق «بلوك» الذي أصبح الآن مؤلفاً مسرحياً شاباً وكانت تتكل عليه ليزودها دون مقابل بفنانين يمثلون في عشياتها المقبلة. صحيح أن المشاكل

الاجتماعي كان أخذاً في الدوران وأن قضية «دريفوس» ترمع أن تهوي باليهود إلى آخر مرتبة في السلم الاجتماعي. ولكن عبثاً يبلغ الإحصار الدريفورسي أوجه من جهة، فما تبلغ الأمواج أشد غضبها في أول العاصفة. ثم إن السيدة «دوفيلباريزيس» تركت قسماً كاملاً من عائلتها يحمل بعنف على اليهود وظلت هي حتى الآن غريبة كلياً عن المسألة ولا تبالي بها. وإن شاباً مثل «بلوك» لا يعرفه أحد كان يمكن ألا يفتن له أحد فيما أخذ الخطر يحيق مذ ذاك بكبار اليهود الذين يمثلون حزبهم. لقد أصبح له الآن ذقن «تيس» مرقط وأخذ يضع نظارة وسترة رسمية طويلة وقفازاً كأنه لفة من ورق البردي في يده. يستطيع الرومانيون والمصريون والأتراك أن يمدقوا اليهود. ولكن الاختلافات بين تلك الشعوب ليست محسوسة إلى هذا الحد في صالة فرنسية، وإن يهودياً يقوم بالدخول كما لو كان خارجاً من أعماق الصحراء متقوس الجسم كالضبع، يميل بقفا عنقه جانباً وينتشر سيلاً من «السلامات» العريضة ليرضي تمام الرضى نزعة استشرافية. على أنه لابد لذلك ألا ينتمي اليهودي إلى عالم «المتجمع الراقي» وإلا اتخذ بسهولة منظر «لورد» وأضحت تصرفاته مفرسة إلى حد أن أنفاً متمرداً لديه ينمو كالحديد في اتجاهات غير متوقعة إنما يذكر بأنف «ماسكاريني» أكثر منه بأنف سليمان. ولما لم يتم تلين «بلوك» برياضة «الحي» ولا شرف نسبه اختلاط مع انكتره أو إسبانيه فقد ظل هاوي الطابع الأجنبي غريباً يملأ النظرة إليه، على الرغم من بزته الأوروبية، كيهودي من «دوكان» فما أروع قوة العرق الذي يدفع إلى الأمام من أعماق القرون حتى قلب باريس العصرية، في ممرات مسارحنا وخلف كوى مكاتبنا وفي جنازة وفي الشارع كتبية خالصة تضفي أناقة على القبة الحديثة وتمتص السترة الرسمية وتنسبها وتنظمها، وقد ظلت باختصار القول شبيهة تماماً بستر الكتبة الأشوريين الذين تم رسمهم بلباس الاحتفالات على أفريز بناء في «سوسة» أمام أبواب قصر «داريوس». (وكان «بلوك» يزعم بعد ساعة أن يتصور أن السيد «دوشارلوس» إنما يستعلم إن كان يحمل اسماً يهودياً بدافع من مقصد سيئ معاد لليهود في حين كان الأمر مجرد فضول جمالي وتعشق للون المحلي). ولكن التحدث عن استمرار الأجناس إنما يترجم على أي حال ترجمة غير دقيقة الانطباع الذي يخلفه فينا اليهود واليونانيون والفارسيون وسائر تلك الشعوب التي يجدر أن ندع لها تنوعها. إننا نعرف وجه قدماء اليونان بفضل الرسوم القديمة وقد رأينا أشوريين في زخارف أحد قصور «سوسة». بيد أنه يبدو لنا، حينما نلاقي في العالم شرقيين ينتمون إلى هذه الجماعة أوتلك، أننا في حضرة مخلوقات خارقة ربما أظهرتها قوة استحضر الأرواح. ما كنا نعرف سوى صورة سطحية، فإذا هي قد اكتسبت عمقاً، وإذا هي تمتد في الأبعاد الثلاثة وتتحرك. فالسيدة اليونانية الشابة، ابنة صاحب المصرف الثري التي شاعت في هذه الفترة، تبدو وكأنها واحدة من تلك الممثلات الصامتات اللواتي يرمزن في «باليه» تاريخي وجمالي معاً إلى الفن الهليني بلحمه ودمه. على أن الإخراج في المسرح إنما يطبع هذه الصور بالابتدال. أما المشهد الذي يعرضه لأعيننا دخول تركية أو يهودي إلى صالة فإنما يجعل الوجه على العكس أكثر غربة إذ يرفدها بالحياة وكأنما أمر أشخاص تم استذكارهم بجهد وساطة روحية. وإنما الروح (أو بالأحرى النور البشير الذي تؤول إليه الروح حتى الآن على الأقل في ضروب اتخاذ الشكل المادي هذه)، إنما الروح التي لمخناها من قبل في المتاحف وحدها، روح اليونان القدماء وقدماء اليهود التي انتزعت من حياة تافهة وقبلية معاً تنفذ أمامنا هذه الایمائية المحيرة. فما نود عبثاً أن نشده إلينا في السيدة اليونانية الشابة المتهربة إنما هو شكل أعجبنا به بالأمس على جنبات أحد الآنية. وكان يخيل إلي أنني لو أخذت صوراً لـ «بلوك» في ضياء صالة السيدة «دوفيلباريزيس» لنقلت عن إسرائيل تلك الصورة نفسها التي ترينا إياها صور استحضر الأرواح، صورة

مشوشة إلى حد بعيد إذ لا يبدو أنها تصدر عن الإنسانية، مخيبة إلى حد بعيد إذ أنها تشبه الإنسانية مع ذلك إلى أبعد الحدود. حتى تفاهة الأقوال التي يتفوه بها الأشخاص الذين نعيش بينهم إنما تخلف فينا، على نحو أعم، الاحساس بالأمر الخارق في عالمنا المسكين، عالم كل يوم، الذي يتفوه فيه حتى الرجل العبقري الذي ننتظر منه، وقد انتظمتنا من حوله كأنما حول الطاولة الدوارة، سرّ اللانهاية مجرد هذه الكلمات - تلك نفسها التي خرجت منذ قليل من شفتي «بلوك» - «انتبهوا لقبعتي الرسمية».

وكانت السيدة «دوفيلباريزيس» تقول، وتوجه الحديث على نحو أخص إلى رفيقي القديم مستأنفة الحديث الذي قطعه دخولي: «يا إلهي، الوزراء يا سيدي العزيز، الوزراء، ما من أحد كان يودّ لقاءهم. ومهما كنت صغيرة آنذاك فإني لأزال أذكر الملك وهو يرجو جدّي أن يدعو السيد «دوكاز» إلى حفلة راقصة سيراقص فيها والدي الدوقة «دوبيري». قال الملك: «سيرتني ذلك يا فلوريمون». وإذا سمع جدّي، وكان به شيء من الصمم، اسم السيد «دوكاستري»، فقد وجد المطلب طبيعياً تماماً. وحينما أدرك أن الأمر يتعلق بالسيد «دوكاز» ثارت تأثرته لحظة، ثم أذعن وسطر في المساء ذاته كتاباً للسيد «دوكاز» يتوسل إليه فيه أن يتكرم ويشرفه بحضور حفلته الراقصة التي ستجري في الأسبوع التالي. فالتناس كانوا مهذبين في ذلك الزمان ياسيدي، وما كانت ربة بيت لتستطيع الاكتفاء بارسال بطاقتها مضيفة بخطّ يدها: «كوب شاي» أو «حفلة شاي راقصة» أو «شاي وموسيقى». ولكن عرفوا التهذيب إلا أنهم ما كانوا يجهلون الوقاحة. فقد قبل السيد «دوكاز» إلا أنه أذيع عشية الحفلة الراقصة أن جدّي ألغى الاحتفال إذ أحس بتوعك صحته. لقد أطاع الملك ولكنه لم يستقبل السيد «دوكاز» في حفلته الراقصة... أجل ياسيدي إنّي اذكر تماماً السيد «موليه»، كان رجلاً ذكياً وقد أقام البرهان على ذلك حينما استقبل السيد «دوفيني» في المجمع، ولكنه كان مغرمًا بالرسميات ولا زلت أراه ينحدر لتناول العشاء في منزله وقبعته الرسمية في يده.

- «آه! إن ذلك ليوحي تماماً بزمّن شديد الأذى إلى حدّ ما في تفاهته، فقد كانت تلك عادة عامة ولا شك أن يحتفظ المرء بقبعته في يده وهو في منزله»، يقول «بلوك» وقد رغب في الإفادة من هذه القرصة النادرة جدّاً في استطلاع خصائص الحياة الأرستقراطية الغابرة لدى شاهد عيان، فيما يرميها أمين المحفوظات، وهو ما يشبه أمين سرّ متقطع للمركيزة، ينظرات رقيقة ويبدو وكأنه يقول: «هذه حالها، إنما تحيط بكل شيء وتعرف كل الناس، ويمكنكم سؤالها حول ما تريدون، إنها خارقة».

وأجابت السيدة «دوفيلباريزيس» وهي تقرب أكثر منها اناء الزجاج الذي تتدلى منه أزهار «شعور الجن» التي سوف تعاود عمّاً قليل رسمها: «لا، كانت تلك عادة للسيد «موليه» فحسب. فلم أرَ والذي يحتفظ بقبعته في منزله، إلا بالطبع حينما يجيء الملك إذ يغدو سيد البيت محض زائر في صالته الخاصة به إذ الملك في بيته أينما حلّ».

ونجّراً السيد «بيير» مؤرّخ «حركة التمرد» فقال: «لقد قال لنا أرسطو في الفصل الثاني...»، ولكن بلهجة خجولة إلى حدّ أنه لم يسترع انتباه أحد. لقد أصابه منذ بضعة أسابيع تأرق عصبي لم تفلح معه جميع العلاجات فلم ينم من بعد ولا يخرج، وقد أنهكه التعب، إلا حينما تضطرّه أعماله إلى التنقل. ولما كان عاجزاً عن أن يعد مرّات عديدة هذه الرحلات البسيطة جدّاً في نظر غيره ولكنها تكلفه بقدر ما تكلفه لو ينحدر من

القمر للقيام بها، فقد كان يذهل أن يجد في الغالب أن حياة كل واحد لم تكن منظمة تنظيمًا دائمًا كي توفر لاندفاعات حياته المفاجئة أقصى جدواها. فقد كان يجد أحياناً أن مكتبة لم يبادر إلى زيارتها إلا بتصنع الوقوف على قدميه وبسترة رسمية، كأحد رجال «ويلز»، كانت مغلقة. وقد التقى لحسن الحظ بالسيدة «دو فيليباريزيس» في منزلها وسوف يشاهد الرسم.

وقطع «بلوك» عليه كلامه وقال وهو يردّ على ماقالته السيدة «دو فيليباريزيس» بصدد التشريفات التي تحكم الزيارات الملكية: «حقاً، ما كنت أعرف ذلك البتة» (كما لو كان غريباً ألا يعرف ذلك).

وسألت السيدة «دو فيليباريزيس» أمين المحفوظات قائلة: «بمناسبة هذا النوع من الزيارات، هل تعرف المزحة الغبية التي جاءني بها ابن أخي «بازان» صباح البارحة؟ لقد أرسل يقول لي، بدلاً من أن يعلن عن نفسه، إن ملكة السويد تطلب زيارتي».

وصاح «بلوك» مقهقهة: «آه! لقد أرسل يقول ذلك ببرود على هذا النحو! ما أجمل المزاح! فيما كان المؤرخ يتسم بمهابة خجلى».

— «لقد دهشت بعض الشيء لأنني لم أعد من الريف إلا منذ بضعة أيام. وكنت قد طلبت كيما أنعم بالهدوء ألا ينقلوا لأحد أنني في باريس وأتساءل كيف علمت ملكة السويد بالأمر»، وتضيف السيدة «دو فيليباريزيس» قولها: «ولاندع لي في كل الأحوال يومين لأستريح قليلاً»، مخلقة الدهشة في نفوس زوّارها أن لا تكون زيارة ملكة السويد في حد ذاتها أمراً مستغرباً بالنسبة إلى مضيفتهم.

ولئن قلبت السيدة «دو فيليباريزيس» في الصباح وثائق مذكراتها مع أمين المحفوظات فقد كانت تجرّب في هذه اللحظة على غير علم منها آليتها وتأثيرها السحري على جمهور متوسط يمثل الجمهور الذي سيطلع منه ذات يوم قراءها. كان يمكن أن تتميز صالة السيدة «دو فيليباريزيس» عن صالة تتسم بالأناقة الحقّة وتغيب عنها الكثييرات من البورجوازيات اللواتي كانت تستقبلهنّ فيما تتسنى بالمقابل رؤية سيدات لامعات اجتذبتهن السيدة «لوروا» في نهاية المطاف، ولكن هذا الفارق الطفيف لا يتمّ تبينه في مذكراتها حيث تزول بعض العلاقات الضحلة التي اتفقت للمؤلفة لأن الفرصة لا تتاح لها في إيراد ذكرها، في حين لا تغيب عنها زائرات لم يتوافرن لها لأن قليلاً من الأشخاص يمكن أن يمثلوا في المساحة الضيقة بالضرورة التي تقدّمها هذه المذكرات وأن الشعور الأقصى بالأناقة الذي يمكن أن تخلفه مذكرات لدى الجمهور إنّما يتمّ بلوغه إن كان هؤلاء الأشخاص شخصيات أمراء أو شخصيات تاريخية. كانت صالة السيدة «دو فيليباريزيس»، حسبما ترى السيدة «لوروا» صالة من الدرجة الثالثة، وكانت السيدة «دو فيليباريزيس»، ترى السيدة «لوروا». ولكنما لا يعرف أحد اليوم من كانت السيدة «لوروا»، وقد زال ما حكمت به، وإنّما صالة السيدة «دو فيليباريزيس» التي تردّدت عليها ملكة السويد وتردّد عليها دوق «أومال» ودوق «دوبروي» و«تير» و«مونت الامبير» وصاحب السيادة «دو بانلو» هي التي ستعدها الأجيال القادمة إحدى ألمع صالات القرن التاسع عشر، تلك الأجيال التي لم تتغير منذ زمان «هوميروس»، و«بنداريس» والتي يشكل المنبت الرفيع المرتبة المشتهاة بالنسبة إليها، المنبت الملكي أو شبه الملكي وصداقة الملوك ورؤساء الشعوب ومشاهير الرجال.

كانت السيدة «دو فيلباريزيس» تملك شيئاً من كل ذلك في صالتها الحالية وفي الذكريات التي عدلت أحياناً تعديلًا خفيفاً والتي كانت تمُدُّ بوساطتها تلك الصالة في الماضي. ثم إنَّ السيد «دو نوربوا» الذي لم يكن قادراً أن يعيد لصديقه مكانة حقيقية كان يجيئها عوضاً عن ذلك برجال الدولة الأجانب أو الفرنسيين الذين كانوا بحاجة إليه ويعلمون أن الطريقة الوحيدة الفعالة التي يتودّدون بها إليه هي التردّد على منزل السيدة «دو فيلباريزيس». ربما كانت السيدة «لوروا» تعرف بدورها تلك الشخصيات الأوروبية البارزة، ولكنها كانت تتحاشى، بوصفها امرأة ظريفة تتجنّب لهجة دعيّات الأدب، التحدّث عن المسألة الشرقية إلى رؤساء الوزراء بقدر ما تتحاشى التحدّث عن ماهية الحبّ إلى الروائيين والفلاسفة. لقد أجابت ذات مرّة سيدة مدّعية سألتها: «مارأيك في الحبّ؟» أجابت قائلة: «الحبّ؟ الحبّ، إني أنعاه كثيرًا ولكني لا أتحدّث عنه البتّة». وحينما كانت تجتمع في بيتها أساطين الأدب والسياسة كانت تكتفي، شأن دوقة «غير مانت»، بحملهم على لعب «البوكر». وغالباً ما كانوا يفضلون ذلك على الأحاديث العريضة حول الأفكار العامة التي تضطّرهم إليها السيدة «دو فيلباريزيس». بيد أن تلك الأحاديث التي ربّما بدت سخيفة في المجتمع قد زوّدت ذكريات السيدة «دو فيلباريزيس» بتلك المقطوعات الممتازة، بتلك الأبحاث السياسية التي تستساغ في المذكرات كما هي الحال في المسرحيات التي من طراز مسرحيات «كورني». وصالات مثيلات السيدة «دو فيلباريزيس» وحدها تنتقل إلى الخلف لأنّ مثيلات السيدة «لوروا» لا يحسنّ الكتابة، وإن هنّ أحسنّها، لم يجدن متسعاً من الوقت. ولئن كانت ميول مثيلات السيدة «دو فيلباريزيس» الأدبية سبب ازدياد مثيلات السيدة «لوروا»، فإن ازدياد مثيلات السيدة «لوروا» يخدم بدوره على نحو عجيب ميول مثيلات السيدة «دو فيلباريزيس» الأدبية إذ يوفرّ لدعيّات الأدب من السيدات الوقت الذي تقتضيه مهنة الأدب. والله الذي يريد أن يكون ثمة بضعة كتب جيدة الصنعة إنّما ينفخ في سبيل ذلك في قلوب مثيلات السيدة «لوروا» أنواع الازدياد تلك، لأنّه يعلم أنّهنّ إن دعون مثيلات السيدة «دو فيلباريزيس» إلى العشاء فسوف تهجر هؤلاء محابرهنّ في الحال ويأمرن بأنّ تسرح الخيول للثامنة.

وبعد حين دخلت سيّدة عجوز مديدة القامة بخطى وثيدة وزينة وكانت تبرز تحت قبعتها المرفوعة التي من قش شعراً أبيض هائلاً صفف على طريقة «ماري انطوانيت». وما كنت أعلم آنذاك أنّها واحدة من النسوة الثلاث اللواتي كان لا يزال بالإمكان ملاحظتهنّ في المجتمع الباريسي وقد اضطرون، شأن السيدة «دو فيلباريزيس»، ومع أنّهنّ كريعات المحتد، ألاّ يستقبلن، لأسباب تغوص في ظلمة الأزمان، ولعلّ عجوزاً أنيقاً من تلك الحقبة كان وحده يستطيع أن ينبئنا عنها، سوى حثالة من الناس لا يرغبون فيها في مكان آخر. كان لكلّ من تلك السيدات دوقة «غير مانت» تخصها، ابنة شقيق لها لامعة تحيى إليها للوفاء بواجباتها ولكنما لا تستطيع أن تجتذب إلى منزلها دوقة «غير مانت» الخاصة بواحدة من الآخرين. كانت السيدة «دو فيلباريزيس» على علاقة وثيقة بأولئك السيدات الثلاث ولكنها لا تحبهن. وربّما كان وضعهنّ الشبيه إلى حدّ ما بوضعها يزوّدها بصورة عنهنّ لا تروقها. ثمّ إنهنّ كانت تقوم بينهنّ، هنّ الساخطات دعيّات الأدب اللواتي يحاولن أن يتوافرن لهنّ وهم صالة من جرّاء عدد المشاهد الصغيرة التي يعملن على تمثيلها، كانت تقوم بينهنّ متنافسات تحوّلها ثروة مهلهلة بعض الشيء، في غضنّون حياة قليلة الهدوء تضطّرهن إلى الحساب وإلى الإفادة من معونة مجانية يقدمها فنّان، تحوّلها إلى ضرب من النضال في سبيل الحياة. أضف إلى ذلك أنّ السيدة ذات الشعور المصطفة

على طريقة «ماري انطوانيت» لم تكن تستطيع في كل مرة تبصر فيها السيدة «دو فيلباريزيس» الحؤول دون التفكير بأن دوق «غيرمانت» لم تكن تذهب إلى استقبالها في أيام الجمعة. وكان عراؤها أن الأميرة «دوبوا» لا تفوت البتة أيام الجمعة تلك بوصفها قريبة مثالية، وكانت حصتها من آل «غيرمانت» ولا تذهب البتة إلى منزل السيدة «دو فيلباريزيس» مع أن السيدة «دوبوا» صديقة حميمة للدوقة.

بيد أن رباطاً قوياً ومقيماً معاً كان يوحد بين الالهات الثلاث المخلوقات من فندق رصيف «مالاكيه» إلى صالات شارع «تورنون» وشارع «لاشيز» وحي «سانتووريه»، تلك الالهات اللواتي وددت لو أعلم، بتقليب أحد معاجم المجتمع الاساطيرية، أي مغامرة غرامية وأي انتهاك وقح للمقدسات قد آل بهن إلى العقاب. وربما ألف المثلث الرفيع نفسه والانهيار الحالي نفسه الكثير من الضرورة التي كانت تدفعهن إلى التزاور والتباغض في آن واحد. ثم إن كل واحد منهن كانت تجد في الآخرين وسيلة سهلة لمجاملة زائريها. إذ كيف لا يحسب هؤلاء أنهم يدخلون إلى أكثر الأحياء انغلاقاً حينما يجري تعريفهم بسيدة رفيعة الألقاب تزوجت شقيقتهما أمثال دوق «ساغان» أو أمير «لينيني»؟ ولا سيما أنهم كانوا يتحدثون في الصحف عن هذه الصالات المزعومة أكثر مما يفعلون عن الحقيقة بكثير. حتى أبناء الأثرياء من النخبة (وعلى رأسهم «سان لو») كانوا يقولون لرفيق يسألهم أن يصحبوه إلى المجتمع: «أصبحك إلى منزل عمتي «فيلباريزيس» أو إلى منزل عمتي س... إنها صالة جديرة بالاهتمام». كانوا يعلمون على وجه الخصوص أن ذلك سوف يكلفهم عناء أقل من إدخال الأصدقاء المذكورين إلى منازل بنات شقيقات تلك السيدات أو زوجات أشقاء أقيقات لهن. لقد قال لي الرجال الطاعنون في السن والنساء الشابات اللواتي علمن ذلك منهم إنه إن لم يتم استقبال تلك السيدات الطاعنات في السن فبسبب الانحراف غير المألوف في سلوكهن، ذاك الانحراف الذي تم تصويره لي، عندما احتججت بأنه لا يشكل عائقاً أمام الأناقة، على أنه قد تجاوز جميع الحدود المعروفة في يومنا. كان سوء سيرة تلك السيدات المهيئات اللواتي يجلسن منتصبات القامة يتخذ على لسان الذين يتحدثون عنهن شيئاً لا أستطيع تخيله يتناسب وضخامة حقب ما قبل التاريخ وعصر الماموث. كانت الهات الجسيم الثلاث تلك ذوات الشعور البيضاء أو الزرقاء أو الوردية قد دفعن إلى التهلكة عدداً لا يحصى من الرجال. وكنت أحسب أن الناس في يومنا يضحون عيوب تلك الأزمنة الخيالية، شأن الغريق الذين ألقوا «ايكاروس» و«ثيسوس» و«هيركوليس» من رجال كانوا قليلي الاختلاف عن أولئك الذين أخذوا يؤلّهونهم بعد ذلك بزمان طويل. على أنهم لا يقومون بجمع عيوب امرئ إلا حينما لا يستطيع ممارستها من بعد، وحينما يقيسون حجم الجرم الذي اقترف بحجم العقاب الاجتماعي الذي يأخذ طريقه إلى التنفيذ والذي يلاحظونه وحدهم، فيتخلون به ويضحون به. وفي مجموعة هذه الوجوه الرمزية التي يؤلفها المجتمع الراقي تظهر النساء الطائشات الحقيقيات، والمتحولات تماماً، يظهرن أبداً بالمظهر المهيّب الذي لسيدة بلغت السبعين على الأقل، متعالية تستقبل قدماً تستطيع، ولكنها لا تستقبل من تريد، ولا ترضى بالذهاب إلى بيتها النسائي اللواتي يؤخذ على سلوكهن بعض ما يعيب، وبمنحها البابا على الدوام «ورده الذهبية». وقد سطرت أحياناً حول شباب «لامارتين» كتاباً حاز جائزة المجمع الفرنسي وقالت السيدة «دو فيلباريزيس» للسيدة ذات التبريدة البيضاء التي من طراز «ماري انطوانيت»: «صباح الخير يا «أليكس»، وكانت السيدة المذكورة تلقي نظرة حادة على الحفل كيما تكتشف إن لم يكن في هذه الصالة قطعة يمكن أن تكون ذات فائدة بالنسبة إلى صالونها وينبغي لها في هذه الحالة أن تكتشفها بنفسها لأن السيدة «دو فيلباريزيس»، لا شك لديها، سوف تكون على قدر كافٍ من الخبث كي تحاول إخفاء الأمر عنها. من

ذلك مثلاً أن السيدة «دو فيلباريزيس» اهتمت كثيراً بالألوان تقدم «بلوك» للسيدة العجوز مخافة أن يعمل على تمثيل المشهد نفسه الذي مثله لديها في فندق رصيف «مالاكيه». كان ذلك على أي حال محض ثأر. ذلك أن السيدة العجوز استضافت عشية البارحة السيدة «ريستوري» التي ألقت أشعاراً وحرصت أن يتجهل السيدة «دو فيلباريزيس» التي سرقت الفنانة الإيطالية منها الحدث قبل انجازه. وكى لاتعرفها هذه الأخيرة عن طريق الصحف فيجرح شعورها، جاءت ترويحاً لها وكأنما لا تحس أنها مذنبه. ولما حكمت السيدة «دو فيلباريزيس» أن التعريف بي لا يحمل المحاذير نفسها التي يحملها التعريف بـ «بلوك» فقد ذكرت اسمي لـ «ماري انطوانيت» الرصيف. وإذا حاولت هذه الأخيرة. بالقيام بأقل حركة ممكنة، أن تحافظ في شيخوختها على قد الهة من أعمال «كوازيفوكس» سبق أن فتن منذ سنوات عديدة الشباب الأنيق وقد أشاد به الآن أدباء مزيفون في أبيات قليلة - وإذا اتخذت على أي حال عادة الجفاء المتعالية التعويضية التي يشارك فيها جميع الذين يضطربهم فقدان حظوة خاص إلى محاولات تقرب دائمة - أحنت رأسها قليلاً بجلال لا حياة فيه والتفتت إلى جانب آخر ولم تهتم بي من بعد وكأنني لم أكن موجوداً. وكان يبدو أن تصرفها المزودج للغاية يقول للسيدة «دو فيلباريزيس»: «ترين أني لست بحاجة إلى معارف وأن الشباب - ولست أسىء إليهم على الإطلاق - لا يثيرون اهتمامي». ولكنها حين خرجت بعد ربع ساعة أفادت من الضوضاء وهمست في أذني بأن آتي نهار الجمعة التالي إلى مقصورتها بصحبة واحدة من الثلاث فائز في اسمها اللامع تأثيراً عظيماً - وكان اسمها «شوازل» قبل الزواج.

- «اعتقد ياسيد أنك تبغي تسطير شيء ماحول السيدة دوقه «موتمورانسي»، تقول السيدة «دو فيلباريزيس» لمؤرخ «حركة التمرّد»، بذلك المظهر المتجهّم الذي يتغضن به على غير علم منها لطفها العظيم من جراء انكماش الشيخوخة العابس وامتاعها الفيزيولوجي، ومن جراء تصنع محاكاة اللهجة الفلاحية تقريباً التي تتخذها الارستقراطية القديمة. «سأريك رسمها وهو أصل النسخة الموجودة في متحف اللوفر».

ولنهضت وهي تضع ريشتها قرب أزهارها فزاد الإزار الصغير الذي بدا آنذاك حول خصرها والذي كانت ترتديه كي لا تتسخ بألوانها، زاد من انطباع المرأة الريفية تقريباً الذي تخلفه قبعها ونظاراتها السميكتان وجاء يناقض بذخ حاشيتها من الخدم، كرئيس الخدم الذي حمل الشاي والحلويات والخدام ذي اللباس الخاص الذي قرعت له الجرس ليضفي رسم دوقه «موتمورانسي»، وكانت رئيسة في أحد أكثر مجالس الشرق الدينية شهرة. كان الجميع قد نهضوا وقوفاً، فقالت: «المضحك إلى حد ما أن بنات ملك فرنسه ماكنّ ليقبلن في تلك المجالس التي كانت كثيراً ما تديرها شقيقات جداتنا. فقد كانت تلك المجالس مغلقة تماماً». وسأل «بلوك» ذاهلاً: «بنات الملك، ولا يقبلن، ولأي سبب؟» - «ذلك لأنّ آل فرنسه» لم يظلّ لهم مايكفي من أفخاذ شريفة منذ أن قبلوا يزيجات من مستويات دنيا. وكانت دهشة «بلوك» آخذة في التعاطف: «زيجات من مستويات دنيا في آل فرنسه؟ كيف ذلك؟».

وأجابت السيدة «دو فيلباريزيس» بلهجة طبيعية كأكثر ما تكون: «بزواجهم من آل «ميديتشي» ويحك! إنّ الرسم جميل، ألا ترى ذلك؟» وأضافت قولها: «وفي أحسن حالة».

وقالت السيدة التي صففت شعرها على طريقة «ماري انطوانيت»: «تذكرين يا صديقتي العزيزة أن «ليست». حينما صبحته إلى منزلك، قال لك إنّ هذا هو النسخة».

-«إني أنحنى أمام رأي يديه «ليست» في الموسيقى لاني الرسم كان قد دبّ فيه الخرف على كل حال، ولست أذكر أنه قال ذلك في يوم. ولست أنت من صحبته إليّ، فقد سبق أن تعشيت عشرين مرّة برفقته في منزل أميرة «سينفيتغنشتاين».

لقد طاشت رمية «أليكس» فصمتت وظلت واقفة لاتبدي حراكاً. وقد بدا وجهها، وتكسوه طبقات من البودرة، كأنه من حجر. وبما أن صورتها الجانبية كانت نبيلة الخطوط فقد بدت، فوق ركيزة مثلثة تكسوها الطحالب ويخفيها الإزار، كأنما إلهة يتفتت تماثيلها في حديقة.

وقال المؤرخ: «هوذا رسم آخر جميل أيضاً».

وانفتح الباب ودخلت دوقة «غيرمانت» فقالت لها السيدة «دو فيلباريزيس» دون أية إيماء برأسها، وهي تخرج من جيب إزارها يدا مدّتها إلى الوافدة الجديدة: «مرحبى، يالك». وتوقفت في الحال عن الاهتمام بها لتلفت إلى المؤرخ قائلة: «إنه رسم دوقة «لاروشفوكو»...

ودخل خادم شاب جريء المظهر فاتن الحياء (ولكنما تمّ حكه إلى أبعد الحدود كيما يظلّ كاملاً إلى حدّ أن الأنف كان به شيء من الاحمرار والجلد تخريش خفيف كما لو يحتفظان بأثر من الشقّ والنحت الحديث العهد) يحمل بطاقة على صينية.

- «إنه ذاك السيد الذي سبق أن جاء عدّة مرات للقاء سيدتي المرموقة».

- «وهل قلت له إني استقبل؟»

-«لقد سمع الناس يتحدثون».

- «فليكن إذن! أدخله»، وأضافت السيدة «دو فيلباريزيس»: «إنه شخص عرّفه بي. لقد قال إنه يرغب كثيراً أن يتمّ استقباله هناء، ولم أصرّح له قطّ بالمجيء. ولكن هذه خمس مرّات يكلف نفسه عناء المجيء وينبغي ألاّ يخرج شعور الناس». ثم قالت لي: «ياسيد، وأنت ياسيد». تضيف قولها وهي تشير إلى مؤرخ حركة التمرد. «أقدم لكما ابنة أخي دوقة «غيرمانت».

وانحنى المؤرخ انحناء عميقة، وهكذا فعلت، وإذا خُيّل له أن لا يدّ من ملاحظة ودّية تعقب هذه التحية فقد تألّقت عيناه وكان يزعم أن يفتح فاه حينما برّد من عزيمته مظهر السيدة «دو غيرمانت» التي استغلت استقلال جذعها كي تقذف به إلى الأمام بتهديب مبالغ فيه وتردّه بحركة صحيحة دون أن يبدو أن وجهها ونظرتها قد لاحظا أن ثمة شخصاً أمامهما. واكتفت بعدما زفرت زفرة خفيفة بابرار انتفاء الانطباع الذي تخلفه لديها رؤية المؤرخ ورؤيتي وذلك إذ قامت ببعض حركات في فتحتي أنفها بدقة تشهد بالجمود المطلق في انتباهها المعطل.

ودخل الزائر الثقيل الظلّ يسير رأساً باتجاه السيدة «دو فيلباريزيس» بهيئة ساذجة متحمسة، فإذا هو «لو غراندان».

وقال: «أشكرك كثيرا لأنك تستقبليني ياسيديتي»، قال وهو يلح على كلمة: كثيرا، وإنها لمتعة نادرة تماماً ورقيقة توفرنيها لتوحد عجز، وإني أؤكد لك أن صداها...»

وتوقف تماماً إذ أبصرني.

- كنت أري السيد رسم دوق «لاروشفوكو» الجميل، وهي زوجة مؤلف «الحكم»، لقد خلفته لي أسرتي.

أما السيدة «دوغيرمان» فقد حيت «أليكس» وهي تعتذر أن لم تستطع المبادرة إلى زيارتها في هذه السنة شأنها في السنوات الأخرى. وأضافت تقول: «لقد نقلت لي «مادلين» أخبارك».

وقالت مركيزة رصيف «مالاكيه»: لقد تناولت طعام الغداء عندي هذا الصباح، قالت باعتزاز من يفكر أن السيدة «دوفيلباريزيس» لن يسعها أن تقول البتة مثل هذا القول.

كنت في تلك الأثناء اتحدت إلى «بلوك» فقلت له، وقد خشيت أن يحسدني حياتي بالاستناد إلى ما نقل إلي عن تبدل والده إزاءه، أن حياته لابد أوفر سعادة. كانت تلك الكلمات الصادرة عني محض أثر من آثار التلطف. ولكنه يقنع بيسر أولئك الذين يحسون بالكثير من الاعتزاز بالذات أن حظهم سعيد ويتم بعث الرغبة لديهم في إقناع الآخرين بذلك. فقد قال لي «بلوك» بمظهر السعادة: «أجل، إني أعيش حياة حلوة. لدي ثلاثة أصدقاء ولست أبغي الزيادة، وعشيقه رائعة، إني سعيد إلى أبعد الحدود. وما أندر الفنانين الذين يمنحهم «زوس» الآب هذا المقدار من صنوف السعادة». وأحسب أنه كان يحاول على وجه الخصوص أن يمتدح نفسه ويثير غيرتي. وربما كان في تفاؤله كذلك شيء من رغبة التفرد. لقد بدا للعيان أنه ما كان يرغب أن يجيب بالتفاهات ذاتها التي يجيب بها كل الناس: «أوه! شيء لا يذكر، الخ...» حينما أجابني على سؤالي الذي طرحته بشأن حفلة راقصة أقيمت بعد الظهر في منزله ولم أستطع الذهاب إليها: «هل كانت حلوة؟»، أجابني بلهجة متساوية لا مبالية كما لو تعلق الأمر بسواه: بالطبع كانت حلوة جداً وبلغت أقصى درجات النجاح. كانت حقاً ساحرة».

وقال «لوغراندان» للسيدة «دوفيلباريزيس»: «مانطلعيننا» عليه ههنا يهمني إلى مالا حدود، فقد كنت بالضبط أقول في نفسي البارحة أنك تدينين له بالكثير في صفاء العبارة وخفتها وفي ماسوف أدعوه بعبارتين متناقضتين السرعة المقتضبة واللحظة الخالدة. وددت في هذا المساء لو أدون جميع الأشياء التي قلتها، ولكنني سوف أحفظها، فإنها صديقة الذاكرة، حسب كلمة هي فيما أعتمد لـ «جوير». ألم تقرئي قط «جوير»؟ آه! كم كنت تروقيته! سوف أسمح لنفسني منذ هذا المساء بارسال مؤلفاته كاملة إليك وكلني اعتزاز بأن أعرفك بذلك. لم يكن يتمتع بقوتك، ولكنه كان يملك الظفر أيضاً».

لقد أردت أن أبادر في الحال لتحية «لوغراندان» ولكنه كان يقف باستمرار أبعد ما يمكنه الوقوف عني آملاً دونما شك ألا أسمع صنوف الإطراء التي ما كان يكف عن إغداقها في كل لحظة على السيدة «دوفيلباريزيس» بالكثير من أنيق العبارة.

وارتفعت بمنكبها مبتسمة كأنما كان ينبغي أن يسخر منها والتفتت إلى المؤرخ.

— «أما هذه فهي «ماري روهان» الشهيرة، دوقة «شفروز» التي سبق أن عقدت زواجها الأول على السيد «دو لوين».

— «تذكرني السيدة «دو لوين»، يا عزيزتي، بـ«يولاند». لقد جاءت البارحة إلى منزلي، ولو علمت أن أمسيك لم تكن موقوفة لأحد لأرسلت في طلبك. لقد أنشدت السيدة «ريستوري»، التي جاءت على غير انتظار، أبياتا للملكة «كارمن سيلفا» أمام المؤلف، وما أجمل ما كان ذلك!»

وفكرت السيدة «دو فيلباريزيس» قائلة: «يالها من خيانة! لقد كانت بالتأكيد تتحدث عن ذلك بصوت منخفض إلى السيدة «دوبولانكور» والسيدة «دو شابرونيه» في ذلك اليوم».

ثم أجابت: «كنت غير مرتبطة، ولكنني ما كنت لأجيء. لقد سمعت السيدة «ريستوري» في أيام العز. وهي الآن فريسة الهرم. ثم إنني أمقت أشعار «كارمن سيلفا» لقد جاءت السيدة «ريستوري» إلى هنا ذات مرة تصطبجها دوقة «أووست» لالقاء نشيد من جحيم «دانتة». إنها ههنا لاجتارى».

واحتملت «أليكس» الضربة دون أن تضعف، فقد ظلت في جمود المرمز. كانت نظرتها ناقبة وخالية وأنفها مقوساً نبيل القوس. ولكن أحد خديها كان يتقشر، وكانت تجتاح ذقنها نباتات خفيفة غريبة خضراء ووردية. وربما أودى بها شتاء آخر.

وقالت السيدة «دو فيلباريزيس» لـ «لوغراندان» كيما تقطع دابر المديح الذي كان يعاود الكرة: «هاك إن كنت تحب الرسم الزيتي ياسيد، انظر إلى رسم السيدة «دو مونمورانس».

واستغلت السيدة «دو غيرمانت» أنه ابتعد فدلّت عمتّها عليه بنظرة ساخرة مستفهمة.

فقالت السيدة «دو فيلباريزيس» بصوت خافت: «إنه السيد «لوغراندان» وإنّ له شقيقة تدعى السيدة «دو كامبرير»، الأمر الذي لا يعني بالتأكيد بالنسبة إليك أكثر مما يعني لي».

وصاحت السيدة «دو غيرمانت» وهي تضع يدها أمام فمها: «كيف ذلك، إنني أعرفها تمام المعرفة. أو أنا لا أعرفها بالأحرى، ولكنني لا أدري ما الذي حلّ بـ«بازان» الذي يلتقي الزوج حيث الله يعلم كي يقول لهذه المرأة الضخمة بأن تجيء لزيارتي. ولا أستطيع أن أقول لك ما كانت عليه زيارتها. لقد روت لي أنها ذهبت إلى لندن وعدّدت لي جميع لوحات المتحف الانكليزي. وسأبادر لدى خروجي من منزلك، وعلى نحو ماترينني، إلى وضع بطاقة دعوة لدى هذا الوحش. ولا تظني أن الأمر من أوفرها سهولة، فهي على الدوام في منزلها بحجة أنها على شفا أن تموت وسواء أذهب المرء إلى هناك في الساعة مساء أم في التاسعة فإنها على استعداد لتقدم لك فطائر بتوت الأرض. عجباً لك، إنها وحش بالتأكيد»، تقول السيدة «دو غيرمانت» إزاء نظرة متسائلة من عمتها. «فهي امرأة لاتطاق: إنها تقول «رياشي» أو ما كان على هذا النحو». سألت السيدة «دو فيلباريزيس» ابنة شقيقها قائلة: «وما الذي تعنيه لفظة «رياشي»؟ فتصرخ الدوقة بحق متصنع: «ولكنني لا أدري

عن ذلك، ولا أريد أن أعرف، فأني لا أحدث هذه الفرنسية. ولما رأيت أن عمتها لم تكن تعرف حق المعرفة ما تعنيه «رياشي»، وكى يداخلها الرضى في إبراز أنها عالمة بقدر ماهي أمينة على نقاء اللغة وكى تسخر من عمتها بعدما سخرت من السيدة «دو كامبرير» قالت في نصف ضحكة تكتمها بقايا الغيظ المتكلف: «بلى، كل الناس يعرفون ذلك، «الرياشي» هو الكاتب، إنه الشخص الذي يحمل ريشة. ولكنها لفظة بشعة من بشاعة توازي تقليع أضراس العقل. ليس من يستطيع البتة أن يحملني على قول ذلك... إنه الأخ، يا عجبى! لم أدرك بعد. ولكن الأمر بالحقيقة لا يتعذر إدراكه. فإن لها الاتضاع الخانع نفسه وتشعب المعارف نفسه. وهي في مثل تملقه وإزعاجه. لقد بدأت أعود إلى حد ما فكرة تلك القرابة.»

وقالت السيدة «دو فيلباريزيس» للسيدة «دو غيرمانت»: «اجلسي، سنتناول قليلاً من الشاي، قومي بذلك بنفسك، أنتِ لاحاجة بك أن تشاهدي رسوم جذات جدّك، فأنك تعرفينهنّ بقدر ما أعرفهنّ.»

وعادت السيدة «دو فيلباريزيس» بعد قليل لتجلس وشرعت ترسم. واقترب الجميع فاغتنمتمها فرصة للذهاب إلى «لوغرانندان» ولما لم أجد ذنباً في وجوده في منزل السيدة «دو فيلباريزيس» قلت له دون أن يخطر لي إلى أي حد كنت أزعج شعوره وأحمله على الاعتقاد بنية جرح شعوره: «قل لي ياسيدي، أكاد أكون معذوراً لوجودي في إحدى الصالات بما أنني أجذك فيها.» واستخلص السيد «لوغرانندان» من تلك الأقوال أنني كائن صغير شرير في الأساس ولا يروقه إلا الشر (كان ذلك على الأقل هو الحكم الذي أصدره عليّ بعد بضعة أيام).

فأجابني: «بإمكانك» أن تتلطف فتبدأ بالقاء التحية عليّ أولاً، دون أن يأخذ يدي وبصوت حائق مبتذل ما كان يخطر ببالي ولم يكن ذا صلة منطقية بما يقوله عادة وإنما يملك صلة أشد مباشرة واسترعاء للانتباه بما كان يحس به. ذلك أننا لما كنّا عازمين أن نخفي أبدأ ما نحس به فإننا لم نفكر قط في الطريقة التي قد نعبر بها عنه. فإذا في داخلنا فجأة حيوان نجس مجهول يسمعننا صوته ويمكن لنبرته أحياناً أن تبلغ حد إشاعة خوف في نفس من يسمع ذلك الكشف اللا مقصود المضر الذي يكاد لا يقاوم عن قصورك أو عيبك يعادل ما يفعله الإقرار المفاجئ الذي ينطق به على نحو غير مباشر وغريب مجرم لا يستطيع الحؤول دون اعترافه بقتل ما كنت تعلم أنه اقترفه. كنت أعلم بالتأكيد أن المثالية، حتى الذاتية منها، لا تحوّل دون أن يظلّ فلاسفة كبار نهمين أو أن يتقدموا بإصرار لعضوية الجمع. ولكن «لوغرانندان» لم تكن به بالحقيقة حاجة إلى التذكير إلى هذا الحد بأنّه من كوكب آخر في حين كانت الرغبة في بلوغ مركز جيد على هذا الكوكب تحكم جميع حركات الغضب أو اللطافة المتشنجة لديه.

ثم تابع بصوت خافت: «بالطبع، حينما تتم مضايقتي عشرين مرة على التوالي لحلمي على الجيء إلى مكان ما فليس يسعني، مع أن لي الحق في حريتي، أن أنصرف تصرف الأجلاف.»

كانت السيدة «دو غيرمانت» قد جلست، ولما كان اسمها مرفقاً بلقبها فقد كان يضيف إلى شخصيتها المادية اقطاعها الدوقية التي كانت ترسم من حولها وتبسط الظلال الندية المذهبة لأحراج «غيرمانت» في وسط الصالة ومن حول المقعد الجلدي الذي تجلس عليه. كنت أحسني دهشاً فقط ألا يكون الشبه بينهما

أكثر وضوحاً على وجه الدوقة الذي لم يكن به شيء من النبات والذي كانت بقع حمرة الوجنتين فيه - وكان ينبغي فيما يبدو أن يحمل اسم آل «غيرمانت» - نتيجة لجولات طويلة على ظهور الخيل في الهواء الطلق، وليس صورة لها. وقد عرفت بعد ذلك، حين أضحت الدوقة لا تثير اهتمامي، الكثير من الميزات الخاصة ولا سيما عينيها (كما أكتفي بما كنت واقعاً مذ ذاك أسير سحره دون أن يمكنني تمييزه) حيث تحتجز كأنما في لوحة زرقة سماء عشية فرنسية نادرة السحاب غارقة في الضياء حتى حينما لا تتألق؛ وصوت لها يخيل إليك، في بحه النبرات الأولى، أنه يقارب السفالة ويتسحب فيه، كما على درجات كنيسة «كومبريه» أو دكان الحلو الذي في الباحة، ذهب شمس ريفية خاملة دسمة، ولكنني لم أميز شيئاً في ذلك اليوم الأول فقد كان انتباهي الملتهب يخر في الحال القليل مما كنت أستطيع جمعه وحيث كان بمقدوري أن ألقى شيئاً من اسم «غيرمانت» بيد أنني كنت أقول في نفسي على أية حال إن اسم دوقة «غيرمانت» إنما كان يشير إليها في نظر الجميع وإن الحياة التي لا يمكن تصورها والتي يعينها ذلك الاسم إنما كان يحتويها فعلاً ذاك الجسد، وقد أدخلها منذ قليل وسط كائنات مختلفة، في هذه الصالة التي كانت تحيط بها من كل جانب والتي كانت تمارس عليها أنراً شديداً إلى حدّ كنت أحسب معه أنني أبصر حيثما تتوقف تلك الحياة عن التدفق حاشية من الفوران ترسم حدودها: داخل الدائرة التي كانت تخطها على السجادة كرة التنورة التي من حرير صيني أرزق، ودخلت حدقتي الدوقة الصافيتين وفي تقاطع المشاغل والدكريات والفكر اللامدرك المزدري الهائز الفضولي الذي يملؤها والصور الغريبة التي تنعكس فيهما. ربما رأيته أقل اضطراباً لو أنني لقيتها في منزل السيدة «دو فيلباريزيس» بمناسبة أمسية بدلاً من أن ألقاها على هذا النحو في واحد من «أيام» المركبة وفي واحدة من حفلات الشاي تلك التي تؤلف بالنسبة إلى النساء مجرد استراحة قصيرة وسط مشوارهن، والتي يحملن إليها، إذ يحتفظن بالقبعة التي قمن بها بجولاتهن، في توالي صالاتها ميزة الهواء في الخارج ويوفرن إطلالة على باريس في أواخر ما بعد الظهر أكثر مما تفعل النوافذ العالية المفتوحة التي يتناهى منها ضجيج عجلات العربات. كانت السيدة «دو غيرمانت» تعتمر قبعة واسعة من القش تزينها زهيرات الترشاء. وما كان ما تذكرني به شمس السنوات الغابرة على أنلام «كومبريه» حيث قطفت منها الكثير الكثير وعلى السطح المخاذي لسياج «تانسونفيل»، بل رائحة الشفق وغباره على نحو ما كانا عليه منذ قليل لحظة اجتازتهما السيدة «دو غيرمانت» في شارع «لايه». وكانت ترسم، تغمر وجهها البسمات، متعالية غامضة فيما تزم شفيتها اشمزازاً، كانت ترسم بطرف شمسيها دوائر على السجادة. ثم تحدّق إلى كلّ منا على التوالي بذلك الانتباه اللامبالي الذي يبدأ باقصاء أية نقطة تماس بين ما ينظر إليه المرء وبين ذاته، ثم تتفحص الأرائك والمقاعد ولكن النظرة يلففها حينئذ ذلك التوادّ الإنساني الذي يوقظه وجود حاجة تعرفها وإن تكن قليلة الشأن، حاجة تقارب أن تكون شخصاً؛ فما كانت حال ذلك الأثاث كحالنا إذ كان يرتبط بحياة عممتها. ثم تنثني تلك النظرة من أثاث «بوفيه» إلى الشخص الذي يجلس عليه فتستعيد إذ ذاك نفاذ البصيرة نفسه والاستنكار نفسه الذي ربّما حال احترام السيدة «دو غيرمانت» لعمتها دون الإفصاح عنه والذي لعلها كانت تحس به على أية حال لو أنها لاحظت على المقاعد بدلاً منا وجود بقعة من الدهن أو طبقة من الغبار.

ودخل الكاتب المجلي ج...؛ لقد جاء يقوم بزيارة للسيدة «دو فيلباريزيس» كان يراها بمثابة سخرة. أما الدوقة التي اغتبطت بلقائه ثانية فلم تومئ مع ذلك إليه ولكنّه جاء بالطبع بالقرب منها فقد كان ما تملك من

فتنة ولباقة وبساطة يحمله بالطبع على اعتدادها من النساء الظريفات. وكان الأدب يملئ عليه على آية حال واجب الذهاب بالقرب منها، فكثيراً ما كانت السيدة «دو غيرمانت» تدعوه، إذ كان محبباً ومشهوراً، إلى طعام الغداء حتى على انفراد معها ومع زوجها، أو تستغل إبان الخريف في «غيرمانت» تلك الألفة لتدعوه في بعض الأمسيات للعشاء بصحبة بعض أصحاب المعالي الطامحين إلى لقاءه. ذلك أنَّ الدوقة كانت تستعذب استقبال بعض رجال النخبة شرط أن يكونوا عازبين، والشرط يحققونه أبداً بالنسبة إليها وإن كانوا متزوجين، فقد كانوا يدعون دوماً دون زوجاتهم فلعلن، وهنَّ عاميات في كثير أوقليل، كنَّ يشكلن لطخاً في صالة لا يجتد فيها سوى أكثر نساء باريس جمالاً وأناقة. وكان الدوق يوضح لهؤلاء الأرامل المرغمين، دفعا لأية حساسية، أن الدوقة لا تستقبل نساء ولا تطيق صحبة النساء كما لو كان الأمر تقريبا وصفة طبيب وكما لو أنه قال إنها لا تستطيع المكوث في غرفة تملؤها الروائح أو تناول طعام شديد الملوحة أو السفر في المؤخرة أو لبس المشد. صحيح أنَّ هؤلاء الرجال العظام كانوا يصرون في منزل آل «غيرمانت» أميرة «بارما» والأميرة «دو ساغان» (وقد دعته «فرانسواز» أخيراً، وهي تسمع أبداً من يتحدث عنها، «الساغانة» ظناً منها أنَّ هذا المؤنث ضرورة قواعدية) وغيرهما كثيرات، إلا أنهم كانوا يبررون حضورهنَّ بقولهم إنهنَّ من الأسرة أو صديقات طفولة لا يمكن إقصاؤهنَّ. وكان الرجال العظام ينقلون إلى زوجاتهم الايضاحات التي زودهم بها الدوق «دو غيرمانت» حول مرض الدوقة الغريب الذي قوامه أنَّها لا تستطيع مخالطة النساء، سواء اقتنعوا بها أم لا. كانت بعضهنَّ يعتقدن أن المرض كان محض عذر لإخفاء غيرتها لأن الدوقة تبغي أن تمدَّ سلطانها وحدها على حاشية من المعجبين. وتعتقد أخريات أكثر سذاجة أنَّ الدوقة ربما كانت من نمط غريب، بل ربما كان لها ماضٍ شائن وأنَّ النساء لا يرغبن في ارتياد منزلها وأنَّها تطلق على الضرورة اسم نزوة لديها. أما أفضلهنَّ فكنَّ يقدرن، إذ يسمعن أزواجهنَّ يروون العجائب والغرائب عن نباهة الدوقة، أن هذه الأخيرة تفوق باقي النساء إلى حدِّ أنَّها كانت تملِّ صحبتتهنَّ لأنهنَّ لا يحسنن التحدُّث عن شيءٍ والحقيقة أنَّ الدوقة كانت تملِّ صحبة النساء إن لم تضيف عليهن ميزة الأمانة أهمية خاصة. ولكنَّ الزوجات المستبعدات كنَّ على خطأ لدى تصوُّرنَّ أنَّها لا ترغب بغير استقبال الرجال لتستطيع التحدُّث عن الآداب والعلم والفلسفة. ذلك أنَّها ما كانت تتحدَّث البتة فيها على الأقلَّ من كبار رجال الفكر. ولئن كانت بموجب التقليد الأسروي نفسه الذي يحمل بنات كبار العسكريين على الاحتفاظ وسط أكثر مشاغلهنَّ بعثاً على الغرور باحترام أمور الجيش، لئن كانت تظنَّ، وهي حفيذة نساء كنَّ وثيقات الصلة بـ«تبير» و«ميريميه» و«أوجييه»، أنه ينبغي قبل كل شيء أن يرصد المرء في صالته مكاناً لجماعة الفكر، إلا أنَّها أخذت من الطريقة المستكبرة والأليفة في آن معا التي يتم فيها استقبال مشاهير الرجال في «غيرمانت» عادة احتساب رجال المواهب بمثابة معارف مألوفين لا تبهر كموهبتهم ولا تتحدَّث إليهم عن أعمالهم الفنية، الأمر الذي ربما لن يثير اهتمامهم. ثم إن نمط «ميريميه» و«ميلاك» و«هاليفي» الفكري، وكان نمطها، كان يدفعها، بما يناقض النزعة العاطفية اللفظية التي طبعت حقبة سابقة، إلى طراز من الحديث يستبعد كلَّ ما كان من قبيل الجمل العريضة والتعبير عن العواطف السامية، ويجعلها تتخذ نوعاً من التأتق في قصر حديثها، حينما تكون بصحبة شاعر أو موسيقي، على أصناف الطعام التي يتم تناولها أو لعبة الورق التي يزعمون أن يلعبوها كان لذلك الامتناع، في نظر ثالث هين الاطلاع، شيء محير يبلغ حدَّ السرِّ فإن سألتها السيدة «دو غيرمانت» إن كان ينبغي أن يدعى برفقة هذا الشاعر أو ذاك كان يصل في الساعة المحددة يتأكله الفضول. وكانت الدوقة تكلم الشاعر عن الطقوس السائد. ويقومون إلى المائدة، فتسأل

الشاعر: «أحب هذه الطريقة في تحضير البيض» ؟ وإزاء موافقته التي كانت تشاطره إياها، إذ كان يبدو لها كل مافي بيتها لذيذاً، حتى شراب تفاح شنيع كانت تجيء به من «غيرمانت»، كانت تأمر رئيس الخدم قائلة: «قدموا بيضاً للسيد مرة أخرى»، فيما يوالي الشخص الثالث، تملؤه الحيرة، انتظار ماكان بالتأكيد في نية الشاعر والدوقة قوله فيما بينهما بما أنهما تدبرا أمر لقاء بينهما قبل رحيل الشاعر على الرغم من ألوف المصاعب. ولكن الوليمة تستمر وألوان الطعام ترفع الواحد تلو الآخر، ولا يتم الأمر دون أن تتاح للسيدة «دو غيرمانت» فرصة مزحات ذكية أو حكايات لطيفة. ويوالي الشاعر في تلك الأثناء تناول الطعام دون أن يبدو أن الدوق أو الدوقة يتذكران أنه شاعر. وينتهي الغداء بعد قليل ويتم الوداع دون أن يقال كلمة واحدة عن الشعر الذي كان الجميع يعشقونه على الرغم من ذلك ولكنما لا يتحدث عنه أحد بداعي ضرب من التحفظ شبيه بذلك الذي زودني «سوان» بشعور سابق منه. كان ذاك التحفظ من جميل التهذيب فحسب. فأما بالنسبة إلى الآخر، فقد كان مبعثاً لكآبة شديدة إن هو فكر في الأمر قليلاً، وكانت وجبات طعام محيط آل «غيرمانت» تذكر آنذاك بتلك الساعات التي غالباً ما يقضيها معا عشاق وجلون في التحدث عن تفاهات إلى أن يحين فراقهم ودون أن يتأتى للسرد الكبير الذي ربما سعدوا أكثر في البوح به أن يمر من قلوبهم إلى شفاههم، إما وجللاً أو استحياء أو خرقاً على أنه لابد أن نضيف من جهة أخرى أن ذاك الصمت حول الأمور الدفينة التي ينتظر المرء دوناً دون جدوى ساعة مباشرتها لم يكن مطلقاً لدى الدوقة وإن أمكن عدّه سمة مميزة لها. فقد سبق أن قضت السيدة «دو غيرمانت» شبابها في وسط مختلف بعض الشيء، وسط يساوي في ارسقاطيته الوسط الذي تعيش فيه اليوم، ولكنه أقلّ تألقاً وأقلّ تفاهة على وجه الخصوص ومن ثقافة رجة. ولقد خلف لطيشها الراهن نوعاً من التربة الأشد صلابة، تربة خفية الغذاء كان يبلغ بالدوقة أن تبحث فيها (ولأمر نادر جداً لأنها كانت تكره الحذلقة) عن استشهاد من «فيكتور هوغو» أو «لامارتين» مناسب تماماً وتقول بنظرة صادقة التعبير في عينها الجميلتين فلا يخلو من اندهاش وسحر ألباب بل ويبلغ بها أحياناً دونما حيطة وبسداد في الرأي وبساطة أن تسدي النصيح الذكي لمؤلف مسرحي عضو في المجمع فتحمله على تلطيف موقف أو تغيير خاتمة.

ولئن كنت أصادف مشقة، في صالة السيدة «دو فيلباريزيس» وفي كنيسة «كومبريه» سواء بسواء، لدى زواج الأنسة «بيرسبييه»، في أن أعثر، على وجه السيدة «دو غيرمانت» الجميل الذي يفيض سمات بشرية، على المجهول الذي يعمر اسمها فقد كنت أحسب على الأقل أن حديثها العميق الذي تكتنفه الأسرار سوف يرتدي، إذ تتحدث، غرابة سجادة من القرون الوسيطة وزجاجة قوطية بيد أنه ما كان كافياً، كي لا تخيب ظني الأقوال التي ستقفو بها امرأة يدعونها السيدة «دو غيرمانت»، حتى وإن لم أحبها، ما كان كافياً أن تكون الأقوال ذكية وجميلة وعميقة، بل كان انبغى أن تعكس ذاك اللون الأرجواني الذي في المقطع الأخير من اسمها، ذاك اللون الذي دهشت منذ اليوم الأول ألا أجده في شخصها والذي هربت به إلى فكرها. لقد سبق دونما شك أن سمعت السيدة «دو فيلباريزيس» و«سان لو»، وهما من قوم لاخارق في ذكائهم، ينطقان دون أن يحتاطا للأمر باسم «دو غيرمانت»، وببساطة وكأنه اسم شخص يزمع القدوم في زيارة أو تزمع تناول العشاء معه، ولا يبدو أنهما يحسان في ذلك الاسم مناظر غابات أخذة في الاصفرار وركناً خفياً تماماً في الريف. كان لابد أن يكون الأمر تصنعاً من جهتهما، كما هي الحال حين لاينبها الشعراء الكلاسيكيون إلى المقاصد

العميقة التي راودتهم مع ذلك، تصنعاً كنت أجهد بدوري في محاكاته قائلاً بلهجة طبيعية كأكثر ما تكون : دوق «غيرمانت»، وكأنه اسم يشبه أسماء أخرى. كان الجميع يؤكدون على آية حال أنها امرأة شديدة الذكاء ظريفة الحديث تعيش في جماعة صغيرة من أكثرها إثارة، وكانت تلك الأقوال تشجع حلمي. ذلك أنني حينما كانوا يقولون جماعة ذكية وحديث ظريف لم أكن أتخيل على الإطلاق الذكاء حسبما كنت أعرفه وإن كان ذكاء أعظم العقول وما كنت على الإطلاق أولف تلك الجماعة من قوم على غرار «بيرغوت»، لا، لقد كنت أعني بالذكاء قدرة لا يحيط بها وصف، مذهب أشربت ندوة الغابات. ولعل السيدة «دو غيرمانت» كانت، وإن هي تفوّتت بأكثر الأقوال ذكاء (بالمعنى الذي كنت آخذ فيه لفظة «ذكي» حينما يدور الأمر حول فيلسوف أو ناقد) ستزيد من خيبة ما أنتظر من قدرة خاصة إلى هذا الحد كما لو أنها اكتفت، عبر حديث لاشأن له بالتكلم عن مقادير الطبخ أو عن أثاث قصر ويذكر أسماء جارات أو أقارب لها ربما أوحوا لي بحياتها.

قالت السيدة «دو غيرمانت» لعمتها: «ظننتني ألقى «بازان» هنا فقد كان يعترم الحجيء للقياك».

فأجابت السيدة «دو فيلباريزيس» بلهجة بادية التأثير غاضبة: «لم أرَ زوجك، ومنذ عدة أيام. لم أره أو ربما رأيته مرة واحدة منذ تلك المزحة الطريفة في أن يبعث من يعلن لدى قدومه أنه ملكة السويد».

وزمت السيدة «دو غيرمانت» زاوية شفتيها لتتبسم وكأنما عضت على برقعها الصغير.

— «لقد تغدينا معها البارحة لدى «بلانش لوروا»، وقد لا تتعرفينها فقد أصبحت ضخمة، إنني متيقنة أنها مريضة».

— «كنت الضبط أقول لهؤلاء لسادة إنك ترين لها هيئة الضفدعة». وصدر عن السيدة «دو غيرمانت» ضرب من الضجة الخشنة تعني بها أنها تفهقه إبراء لدمتها.

— «ما كنت أعلم أنني قمت بهذا التشبيه الجميل، ولكنما الضفدعة في هذه الحالة هي التي أفلحت الآن في أن تضحي بضخامة الثور. أو لعل الأمر بالأخرى ليس على هذا النحو تماماً لأن كامل ضخامتها قد تجتمع على البطن، فهي بالأخرى ضفدعة في وضع مثير».

وقالت السيدة «دو فيلباريزيس»: «آه! إنني أجد الصورة مضحكة»، وكانت في أعماقها على شيء من الاعتزاز بنباهة ابنة شقيقها أمام زوارها.

— «إنها على وجه الخصوص اعتباطية»، تجيب السيدة «دو غيرمانت» وهي تبرز بسخرية هذه الصفة المنتقاة كما لعل «سوان» كان فعل، «فإنني أقر بأنني لم أرَ في يوم ضفدعة في طور الولادة وهذه الضفدعة التي لا تطلب ملكاً مع ذلك، لأنني ما رأيته قط أكثر طيشاً منها منذ وفاة زوجها، سوف تأتي على كل حال لتناول العشاء في المنزل في أحد أيام الأسبوع القادم وقلت إنني سوف أبلغك ذلك على سبيل الاحتياط».

وأصدرت السيدة «دو فيلباريزيس» نوعاً من الغمغمة المبهمة، وأضافت تقول: «أعرف أنها تناولت العشاء

قبل البارحة في منزل السيدة «دو مكلمبر»، وكان ثمة «هنيبال دو بريوتيه»، وقد جاء فروى لي عن ذلك، وعلى أن أقول إنه فعل على نحو مضحك إلى حد ما.

— «كان في ذلك العشاء آخر أكثر ظرفاً من «بابال»، تقول السيدة «دو غيرمات» التي كانت تصرّ، على الرغم من ألقتها الشديدة في علاقتها بالسيدة «دو بريوتيه كونسالفلي»، على إبراز ذلك بتسميته بصيغة التصغير تلك؛ «إنه السيد «بيرغوت».

لم يكن قد خطر لي أنه يمكن عدّ «بيرغوت» من الظرفاء، ثم إنه كان يبدو لي أنه يخالط البشرية الذكية، وأعني أنه كان بعيداً إلى ما لا حدود عن هذه المملكة الغامضة التي سبق أن رأيتها تحت أرجوان ستائر إحدى المفصولات حيث كان السيد «دو بريوتيه» يضحك الدوقة إذ يسوق معها بلغة الآلهة ذلك الأمر الذي لا يمكن تخيله بين جماعة من حيّ «سان جيرمان». وحزّ في نفسي أن أشهد التوازن ينقرط و«بيرغوت» يمرّ من فوق السيد «دو بريوتيه» ولكنما بعث في نفسي اليأس على نحو خاصّ أنني تجنبت «بيرغوت» في أمسية مسرحية «فيدر» وأنني لم أذهب إليه، وذلك حينما سمعت السيدة «دو غيرمات» تقول للسيدة «دو فيلباريزيس»:

— «إنه الشخص الوحيد الذي أتوق إلى التعرف إليه»، تضيف الدوقة التي كنت تستطيع أن تبصر فيها أبداً، وكأنما لحظة تدفق روحي، مدّ فضول إزاء مشاهير المثقفين يلتقي في طريقه بحزّ السنوية الأرستقراطية؛ «فما أكثر ما سيمتعني هذا الأمر»

فلعلّ وجود «بيرغوت» إلى جانبي، وما أكثر ما كان يسهل عليّ نواله ولكني ربما ظننت أن من شأنه أن ينقل عني فكرة سيئة للسيدة «دو غيرمات»، لعله كان نجم عنه بالتأكيد، وعلى عكس ذلك، أن تومئ إليّ بالحيء إلى مقصورتها وتطلب إليّ أن أصطحب الكاتب الكبير ذات يوم للغداء.

وأضافت السيدة «دو غيرمات» قولها: «يبدو أنه لم يكن لطيفاً، فقد قدّمه للسيد «دو كوبر» ولم يقل له كلمة»، وهي تشير إلى هذه الفعلة الغريبة كما لو تروي عن صينيّ تمخط بالورق. ثم أضافت: «لم يقل له مرة واحدة يا صاحب السيادة» بادية السرور من جرّاء هذا الأمر الذي يساوي في أهميته بالنسبة إليها رفض بروتستنتي أثناء إحدى مقابلات البابا أن يركع أمام قداسته.

وقد أثارت خصائص «بيرغوت» هذه اهتمامها ولم يكن يبدو عليها على أية حال أنها تجدها معيبة بل بدا بالأحرى أنها تجعل له منها فضلاً دون أن تعلم هي بالضبط من أي نوع. وعلى الرغم من هذه الطريقة العجيبة في فهم غرابية «بيرغوت»، فقد وقع لي فيما بعد ألا أجد غير ذي شأن تماماً أن تكون السيدة «دو غيرمات» قد ألقت «بيرغوت» أشدّ ظرافة من السيد «دو بريوتيه» أمام دهشة الكثيرين الكبيرة. ومثل هذه الأحكام التخريبية المنفردة والصائبة مع ذلك إنما تصدرها على هذا النحو في العالم ندرة من الناس المتفوقين على سواهم. وإنهم ليرسمون فيها الخطوط الأولى لمراتبية القيم على نحو ما سيختطها الجيل اللاحق عوض أن يتمسك أبداً بالقديمة.

ودخل الكونت «دار جنكور» القائم بأعمال بلجيكا وابن قريب بالنسب للسيدة «دو فيلباريزيس» وهو يعرج، وقد تبعه بعد قليل شابان هما البارون «دو غيرمانت» وسمو الدوق «دو شاتيلرو» الذي قالت له السيدة «دو غيرمانت»: «مرحبى يا صغيري «شاتيلرو»، قالت بهيئة ساهية ودون أن تتحرك على مقعدها المنفوخ لأنها كانت صديقة كبيرة لوالدة الدوق الشاب الذي كان يجعلها من جراء ذلك ومنذ طفولته إجلالاً بالغاً. كان يبدو هذان الشابان، وهما مديدا القامة نحيفان مذهبا الجلد والشعر ومن طراز آل «غيرمانت» تماماً، كانا يدوران وكأنهما تكتيف النور الريمي والمساتي الذي كان يغمر الصالة الكبيرة. ووضعاً قبعتيهما الرسميتين على الأرض بالقرب منهما وفق عادة كانت تحكم السلوك في ذلك الوقت. وظن مؤرخ «حركة التمرد» أنهما مرتبكان مثل فلاح يدخل إلى دار العمدة ولا يعلم ما يفعل بقبعة. فقال لهما، وقد ظن من واجبه أن يهب بداعي الرأفة بهما لمساعدة الارتباك والاستحياء اللذين يفترضهما لديهما:

- «لا، لا، لا تضعاهما على الأرض فسوف تتلفانهما».

وحانت نظرة من البارون «دو غيرمانت» أملت ساحة حديقته وبعثت فيهما فجأة لونا أزرق فاقماً حاداً جمّد المؤرخ.

وسألني البارون الذي قدّمته لي السيدة «دو فيلباريزيس» قبل قليل قائلاً: «كيف يدعى هذا السيد؟»

فأجابت بصوت خافت: «السيد بير».

- «بير آل من؟»

- «بير، تلك كنيته، إنه مؤرخ عظيم الشأن».

- «آه!... ماعدت أستغرب ما تقول!»

وأوضحت السيدة «دو فيلباريزيس» قائلة: «لا، إنها عادة جديدة اتخذها هؤلاء السادة بوضع قبعتهم على الأرض، وإني لم أعود الأمر مثلما هي حالك. ولكني أفضل ذلك على ابن شقيقي «روبير» الذي يترك أبداً قبعته في الردهة. وأقول له حينما أراه داخلاً على هذا النحو إنه يبدو وكأنه الساعاتي وأسأله إن كان أتياً لتدوير ساعات الجدران».

وقال مؤرخ حركة التمرد، وقد اطمأن قليلاً من جراء تدخل السيدة «دو فيلباريزيس»، بيد أنه فعل مع ذلك بصوت خافت إلى حد أن لم يسمعه أحد فيما عداي: «كنت تخدّثيني منذ قليل، ياسيدي المركيزة، عن قبعة السيد «موليه»، وسوف يقدر لنا عما قليل أن نؤلف، مثلما فعل أرسطو، فصلاً عن القبعات».

وقال السيد «دارجنكور» وهو يشير إلى السيدة «دو غيرمانت» التي كانت تتحدث مع ج.....: «إنها مذهشة حقاً هذه الدوقة الصغيرة. فما أن يكون رجل بارز في صالة حتى تراه دوماً إلى جانبيها، ولا يمكن بالبداهة أن يكون غير الحجر الكبير الموجود هناك. لا يمكن أن يكون في كل يوم السيد «دوبريللي» أو شلومبرجر» أو «دافنيل»، فإذا هو حينئذ السيد «بير لوتي» أو السيد «ادمون رويستان». والبارحة في منزل عائلة

«دو فيل» حيث كانت، ونقولها بين قوسين، رائعة تحت تاجها الذي من أحجار الزمرد ويفسطان وردي طويل بأذيال، كان يجلس إلى جانبيها السيد «ديشانيل» من جهة وسفير ألمانيه من الجهة الثانية وقد صمدت أمامهما فيما يخص الصين. وكان الجمهور العادي يتساءل، وهو على المسافة التي يفرضها الإجلال، وما كان يسمع ما يقولون، إن لم تكن الحرب وشيكة الوقوع. لكنّها بالحقيقة ملكة تدبر النادي.»

وكان كلّ قد اقترب من السيدة «دو فيلباريزيس» ليشاهدها ترسم. قال «لوغراندان»: «هذه الأزهار من لون وردي سماوي حقاً، وأعني بلون سماء وردية؛ فتمة لون وردي سماوي مثلما هنالك لون أزرق سماوي.» ثم همس قائلاً يحاول ألا تسمعه سوى المركيزة: «أظنني لازلت أميل إلى اللون الحريري، لون البشرة الزهري الحيّ في النسخة التي ترسمينها لها. آه! إنك تخلفين بعيداً وراءك «بيزانيللو» و«فان هويسوم» ومجموعتهما العشبية الدقيقة التي لاحياة فيها.»

والفنان يرتضي دوماً، مهما يكن متواضعها، أن يفضل على منافسيه ويحاول أن ينصفهم فحسب.
- «إن ما يورثك هذا الأثر أنهم كانوا يرسمون أزهاراً من ذلك العصر ما عدنا نعرفها ولكنهم كانوا على علم وفير.»

وصاح «لوغراندان» قائلاً: «أزهار من ذلك العصر، ما أبرع القول!»

- «ترسمين بالفعل أزهار كرز جميلة أو أزهاراً من أزهار أيار». يقول مؤرخ حركة التمرّد، ولا يفعل دون تردّد فيما يخصّ الزهرة ولكن بلهجة الواثق بنفسه إذ أخذ ينسى حادثة القبعات.

وقالت دوقة «غيرمانت» وهي توجه الحديث إلى عمتها: «لا، إنّها أزاهير تفاح.»

- «أراك ريفية صادقة، فأنك تحسنين مثلي تمييز الأزهار.»

وقال مؤرخ حركة التمرّد يعني علماً: «أجل، هذا صحيح! ولكنني ظننت فصل التفاح قد انقضى.»

فقال مدير المحفوظات الذي كان أكثر اطلاعاً على أمور الريف إذ كان يدير بعض الشيء أملاك السيدة «دو فيلباريزيس»: «لا، لا، بالعكس، إنّها لم تزهر ولن يتمّ ذلك لها قبل خمسة عشر يوماً وربما ثلاثة أسابيع.»

- «أجل، وفي ضواحي باريس فقط حيث تسبق أوانها كثيراً. أما في النورماندي مثلاً، ولدى والده، نقول وهي تشير إلى دوق «دو شاتيللرو»، الذي يملك أشجار تفاح بديعة على شاطئ البحر وكأنما على سائرة يابانية، فلا تصبح وردية حقاً إلا بعد العشرين من أيار.»

وقال الدوق الشاب: «إني لا أراها البتّة لأنّها تصيبني بزكام الحشائش، وذلك مدهش.»

وقال المؤرخ: «زكام الحشائش، ما سمعت قطّ من يتحدث عن ذلك.»

وقال مدير المحفوظات: «إنّه المرض الشائع.»

وقال السيد «دارجنكور» الذي لم يكن فرنسياً تماماً فكان يحاول الظهور بمظهر الباريسي: «الأمر رهن بسواه فربما لم تصبك بشيء إن كان العام عاماً فيه تفاح. تعرفين كلمة جماعة النورماندي، ففي سنة أكثر تفاحها...»

وأجابت السيدة «دو فيلباريزيس» ابنة شقيقها قائلة: «أنت على حق إنها من تفاح الجنوب. إنها بائعة زهور بعثت إليّ بهذه الاغصان طالبة أن أقبّلها. يدهشك ذلك ياسيد «فالنير»، تقول موجهة الحديث إلى مدير المحفوظات، «أن تبعث إليّ بائعة زهور بأغصان شجرة تفاح؟ ولكنني وإن تقدمت بي السن أعرف بعض الناس، إن لديّ بعض الأصدقاء»، تضيف وهي تبسم بداعي البساطة، فيما ظنّوا بعامّة، أو بالأحرى لأنها، فيما بدا لي، كانت تجد إثارة أن تزهر بصدقة بائعة زهور حينما يتوافر لك معارف عظام إلى هذا الحدّ.

ونهض «بلوك» ليحيي بدوره وينظر بإعجاب إلى الأزهار التي كانت السيدة «دو فيلباريزيس» ترسمها.

وقال المؤرّخ وهو يعود إلى كرسيه: «لا أهمية للأمر، أيتها المركيزة فحتى لو عادت واحدة من تلك الثورات التي كثيراً ما غمرت بالدماء تاريخ فرنسا، - والمرء لا يستطيع، والله، أن يعلم في هذه الأزمنة التي نعيش فيها، يضيف قوله وهو يلقي نظرة دائرية محاذرة وكأنما ليرى إن لم يكن في الصالة أي من «ذوي التفكير السبيء»، مع أنّه لا يشكّ في الأمر، - فإنك بمثل هذه الموهبة ولغاتك الخمس لعلّي ثقة دائمة بحسن تدبّر أمورك».

كان مؤرّخ حركة التمرد ينعم ببعض الراحة إذ كان قد نسي أرقه. ولكنّه ذكر فجأة أنّه لم ينم منذ ستة أيام: وإذ ذاك اجتاح ساقيه تعب قاس كان وليد عقله فأحسّ كتفيه وأخذ وجهه المخزون يتدلّى شبيهاً بوجه رجل عجوز.

وأرد «بلوك» أن يحيي بحركة ليبر عن إعجابه ولكنه قلب بضربة من مرفقه الإناء الذي كان يحوي الغصن وسال الماء كله على السجادة.

وقال المؤرّخ للمركيزة، ولم يكن قد لاحظ تصرّف «بلوك» الأخرق إذ كان يوليئني ظهره في تلك اللحظة: «إن لك حقاً أنامل جيّة».

وظن هذا الأخير أن الكلمات تنطبق عليه فقال بغية أخفاء شجله من تصرّفه الأرعن خلف ستار من الوقاحة: «لا أهمية للأمر بتاتا فإنني لم يصبني البلب».

وقرعت السيدة «دو فيلباريزيس» الجرس فأقبل خادِم ليمسح السجادة ويجمع قطع الزجاج. ودعت الشابين إلى استقبالها بعد الظهور وكذلك الدوقة «دو غيرمانت» التي أوصتها قائلة:

- «افطني أن تقول لي «جيزيل» و«بيرت» (وهما دوقتا «أوبريجون» و«بورتفان») أن تحتضرا قبل الثانية ظهراً بقليل كي تعاوناني»، كما لعلها كانت تقول لرؤساء خدَم إضايفين أن يصلوا سلفاً ليعدّوا أطباق الفواكه المطبوخة.

فلم تكن تبدي لذويها الأمراء ولا للسيد «دو نوربوا» أيًا من تلك الألفاظ التي تبديها للمؤرخ و«كوتار» و«بلوك» ولي ولا يبدو أنهم يكتسبون في نظرها غير أهمية تقديمهم بمثابة مادة لفضولنا. ذلك لأنها كانت تعلم أن ليس عليها أن تتحرّج مع جماعة لم تكن بالنسبة إليها امرأة لامعة إلى حدّما، بل الشقيقة الشديدة الحساسية التي يراعون شعورها شقيقة والدهم أو عمّهم. فما كانت لتفيد شيئاً من محاولة التآلق أمامهم هم الذين لا يمكن أن يخدعهم ذلك حول مكانتها الرفيعة أو الهزيلة والذين كانوا يعلمون أكثر من أي سواهم تاريخها ويجلّون السلالة الشهيرة التي تنحدر منها. وهم ما عادوا على وجه الخصوص يمثلون في نظرهم سوى بقية ميتة لن تثمر من بعد، فلن يعرفوها بأصدقائهم الجدد ولن يشاطروها متعهم. وهي لا تستطيع الحصول على غير حضورهم إلى استقبالها في الساعة الخامسة أو إمكان التحدّث عنهم فيه مثلما هي الحال فيما بعد في مذكراتها التي لم يكن الاستقبال سوى نسخة تجريبية لها ونوع من القراءة الجهرية الأولى أمام ندوة صغيرة. فأما الجماعة التي كان هؤلاء الأقارب النبلاء يقيدونها في استشارتها وطلب ألبابها وتكيلها، جماعة أمثال «كوتار» و«بلوك» والمؤلفين المسرحيين المرموقين ومؤرخي حركة التمرد من كل صنف وجنس، فإنما تكمن في هذه الجماعة بالنسبة إلى السيدة «دو فيلباريزيس» - في غياب هذا القسم من المجتمع الذي لا يرتاد منزلها - الحركة والجدة والتسليات والحياة. فمن هؤلاء القوم كان بمقدورها أن تحصل على مكاسب اجتماعية (تساوي تماماً أن تفسح لهم أحياناً مجال التقاء الدوقة «دو غيرمانت» دون أن يعرفوها في يوم) : فولائم عشاء برفقة رجال مرمقين استهوتها أعمالهم الفنية وغنائية هزلية أو تمثيلية إيمائية معدّة تمام الإعداد ويسمح المؤلف بتمثيلها، ومقصورات لعروض غريبة. ونهض «بلوك» يريد الذهاب. لقد سبق أن قال جهاراً أن حادثة إثناء الزهر المقلوب كانت غير ذات بال، ولكن ما كان يقوله سراً كان مختلفاً «وأكثر اختلافاً منه ما كان يفكر فيه: فقد كان يغمغم بصوت خافت: «حينما لا يملك المرء خدماً حسني التدريب إلى حدّ ما. كي يحسنوا وضع إثناء دون أن يعرضوا الزوار للبلبل أو الجرح فلا يغامر في اتّخاذ صنوف الترف هذه». لقد كان في عداد هؤلاء الناس الحساسين «العصبيين» الذين لا يستطيعون احتمال الوقوع في عمل أخرق لا يقرون به مع ذلك في سرهم ويفسد عليهم نهارهم كلّهم. كان حانقاً تعتمل في نفسه أفكار سوداء ولا يريد العودة إلى صفوف المجتمع من بعد. وإنه الوقت الذي لا بدّ فيه من بعض الترفيه. ولحسن الحظّ كانت السيدة «دو فيلباريزيس» مقبلة بعدّ ثانية على استبقائه. فلم تكن قد عرفت به الأشخاص الذين كانوا هناك إمّا لأنها كانت تعرف آراء أصدقائها وموج معاداة السامية الذي كان آخذاً في الارتفاع، وإمّا أنها سهت عن ذلك. أمّا هو الذي كان قليل العهد بالمجتمع فقد ظنّ من واجبه أن يحييهم وهو ذاهب التزاماً بأداب السلوك ولكن دون تلطّف، فأخنى الجبين عدّة مرات وغاص بذقنه اللحيّ في ياقة قميصه ينظر على التوالي إلى كلّ منهم من خلال زجاج نظارته نظرة فيها جفاء واستياء. ولكنّ السيدة «دو فيلباريزيس» أوقفته، فقد كان لا يزال عليها أن تحدّثه عن الفصل الصغير الذي يزعمون تمثيله في منزلها وما كانت تودّ من جهة ثانية أن يمضني دون أن يكون قد نعم بالتعرّف إلى السيد «دو نوربوا» (الذي كانت تعجب كيف لاتراه يدخل) مع أن هذا التعرّف غير ضروري لأن «بلوك» كان عازماً على اقناع الفنانين اللذين تحدّث عنهما بالجيء للغناء دون مقابل في منزل المركيزة في واحد من تلك الاستقبالات التي تتردّد إليها صفوة أوروبا وذلك لصالح شهرتهما. وقد بلغ به أن اقترح إلى ذلك ممثلة مأساوية «فيروزية العينين وفي

جمال هيرا»^(١) تشد نثراً وجدانياً وتتمتع بحس الجمال التشكيلي. ولكن السيدة «دو فيلباريزيس» رفضت لدى سماع اسمها، فقد كانت صديقة «سان لو» وهمست في أذني قائلة:

«لدي أخبار أفضل منها، فأني أظن الأمور لا تنجح إلا بجناح واحد وأنها لن يتوانيا عن الانفصال». وتضيف قولها: «على الرغم من ضابط قام بدور بغيض في كل ذلك» (ذلك أن أسرة «روبير» أخذت تحقد حقداً مميّتا على السيد «دو بورودينو» الذي سبق أن منح التصريح إلى مدينة «بروج» نزولاً عند إلحاح الحلاق، وتتهمه بتسيير علاقة سائنة». وقالت لي السيدة «دو فيلباريزيس» باللهجة الفاضلة التي لآل «غيرمانت» وحتى من كان أكثرهم انحطاطاً: «إنه شخص سيء جداً». كنت تخش أنها لاتشك أن يكون الشريك الثالث في سائر الحفلات الفاجرة. ولما كان اللطف يشكل العادة السائدة لدى المركيزة فقد انتهت ملامح القسوة المقطبة إزاء النقيب المقيت الذي تلت اسمه بفخامة ساخرة: الأمير «دو بورودينو»، تلاوة امرأة لاتحسب للامبراطورية حساباً، انتهت في ابتسامة رقيقة موجّهة إليّ بغمزة عين آلية يطنّها تواطؤ غامض معي.

وقال «بلوك»: «كنت أحبّ إلى حدّ «دو سان لو أن بريه» مع أنه كلب رديء لأنه مهذب إلى أقصى الحدود. إنني أحبّ الأشخاص المهذبين إلى أقصى الحدود جداً فما أندركهم». يقول ولا يلاحظ إلى أيّ مدى تسوء أقواله إذ كان سيء التهذيب إلى أبعد حدّ. «سوف أذكر لكم دليلاً أراه جلياً جداً على تهذية الرفيع. فقد التقيت به ذات مرة بصحبة شاب وفيما كان يزعم الصعود إلى عرته ذات العجلات الجميلة وعندما وضع بنفسه الأحزمة الرائعة على جوادين غدياً بالشوفان والشعير ولا حاجة لحشما بالسوط الملتصع. وقدّما الواحد للآخر ولكنني لم أسمع اسم الشاب لأنك لاتسمع قطّ اسم الأشخاص الذي يتمّ تقديمك إليهم»، يضيف ضاحكاً إذ كانت تلك مزحة لوالده، «وظلّ دوسان لو أن بريه بسيط السلوك ولم يغال في الاهتمام بالشاب ولم يبدِ البتة أيّ انزعاج. وقد علمت بالمصادفة بعد بضعة أيام أن الشاب ابن السيد «روفوس إسرائيلز»

وبدت خاتمة هذه القصة أقلّ إزعاجاً من بدايتها إذ ظلت متعذرة الفهم بالنسبة إلى القوم الحاضرين. ذلك أن السيد «روفوس إسرائيلز» الذي كان يبدو له «بلوك» ووالده بمثابة شخصية ملكية كان ينبغي أن يرتجف «سان لو» في حضرته إنما كان على العكس في نظر محيط آل «غيرمانت» أجنبياً حديث النعمة يتغاضى عنه المجتمع وما كان ليخطر لأحد أن يفاخر بصدّاقته، بل على العكس تماماً!

وقال «بلوك»: «لقد عرفت ذلك على لسان وكيل السيد «روفوس إسرائيلز» المفوض بالتوقيع وهو صديق لوالدي ورجل خارق تماماً. أه! إنه شخص غريب كلّ الغرابة» يضيف قوله بهذا الحزم في التأكيد وببرة الحماسة التي لا يبيدها المرء إلا في القناعات التي لم يشكّلها بنفسه. وعاد «بلوك» يقول وهو يكلمني بصوت خافت جداً: «لكن قل لي، أية ثروة يمكن أن يملكها «سان لو»؟ تدرك تماماً أنني إن كنت أسالك ذلك فأني لا أحفل به في حدّ ذاته بقدر ما أفعل بالنسبة إلى عام الأربعين؛ ولكن الأمر من وجهة نظر «بلزأكية» كما ترى، ولست حتى تعلم فيما تمّ توظيفها وإن كان يملك أسهماً فرنسية وأجنبية وأراضي؟»

(١) Héra الهة الزواج لدى قدماء اليونان وترمز إلى عظمة الأم وسلطانها.

لم أستطع تزويده بأية معلومات. وكفّ «بلوك» عن التحدّث بصوت خافت واستأذن بصوت عال بفتح النوافذ واتجه إليها دون أن ينتظر الجواب. وقالت السيدة «دو فيلباريزيس» إنه يستحيل فتحها وإنها مصابة بزكام فردّ «بلوك» يقول خائب الأمل: «آه! إن انبغى أن يؤذيك ذلك! على أنه يمكن القول إن الجو حارّ». وأخذ في الضحك وجعل في نظراته التي جالت حول الحضور استجداءً يطالب بدعم السيدة «دو فيلباريزيس». فلم يوفق إليه في صفوف أولئك الناس الحسني التهذيب. واستعادت عيناه المتقلّبان اللتان لم تغلحا في إفساد أحد رصانتهم مستسلمتين. وأعلن بلهجة الهزيمة: «الحرب يبلغ اثنتين وعشرين درجة على الأقل. خمساً وعشرين؟ ذلك لا يدهشني فأني أصبح تقريباً في عرقي. ولست أملك على غرار الحكيم «آنتينور» ابن النهر «آلفيوس» قدرة الغوص في المياه الأبوية كي أوقف عرقي قبل أن أدخل حماماً صقيلاً وأدهن نفسي بزيت معطر». وأضاف بتلك الحاجة التي لدى المرء إلى وضع نظريات طيبة تحت تصرّف الآخرين، نظريات قد يجيء تطبيقها في صالح راحتنا: «بما أنك تظنين أن الأمر يعود عليك بالنفع! أمّا أنا فأظنّ العكس تماماً. ذلك بالضبط ما يحمل لك الزكام».

لقد أبدى «بلوك» أنه مغتبط بفكرة التعرّف بالسيد «دو نوربوا»، ولعله كان يحبّ، فيما يقول، أن يحمله على التحدث عن مسألة «دريفس».

— «ثمة ذهنية لا أعرفها حقّ المعرفة، وربما كان مثيراً إلى حدّ ما أن أحظى بمقابلة هذا الدبلوماسي العظيم الشأن»، يقول بلهجة جارحة كي لا يبدو أنه يعدّ ذاته أدنى من السفير.

وأسفت السيدة «دو فيلباريزيس» أن قال ذلك أيضاً بصوت عال ولكنها لم تعلق على الأمر كبير أهمية حينما أبصرت أن مدير المحفوظات الذي كانت تنقاد، إن جاز القول، لأرائه القومية كان في مكان أبعد من أن يمكنه من الاستماع. ولكنّما صدمها أكثر من ذلك أن تسمع «بلوك»، وقد دفعه شيطان سوء تهذيبه الذي سبق فأعماه، يسألها وهو يضحك للمزاح الأبوي:

— «ألم أقرأ له بحثاً علمياً يبيّن فيه لأية أسباب لا تدحض كان ينبغي أن تنتهي الحرب الروسية - اليابانية بانتصار الروس وهزيمة اليابانيين! أفليس على شيء من الخوف؟ ويبدو لي أنه هو من رأيت «يسدّد» إلى مقعدة قبل أن يبادر إلى الجلوس فيه منزلقاً وكأنما على عجالات».

— «مستحيل!» وتضيف المركيزة قولها: «انتظر لحظة، فلا أدري ما يمكن أن يفعل».

وقرعت الجرس، وبعدما دخل الخادم، وإذا كانت لا تخفي على الإطلاق أن صديقها القديم كان يمضي أكبر قسط من وقته في منزلها، بل تحب أن تبرز ذلك:

— «هيا امضي وقل للسيد «دو نوربوا» أن يأتي، فهو يقوم بتصنيف أوراق في مكتبي، وقد قال إنه آت بعد عشرين دقيقة، وها إني انتظره منذ ساعة وثلاثة أرباع الساعة». وقالت تخاطب «بلوك» بلهجة الحردان: «سوف يحدثك عن مشكلة «دريفس» وعن كلّ ما تريد، إنه لا يقرّ كثيراً ما يجري».

ذلك أنّ السيد «دو نوربوا» لم يكن على علاقة طيبة بالوزارة الحالية وكانت السيدة «دو فيلباريزيس»

بوساطته على علم بما يجري، مع أنه ما كان ليسمح لنفسه أن يأتيها بهجاعة من الحكومة (إذ كانت تحتفظ مع ذلك بكبرياء السيدة التي تنتمي لكبار الأرستقراطيين وظلت خارج دائرة العلاقات التي كان يضطر أن يعنى بها، وفوق تلك العلاقات). وما كان سياسيو العهد أولئك ليجرؤوا بدورهم أن يطلبوا إلى السيد «دو نوربوا» أن يعرف بهم السيدة «دو فيلباريزيس» ولكنما سبق للعديد منهم أن جاؤوا في طلبه في منزلها في الريف حينما يحسّون بحاجتهم إلى مساعدته في ظروف عصيبة. كانوا يعرفون العنوان، فيذهبون إلى القصر، ولا يرون سيده، ولكنّها كانت تقول في العشاء: «أعلم ياسيدي أنهم جاؤوا يزعمونك. فهل الأمور أفضل مما كانت؟»

وسألت السيدة «دو فيلباريزيس» «بلوك» قائلة: «لست على عجلة من أمرك؟»

— «لا، لا، كنت أبغى الرحيل لأنني لست على مايرام، بل أنا الآن بصدد القيام باستشفاء في «فيشي» لعلاج مرارتي، يقول وهو يتلفظ هذه الكلمات بسخرية شيطانية.

— «عجبا، إن ابن ابن أخي «شاتيللرو» يزمع بالضبط الذهاب إلى هناك، وعليكما تدبّر ذلك سوياً، أمايزال هنا؟ إنه لطيف، لو تدري»، تقول السيدة «دو فيلباريزيس» ربّما عن حسن نية وظناً منها أن شخصين تعرفهما كليهما لا يملكان أية حجة تمنعهما من الارتباط بصداقة.

وقال «بلوك» وبه خجل وغبطة: «آه لست أدري إن كان ذلك سيروقه، فأني لا أعرفه.. إلا لماماً، إنه هناك إلى أبعد بقليل».

ولا بدّ أن رئيس الخدم لم ينفذ على آتم وجه المهمة التي كلف بها لدى السيد «دو نوربوا»، ذلك أن هذا الأخير، كيما يظنّ أنه أت من الخارج ولم ير بعد ربة البيت، أخذ كيفما تيسر في الردة قبة بدا لي أنني أتعرّفها وجاء يقبل بتكلّف كبير يد السيدة «دو فيلباريزيس» وهو يسألها عن أخبارها بالاهتمام ذاته الذي يديه المرء بعد غياب طويل. وكان يجهل أن المركيزة سبق أن نزعّت عن تلك المهزلة أيّ مظهر للحقيقة، وقد أوقفته على آية حال عند حدّها إذ اصطحبت السيد «دو نوربوا» و«بلوك» إلى صالة مجاورة. أما «بلوك» الذي شاهد جميع صنوف التودّد التي أحيط بها ذلك الذي لم يكن يعلم بعد أنه السيد «دو نوربوا» والتحيّات المتكلفة الأنيقة الواسعة التي يردّ بها السفير، «بلوك» الذي أحسّ أنه دون كلّ هذه الرسميات وأزعجه التفكير بأنّها لن توجه إليه في يوم، فقد قال لي ليظهر مظهر المرتاح: «أيّ صنف معنوه هو هذا؟» ربّما صدمت تحيّات السيد «دونوربوا» جميعها ما كان أفضل شيء في نفس «بلوك»، ونعني الصراحة الأكثر مباشرة لدى بيئة عصرية، فكان أن رأى جزئياً بصدق أنها مضحكة. ولكنّها كفت على أية حال عن الظهور بهذا المظهر، بل أغبطته منذ اللحظة التي أصبح فيها هو، «بلوك»، موضوعها.

قالت السيدة «دو فيلباريزيس»: «بودّي ياسيدي السفير أن أعرفك بالسيد. السيد «بلوك»، السيد المركيز «دو نوربوا». كانت تهتم، على الرغم من الطريقة التي تقسو بها على السيد «دو نوربوا»، بأن تقول له: سيدي السفير تمسكاً بأداب السلوك ومبالغة في تقديرها لرتبة السفير، ذاك التقدير الذي لقنها ليّاه السفير، وأخيراً كيما تطبق تلك التصرفات الأقلّ ألفة والأكثر مجاملة إزاء رجل ما، وهي التي إذ تختلف اختلافاً قاطعاً في صالة امرأة لامة عن الصراحة التي تستخدمها مع رواد بيتها الآخرين، إنما تشير في الحال إلى عشيقها.

وأغرق السيد «دو نورويوا» زرقة عينيه في بياض لحيته وأحنى بعقب قامته المديدة وكأنا يحنيها أمام كل ما يمثل اسم «بلوك» في نظره من شهرة ومهابة وهمس قائلا: «إنني مغتبط»، في حين صحح محدثه الشاب بسرعة وقد اهتزت مشاعره ولكنه رأى أن الديبلوماسي الشهير يبالغ كثيراً فقال: «لا، بل على العكس تماماً، إنني أنا المغتبط!» بيد أن هذه الحفاوة التي كان السيد «دو نورويوا» يكررها حباً بالسيدة «دو فيلباريزيس» مع كل مجهول تعرفه به صديقته القديمة لم تبد لهذه الأخيرة تأدباً كافياً إزاء «بلوك» الذي قالت له:

— «هيا أسأله كل ما تريد معرفته، واصططحه جانباً إن كان ذلك أكثر يسراً، وسوف يغبطه أن يتحدث إليك. وأظنك كنت تبغي محادثته في مسألة «دريغوس»، تضيف قولها دون أن تهتم إن كان الأمر يروق السيد «دو نورويوا» أكثر مما لعلها فكرت في سؤال رسم الدوقة «دو مونمورانسي» موافقته قبل أن تأمر بإنارته للمؤرخ، والشاي موافقته قبل أن تقدم كوباً منه.

وقالت لـ «بلوك»: «كلمة بصوت عال، فيه شيء من الصمم، ولكنه سيقول لك كل ما تريد، فقد عرف حق المعرفة بيسمارك وكافور. أليس أنك عرفت بيسمارك حق المعرفة؟» تقول بصوت عالٍ.

وسألني السيد «دو نورويوا» بايماءة يبطئها التواطؤ وهو يشد على يدي بحرارة: «هل لديك عمل باشرته؟» فاشتغلت الفرصة كي أخذ منه بلطف القبعة التي ظن من واجبه أن يجيء بها بمثابة طابع رسميات إذ تبينت لتوي أن ما أخذه كيما تيسر إنمّا كان قبعتي. «لقد سبق أن أريتني مؤلفاً صغيراً على شيء من التصنع كنت تبلغ فيه في تعقيد الأمور. وقد أبديت لك رأيي بصراحة، فلم يكن ما فعلته جديراً بأن تسطره على الورق. فهل تعد لنا أمراً ما؟ إنك شغوف جداً بـ «بيرغوت»، إن كنت أذكر تماماً. وصاحبت الدوقة قائلة: «لا تتناول «بيرغوت» بالسوء». — «لست أشك في موهبة الرسام لديه، فليس من يتبادر الأمر إلى ذهنه أيها الدوقة. إنه يحسن النقش بالازميل أو يحمض الأزوت إن لم يقم برسم الخطوط العريضة لتأليف ضخم على غرار السيد «شيربوليه». ولكنما يبدو لي أن عصرنا يخلط بين أنواع الفنون وأن من شأن الروائي أن يحكي الحكمة ويسمو بالقلوب أكثر منه أن يزوّق بالنقاش واجهة أو نقشة تذييل». وأضاف وهو يلتفت إلي: «سوف أرى والدك نهار الأحد لدى هذا الطبيب المدعو أ. ج.».

ومنيّت النفس لحظة إذ رأيته يتحدث إلى السيدة «دو غيرمانت» بأنه ربما مدّ لي للذهاب إلى منزلها يد العون التي سبق أن حجبها عني للذهاب إلى منزل السيدة «سوان» فقلت له: «هنالك مظهر آخر من مواطن إعجابي الكبير، إنه «ايلستير» ويبدو أن الدوقة «دو غيرمانت» تملك لوحات رائعة له ولاسيما ضمة الفجل البديعة التي لاحتها في المعرض والتي وددت كثيراً لو أراها ثانية، فأية رائعة فنية تمثلها تلك اللوحة!» ولو تسنى لي بالفعل أن أكون رجلاً مرموقاً وسئلت أي رسم أفضل لذكرت ضمة الفجل تلك.

وصاح السيد «دو نورويوا» بهيئة المستغرب اللائم: «رائعة فنية؟ إنها لا تبلغ حتى مستوى اللوحة، بل هي مجرد رسم أولي (وكان على حق). فان دعوت بالرائعة الفنية هذه العجالة السريعة فما بالك بـ «عذراء» هيبير أو دانيان بوفريه؟»

وقالت السيدة «دو غيرمانت» لعمتها بعدما انتحى «بلوك» بالسفير ناحية: «سمعت أنك ترفضين صديقة

«روبير»، وأحسب أن ليس ما تأسفين عليه، تدرين أنها شيء شنيع، فليست تملك ذرة موهبة وهي إلى ذلك مضحكة».

قال السيد «دارجنكور»: «ولكن كيف تعرفينها أيّتها الدوقة؟»

— «كيف، ألا تعلم أنها مثلت لديّ قبل كل الناس؟ ولست أكثر اعتزازاً لذلك»، تقول السيدة «دو غيرمانت» ضاحكة، ويسعدّها مع ذلك، إذ يتمّ الحديث عن تلك الممثلة أن تعلن أنها قطعت باكورة مساحرها. وتضيف قولها: «هيا، ما عليّ بعد سوى الرحيل»، دون أن تتحرّك.

لقد أبصرت منذ قليل زوجها داخلاً وكانت تلمح بالكلمات التي تنطق بها إلى سخرية أن يدوا وكأنهما يقومان سوية بزيارة عرس، لا إلى العلاقات الصعبة في الغالب التي كانت قائمة بينها وبين هذا الرجل الضخم القويّ البنية المتشيخ الذي كان يعيش دوماً مع ذلك حياة الشباب. كان الدوق يتقدّم وهو ينقل على العدد الكبير من الأشخاص المحيطين بمائدة الشاي النظرات الأنيسة الخبيثة التي بهرتها بعض الشيء أشعة الشمس الغاربة، نظرات حذقته الصغيرتين المستديرتين المستقرتين بدقة في العين شأن مراكز الدريعات التي كان يجيد التسديد إليها وإصابته على أكمل وجه هذا الرامي الممتاز الذي يمثله، كان الدوق يتقدّم ببطء مفتون حذر كما لو خشى، وقد بعثت في نفسه الرهبة جماعة لامعة إلى هذا الحدّ، أن يسير على الفساطين ويخرب الأحاديث. وكانت تسمح له ابتسامة دائمة تلونها الطيبة الساذجة والنشوة الخفيفة ويد نصف مفتوحة تخفق كما جناح سمك القرش إلى جانب صدره ويطلقها ليشدّ عليها دونما تمييز أصدقائه القدامى والمجهولون الذين يقدّمون له، أن يرضي حماسة الجميع دون أن يقع عليه القيام بحركة واحدة أو يقطع جولته البشوشة الكسلى الملكية، وهو يهمس فقط: «مساء الخير أيّها الطيب»، مساء الخير بإصديقي العزيز، سرتي اللقاء ياسيد «بلوك»، مساء الخير يا «أرجنكور». وعلى مقربة منّي، أنا الذي نال أكبر حظوة، قال بعدما سمع اسمي: «مساء الخير يا جاري الصغير، كيف حال أبيك؟» وأضاف قوله كي يرضي كبريائي: «يا للرجل الطيب! تدري أننا رفيقان حميمان». ولم يقدم على تظاهرات عريضة إلا تجاه السيدة «دو فيلباريزيس» التي حيّته بإشارة من رأسها وهي تسلّ يداً من صدرتيها الصغيرة.

كان ثرياً هائل الثراء في عالم ترى الناس فيه أقلّ فأقلّ ثراء، وقد مائل باستمرار بين شخصه وفكرة هذه الثروة الضخمة فاقتن اعتداد السيد الكبير لديه باعتداد رجل المال وتكاد لاتفلح تربية الأوّل المرفهة في كبح غرور الثاني. وكنت تدرك على أي حال أن نجاحاته النسائية التي كانت مصدر شقاء لزوجته لم يكن مردّها محض اسمه وثروته، إذ كان لا يزال على جمال كبير وفي خطوط وجهه نقاء إله يوناني وثبات تقاطيعه.

وسأل السيد «دارجنكور» الدوقة قائلاً: «أهي حقاً مثلت في منزلك؟»

— «ويحك، لقد جاءت للإشاد وفي يدها باقة زنبق و«عا» فسطانها زنايق أخرى». (كانت السيدة «دو غيرمانت» تبدي، شأن السيدة «دو فيلباريزيس» تكلفاً في تلفظ بعض الكلمات على نحو فلاحى تماماً، مع أنها لا تنطق بعض الحروف بطريقة عمّتها).

وقبل أن يصطحب السيد «دو نوربوا»، مكرهاً مرغماً، «بلوك» إلى الشرفة الصغيرة حيث يمكنهما التحدث معاً، عدت لحظة إلى الديبلوماسي الشيخ وأسرت إليه بكلمة حول مقعد في الجمع لوالدي. وأراد بادئ الأمر إرجاء الحديث إلى ما بعد. ولكنني اعترضت بأنني أزمع الذهاب إلى «البليك». «عجبا! أتذهب من جديد إلى «البليك»؟ إنك لجواب أفاق حقيقي!» ثم أصغى إلي. ولدى سماع اسم «لوروا بوليو» نظر إلي السيد «دو نوربوا» نظرة مرتاب. وخيل إلي أنه ربما تفوه أمام السيد «لوروا بوليو» بأقوال مسيئة بحق والدي وأنه يخشى أن يكون الاقتصاد قد رددها أمامه. وبدا في الحال يهزه وداد حقيقي إزاء والدي. وبعد واحد من تلك الإبطاءات في الإلقاء التي تنفجر فيها عبارة مفاجئة وكأنما غصباً عن المتحدث الذي يجرف اليقين الذي لا يقاوم لديه ما كان يندل من جهود متعثرة ليصمت، قال لي بانفعال: «لا، لا، ينبغي ألا يتقدم والدك. ولا ينبغي ذلك لصالحه هو، وإجلالاً لقدره، وهو عظيم، وربما أساء إليه في مغامرة كهذه. إنه يساوي أفضل من ذلك، وهو إن تم تعيينه سيخسر كل شيء ولا يكسب شيئاً. وما هو بالخطيب لله الحمد. وذلك هو الشيء الوحيد المعتبر لدى زملائي الأعزاء وإن كان ما يقال محض ترهات. إن لوالدك هدفاً هاماً في الحياة ويجدر به أن يسير رأساً إليه دون أن يسمح بأن يثنيه عن ذلك الطواف في البراري، وإن كانت براري ربّ الجمع، وشوكها مهما تكن الحال أكثر من زهرها. وهو إلى ذلك لن يجمع إلا بضعة أصوات. والجمع يحب أن يخضع المرشح للتدريب قبل أن يقبله في حظيرته. لانمرة في الوقت الراهن، أما فيما بعد فلست أمانع. بيد أنه لا بد من أن يجيء الجمع نفسه ليبحت عنه، فهو يمارس سياسة «القرار المستقل» التي ينادي بها جيراننا خلف جبال الألب وذلك بما هو أقرب إلى الصنمية منه إلى الفلاح. لقد حدثني «لوروا بوليو» عن كل ذلك بطريقة لم ترقني. وقد بدا لي للوهلة الأولى أنه على اتفاق مع والدك؟.... ربما حملته بلهجة قاسية بعض الشيء إلى الإحساس بأنه لا يحسن، وقد تعود الاهتمام بالأقطان والمعادن، أن يدك دور دقائق الأمور، على حدّ قول بيسمارك. ما ينبغي تجنبه قبل أي شيء أن يقدم والدك ترشيحه: *Principiis obsta* ^(١) وقد يلقي اصدقاؤه أنفسهم في وضع حرج إن جابههم بالأمر الواقع». وقال فجأة بلهجة صريحة وهو يثبت عليّ عينيه الزرقاوين: «خذ مثلاً، سأقول لك أمراً سوف يدهشك من جانبي أنا الذي يجب والدك إلى هذا الحد. أجل، بالضبط لأنني أحبه (فنحن لا يفارق أحدنا الآخر *Arcades ambo*) ^(٢) ولأنني أعرف بالضبط الخدمات التي يمكن أن يؤديها لبلاده والمخاطر التي يمكن أن يجنبها إياها إن ظلّ يمسك بالدفة فلن أصوت له بداعي المودة والتقدير الرفيع والوطنية! وأحسب على أية حال أنني ألحّت إلى ذلك. (وحسبتي أبصر في عينيه تقاطيع «لوروا بوليو» الآشورية القاسية). وإنما يعني منحه صوتي ضرباً من التراجع». وعد السيد «دونوربوا» زملاءه بمثابة مستحاثات مرآت عديدة. وإنما يحب كلّ عضو في نادٍ أو مجمع، بمعزل عن الأسباب الأخرى، أن يولي زملاءه نوع الطبايع الأكثر تعاضداً مع طباعه وذلك للاعتزاز الذي يداخله أن يبرز اللقب الذي ناله على أنه أكثر صعوبة وأبعث على الزهو أكثر منه لجدوى أن يمكنه القول: «آه! لو لم يكن من يد في الأمر إلا لي!» وخلص إلى

(١) العبارة لاتينية، وتعني التمسك بالمبادئ، وبما أن المتحدث عضو في الجمع فإنه يرى حسناً أن يلجأ إلى اللاتينية، بين الحين والحين.

(٢) العبارة لشاعر الرومان الأول (فيرجيليوس) وتعني الأركاديين الإثنين ويرمز بها إلى زوج من الأغبياء، ولعل «دونوربوا» لا يتبين المعنى الأخير.

القول: «سأقول لك، وذلك لصالحكم جميعكم، إنني أفضل لوالدك انتخاباً مظهرأ بعد عشرة أعوام أو خمسة عشر عاماً». وقد حكمت أن تلك الأقوال إن لم تملها الغيرة فقد أملاها على الأقل غياب كليّ لحب المعروف وقد اتخذت فيما بعد من الحادثة نفسها معنى مختلفاً^(١) وقالت الدوقة لزوجها: «تعرف عمن نتحدث يا «بازان»؟

فقال الدوق: «حزرت بالطبع. آه! ليست ما نسميه بممثلة من سلالة العظماء».

وعادت السيدة «دو غيرمانت» تقول وهي توجّه الكلام للسيد «دار جنكور»: «لم تتصور قطّ ما كان أكثر إثارة للسخرية».

وقاطع السيد «دو غيرمانت» قائلاً: «بل كان إلى ذلك مسلياً»، وكانت كلماته الغريبة تسمح في الآن نفسه لرجال المجتمع أن يقولوا إنه لم يكن غيباً ولرجال الأدب أن يلقوه من أبشع المعتوهين.

وأردفت الدوقة: «لا أستطيع أن أفهم كيف استطاع «روبير» أن يحبها في يوم. أوه! أعرف تماماً أنه لا ينبغي البتة مناقشة هذه الأمور»، تضيف قولها ولها عسة حلوة لفيلسوف ولعاطفية مخيئة الآمال. «وأعلم أن أيّاً كان يمكن أن يحب أيّ شيء كان». ثم أضافت: «بل إن ذلك ماهو جميل في الحب، فهو بحقّ ما يجعله مكتنفاً بالأسرار»-، ذلك أنها إن كانت لاتزال تسخر من الأدب الجديد، فقد تسرّب هذا الأخير قليلاً إلى نفسها ربّما بطريق التبسيط الصحافيّ أو من خلال بعض الأحاديث-.

وقال الكونت «دار جنكور»: «مكتنف بالأسرار! أقرّ أن الأمر يجاوزني قليلاً يا ابنة العم».

فأردفت الدوقة تقول باهتسامة عذبة لامرأة مجتمعات لطيفة، بل كذلك بالقناعة المشدّدة التي لواحدة من نصيرات «فاغتر» تؤكد لرجل منتدئ أن ليس في مسرحية «الفالكيري» ضجيج فحسب: «بلى، الحبّ مكتنف بالكثير من الأسرار. وعلى أية حال، لمست تعرف في الأساس لماذا يحبّ شخص آخر غيره. وقد لا يكون الأمر البتة ما نحسب»، تضيف مبتسمة ومستبعدة بذلك دفعة واحدة بفعل تفسيرها الفكرة التي فاهت بها منذ قليل وخلصت إلى القول بلهجة مرتابة متعبة: «والمرء على أية حال لا يعرف قطّ شيئاً. وينبغي لذلك،

(١) وسأل مؤرخ حركة التمرد السيد «دونوربوا» بوسجل قائلاً: «أليس في نيتك أن نتحدّث المعهد عن ثمن الخبز في أثناء حركة التمرد؟ فقد تلاقي في ذلك نجاحاً هائلاً» (الأمر الذي كان معناه تقوم بدعاية ضخمة لي)، يضيف قوله وهو يتسم للسفير بجبانته، إلا أنه يفعل ذلك بحنان جمل يرفع أجفانه ويكشف عن عينيه، وهما في اتساع السماء. كان يبدو لي أنني رأيت تلك النظرة مع أنني ما عرفت السفير إلا اليوم. وتذكرت فجأة: هذه النظرة نفسها سبق لي أن رأيته في عيني طبيب برازيلي كان يدعي شفاء الاختناقات التي من قبيل ما كان يصيبي ذلك بتنشقات لاتصدق لخلاصات نباتات، ولما كنت قد قلت له، كيما يهتم بي اهتماماً أكبر، أنني أعرف الأستاذ «كوتار» أجباني وكأنما في صالح «كوتار»: «إليك علاجاً يزوده، إن أنت حدثته عنه، بالمادة اللازمة ليبحث مدو يرفعه إلى المجمع الطبي»! ولم يجرؤ على الإلحاح، ولكنه نظر إليّ بالهيفة المستفسرة الوجهة نفسها المهتمة المتوسلة التي أعجبت بها منذ قليل لدى مؤرخ حركة التمرد. صحيح أن هذين الرجلين لم يكن يعرف أحدهما الآخر ويكاد لا يشبه أحدهما الآخر، ولكن القوانين النفسية تتمتع، شأن القوانين الفيزيائية ببعض العمومية. وإن كانت الشروط اللازمة واحدة فإن النظرة نفسها يمكن أن تنير حيوانات إنسانية مختلفة مثلما تنير السماء الصباحية نفسها أماكن في الأرض بعيداً بعضها عن بعضها الآخر، ولم يشاهد أحدها الآخر قط. ولم أسمع جواب السفير لأن الجميع كانوا قد اقتربوا بشيء من الضجيج من السيدة «دوفيلارييس» ليشاهدوها ترسم.

تدري، ألأناقش البتة في اختيار العشاق، فذلك يتم عن ذكاء أكبر.

ولكنها بعدما طرحت هذا المبدأ خرقتة في الحال بانتقادها اختيار «سان لو».

— «تدري مع ذلك، إني أرى عجباً أن يستطيع المرء أن يجد فتنة في شخص يثير السخرية».

وإذ سمع «بلوك» أننا نتحدث عن «سان لو» وأدرك أنه في باريس أخذ يتناوله بسوء مريع إلى حد أثار الجميع. لقد أخذت تخالجه الأحقاد وكنت تحس أنه لن يتراجع أمام شيء بغية إشباعها. ولما طرح بمثابة مبدأ أنه يتمتع بقيمة أخلاقية عالية وأنَّ صنف الناس الذين يرتادون «لابولي» (وهو ناد رياضي كان يحسبه أنيقاً) إنما هم أهل للسجن فقد كانت تبدو له جميع الضربات التي يمكن أن يلحقها بهم جديرة بالثناء. وبلغ به ذات مرة أن يتحدث عن دعوى كان يبغى إقامتها على أحد أصدقائه من نادي «لابولي». كان ينوي أثناء تلك الدعوى أن يشهد شهادة كاذبة لا يستطيع المتهم مع ذلك إقامة الدليل على زيفها. كان «بلوك» الذي لم ينفذ على أية حال مشروعه يظن أنه يبعث بهذه الطريقة اليأس في نفسه ويزيد من ذعره. وأي سوء في ذلك بما أن الذي كان يبغى ضربه على هذا النحو رجل لا يفكر إلا بالأناقة، رجل من نادي «لابولي»، وأن جميع الأسلحة مصرَّح بها ضدَّ مثل هؤلاء القوم ولاسيما لُقديس مثله هو، «بلوك»؟

ويرد السيد «دارجنكور» بقوله: «ولكن خذي «سوان» مثلاً، بعدما أدرك آخر الأمر معنى الأقوال التي تفوَّهت بها ابنة عمه ودهش لصحتها وأخذ يبحث في ذاكرته عن مثال لجماعة أحبوا أشخاصاً ما كانوا ليروقوه.

واحتجت الدوقة قائلة: «سوان حالة مختلفة تماماً. كان الأمر مع ذلك مدهشاً جداً لأنها بلهاء طيبة القلب ولكنها لم تكن مضحكة وقد كانت جميلة».

وغمغمت السيدة «دو فيلباريزيس»: «هيه، هيه».

— «آه! ما كنت ترين أنها جميلة؟ بلى، كانت لها مفاتيها، عينان جميلتان جداً وشعر جميل وكانت ملابسها ولا تزال رائعة. إني أعترف أنها مقرفة الآن، ولكنها كانت فيما مضى امرأة فائنة. ولم يكن غمي بذلك أقلَّ أن تزوجها «شارل» لأنَّ الأمر كان عديم الجدوى إلى حدِّ بعيد».

وما كانت الدوقة تحسب أنها تقول شيئاً ملفتاً ولكنما أخذ السيد «دارجنكور» في الضحك فكررت الجملة إما لأنها وجدتْها غريبة أو أنها ألقت الضحك لطيفاً فشرعت تنظر إليه نظرة مغناجة لتضيف إلى سحر الظرافة فتنة الحلاوة. وتابعت تقول:

«أجل، أليس كذلك، لم يكن من داع للأمر؛ على أنها لم تكن عديمة الفتنة وأدرك تماماً أن أحببها، في حين أن آنسة «روبير» بالتأكيد مضحكة إلى حدِّ الموت. أعرف تماماً أنهم سيرون عليَّ بهذه اللازمة القديمة لـ «أوجيبه»: «لا شأن للقارورة شرط أن تبلغ النشوة!» حسن، ربَّما حاز «روبير» النشوة ولكنه بالحققة لم يبرهن عن ذوق في اختيار القارورة! تصوّر بادئ الأمر أنها طالبتني بأقامة درج في قلب صالتي. والأمر زهيد، أليس ترى، ثم هي أخبرتني أنها ستظل منبطحة على بطنها فوق الدرجات. ولو أنك سمعت من جهة ثانية ما كانت تقول، أنا لا أعرف سوى مشهد واحد، ولكني لا أحسب بالامكان تخيل ما كان من هذا

القبيل: إنهم يدعون ذلك بـ «الأميرات السبع». وصاح السيد «دارجنكور» قائلاً:

— «الأميرات السبع! آه! أجل، أجل، باللسنوية! ولكن صبرك، فأني أعرف الرواية كاملة. لقد بعث بها المؤلف إلى الملك الذي لم يفهم فيها شيئاً وسألني أن أشرح ذلك.»

وسأل مؤرخ حركة التمرد بقصد إبداء الذكاء المرفه والراهنية، ولكن بصوت خافت إلى حد أن سؤاله لم يلفت الانتباه: «ألا يصادف أن يكون ذلك من أعمال «سارييلادان»؟

وردت الدوقة على السيد «دارجنكور» قائلة: «أو تعرف «الأميرات السبع»؟ تهاني لك كل التهاني! أما أنا فلا أعرف سوى واحدة ولكن ذلك أفقدني الشوق إلى التعرف بالست الأخريات. فإن كن جميعاً شبيهات بتلك التي رأيتها!»

وفكرت في نفسي قائلاً: «ياللغبية!»، وقد أغضبني الاستقبال الجاف الذي قابلتني به.. ووجدت نوعاً من الارتياح العميق في ملاحظة لفهمها التام لـ «ميتزلنك». «أثلل هذه المرأة أسير في كل صباح هذه الكيلومترات الكثيرة، إني طيب النفس حقاً! وإنما أنا الآن من لا يرضى بها.» تلك كانت العبارات التي كنت أقولها بيني وبين نفسي، وكانت عكس تفكيري؛ كانت محض أقوال في حديث شبيه بما نسر به لأنفسنا في هذه اللحظات التي يجاوز فيها اضطرابنا حد البقاء وحدنا مع ذواتنا فنحس بحاجة التحدث إلى أنفسنا في غياب أي محاور آخر، وذلك دونما صدق وكأنما إلى غريب.

وتابعت الدوقة قولها: «لا أستطيع أن أزودك بفكرة عن ذلك فقد كان يثير أعنف الضحك. ولم نقصر فيه، بل جاوزنا الحد لأن المرأة الصغيرة لم تعجب به، وقد ظل «روبير» حاقداً عليّ من جراء ذلك، الأمر الذي لا أسف له على أية حال فقد كانت عادت الأنسة لو أنها صادفت نجاحاً، وأنساءل إلى أي مدى كانت «ماري إينار» ستعبط له.»

هكذا كانوا يسمون في العائلة والدة «روبير» السيدة «دو مارسانت» أرملة «إينار دو سان لو» ليميزوا بينها وبين ابنة عمها الأميرة «دو غيرمانت بافيير»، وهي ماري أخرى، كان أبناء أشقائها وأعمامها وأصهارها يضيفون إلى اسمها بغية تلافي الاختلاط إما اسم زوجها وإما واحداً من أسمائها الأخرى، الأمر الذي كان يفضي إياها إلى «ماري جيلبير» أو إلى «ماري هيدويج».

وتابعت السيدة «دو غيرمانت» بلهجة ساخرة: «تم بادئ الأمر في عشية ذلك اليوم نوع من التجربة، كان شيئاً رائعاً! تصور أنها كانت تقول جملة، وهي حتى لا تبلغها، بل ريع جملة، ثم تتوقف، ولا تقول شيئاً من بعد، ولست أبالغ، على مدى خمس دقائق.»

وصاح السيد «دارجنكور»: «بلى، بلى، بلى!»

— «لقد سمحت لنفسني أن ألمح بأقصى التهذيب إلى أن الأمر ربما يثير بعض الدهشة، فأجابتني بالحرف: «ينبغي أبداً أن نقول الشيء وكأنما نحن ماضون شخصياً في تأليفه.» والجواب ضخم إن أنت فكرت فيه!»

وقال أحد الشباب: «ولكنني كنت أحسبها تحسن إلى حد ما قول الأشعار».

فأجابت السيدة «دوغيرمانت»: «إنها لا ترتاب في ما يكون ذلك. ولم أحس على أية حال بالحاجة إلى سماعها. فقد اكتفيت برؤيتها تحمل زنابق! لقد أدركت في الحال أنها لا تتمتع بموهبة حينما رأيت الزنابق! وضحك الجميع».

— «ألم تغضبي مني يا عمتي لقاء مزاح ذاك اليوم بشأن ملكة السويد؟ لقد جئت أسالك الأمان».

— «لا، لست غاضبة منك وإني أمنتك حتى حق تناول العصرية إن كنت جائعاً».

وقالت السيدة «دو فيلباريزيس» لأمين المحفوظات وفق مزاح أصبح شائعاً: «هيا ياسيد «فالنير»، قم بدور الفتاة».

وانتصب السيد «دو غيرمانت» في مقعده الذي كان مسترخياً فيه وقبعته إلى جانبه فوق السجادة ونظر نظرة راضية إلى قصبات المعجنات المحمصة التي تقدم له.

— «بطيبة خاطر، الآن وقد بدأت ألف هؤلاء الحضور الكرام، أقبل بقطعة «بابا»، فإنها تبدو ممتازة».

وقال السيد «دارجنكور» الذي ردّ مزاح السيدة «دو فيلباريزيس» يدفعه روح التقليد: «إنه يقوم على نحو رائع بدور الفتاة الموكلة إليه».

وقدّم أمين المحفوظات قصعة المعجنات المؤرخ حركة التمرد، فقال له هذا الأخير وجلاً وفي محاولة كسب العطف العام: «إنك تنهض بوظيفتك على نحو رائع».

ورمى الذين سبق أن فعلوا مثله، رماهم خفية بنظرة تواطؤ.

وسأل السيد «دو غيرمانت» السيدة «دو فيلباريزيس» قائلاً: «قولي لي يا عمتي الطيبة من ذاك السيد الحسن الشخصية الذي كان خارجاً حين دخلت؟ لا بد أنني في خصام مع الأسماء، والأمر مزعج جداً»، يقول قول الراضي عن نفسه.

— «السيد لوغراندان»

— «آه! ولكن لـ «أوريان» ابنة عم والدتها، إن لم تخني الذاكرة، من عائلة «غراندان».

فأجابت السيدة «دو فيلباريزيس»: «لا، ليس من صلة البتة، فإنهم من آل «غراندان» فحسب ولا شيء سوى ذلك. ولكنهم إنما يسعون إلى إضافة ما شئت إلى كنيثهم (بما يدلّ على النبلاء)^(١). إن شقيقة هذا

(١) ما ورد بين قوسين مضاف إلى النص الفرنسي في محاولة لايضاح الفكرة. ويعرّف ارستقراطيو فرنسه بإضافة اسم إلى كنيثهم يمثل بعامّة أحد ممتلكاتهم من قصر أو أرض والسيدة تنفي أن يكونوا من النبلاء، فيما يسعون هم إلى كسب الصفة.

الأخير تدعى السيدة «دو كامبرمير».

وصاحت الدوقة غاضبة: «ويحك يا «بازان»، تعلم تماماً عمن تبغي عمتي التحدث، إنه شقيق تلك العاشبة الضخمة التي خطرت لك فكرة غريبة في إرسالها للقائي ذلك اليوم. لقد مكثت ساعة وحسبت أنني سأجنّ. ولكنني بدأت أعتقد أنها هي المجنونة إذ رأيت امرأة تدخل بيتي ولا أعرفها وتبدو كأنها بقرة.»

- «اسمعي يا «أوريان» لقد طلبت مني يوم استقبالك فما كان بمقدوري أن أرتكب فظاظة إزاءها، ثم إنك تبالغين، ويحك، فليس يبدو أنها بقرة، يضيف قوله بلهجة شاكية، ولا يفعل دون أن يلقي خلسة على الحضور نظرة تشرق فيها ابتسامة.

كان يعلم أن قريحة أمراته بحاجة أن تُستحث بالمعارضة، بمعارضة الحس السليم الذي يعترض على سبيل المثال بأنه لا يمكن أن تعد امرأة بمثابة بقرة (فكثيراً ما أفلحت السيدة «دو غيرمانت» في أداء أفضل كلماتها بمجازاة الصورة الأولى). وكان الدوق يبادر بسذاجة إلى مساعدتها لتنجح في طرفتها دون أن ييدي من ذلك شيئاً مثلما الشريك المستر للاعب يانصيب في عربة قطار.

وصاحت السيدة «دو غيرمانت» قائلة: «أعترف بأنها لاتشبه البقرة لأنها تشبه عدّة بقرات. وأقسم لك أنني كنت شديدة الارتباك إذ رأيت هذا القطيع من الأبقار يدخل بالقبة إلى صالتي ويسألني عن الحال. كنت أرغب من جهة في أن أجيب: «ولكنك تخلط يا قطيع الأبقار فلا يمكن أن تكون على علاقة بي بما أنك قطيع أبقار»، ولكنني ظننت في النهاية، من جهة ثانية، وبعدما بحثت في ذاكرتي، أن «كامبرمير» التي رويت عنها هي صاحبة الرفعة «دوروثيه» التي سبق أن قالت إنها ستأتي مرة، وهي «بقريّة» إلى حدّما، حتى أوشكت أقول يا صاحبة السمو الملكي وأتحدّث بضمير الغائب إلى قطيع أبقار. وإن لها نوع المعدة الثالثة التي تملكها السويد. على أن هذا الهجوم الذي تمّ عنوة سبق الإعداد له بقصص بعيد وفق جميع قواعد الفن. فمنذ مالا أدري من وقت كانت تنهمر عليّ بطاقتها فأجد منها في كلّ مكان وعلى سائر قطع الأثاث وكأنّها نشرات دعائية. كنت أجهل غاية تلك الدعاية. فما كنت ترى في منزلي سوى «المركز والمركيزة دو كامبرمير» إلى جانب عنوان لا أتذكره وأنا مصممة على أية حال ألاّ استخدمه في يوم.»

وقال مؤرخ حركة التمرد: «إنما لمبعث اعتزاز أن تكون شبه الملكات.»

- «يا إلهي، الملوك والملكات في عصرنا ليسوا بالأمر العظيم»، يقول السيد «دو غيرمانت» لأنّه كان يدعي التحرر الفكري والحداثة وكي لا يبدو إلى ذلك أنّه يهتمّ بالعلاقات الملكية التي كانت تهمه كثيراً.

وألّفينا «بلوك» والسيد «دونوربوا» بعدما نهضا أكثر قرباً متّاً.

وقالت السيدة: «هل حلّقت ياسيدي عن قضية «دريغوس»؟

فرفع السيد «دو نوربوا» عينيه إلى السماء ولكنه كان يتسم كائناتاً ليهز ضخمات النزوات التي تفرض عليه ربة أفكاره واجب الخضوع لها. بيد أنّه كلّمْ «بلوك» بكثير من اللطف عن السنوات الرهيبة، بل ربّما

القاتلة التي تجتازها فرنسه. وبما أن ذلك كان يعني على الأرجح أن السيد «دو نوربوا» (الذي سبق أن نقل إليه «بلوك» مع ذلك اعتقاده ببراءة «دريغوس») يقف بعنف ضد «دريغوس»، فإن لطف السفير وما يدي من إقرار بالحق لمحدثه ومن أنه لا يشك بأنهما بريان الرأي نفسه ومن تواطؤ معه للتبديد بالحكومة، كان كل ذلك يدغدغ كبرياء «بلوك» ويثير فضوله. فما هي النقاط الهامة التي لم يكن السيد «دو نوربوا» يحددها ولكنهما يبدو وكأنه يقبل ضمناً بأنه و«بلوك» متفقان عليها، وما الرأي الذي يراه في القضية الذي يمكن أن يجمع بينهما؟ وكان يزيد من دهشة «بلوك» إزاء الاتفاق الغامض الذي يبدو قائماً بينه وبين السيد «دونوربوا» أن ذلك الاتفاق لم يكن يتناول السياسة فحسب، إذ كانت السيدة «دو فيلباريزيس» قد حدثت السيد «دو نوربوا» حديثاً طويلاً إلى حد ما عن أعمال «بلوك» الأدبية.

وقال السفير السابق لهذا الأخير: «لست من عصرك، وإني اهتكتك على ذلك، لست من هذا العصر الذي لا وجود فيه من بعد للدراسات المجردة من المآرب والذي لا يبيعون فيه للجمهور من بعد سوى صنوف الخلاعة أو السخافة. كان جديراً بجهود مثل جهودك أن تلقى التشجيع لو كانت لدينا حكومة».

كان يثير اعتزاز «بلوك» أن يطفو وحده وسط هذا الفرق الشامل. ولكنهما ودّه ههنا أيضاً لو يحصل على إيضاحات ولو يعلم السخافات التي يبغى السيد «دو نوربوا» أن يتحدث عنها. كان «بلوك» يحس بأنه يعمل في الدرب الذي سلكه كثيرون ولم يحسب أنه خارق إلى هذا الحد. وأعاد الكرة على قضية «دريغوس» ولكنه لم يفلح في كشف رأي السيد «دو نوربوا». وحاول أن يحمله على الكلام عن الضباط الذين كانت أسماءهم تتكرر كثيراً على صفحات الصحف في تلك الفترة، وكانوا يثيرون الاهتمام أكثر من السياسيين المشتركين في القضية نفسها لأنهم لم يكونوا معروفين آنذاك شأن هؤلاء، وقد طلعوا منذ قليل وتكلموا في بزة خاصة ومن أعماق حياة مختلفة وصمت التزم بدقة، شأن «لوهانغرين» ينحدر من قارب يقوده تم. وكان «بلوك» قد استطاع بفضل محام وطني يعرفه أن يدخل إلى عدة جلسات من محاكمة «زولا». كان يصل هنالك في الصباح ولا يخرج إلا في المساء يحمل مؤونة من الصانديش وزجاجة قهوة كما هي الحال في المسابقة العامة أو امتحانات البكالوريا، وإذا كان تبديل العادات هذا يوقظ الهياج العصبي الذي تبلغ به القهوة والانفعالات الناجمة عن المحاكمة أقصى حد له، فقد كان يخرج من هناك بالغ العشق لكل ما جرى إلى حد أنه كان يبغى في المساء بعدما يعود إلى منزله أن ينغمس من جديد في الحلم الجميل فيجري ليلاتي في مطعم يرتاده الفريران رفاقاً يعيد معهم حديثاً لا ينتهي عما جرى في النهار ويصلح بفضل عشاء يوصي عليه بلهجة آمرة تخلف في نفسه وهم السلطة الصيام ومتاعب يوم بدأ باكراً جداً ولم يتم فيه تناول طعام الغداء. والإنسان الذي ينتقل باستمرار بين مستويي التجربة والخيال راغب في تعميق الحياة المثلى للناس الذي يعرفهم وفي معرفة الأشخاص الذين تم له تخيل حياتهم. وأجاب السيد «دو نوربوا» على أسئلة «بلوك» قائلاً:

«ثمة ضابطان اشتركا في القضية القائمة وقد سمعت عن أخبارهما فيما مضى على لسان رجل كنت أثق ثقة كبيرة برأيه وكان يقيم وزناً كبيراً لهما (هو السيد «دو ميريبيل»)، وهما المقدم «هنري» والمقدم «بيكار».

وصاح «بلوك» قائلاً: «ولكن «أنيئا» الإلهية ابنة «زيوس» وضعت في عقل كل منهما عكس ما في

عقل الآخر وإتھما ليتصارعان وكأنھما أسدان. كان العقيد «بيكار» يتمتع بمركز كبير في الجيش ولكن البزة قاذته إلى الجانب الذي لم يكن جانبه. وسوف يقطع سيف الوطنيين جسده الرقيق ويضحي غذاء للوحوش اللاحمة والطيور التي تتغذى بشحوم الأموات.»

ولم يحر السيد «دو نوربوا» جواباً.

وسأل السيد «دو غيرمانت» السيدة «دو فيلباريزيس» وهو يشير إلى السيد «دو نوربوا» و«بلوك»: «عما يثرثران في زاوية هناك؟»

— «عن قضية دريفوس»

— «يا ويحهما! هل تعلمين بالمناسبة من يناصر «دريفيوس» إلى حدّ الوله؟ لاسبيل البتّة لأن تخزري. إنّه ابن أخي «روبير»! بل سأقول لك إنهم عندما بلغتهم تلك المآثر في نادي الفروسية ثاروا ثورة عارمة وأحلقوا صيحات الاستنكار. وبما أنّه سيتم تقديمه بعد ثمانية أيام...»

وقاطعته الدوقة قائلة: «بالطبع، إن كانوا جميعهم على شاكلة «جيلبير» الذي أكد دوما أنّه ينبغي طرد جميع اليهود إلى القدس...».

وقاطع السيد «دارجنكور» بدوره: «إذن فالأمير «دو غيرمانت» يماشي أفكاره تماماً.»

كان الدوق يتباهى بأمّته ولكنه لا يحبها. وإذا كان شديد الإعجاب بنفسه فقد كان يكره أن يقاطع، ثم إنّه كان من عاداته في منزله أن يعاملها بفظاظة. وهزه غضب مزدوج، غضب الزوج السيئ الذي يجري التحدّث إليه والتحدّث المتحذلق الذي لا يتم الإصغاء إليه فتوقف على الفور ورمى الدوقة بنظرة أربكت الجميع. وأخيراً قال:

«ما الذي دهاك لتحذّرينا عن «جيلبير» والقدس؟ فما هذا هو الأمر.» ولكنه أضاف بلهجة مطلقة: «ستقرّين أنّه إنّ رفض واحد منا في نادي الفروسية، ولاسيما «روبير» الذي كان والده رئيساً على مدى عشرة أعوام، فسيكون ذلك قمة المصيبة. لأحول لنا في ذلك ياعزيزتي، لقد جنّ هؤلاء الناس وحملقوا بعيونهم. ولا أستطيع أن أحقّهم. تعلمين أنّي شخصياً خلّو من أيّ تحيز عرقي فلست أرى أنّ ذلك يماشي عصرنا وأنّي عازم على مسيرة الركب. ولكن، ويحك! حينما يحمل المرء اسم المركز «دو سان لو» فليس له أن يكون من أنصار «دريفيوس»، ماذا تبغينني أن أقول!..»

وتلفظ السيد «دو غيرمانت» بهذه الكلمات: «حينما يحمل المرء اسم المركز «دو سان لو» بلهجة مفخمة. كان يعلم مع ذلك تمام العلم أنّ حمل اسم «الدوق دو غيرمانت» أرفع شأنًا بكثير. ولكن كان اعتزازه بنفسه ميالاً إلى أن يضخّم في عينيه بالأحرى تفوّق لقب الدوق «دو غيرمانت» فربما لم تكن تدفعه إلى التقليل منه قواعد الدوق السليم بقدر ما يراه لدى الآخرين. ذلك أن القوانين التي تحكم المنظور في الخيلة إنّما تنطبق على الناس الآخرين سواء بسواء. وليس الأمر أمر قوانين الخيلة فحسب بل أمر قوانين اللغة كذلك.

وكان يمكن هنا أن ينطبق هذا أو ذاك من قانوني اللغة. فالأول يقضي أن يتحدث المرء مثل جماعة طبقته الذهنية لا طبقته الأصلية. كان يمكن للسيد «دو غيرمانت» نتيجة لذلك أن يدين في تعابيره، حتى حينما ينبغي التحدث عن طبقة النبلاء، لصغار البورجوازيين الذين ربما قالوا: «حينما يحمل المرء اسم الدوق «دو غيرمانت» فيما لعلّ رجلاً مثقفاً من أمثال «سوان» و«لوغراندان» ما كان ليقول ذلك. يستطيع دوق أن يكتب روايات سمّان حتى حول أخلاق المجتمع الراقي فهنا لا تفيد ألقاب النبلاء في شيء ويمكن لكتابات رجل من عامة الشعب أن تحوز صفة الارستقراطية. فمن تراه كان في هذه الحالة البورجوازي الذي سمعه السيد «دو غيرمانت» يقول: «حينما يعي المرء»، إنه دونما شك لا يعلم شيئاً من ذلك. ولكنّ ثمة قانوناً آخر في اللغة قوامه أنه ينبثق بين الحين والحين، مثلما تظهر ثم تبتعد بعض الأمراض التي لاتسمع من بعد من يتحدث عنها، ينبثق دون أن نعلم كيفية الأمر، إمّا تلقائياً بفضل مصادفة شبيهة بتلك التي أنبتت في فرنسه عشبة ضارة من أميركا سبق أن سقطت بذرتها العالقة بوير غطاء صوف سفريّ على سفح خطّ حديد، طرائق تعبير تنأى إلى الأسماع في العقد نفسه على لسان أناس لم يتوافقوا في الأمر. ومثلما سمعت «بلوك» في إحدى السنين يقول وهو يتحدث عن نفسه: «لما لاحظ أكثر الناس ظرفاً وأشدّهم تالقاً وأفضلهم رزاة وأكثرهم تشدداً أن ليس سوى رجل واحد يروونه ذكياً وممتعا وهو بلوك»، والجملة نفسها على لسان العديد غيره من الشبان الذين لا يعرفونه والذين يحلون محلّ «بلوك» فحسب اسمهم الخاص، كذلك كان ينبغي أن أسمع كثيراً عبارة «حينما يدعي المرء».

وتابع الدوق قوله: «ما عساك تبغين، مع الروح السائدة هنا يصبح الأمر قريب الإدراك».

فأجابت الدوقة: «الأمر مضحك على وجه الخصوص إذا نظرنا إلى أفكار والدته التي تزهقنا من الصباح إلى المساء بـ«الوطن الفرنسي»».

- «أجل، ولكن والدته ليست وحيدة هناك، وينبغي ألا تروي لنا الأكاذيب. هنالك امرأة لعوب، بهلوانة من أسوأ طينة وهي أشدّ تأثيراً عليه وهي بالضبط من موطن «السيد دريفوس». وقد نقلت إلى «روبير» عقليتها».

وقال أمين المحفوظات الذي كان أمين اللجان المعادية لإعادة النظر في الدعوى: «ما كنت ربما تعلم ياسيدي الدوق أن ثمة كلمة جديدة للتعبير عن نمط التفكير هذا. إنهم يقولون «الذهنية». وهي تعني الشيء ذاته تماماً ولكننا لا نعرف أحد على الأقل ما الذي ترمي إليه. إنها الخلاصة و«آخر ما جادت به القرائح»، كما يقولون».

وإذ سمع في هذه الأثناء اسم «بلوك» رآه يطرح أسئلة على السيد «دو نوربوا» باضطراب بعث بدوره اضطراباً مختلفاً في نفس المركيزة ولكنه يساويه شدة. كانت ترتجف أمام أمين المحفوظات وهي تصطنع مناهضة «دريفوس» معه وتخشى ملامته إن هو تبين أنها استقبلت يهودياً ينتسب إلى حذماً إلى «النقابة».

وقال الدوق: «آه! ذهنية، سأسجل ذلك وأعود فأستخدمه. (ولم تكن صورة بلاغية فقد كان الدوق يحمل دفترًا صغيراً مليئاً «بالشواهد» وكان يعيد قراءتها قبل مآدب العشاء الكبرى. تروقني «الذهنية». هناك من

هذا القبيل لفظات جديدة يطلقونها ولكنها لاتدوم. لقد قرأت مؤخراً من هذا القبيل أن الكاتب يكون «مواهبياً». هياً أفهم إن كنت تستطيع. وما عدت رأيت اللفظة ثانية.»

وقال مؤرخ حركة التمرّد بغية المشاركة في الحديث: «ولكنّ «ذهنية» أكثر استعمالاً من «مواهبى». فأني عضو إحدى اللجان في وزارة التعليم العام وقد سمعتهم يستخدمونها عدّة مرّات، وكذلك في نادي، نادي «فولنيه»، وحتى في مأدبة عشاء لدى السيد «أميل أوليفيه».

- «أمّا أنا الذي لم يحز شرف عضوية وزارة التعليم العام». يجيب الدوق قوله بتواضع متصنع، ولكنّما يفعل بغرور عميق إلى حدّ أن فمه لا يستطيع الحؤول دون أن يتسم وعينه دون أن ترمي الحضور بنظرات تغتلي سرورا ويحمرّ من سخرتها المؤرخ المسكين، «أنا الذي لم يحز شرف عضوية وزارة التعليم العام». يقول ثانية وهو يصغى إلى مايقول، «ولانادي فولنيه (فاني عضو في الاتحاد وفي نادي الفروسية فحسب...) وسأل المؤرخ الذي اشتّم في السؤال وقاحة فلما لم يفهمها أخذ يرتعد كلّ عضو فيه: «ألست من نادي الفروسية ياسيد؟ أنا الذي لايتعشى حتى في منزل السيد «أميل أوليفيه» فإني أقرّ بأنّي ما كنت أعرف كلمة «ذهنية». ويقيني أنك في مثل حالي يا «أرجنكور».... تعرف لماذا لا يمكن إقامة الدليل على خيانة «دريفوس». ذلك لأنّه فيما يبدو عشيق امرأة وزير الحرب، هذا ماتتافله الأفواه في الظلام».

وقال السيد «دار جنكور»: «آه! ظننته عشيق امرأة رئيس مجلس الوزراء».

وقالت الدوقة «دو غيرمانت» التي كانت تصرّ أبداً، على صعيد المجتمع، أن تظهر للعيان أنّها لاتدع لأحد أن يقودها: «أراكم تتساوون جميعاً في ابلائي ضجراً قاتلاً في هذه القضية. إنّها لايمكن أن تحمل بالنسبة إليّ تبعه على صعيد اليهود للسبب البسيط الذي مفاده أن ليس منهم بين معارفي وأنا عازمة أن أظلّ دوماً داخل هذا الجهل السعيد. ولكنّي أراني لا أطيع أن تفرض علينا «ماري إيتار» أو «فيكتور نيين» طائفة من زوجات لزيد أو عبيد ما كنّا لنعرفهنّ بحجة أنّهنّ مستقيمات الرأي أو أنّهن لا يتعن شيئا من الباعة اليهود وأنّه قد كتّب على شمسيتهنّ «الموت لليهود». لقد ذهبت إلى منزل «ماري إينار» قبل البارحة. كان بديعاً فيما مضى، أمّا الآن فتجدين فيه كلّ الأشخاص الذين قضيت حياتك في تجنّبهم بحجة أنّهم معادون لـ «دريفوس»، وآخرين لا يخطر لك من عساهم يكونون».

وعاد الدوق يقول: «لا، إنّها زوجة وزير الحرب، تلك على الأقلّ شائعة تتناولها الأفواه»، وكان يستخدم على هذا النحو في الحديث بعض العبارات التي يظنّها متقدمة العهد. «والناس يعلمون على أيّة حال أنّي شخصياً أفكرّ التفكير المعاكس تماماً فيما يخصّ ابن عمّي «چيلير» لست إقطاعياً مثله، وقد أُنزّه مع زنجي إن كان من أصدقائي ولعلّني أهتمّ برأي الثالث أو الرابع كما أهتمّ بسنة الأربعين. بيد أنّه ينبغي مع ذلك الإقرار بأنك حينما تحمل اسم «سان لو» لاتتلهى باتخاذ نقيض أفكار عموم الناس الذين هم أشدّ ذكاء من «فولتير» وحتى من ابن أخي. ولاتنصرف على وجه الخصوص إلى ما اسميه بهلوانيات رقة المشاعر قبل ثمانية أيّام من رفع اسمك إلى النادي! ذلك أمر صعب التصديق. لا، هي على الأرجح عاهرتة الصغيرة التي جعلت الدم يغلي في رأسه، فربّما اقنعتّه بأنّه سيّتمّ تصنيفه في عداد «المثقفين» والمثقفون يشكّلون الجواب الجامع في نظر

هؤلاء السادة. وقد أفضى ذلك إلى تلاعب بالألفاظ جميل إلى حد ما ولكنة لاذع جداً.

وذكر الدوق والسيد «دارجنكور» بصوت خافت جداً: «Mater Semita» ^(١) وكانوا بالحقيقة يتناقلونها في نادي الفروسية، فمن بين جميع البذرات الجوّالة إنّما يشكل المزاح البذرة التي شدت إليها أصلب الأجنحة التي تمكّنها من التشتت إلى مسافة أكبر بعيداً عن مكان ظهورها.

وقال وهو يشير إلى المؤرخ: «بوسعنا أن نستوضح السيد الذي يبدو لي واسع الاطلاع. ولكننا من الأفضل أن لا نتحدّث عن ذلك نظراً لأنّ الأمر خاطئ تماماً. لست في مثل طموح ابنة عمّي «ميربوا» التي تدّعي أنّها تستطيع متابعة أنساب أسرتها قبل يسوع المسيح وحتى عشيرة «لاوي». وأظنّ بمقدوري إقامة الدليل على أنّه لم يكن ثمة نقطة دم يهودي واحدة في عائلتنا. على أنّه ينبغي ألاّ يخدعونا، فمن المؤكّد أن آراء السيد ابن أخي الظرفية يمكن أن تثير ضجة في «لاندرونو». أضف إلى ذلك أنّ «فرنسك» مريض وسوف يتولى «دوراس» كلّ شيء وتعلمين أنّه يعشق خلق الإرباكات» يقول الدوق الذي لم يفلح قطّ في معرفة المعنى الدقيق لبعض اللفظيات وكان يحسب أن خلق الإرباكات إنّما يعني التعقيدات لاصنوف التهريج.

وقاطعته الدوقة قائلة: «وفي جميع الأحوال إن كان «دريفوس» هذا بريئاً فإنه لا يقيم الدليل على ذلك. فأية رسائل غريبة مفحّمة يسطّر من جزيرته! لست أدري إن كان السيد «استرهازي» أفضل منه ولكن له غير تأنقه في طريقه سكب جملة وغير ألوانه. ولا بدّ أن ذلك لا يسرّ أنصار السيد «دريفوس». فيالمصيبة أنّهم لا يستطيعون استبدال بريء بغيره».

وأغرق الجميع في الضحك، وسأل الدوق «دو غيرمانت» السيدة «دو فيلباريزيس» بشغف قائلاً: «هل سمعت نكتة «أوريان»؟ - «أجل، وأجدها مضحكة جداً». وما كان ذلك كافياً في نظر الدوق. - «أمّا أنا فلا أجدها مضحكة؛ أو بالأحرى لا يهمني على الإطلاق أن تكون مضحكة أو لا تكون، فلست أقم أيّ وزن للظرفية». ورفع السيد «دارجنكور» صوته بالاحتجاج، فهمست الدوقة قائلة: «إنّه لا يصدّق كلمة ممّا يقول». «ذلك دونما شكّ لأنّي كنت عضواً في المجالس النيابية حيث سمعت خطابات لأمعة ما كانت تعني شيئاً. وقد تعلّمت أن أقدر فيها منطقها على وجه الخصوص. ولا بدّ أنّ ذلك كان سبباً في أنّي لم أنتخب ثانية. إنّني لا أبا لي بالأمور المضحكة». - «بازان، لا تتصنّع دور الدعي المتفاح يا صغيري، فأنت تعلم تمام العلم أنّ ليس من يحبّ الظرف بقدر ما تفعل». - «دعيني انتهي. فبالضبط لأنّي لا يهزّني نوع معين من التهريج الرخيص أراني كثيراً ما أقدر ظرافة امرأتي. لأنها تنطلق بعامة من ملاحظة صحيحة. فهي تعمل شأن الرجال وتصيغ صياغة الكتاب».

كان «بلوك» يحاول دفع السيد «دو نوربوا» إلى موضوع العقيد «بيكار». فأجاب السيد «دو نوربوا» قائلاً: «لا اعتراض على أنّ شهادة العقيد أضحت ضرورية ما أن تبادر إلى ذهن الحكومة إمكان أن يكون ثمة

(١) يظن الدوق أن Semita تعني يهودية فيما هي تعني الدرب وذلك تذكيراً بكنية والده «سان لو»: مارسان(Semita Marsantes) ويلم يهودي يجري في عروق «سان لو» مما يفسر مناصرته لـ«دريفوس».

سرّ دفين. وأعلم أنني دفعت بمساندتي هذا الرأي أكثر من واحد من زملائي إلى إطلاق صيحات البوم، ولكن الحكومة فيما أرى كان من واجبها أن تفسح مجال الكلام للعقيد. والمرء لا يخرج من مأزق كهذا بحركة بهلوانية فحسب أو هو يعرض نفسه إذ ذاك للوقوع في ورطة. أمّا فيما يخص الضابط نفسه فقد أحدثت هذه الشهادة في الجلسة الأولى انطباعاً مشجعاً جداً فحينما رأوه يقبل مشدود الجسم في بزة القناصة بشرفي العسكري «وهنا هزّت صوت السيد «دو نوربوا» ارتعاشة وطنية طفيفة» (تلك هي قناعتني) فلا يمكن أن ننكر أن الانطباع كان عميقاً.

وفكّر «بلوك» في نفسه قائلاً: «ها إنّه من انصار «دريفوس»، لم يعد ثمة أدنى شك».

— «لكنّ ما أفقده كلياً مشاعر العطف التي استطاع أن يحوزها بادئ الأمر فمواجهته بأمين المحفوظات «غرييلان»: فحين تم سماع هذا الخادم العجوز، هذا الرجل الذي لا يملك إلا قولاً واحداً (وشدّد السيد «دو نوربوا» بعزيمة القناعات الصادقة على الكلمات التي تلت ذلك)، وحين شوهه ينظر في عيني رئيسه ولا يخشى أن يجابهه بحزم ويقول له بلهجة لا تقبل الردّ: «هيا أيها العقيد إنك تعلم تمام العلم أنني لم أكذب في يوم وتعلم تماماً أنني في هذه اللحظة أقول الحقيقة شأني على الدوام»، تغير اتجاه الريح وعبثاً حرك السيد «بيكار» السماء والأرض في الجلسات اللاحقة فقد أخفق اخفاقاً تاماً.

وقال «بلوك» في نفسه: «لا، إنه بالتأكيد مناهض لـ«دريفوس»، والأمر متوقع. ولكن إن هو ظن «بيكار» خائناً يكذب فكيف يمكن أن يأخذ في حسابه ما يدّيع من أسرار ويذكرها كما لو يجد فيها روعة ويظنها صادقة؟ فأما إن رأى فيه على العكس رجلاً صالحاً ينقذ ضميره فكيف يمكن أن يفترضه كاذباً في مواجهته بـ«غرييلان»؟

وربّما نجم السبب الذي من أجله كان السيد «دو نوربوا» يحدث «بلوك» على هذا النحو وكأنما هما على اتفاق عن أنّه كان يناهض «دريفوس» إلى الحدّ الذي أضحى معه، وقد وجد الدول لاتناهضه مناهضة كافية، عدواً للدولة بقدر ما كان مناصرو «دريفوس». وربما لأنّ الموضوع الذي كان يتمسك به في السياسة أمر أكثر عمقاً بكثير ويقع في مستوى آخر تبدو مناصرة «دريفوس» منه بمثابة صبيغة لا أهمية لها وليست أهلاً لأن تستوقف وطنياً همّة القضايا الخارجية الكبرى. وربّما بالأحرى لأنّ قواعد حكمته السياسية كانت عاجزة، وهي لا تنطبق إلا على مشكلات تتعلق بالشكل والأسلوب والمناسبة، عن حلّ القضايا الأساسية عجز المنطق المجرد في الفلسفة عن البت في قضايا الوجود، أو أنّ هذه الحكمة نفسها جعلته يجد خطراً في خوض مثل هذه الموضوعات وأنه لا ينبغي التحدّث بداعي الحذر إلا عن ظروف ثانوية. ولكن موطن خطأ «بلوك» كان يكمن في اعتقاده أن السيد «دو نوربوا» كان باستطاعته، حتى ولو كان أقلّ حذراً في طباعه وأقلّ شكلية مطلقة في عقله، أن يقول له الحقيقة، لو شاء ذلك، حول دور «هنري» و«بيكار» و«دو باتي دو كلام» وحول جميع النقاط في هذه القضية.، وما كان يستطيع «بلوك» بالفعل أن يشك بأن السيد «دو نوربوا» كان يعرف الحقيقة حول هذه الأمور جميعها. وكيف عساه يجهلها وهو يعرف الوزراء؟ أجل كان «بلوك» يحسب أنّ الحقيقة السياسية يمكن أن تعيد بناءها على نحو تقريبي أكثر الأدمغة صفاء، ولكنّه كان يتخيل، شأن السواد الأعظم، أنّها تقيم دوماً، ملموسة لا جدال فيها، في الإضبارة السرية العائدة لرئيس الجمهورية ورئيس مجلس الوزراء اللذين يطلعان الوزراء عليها. بيد أنّه يندر، حتى حينما تتضمن الحقيقة السياسية وثائق، أن تكتسب هذه

الأخيرة أكثر من قيمة صورة شعاعية تحسب العامة أن مرض المصاب مسطر فيها بكامل حروفه فيما تزود هذه الصورة في الواقع بمحض عنصر تقويم ينضم إلى عناصر أخرى كثيرة يحكم فيها الطبيب عقله ويستقي منها تشخيصه. ولذلك فإن الحقيقة السياسية تتهرب حينما تقترب من ذوي الاطلاع ونحسب أننا بالغوها. وحتى حينما وقعت فيما بعد، كيما نظل في نطاق قضية «دريفوس»، واقعة في مثل وضوح إقرار «هنري» الذي تلاه انتحاره فقد فسرت في الحال تفسيراً متناقضاً على يد وزراء من أنصار «دريفوس» وعلى يد «كافينياك» و«كينيه» اللذين اكتشفا بنفسهما التزوير وقادا التحقيق. أضف إليس ذلك أن دور «هنري» قد فسر تفسيراً متناقضاً تماماً في صفوف الوزراء المناصرين لـ «دريفوس» أنفسهم ومن ذوي اللون السياسي نفسه الذين لم يحكموا على المستندات نفسها فحسب بل وفق الروح نفسها كذلك، فقد رأى فيه البعض شريكاً لـ «استرهازي» فيما عزا آخرون الدور على العكس إلى «دي باتي دوكلام» فانضموا على هذا النحو إلى طرح خصمهم «كينيه» وأصبحوا ونصيرهم «رينك» على طرفي نقيض. كل ما استطاع «بلوك» استخلاصه من السيد «دو نوريوا» أنه إن ثبت أن رئيس الأركان السيد «دو بواديفر» قد كلف السيد «روشفور» القيام بمكالمة سرية فثمة بالتأكيد أمر مؤسف إلى حد بعيد.

— «فليكن ثابتاً لديك أن وزير الحرب لابد نذر رئيس أركانه على الأقل في قرارة نفسه، لآلهة جهنم. وما كان الشجب الرسمي فيما أرى ليؤلف قولاً نافلاً. ولكن وزير الحرب يعبر عن ذلك أثناء الشرب بفجاجة. ثمة على أية حال موضوعات يبدو من التهور أن نبعث من حولها اضطرابات لانستطيع فما بعد الاستمرار في السيطرة عليها».

وقال «بلوك»: «ولكن هذه المستندات بادية الزيف».

ولم يحر السيد «دو نوريوا» جواباً ولكنه أعلن أنه لا يوافق على تظاهرات الأمير «هنري دورليان»:

«إنه لا يمكن على أية حال إلا أن تعبت يهدوء المحكمة وتشجع اضطرابات قد تدعو إلى الأسف في هذا الاتجاه أو غيره سواء بسواء. ينبغي بالتأكيد أن نضع حداً للدسائس المعادية للعسكر، بيد أننا كذلك في غنى عن فوضى تشجعها جماعة من عناصر اليمين يفكرون في استخدام الفكرة الوطنية عوضاً عن أن يخدموها. وفرنسه ليس، والحمد لله، من جمهوريات أميركا الجنوبية ولا تمس بها الحاجة إلى لواء يقوم بانقلاب».

. ولم يفلح «بلوك» في حمله على التحدث عن قضية مسؤولية «دريفوس» الجرمية ولا على التنبؤ بالحكم الذي قد يصدر في القضية المدنية الجارية حالياً. وبدا في مقابل ذلك أن السيد «دو نوريوا» يغتبط باعطاء تفاصيل حول عواقب ذلك الحكم، فقال:

«إن كان ثمة إدانة فالأرجح أنها ستنقض إذ ينذر في دعوى تكثر فيها شهادات الشهود إلى هذا الحد ألا يكون هناك أخطاء إجرائية يمكن أن يحتج بها المحامون. وكما أقول كلمتي الأخيرة حول تهجم الأمير «هنري دورليان» فاني أشك كثيراً أن يكون والده قد ارتضى ذلك».

وسألت الدوقة وهي تبسم مستديرة العينين، محمرة الوجنتين تغمس أنفها في قصعة الحلوى ويعلو وجهها الاستنكار: «أنظن «شارتر» إلى جانب «دريفوس»؟

- «لا على الإطلاق، لقد قصدت أن أقول فقط إنَّ في العائلة كلها من هذه الناحية، حساً سياسياً أمكن أن نلاحظ أقصى درجاته لدى الأميرة الرائعة «كليمانتين» وقد احتفظ به ابنها الأمير «فردنان» بمثابة تركه ثمينة. وما كان أمير «بلغاريا» ليضم بين ذراعيه القائد «استراهازي» - «لعله كان يفضل جندياً بسيطاً» تقول السيدة «دو غيرمانت» هامسة، وكثيراً ما كانت تتناول طعام العشاء برفقة البلغاري في منزل الأمير «دو جوانفيل» وقد أجابته ذات مرة إذ سألتها إن لم تكن غيري: «بلى، يا صاحب السيادة، من أساورك».

وقال السيد «دو نوربوا» للسيدة «دو فيلباريزيس» كيما يضع حداً للحديث مع «بلوك»: «ألا تذهبين هذا المساء إلى حفلة السيدة «دو ساغان» الراقصة؟

وما كان هذا الأخير ليسوء في عين السفير الذي قال لنا فيما بعد بشيء من السداجة ودونما شك بسبب بعض الآثار التي ظلت في لغة «بلوك» من الطراز الهرميروسي الجديد، مع أنه كان قد هجر: «إنه مسلٌ إلى حدٍّ ما بطريقته في التحدُّث بكلام متقادم العهد بعض الشيء ورسمي إلى حدٍّ ما. وما هو إلا القليل ليقول: «العالمات الشقيقات»^(١) على غرار «لامارتين» و«جان باتيست روسو». لقد أضحي الأمر نادراً إلى حدٍّ ما لدى الشباب الحالي وقد كان نادراً حتى لدى من سبقهم. لقد كنَّا بدورنا رومانتيكيين بعض الشيء» ولكن مهما بدا المحدث غريباً فقد وجد السيد «دو نوربوا» أنَّ الحديث جاوز الحدود.

فأجابت بابتسامة حلوة على شفتي امرأة عجوز: «لا ياسيدي ماعدت أذهب إلى الحفلات الراقصة. فهل تذهبون أنتم؟» وتضيف قولها وهي تشمل بالنظرة نفسها السيد «دو شاتيلرو» وصديقه «بلوك»: «ذلك يناسب عمركم. ولقد دعيت بدوري»، تقول وهي تتظاهر بالتفاخر في سبيل المزاح. «لقد جاء حتى من يدعوني» («ومن» تعني الأميرة «دو ساغان»).

- «ليس لدي بطاقة دعوة»، يقول «بلوك» ظناً منه أنَّ السيدة «دو فيلباريزيس» سوف تقدِّم له بطاقة وأنَّ السيدة «دو ساغان» ستسعد باستقبال صديق امرأة جاءت تدعوها بشخصها.

ولم تحرَّ الركيزة جواباً ولم يلح «بلوك»، إذ كان لديه مسألة أكثر جديةً ينبغي معالجتها وإياها وقد طلب منها منذ قليل في هذا السبيل موعداً لما بعد الغد. كان ينبغي سؤال السيدة «دو فيلباريزيس»، بعدما سمع الشابين يعلنان أنهما قدَّما استقالتهما من نادي الشارع الملكي حيث يدخل المرء وكأتما إلى طاحونة، أن توعز بقبوله فيه.

وقال بسخرية جارحة: «أليس آل «ساغان» على شيء من الأناقة الزائفة وبعض السنوية على الحواشي؟» وأجاب السيد «دار جنكور»، وكان قد تبنى كل صنوف المزاح الباريسي: «لا على الإطلاق، إنه خير ما نصنع من هذا القبيل».

وقال «بلوك» نصف هازئ: «ذلك إذن ما يدعى واحداً من احتفالات الموسم الرسمية و«المؤتمرات»

(١) نقصد تسييق الصفة على الموصوف كما هي الحال في الشعر.

الجمعية الكبرى!

وقالت السيدة «دو فيلباريزيس» جذلانة للسيدة «دو غيرمانت» :

— هاتي نر، هل حفلة السيدة «دو ساغان» الراقصة احتفال مجتمعي كبير؟

فأجابت الدوقة بلهجة ساخرة: «لا ينبغي أن تسأليني عن ذلك لأنني لم أفصح بعد في معرفة ما عسى يكون الاحتفال المجتمعي. وأمور المجتمع على أية حال ليست ما أمتاز به.»

وقال «بلوك» الذي تبادر إلى ذهنه أن السيدة «دو غيرمانت» قد قالت كلاماً صادقاً: «آه! كنت أحسب العكس.»

وتابع يطرح العديد من الأسئلة على السيد «دو نوربوا» حول مسألة «دريفوس» مما أثار اغتمامه. وقد أعلن هذا الأخير أن العقيد «دي باتي دو كلام» كان يبدو له لأول وهلة وكأنه عقل غامض وربما سلم بحسن اختياره للقيام بهذا الأمر الدقيق الذي يقتضي الكثير من رباطة الجأش ونفاذ البصيرة، عنيانا التحقيق.

— «أعرف أن الحزب الاشتراكي يطالب عالياً برأسه وكذلك بإخلاء سبيل سجين جزيرة ابليس فوراً. ولكنني أظن أننا لم نرغم بعد على الانصياع لإرادة السيد «جيرو ريشار» وشركائه. وإنما هذه القضية حتى الآن هي المشكلة العويصة. لست أنكر أنه لا بد من إخفاء فضائح بشعة إلى حد ما من هذا الجانب وذاك على حد سواء. بل أن يستطيع بعض نصراء عميلك غير المنحازين إلى حد ما أن يدوا مقاصد طيبة، فلست أزعج عكس ذلك! وأصاف بنظرة ذكية: «ولكنك تعلم أن جهنم مرصوفة بها. المهم أن تولي الحكومة انطباعاً بأنها ليست في قبضة زمر اليسار أكثر مما يقع عليها أن تستسلم مكبلة لاندازات مالست أدري من جيش خاص بالمحاكم ليس هو الجيش، صديقني. وغني عن القول إنه إن وقع أمر جديد فسوف تتم مباشرة إعادة النظر في الدعوى. والنتيجة واضحة وضوح الشمس والمطالبة بذلك تعني اقتحام أبواب مفتوحة. وستعرف الحكومة يومها كيف تتكلم عالياً وبوضوح أو هي تسمح بهلهلة ما يشكل امتيازها الأساسي. ولن يكفي من بعد اللغو الذي لا معنى له ؛ ولا بد من توفير قضاة لـ «دريفوس» وسيكون الأمر سهلاً لأنه، على الرغم من العادة المتخذة في فرنسه الجببية، حيث يتعشقون ذم أنفسهم، عادة الاعتقاد أو الحمل على الاعتقاد بأنه لا بد كيما تبلغ الأسماع لفظتنا الحقيقة والعدالة من اجتياز بحر المانش، وهو مالا يعدو في الغالب كونه وسيلة ملتوية لبلوغ نهر «سبريه». ليس القضاة وفقاً على برلين. ولكن هل ستفعل في الإصغاء لهذه الحكومة بعدما تتحرك الدعوى الحكومية؟ وهل ستلتفت من حولها حينما تدعوك إلى النهوض بواجبك الوطني؟ وهل تستطيع ألا تصم الآذان حيال نداءها الوطني وأن تجيب: «ها أنا!»؟

كان السيد «دو نوربوا» يطرح تلك الأسئلة على «بلوك» بعنف يدغدغ مشاعر رفيقي فيما يعث في نفسه. ذلك أن السفير كان يبدو وكأنه يتوجه من خلاله إلى حزب بأكمله، كأنه يسأل «بلوك» وكأنما تم تزويده بأسرار ذلك الحزب وكان بمقدوره الاضطلاع بمسؤولية ماقد يتخذ من قرارات. وأردف السيد «دو نوربوا» قوله دون أن ينتظر إجابة «بلوك» الجماعية: «فإن لم تهدأ نفسك وإن اتفق أن انقذت، حتى قبل أن

يجفّ جبر المرسوم الذي يحدّد إجراءات إعادة النظر في الدعوى، إلى ما لست أدري من شعار ماكر فلم تهدأ نفسك بل قبعيت في معارضة عقيمة تبدو لبعضهم وكأنّها «l'ultimatum» (الحجة الأخيرة) في السياسة وإن انسحبت إلى خيمتك وأحرقت سفنك فسوف يكون ذلك وبالأعلى عليك. فهل أنت سجين مسبي الفوضى؟ وهل قدّمت لهم ضمانات؟ «وحار بلوك» في الجواب، ولم يدع له السيد «دو نوربوا» متسعاً لذلك. «فإن كان النفي هو الصحيح، كما عزم على اعتقاده، وإن اتفق لك قليل مما يفتقر له لسوء الحظّ بعض قادتك وأصدقائك، شيء من الروح السياسية، وإن لم تسمح، في اليوم الذي تحال فيه الدعوى إلى غرفة الجنائيات، بأن يجنّد الصيادون في المياه العكرة، فسوف تكسب الجولة. ولست آخذ على عاتقي أن تستطيع مجموعة الأركان بأسرها أن تتخلص من الورطة، وجميل جداً إن استطاع قسم على الأقل أن يحفظ ماء الوجه دون أن يشعل الحريق. وبديهي على أية حال أنّه إنّما يعود للحكومة أن تعلن الحقّ وتختم اللائحة الطويلة للجرائم التي لم تلق عقابها، لا بانصياعها بالتأكيد للتحريضات الاشتراكية ولما لا أدري من صنف العسكر»، يضيف قوله وهو ينظر في عيني «بلوك» وربّما بالغريزة التي يمتاز بها جميع المحافظين في أن يهيئوا لأنفسهم أعواناً في معسكر الخصم. «والنشاط الحكومي ينبغي أن يتم دون الاهتمام بالموادات أيّاً كان مصدرها. والحكومة، لله الحمد، لا تأمر لا بأوامر العقيد «دريان» ولا بأوامر السيد «كليمانصو» في القطب الآخر. لا بدّ من قهر ممتنهي الشغب والحوّل دون أن يرفعوا رؤوسهم. إن فرنسه في غالبيتها العظمى ترغب أن تعمل داخل النظام! ولقد قرّر قراري بهذا الشأن. ولكنما ينبغي ألا نخشى تنوير الرأي العام، وإن ارتضى بعض الخراف، من الصنف الذي عرفه «رابليه» تمام المعرفة، مغمض العينين في الماء فاتّما يجدر أن تبدي لهم أن هذا الماء عكر وقد تمّ تعكيره عن قصد على يد أوغاد ليسوا من ديارنا بغية تخفية قاعها الخطير. ويجدر بها ألا تتظاهر بالخروج من سلبيتها مكرهة حينما تمارس الحق الذي هو في الأساس حقها، وأعني تحريك صاحبة السمو العدالة. سوف ترتضي الحكومة مقترحاتكم كافة. فإن كان ثابتاً أن ثمة خطأ قضائياً فسوف تضمن له أغلبية ساحقة تسمح له بحرية الحركة».

وقال «بلوك» وهو يلتفت إلى السيد «دارجنكور» وقد سبق أن ذكروا اسمه أمامه مع بقية الناس: «وأنت، ياسيد، إنّك من مناصري «دريفوس» بالتأكيد، فالجميع هذه حالهم خارج خارج البلاد».

- «تلك قضية لا تخصّ سوى الفرنسيين فيما بينهم، أليس كذلك؟» يجيب السيد «دارجنكور» بهذه الوقاحة الخاصة التي قوامها أن تحمّل محدثك رأياً تعلم بصراحة أنّه لا يشاطرك رأياً بما أنّه أبدى منذ قليل رأياً معاكساً.

وكست الحمرة وجه «بلوك»؛ وابتسم السيد «دارجنكور» وهو ينظر من حوله، ولكن كانت الابتسامة أثناء ما وجهها إلى الزوّار الآخرين محملة بالإساءة بحقّ «بلوك» فقد لطفها ببعض المودة إذ حطّ بها أخيراً على صديقي كي لا يدع لهذا الأخير حجة الاعتياظ من الكلمات التي سمعها منذ قليل والتي ظلّت مع ذلك قاسية. وقالت السيدة «دو غيرمانت» شيئاً في أذن «دارجنكور» لم أسمعه إلا أنّه كان لا بدّ ذا علاقة بدين «بلوك» إذ مرّ على وجه الدوقة في تلك اللحظة ذاك التعبير الذي تضفي عليه الخشية من أن يلاحظك الشخص الذي تحدّث عنه شيئاً من التردّد والزيف وتمتزج به الغبطة الفضولية المحملة سوءاً التي توحى بها

جماعة بشرية نحس أننا غرباء عنها كلياً. والتفت «بلوك» ناحية الدوق «شاتيلر» يبغى التعويض على ذاته وقال: «أنت أيها السيد ذو الجنسية الفرنسية، إنك تعلم بالتأكيد أن الناس يناصبون «دريفوس» مع أنهم يزعمون أنهم في فرنسا لا يدرون البتة ما يجري في البلدان الأجنبية. وأعلم من ناحية أخرى أنه يمكن التحدث إليك، فقد قال لي ذلك «سان لو» ولكن الدوق الشاب الذي كان يحس بأن الجميع أخذوا يقفون ضد «بلوك» والذي كان جباناً كما هم الناس في الغالب في العالم قال وهو يلجأ على أية حال إلى طريقة متحذقة جارحة يبدو أنها انحدرت إليه بالارتداد الوراثي من السيد «دو شارلوس»: اعذرني ياسيدي ألا أناقش وإياك حول «دريفوس»، فتلك قضية مبدئي فيها ألا أخذت عنها إلا فيما بين اليافتيين»^(١) وابتسم الجميع فيما عدا «بلوك»، لا لأنه لم يتعود التلقظ بجمل ساخرة حول منابته اليهودية وعلى الجانب الذي يذكر فيه بعض الشيء بسيناء. ولكن بدلاً من واحدة من تلك الجمل التي لم تكن جاهزة دونما شك طلع مفتاح الآلة الداخلية بجملته أخرى على لسان «بلوك». ولم يكن بالامكان التقاط غير مايلي: «ولكن كيف استطعت أن تعرف؟ ومن عساه قال لك؟ كما لو كان ابن محكوم بالأشغال الشاقة. ولما كان اسمه من جهة ثانية لا يوحى بالضبط بأنه مسيحي وكلك وجهه فقد كانت دهشته تظهر شيئاً من السذاجة.

ولما لم يرضه ما قاله له السيد «دونوروا» تمام الرضى فقد اقترب من أمين المحفوظات وسأله إن كانوا يشاهدون أحياناً في منزل السيدة «دو فيلباريزيس» السيد «دي باتي دو كلام» أو السيد «جوزيف ريناك». ولم يجب أمين المحفوظات بشيء، فقد كان وطني النزعة ولا يفتأ يتكهن للمركيزة أن حرباً اجتماعية ستقوم عما قليل وأنه يجدر بها أن تكون أوفر حظراً في انتقاء أصدقائها. وتساءل إن لم يكن «بلوك» رسولاً خفياً للنقابة جاء لينقل إليه الأخبار، ومضى في الحال يردّد للسيدة «دو فيلباريزيس» تلك الأسئلة التي طرحها عليه «بلوك» منذ قليل. وحكمت أنه على الأقل سيئ التهذيب وربما كان خطراً على وضع السيد «دو نوروا» وكانت تريد أخيراً أن ترضي أمين المحفوظات، وهو الشخص الوحيد الذي يوحى إليها ببعض المخافة والذي كان يلتفتها المبادئ دون أن يلقي بنجاح كبيراً (كان يقرأ عليها في كل صباح مقالة السيد «جوديه» في «الصحيفة الصغيرة»). لقد أرادت إذن أن تلفت نظر «بلوك» إلى أنه يقع عليه ألا يعود وعثرت على نحو طبيعي جداً في مجموعتها الاجتماعية على المشهد الذي تطرد فيه سيدة كبيرة أحدهم من منزلها، مشهد لا يتضمن الاصبع المرفوع والعينين اللاهتين اللتين تتخيلهما. ففيما كان «بلوك» يقترب منها ليودعها بدت، وقد غاصت في مقعدها الواسع، وكأنما تستفيق من اغفاء غامضة. ولم ترسل نظراتها سوى الوميض الواهن البديع الذي ترسله للؤلؤة. ولم ينتزع وداع «بلوك»، وكاد لا ينشر على محياً المركيزة ابتسامة واهنة، لم ينتزع منها كلمة واحدة ولم تمدّ إليه يدها. وقد بلغ هذا المشهد بـ «بلوك» أقصى درجات الدهشة، بيد أنه لم يظن، بما أن حلقة من الاشخاص كانت شاهدة على ذلك من حوله، أنه يمكن لها أن تطول دون أن تلتحق الأذى به، وكما يرغم المركيزة فقد مدّ من تلقاء نفسه اليد التي لم يقبل من يأخذها منه. واغتاضت السيدة «دو فيلباريزيس». ولكنها شاءت دونما شك، فيما اهتمت أن تحوز في الحال رضى أمين المحفوظات والجماعة المناوئة لـ «دريفوس»، أن تراعى المستقبل فاكثفت بخفض جفניה وبأن أغمضت عينيها نصف إغماضاً.

(١) أبناء يافت ويقصد اليهود.

وقال «بلوك» لأمين المحفوظات الذي اتخذ هيئة غاضبة إذ شعر أنَّ المركيزة تسانده: «أظنّها نائمة». ثم صرخ قائلاً: «وداعاً ياسيديتي».

وقامت المركيزة بالحركة الخفيفة التي لشفتي محضرة تودُّ أن تفتح فمها ولكن نظرتها لم تعد تتعرّف شيئاً... ثم التفتت، تفيض حياة مستعادة، نحو المركز «دارجنكور» فيما كان «بلوك» يتعدّد وقد أيقن أنَّ الخرف نال منها. وعاد ليراها بعد بضعة أيام وقد تملكه الفضول والعزم على إيضاح حادثة غريبة إلى هذا الحدّ. فاستقبلته أحسن استقبال لأنّها كانت امرأة طيبة وأن أمين المحفوظات لم يكن هناك وأنّها تخرص على المشهد الصغير الذي يزعج «بلوك» أن يدعو إلى تمثيله في منزلها، وأنّها في نهاية المطاف قد قامت بدور السيدة الراقية التي كانت تتوق إليه والذي أثار إعجاباً شاملاً وتعليقات في العشية نفسها في صالات مختلفة ولكن وفق رواية لم يعد لها مذكاة أي صلة بالحقيقة.

— «كنت تتحدثين عن «الأميرات السبع» أيتها الدوقة، تعلمين (ولست لذلك أكثر اعتزازاً) أنَّ مؤلف هذا... ماذا عساي أقول، هذه الأهجية هو أحد مواطني بلدي، يقول السيد «دارجنكور» بسخرية يخالطها الاعتزاز بأن يعرف أفضل من الآخرين مؤلف عمل فني جرى الحديث عنه منذ قليل. ويضيف قوله: «أجل، إنّه بلجيكي، وتلك مهنته».

— «حقاً؟ لا. لسنا نتهكم أن تكونوا على شيء من «الأميرات السبع». وانكم، لحسن حظك وحظّ مواطنيك، لانتبهون مؤلف هذه السخافة. إنني أعرف بلجيكيين محبين جداً، أنت وملككم، وهو خجول بعض الخجل ولكنه يفيض ذكاء، وأبناء أعمامي «ليني» وكثيرون غيرهم، ولكنكم لحسن الحظ لا تتكلمون اللغة نفسها التي يتكلمها مؤلف «الأميرات السبع» وإن شئت، على أي حل، أن أقول لك فإن الحديث عنها مغلاة لأنّها لاشيء بوجه الخصوص. إنهم جماعة يحاولون أن يظهروا بمظهر الغموض ويتدبرون أمرهم ليبدوا مضحكين بغية إخفاء صحراء فكرهم». وأضافت بلهجة الجدّ: «لعلني كنت أقول لك، لو أن خلف القشور شيئاً، إنني لا أخشى بعض صنوف الجرأة بما أنَّ ثمة فكرة. لست أدري إن كنت شاهدت مسرحية «بوريلي». هناك من صدموا من جرأة ذلك. أما أنا فأقرّ ولو بلغ بي الأمر أن أرجم، تضيف قولها دون أن تتبين أنّها لا تتعرّض لأخطار كبيرة، أقرّ أنني وجدت الأمر مثيراً إلى مالا حدود. فأما «الأميرات السبع»! وعبثاً تغدق إحداهن صنوف مودتها على ابن أخي، فلست أستطيع أن أبلغ بمشاعري العائلية حدّ...»

وتوقفت الدوقة فجأة لأن سيدة دخلت وكانت الفيكونتيسة «دو مارسانت» والدة «روبير». كانوا يعدّون السيدة «دومارسانت» في حيّ «سان جيرمان» بمثابة كائن متفوّق يتمتع بلطف وتسلّم ملائكيين. لقد سبق أن قيل لي ذلك وما كان لديّ أيّ دافع خاص لأدهش للأمر إذ لم أكن أعلم في ذلك الوقت أنّها شقيقة الدوق «دو غيرمانت» حقاً. ولقد أصابتنى الدهشة فيما بعد كلّ مرة بلغني فيها، في هذا المجتمع، أن نساء كتيبات نقّيات مضحى بهن مكرّمات شأن قديسات مثاليات على زجاج الكنائس قد بتن من الأصل الإنساني نفسه الذي أنبت أشقاء أفظاظاً ماجنين سفلة. كان يبدو لي أنّ الأشقاء والشقيقات، يوم يتماثلون تماماً في الوجه كما كان شأن الدوق «دو غيرمانت» والسيدة «دو مارسانت»، إنّما ينبغي أن يملكوا عقلاً واحداً وقلباً واحداً كما هي حال شخص يمكن أن تتفق له لحظات سعد أو نحس إلا أنّه لا يمكن مع ذلك توقع رؤى

واسعة له إن كان محدود العقل وسموا في انكار الذات إن كان قاسي الفؤاد.

كانت السيدة «دو مارسانت» تتابع دروس «برونتيير»، وكانت تثير حماسة حي «سان جرمان» وتوفر له إلى ذلك، بفضل سيرتها الورعة، القدوة الصالحة. على أن رابطة الشكل في الأنف الجميل والنظرة الثاقبة كانت تدفعني إلى تصنيف السيدة «دو مارسانت» في أسرة شقيقها الدوق العقلية والأخلاقية نفسها. وما كنت أقوى على الاعتقاد بأن محض كونها امرأة وأنها ربما سبق أن كانت تعيش وأن الجميع يقفون إلى جانبها يمكن أن يجعل منها كائناً يختلف إلى هذا الحد عن ذويه كما هي الحال في القصائد الملحمية حيث تتجمع كل الفضائل والمحاسن لشقيقة إخوة أفظاظ. كان يخيل إلي أن الطبيعة، وهي أقل حرية من الشعراء الأقدمين، لا بد أن تستخدم بما يقارب الحصر العناصر المشتركة في الأسرة وما كان بمقدوري أن أخصها بسلطان معين في التجديد تصنع بموجبه عقلاً واسعاً لا تشوبه شائبة غباء وقديسة لا تلوثها لطخة قسوة بمواد مشابهة لتلك التي تؤلف غيباً غليظ القلب. كانت السيدة «دو مارسانت» ترتدي فسطاناً من الحرير الهندي الأبيض بسبلات عريضة تبرز فوقها زهرات من القماش، وكانت سوداء. ذلك لأنها فقدت لثلاثة أسابيع خلت ابن عمها السيد «دو كونمورانسي»، الأمر الذي ما كان يحول دون أن تقوم بزيارات وأن تذهب إلى حفلات عشاء صغيرة ولكن بتياب الحداد. كانت سيدة راقية، وكانت نفسها يملؤها بالوراثة طيش ضروب العيش في البلاط بكل ما يعمرها من سطحية وصرامة. لم تتجمع للسيدة «دو مارسانت» القوة لتأسف فترة طويلة على أبيها وأمه ولكنها ما كنت لترتدي أثواباً ملونة في الشهر الذي يلي وفاة ابن عم لها أية كانت الظروف. لقد أبدت لي ما كان أكثر من اللطف لأنني كنت صديق «روبير» ولأنني لم أكن من مجتمع «روبير» نفسه. كانت تلك الطبيعة تقترن بخجل متكلف بما يشبه حركة التراجع المتقطع في الصوت والنظرة والفكر الذي يردّه المرء إليه كمثقل تنورة غير محتشمة، كي لا يحتل حيزاً أكبر وكي تظل مستقيمة تماماً حتى في إطار المرونة كما يفرض ذلك حسن التهذيب. حسن التهذيب الذي ينبغي أن لا نبالغ في فهمه بمعناه الحرفي على أي حال، إذ سرعان ما كان يتجه العديد من أولئك السيدات ناحية التهتك الأخلاقي دون أن يفقدن في يوم لياقة في السلوك طفولية تقريباً. كانت السيدة «دو مارسانت» تزعجك بعض الشيء في الحديث لأنها كانت تقول كلما تعلق الأمر برجل من العامة، بـ «بيرغوت» و«ايلستير» مثلاً، كانت تقول وهي تبرز الكلمة، وهي تظهرها وترتلها بلحنين مختلفين في تنغيم خاصة بـ «ايلستير»، إماً لتحمل على الإعجاب بانضاعها وإما عن ذات الميل الذي كان لدى السيد «دو غيرمانت» في العودة إلى الصيغ المهجورة ليعلم معارضته للعادات التي تتسم بسوء التهذيب الحالي الذي لا يعلن المرء فيه أنه «تشرف» إلى حد كاف، أيما كان السبب الحقيقي من بين هذين السببين فقد كنت تحس في جميع الأحوال أن السيدة «دو مارسانت» تحسب حينما تقول: «لقد حزت «الشرف»، عظيم الشرف» أنها تنهض بدور عظيم وتبرز أنها تحسن استقبال أسماء الرجال ذوي الشأن كما لعلمها كانت استقبلتهم بذاتهم في قصرها لو اتفق لهم أن يقيموا في الجوار. ولما كانت أسرتها من جهة ثانية كبيرة العدد وأنها كانت تحبها حباً جماً وتبغني، وهي بطبيعة الإلقاء مغرمة بالإيضاحات، أن توضح مواطن القربى، فقد كان يتفق لها (دون أية رغبة في الإدهاش وفيما لا تحب صداقة سوى التحدث عن فلاحين يهزون المشاعر وخفراء صيد شرفاء) أن تذكر في كل لحظة جميع الأسر المعتقة من سلطان الملوك في أوروبا، الأمر الذي ما كان يغفره لها من كانوا أقل شهرة، ويهزؤون منه على أنه من السخافة إن كانوا على قدر قليل من الثقافة.

كانت السيدة «دو مارسانت» موضع عشق في الريف من جرّاء الخير الذي تفعله، وعلى وجه الخصوص لأنّ صفاء النسل الذي لم تعد تلقى فيه منذ عدّة أجيال إلا أعظم ما في تاريخ فرنسا قد خلّص سلوكها من كلّ ما تسمّيه عامّة الشعب «تكلّفا» وأولاها البساطة التامة. فما كانت تخشى أن تأخذ في أحضانها امرأة مسكينة حالفتها التعاسة وتطلب إليها أن تمضي لتأتي بعربة أحطاب من القصر. لقد كانت فيما يقال مثال المسيحية. وكانت حريصة على أن تزوّج «روبير» زواجاً طائلاً الثراء. وإنّما يعني أن تكون سيدة راقية تمثّل دور السيدة الراقية، يعني التظاهر بالبساطة. وإنّما للعبة تكلف ثمناً غالياً جداً، فضلاً عن أن البساطة لا تسحر الفؤاد إلا بشرط أن يعلم الآخرون أنّه يمكن ألا تكونوا بسطاء، يعن أنكم طائلو الثراء. لقد قيل لي فيما بعد حينما رويت أنني شاهدتها: «أنت لا بدّ تبين أنّها كانت رائعة». ولكن الجمال الحقيقي خاص وجديد إلى حدّ أنّك لا تعرّفه على أنّه الجمال. لقد قلت في نفسي على الأقل في ذلك اليوم إنّ لها أنفأ صغيراً جداً وعينين زرقاوين جداً وعنقاً طويلاً وهيئة حزينة.

وقالت السيدة «دو فيلباريزيس» للدوقة «دو غيرمانت»: «أسمعي أظنّ أنني سأحظى عما قليل بزيارة امرأة لا تريد أن تعرّف بها، وأفضل أن أخطر ككي لا يزعجك الأمر. يمكن أن تطمئني على آية حال فلن استقبلها البتّة في منزلي فيما بعد، ولكنّها ستجيء اليوم لمرة واحدة. إنّها زوجة «سوان».

كانت السيدة «سوان»، إذ رأت الأبعاد التي تتخذها قضية «دريغوس» وخشيت أن تنقلب منابت زوجها ضدها، قد توسلت إليه ألا يتحدث من بعد عن براءة المحكوم. وكانت تذهب إلى أبعد من ذلك حينما لا يكون حاضراً فتجهر بأشدّ الوطنية عنفاً. وإنّما كانت تتأثر في ذلك على آية حال خطي السيدة «فيردوران» التي استيقظت في نفسها عداً للسامية بورجوازي كامن وقد بلغ درجة الهيجان الحقيقي. وقد كسبت الراقية معاديات للسامية كانت آخذة في التشكل وأقامت علاقات مع عديد من جماعة الارستقراطيين. ربّما بدا غريباً أن تكون دوقة «غيرمانت»، على صداقتها المتينة لـ«سوان»، قد صمدت دوماً، بدلاً من أن تقلدهم، في وجه الرغبة التي لم يكتمها لئها في تقديم زوجته لها. على أنّنا سنرى فيما بعد أن الأمر كان نتيجة لطباع الدوقة الخاصة التي كانت تحكّم أنّه لا يقع عليها النيام بهذا الأمر أو ذاك وكانت تفرض فرض المستبد ما أقرته «إرادتها الحرة» الاجتماعية الاعتبارية إلى أبعد حدّ.

وأجابت الدوقة: «أشكر لك أنّك أخطرني، فإعمل الأمر يزعجني بالفعل أشدّ الإزعاج. ولكنني سأنهض في الوقت المناسب بما أنّي أعرفها بالوجه».

وقالت السيدة «دو مارسانت»: «أؤكد لك يا «أوريان» أنّها ممتعة إلى حدّ بعيد، إنّها امرأة ممتازة».

- «لاشك في الأمر ولكنني لا أشعر بأية حاجة إلى التأكد من ذلك بنفسني».

وسألت السيدة «دوفيلباريزيس» الدوقة بغية الحديث: «هل أنت مدعوة لدى السيدة «اسرائيلز»؟

فأجابت السيدة «دو غيرمانت»: ولكنني لك الحمد لا أعرفها. والأجدر أن نسألني «ماري إينار» عن ذلك، فإنّها تعرفها وقد تسألت دوماً عن السبب».

وردت السيدة «دو مارسانت» قائلة: «لقد عرفتُها بالفعل، وإنّي أقرّ بأخطائي. ولكنني مصمّمة ألا أعرفها

من بعد. يبدو أنها من أسوأهنّ وأنها لاتخفي ذلك. لقد جاوزنا جميعنا على أية حال حدود الثقة والضيافة. ولن أتردد من بعد على أيّ من هذه الأئمة. ففيما كان لنا أبناء عمّ قدامى في الريف نغلق الباب دونهم كنّا نفتحه لليهود. وإنّا نشاهد اليوم امتنانهم. ليس لديّ ما أقوله، وأأسف! إن لي ابناً رائعاً يجود في جنونه الفتي بجميع السخافات الممكنة، تضيف قولها لدى سماعها أنّ السيد «دارجنكور» قد عرض بـ«روبير». وسألت السيدة «دو فيلباريزيس» قائلة: «ولكن، أما رأيت «روبير»، إذ نحن بصدد الحديث عنه؟ لقد ظننت، بما أنّ اليوم سبت، أنّه ربّما كان باستطاعته قضاء أربع وعشرين ساعة في باريس، ولعله كان جاء بالتأكيد في هذه الحالة ليشاهدك».

كانت السيدة «دو مارسانت» تظن في الواقع أن ابنها لن يمنح إذنًا. ولما كانت تعلم في جميع الأحوال أنّه ما كان ليحيي إلى منزل السيدة «دو فيلباريزيس» لو حصل على إذن فقد كانت تأمل، وهي تتظاهر بالاعتقاد بأنّها ربّما وجدته هنا أن تصفح له عمّته الشديدة الحساسية عن جميع الزيارات التي لم يقم بها إليها.

— «روبير في هذا المكان! ولكنني لم أتسلّم حتى كلمة واحدة منه، وأظنّ أنّي لم أره منذ «بالبيك».

فقالت السيدة «دو مارسانت»: «إنّه كثير المشاغل وما أكثر ما لديه من أعمال».

وهزّت ابتسامة خفيفة أهداب السيدة «دو غيرمانت» التي نظرت إلى الدائرة التي كانت تخطّها على السجادة بطرف شمسيتها. كانت السيّد «دو مارسانت» قد لزمت صراحة، في كلّ مرّة هجر فيها الدوق امرأته على نحو مضطوح، جانب زوجة أخيها ضدّ أخيها نفسه. وظلت هذه الأخيرة تحتفظ من تلك الحماية بذكري يمتزج فيها الامتنان بالحقّد، وما كانت إلّا نصف غاضبة من جهالات «روبير». وفي تلك اللحظة انفتح الباب من جديد، فدخل هذا الأخير.

وقالت السيدة «دو غيرمانت»: «عجباً، ما أن نتحدث عن الذئب...».

ولم تكن السيدة «دو مارسانت» التي كانت تولي الباب ظهرها قد أبصرت ابنها داخلاً. فلما رأته خفق الفرح بالحقيقة في صدر هذه الأم خفقة جناح وهمّت السيدة «دو سارمانت» بالنهوض واختلج وجهها وأخذت تتحدّق إلى «روبير» بعينين ذاهلتين:

— «كيف، ها أنتك جئت! يا للسعادة! يا للمفاجأة!»

قال الديبلوماسي البلجيكي وهو يضحك بأعلى صوته: «آه ما أن تتحدّث عن الذئب.. لقد فهمت».

وردّت السيدة «دو غيرمانت» بجفاء: «قول رائع»، وكانت تكره التلاعب بالألفاظ ولم تجازف بهذا الأخير إلّا وهي تتظاهر بأنّها تسخر من نفسها. وقالت: «مرحبى يا «روبير»؛ رأيت كيف ينسى الناس عمّتهم!».

وتحدّثا معاً فترة، وعيّن دونما شكّ إذ إن السيدة «دو غيرمانت» التفتت نحوّي فيما كان «سان لو»

يقترّب من والدته وقالت لي: «مرحبي، كيف حالك؟»

وسكبت فوقني نور لحظها الأزرق وتردّدت مدى لحظة ونشرت ثمّ مدّت جذع ذراعها وأحنت إلى الأمام جسدها الذي ارتدّ بسرعة إلى الخلف مثل شجرة تميل بها إلى الأرض فتعود إلى وضعها الطبيعي إن تركتها لنفسها. هكذا كانت تفعل وقد سلطت عليها نار نظرات «سان لو» الذي كان يراقبها ويقوم من بعيد بجهود يائسة ليحصل من عمته على ما كان أكثر من ذلك بقليل. وإذا خشي أن يفتر الحديث أقبل يغذّيه وأجاب بدلاً مني قائلاً:

— «ليس على مايرام، إنه متعب قليلاً، وربما أصبح أفضل حالاً لو رآك مرّات أكثر فأني لا أخفي عليك أنه يحبّ كثيراً أن يلقاك.»

وقالت السيدة «دو غيرمات» بلهجة تعمدتها عادية كما لو أنني جئت بها بمعطفها: «آه! هذا أمر لطيف. وإنه ليرضيّني إلى حدّ بعيد.»

— «إليك، إنني ذاهب قليلاً بالقرب من أمي وأعطيك كرسيّ»، يقول «سان لو» وهو يضطرّني بذلك إلى الجلوس بالقرب من عمته.

وصمت كلانا.

وقالت لي: «إنني أملك أحياناً في الصباح»، وكأنما ذلك خبر تنقله إليّ وكأنني لا أراها بدوري «ذلك مفيد جداً للصحة».

وقالت السيّد «دو مارسانت» بصوت خافت: «أوريان، كنت تقولين إنك ذاهبة لزيارة السيدة «دو سان فرينول»، فهل تطففت وقلت لها ألاّ تنتظرني على العشاء؟ سوف ألزم منزلي بما أن «روبير» عندي. ولن توافرت لي الجراة لسألتك أن تقول في طريقك بأن يقوموا في الحال بشراء نوع السيكار الذي يحبّه «روبير» ويسمونه «كورونا» ولم يعد موجوداً».

واقترّب «روبير» ، لقد تمّ له فقط سماع اسم السيدة «دو سان فرينول» وسأل بلهجة تقتن فيها الدهشة بالتصميم، إذ كان يتظاهر بجهل كل ما يتعلق بالاجتماع: «ومن عساها تكون هذه السيدة «دو سان فرينول»؟

فقال أمه: «عجباً لك يا عزيزي، أنت تعرف تماماً، إنها شقيقة «فيرماندوا»، وهي التي سبق أن أعطتك لعبة البيليارد الجميلة هذه التي كنت تحبّها أشدّ الحبّ.»

— «شقيقة «فيرماندوا»، ما هذا، لم يسبق أن خطرت لي آية فكره عن ذلك، يا ما أروع عائلتي»، يقول في نصف التفاتة ناحيتي فيما يتخذ دون أن ينتبه للأمر نبرات «بلوك» مثلما كان يقتبس أفكاره، «إنها تعرف أناساً لا يخطرون ببال، أناساً يدعون ما كان في كثير أو قليل من قبيل «سان فرينول» (ويلجّ على الحرف الأخير من كلّ كلمة)، وتذهب إلى الحفلات الراقصة، وتتنزّه في عربة واسعة وتعيش عيشة خيالية. هائل.»

وأطلقت السيدة «دو غيرمات» من حنجرتها ذلك الصوت الخفيف المقتضب الشديد، وكأنما لا يتسامح

تكتبها، وتريد أن تعلن به أنها تشارك بالقدر الذي تضطرّها إليه القرابة بنباهة ابن شقيقها. وأقبل من يعلن أن الأمير «دو فافنهايم مونستر بورغ فاينغن» ينقل للسيد «دو نوربوا» أنه قد حضر.

وقالت السيدة «دو فيلباريزيس» للسفير السابق: «أذهب وأت به ياسيدي»، فأسرع لاستقبال رئيس الوزراء الألماني.

ولكن المركيزة استدعته: «على رسلك ياسيدي؛ أوبنغي أن أريه منمنمة الامبراطورة «شارلوت»؟

وقال السفير بلهجة المقتنع وكما لو يحسد هذا الوزير المخطوط على المنة التي تنتظره: «أظنه سيغضب كثيراً».

وقالت السيدة «دو مارسانت»: «أعلم أنه مستقيم الرأي، وما أندر ذلك بين الأجانب. ولكنني على اطلاع، إنه التجسيد الحي لعداء السامية».

كان اسم الأمير يحتفظ عبر الصراحة التي تتمّ بها مباشرة مقاطعه الأولى - حسبما يقولون بلغة الموسيقى - والغافاة المتكررة التي تقطعها، كان يحتفظ بالزخم والسداجة المتكلفة وصنوف التلطف الألمانية الغليظة التي ترسم وكأنها أغصان ضاربة إلى الخضرة على اللوحة التي من مينا زرقاء قائمة تنشر صوفية زجاج ملون خلف مذهبات القرن الثامن عشر الجرمانى الشاحبة الدقيقة النقوش. كان هذا الاسم يضمّ بين الأسماء المختلفة التي يتألف منها اسم مدينة استشفاء ألمانية صغيرة ذهبت إليها وأنا طفل صغير برفقة جدتي على حضيض جبل شرفته نزاهات «غوته» وكنا تحتسي في محطة الاستشفاء خمور كروم الدائعة الصيت ذات الأسماء المركبة الداوية كالنعوت التي يطلقها هرميروس على أبطاله. فما أن سمعتهم ينطقون باسم الأمير حتى بدا لي قبلما أتذكر مركز المياه الحارة يتقلص ويمتلئ إنسانية ويلقى له مكاناً صغيراً كافياً في ذاكرتي. التي التصق بها أليفاً عادياً طريفاً لذيذاً خفيفاً وبه شيء من الجوّز والمفروض. وزاد السيد «دو غيرمانت» على ذلك فذكر، وهو يوضح من كان الأمير، عدداً من ألقابه وتعرّفت اسم قرية يجتازها النهر الذي كنت أمضي فيه، في نهاية الاستشفاء، في القارب عبر البعوض، واسم غابة بعيدة بما يكفي كي لا يصرح لي الطبيب بالذهاب إليها في نزهة. وكان معقولاً بالفعل أن تمتدّ إقطاعية السيد إلى الأماكن المحيطة المجاورة وتقرن من جديد في تعداد ألقابه الأسماء التي يمكن قراءة بعضها إلى جانب بعضها الآخر على الخريطة. وهكذا رأيت تحت واقة أمير الامبراطورية المقدسة وفارس «فرنكونيه» وجه أرض حبيبة كثيراً ما توقفت فيها بالنسبة إليّ أشعة شمس الساعة السادسة أقله قبلما دخل الأمير الذي من أمراء «الراين» وأعيان «بالاتينا». ذلك لأنني علمت في مدى بضع لحظات أن العائدات التي كان يجنيها من الغابة والنهر اللذين يسكنهما الجان وحوريات الماء ومن الجبل المسحور الذي شيدت فوقه القرية القديمة التي تحتفظ بذكرى «لوثر» و«لويس الجرمانى» إنما كان يستخدمها ليملك خمس سيارات «شارون» وفندقاً في باريس وآخر في لندن ومقصورة في الأوبرا نهار الاثنين وأخرى في أيام الثلاثاء في مسرح «الفرنسيون» وما كان يخيل إليّ - ولا يبدو أنه يصدق بدوره - أنه يختلف عن الرجال الذين يملكون الثروة نفسها والعمر نفسه وأصلاً أقلّ شاعرية. فقد كان يملك ثقافتهم ومثلهم الأعلى ويغتنب لمكانته ولكن بسبب المكاسب التي تقدّمها له فحسب ولم يظّل له سوى مطعم في الحياة وهو أن يتمّ انتخابه عضواً مراسلاً لجمع العلوم الأخلاقية والسياسية وهو السبب الذي جاء من أجله إلى منزل السيدة

«دوفيلباريزيس» .

ولئن كان التمس، وهو من كانت زوجته على رأس الجماعة الأكثر انغلاقاً في برلين، أن يعرف به لدى المركزية، فما كان ذلك لأنه أحس بادئ الأمر بالرغبة فيه. فلم يتسن له البتة لسوء الحظ، وقد تأكله منذ سنوات ذاك المطعم في دخول اتحاد المجامع، أن يرى عدد أعضاء المجمع الذين يبدو على استعداد للتصويت إلى جانبه يتجاوز الخمسة. كان يعلم أن السيد «دو نوربوا» يتصرف وحده بما لا يقل عن عشرة أصوات يستطيع أن يضيف إليها أخرى غيرها بفضل عمليات بارعة. ولذلك فقد سبق للأمر الذي عرفه في روسيا حينما كان كلاهما سفيراً فيها أن ذهب لزيارته وفعل كل ما في وسعه ليكسب وده. ولكن عبثاً ضاعف مظاهر اللطف وحصل للمركز على أوسمة روسية وذكر اسمه في مقالات تتناول السياسة الأجنبية فقد ألغى أمامه عاقاً وإنساناً بدت كل تلك المظاهر من التودد وكأنها لا حساب لها في نظره ولم يدفع ترشيحه خطوة إلى الأمام ولم يعد حتى بصوته! وليس من شك أن السيد «دو نوربوا» كان يستقبله بتأدب بالغ ولا ينبغي حتى أن يكلف نفسه عناء «ويتحمل مشقة المجيء حتى باب» ، فيذهب بنفسه إلى فندق الأمير وحينما قال الفارس التوتوني: «بودي أن أضحي زميلاً لك» ، أجابه بلهجة المقتنع: «آه! سوف أعطي لك!» ولا ريب أن أحد السذج من أمثال الدكتور «كوتار» كان قال بينه وبين نفسه: «ويحي، إنه ههنا في منزلي وهو الذي أصّر على المجيء لأنه يعتني شخصاً أعظم خطراً منه وهو يقول لي إنه سيغيب لأن أكون في المجمع، وإنما للكلمات مدلولها، يا ربي! ولا ريب أنه إن لم يعرض عليّ التصويت لصالح فلأنه لا يفكر في الأمر. إنه يبالغ في التحدث عن سلطاني العظيم ولا بد أنه يحسب أمانتي تتحقق دون عناء وأني أملك من الأصوات بقدر ما أشاء ولذلك لا يقدم لي صوته، ولكننا عليّ أن أخرج له وأن أقول له ههنا فيما بيننا: هيّا، صوت في صالحه وسوف يضطر إلى القيام بذلك.» ولكن الأمير «دو فافتهايم» لم يكن ساذجاً. لقد كان ما لعل الدكتور «كوتار» كان يدعو «ديلوماسياً ذاهية» وكان يعلم أن السيد «دو نوربوا» لا يقل عنه دهاء وأنه ما كان رجلاً لا يفتن من تلقاء ذاته أنه قد يحسن في عيني مرشح إن هو صوت لصالحه. لقد سبق للأمير في سفارته وبوصفه وزيراً للخارجية أن تفوه، في سبيل بلاده بدلاً من أن يفعل في سبيل نفسه كما هي حاله الآن، بأحادية يعرف المرء سلفاً إلى أي حد يعني الذهب فيها والآن يحملوك على قوله. وما كان يجهل أن الحديث في لغة الدبلوماسية إنما يعني التقدم، ولذلك عمل على أن يحصل السيد «دو نوربوا» على وشاح «القديس اندراوس» ولو كان لا بد له أن يقدم لحكومته تقريراً عن الحديث الذي تم له بعد ذلك مع السيد «دو نوربوا» لاستطاع أن يذكر في برقيته: «لقد أدركت أنني ضللت السبيل.» ذلك لأنه ما أن عاد يتكلم عن المجمع حتى كثر له السيد «دو نوربوا» قوله:

— «لعلّي أرغب في ذلك كثيراً، كثيراً جداً من أجل زملائي. فلا بد أنهم، فيما أظن، يحسون أنك تشرّفهم حقاً لأنك فكرت فيهم. إنه ترشيح مثير تماماً وخارج حدود عاداتنا إلى حد. تدري، المجمع روتيني جداً ويدخله الرعب من كل ما يرتدي بعض الجدة. وإني أؤومه شخصياً على ذلك. وكم مرة أتفق لي أن أنقل ذلك إلى مسامع زملائي! ولست أدرى، عفوك يا رب، إن لم تنطلق من شفتي مرة لفظة «متحجرين»، يضيف قوله بابتسامة مستنكرة وبصوت خافت وكأنما يحدث نفسه، كما هي الحال في حركة مسرحية، وهو يلقي على الأمير نظرة خاطفة مائلة من عينه الزرقاء كمثل عتيق يريد أن يحكم على التأثير الذي يخلقه. «تدرك

أيها الأمير أنني لا أود أن أدع لشخصية بمثل شهرة شخصكم أن تتجّر إلى جولة خاسرة سلفاً. فأنّي أرى من الحكمة أن تمتنع مادامت أفكار زملائي متخلفة إلى هذا الحد. وصدّق على أية حال أنني إن رأيت في يوم روحاً أكثر جدّة بقليل، أكثر حيوية بقليل، ترتسم خطوطها في هذا المجمع الذي ينزع إلى أن يصبح مقبرة كبيرة، وإن توقّعت خطأً يمكننا لك فسوف أكون أول من يخطرك بالأمر».

وفكر الأمير في نفسه قائلاً: «إن وشاح «القديس اندراوس» غلطة، والمفاوضات لم تتحقّق خطوة واحدة. ما هذا ما كان يريد، ولم أضع يدي على المفتاح الصحيح».

كان ذلك ضرباً من المحاكمة ربّما توافرت القدرة عليه للسيد «دو نوربوا» الذي نشئ في مدرسة الأمير نفسه. ويمكن لنا أن نسخر من الغباء المتحدلق الذي يؤخذ به دبلوماسيون من أمثال «نوربوا» إزاء عبارة رسمية تكاد لا تعني شيئاً. ولكنّ لصبيانيتهم ما يقابلها: فالديبلوماسيون يعلمون أنّ المشاعر الطيبة والخطب الجميلة والتوسلات هيئة الوزن في الميزان الذي يضمن هذا التوازن الأوروبي أو غير الأوروبي الذي يدعونه السلام، وأن الوزن الثقيل والحقيقي والحاسم قوامه أمر آخر، قوامه القدرة التي يملكها الخصم، إن كان على قدر كاف من القوة، أو لا يملكها في إرضاء رغبة ما بوسيلة المبادلة. إن هذا النوع من الحقائق، الذي ربّما لم يدركه شخص خالي الغرض تماماً شأن جدّي مثلاً، كثيراً ما واجهه السيد «دو نوربوا» والأمير «فون...». فقد كان السيد «دو نوربوا» يعلم تمام العلم، وهو قائم بالأعمال في بلدان كنّا قارب قوسين أو أدنى من إعلان الحرب عليها، ويساوره القلق من جرّاء الاتجاه الذي توشك الأحداث أن تتخذه، كان يعلم أنّها لن تبلغ إليه بلفظة «السلام» أو بلفظة «الحرب»، بل بكلمة أخرى تافهة في ظاهرها، مخيفة أو مباركة، يفلح الدبلوماسي في الحال في قراءتها بوساطة رموزه ويجب عليها كيما يحافظ على كرامة فرنسه بكلمة أخرى في مثل تفاهتها ولكن وزير الامة المعادية يصير خلفها في الحال: «الحرب». بل إنّ الحوار الذي قد تملي فيه الأقدار كلمة «الحرب» أو كلمة «السلام» لم يجر بعامه، وفق عادة قديمة شبيهة بتلك التي كانت تضفي على أول تقارب بين شخصين نذر كلّ منهما نفسه للآخر شكل لقاء عارض في أثناء عرض مسرحي في مسرح القاعة الرياضية، لم يجر في مكتب الوزير بل على مقعد حديقة كان يمضي إليها الوزير والسيد «و نوربوا» إلى ينابيع مياه حارة ليحتسا من النبع أكواباً صغيرة من ماء استشفائي. كانا يلتقيان، بنوع من الاتفاق الضمني، ساعة الاستشفاء فيقومان معا بادئ الأمر بوضع خطوات في نزهة يعلم المتحاوران أنّها، خلف مظهرها الذي لا يوحي بالخطر، مأساوية كمثال أمر بالتعبئة العامة. وقد لجأ الأمير في قضية خاصة كهذا الترشيح إلى المجمع إلى طريقة الاستقراء نفسها التي صنعها في السلم وأسلوب القراءة نفسة من خلال رموز متناضدة.

وليس يمكن بالتأكيد الزعم بأن جدّي وأمثالها النادرين وحيدون في جهلهم لهذا النوع من الحسابات. فوسطى البشرية ممن يمارسون مهناً حدّدت خطوطها سلفاً يلتقون جزئياً من جراء انعدام الحس لديهم بالجهل الذي كانت تدّين به جدّي لتجرّدها الرفيع. ولابدّ في الغالب من الانحدار إلى الأشخاص الذين يجري الاتفاق عليهم، رجالاً أو نساء على السواء، كيما يقع علينا أن نبحث عن الدافع إلى العمل أو الأقوال الأكثر براءة في ظاهرها داخل المصلحة وضرورة العيش. فمن ذا لا يعلم، حينما تقول له امرأة يزعم أن يدفع لها: «دعنا من حديث المال»، أن هذه العبارة ينبغي أن تعدّ، حسبما يقال في لغة الموسيقى، بمثابة «فاصل صامت»، وأنّها إن صرّحت له فيما بعد قائلة: «لقد بعثت في نفسي الكثير من الغم، وكثيراً ما أخفيت عني الحقيقة، لقد طُفح

الكيل»، فينبغي أن يفسر: «إن حامياً آخر يعرض عليها أكثر؟ على أن الأمر ههنا لا يعدو كونه لغة إمراة لعوب قريبة إلى حد من نساء المجتمع الراقي. إن قطاع الطرق يزودونا بأمثلة. أكثر إثارة. ولكن السيد «دو نوربوا» والوزير الألماني قد تعودا، إن كان قطاع الطرق غير معروفين لديهما، قد تعودا العيش على مستوى الشعوب نفسه، وهي على الرغم من عظمتها كائنات تداخلها الأنانية والمكر ولا تتم السيطرة عليها إلا بالقوة وبالنظر إلى مصلحتها التي يمكن أن تصل بها إلى القتل، وهو قتل رمزي في الغالب، إذ يمكن أن يعني محض التردد في القتال أو رفض القتال بالنسبة إلى شعب ما «الهلاك». ولما كان كل ذلك غير وارد في مختلف «الكتب الصفراء» وغيرها فالشعب من دعاة السلام القانعين. وإن كان نزوعاً إلى الحرب فبالغريزة ومن جرء الحقد والحفيظة لا من جرء الأسباب التي دفعت رؤساء الدولة الذين تم إخطارهم عن طريق أمثال «نوربوا».

في الشتاء التالي مرض الأمير مرضاً شديداً وشفى، ولكن قلبه ظل مصاباً بإصابة لا اشفاء لها. وقال في نفسه: «ويحي! ينبغي ألا أضيق الوقت بالنسبة إلى الجمع، لأنني إن طال بي الزمن سأوشك أن أموت قبل تعييني، وسيكون الأمر مزعجاً حقاً».

فقام بدراسة حول السياسة في العشرين سنة الأخيرة لصالح «مجلة العالمين» وأعرب فيها مرّات عديدة عن أكثر العبارات إطرأ للسيد «دو نوربوا». وذهب هذا الأخير لزيارته وشكره. وأضاف أنه لا يدري كيف يعرب عن امتنانه. وقال الأمير في نفسه، شأن من أقدم على تجربة مفتاح آخر من أجل أحد الأفعال: «ما هذا أيضاً هو المفتاح» وفكر إذ شعر بأنه فقد أنفاسه بعض الشيء وهو يشيع السيد «دو نوربوا»: «تبا لهم، فسوف يوردي هؤلاء الماجنون حقتي قبل أن يأذنوا بدخولي. فهي نسرع».

وفي المساء نفسه التقى بالسيد «دو نوربوا» في الأوبرا، فقال له: «كنت تقول لي هذا الصباح، أيها السفير العزيز، إنك لا تدري كيف تبرهن لي عن اقاراك بالجميل. ذلك من المبالغة الكبيرة لأنك لا تدني لي بأي شيء من هذا القبيل، ولكنني سأبدي قلة ذوق في قبول العرض في الحال».

لم يكن السيد «دو نوربوا» أقلّ تقديراً للباقة الأمير من الأمير للباقة. وأدرك في الحال أن الأمير «دو فافنهايم» ما كان يزمع أن يتقدم إليه بطلب، بل بعرض وأعد نفسه ببشاشة للإصغاء إليه:

— «دونك، سوف أجتدي قليل التحفظ إلى حد بعيد. ثمة شخصان أنا شديد التعلق بهما، وعلى نحو مختلف تماماً مثلما ستدرك ذلك، وقد أقاما منذ قليل في باريس حيث اعتزما العيش من الآن فصاعداً، وهما زوجتي والدوقة الكبيرة «جان». وسوف تقدّمان بعض الولائم ولاسيما على شرف ملك انكلترا وملكتهما. ولعلّ ما تخلمان به أن يمكنهما تقديم شخصية المدعويهما تكن كلاهما لها، دون معرفة بها، إعجاباً عظيماً. وإني أفر أنني لا أدري كيف أفعل لتلبية رغبتهما حينما علمت لتوّي بمحض المصادفة أنك تعرف هذه الشخصية. إني أعرف أنها تعيش في عزلة شديدة ولا تبغي التقاء سوى القليل من الناس، ويأسد هذا القليل. ولكن، إن أنت ساندتني إلى جانب ما توليني من عطف، فأني متيقن أنها سوف تأذن بأن تقدمني في منزلها وأن أنقل إليها رغبة الدوقة الكبيرة والأميرة. وربما ارتضت المجيء لتناول طعام العشاء مع ملكة انكلترا، ومن يدري، لقضاء عطلة الفصح معنا، إن كنّا لا نزعجها كثيراً، لدى الدوقة الكبيرة «جان» في محلة «بوليو». إن هذه الشخصية تدعى المركيزة «دو فيلباريزيس». وإني أفر بأن أملّي في أن أضحي واحداً من رواد مثل هذا المنتدى

الفكري قد يحمل إليّ العزاء ويجعلني أفكر دون غم في التخلي عن ترشيح نفسي إلى المجمع. ففي منزلها كذلك يتداولون العقل والأحاديث الظرفية».

وأحس الأمير بغبطة لاتوصف بأن القفل لايقاوم وأن هذا المفتاح قد دخل فيه.

وأجاب السيد «دو نوربوا» قائلاً: «إن خياراً كهذا لاجدوى منه أيها الأمير العزيز، فليس ما يتوافق والمجمع أكثر من المنتدى الذي تحدث عنه وهو منبت حقيقي للمجمعيين. سوف أنقل طلبك إلى السيدة المركيزة «دو فيلباريزيس» وستغيب لذلك بالتأكيد. فأما أن تذهب للعشاء في منزلك، فإنها قليلاً ما تغادر منزلها وربما كان الأمر أكثر صعوبة. ولكنني سأعرف بك وتتولى بنفسك الدفاع عن قضيتك. إلا أنه ينبغي لك على وجه الخصوص ألا تتخلي عن المجمع، وإني بالضبط أتناول طعام الغداء بعد خمسة عشر يوماً من الغد في منزل «لوروا بوليو» الذي لايمكن أن يتم انتخاب بمعزل عنه كيما أرافقه بعدها إلى جلسة هامة. وقد سبق لي أن أوردت اسمك في حضرته وهو يعرفه بالطبع أتم المعرفة. لقد أطلق بعض الاعتراضات، ولكننا يتفق أنه بحاجة إلى مساندة جماعتي في عملية الانتخاب المقبلة وإني عازم على إعادة الكرة. سأقول له بمنتهى الصراحة عن الروابط الودية تماماً التي تجمع بيننا ولن أكتفه أنني سأطلب إلى جميع أصدقائي التصويت إلى جانبك إن قدمت ترشيحك (وزفر الأمير زفرة ارتياح عميقة) وهو يعلم أن لي أصدقاء. وأحسب، إن أفلحت في ضمان مساعده، أن احتمالات نجاحك ستصبح جدية. فتعال في ذلك المساء في الساعة السادسة إلى منزل السيدة «دو فيلباريزيس» فسأقدمك ويمكنني أن أطلعك على مضمون مداوتي في الصباح».

وهكذا تمّ للأمير «دو فافنهايم» أن يجيء لزيارة السيدة «دو فيلباريزيس». وأصابني خيبة أمل عميقة حينما تكلم. فلم يخطر لي، إن كان لعصر معين سمات خاصة وعامة أقوى مما يتفق لجنسية ما إلى حد أن «لاينتس» بشعره المستعار وياقته ذات الكشاكش قليلاً ما يختلف عن «ماريفو» أو صامويل بيرنار» في معجم مصور يزودونك فيه حتى يرسم حقيقي لـ «مينيرفا»، لم يخطر لي أن جنسية ما تحمل سمات أقوى من طبقة اجتماعية مغلقة. ولكنّها استبانتي أمامي لاخطاب ظننت سلفاً أنني سأسمع فيه حفيف جنيات الهواء ورقص جنيات الكهوف، بل بتبديل صوتي ما كان أقلّ توكيداً لهذا المنشأ الشعري وقوامه أن أمير «الراين» قال وهو ينحني في حضرة السيدة «دو فيلباريزيس». محمراً مكرشاً: «صباح الخير، سيدتي المركيزة» باللهجة نفسها التي لبواب أُلزاسي.

وقالت لي السيدة «دو غيرمانت» رغبة منها في أن تكون لطيفة ما أمكنها اللطف: «ألا تود أن أعطيك كوباً من الشاي شيئاً من «التورته»، إنها طيبة جداً. إني أرحب بضيوف البيت وكأنه بيتي»، تضيف قولها باللهجة ساخرة تضيف على صوتها شيئاً من التعقير كما لو أنّها كتمت ضحكة خشنة.

وقالت السيدة «دو فيلباريزيس». للسيد «دو نوربوا»: «هل ستظن بعد قليل ياسيدي أن ليديك شيئاً تقوله للأمير بشأن المجمع؟»

وخفضت السيدة «دو غيرمانت» عينيها ورسمت ربع دائرة بمعصمها لتنظر إلى الساعة.

— «آه! يا الهي، لقد آن أن أستودع عمّتي إن انبغى لي أن أمرّ لدى السيدة «دو سان فرّيتول» وأتناول

طعام العشاء في منزل السيدة «لوروا».

ونهضت دون أن تودّعي. فقد نحت لتوها السيدة «سوان» التي بدا عليها بعض الارتباك من جراء ملاقاتي. فلا بدّ أنها تذكرت أنها قالت لي قبل أي شخص آخر إنها على يقين من براءة «دريفوس».

وقال لي «سان لو»: «لا أريد أن تقدّمني أمي للسيدة «سان»، فإنها مموس سابقة، وزوجها يهودي وهي تنظّاهر بالوطنية. انظر، هوذا عمّي «بالاميد».

كان حضور السيدة «سوان» يرتدي بالنسبة إليّ أهمية خاصة ناجمة عن أمر جرى قبل بضعة أيام ومن الضروري أن أرويّه بسبب النتائج التي ستنتج عنه فيما بعد والتي سنتابعها في تفاصيلها عندما يحين الوقت. فقد اتفق لي قبل هذه الزيارة ببضعة أيام زيارة أخرى ما كنت أتوقعها، وزيارة «شارل موريل» ابن الخادم السابق لشقيق جدّي، وكان مجهولاً لديّ. وكان شقيق جدّي هذا (الذي سبق أن شاهدت لديه السيدة ذات الأثواب الوردية) قد توفي في السنة السابقة، وقد أعرب خادمه عدّة مرّات عن عزمه في أن يجيء لزيارتي. لم أكن أعلم هدف زيارته ولكنّي ربما رأيته بطيبة خاطر إذ علمت على لسان «فرانسواز» أنه ظلّ يديّ تعلقاً حقيقياً بذكرى عمي ويقوم في كل مناسبة بزيارة المقبرة. ولكنه أوفد إليّ ابنه وقد اضطرّ أن يذهب للتداوي في بلده ويتوقع أن يمكث فترة طويلة هناك. ودهشت أن أبصرت فتى جميلاً في الثامنة عشرة يدخل، وملابسه توحى بالغنى أكثر منها بالدوق، على أنه كان يظهر بمظهر أيّ شيء فيما عدا مظهر الخادم. وقد أصرّ منذ البداية على آية حال أن يقطع الاتصال بعالم الخدمة الذي كان ينحدر منه إذ أطلعني وعلى فمه بسمّة الرضى أنه يحمل جائزة المعهد الموسيقيّ الأولى. وكان هدف زيارته هو الآتي: كان والده قد وضع جانباً، من بين تذكارات عمّي «أدولف»، عدداً منها حكم أنه لا يليق لإرسالها لدويّ ولكنّ من شأنها، فيما يظنّ، أن تثير اهتمام شاب في مثل سني. كانت تلك صور الممثلات الشهيرات والغانيات الكبيرات اللواتي عرفهنّ عمّي، الصور الأخيرة لحياة الماخن العجوز تلك التي كان يفضلها عن حياته العائلية بحاجز منيع. وفيما كان «موريل» الشاب يريني إياها تبينت أنه يتكلف التحدّث إليّ حديث النّدّ للنّدّ. كان يحس، في قوله «أنت» وأقل ما يمكن «يا سيد»، متعة من لم يستخدم والده قطّ في حديثه مع ذويّ سوى صبيغة الغائب. كانت جميع الصور الفوتوغرافية تقريباً تحمل عبارة إهداء من مثل: «إلى أفضل صديق لي». ولكنّ مثله أكثر عقوقاً وأوفر فطنة كُتبت: «إلى أفضل الأصدقاء»، الأمر الذي كان يسمح لها، فيما أكدوا لي، أن تقول: إن عمي لم يكن البتة، وإلى حدّ بعيد على وجه التقريب، أفضل صديق لها، بل الصديق الذي أدّى لها أكثر الخدمات الصغيرة، الصديق الذي كانت تستخدمه، رجل ممتاز وما يقارب الحيوان العجوز. وعبئاً كان «موريل» الشاب يحاول الهروب من نسبه فقد كنت تحس أن طيف عمي «أدولف» ظلّ يرفرف، جليلاً هائلاً في نظر الخادم العجوز، يرفرف بما يشبه القدسية فوق طفولة الابن وشبابه. وفيما كنت أشاهد الصور كان «شارل موريل» يتفحص غرفتي. ولما كنت أبحث أين يمكنني أن أجمعها، قال لي (بلهجة لم تكن الملامة بحاجة إلى الظهور فيها لكثرة ما تبدو في العبارات نفسها): ولكن كيف يتفق ألا أرى صورة لعمك في غرفتك؟ وشعرت بالحمرة تكسو وجهي وتمتمت قائلاً: «أظنّ أن ليس لديّ صورة» - «كيف، لا تملك صورة واحدة لعمك «أدولف» الذي كان يحبّك إلى هذا الحد! سوف أبعث إليك بواحدة آخذها من بين الكميات التي في حوزة الوالد وأمل أنك ستضعها في مكان الصدارة فوق هذا الصوان الذي جاءك بالضبط من عمك». صحيح أنه لم يكن ثمة ما يثير

في ألا يكون في غرفتي صورة لعمي «أدولف» بما أنني لم أكن أملك فيها حتى صورة لوالدي أو لوالدتي بيد أنه لم يكن من العسير الاحساس بأن عمي كان في نظر «موريل»، الذي علم ابنه هذه النظرة إلى الأمور، الشخصية الهامة في العائلة ومنه يستقي والدائي ألقاً مقلصاً. كنت أكثر حظوة لأن عمي كان يقول كل يوم لخادمه إنني سأضحّي ما يشبه «راسين» و«فولابيل» وكان «موريل» يعدني تقريباً بمثابة ابن بالتبني لعمي وولده المختار. وسرعان ما تبين أن ابن «موريل» كان وصولياً. من ذلك أنه سألتني في ذلك اليوم، بما أنه كان ملحقاً ببعض الشيء وقادراً على تلحين بعض الأشعار، أن كنت لا أعرف شاعراً يتمتع بمكانة هامة في دنيا الارستقراطيين. فذكرت له أحدهم. ولم يكن يعرف أعمال هذا الشاعر ولم يسمع باسمه قطّ فدوّنه. إلا أنني علمت أنه كتب إلى هذا الشاعر بعد ذلك بقليل ليقول له إنه معجب متحمس لأعماله وإنه وضع موسيقى لإحدى مقطوعاته الشعرية وسوف يسعده أن يقدم مؤلف الكلمات وصلة إلقاء في منزل الكونتيسة (...). كان ذلك من قبيل التسرع وإماطة اللثام عن خطته. ولم يجب الشاعر وقد جرحته كبرياؤه.

وقد بدا على أية حال أن «شارل موريل» كان يملك إلى جانب طموحه ميلاً قوياً إلى صنوف من الواقع أكثر حسية. فقد لاحظ في الباحة ابنة شقيق «جويان» وهي تخطب صدرية، ومع أنه اقتصر على القول بأنه يحتاج بالضبط إلى صدرية من النوع الغريب فقد أحسست أن الفتاة خلقت في نفسه انطباعاً قوياً. ولم يتردد بأن يسألني أن انزل وأعزّف به، «لا بالنسبة إلى موقعي في أسرتك، أنت تعي ذلك، فإني اعتمد على تكتمك فيما يخصّ والدي، قل فقط إنه فنان كبير من أصدقائك، فلا بدّ، كما تدرك، من أن تخلف انطباعاً طيباً في نفس التجار». ومع أنه ألح إليّ بأنني أستطيع، إذ لا أعرفه معرفة كافية كيما أدعوه «صديقي العزيز» - وهو يدرك ذلك-، أن أقول له في حضرة الفتاة شيئاً ما لا من نحو «معلمي العزيز... مع أنه، بل. إن حسن ذلك في عينيك، عزيزي الفنان الكبير، فقد تجنبت داخل المحل أن «أنعته»، كما لعلّ «سان سيمون» كان يقول، واكتفيت بأن أردّ على تأديبه بتأدّب يقابله. ورأى بين قطع من الخمّل قطعة من حمرة فاقعة صارخة إلى حدّ أنه لم يستطع قطّ ارتداء تلك الصدرية فيما بعد على الرغم ممّا به من ذوق رديء. وعادت الفتاة إلى الشغل مع تلميذاتها، إلا أنه بدا لي أنّ الانطباع كان متبادلاً وأنّ «شارل موريل» الذي حسبته «من عالمي» (ولكنه أكثر أناقة وأوفر ثراء) قد راقها إلى حد بعيد. ولما دهشت أشدّ الدهشة أن عثرت بين الصور التي بعث بها إليّ والده على صورة لرسم الأنسة «ساكريان» (يعني «أوديب») بريشة «ايلستير»، قلت لـ «شارل موريل» وأنا أرافقه حتى المدخل الرئيسي: «أخشى أنك لن تستطيع تزويدي بمعلومات. هل كان عمي يعرف هذه السيدة تمام المعرفة؟ لست أرى في أية فترة من حياة عمي يمكن أن أحدد موقعها، والأمر يهمني بسبب السيد «سوان»... - «لقد فاتني بالضبط أن أقول لك إنّ والدي أوصاني بلفت انتباهك إلى هذه السيدة. فقد كانت هذه المرأة اللعوب تتناول طعام الغداء في منزل عمك في آخر يوم رأيتها فيه. وظلّ والدي لا يدرى إن هو يستطيع إدخالك. ويبدو أنك حسنت كثيراً في عيني تلك المرأة الطائشة وكانت تأمل أن تلقاك ثانية. بيد أن نفوراً وقع بالضبط في ذلك الوقت داخل الأسرة، حسبما قال لي والدي، وما عدت رأيت عمك البتّة». وابتسم في تلك اللحظة كي يودّع من بعيد ابنة شقيق «جويان». كانت تنظر إليه وتتأمل بإعجاب دونما شكّ محيّا النحيل ذا الخطوط المنتظمة وشعره الخفيف وعينه المرحتين. أما أنا فكنت أفكر في السيدة «سوان» فيما أشدّ على يده، وكنت أقول في نفسي مستعجلاً إنه لا بدّ لي منذ الآن أن أماتل بينها وبين «السيدة ذات الأنواب الوردية»، أقول مستعجلاً لشدة ما تنفصلان وتختلفان في ذاكرتي.

وسرعان ما جلس السيد «دو شارلوس» إلى جانب السيدة «سوان». فقد كان يسارع في سائر الاجتماعات التي يحضرها. متعالياً مع الرجال محاطاً بالنساء، إلى الالتحام بأكثرهن أناقة فيحس أنها تكلله بزينتها. كانت سترة البارون الرسمية أو لباسه الرسمي يجعلانه شبيهاً بتلك الرسوم التي نجح في خطها فنان ألوان عظيم لرجل يرتدي السواد ولكنما بالقرب منه على كرسي معطف زاه يزمع ارتدائه إلى حفلة راقصة تنكرية. كانت هذه المقابلة الانفرادية، وهي بعامة مع صاحبة سمو، توفر للسيد «دو شارلوس» صنوفاً من الامتياز يتعشقها. فقد كان من نتائجها مثلاً أن تسمح سيدات المنازل أن يكون للبارون وحده في حفلة ما كرسي أمامي في صف سيدات في حين يتدافع باقي الرجال في الركن القصي. وكان السيد «دو شارلوس» إلى ذلك في حل. وقد استغرق أشد الاستغراق، فيما يبدو، في رواية حكايات مسلية للسيدة المفتونة وبأعلى صوته، من المبادرة إلى تخية الأخرى، وبالتالي من الالتزام بواجبات يؤديها. وخلف الحاجز المطيب الذي ترفعه من حوله الجميلة المصطفاة كان معزولاً وسط صالة وكأنما وسط قاعة مسرح في مقصورة، وحينما يبادرون لتحيته، وكأنما من خلال جمال رفيقته. كان معذوراً أن يجيب باقتضاب شديد ودون أن يتوقف عن محادثة امرأة. لم تكن السيدة «سوان» بالتأكيد في مرتبة النساء اللواتي يحب أن يبرز على هذا النحو إلى جانبهن، ولكنما كان جاهز بإعجابه بها وبصداقته. «سوان» يعلم أنها ستغيب لاهتمامه بها ويغبطه بدوره أن تعرض سمعته للخطر أجمل امرأة هناك.

كانت السيدة «دو فيلباريزيس» نصف راضية فحسب عن زيارة السيد «دو شارلوس» لها. وكان هذا الأخير يحب عمته كثيراً مع أنه يجد لها عيوباً كبيرة. ولكنه كان يوجه إليها بين الحين والحين في سورة الغضب ولماخذ وهمية، ودون أن يصعد في وجه نزواته، رسائل في غاية العنف يكشف فيها عن أمور صغيرة ما كان يبدو حتى ذلك أنه لاحظها. ويمكنني أن أذكر هذه الواقعة، من بين أمثلة أخرى غيرها، لأن اقامتي في «البليك» قد أطلعتني عليها: فقد قبلت السيدة «دو فيلباريزيس»، في خشيتها ألا تكون حملت ما يكفي من مال لتمديد فترة اصطيفائها في «البليك» وإذ لا تحب، بما أنها كانت بخيلة وتخشي المصروفات الفائضة عن الحاجة، أن تستقدم مالا من باريس، أن يقرضها السيد «دو شارلوس» ثلاثة آلاف فرنك. واتفق أن أستاذ من عمته لسبب واه فطالبها بها بحوالة برقية بعد ذلك بشهر واحد. فوصله ألفان وتسع مئة وتسعون ويضع فرنكات. ولما رأى عمته بعد بضعة أيام في باريس وتحدث إليها حديثاً ودياً حملها بكثير من اللطف على ملاحظة الخطأ الذي ارتكبه المصرف المكلف بالإرسال. وأجابت السيدة «دو فيلباريزيس». قائلة: «ولكن ليس ثمة من خطأ، فالحوالة البرقية تكلف ستة فرنكات وخمسة وسبعين». فرد السيد «دو شارلوس»: «آه! بما أن الأمر مقصود فهو على ما يرام. لقد قلت لك ذلك فقط فيما لو كنت تجهلينه لأن الأمر في هذه الحالة كان يمكن أن ينيظك لو فعل المصرف ما فعل مع أشخاص أقل ارتباطاً بك مني». «لا، لا، ليس من خطأ هناك». وختم السيد «دو شارلوس» قوله مبتهجا وهو يقبل برقة يد عمته: «كنت تماماً على حق في حقيقة الأمر». ولم يكن بالفعل حاقداً عليها وكان يتسم فحسب إزاء هذه الدناءة الطفيفة. ولكنه سطر لها بعد ذلك بوقت قليل رسالة تفيض حقاً ووقاحة إذ حسب أن عمته كانت تريد أن تخدعه في أمر عائلي و«تحيك ضده مؤامرة كاملة» وفيما كانت هذه الأخيرة تختبئ بغياء خلف رجال أعمال اشتبه بالضبط أن تكون حالفتهم ضده. وأضاف في التعقيب قوله: «لن أكتفي بالانتقام، بل سأجعلك مضغة الأفواه. سوف أبادر منذ الغد إلى رواية قصة الحوالة البرقية والست فرنكات وخمسة وسبعين التي اقتطعتها من الثلاثة آلاف التي أقرضتك إياها، وذلك

على مسامح كل الناس، وسألحق بك العار.» وعوضاً عن ذلك بادر في الغد إلى طلب الصفح من عمته «فيلباريزيس». أسفاً لرسالة ضمنها جملاً مقبلة بالحقيقة. ومن كان عساه يمكن أن يطلع على قصة الحوالة البرقية على أية حال؟ إن قصة الحوالة هذه إنما كان سيكتمها الآن إذ لا ينبغي انتقاماً بل مصالحة صادقة. أما قبل ذلك، فقد رواها في كل مكان وهو على أحسن حال مع عمته، لقد رواها دون خبث، للاضحاك ولأنه كان التجسيد الحي للفضيحة. لقد رواها ولكن دون أن تعلم بذلك السيدة «دو فيلباريزيس»، حتى إنها لما علمت من رسالته أنه عازم على الحاق العار بها بفضح ظرف أعلن لها أنها أحسنت صنعاً فيه ظنت أنه خدعها آنذاك وأنه يكذب وهو يتظاهر بحبه لها. لقد هدأ كل ذلك، ولكننا لم يكن يعلم كل منهما بالدقة رأي الآخر فيه. والأمر هنا بالتأكيد أمر خلافات متقطعة خاص بعض الشيء. أما خلافات «بلوك» وأصدقائه فكانت من نوع مختلف، ومن نوع آخر كذلك خلافات السيد «دو شارلوس»، مثلما سوف نرى، مع أشخاص غير السيدة «دو فيلباريزيس». تماماً. ولابد أن نتذكر مع ذلك أن الرأي الذي نحمله بعضنا عن بعض وعلاقات الصداقة والأسرة ليس فيها من أمر ثابت إلا في الظاهر، فهي على العكس أبدية الحركة كالبحر. من هنا جاء الكثير من شائعات الطلاق بين أزواج كانوا يبدون في ترابط تام ثم هم بعد قليل يتحدثون بخنان بعضهم عن بعض، والكثير من الأحاديث الشائنة يقولها صديق عن صديق حسبه لا يفصل عنه ونعود فنلقاه وقد صالحه قبل أن تسعنا العودة عن دهشتنا والكثير من انقلابات الأحلاف بين الشعوب في وقت قصير جداً.

وقال لي «سان لو»: «يا إلهي، الحرارة ترتفع بين عمي والسيدة «سوان». وأمي التي جاءت، ببراءتها، تزعمهما. فكل شيء طاهر في نظر الطاهرات!»

كنت أنظر إلى السيد «دو شارلوس». كانت خصلة شعره الأشيب وعينه الضاحكة التي ترفع النظارة المفردة حاجبها وعروته بزهراتها المحمر تؤلف كأنما الرؤوس الثلاث المتحركة لمثلث مضطرب ومدّش. ولم تخالفني الجرأة لتحيتها إذ لم تدبر منه أية إشارة نحوي. بيد أنني كنت متيقناً أنه رأيي مع أنه لم يكن يلتفت صوبي. فقيما كان يروي قصة للسيدة «سوان» التي يتهدّل معطفها الرائع الذي بلون زهر الثالوث حتى إحدى ركبتَي البارون كانت عينا السيد «دو شارلوس» الشائخان، وكأني بهما عينا يانع في الهواء الطلق يخشى من مجيء الشرطة، قد تحرّرتا بالتأكيد كل قسم في الصالة واكتشفتا كل الأشخاص الحاضرين فيه. وجاء السيد «دو شاتليرو» يقرئه السلام دون أن ينم شيء في وجه السيد «دو شارلوس» أنه لمح الدوق الشاب قبل مئول هذا الأخير في حضرته. فهكذا كان السيد «دو شارلوس» في الاجتماعات الحاشدة إلى حدّما، شأن الاجتماع هذا، يحتفظ على نحو ثابت تقريباً بابتسامة لا اتجاه محدداً لها ولا مقصد خاصاً فتجيء، وقد سبقت على هذا النحو تحيات الوافدين، خلوا، حينما يدخل هؤلاء ساحتها، من أي دلالة تودّد لهم. وكان لا بد لي مع ذلك من المبادرة إلى تحية السيدة «سوان». وبما أنها لم تكن تعلم إن كنت أعرف السيدة «دو مارسانت» والسيد «دو شارلوس» فقد أبدت شيئاً من الجفاء وقد خشيت دون ريب أن أطلب إليها أن تعرف بي. فتقدّمت إذ ذاك صوب السيد «دو شارلوس» وأسفت في الحال لأنه لا بدّ كان يراني تماماً فلم يبد من ذلك شيئاً. وقد وجدت، ساعة انحيت أمامه، إصبعاً بعيداً عن جسمه الذي كان يمنعني من الاقتراب منه بكامل طول ذراعه الممدودة، إصبعاً تخالها فقدت خاتماً اسقياً تبدو وكأنما تقدّم لك مكانه المكّرّس له لتقوم بتقبيله، ولا بدّ أنني بدوت وكأنني دخلت على غير علم من البارون وبطريق تحطيم للأبواب يلقي عليّ مسؤوليته إلى ابتسامته الدائمة

وتبدّدها المغفل الخالي من الدلالة. وما كان من شأن هذا الفتور أن يشجع السيدة «سوان» كثيراً على الإقلاع عن فتورها.

وقالت السيدة «دو مارسانت» لابنها الذي أقبل لتحيّة السيد «دو شارلوس»: «كم تبدو متعباً ومضطرباً».

كانت نظرات «روبير» بالفعل تبدو بين الحين والحين وكأنّها تبلغ أعماقاً تغادرها في الحال شأن غوّاص بلغ القاع. وإنّما كان ذلك القاع الذي كان يؤلم «روبير» أشدّ الألم حينما يبلغه ويغادره في الحال ليعود إليه بعد لحظة، إنّما كان فكرة أنّه قطع علاقته بعشيقته.

وأضافت والدته وهي تداعب خدّه: «لا بأس عليك، لا بأس عليك، حسن أن أرى ابني الصغير».

وإذ بدا أن هذا الحنان يزعج «روبير» جذبت السيدة «دو مارسانت» ابنها إلى أقصى الصالة حيث كانت بعض مقاعد من طراز «بوفيه» في فجوة مكسوة بالحرير الأصفر تكتل أعطيها البنفسجية كأزهار سوسن تخضّبها الحمرة في حقل من الأزوار الذهبية. وإذ ألقت السيدة «سوان» نفسها وحيدة وأدركت أنّي أرتبط بعلاقة صداقة مع «سان لو» أشارت إليّ بالجيء بالقرب منها. وما كنت أدري، إذ لم أرها منذ فترة طويلة، عمّا أحدثها. ولم أغفل عن قبعتي بين جميع تلك التي كانت فوق السجادة، ولكنني كنت أساءل بفضول لمن يمكن أن تكون قبعة لم تكن قبعة الدوق «دو غيرمانت» وفي بطانتها حرف «G» يعلوه التاج الدوقي. كنت أعرف من كان الزوّار جميعهم ولا أجد واحداً من بينهم يمكن أن تكون قبعته.

وقلت للسيدة «سوان» وأنا أشير إلى السيد «دو نوربوا»: «ما أقربه إلى القلب. صحيح أن «روبير سان لو» يقول لي إنّهُ ضرب من البواء ولكن...».

فأجابت: «إنّه على حق».

ولما رأيت نظرتها ترتدّ إلى أمر كانت تكتمني إياه ضيقّت عليها بالسؤال، فمضت بي إلى زاوية إذ ربّما سرّها أن تبدو وكأنّما يشغلها إلى حدّ بعيد واحد في هذه الصالة التي تكاد لا تعرف فيها أحداً. وأجابتني قائلة:

– «إليك ما أراد السيد «دو سان لو» أن يقوله لك، ولكن لا تُعدّ له القول، فربما وجدني غير حافظة للسرّ وإنّي أحرص على تقديره، فأنا كما تعلم «مثالية السلوك» إلى أبعد حدّ. لقد تناول «شارلوس» مؤخراً طعام العشاء في منزل الأميرة «دو غيرمانت»، ولست أدري كيف تمّ الحديث عنك. وقد روى السيد «دو نوربوا»، على حدّ قولهم، – والأمر سخيف فلا تشغل بالك لذلك إذ لم يوله أحد أهمية، فالكلّ يعلم تماماً على أيّ لسان يجيء الخبر – أنّك متزلف نصف مهزوز».

لقد سبق أن رويت قبلاً عن ذهولي أن استطاع صديق لوالدي على نحو ما كان السيد «دو نوربوا» أن يتكلّم هكذا في حديثه عني. وانتابني ذهول أكبر أن علمت أن أنفعالي في ذلك اليوم البعيد الذي تكلمت فيه عن السيدة «سوان» وعن «جيلبيرت» وكان معروفاً لدى الأميرة «دو غيرمانت» التي كنت أحسبها تجهلني. إن كلا من أعمالنا وأقوالنا ومواقفنا إنّما يفصله عن «العالم»، عن الناس الذين لم يدركوه مباشرة، وسط تختلف

نفاذيته إلى مالا نهاية وتظل مجهولة لدينا. ولما علمنا بالتجربة أن قولاً مهماً، أي قول، تمنينا بشدة أن ينتشر (كذلك الأقوال المتحمسة جداً التي كنت أجود بها فيما مضى للجميع وفي كل مناسبة حول السيدة «سوان» ظناً مني أنه سوف يكون بين الكثير من البذرات الصالحة المبتوثة واحدة ستنبث) إنما وقع له وفي الغالب بسبب رغبتنا نفسها أن وضع في الحال تحت المكيال، فكم كنا بالأحرى بعيدين عن أن نصدق أن هذه العبارة الصغيرة جداً التي نسيناها، بل لم نتلفظ بها في يوم وتكونت في طريقها من جراء انكسار غير صحيح لعبارة مختلفة سوف يتم نقلها، دون أن تتوقف مسيرتها في يوم، إلى مسافات لا نهاية لها - وحتى منزل الأميرة «دو غيرمانت» فيما يخص موضوعنا - وتمضي لتنتشر المرح على حسابنا في وليمة الآلهة! إن ما نتذكره من سلوكنا يظل مجهولاً لدى أقرب جيراننا؛ أما ما نسينا أننا قلناه أو حتى مالم نقله في يوم فينتقل ليثير الضحك حتى إلى كوكب آخر والصورة التي يكونها الآخرون عن حركاتنا وسكناتنا لا تشبه تلك التي نرسمها لذواتنا أكثر مما يشبه رسماً ما نقل «فاشل» عنه يقابل فيه مجال فارغ خطأ أسود واستدارة غامضة آخر أبيض. وقد يتفق على أية حال أن يكون ما لم يتم نقله إما خطأ وهمياً لا نصبره إلا بداعي الإعجاب بالنفس وأن ما يبدو لنا مضافاً إنما يخصنا على العكس على نحو جوهري إلى حد أنه يفوتنا. حتى أن هذه المسودة الغريبة التي تبدو لنا قليلة الشبه بنا إلى حد بعيد إنما تملك أحياناً نوع الحقيقة التي لصورة بالأشعة السينية، وهي قلما ترضي بالتأكيد ولكنها عميقة ومفيدة. وليس ذلك سبباً كيما نتعرف ذواتنا فيها. فمن تعود أن يتسم في المرأة لحياء الجميل وصدره الجميل سيتفق له، إن هم أروه صورتها الشعاعية، حيال هذه السلسلة العظيمة المشار إليها على أنها صورة له ذات الارتفاع بالخطأ الذي يتفق لرائر معرض يقرأ في الدليل أمام رسم امرأة شابة: «جمل نايم». وكنت سأبين فيما بعد هذا الفارق بين صورتنا حسبما يتم رسمها على يدنا أو على يد الغير، وذلك لدى آخرين غريبي يعيشون عيشة راضية وسط مجموعة من الصور أخذوها لأنفسهم فيما تكشر من حولهم صور مخيفة تخفي عليهم بالعادة ولكنها تغرقهم في الدهول لو أرتهم إياها المصادفة قائلة لهم: «أولئك أنتم».

لعلني كنت سعدت منذ بضع سنوات أن أقول للسيدة «سوان» «لأي داع» كنت رفيقا إلى هذا الحد بالسيد «دو نوربو» بما أن ذلك «الداعي» كان الرغبة في التعرف بها. ولكنني لم أعد أحس بذلك ولم أعد أحب «جيلبيرت». وما كنت أفصح من جهة ثانية في مماثلة السيدة «سوان» بالسيدة ذات الأنواب الوردية التي رأيتهما في طفولتي. وقد تكلمت لذلك عن المرأة التي كانت تشغلني في ذلك الوقت. فسألت السيدة «سوان» قائلاً:

— «هل رأيت لتوك الدوقة «دو غيرمانت»؟

ولما كانت الدوقة لا تحيي السيدة «سوان» فقد شاعت هذه الأخيرة أن تبدو وكأنها تحتسبها امرأة لا شأن لها ولا ينتبه المرء لوجودها فأجابتنني بلهجة متكبرة وهي تستخدم لفظة مترجمة عن الانكليزية:

— «لست أدري، لم «أحقق» ذلك».

على أنني وددت لو أحصل على معلومات لا حول السيدة «دو غيرمانت» فحسب، بل حول جميع الذين كانوا يقربون منها، فسألت السيدة «دو فيلباريزيس» حمل السيدة «لوروا»، في محاولة لتمثل حياة السيدة

«دو غيرمانت» تمثلاً دقيقاً، شأن مايفعل «بلوك» تماماً وبالاتقار إلى اللباقة الذي يديه أناس يحاولون في حديثهم لا أن يحسنوا في عيون الآخرين بل أن يستوضحوا، كما يفعل الأنانيون، نقاطاً تهمهم. فأجابته بازدرء متكلف:

— «أجل، أدري، ابنة تجار الخشب الكبار. أدري أنها تلتقي الآن أناساً، ولكنني سأقول لك إنني تقدم بي السن كثيراً كيما أتخذ معارف جدداً. وقد عرفت أناساً ذوي خطر ولطف كبيرين إلى حد أحسب معه حقاً أن السيدة «لوروا» لن تضيف شيئاً إلى ما أملك.»

أما السيدة «دو مارسانت» التي كانت تقوم بدور وصيفة للمركيزة فقد قدمتني للأمير ولم تكده تنتهي حتى كان السيد «دو نوربوا» يقدمني بدوره وبأكثر العبارات حرارة. فربما وجد من السير أن يقوم بمجاملة إزائي لا تمس في شيء سمعته إذ تم التعريف بي بالفعل منذ قليل؛ وربما لأن الغريب، وإن يكون مشهوراً، أقل اطلاعاً على الصلات الفرنسية ويمكن أن يحسب أنهم يعرفونه بشباب من عليّة القوم؛ وربما لممارسة واحد من امتيازاته، وهو أن يضيف ثقل توصيته الخاصة بوصفه سفيراً، أو بداعي نزعة إلى الأسلوب القديم في القيام على شرف الأمير بأحياء عادة ترضي كبرياء صاحب السمو وهي ضرورة أن يكون ثمة عرابان إن شاء المرء أن يقدم له.

وصاحت السيدة «دو فيلباريزيس» بالسيد «دو نوربوا» وقد أحست بحاجة أن تقول لي على لسانه إنه ما كان لها أن تأسف لأنها لا تعرف السيدة «لوروا».

— «أليس أن السيدة «لوروا»، يا سيدي السفير، امرأة لا شأن لها وأدنى بكثير من جميع اللواتي يترددن إلى هنا وآتي على حق في أنني لا أستميلها؟»

واكتفى السيد «دونوربوا»، إمّا بداعي الاستقلالية أو الإرهاق، بأن يجيب بتحية تفيض احتراماً ولكنها خالية المدلول.

وقالت له السيدة «دو فيلباريزيس» ضاحكة: «ثمة أناس يشيرون السخرية إلى حد كبير. هل تصدق يا سيدي أن رجلاً قد زارني اليوم وشاء أن يحملني على الاعتقاد بأنه يحس متعة أكبر في تقبيل يدي منه في تقبيل يد امرأة شابة؟»

وفهمت في الحال أنها تعني «لوغراندان». وابتسم السيد «دو نوربوا» بغمزة خفيفة من عينه كما لو كان الأمر ملّة طبيعية إلى حد لا يمكن معه أن نحمل على من يشعر بها وما يقارب أن يكون بداية رواية نبدي استعداداً لأن نغفر لها، وحتى أن نشجعها، بتسامح شيطاني على طريقة «فوازنون» و«كرييون» الابن.

وقال الأمير وهو يشير إلى اللوحات المائية التي باشرتها السيدة «دو فيلباريزيس»: «قد تعجز أيدي الكثيرات من النساء الشابات عن صنع ما شاهدت هنا.»

ثم سألتها إن كانت شاهدت أزهار «فانتان لاتور» التي عرّضت منذ قليل.

وصرح السيد «دو نوربوا» قائلاً: «إنها من الطراز الأول وهي، كما يقولون اليوم، من ريشة رسام مرموق، ريشة واحد من أساتذة الممزجة. غير أنني أرى أنها لا تستطيع احتمال المقارنة مع أزهار السيدة «دو فيلباريزيس» التي أتعرف فيها أكثر من تلك ألوان الزهرة.»

وحتى لو افترضنا أن تحيز العشيق السابق وعادة التزلف والآراء المسلم بها في جماعة مغلقة قد أملت تلك الأقوال على السفير السابق فقد كانت تبرهن مع ذلك على أي انتقاء حقيقي في الذوق يرتكز حكم أهل المجتمعات الراقية الفتي، وهو اعتباطي إلى حد أن النزر اليسير يمكن أن يبلغ به أسوأ صنوف السخافة التي لا يلاقي على دربها كيما يوقفه أي انطباع نابع من إحساس حقيقي.

فأجابت السيدة «دو فيلباريزيس» باتضاع: «ليس لي أي فضل في معرفة الأزهار، فقد عشت أبداً في الحقول.» وأضافت بلطف وهي توجه القول للأمير: «ولكن تسنت لي في حدائتي سني أفكار أكثر جدية بقليل من أطفال الريف الآخرين فإني أدين بذلك لرجل بارز جداً من شعبيكم هو السيد «دو شليغل». لقد التقيت به في «بروي» حيث اصططجتني عمّتي «كورديليا» (عقيلة المشير «دو كاستيلان»). وإني أذكر تماماً أن السيد «لوبرون» والسيد «دو سافندي» والسيد «دو دان» كانوا يحملونه على الحديث عن الأزهار وكنت بنية صغيرة جداً ولا أحسن تماماً فهم ما يقول. ولكنّه كان يلهو بملاعيتي، وعندما عاد إلى بلادكم بعث إليّ بمجموعة عشبية جميلة تذكراً لنزهة كنّا قمنا بها في عربة مكشوفة إلى محلة «فال ريشيه» وقد أغفيت فيها على ركبتيه. لقد حافظت دوماً على هذه المجموعة العشبية وقد علمتني أن ألاحظ الكثير من خاضيات الأزهار التي ما كانت لتسترعي انتباهي لولا ذلك. وحينما نشرت السيدة «دو بارانت» بضع رسائل للسيدة «دو بروي» جميلة بادية الصنعة على نحو ما كانت هي نفسها أملت أن ألقى فيها بعض أحاديث السيد «دو شليغل» تلك. ولكنّها امرأة ما كانت تبحث في الطبيعة إلا عن حجج في سبيل الدين.»

ودعاني «روبير» إلى أقصى الصالة حيث كان مع والدته. فقلت له: «كم كنت لطيفاً وكيف أشكرك؟ هل يمكن أن نتناول غداً طعام العشاء معاً؟»

- «غداً، إن شئت، ولكن برفقة «بلوك». لقد التقيت به أمام الباب. وبعد لحظة من الفتور لأنني كنت غصباً عنّي قد تركت جانباً رسالتين له دون جواب (لم يقل لي إن ذلك ما جرح شعوره ولكنّي أدركت الامر)، أبدى من المودة مالا يمكنني معه أن أبدي العقوق نحو صديق كهذا. وأحس أن ذلك سيظل بيننا، فيما يخصّه على الأقل، مدى الحياة وحتى الممات.»

ولا أحسب أن «روبير» كان على خطأ تامّ. فكثيراً ما كانت المذمة لدى «بلوك» نتيجة مودة قوية ظنّ أنّهم لا يبادلونه إياها. ولما كان ضعيف التخيل لحياة الآخرين فلم يكن يخطر له أنّه يمكن للمرء أن يكون مريضاً أو على سفر، الخ، وسرعان ما يبدو له صمت دام ثمانية أيام أنّه ناجم عن جفوة مقصودة. ولم أعتقد لذلك في يوم أن أسوأ صنوف عنف الصديق لديه، والكاتب فيما بعد، كانت على عمق كبير. لقد كانت تزداد حدة إن قوبل فيها بجفاء وقور أو ببرودة تشجعه على مضاعفة ضرباته، ولكنّها تنهار في الغالب أمام حرارة المودة. وتابع «سان لو» قوله: «فأما اللطف فإنك تزعم أنني كنت لطيفاً معك، ولكنني لم أكن لطيفاً

على الإطلاق، فعمتي تقول إنك تتجنبها أنت وإنك لاتقول لها كلمة واحدة: وتتساءل إن كنت لا تضمر أمراً ضدها.

ولو وقعت ضحية هذه الأقوال لحال رحيلنا إلى «البليك» لحسن حظي، وكنت أحسبه وشيكاً، دون أن أحاول لقاء السيدة «دو غيرمانت» ثانية وأؤكد لها أنني لا أضمر شيئاً ضدها وإن اضطرها بذلك إلى أن تثبت أنها هي التي تضمر شيئاً ضدي. إلا أنه لم يقع عليّ سوى أن أذكر أنها لم تعرض عليّ حتى الذهاب لزيارة أسرة «ايلستير». وما كان ذلك على أية حال خيبة أمل، إذ ما توقعت على الإطلاق أن تكلمني عن الأمر. كنت أعلم أنني لا أروقها وأنه لم يكن لي أمل في حملها على مجبتي. وأكثر ما أمكن أن أتمناه أن أحمل عنها، بفضل طبيعتها، وبما أنني لن أعود فأراها قبل مغادرتي باريس، انطباعاً كلي الحلاوة آخذه إلى «البليك» ويتناول إلى مالا نهاية ولاتمسة يد، بدلاً من ذكرى تمتزج بالقلق والكآبة.

كانت السيدة «دو مارسانت» تقطع في كل لحظة حديثها مع «روبير» لتقول لي كم كلمها كثيراً عني وكما كان يجني. لقد كانت تبدي لي من العناية ما كاد يورثني غمّاً لأنني كنت أحس أنها إنمّا تملئها الخشية التي بها أن تغضب بسببي من ذلك الابن الذي لم تكن بعد قد رآته اليوم والذي تستعجل أن تنفرد به والذي تحسب أن السلطان الذي تمارسه عليه لا يوازى سلطاني ولا بد أن يراعيه. واستعلمت السيدة «دو مارسانت» بعدما سمعني قبلاً أسألك «بلوك» عن أخبار عمّه «نسيم بيرنار» إن كان ذاك الذي سبق أن سكن «نيس». وقالت: «لقد عرف فيها، في هذه الحالة، السيد «دو مارسانت» قبل أن يتزوجني. وكثيراً ما حدثني زوجي عنه على أنه رجل ممتاز رقيق القلب كريم النفس».

ولعلّه كان خطراً لـ «بلوك» أن يقول: «عجباً أنه لم يكذب هذه المرة، ذلك أمر لا يصدق».

كان بودّي دوماً أن أقول للسيدة «دو مارسانت» إن «روبير» يكنّ لها مودة أعظم بما لا يقاس بما يكنّ لي وأن ليس من طبعي محاولة استعدائه عليها وفصله عنها ولو أبدت لي العداء. ولكنني أصبحت أكثر حرية في ملاحظة «روبير» منذ أن ذهبت السيدة «دو غيرمانت» وتبينت آنذاك فقط أن نوعاً من الغضب أخذ يبدو ثانية وكأنه يعتمل في صدره ويلوح على وجهه القاسي المتهجم. وكنت أخشى أن يشعر بالمذمة ازائي، لدى تذكر شجار ما بعد الظهيرة، أن سمح بمعاملته معاملة قاسية إلى هذا الحد على يد عشيقته دون أن يردّ.

وتملص فجأة من والدته التي كانت قد لفت عنقه بذراعها وأقبل إليّ فقادني خلف منضدة السيدة «دو فيلباريزيس» المزهرة حيث كانت هذه الأخيرة قد جلست وأشار إليّ أن أتبعه إلى الصالة الصغيرة. وكنت ماضياً إليها بسرعة حينما فارق السيد «دو شارلوس» على نحو مفاجئ، ولعلّه حسني ذاهباً باتجاه المخرج، السيد «دو فافنهايم» الذي كان يتحدث معه وقام بدورة سريعة قادته قبالي. ورأيت بهلع أنه أخذ القبة التي خطّ في أسفلها حرف (G) وتاج دوقي. وقال لي في فتحة باب الصالة الصغيرة دون أن ينظر إليّ:

— «بما أنني أراك الآن ترتاد المجتمع فتكرّم عليّ بأن تأتي لزيارتي». وأضاف بهيئة الشارد المتحسب وكما لو تعلّق الأمر بمتعة كان يخشى ألا يعود فيلقاها بعدما تفلت من يده فرصة تنظيم وسائل تحقيقها معي: «ولكن الأمر على شيء من التعقيد، فقليلاً ما أكون في منزلي ولا بد من أن تكتب إليّ. على أنني أفضل أن

أوضح لك ذلك بهدوء أكبر. إنني أزمع الذهاب بعد لحظة فهل تسير خطوتين برفقتي؟ لن أستوفك سوى لحظة.

فقلت له: «يحسن بك أن تنتبه ياسيدي، فقد أخذت خطأ قبعة أحد الزائرين».

— «مرادك أن تمنعني من أخذ قبعتي؟»

لقد افترضت، إذ اتفقت لي المغامرة قبل ذلك بقليل، أنه بعدما أخذ أحدهم قبعته لمح إحداها اتفاقاً كي لا يعود حاسر الرأس وأنني كنت أخرج به كشف حيلته. ولذلك لم ألح، وقلت له إنه ينبغي لي أولاً أن أقول بضع كلمات لـ «سان لو»، وأضفت قولي: «إنه يحدث دوق «غيرمانت» الأبله هذا». — «ظريف ما تقوله، وسوف أنقله لشقيقي». — «آه! أتظن أن الأمر يمكن أن يشير اهتمام السيد «دو شارلوس»؟ (وكنيت أتصور أنه، إن كان له أخ، فلا بد أن يدعى هذا الأخ بدوره «شارلوس». لقد سبق أن زودني «سان لو» ببعض الايضاحات بهذا الشأن في «باليك» ولكنني نسيتها). فقال لي البارون بلهجة وقحة: «ومن يحدثك عن السيد «دو شارلوس»؟ هيا امضي بالقرب من «روبير». إنني أعلم أنك شاركت هذا الصباح في واحد من أغذية العريضة التي يقيمها بصحبة امرأة تلتطخ شرفه. وجدير بك أن تستخدم نفوذك عليه كي تحمله على إدراك الغم الذي يسببه لوالدته المسكينة ولنا جميعاً بتمريغ اسمنا في الوحل».

وددت لو أجيب أننا لم نتحدث في أثناء الغداء الشائن إلا عن «إيمرسون» و«ايسن» و«تولستوي» وأن المرأة الشابة قد حضت «روبير» على ألا يشرب غير الماء. وكيماً أجهد في جلب بعض العزاء لـ «روبير» الذي ظننت كرامته قد جرححت حاولت أن أعذر عشيقته. ولم أكن أعلم أنه إنما كان يوجه الملامة لنفسه في تلك اللحظة على الرغم من غضبه منها. ذلك أنه يتفق دوماً حتى في المشاجرات بين صالح وشريفة وحينما يكون الحق بكلية من جانب أن يكون ثمة إحدى الترهات التي يمكن أن تبدي للشريفة أنها ليست مخطئة في نقطة معينة. وبما أنها تهمل جميع النقاط الأخرى، فإن احتاج الصالح إليها أقل ما يحتاج وأضعف الهجر معنوياته فسيدخل ضعفه الوسواس إلى نفسه وسيذكر صنوف اللوم اللامعقولة التي وجهت إليه ويتساءل إن لم يكن لها شيء من الأساس.

وقال لي «روبير»: «أظنني أخطأت في مسألة العقد هذه. أنا بالتأكيد لم أفعل ذلك بمقصد سييء ولكنني أعرف تماماً أن الآخرين لا يتخذون وجهة النظر نفسها التي نتخذها نحن. لقد عاشت طفولة قاسية جداً. وإنما أنا في نظرها الغني الذي يعتقد أن المرء يبلغ كل شيء بماله والذي لا يقوى الفقير على محاربته سواء في ذلك التأثير على «بوشرون» أو كسب دعوى أمام القضاء. ليس من شك أنها كانت قاسية جداً، أنا الذي لم يبحث في يوم إلا عن خيرها. ولكنني أثبتت الأمر تماماً، إنها تظن أنني أردت أن أشعرها بإمكان ربطها بالمال، وما ذلك بصحيح».

ما عساها تقول في نفسها هي التي تحبني أشد الحب! يا للعزيزة المسكينة، إن لديها، لو تدري، من صنوف الرقة، أنا لا أستطيع أن أقول لك، فكثيراً ما فعلت من أجلي أمور رائعة. كم ينبغي أن تكون تعيسة في هذه اللحظة! ومهما يكن من أمر، على أي حال، لا أريد أن تعدني غليظ الفؤاد، وإنني مسرع لدى «بوشرون»

لاحضار العقد: من يدري؟ ربما اعترفت بأخطائها ساعة تراني أفعل ما أفعل. ترى، هي فكرة أنها تتعذب في هذه اللحظة مالا أطيع احتمالاً! ما نحمل من عذاب إنما نعلمه وهو غير ذي بال. أما فيما يخصها، فأنا نقول لأنفسنا إنها تتعذب ولا نستطيع تصوّر ذلك، أظنني سأجنّ وأفضل ألا أعود فألقاها في يوم على أن أدعها تتعذب. فلتكن سعيدة بمعزل عني إن وجب الأمر، فذلك كلّ ما أتمناه. اسمع، تدري، كلّ ما يجسها لاحدود له، في نظري، ويتخذ شيئاً من رحابة الكون. إنني مسرع إلى الجواهري، وبعدها أسألها الصبح. وإلى أن أصل إلى هناك، ماعسى يمكن أن تفكر في؟ لو أنه تعلم فحسب آتي أزمع المجيء! يمكنك تحسباً لكل طارئ أن تجيء إلى بيتها، فمن يدري، ربما تمت تسوية كلّ شيء. وقال مبتسماً وكأنما لايجرؤ على الاعتقاد بحلم كهذا: «ربما ذهبتا ثلاثتنا للعشاء في الأرياف. ولكننا لانستطيع أن نعرف بعد، فاني لا أحسن معاملتها. يا للصغيرة المسكينة، ربما أزمعت أن أخرج شعورها أيضاً. وقد يكون قرارها قراراً لا رجعة فيه.»

ومضى بي «روبير» على نحو مفاجئ إلى والدته، وقال لها: «الوداع، إنني مضطر إلى الرحيل، ولست أعلم متى أعود في اذن، ولن يكون ذلك قبل شهر دونما شك. سوف أكتب لك ما أن أعلم ذلك.»

لم يكن «روبير» بالتأكيد من أولئك الأبناء الذين يحسبون، إما وجدوا في المجتمع برفقة والديهم، أنه لابد أن يوازي موقف ساخط إزاءها البسمات والتحيات التي يوجهونها للأغراب. فليس ما كان أكثر شيوعاً من ذلك الانتقام البشع يمارسه أولئك الذين يظنون أن القضاة تجاه الأهل إنما تكمل بالطبع البرّة الرسمية. ومهما تقل والدة المسكينة فإن ابنها يرفع في الحال في وجهه التوكيد الذي صيغ بوجمل قولاً مناقضاً ساخراً قاسياً كما لو اضطجّب رغماً عنه وابتغى أن يكلفهم حضوره دفع ثمن مرتفع وتنضم والدة في الحال إلى رأي هذا الكائن المتفوق، دون أن تهدأ سورة غضبه لذلك. وتوالي الإشادة به في غيابه أمام الجميع على أنه ذو طباع عذبة، مع أنه لايفيها أباً من سهامه اللاذعة كأكثر ما تكون. كان «سان لو» من طينة مغايرة تماماً، بيد أن القلق الذي يبعثه غياب «راجيل» كان من نتيجته أن لم يكن أقلّ قسوة على والدته من هؤلاء الأبناء على أمهاتهم ولكن لأسباب مختلفة. ورأيت لدى الكلمات التي تفوّ بها الحفنة نفسها، وهي شبيهة بخفقة جناح، تلك التي لم تقو السيدة «دو مارسانت» على كتفها لدى وصول ابنها، تدفعها إلى الانتصاب بكامل قامتها. ولكنما كانت تثبت عليه الآن وجهاً قلقاً وعينين مغتمتين.

- «عجبا، أنت ذاهب يا روبير؟ والأمر جدي؟ يا ولدي الصغير! وهو اليوم الوحيد الذي يمكن أن تكون فيه لي!»

وأضافت بصوت خافت تقريبا وبلهجة طبيعية كأكثر ما تكون وبصوت يجهد أن تقصي منه أي حزن كي لا توحى لابنها بأية شفقة قد تكون قاسية عليه أو غير مجدية ومن شأنها أن تغضبه فحسب، أضافت وكأنما تلك حجة صادرة عن سلامة التفكير:

- «تعلم أن ما تفعله ليس لطيفاً.»

ولكنها كانت تضيف إلى تلك البساطة قدراً كبيراً من الوجمل كي تبدي له أنها لاتتجاوز حرّيته، وقدراً كبيراً من الحنان كي لا يأخذ عليها أنها تقف حائلاً دون متعه إلى حدّ لم يستطع «سان لو» معه ألا يتبين في

داخله إشفاقاً ممكناً، يعني عائقاً دون قضاء الأمسية مع صديقه. ولذلك أخذه الغضب:

— «ذلك مؤسف، أما أن كون لطيفاً أو غير لطيف، فالأمر هكذا.»

وجهه إلى والدته اللوم الذي أحس دونما شك أنه ربما يستحقه؛ إذ هكذا يملك الأنانيون أبداً الكلمة الفصل؛ فأنهم يفترضون بادئ الأمر أن عزمهم لا يتزعزع، ويقدر ما يبدو الشعور الذي يستحثون به لثنيهم عن عزمهم مؤثراً بهذا القدر يشجون، لا أنفسهم هم الذين يقاومون ذلك الشعور، بل أولئك الذين يفرضون عليهم ضرورة مقاومته، حتى إن قسوتهم يمكن أن تبلغ أقصى درجات الشراسة دون أن يفضي ذلك في نظرهم إلا إلى أن يزيد بالقدر نفسه من ذنب الشخص الذي يبدي من قله الذوق ما يكفي ليتألم ويكون على حق وسبب لهم بذلك على نحو جبان ألم التحرك ضد إشفاقهم ذاته. وقد كتبت السيدة «دو مارسانت» على أية حال من تلقاء نفسها عن الإلحاح إذ أخذت تحس أنها لن تستوفقه من بعد.

وقال لي: «إني أدعك، ولكن لاستتبقيه طويلاً يا أُمِّي إذ ينبغي له أن يبادر بعد قليل إلى القيام بزيارة.»

كنت أحس تماماً أن وجودي لا يمكن أن يجلب أية مسرة للسيدة «دو مارسانت» ولكنني كنت أفضل، إذ لا أرحل مع «روبير»، ألا تحسب أنني أشارك في تلك المتع التي تحرمها إياه. وددت لو ألقى عذراً لسلوك ابنها، وذلك اشفاقاً عليها أكثر مني مودة له. ولكنها كانت أول من بادر إلى الكلام وقالت لي:

— «يا للصغير المسكين، إني على يقين من أنني بعثت الغم في نفسه. أرأيت ياسيدي، الأمهات أنانيات إلى أبعد حد. مع أنه لا يتوافر له الكثير من المتع، فما أقل ما يأتي إلى باريس. يا إلهي، وددت لو ألحق به إن لم يكن بعد قد ذهب، لا لاستتبقيه بالتأكيد، بل لأقول له إني غير حاقدة عليه وإني أرى أنه كان على حق. ليس يزعجك أن أنظر على الدرج؟»

ومضينا حتى هناك. وصاحت: «روبير! روبر! لا، لقد ذهب وفات الأوان.»

لعلني كنت أخذت الآن على عاتقي مهمة أن أحمل «روبير» وعشيقته على قطع علاقتهما بمثل ما كنت أبلدت من طيبة خاطر منذ بضع ساعات كيما يمضي للعيش معها كلياً. وربما حكم «سان لو» في هذه الحالة أنني صديق خائن، ودعنتي أسرته في الحالة الأخرى قرينها الشرير. مع أنني كنت الرجل نفسه بفارق بضع ساعات.

وعدنا إلى الصلاة، فبادلت السيدة «دو فيلباريزيس»، إذ لم تبصر «سان لو» يعود، السيد «دو نوربوا» نظرة متشككة ساخرة دونما اشفاق كبير فيها، تلك التي نرسلها ساعة نشير إلى زوجة مفرطة الغيرة أو أم مفرطة الحنان (وكلتاها متوفران عرضاً هزلياً للآخرين) والتي تعني: «ويحك، لا بد أن عاصفة هبت هناك.»

ومضي «روبير» إلى منزل عشيقته يحمل إليها الجوهرة الرائعة التي ما كان يجدر به، بموجب اتفاقتهما، أن يهبها إياها. على أن الأمر أفضى إلى النتيجة نفسها لأنها لم تقبل بها ولم يفلح البتة في حملها على القبول بها. كان بعض أصدقاء «روبير» يعتقدون أن أدلة التجرد التي توفرها كانت خطة ترمي إلى شدة

إليها. بيد أنها لم تكن متعلقة بالمال إلا بالقدر الذي يمكنها أن تصرف دون حساب فقد رأيتها تتصدق كيفما تيسر لها وعلى نحو مجنون على أناس كانت تظنهم فقراء. وكان أصدقاء «روبير» يقولون له كيما يوازنوا بأقوالهم السيئة فعلة متجدة قامت به «راحيل»: «لابد أنها الآن في ممر ملهى «الفولي بيرجير». إن «راحيل» هذه لغز ومستودع أسرار حقيقي». وكم من امرأة مغرصة، بما أنه يتم الانفاق عليها، نراها تقيم بنفسها ألف حاجز صغير دون كرم عشيقها تدفعها لباقة تورق وسط هذه الحياة!

كان «روبير» يجهل سائر خيانات عشيقته تقريباً ويعمل فكره في كل ما كان محض هنات تافهة في مقابل حياة «راحيل» الحقيقية، الحياة التي لم تكن تبدأ كل يوم إلا بعدما يفارقها بقليل. كان يجهل تقريباً كل خياناتها. وربما أمكن اطلاعه عليها دون أن يزعر ذلك ثقته بـ «راحيل»؛ فذلك قانون للطبيعة رائع يبرز في صميم المجتمعات الأكثر تعقيداً وقوامه أن يعيش المرء في جهل كامل لما يجب. فالعاشق من جانب يقول في نفسه: «إنها ملاك ولن تهني نفسها في يوم، ولم يبق لي سوى الموت، على أنها تخبني إلى حد أنها ربما... ولكن لا لن يكون الأمر ممكناً» وفي ثورة اشتياقه وقلق انتظاره كم من المجوهرات يضع على قدمي هذه المرأة وما أسرع ما يجري إلى افتراض المال ليحبها لهم! أما الجمهور فيقول من جانب الحاجز الزجاجي الآخر الذي لن تمر عبره الأحاديث أكثر ما تفعل تلك التي يتبادلها المتنزهون أمام حوض أحياء مائية: «ألست تعرفها؟ إني اهتلك على ذلك، لقد سرقت وهدمت مالست أدري من الناس. إنها محض محتالة. خداعة إلى ذلك» وربما لم تكن هذه الصفة الأخيرة باطلة تماماً، فحتى الرجل المترب الذي لا يعيش حقاً هذه المرأة بل تروقه فحسب يقول لأصدقائه: «لا يعززي، ليست غانية على الإطلاق. أنا لا أنكر أنها عرفت في حياتها نورتين أو ثلاثاً، ولكنها ليست امرأة تشتري، أو أن الثمن مرتفع جداً حينذاك. معها تدفع خمسين ألف فرنك أو لاشيء على الإطلاق». وقد دفع، هو، خمسين ألف فرنك في سبيلها وحصل عليها مرة، أما هي فقد أقلحت في إقناعه أنه من بين الذين حصلوا عليها مقابل لاشيء إذ لقيت من أجل ذلك على أية حال شريكاً في داخله وفي شخص كبريائه. وهكذا فإن الشخص الأكثر افتضاحاً والأسوأ سمعة لن يتم لأحد في المجتمع أن يعرفه في يوم إلا في أقاصي ندرة طبيعية حلوة مستعذبة وفي حماها. وكان في باريس رجلاً لا ثقلان لم يعد «سان لو» يحييهما ولا يتحدث عنهما دون أن يرتجف صوته ودون أن يدعوهما مستغلي نساء: «ذلك أنهما تبددت ثروتهما على يد «راحيل».

وقالت لي السيدة «دو مارسانت» بصوت خافت: «لست ألوم نفسي إلا في أمر واحد، وهو أنني قلت له إنه لم يكن لطيفاً. هو، ذاك الابن الرائع الفريد الذي لامثيل له، أن أكون قلت له في المرة الوحيدة التي ألقاه فيها إنه لم يكن لطيفاً، إني أفضل لو ضربت بالعصا لأنني متيقنة أنه مهما أصاب من متعة في هذا المساء، هو الذي لا يصيب الكثير، فسوف تودي بها تلك العبارة الظالمة. على أنني لن استبقيك ياسيدي بما أنك في عجلة من أمرك».

كل ما جاءت السيدة «دو مارسانت» على قوله لي كان يتعلق بـ «روبير». كان صادقاً، ولكنها كفت عن كونها صادقة لتعود من جديد سيدة كبيرة:

— «لقد شاقني وأسعدني جداً وراقني أن أتحدث إليك قليلاً. شكراً! شكراً»

وكانت تثبت عليّ، بادية الاتضاع، نظرات ممتنة منتشية كما لو كان حديثي إحدى أعظم المتع التي عرفتھا في حياتھا. كانت تلك النظرات الرائعة تتناسب والزهرات السوداء على الفسطان الأبيض المعرق، كانت نظرات سيدة كبيرة تتقن مهنتھا.

— «لا يمكنني الذهاب في الحال، فلا بد أن انتظر السيد «دو شارلوس» الذي ينبغي لي أن أمضي معه.»

وسمعت السيدة «دو فيلباريزيس» هذه الكلمات الأخيرة، فبدأ أنها تكذّرت. ولعله خيل إليّ أن ما بدا وكأنه في ذعر لدى السيدة «دو فيلباريزيس» في تلك اللحظة إنّما كان الحياء، لو لم يدر الأمر حول مسألة لا يمكن أن نردّها إلى شعور من هذا القبيل. ولكنّ تلك الفرضية لم تخطر حتى ببالي. فقد كنت مسروراً من السيدة «دو غيرمانت» و«سان لو» والسيدة «دو مارسانت» والسيد «دو شارلوس» والسيدة «دو فيلباريزيس»، فما كنت أفكر وكنت أتحدّث بمرح وكيفما تيسر.

وقالت لي: «أترزع الذهاب مع ابن أخي «بالاميد»؟

وإذ خطر لي أن ارتباطي بصداقة مع ابن اخ للسيدة «دو فيلباريزيس» كانت تقدّره إلى حدّ بعيد كان يمكن أن يورثها انطباعاً مشجعاً جداً فقد أجبت مغتبطاً: «لقد طلب إليّ أن أعود معه، ويخطني الطلب. وإنّما على كلّ حال أعمق صداقة مما تظنّين ياسيدي وأنا عازم على كلّ شيء كيما نرداد ارتباطاً.»

وخيل إليّ أنّ السيدة «دو فيلباريزيس» أضحت، بعد تكذّر، في هم، فقالت لي بهيئة المهتمّ: «لانتظره، إنّّه يتحدّث إلى السيد «دو فافنهايم». ولم يعد يفكر في ما قاله لك. هيا امضي وانتهز الفرصة بسرعة فيما هو يدير ظهره.»

ولم أكن فيما يخصني معجلاً في الذهاب للحاق بـ «روبير» وعشيقته. ولكنما بدا أنّ السيدة «دو فيلباريزيس» كانت تصرّ إصراراً كبيراً على ذهابي إلى حدّ أنّي استودعتها وقد تبادل ربما إلى ذهني أنها ترغب التحدّث بمسائل هامة مع ابن شقيقها. كان السيد «دو غيرمانت» يجلس بتناقل بالقرب منها، راعماً إلهي المظهر. لكنّما كانت فكرة أمواله الكبيرة الماثلة في كلّ جزء من أعضائه، وكأنّ تلك الأموال قد أذيت في البوتقة سبيكة بشرية واحدة، كانت تضفي كثافة خارقة على هذا الرجل الذي يساوي الكثير الكثير. وساعة استودعته نهض بتأدب من مقعده وأحسست بكتلة الثلاثين مليوناً الجامدة المتراصة التي كانت التربية الفرنسية القديمة تحرّكها وترفعها تنتصب واقفة أمامي. كان يخيل إليّ أنّي أرى تمثال «جوبيتير» الأولمبي الذي صنعه «فيدياس» فيما يقولون من ذهب خالص. ذلك كان سلطان التربية اليسوعية على السيد «دو غيرمانت»، على جسد السيد «دو غيرمانت» على الأقلّ، لأنّها لم تكن إلى ذلك تسيطر على عقل الدوق سيطرة مطلقة. فقد كان السيد «دو غيرمانت» يضحك لنكاته ولكنما لاتنفرج أساريه لنكات الآخرين.

وسمعت من الخلف صوتاً يصرخ بي في الدرج:

— «أعلى هذا النحو تنتظرني ياسيد!»

وكان السيد «دو شارلوس».

وقال لي بهجاء حينما أضحينا في الباحة: «ألا يضيرك أن نقوم ببضع خطوات سيراً على الأقدام؟ سنمشي إلى أن أجد عربة توافقني».

- «كنت تريد أن تتحدث إليّ ياسيدي؟»

- «أجل، بالتأكيد، كان لديّ بعض أمور أقولها لك، ولكنني لا أدري تماماً إن كنت سأفعل. إنني اعتقد بالطبع أنها قد تكون بالنسبة إليك نقطة انطلاق إلى مكاسب لا تقدر بثمن. ولكنني أشتشف كذلك أنها قد تجلب في حياتي وفي سني التي يشرع المرء يتمسك فيها براحه البال الكثير من ضياع الوقت والكثير من الازعاج من كل صنف ونوع. وإنني أتساءل إن كنت تساوي ما أتكلف في سبيلك من عناء ولم يسعدني أن أعرفك معرفة كافية لأقرر في الأمر. لقد ألقيتك على كثير من الضحالة في «باليك» حتى إذا أخذنا في اعتبارنا الغباء الذي لا ينفصل عن شخصية «المستحم» واتعال هذا الشيء المسمى «الخفّ القماشي». وربما لم يكن بك على أية حال ما يكفي من كبير رغبة في ما يمكن أن أفعله من أجلك حتى أولي نفسي هذا القدر من الازعاج لأنني أكرر لك بأقصى الصراحة ياسيد، يعيد قوله وهو يقطع كلماته بشدة، «لا يمكن أن يكون الأمر بالنسبة إليّ إلا سلسلة إزعاجات».

وقلت محتجاً إنه ينبغي حينذاك الامتناع عن التفكير في الأمر. ولم يد أن قطع المحادثات هذا يوافق ذوقه. فقال لي بلهجة قاسية:

«هذا التأدب لا يعني شيئاً، فليس أمتع من تكبد الإزعاج في سبيل شخص جدير بذلك. فدراسة الفنون وحسب سقط المتاع والمجموعات والحدائق إن هي إلا أمور بديلة وحجج بالنسبة إلى أفضلنا. إننا في داخل برميلنا نبحت عن رجل، شأن «ديوجين». ونزرع أزهار «البيغونيا» ونقلم شجر السدر لافتقارنا إلى الأفضل ولأن شجر السدر وأزهار البيغونيا تنقاد لمشيئتنا. ولكننا نفضل أن نكرس وقتنا لشجيرة بشرية لو تيقنا أنها جديرة بذلك. والمسألة كلها تكمن هنا، ولا بد أنك تعرف نفسك إلى حدّ ما. فهل أنت جدير بذلك أم لا؟»

فقلت له: «لا أودّ، ياسيدي، مقابل أي شيء في العالم أن أكون سبب هم لك، فأما من جهة سروري فصّدق أن كل ما يأتييني منك سوف يوليني سروراً عظيماً. إنني بالغ التأثير أن تتكرم هكذا وتصرف إليّ اهتمامك وتسعى إلى منفعتي».

فكان أن شكرني على تلك الأقوال بما يقرب أن يكون فيض حنان مما أورثني أعظم الدهشة. وتأبط ذراعي بتلك الألفة المتقطعة التي سبق أن أثارت دهشتي في «باليك» والتي كانت تتناقض قسوة نبرة صوته.

وقال: «قد تنفّره أحياناً، في طيش سنك، بأقوال من شأنها أن تخفر هوة عميقة جدّاً بيننا. فأما ما تنفّرت به منذ قليل فهو على العكس من النوع الذي من شأنه أن يؤثر في ويدفعني إلى أن أفعل الكثير، وربما أكثر من الكثير في سبيلك».

وفيما كان السيد «دو شارلوس» يسير معي يتأبط كلَّ منَّا ذراع الآخر، وإذا كان يسمعي تلك العبارات التي تفيض مودّة، على ما يخالطها من تعال، كان يثبت حيناً نظراته على وجهي بذلك الشخص القوي، بتلك القسوة الثاقبة، وقد سبق أن أدهشاني أوّل صباح رأيته فيه أمام مقصف «بالبيك» وحتى قبل سنوات خلعت قرب شجرة الزعرور الوردية إلى جانب السيدة «سوان» التي كنت أحسبها عشيقته آنذاك في حديقة «تانسونفيل»، وينقلها أحياناً من حوله ويتفحص العربات التي كانت تمرّ عديدة في ساعة التبدّل تلك، وبالبحاح توقفت معه عدّة عربات وقد ظنّ الحوذي أنّنا ننوي اكتراه. ولكن السيد «دو شارلوس» كان يصرفهم جميعهم.

وقال لي: «ليس منهم من يلائمني، وكل ذلك مسألة مصاييح والحيّ الذي يعودون إليه». ثم قال: «وددت ألاّ يمكنك أن تخطي حول سمة التجردّ المحض وحبّ الخير التي تطبع الاقتراح الذي سأقدّمه لك».

وقد دهشت للعديد من الجوانب التي كان إلقاءه فيها يشبه، أكثر من حاله في «بالبيك»، إلقاء «سوان».

— «إنني افترض أنّك على قد كاف من الذكاء كي لا تعتقد أنّه مستوحى من «غياب المعارف»، من خشية العزلة والضجر. ليس لي أن أحدثك عن أسرتي لأنني أحسب أن صبيّاً في سنك ينتمي إلى البرجوازية الصغيرة (والح على الكلمة إلحاح الراضى) لا بدّ أن يعرف تاريخ فرنسه. وإنما جماعة الطبقة التي انتمى إليها الذين لا يقرؤون شيئاً وهم في جهل الأجراء. كان خدّام الملك الخاصون فيما مضى يعيشون في صفوف السادة الكبار، أما الآن فلم يعد السادة الكبار أكثر من خدّام. ولكننا الشبان البرجوازيون مثلك يقرؤون وإنك تعرف بالتأكيد صفحة «مشيلية» القيمة حول ذوي: «إنني أجدهم عظاماً جدّاً آل «غيرمانت» الأشراف هؤلاء، وما عساه يكون، إمّا قوبل بهم، ملك فرنسه الصغير المسكين السجين في قصرة في باريس؟» أمّا فيما يخصّني شخصياً، فذلك موضوع لا أحب كثيراً التحدّث فيه ياسيد، ولكنك ربما اطلعت على الأمر فقد ألمح إليه مقال مدوّ إلى حدّ ما في «التايمز» وذلك أن امبراطور النمسا الذي شرفني دوماً بعطفه ولايسوءه أن يحافظ على صلوات قربي معي قد صرّح بالأمس القريب في حديث تم نشره على الملأ أنّه لو اتفق للسيد الكونت «دو شامبور» رجل بالقرب منه يعرف حقّ المعرفة مثلي خفايا السياسة الأوروبية لكان اليوم ملك فرنسه. كثيراً ما فكّرت ياسيد أنّ في أثوابي، لا من جراء مواهبي، بل من جراء ظروف ربما عرفتها في يوم، كنزاً من التجارب ونوعاً من الملف السريّ الذي لا يقدر بثمن والذي لم يخطر لي أن استخدمه لنفسى، ولكنّه ربّما كان فوق كل ثمن بالنسبة إلى شاب أدفع إليه في بضعة شهور ما صرفت أكثر من ثلاثين عاماً في اكتسابه وما ربما كنت وحدي أملكه. لست أتحدّث عن المتع الفكرية التي قد تصيبها في الاطلاع على أسرار قد يبدل واحد من أمثال «غيزو» في أيامنا سنوات من حياته ليعرفها وربما اتخذت بعض الأحداث في نظره بفضلها مظهرًا مغايرًا تمامًا. ولست أتحدّث عن الأحداث المنقضية فحسب، بل عن ترابط ظروف (كانت هذه إحدى عبارات السيد «دو شارلوس» المفضلة وكثيراً ما كان يضمّ يديه، حينما ينطق بها، مثلما نفعل إذ نصلي، ولكن مشدود الأصابع وكأنما ليسهل بهذا التشابك ادراك تلك الظروف التي لم يكن يحدها وترباطها). فلعلني أزوّدك بتفسير غير معروف لا للماضي فحسب، بل للمستقبل أيضاً».

وتوقف السيد «دو شارلوس» لي طرح عليّ أسئلة حول «بلوك» الذي تم الحديث عنه في منزل السيدة «دو فيلباريزيس» دون أن يبدو عليه أنه يسمع. وسألني بتلك اللهجة التي كان يجيد فصلها عما يقول حتى ليبدو وكأنه يفكر في أمر مختلف تماماً وأنه يتكلم آلياً ولحظ التهذيب، إن كان صاحبي شاباً، وإن كان جميلاً، النخ. ولو سمعه «بلوك» لعسر عليه حتى أكثر مما يعسر بالنسبة إلى السيد «دو نوربوا»، ولكن من جراء أسباب مختلفة أتم الاختلاف. أن يعلم إن كان السيد «دو شارلوس» إلى جانب «دريفوس» أو ضده. ثم قال لي السيد «دو شارلوس» بعدما طرح عليّ هذه الأسئلة حول «بلوك»: لست على خطأ، إن ابتغيت أن تتشف، أن تتخذ في عداد أصدقائك بعض الأجانب. فأجبت أن «بلوك» فرنسي. فقال السيد «دو شارلوس»: «آه! لقد تبادر إليّ أنه يهودي». وقد حملني اعلان هذا التعارض على الاعتقاد بأن السيد «دو شارلوس» أكثر عداء لـ «دريفوس» من أي من الأشخاص الذين سبق أن التقيتهم. واحتج، بعكس ذلك، على تهمة الخيانة الموجهة إلى «دريفوس»، ولكننا فعل بالصيغة التالية: «في اعتقادي أن الصحف تقول إن «دريفوس» ارتكب جريمة بحقّ وطنه، في اعتقادي أن ذلك يقال، فلست أعير الصحف أي انتباه؛ إني أقرّها مثلما أغسل يديّ دون أن أرى أن ذلك جدير باثارة اهتمامي. والجريمة أية كانت الأحوال لا وجود لها، فقد كان مواطن صديقك هذا ارتكب جريمة بحقّ وطنه لو أنه خان منطقة «يهودا»، ولكن ما شأنه وفرنسه؟» وقلت معترضاً إن اليهود، لو قامت حرب في يوم، سوف تتم تعبتهم كما لآخرين تماماً. «ربما، وليس أكيداً ألا ينطوي ذلك على مخاطر. ولكن إن تم استدعاء سنغاليين أو ملاغاشيين فلا أحسب أنهم سيبدون حماسة كبيرة في الدفاع عن فرنسه، والأمر طبيعي تماماً. إن رجلك «دريفوس» هذا يمكن أن يحكم عليه بالأحرى لخروجه على قواعد الضيافة. ولكن لندع ذلك جانباً. ربما أمكنك أن تسأل صديقك دعوتي لحضور احتفال جميل في المعبد، لحضور ختان وترانيم يهودية. ربما استطاع أن يستأجر قاعة وأن يقدم لي حفلة ترفيهية من وحي الكتاب المقدس، مثلما مثلت فتيات «سان سير» مشاهد اقتبسها «راسين» من المزامير للترفيه عن لويس الرابع عشر. ربما استطعت أن تدبر ذلك، وحتى حفلات للاضحك. فصراع، على سبيل المثال، بين صديقك ووالده يجرحه فيه مثلما «داود» «جوليات»، فربما ألف ذلك مهزلة مسلية بعض الشيء. بل قد يمكنه، وهذه حاله، أن يكيل لوالدته «النتنة»، كما لعلّ خادمتي العجوز تقول، ضربات مبرحة. هذا ما يمكن أن يتم على أحسن وجه ولن يكون من شأنه أن يكدرنا، أليس كذلك يا صديقي الصغير، بما أننا نعيش المشاهد الغريبة وأنّ ضرب هذه المخلوقة التي من خارج أوروبا إنما يعني إنزال قصاص مستحقّ ببغل عجوز» كان السيد «دو شارلوس»، ساعة يقول هذه الكلمات القطعية التي تقارب الجنون، يضغط على ذراعي حتى ليؤلمني. وأخذت أذكر عائلة السيد «دو شارلوس» وهي تذكر الكثير من ملامح الطيبة الرائعة يديها البارون إزاء هذه الخادمة العجوز التي أعاد إلى الأذهان منذ قليل لهجتها المحلية التي من لون «موليير»، وأقول في نفسي إن العلاقات التي لم تحظ إلا بالقليل من الدراسة، فيما يبدو، بين الطيبة والخبث في القلب الواحد، لقد يبدو من المفيد تحديدها مهما أمكن أن تكون مختلفة.

ونبهته إلى أن السيدة «بلوك» لم تعد، على أية حال، على قيد الحياة وأنني أتساءل فيما يخص السيد «بلوك» إلى أي مدى ستروقه لعبة يمكن بالتأكيد أن تفقأ عينيه. وبدا الغضب على السيد «دو شارلوس» وقال: «إليك امرأة أخطأت خطأ عظيماً في موتها. فأما العيون المفقوعة، فالكنيس بالضبط أعمى، إنه لا يبصر حقائق

الانجيل. فكر على أي حال، في هذه الفترة التي يرتجف فيها جميع هؤلاء اليهود التوسع أمام حقن المسيحيين الغني، أي شرف لهم أن يصيروا رجلاً مثلي يتنازل للتلهي بألعابهم! ولحت في تلك اللحظة السيد «بلوك» الأب لدى مروره، وهو لا بدّ ذاهب لملاقة ابنه. لم يكن يصيرنا ولكنني عرضت على السيد «دو شارلوس» أن أقدمه له. ولم أكن أرتاب بالغضب الذي أزعج أن أبعثه في صدر صاحبي: «تقدمه لي! لا بدّ أنك على قدر هين من حسن القيم! فليس يعرفني الناس بهذه السهولة. وربما كان الأخلال باللياقة في الحالة الراهنة مزدوجاً بسبب حداثة سنّ المقدم ولا جدارة المقدم. وأكثر ما أستطيعه، إن قدّموا لي ذات يوم المشهد الأسبوري الذي ألحت إليه، أن أوجه إلى هذا العجوز القبيح بعض أقوال تنسم باللطف. ولكن شرط أن يكون قبل أن يضرب ضرباً وأفرأ على يد ابنه. وربما بلغ بي الأمر أن أعبر عن ارتياحي».

ولم يكن السيد «بلوك» يعيرنا، على أي حال، أي انتباه، فقد كان يوجه للسيدة «سازرا» تحيات واسعة تحظى منها بأحسن استقبال. وقد أذهلني الأمر، إذ سبق أن ثارت ثائرتها بالأمس في كومبريه» أن استقبل والدائي «بلوك» الشاب لشدة عدايتها للسامية. ولكن مسألة «دريغوس» حملت إليها منذ بضعة أيام، شأن تبار هوائي، السيد «بلوك» لقد ألقى والد صديقي السيدة «سازرا» رائعة وقد رافقه على وجه الخصوص عداء تلك السيدة للسامية الذي كان يرى فيه برهاناً على صدق إيمانها وصدق آرائها المناصرة لـ «دريغوس» والذي كان يضيف قيمة على الزيارة التي أذنت أن يقوم بها لها. وهو حتى لم تجرح مشاعره لأنها صرحت في حضرته بلهجة طائشة: «ينزع السيد «درومون» إلى وضع المطالبين بالتعديل في زاوية البروتستانت واليهود. ما أبدعه اختلاط!» فكان أن قال مزهواً للسيد «نسيم بيرنار» لدى عودته: «تدري يا «بيرنار»، إنها من الموالين! ولكن السيد «نسيم بيرنار» لم ينس بيت شقة ورفع إلى السماء نظرة ملائكية. لقد اتخذ الآن، وهو يغتم لشقاء اليهود ويتذكر صداقاته المسيحية ويضحى متصنعاً متأنقاً كلما تقدّمت به السنّ ولأسباب سوف نراها فيما بعد، هيئة طيف من حركة «ما قبل رفايل» الفنية نبئت له أوبار على نحو قدر كأنها شعور مغموسة في حجر من الأوبال.

وعاد البارون يقول، ولا يزال يمسك بذراعي: «قضية «دريغوس» برمتها لا تشكو إلا محذوراً واحداً، وهو أنها تهدم المجتمع (ولا أقصد المجتمع الصالح، فالمجتمع لم يعد منذ زمن طويل أهلاً لصفة الشاء هذه) من جرّاء تدفق سادة وسيدات من الجمال والجمالة وحظائر الجمال، وأناس مجهولين بالتالي أجدهم حتى في منازل بنات عمي لأنهم ينتمون إلى رابطة الوطن الفرنسي المعادية لليهود وما لست أدري كما لو أن رأياً سياسياً يخولك حقّ اكتساب صفة اجتماعية».

كان عبث السيد «دو شارلوس» هذا يقربه أكثر ما يقرب من الدوقة «دو غيرمانت» وأشرت إلى هذه المقاربة. وإذ كان يبدو وكأنه يحسب أنني لا أعرفها ذكرته بأسمية الأوبرا التي بدا أنه كان يودّ فيها التخصي خجلاً بي. فقال لي إنه لم يرني على الإطلاق وبقدر من الحزم لعلمي بلغت معه في النهاية حدّ تصديقه لو لم تخملني حادثة صغيرة بعد قليل على الاعتقاد بأن السيد «دو شارلوس» لم يكن ربما راغباً لفرط كبريائه، أن يشاهد بصحبتني.

وقال لي: «هيا نعد إليك وإلى خططي فيما يخصك. تقوم بين بعض الرجال، ياسيد، ماسونية لا يمكنني

أن أحدثك عنها ولكنها تضمّ في صفوفها الآن أربعة من ملوك أوروبا.. ولكن حاشية واحد منهم، وهو امبراطور ألمانيا، تبغي أن تشفيه من ضلّالته. وذلك أمر خطير جداً ويمكن أن يجيئنا بالحرب. أجل، بالتأكيد ياسيد. تعرف حكاية ذاك الرجل الذي كان يظنّ أنه يحتجز أميرة الصين في زجاجة. كان ذلك جنوناً، وقد تمّ شفاؤه منه. ولكن ما أن لم يعد مجنوناً من بعد حتى أضحي غيباً. ثمة أدواء ينبغي ألا نحاول الشفاء منها لأنها تقينا وحدها من أخرى أشدّ خطورة منها. كان أحد أبناء عمومي يشكو مرضاً في معدته فلم يكن يقوى على هضم شيء. وعالجه أكثر أخصائيي المعدة علماً دون جدوى. فأخذته إلى أحد الأطباء (شخص آخر شديد الغرابة بدوره، أقولها بين هلالين، لعله من الممكن أن نقول الكثير عنه). فحزر هذا الأخير في الحال أنّ الداء كان عصبياً وأقنع مريضه وأمره أن يأكل دونما خوف ما يشتهي وما كان دوماً ممكن الاحتمال. ولكن ابن عمي كان يشكو كذلك من التهاب الكلية، وما هضمته المعدة على أحسن وجه لم تستطع الكلية في النهاية طرحه، وعوض أن يعيش ابن عمي شيخاً بمرض في المعدة وهمي كان يزعمه على اتباع حمية معينة مات في الأربعين وقد تعافى في معدته وخسر كليته. ومن يدري، وقد أحرزت تقدماً عظيماً على حياتك نفسها، ربما أصبحت ما كان يمكن أن يكونه رجل لامع في الماضي لو كشفت له روح خيرة قوانين البخار والكهرباء وسط بشرية كانت تجهلها. لا تكن غيباً ولا ترفض بداعي الاتضاع. وافهم أنني إن كنت أؤدّي لك خدمة كبرى فليست أرى أن تؤدّي لي خدمة أقلّ. منذ فترة طويلة لم يعد رجال المجتمع يثيرون اهتمامي وليس بي من بعد سوى ولع واحد قوامه محاولة التكفير عن أخطاء حياتي بتمكين نفس لانتزال علداء وقادرة على التحمس للفضيلة من الإفادة مما أعلم. لقد أصابتنني غموم عظيمة، أيها السيد، وربما رويت لك عنها في يوم، لقد فقدت زوجتي التي كانت المرأة الأكثر جمالاً والأوفر نبلاً والأكثر كمالاً بما يمكن أن يراود الأحلام. ولديّ شُبّان من ذوي قرباي ليسوا، لن أقول جديرين، بل قادرين على تسلم الإرث الأدبي الذي أحدثك عنه. ومن يدري إن لم تكن ذاك الذي يمكن أن يمرّ بين يديه، ذاك الذي يمكن أن أوجه حياته وأسمو بها عالياً جداً؟ أضف أنّ حياتي قد تفيد من ذلك. فربما عدت فيما اطّلعك على المسائل الدبلوماسية الكبرى فأحسست معها بميل إلى ذاتي وشرعت أخيراً أقوم بأمور مفيدة تقاسمني إياها. على أنه لا بدّ لي قبل أن أعرف ذلك من أن أراك كثيراً، كثيراً جداً، كل يوم.

كنت أودّ الإفادة من هذه الاستعدادات اللاهية اللامؤملة التي يديها السيد «دو شارلوس» لأسأله إن كان لا يستطيع أن يوفرّ لي لقاء زوجة أخيه، ولكنما وقع لي أن دفعت ذراعي في تلك اللحظة دفعاً شديداً وكأنما من جَاء صدمة كهربائية. وكان السيد «دو شارلوس» الذي أقدم، لسبب جاء يعاكس القوانين «الكونية» التي كان لا يزال قبل ثانية «نبيها الملهم» على سحب ذراعه من تحت ذراعي على عجل. لقد شاهد منذ قليل فقط السيد «دار جنكور» يطلع من شارع عرضاني مع أنّه كان ينقل عينيه، وهو يكلمني، في كل اتجاه. وبدا وزير بلجيكا متكدراً إذ رأنا ورماني بنظرة ارتياب، بما يقارب تلك النظرة الموجهة إلى شخص من عرق آخر تلك التي نظرت بها السيدة «دو غيرمانت» إلى «بلوك»، وحاول أن يتجنبنا. ولكنما خيل إليّ أنّ السيد «دو شارلوس» كان حريصاً أن ييدي له أنّه لا يحاول على الإطلاق أن لا يصبره هو، فتعد نادى عليه وكبما يقول له أمراً تافهاً جداً. وربما خشي السيد «دو شارلوس» أن لم يعرفني السيد «دار جنكور» فقال له إنّي صديق كبير للسيدة «دو فيلباريزيس» والدوقة «دو غيرمانت» و«روبير دو سان لو»، وأنّه هو، «شارلوس»،

صديق قديم لجدتي وأنه سعيد أن ينقل إلى الحفيد قليلاً من المودة التي يكنّها لها. ولكنني لاحظت أن السيد «دارجنكور»، مع أن أسمي لم يكذب يذكر له في منزل السيدة «دو فيلباريزيس» وأن السيد «دو شارلوس» حذنة منذ قليل حديثاً مطولاً عن أسرتي، بدأ أكثر جفاءً حيالي ممّا كان منذ ساعة خلت، وقد سارت الأمور منذ ذلك فترة طويلة على هذا المنوال كلّ مرة كان يلقاني فيها. وقد راقبني في ذلك المساء بفضول لا ينطوي على شيء من المودة، بل بدأ مضطراً لقهر مقاومة شديدة حينما مدّ إليّ بعد تردّد وهو يفارقنا يداً استردها في الحال.

وقال لي السيد «دو شارلوس»: إنني آسف لهذا الحادث الطارئ. فالسيد «دارجنكور»، وهو كريم المتمدن ولكنه سيء التهذيب، وديبلوماسي أكثر من ضحل، وزوج مقيت وزير نساء، وماكر كما المكر في مسرحية، هو واحد من هؤلاء الرجال العاجزين عن الفهم، ولكنهم قادرون على تهديم الأشياء العظيمة حقاً. وإنني أمل أن تكون صداقتنا كذلك إن ابغى أن تنشأ في يوم وأنك ستوليني شرف الحفاظ عليها، بقدر ما أفعل، في مأمن من لبطات أحد هؤلاء الحمير الذين يستحقون جرّاء البطالة أو الرعونة أو الخبث ما كان يبدو أنه يجعل ليدهم، وإنما غالبية جماعة المجتمعات قد جيلوا لسوء الحظّ في هذا القالب.

— «إن الدوقة «دو غيرمانت» تبدو شديدة الذكاء. وكنت منذ قليل نتحدث عن حرب محتملة، ويبدو أنها تملك بهذا الشأن معلومات خاصة.»

فأجابني السيد «دو شارلوس» بجفاء قائلاً: «إنها لا تملك من ذلك شيئاً البتة. فالنساء، وكثير من الرجال على أيّ حال، لا يفقهون شيئاً في الأمور التي كنت أبغي التحدّث فيها. إن زوجة أخي امرأة ممتعة تتخيل أنها لا تزال في زمن روايات «بلزك» يوم كانت النساء يؤثرون في السياسة. وقد لا تجرّ عليك مخالطتها في الوقت الراهن سوى أثر مشؤوم، شأن كل مخالطة اجتماعية على أية حال. ذلك بالضبط واحد من الأشياء الأولى التي كنت أزمع أن أقولها لك حينما قاطعتني هذا الأحمق. إن أوّل تضحية ينبغي لك أن تقدّمها لي — وسأطالك بقدر ما أمنحك من هبات — ألا تتردّد على المجتمعات. لقد تأملت منذ قليل بشأنك أن رأيتك في هذا الاجتماع السخيف. سوف تقول إنني كنت حاضراً فيه، ولكنه ليس بالنسبة إليّ اجتماعاً دنيوياً بل هو زيارة عائلية. أما فيما بعد، وحينما تصبح رجلاً ناجحاً، فإن سرّك أن تتحدّر فترة إلى دنيا المجتمع فريما لم ينطو ذلك على ضرر. ولا حاجة بي أن أقول لك أية فائدة يمكن أن أوفّرها لك حينذاك. فـ«سمسم» فندق «غيرمانت» وجميع تلك التي هي أهل لأن تنفتح أبوابها أمامك على مصراعها إنمّا أقبض عليه أنا. سأكون حكماً ومرادي أن أظل سيد الساعة. إنك «موعوظ»^(١) في الوقت الراهن، وقد كان لحضورك هنالك شيء من طابع الفضيحة، ولا بدّ قبل كلّ شيء من تجنّب العمل الفاضح.»

وفيما كان السيد «دو شارلوس» يتحدّث عن تلك الزيارة إلى منزل السيدة «دو فيلباريزيس» أردت أن أسأله عن قرابته الصحيحة مع المركيزة وعن مولد هذه الأخيرة، ولكن السؤال جاء على شفّتي على نحو يختلف

(١) صفة من يجري إعداده لدخول الدين المسيحي لدى قدماء المسيحيين، ويعني أنه لا يزال في مرحلة التدريب على الصعيد الاجتماعي.

عما كنت أريد وسألت ماعسى أن تكون أسرة «فيلباريزيس».

وأجابني السيد «دو شارلوس» بصوت يخيل إليك أنه ينزل على الألفاظ: «يا إلهي، ليس الجواب سهلاً؛ لكننا تسألني أن أفيدك ما عسى يكون اللا شيء. لقد خطر لعمتي التي تستطيع أن تسمح لنفسها بكل شيء أن تزج في العدم أعظم اسم في فرنسه بزواجها الثاني من مجهول صغير يدعى السيد «تيريون». وقد ظن تيريون هذا أنه يستطيع، دون أية محاذير، اتخاذ اسم أرستقراطي لم يظل من يطالب به، على نحو ما يفعلون في الروايات. ولا تذكر الحكاية إن كان أغراه «برج أوفيريني» وإن كان حار بين «تولوز» و«مونمورانسي». لقد أقدم على اختيار آخر بأية حال وأصبح السيد «دو فيلباريزيس». ولما لم يبق من كان بهذا الاسم منذ ١٧٠٢ فقد ظننته يعني بذلك أن يشير بكل تواضع إلى أنه رجل من «فيلباريزيس»، وهي قرية صغيرة على مقربة من باريس وأنه يملك مكتب وكيل دعاو أو دكان حلاق في «فيلباريزيس». ولكن عمتي لم تكن تعير هذا التفسير أدنا صاغية - وقد بلغت على أي حال السن التي لا يظل فيها للمرء أذن يعبرها، فقد زعمت أن لقب المركيز هذا كان في الأسرة وكتبت إلينا جميعاً وأرادت أن تضفي على الأمور صبغة نظامية ولست أعلم لماذا. فخير للمرء، بما أنه يتخذ اسماً لا يحق له، ألا يثير هذه الكم من المتاعب، شأن صديقنا الطيبة الكونتيسة المزعومة «دوم/...» التي رفضت على الرغم من نصائح السيدة «ألفونس روتشيلد» أن تزيد من هباتها في سبيل لقب لن يصبح بذلك أكثر صحة. والمضحك أن عمتي قد قامت منذ ذلك الحين باحتكار جميع الرسوم المتعلقة بآل «فيلباريزيس» الحقيقيين الذين لم يكن للمرحوم «تيريون» أية صلة قربي بهم. وأضحى قصر عمتي ما يشبه مكان احتكار لرسومهم الحقيقية أو الزائفة التي اضطرت بعض رسوم آل «غيرمانت» وآل «كونديه»، مع أنهم ليسوا من ذوي الشأن اليسير، إلى الاختفاء أمام تدفق موجها المتعاطف. ويصنع لها تجار اللوحات منها في كل عام. بل هي تملك في قاعة الطعام لديها في الريف رسماً لـ «سان سيمون» بسبب زواج ابنة شقيقه الأول من السيدة «دو فيلباريزيس» ومع أن مؤلف «المذكرات» ربما ملك مؤهلات أخرى تثير اهتمام الزائرين غير أنه لم يكن جدّ السيد «تيريون».

وإذ لم تكن «السيدة «دو فيلباريزيس» سوى السيدة «تيريون» فقد أتمت السقطة التي كانت قد باشرتها في خاطري بعدما رأيت الخليط الذي يؤلف صالتها. كنت أرى من الظلم أن يتيسر لامرأة يكاد يكون حتى لقبها واسمها حديثين جداً أن توهم المعاصرين وهي لا بد ستوهم اللاحقين بفضل صداقات ملكية. ولما عادت فأضحت ما سبق أن بدت لي عليه في طفولتي، يعني امرأة مجردة من أية صفة أرستقراطية، فقد بدا لي أن ذوي القربى العظام الذين يحيطون بها غرباء عنها. ولم تكف فيما بعد عن كونها شديدة اللطف بالنسبة إلينا. وكنت أذهب أحياناً لزيارتها وتبعث إليّ بين الحين والحين بذكّار. بيد أنه لم يكن يخطر لي البتة أنها من حي «سان جيرمان» وإن اتفق لي أي استفسار أطلبه حوله فربما كانت آخر من أتوجه إليه بالسؤال.

وتابع السيد «دو شارلوس» قائلاً: «لن تفعل بارتياك المجتمعات في الوقت الراهن أكثر من إلحاق الأذى بمكانتك وتشويه عقلك وطباعك. ويجدر بك على كل حال أن تراقب حتى، بل على وجه الخصوص، أصحابك، ولتكن لك عشيقات إن لم تر أسرتك محظوراً في ذلك، والأمر لا يخصني، بل لا يسعني إلا أن أشجعك أيها الماجن الصغير، أيها الماجن الصغير الذي سيكون عمّاً قليل بحاجة إلى حلاقة ذقنه»، يقول لي

وهو يتلمّس ذقني. «ولكنّ انتقاء الأصدقاء الرجال يرتدي أهمية مختلفة. ذلك أنّ ثمانية من عشرة شبّان هم أوغاد حقيقيون وأشقياء صغار قادرون أن يلحقوا بك أذى لن تمحوه في يوم. ولكن إليك ابن أخي «سان لو» فهو رفيق طيب لك لدى الضرورة. هو لن يفيدك في شيء فيما يخصّ مستقبلك، ولكنّي أكفّيك بالنسبة إلى ذلك. فأما للخروج برفقتك في الأوقات التي تملّني فيها فإنّه يبدو لي باختصار القول أنّه لا يشكلّ محذورا جدّيا فيما أعتقد. هو رجل على الأقلّ، وليس من هؤلاء الخنثين مثلما نلقى الكثير منهم اليوم من هم أشبه «بالزغليين» الصغار الذين ربّما ساقوا في غد إلى المفصلة ضحاياهم البريئة». (لم أكن أعرف معنى هذه اللفظة العامية: «الزغلي»). ولعلّ كلّ من عرفها كان سيصاب بالدهشة نفسها، فالناس في المجتمعات الراقية يطيب لهم التحدّث بالعامية وأن يدي أولئك الذين يمكن أن تؤخذ عليهم بعض الأمور أنّهم لا يخشون التحدّث فيها، فذلك في نظرهم برهان يقام على براءتهم ولكنهم فقدوا مقياس الأمور ولا يتبيّنون من بعد الدرجة التي يضحي مزاح من بعدها مغرقا في الخصوصية وفاضحا إلى حدّ بعيد ويصبح برهانا على فساد الأخلاق أكثر منه على السذاجة). «ليس على شاكلة الآخرين. إنه لطيف جدّا ورصين جدّا».

ولم أتمالك عن الابتسام إزاء صفة «رصين» هذه التي بدا أنّ النبوة التي يغلفها بها السيد «دو شارلوس» كانت تضفي عليها معنى «الفاضل» و«الحسن السلوك»، مثلما يقولون عن عاملة صغيرة إنها «رصينة». ومرّت في تلك اللحظة عربة كانت تسير باللورب تماما؛ وكان حوذي شاب يقودها، وقد هجر مقعده، من الركن القصي في المركبة حيث كان يجلس فوق المساند نصف سكران. وأوقفه السيد «دو شارلوس» بسرعة. وناقش الحوذي حيناً.

- «إلى أيّ جهة تمضي؟»

- «حيث تمضي» (كان الأمر موضع دهشة إذ سبق أن رفض السيد «دو شارلوس» عدّة عربات لها مصابيح من ذات اللون).

- «ولكنني لا أريد الصعود إلى المقعد. أفستوي لديك أن أبقى في المركبة؟»

- «أجل، ولكن أسدل الغطاء». وقال لي السيد «دو شارلوس» قبل أن يفارقني: «فكر على أيّة حال في اقتراحي، إنّي امنحك بضعة أيام لتعمل الفكر فيها، واكتب لي. إنّي أعيد الأمر عليك، ينبغي أن أراك كلّ يوم وأن تقدّم لي ضمانات في الإخلاص والتكتم يبدو لي على أيّة حال، ويجدر بي القول، أنّك تقدّمها. ولكنني كثيراً ما خدعتني المظاهر خلال حياتي إلى حدّ أنّي لا أستطيع الوثوق بها من بعد. ويحك! إنّه لأقلّ الأمور أن أعلم، قبلما أتخلّى عن كنز، بين أيّة أيد أضعه ومهما يكن من أمر، تذكر تماماً ما عرضّه عليك، فأنت، شأن «هرقل» الذي لا يبدو لي، لسوء حظك، أنّك تتمتّع بعضلاته القوية، على مفتقرين. فاجهد ألا يقع عليك أن تأسف طوال حياتك أنّك لم تخر الطريق التي كانت تقود إلى الفضيلة». ثم قال للحوذي: «عجبا، أولم تنزل الغطاء بعد؟ سوف أطوي النوايض بنفسي. واعتقد على أي حال أنّه ينبغي لي كذلك أن أقود العربة بالنظر إلى الحالة التي تبدو فيها».

وقفز إلى جانب الحوذي في الركن القصي من العربة التي انطلقت مسرعة.

وما أن عدت إلى البيت حتى وجدت فيه، فيما يخصني، نظير الحديث الذي سبق أن تبادلته قبل قليل «بلوك» والسيد «دورويو»، ولكن بشكل مقتضب ومعكوس وقاس: كان جدلاً بين رئيس خدمنا، وكان من أنصار «دريغوس»، ورئيس خدم آل «غيرمانت»، وكان معادياً لـ «دريغوس». كانت الحقائق والحقائق المضادة التي تتعارض في الحلقات العليا لدى المثقفين في «رابطة الوطن الفرنسي» و«رابطة حقوق الإنسان» تمتد بالفعل حتى أعماق الشعب. كان السيد «ريناك» يحرك بالعاطفة أناساً لم يسبق أن رأوه في يوم فيما كانت قضية «دريغوس» تطرح أمام عقله فحسب بمثابة نظرية لا تدحض وقد برهن عليها بالفعل بأغرب نجاح في السياسة العقلانية شوهد في يوم (نجاح) قال بعضهم إنه ضدّ فرنسه. فقد أحلّ في غضون سنتين محلّ وزارة يرئسها «بيو» وزارة يرئسها «كليمانسو» وقلب الرأي العام رأساً على عقب وأخرج «بيكار» من سجنه ليضعه، ناكراً للجميل، في وزارة الدفاع. ربّما كان يحرك محرّك الجماهير العقلاني هذا من سلف من ذوي قرباه. ولكن كانت المنظومات الفلسفية التي تتضمن أكبر قدر من الحقيقة إنّما يملئها على واضعها في نهاية المطاف سبب عاطفي، فكيف نفترض ألاّ تستطيع أسباب من هذا القبيل في محض قضية سياسية كقضية «دريغوس» أن تحكم عقل المفكر دون علمه؟ كان «بلوك» يحسب أنه اختار بالمنطق موقفه المناصر لـ «دريغوس»، وكان يعلم من ذلك أن أفه وجلده وشعره قد فرضها عليه جنسه. ليس من شك أن العقل أوفر حرية؟ ولكنه يخضع على الرغم من ذلك لبعض قوانين لم يضعها لذاته. أما حالة رئيس خدم آل «غيرمانت» ورئيس خدمنا فحالة خاصة، ذلك أن موج التيارين الممثلين في مناصرة «دريغوس» ومناهضته اللذين كانا يشقان فرنسه من الأعلى إلى الأسفل كان خافتاً إلى حدّ ما، ولكننا الأصداء النادرة التي يصدرها صادقة. فقد كان يمكنك، إذ تسمع أحدهم يعلن على نحو خفي، وسط حديث يتجنب القضية متعمداً، خبراً سياسياً كاذباً بعامّة ولكنه متوثّي على الدوام، كان يمكنك أن تستخلص من موضوع تنبؤاته اتجاهه رغباته: وهكذا كانت تتجابه حول بضع نقاط دعاية خجولة من جانب وغضب مقدس من جانب آخر. أما رئيسا الخدم اللذان سمعتهما لدى عودتي فقد شدّا عن القاعدة. فقد أعلن رئيس خدمنا أن «دريغوس» كان مذنباً، ورئيس خدم آل «غيرمانت» أنه كان بريئاً. وما كان ذلك بغية إخفاء قناعاتهما، بل عن خبث وضراوة في اللعب. كان رئيس خدمنا، وهو غير متيقن إن كانت إعادة النظر ستم، كان يبغى سلفاً في حال الفشل أن يسلب رئيس خدم آل «غيرمانت» غبطة الاعتقاد بأن قضية عادلة قد هزمت. كان رئيس خدم آل «غيرمانت» يظنّ أنّ رئيس خدمنا، في حال رفض إعادة النظر، سوف يصيبه ازعاج أكبر لرؤيته بريئاً يوالى احتجاجه في «جزيرة الشيطان». وكان الحاجب ينظر إليهما، ووافاني شعور بأنه لم يكن يزرع الشقاق في صفوف خدم آل «غيرمانت».

وصعدت فوجدت جدتي أشدّ مرضاً. لقد كانت تشتكي منذ بعض الوقت من صحتها دون أن تدري ما بها. وانما تتبين في المرض أننا لانهش وحناء، ولكننا مقيدون بكائن من عالم مختلف تفصلنا عنه هوة واسعة، وهو لا يعرفنا ويستحيل علينا حمله على فهمنا، عنيت جسداً. ربّما استطعنا، أيّا كان اللص الذي نصادفه على طريقنا، أن نفلح في حمله على الرفق بمصلحته الشخصية، إن لم يكن بشقائنا. فأما أن نسأل جسداً رحمة بنا فانما يعني التحدث أمام أخطبوط لا يمكن أن تعني أقوالنا بالنسبة إليه أكثر من ضجة المياه وقد يبعث الحكم علينا بالعيش معه الذعر في نفوسنا. كثيراً ما كانت توقعات جدتي تمرّ دون أن تلفت انتباهها الذي تصرفه دوماً إلينا. وحينما كانت تعاني منها كثيراً كانت كيما تفلح في شفائها تجهد عبثاً في فهمها. ولكن

كانت الظواهر المرضية التي تتخذ من جسدها مسرحاً لها غامضة وخافية على فكرها، فقد كانت واضحة سهلة الإدراك بالنسبة إلى كائنات تنتمي إلى العالم المادي نفسه الذي تنتمي إليه، من تلك التي توجه إليها العقل الإنساني في النهاية كي يدرك ما يقوله له جسده مثلما تمضي، إزاء أجوبة يجود بها أجني، لنأتي بواحد من البلد نفسه يقوم بمهمة الترجمة. هي تستطيع التحدث إلى جسدها وأن تقول لنا إن كان غضبه خطيراً أو هو سيهدأ عما قليل. وحاول «كوتار» الذي استدعيته إلى جانب جدتي والذي بعث فينا الضيق إذ سألنا بابتسامة مكررة منذ الدقيقة الأولى التي نقلنا إليه فيها أنها مريضة: «مريضة؟ ليس ذلك على الأقل مرضاً ديبلوماسياً؟» حاول الحمية بالحليب بغية تهدئة اضطراب مريضته. ولكن الشوربات بالحليب لم تأثر لأن جدتي كانت تضع فيها الكثير من الملح، وكانوا يجهلون ضرره في ذلك الوقت (إذ لم يكن «فيدال» قد قام بعد باكتشافاته). فإنه لما كان الطب موجزاً لأخطاء الأطباء المتعاقبة والمتناقضة كان ثمة احتمال كبير إن نحن استدعينا أفضلهم أن نلتبس حقيقة تحتسب مغلوطة بعد ذلك بسنوات. حتى ليلدو أن الاعتقاد بالطب أقصى الجنون لو لم يكن الامتناع عن الاعتقاد به جنوناً أعظم، إذ قد استخلصت على مر الأيام بعض الحقائق من ركاب الأخطاء ذاك. كان «كوتار» قد أوصى بأن تقاس حرارتها، فمضينا لإحضار ميزان حرارة. كان الأنبوب خالياً من الزئبق في كامل ارتفاعه تقريباً، وتكاد لا تبصر السمنديل الفضي يقبع في أقصى حوضه الصغير. كان يبدو لا حراك به. وتم وضع الأنبوب الزجاجي في فم جدتي. ولم تكن بنا حاجة لابقائه فترة طويلة، فلم يطل الأم بالساحرة الصغيرة التي كشفت طالعتها. ووجدناها لا تبدي حراكاً وقد جثمت في منتصف ارتفاع برجها لا تغادره من بعد وترينا بدقة الرقم الذي طلبناه منها والذي ربما عجزت عن تزويد جدتي به جميع التأملات التي كان يمكن أن تصبها على ذاتها: ٣٨,٣. وأحسنا للمرة الأولى بشيء من القلق. وهزنا ميزان الحرارة بقوة لنمحو العلامة المشؤومة كما لو وسعنا بذلك خفض الحمى والحرارة المسجلة في آن واحد. ولكننا بدا واضحاً للأسف أن العرافة الصغيرة المجردة من العقل لم تزودنا اعتباطاً بذلك الجواب، فما أن أعيد في الغد ميزان الحرارة بين شفتي جدتي حتى أقبلت النبوة الصغيرة لتوها تقريباً، وكأنما بقفزة واحدة، تزهو يقينا واستشفافاً لأمر خاف علينا، لتتوقف في النقطة نفسها في جمود لا يرحم وترينا مرة أخرى بالتمتع شفتيها الرقم ٣٨,٣ لم تكن تقول غير ذلك، وكنا عبثاً رغبنا وأردنا ورجونا فقد بدا في صممها أنها كلمتها الأخيرة المخدرة المتوعدة.

حيثُ توجهنّا، بغية إرغامها على تبديل جوابها، إلى مخلوقة أخرى من العالم نفسه لكنها أكثر اقتداراً ولا تكتفي بمساءلة الجسم بل تستطيع أن تأمره، إلى مزبل للحمي من نوع الاسبيرين التي لم تكن بعد قد استخدمت آنذاك، ولم نعمل على تخفيض ميزان الحرارة إلى أكثر من ٣٧,٥ أملاً منا أنه على هذا النحو لن يعود إلى الارتفاع، وأوعزنا أن تتناول جدتي مخفض الحرارة هذا وأعدنا حيثذاك ميزان الحرارة. ولم تتحرك حارسه البرج الساحرة هذه المرة، شأن حارس متصلب يبرز له أمر سلطة عليها لعبت لديها الوساطة دورها فيجب وقد وجد الأمر مطابقاً للقوانين: «حسن، ليس لديّ ما أقوله، تفضل ما دامت الأمور على هذه الشاكلة». ولكننا كان يبدو أنها تقول متجهمة: «ماذا يجديكم ذلك؟ بما أنكم تعرفون «الكينا»، فسوف تصدر إليّ أمراً بالامتناع عن التحرك مرةً وعشر مراتٍ وعشرين مرةً. ثم يأخذ منها التعب، فإنني أعرفها ويحكم! لن تظلّ الأمور كذلك أبداً، وحينذاك تكونون قد كسبتم الكثير».

حينئذ أحسّت جدّتي في داخلها بوجود مخلوقة كانت تعرف الجسم الإنساني أفضل من جدّتي، وجود معاصرة للأجناس المندثرة، وجود واضح اليد الأوّل - الذي سبق بكثير خليقة الإنسان المفكر - ؛ لقد أحسّت بهذا الحليف المغرق في القدم يتحسّسها بشيء من القسوة في رأسها، في قلبها، في مرفقها. كان يتعرف الأمكنة وينظّم كلّ شيء من أجل المعركة التي تعود إلى ما قبل التاريخ والتي وقعت فوراً بعد ذلك. وتم قهر الحمى في مدى لحظة، بعد ما سحق التئنين، بفعل العنصر الكيميائي القوي الذي ودّت جدّتي لو يسعها أن تشكره عبر الممالك ومن فوق جميع الحيوانات والنباتات. وظلت متأثرة من جرّاء هذا اللقاء الذي تمّ لها عبر الكثير الكثير من القرون بهذا العنصر الذي سبق حتى خليقة النبات. وكان ميزان الحرارة من جهته، وقد تم قهره إلى أمد على يد إله أقدم منه، يمسك بمغزله الفضّي جامداً لا يتحرّك. لكنّ مخلوقات دنيا، وأسفي، نشأها الإنسان على مطاردة هذه الطرائد الخفية التي لا يستطيع ملاحقتها في أعماق ذاته كانت تحمل إلينا بقسوة في كلّ يوم رقم كمية ضئيلة من الزلال ولكنها ثابتة إلى حدّ ما كيما تبدو هي الأخرى ذات صلة بحالة مستديمة ما كنّا نبصرها. لقد سبق أن أثار لديّ «بيرغوت» الغريزة الدقيقة التي كنت أخضع بها عقلي حينما كلمني عن الدكتور «دو بولبون» على أنّه طبيب لن يبعث فيّ الملل وسوف يجد صنوفاً من العلاج تلائم تفرد عقلي وإن بدت غريبة في ظاهرها. ولكنّ الأفكار تتحوّل في داخلنا وتقهر المقاومة التي كنّا نرفعها في وجهها بادئ الأمر وتتغذي بذخائر فكرية غنية جاهزة ما كنّا نعلم أنها تناسبها. وكما يتفق في كلّ مرّة كان من شأن الأقوال التي سمعناها بصدد امرئ لا نعرفه أن نوقظ فينا فكرة موهبة عظيمة ونوع من العبقريّة، كنت أدع للدكتور «دو بولبون» أن يفيد من هذه الثقة اللامحدودة التي يوحى بها إلينا ذاك الذي يدرك الحقيقة بنظرة أوفر عمقاً من سواه. كنت أعلم بالتأكيد أنّه قبل كلّ شيء اختصاصي بالأمراض العصبية، وهو الذي تنبأ له «شاركو» قبل موته أنّه سيكون سيد علم الأعصاب والطبّ النفسي. «لست أدري، ذلك ممكن»، تقول «فرانسواز» التي كانت حاضرة وتسمع للمرّة الأولى اسم «شاركو» واسم «دو بولبون» على السواء. بيد أنّ الأمر لا يحول دون أن تقول: «ذلك ممكن». وكان ما تقول من «ممكن» و«ربما» و«لا أدري» يثير السخط في حالة كهذه. وتعمل فيك الرغبة في أن تجيها: «ما كنت بالطبع تعلمين بما أنّك لا تعرفين شيئاً عن الأمر المعنيّ ؛ بل كيف يسعك حتى القول إنّ الأمر ممكن أو غير ممكن وما كنت تعلمين شيئاً عنه؟ ولا يسعك أن تقولني الآن على أيّ حال إنّك لاتعلمين أن «شاركو» قال لـ «دو بولبون» الخ، فأنت تعلمين ذلك بما أننا قلناه لك، وما تقولين من «ربما» و«الأمر ممكن» غير وارد بما أنّ الأمر أكيد.

وعلى الرغم من هذه الكفاءة الخاصة فيما يتصل بالدماغ والأعصاب، ولما كنت أعلم أنّ «دو بولبون» طبيب عظيم وإنسان متفوق ذو عقل مبدع عميق فقد توسلت إلى والدتي أن تأمر بإحضاره، وقد رجحت في آخر المطاف كفة الأمل في أنّه ربّما شفى الداء بفعل نظرة صائبة على الخشية التي بنا أن نزرع الرعب في قلب جدّتي إن نحن استدعينا طبيباً مشاوراً. فأما ما أقنع والدتي فأنا جدّتي لم تعد تخرج وتكاد لاتنهض يشجعها في ذلك على نحو غير واعي «كوتار». وعبثاً تردّ علينا برسالة السيدة «دو سيفينييه» إلى السيدة «دو لافاييت»: «كان يقال إنّها مجنونة أن ترفض الخروج، فأقول لاولئك الأشخاص المتعجلين في حكمهم: «ليست السيدة «لافاييت» مجنونة» وأظّل عند رأيي. وقد انبغى أن توافيها المنية كي تبرهن أنّها كانت محقة في الامتناع عن الخروج». ولئن لم يخطئ «دو بولبون»، بعدما تمّ استدعاؤه، السيدة «دو سيفينييه» التي لم

تذكر أمامه، فقد فعل على الأقلّ بالنسبة إلى جدتي. وبدلاً من أن يفحصها أخذ، فيما يرمقها بنظراته الرائعة التي ربما داخلها وهم تفحص المريضة على نحو معمق، أو الرغبة في إيلائها ذلك الوهم الذي كان يبدو تلقائياً ولكنه لا بدّ أصبح آلياً. أو كي لا يدع لها تبين أنه يفكر في أمر مختلف تماماً، أو كي تتمّ له السيطرة عليها، أخذ يتحدث عن «بيرغوت».

— «آه! هذا ما اعتقده تماماً يا سيدتي، ذلك رائع؛ وكم أنت محقة في ولعك به! ولكن آياً من كتبه تفصيلين؟ صحيح! يا إلهي، ربما كان بالتأكيد أفضلها. وهو في جميع الأحوال أفضل رواية له تاليفاً: إن «كلير» رائعة فيها. وعلى صعيد الرجال أيهم يبدو لك الأكثر إيناساً؟».

وظننت بادئ الأمر أنّه يحملها على هذا النحو على التحدّث عن الأدب لأنّ الطبّ كان يورثه الملل، وربما كي يبدى كذلك اتساع فكره، بل حتى كي يعيد، وهدفه أقرب إلى العلاج، الثقة لمريضته، ويظهر لها أنه غير قلق ويسليها عن حالتها. ولكنني فهمت مذ ذاك أنه أراد، وقد اشتهر خصوصاً بوصفه اختصاصياً بالمعتوهين وبسبب أبحاثه حول الدماغ، أن يتبين بأسئلته إن كانت ذاكرة جدتي سليمة تماماً. وقد ساءلها قليلاً عن حياتها وكأنما مرغماً، قائم النظرة ثابتها. ثم قال فجأة، وكأنما أبصر الحقيقة وصمم أن يبلغها مهما كلفه الأمر، وبحركة مسبقة يبدو بها وكأنه يجهد في أن ينفض عنه، باستبعادها، موجات التردّد الأخيرة التي كان يمكن أن تتناوب وجميع الاعتراضات التي ربما أمكن أن نرفعها في وجهه، قال وهو ينظر إلى جدتي بعين صافية وبحرية وكأنما يضع أخيراً أقدامه على أرض صلبة، ويشدّد على الكلمات بلهجة وادعة أخاذة يلوّن الذكاء جميع نبراتها (وقد ظلّ صوته على أيّ حال طوال الزيارة على ما طبع عليه، ظلّ ناعماً وكانت عيناه الساخرتان تحت حاجبيه الأشعثين تفيضان طيبة):

«ستكونين على مايرام، يا سيدتي، في اليوم البعيد أو القريب— ويعود إليك أن يكون ذلك في هذا اليوم نفسه — الذي تدركين فيه أنك لا تشكين شيئاً والذي تستعيدين فيه الحياة المعتادة. قلت لي إنك لا تأكلين وإنك لا تخرجين؟»

— «ولكنني أشكو قليلاً من الحمى ياسيدي».

ولمس يدها:

— «ليس في هذا الحين على أية حال. ثم ما أروعه عذراً! أما تعلمين أننا ندع في الهواء الطلق مسلولين تبلغ حرارتهم ٣٩° وأنا نزيد من تغذيتهم».

— «ولكنني أشكو كذلك قليلاً من الزلال».

— «يجدر بك أن لا تعرفي ذلك. أنك تشكين ما أدرجته تحت اسم الزلال الذهني. لقد عانينا جميعاً أثناء توعك صحيّ من نوبة الزلال الطفيفة التي سارع طبيبنا إلى إضفاء الديمومة عليها بتنبهنا إليها. وفي مقابل علة يشفيها الأطباء بالأدوية (ثمّة من يؤكد على الأقلّ أنّ الأمر وقع أحياناً) ينتجون عشراً لدى أناس معافين إذ ينقلون اليهم هذا العامل المرضي الذي يفوق ألف مرة سائر الأحياء الدقيقة حدة، عنيينا فكرة أنّهم

مرضى. ومثل هذا الاعتقاد، وهو شديد الوقع على جميع الجبال، أنما يؤثر بفعالية خاصة على العصبيين. قل لهم أن نافذة مغلقة قد فتحت خلف ظهورهم فيأخذون في العطاس. وادخل في روعهم أنك وضعت شيئاً من المانيزيا في حسائهم فيأخذهم الغص، وأن قهوتهم أقوى من المعتاد فلا يغمض لهم طوال الليل جفن. أنظنين ياسيدي أنه لم يكفني أن أرى عينيك وأن أسمع فحسب الطريقة التي تتحدثين بها، ماذا أقول؟ أن أرى السيدة ابنتك وحفيدك اللذين يشبهانك إلى حد بعيد كيما أعرف مع من أتعامل؟»

— «ربما استطاعت جدتك أن تبادر فتجلس، إن صرّح لها الدكتور بذلك، في مرّ هادئ في «الشانزيليزيه»، على مقربة من كتلة شجيرات الغار تلك التي كنت تلعب فيما مضى أمامها، تقول أمي وهي تستشير مباشرة على هذا النحو الدكتور «دوبولون» ويتخذ صوتها بسبب ذلك شيئاً من الاستحياء والإجلال ما كان ليتخذ له لو أنها وجهت الحديث إليّ وحدي. والتفت الدكتور إلى جدتي، ولما لم يكن أقلّ منه علماً قال:

— «إذهبي إلى «الشانزيليزيه» ياسيدي، بالقرب من كتلة شجيرات الغار التي يحبها حفيدك. سوف تفيدك شجرة الغار، فإنها تظهر. إن «أبولون» بعدما قضى على الشعبان إنّما دخل إلى «ذلفي» وهو يحمل في يده غصن غار. كان ينبغي بذلك أن يقي نفسه من جرائم الحيوان السام الميته.

ها إنك ترين أن شجرة الغار هي الأوفر قدماً والأجدر بالتقدير، وأضيف إلى ذلك أنها أحسن المظهرات — الأمر الذي يتخذ قيمة في العلاج والوقاية على حدّ سواء».

ولما كان قسم كبير مما يعرفه الأطباء إنّما يلقّتهم إياه مرضاهم فإنهم يميلون بسهولة إلى الاعتقاد بأن علم «المرضى» هذا واحد لدى الجميع ويتباهون بإدهاش من كانوا بالقرب منه بملاحظة تعلموها من أولئك الذين عالجهم فيما مضى. ولذلك قال الدكتور «دوبولون» لجدتي بالابتسامة الماكرة التي لباريسي يأمل في حديثه مع فلاح أن يدهشه باستخدام كلمة من اللهجة الإقليمية: «ربما أفلح طقس الرياح في حملك على النوم حيث تخفق أقوى المنومات». — «بالعكس ياسيدي، فالريح تحول تماماً دون أن أنام». ولكن الأطباء شديدي الحساسية. وهمس «دوبولون» وهو يقطب حاجبيه: «أخ!» كما لو ديس قدمه وكان أرق جدتي في الليالي العاصفة إهانة شخصية بالنسبة إليه. ولكننا لم يكن يشكو مع ذلك فرط اعتزاز بالنفس، وإذ ظنّ من واجبه بوصفه «عقلاً متفوقاً» ألا يؤمن بالطب فقد استعاد بسرعة هدوءه الفلسفي.

وأضافت أمي، تخدوها رغبة عارمة في أن تطمئنّ بالأعلى يد صديق «بيرغوت»، أضافت تدعيماً لقوله بأنّ ابنة عمّ لها كانت ضحية علة عصبية فظلت سبعة أعوام حبيسة غرفة نومها في «كومبريه» لا تنهض إلا مرة أو مرتين في الأسبوع.

— «ها أنت ترين ياسيدي، ما كنت على علم بذلك وكان بوسعي أن أقوله لك.»

وقالت جدتي، إما لأنها ضاقت نفسها بعض الشيء من جرّاء نظريات الدكتور أو لأنها رغبت في عرض ما يمكن أن يثار من اعتراضات عليها آملة أن يدخلها وآتة لن تظلّ لديها، بعدما يذهب، أي شكّ ترفعه حول تشخيصه الناجح: «ولكنّي لست البتّة على غرارها ياسيدي، بل العكس صحيح؛ فليس يستطيع طبيبي أن

يأمرني بملزمة سريري.

- «بالطبع يا سيدي، لا يمكن أن يصاب المرء، واستميتك العذر للكلمة، بجميع العاهات العقلية، فأنت تشكين غيرها ولا تشكين هذه بالذات. لقد قمت البارحة بزيارة مصحّ لمرضى الأعصاب، وفي الحديقة كان رجل يقف فوق مقعد لا يدي حراكاً كأحد الفقراء ويميل برقبته في وضع كان لابد شاقاً جداً. ولما سألت ما كان يفعل أجبني دون أن يقوم بحركة أو يدير رأسه: «دكتور، إنني كثير الإصابة بالرتبة والرشوحات، وقد قمت بالكثير من التمرينات وفيما كنت على هذا النحو أزيد ببلاهة من حرارتي كانت رقبتي تلتصق بملابسي الداخلية. فإن أبعدها الآن عن تلك الملابس قبل أن أدع لحرارتي أن تهبط فإنني موقن بأنني سأصاب بتصلب في الرقبة وربما بالتهاب قصبات.» ولعله كان سيصاب به بالفعل. فقلت له: أنت واهن الأعصاب إلى حد بعيد، ذلك ما أنت بالتمام. فهل تعلمين الحجة التي قابلني بها ليبرن لي على العكس؟ الحجة أنهم كانوا يضطرون، فيما جميع مرضى المؤسسة مصابون بهوس وزن أنفسهم إلى حد أنهم لم يجدوا بداً من وضع قفل للميزان كي لا يقضوا كامل يومهم في وزن أنفسهم، إلى إرغامه على الصعود إلى الميزان لقلة ما يرغب في ذلك. كان يغتبط لأنه غير مصاب بهوس الآخرين دون أن يخطر له أنه مصاب بهوسه الخاص وهو الذي يقيه آخر غيره. لا تجرحك المقارنة ياسيدي، فذاك الرجل الذي ما كان يجرؤ أن يدير عنقه مخافة أن يصيبه الزكام إنما هو أعظم شاعر في عصرنا. وإنما ذلك المهووس المسكين أسمى عقل عرفته. فاحتملي أن تدعي عصبية. إنك تنتمين إلى هذه الأسرة الرائعة التعيسة الحال التي تؤلف ملح الأرض. إن كل أمر عظيم نعرفه يوافينا من العصبيين. فهم، لاغيرهم، أنشؤوا الأديان وألقوا الروائع الفنية. ولن يعرف العالم في يوم كل ما يدين به لهم ولاسيما ما كابدوه كي يهبوه إياه. إننا نتذوق الموسيقى الرقيقة واللوحات الجميلة وألقا من اللطائف ولكننا لا نعلم ما تكلف في سبيلها، أولئك الذين ابتدعوها، من أرق ودموع وضحكات متقبضة وشرى وربو ونوبات صرع، ومن ضيق حتى الموت هو أسوأ من كل ذلك، وربما كنت عارفة به ياسيدي،» يضيف قوله وهو يتسم لجدي، «لأنك حينما جئت، هيا أقرّي بذلك، لم تكوني كثيرة الاطمئنان. كنت تخشين أنك مريضة، مريضة ربما إلى حد خطير. ويعلم الله أية علة كنت تظنين أنك تكتشفين أعراضها فيك. وما كنت مخطئة، فقد كانت لديك. إن توتر الأعصاب مقلد عبقرى، فليس من داء إلا ويحاكيه غاية المحاكاة. إنه يقلد إلى حد الإيقاع بك نفخة المصابين بالتخمة وغثيان الحمل ولا انتظام مريض القلب وحمية السلول. وكيف لا يخذع المريض هو القادر على تضليل الطبيب؟ لا تظني أنني أسخر من أدوائك، فما كنت أبادر إلى علاجها إن كنت لا أستطيع ادراكها. ثم هاك، ليس من اعتراف صحيح إلا متبادلاً. قلت لك إنه ليس من فنان كبير دون مرض عصبي، بل وأكثر من ذلك،» يضيف قوله وهو يرفع سبابته بوقار، «ليس من عالم كبير. وأضيف أن ليس، لن أقول من طبيب جيد بل من طبيب مقبول فحسب في الأمراض العصبية إن لم يكن مصاباً بدور بمرض عصبي. إن طبيباً، في حقل علم الأمراض العصبية، لا يدلي بالكثير من الغبوات مريض نصف معافى، مثلما الناقد شاعر لا ينظم الشعر من بعد، والشرطي لص لا يمارس من بعد. أنا، ياسيدي، لا أحسب مثلك أنني مصاب بالزلال فليس بي خوف عصبي من الغذاء، من الهواء الطلق، ولكني لا أستطيع النوم قبلما أعود فأنهض عشرين مرة لاتبين أن كان الباب موصداً. وذلك المصح الذي لقيت فيه البارحة شاعراً لا يدير رقبته إنما كنت ذاهباً إليه لأحجز غرفة لأنني، وأقولها بيننا، أمضي

فيه عطلتي في علاج نفسي بعدما أزيد أدوائي إذ أرهق نفسي في شفاء أدواء الآخرين.»

— «ولكن، هل ينبغي لي يا سيدي.» تقول جدتي مدعورة، «أن أقوم باستشفاء مماثل؟»

— «لا ضرورة لذلك يا سيدتي، فالظواهرات التي تبدو عليك سوف تستسلم أمام كلامي. ثم إن لك بالقرب منك من هو مقتدر جداً وإني أجعل منه طبيبك منذ الآن. إنه داؤك وفراط نشاطك العصبي. ولو عرفت السبيل إلى شفائك منه لتحاشيت القيام بذلك. يكفيني من مرض أعصابك فلن تحييه من بعد. وهل أحسن أن لي الحق أن أبادل المتع التي يوفرها مقابل سلامة عصبية قد تعجز تماماً عن توفيرها لك؟ على أن هذه المتع نفسها إنما تشكل دواء قوياً وربما كان أقواها جميعها. لا، لست أبغي شراً بطاقتك العصبية. إني أطلب إليها فقط أن تصغي إليّ. وإني أكلك إليها. فلتعد القهقري. والقوة التي كانت تبدلها لتمنعك من التنزه وتناول مايكفي من الغذاء فلتستخدمها في إطعامك وحملك على القراءة والخروج والترويح عنك بكل الطرق. لا تقولي لي إنك متعبة، فالتعب هو التحقيق العضوي لفكرة سبق تصورهما. فابدي بالاً تفكري فيه. وإن ألم بك في يوم توعلك طفيف، وهو ما يمكن أن يتفق للجميع، فسيتخلل إليك أنه لم يصبك إذ يكون قد جعل منك معافي بالوهم، حسب كلمة بليغة للسيد «دو تاليران». وها إنها شرعت تشفيك، فأنتك تصغين إليّ منتصبة القائمة تماماً دون أن استندت مرة واحدة، حادة النظرة مرتاحة الوجه وقد مضى على ذلك نصف ساعة كاملة ولم تنتهي للأمر. سيدتي، يشرفني أعظم الشرف أن أحييك مودعاً.»

وحينما عدت، بعدما شيعت الدكتور «دو بولبون»، إلى الغرفة حيث كانت أُمي وحدها تبدد الغم الذي كان يضيّق عليّ منذ عدّة أسابيع وأحسست أن والدتي توشك أن تطلق فرحتها وأنها على وشك أن ترى فرحتي، وشعرت باستحالة احتمال انتظار اللحظة القريبة التي يزعم فيها شخص بالقرب منا أن يبدي انفعاله، استحالة احتمال تشبه إلى حدّ ما الخوف الذي يتناهد حين نعلم أن أحدهم سيدخل لإثارة الرعب في صدورنا من باب لا يزال مغلقاً. وهممت أبغي أن أقول كلمة لأُمي ولكنما خائني الصوت وانفجرت باكياً وظللت طويلاً ورأسي إلى كتفها أبكي وأذوق الألم وأقبله وأهواه الآن وقد علمت أنه خرج من حياتي مثلما يطيب لنا أن نتحمس لمشروعات صالحة لاتسمح لنا الظروف بتنفيذها.

وأتارت «فرانسواز» حنفي بأنها لم تشاركنا فرحتنا. لقد كانت في أشد الانفعال لأن شجاراً عنيفاً هبّ بين خادام الغرفة والبواب الواشي. وقد انبغى أن تتدخل الدوقة بطيبة قلبها وتعيد ظاهراً من السلام وتصفح عن خادام الغرفة. ذلك لأنها كانت طيبة، ولعله كان المكان الأمثل لو لم تصغ إلى «الأقاول».

أخذ الناس منذ بضعة أيام يعلمون أن جدتي مريضة ويسألون عن أخبارها. لقد كتب إليّ «سان لو» يقول: «لا أريد استغلال هذه الساعات التي ليست جدتك فيها على مايرام كي أوجه إليك ما كان أكثر من الملائمة وليس في شيء مما جرى. ولكنني قد أكذب إن قلت لك، ولو كان من باب التغاضي، إنني سأنسى في يوم مسلكك الغادر وأنتك تتال الصفح في يوم عن مكرك وخيانتك.» بيد أن أصدقاء سألوني، وهم يرون أن جدتي يسيرة المرض أو حتى يجهلون تماماً أنها مريضة، أن أصحبهم في الغد إلى «الشانزليزيه» ونذهب من هناك لاقوم بزيارة ونشهد في خارج المدينة عشاء كان يفرحني. ولم تعد لدي أية حجة للتخلي عن هاتين

المتعتين. فقد رأينا أن جدتي ذكرت في الحال «الشانزليزية» حينما قيل لها إنه ينبغي لها الآن أن تنتزه كثيراً نزولاً عند رغبة الدكتور «دو بولبون». سوف يكون من اليسير عليّ أن أصبحها إلى هناك، وأن أتفق واصدقائي، فيما هي جالسة تقرأ، حول المكان الذي نلتقي فيه وسوف يتسع لي الوقت إن استعجلت نفسي لاستقل القطار معهم إلى «فيل دافريه». وفي الوقت المحدد لم تشأ جدتي الخروج وقد ألقت نفسها متعبة. ولكن والدتي التي درّبها «دو بولبون» توافر لها العزم لتغضب وتفرض طاعتها. كادت تبكي لدى التفكير بأن جدتي سوف يعاودها ضعفها العصبي ولن تبلى منه. ولم يتفق أن أتى طقس بمثل هذا الجمال والدفء نهتها إلى هذا الحد. كانت الشمس إذ تبدل من مكانها تدس ههنا وهناك في صلاية الشرفة المصدّعة حرائرها الرجراجة وتضفي على الحجر المنحوت قشرة دافئة وهالة من ذهب غير واضحة المعالم. ولما لم يتسع الوقت لـ «فرانسواز» لتبعث ببرقية لابنتها فقد غادرتنا بعد الغداء مباشرة. لقد كان جميلاً منها. أن دخلت قبل ذلك لدى «جويان» لتطلب إليه أن يرفأ المعطف الصغير الذي سترتيه جدتي للخروج. وإذا عدت في ذلك الوقت من نهاتي الصباحية فقد ذهبت معها إلى دكان صانع الصداري. قال «جويان» لـ «فرانسواز» «أهو معلّمك الشاب الذي يجيء بك هنا، أم أنت من تجيء به أم أنّ ربحاً مؤاتية والأقدار تسوقكما معا؟» كان «جويان»، مع أنّه لم يتابع دراسته، يحترم القواعد بالسليقة بقدر ما ينتهكها السيد «دو غيرمانت» على ما يبدل من جهود كثيرة. وبعدها ذهبت «فرانسواز» وتم إصلاح المعطف الصغير انبغى لجدتي أن ترتدي ملابسها. ولما رفضت بقاء أمي معها فقد أمضت وحيدة وقتاً لا ينتهي في ارتداء ثيابها، وأخذت، وأنا أعلم الآن أنها في تمام العافية وبهذه اللامبالاة الغريبة التي نبذلها لذوينا ما داموا على قيد الحياة والتي تقضي بنا إلى إنزالهم بعد كل الناس، أخذت أجدها شديدة الأنانية أن تنفق كلّ هذا الوقت وتوشك أن تؤخرني فيما تعلم أنني على موعد مع أصدقاء وأزعم تناول العشاء في «فيل دافريه». وبلغ بي الأمر، وقد ضقت ذرعاً، أن أنزل مسبقاً بعدما قيل لي مرتين أنها توشك أن تجهز. ولحقت بي أخيراً، دون أن تعتذر لي عن تأخرها كما كانت تفعل عادة في تلك الحالات، محمرة ساهية شأن من كان في عجلة من أمره ونسي نصف حاجاته، فيما كنت أصل على مقربة من الباب المزجج المشقوق الذي كان ينفذ الهواء اللزج الموشوش الدافئ من الخارج، وكأنا تم فتح خزان، بين جدران الفندق الشديدة البرودة دون أن يعث فيها أقل الدفء.

- «يا إلهي، كان بوسعي أن أرتدي معطفاً آخر بما أنك ترمع لقاء أصدقاء لك، فإن مظهري به يوحي بعض البؤس».

وأدهشني مدى احتقان وجهها وأدركت أنها اضطرت، وقد تأخّرت، أن تتعجل أمرها. ولما غادرتا العربة في مدخل شارع «غابرييل» في محلة «الشانزليزية» رأيت جدتي وقد تحوّلت دون أن تكلمني واخذت تتجه إلى الكشك الصغير القديم المسيج بسياج أخضر حيث سبق أن انتظرت «فرانسواز» ذات يوم. كان لا يزال ثمة بالقرب من «المركيزة» الحارس الحراجي نفسه الذي كان هناك آنفً حينما صعدت درجات المسرح الريفي الصغير المقام وسط الحدائق وأنا أتبع جدتي التي كانت تضع يدها أمام فمها لأنها لاشك كانت تحس بغثيان. وكما هي الحال في مدن الملاهي المتنقلة حيث يتقاضى المهرج نفسه في الباب، وهو على أهبة الصعود إلى خشبة المسرح وقد غطّى وجهه بالطحين، ثمن المقاعد، كانت «المركيزة» لا تزال في المراقبة تستوفي رسوم الدخول بخطمها الهائل اللامنتظم المطلي بجص سميك وقبعتها الصغيرة التي من زهر أحمر ودانتيل سوداء

تعلو شعرها المستعار الأصهب. على آني لا أظن أنها تعرفتني. وكان الحارس يتحدث وهو يجلس إلى جانبها وقد أهمل مراقبة مواضع الخضرة التي كانت بزته تنسجم مع لونها.

كان يقول: «لا زلت ههنا، أنت، ولا تفكرين في التقاعد».

- «ولم أتقاعد يا سيد؟ هلاً قلت لي أين أكون أفضل من هنا وأين توافر لي أكثر من هنا رفاهيتي وكل مايريحي؟ ثم هذه الجيئة والروح لا ينقطعان والتسلية، ذلك ما أدعوه باريس الصغيرة: فزبائني يطلعونني على كل ما يجري. خذ مثلاً ياسيد، هنالك أحدهم، وقد خرج منذ ما لا يزيد عن خمس دقائق، إنه قاض من أعلى المراتب. حسن، ياسيد، تقول في صبيحة حماس وكأنها مستعدة لإثبات هذا التوكيد بالعنف إن أبدى رجل السلطة أنه يشكك في صحتها، منذ ثماني سنوات، تفهمني تماماً، وفي سائر الأيام التي صنعها الله، تراه هنا حين تدق الثالثة، دائم التأدب لا ترتفع له كلمة فوق أخرى ولا يوسخ قط شيئاً ويظل أكثر من نصف ساعة ليقرأ صحفه وهو يقضي حاجته الصغيرة. يوم واحد لم يجيء فيه. ساعتها لم أنتبه للأمر، ولكنني في المساء قلت فجأة في نفسي: «ويجي، هذا السيد لم يجيء وربما أدركته المنية». لقد هزني الأمر لأنني أتلقي حينما يكون الناس طبيين. ولذلك أحسست بسر عظيم عندما عدت فرأيت في الغد، وقلت له: «لم يصبك أمر البارحة، ياسيدي؟» حيثئذ قال لي هكذا إنه لم يقع له شيء وإنما امرأته التي ماتت وإنه تأثر إلى حد أنه لم يستطع المجيء. كان مظهره حزينا بالتأكيد، أنت تدرك ذلك، أناس زوجوا منذ خمسة وعشرين عاماً، ولكنه كان يبدو مسروراً مع ذلك أن يعود. كنت تخس أنه أزعج كل الأزواج في شؤون عاداته المألوفة. وقد حاولت أن أشدد عزائمه فقلت له: سينبغي ألا تستسلم للأمر، تعال كما كنت من قبل، فسوف يأتيك ذلك بسلوى يسيرة في غمك».

وإردفت «المركيزة تقول بلهجة أكثر ليلاً لأنها لاحظت أن حامي كتل الزهر والخضائر يصغي إليها بسداجه دون أن يخطر له أن يخالفها وقد أبقى في الغمد سيفاً مسلماً يبدو بالأحرى وكأنه أداة بستنة أو مما كان خاصاً بالحدائق».

- «ثم إنني انتقي زبائني، تقول، ولا أستقبل جميع الناس في ما أدعوه صالاتي. أليست تبدو بمثابة صالة إلى جانب زهوري؟ وبما أن لدي زبائن لطافاً جداً، فإن هذا أو ذاك يتلطف دوماً فيحمل إليّ غصناً صغيراً من ليلى جميل أو ياسمين، أو وروداً، وهي زهرتي المفضلة».

واكتسى وجهي بالحمرة لدى التفكير بأننا ربما كنا موضع نظرة سيئة لدى هذى السيدة إذ لا نحمل إليها في يوم ليلكاً أو وروداً جميلة، وتقدمت باتجاه باب الخروج أجهد في أن أنتجب جسدياً حكماً في غير صالحي - أو لا تصدر الحكم بحقي إلا غيائياً. ولكن الأشخاص الذين يأتون بالزهور ليسوا على الدوام في الحياة أولئك الذين يدي المرء أكثر اللطف لهم، فقد خاطبتني «المركيزة»، وفي ظنها أن الضجر أصابني، قائلة:

- ألا تريد أن أفتح لك قمرة صغيرة؟

ولما رفضت أضافت تقول بابتسامة: «لا لست تريد؟ كان ذلك بكامل رضاي، ولكنني أعلم تماماً أنها حاجات لا يكفي ألا تنقد ثمنها لتحس بها».

ودخلت باستعجال في تلك اللحظة امرأة رثة الثياب كان يبدو بالضبط أنها تحس بها. ولكنها لم تكن من عالم «المركيزة»، فقد قالت لها هذه الأخيرة بجفاء وبقسوة المتحذلقين:

- «ليس من شاغر ياسيديتي»..

وسألت السيدة المسكينة وقد كستها الحمرة تحت أزهارها الصفرة: «وهل سيطول بي الأمر؟»

- «آه! أنصحك ياسيديتي بالذهاب إلى مكان آخر، فأنت ترين، لا يزال هنالك هذان السيدان ينتظران»، تقول وهي تشير إليّ وإلى الحارس، «وليس لديّ سوى بيت خلاء واحد، فالآخر في طور الإصلاح...» وقالت المركيزة: «هذه هيئة من يماطل في دفع ما بذمته، ولا يبدو أنها من طرازنا هنا، فلا نظافة ولا احترام وإنما سينبغي لي أن أمضي ساعة في التنظيف للسيدة. لست نادمة على فلسيها».

وأخيراً خرجت جدتي بعد نصف ساعة ونيف، وإذا خطر لي أنها لن تحاول أن تستر باكرامية ما أبدت من عمل غير محتشم لبقائها وقتاً كهذا عدت القهقري كي لا يصيبني جزء من الازدراء الذي ستبديه لها «المركيزة» دون شك وسلكت ممراً ولكن على مهل كي تستطيع جدتي اللحاق بي بسهولة ومتابعة السير معي. وذلك ماتم بعد قليل. كنت أحسب أنّ جدتي ستبادرني بقولها: «لقد جعلتك تنتظر طويلاً وأمل أنّ لن يفوتك على الرغم من ذلك لقاء أصدقائك»، ولكنها لم تنطق بكلمة واحدة حتى إنني لم أشأ، وقد خاب أمني إلى حدّ، أنّ أتحدّث الأوّل إليها. وحين رفعت العين إليها رأيت أنها تتحوّل رأسها في الجانب الآخر فيما تسير بالقرب مني. وخشيت أنها تعاني من غثيان بعد. وأنعمت النظر إليها ودهشت لمشيتها المهتزة. كانت قبعتها مائلة ومعطفها متمسكاً وكانت تبدي اضطراباً واستياءً، محمّرة الوجه مهتمة كمن دفعته عربة أو أخرج من حفرة.

وقلت لها: خشيت أنّ أصابك غثيان ياجدة، فهل أنت أحسن حالاً؟» وليس من شك أنها حسبت أنّه يستحيل عليها ألاّ تجيبني دون أن تبعث القلق في نفسي، فقالت لي:

«لقد سمعت كامل الحديث بين «المركيزة» والحارس، وكان ألصق ما يكون بطراز آل «غيرمانت» وحلقة آل «فيردوران» الضيقة. يا الله! بأية كلمات رقيقة صيغ الحديث!» وأضافت إلى ذلك جاهدة، والاستشهاد لمركيزتها هي، السيدة «دو سيفينييه»: «ظننت إذ كنت أصغي إليها أنها تعدّ لي متع الوداع».

تلك كانت العبارات التي اسمعني إياها والتي ضمنتها كامل رقتها وميلها إلى الشواهد وما تحفظ من روائع الأدباء، بل زادت قليلاً عمّا لعلها كانت تفعل عادة وكأنما لتبدي أنّ ذلك ملك يديها. ولكنني خمنت تلك الجمل أكثر مما تمّ لي سماعها لفرط ما نطقت بها مدممة وهي تضغط على أسنانها أكثر مما يمكن أن يفسّره خوفها من الاقبياء.

فقلت لها بشيء من الاستخفاف كي لا يبدو أنني آخذ وعكثها على محمل الجد: «هيا، بما أنك تحسن بغثيان طفيف، سوف نعود إن شئت، فلست أريد أن أحمل إلى النزهة في «الشانزيليزيه» جدّة تشكو عسر هضم.»

فأجابتنني قائلة «وما كنت أجرؤ أن أعرض الأمر عليك بسبب أصدقائك. يا صغيري المسكين! ولكننا الأمر أكثر حكمة بما أنك راضي به.»

وخشيت أن تلاحظ الطريقة التي كانت تنطق بها بتلك الكلمات، فقلت لها بجفاء: «هيا، لا تتجهدي النفس في التحدّث، وبما أنك تحسن بغثيان فانتظري على الأقل أن نكون عدنا فذلك غير منطقي.»

وابتسمت لي ابتسامة حزينة وشدّت علي يدي. لقد أدركت. ألا سبيل إلى أن تخفي علي ما قد خمنته في الحال: لقد أصيبت منذ قليل بنوبة قلبية طفيفة.



القسم الثاني

الفصل الأول

مرض جدتي - مرض «بيرغوت»

- الدوق والطبيب - انعطاط قوى جدتي - موتها

عندنا فاجتزنا شارع «غابرييل» وسط جمهور المتنزهين. وأجلست جدتي على مقعد وذهبت في طلب عربية. أما هي التي كنت أقف أبداً في قلبها لأقيم أكثر الناس تفاهة فقد أضحت الآن مغلقة النفس دوني. لقد باتت جزءاً من العالم الخارجي وأراني مضطراً أن أكتمها مايرودني بشأن حالتها وأن أكتمها مخاوفي أكثر منّي مع مجرد عابري سبيل. وما كان بوسعي أن أروري لها عن الأمر بثقة أكثر مما أفعل مع غريبة. لقد ردت إليّ منذ قليل الأفكار والغموم التي سبق أن استودعتها إياها إلى الأبد منذ طفولتي. لم تكن بعد قد ماتت، وكنت مذ ذاك وحيداً. حتى تلك التلميحات إلى آل «غير مانت» و«موليير» وأحاديثنا حول النواة الصغيرة كانت تتخلل هيئة لا ركيزة لها ولا سبب، هيئة من عالم الخيال لأنها تصدر عن هذا الكائن عينه الذي ربما لن يظلّ موجوداً في غد والذي لن يظلّ لها في نظره أي معنى، عن هذا العدم - العاجز عن تصورها - الذي ستصير إليه جدتي عما قريب.

- «لست أنكر ياسيد، ولكنك لم تحصل على موعد منّي، ولا رقم لك. وليس اليوم على أية حال يوم استشارتي. لا بد أن لك طبيبك، ولا أستطيع أن أحلّ محله إلا إذا أرسل يدعوني للمشاورة. إنها مسألة تسلسل وأدب...».

وكنيت في اللحظة التي أشير فيها إلى إحدى العربات الثقيت بالأستاذ الشهير....، وهو صديق والذي وجدتي تقريباً وعلى علاقة بهما على أية حال، وكان يسكن في شارع «غابرييل» فأوقفته، وقد هبط عليّ وحي مفاجئ، لحظة كان يعود إلى بيته ظناً منّي أنه ربما أشار أحسن المشورة بالنسبة إلى جدتي. ولكنه همّ، وهو معجل بعدما أخذ رسائله، يريد أن يصرفني ولم أستطع التحدّث إليه إلا باستقلالي وإياه المصعد الذي رجاني أن أدع له تحريك أزراره، إذ الأمر هوس لديه.

- «ولكنني لا أسألك استقبال جدتي، ياسيد، وستدرك بعد الذي سأقوله، أنها قلما تستطيع، أسألك على العكس أن تمرّ في غضون نصف ساعة إلى بيتنا حيث تكون عادت».

- «أمر إلى بيتكم؟ إنك لاتفكر في ما تقول ياسيد. سأتناول طعام العشاء لدى وزير التجارة وينبغي أن أقوم بزيارة قبل ذلك وسأبدل ثيابي في الحال. يزيد في الطين بلة أن ردائي تمزّق وأن الآخر لاعروة له لوضع الأوسمة. أرجوك، تكرّم عليّ بالألمس أزرار المصعد فأنت لاثمن تحريكها. لا بد من الحذر في كل شيء. هذه العروة سوف تزيد من تأخيرتي. على كلّ حال. وبداعي صداقتي لذويك، إن جاءت جدتك في الحال فسوف استقبلها. ولكنني أحذرك من أنه يكاد لا يتسع لي سوى ربع ساعة أصرّفها لها».

كنت قد عدت في الحال، وكدت لم أخرج من المصعد الذي حرّكه الأستاذ أ... بنفسه كي يحملني على النزول، ولا يغفل أن ينظر إليّ محاذراً.

نحن نقول أن ساعة الموت غير أكيدة، ولكننا حين نقول ذلك إنما تتمثل هذه الساعة وكأنها واقعة في مكان مبهم بعيد ولا نظن أن لها علاقة. أية علاقة، بالنهار الذي بدأ ويمكن أن تعني أن الموت - أو امتلاكه الأول الجزئي لنا والذي لن يتركنا بعده- يمكن أن يحدث في هذا العصر نفسه، وما أقل إيهامه، هذا العصر الذي نظم فيه سلفاً استخدام الساعات جميعها. أنت تحرص على زهنتك ليتوافر لك في الشهر مجموع الهواء النقي اللازم، وقد ترددت في اختيار معطف تحمله معك والحوذي الذي ينبغي استدعاؤه، وإثك في العربة والنهار كله أمامك قصير المدى لأنك تبني أن تكون عدت في الوقت المناسب لاستقبال إحدى الصديقات، وتود أن يكون الطقس في الغد في مثل صحوه، ولا يخطر لك أن الموت الذي كان يسري فيك على مستوى آخر وسط ظلمة لا تنفذ إليها الأبصار قد اختار بالضبط هذا النهار ليدخل مسرح الأحداث بعد بضعة دقائق في اللحظة التي سيتبع فيها العربة تقريباً منطقة الـ«شانز إيليزيه». وربما وجد الذين يلاحقهم بالعادة هلع الغربة الخاصة بالموت شيئاً من الطمأنينة في هذا النوع من الموت - في هذا النوع من الاتصال الأول بالموت- لأنه يحمل فيه مظهراً معهوداً ومألوفاً ويومياً. لقد سبقه غداء طيب والزهرة نفسها التي يقوم بها الناس المعافون. إن عودة في عربة مكشوفة تنضاف إلى إصابته الأولى، ومهما يبلغ المرض من جدتي فقد كان بوسع عدة أشخاص أن يقولوا إنهم حيّوها، حينما عدنا من «الشانز إيليزيه». وهي تمر في عربة مكشوفة وفي طقس رائع. وقد حيّانا «لوغراندان» الذي كان يتجه إلى ساحة «الكونكور» بحركة أذاها بقبعته وهو يتوقف مستعجلاً. وسألت جدتي، أنا الذي لم يتجدد بعد عن الحياة، إن هي ردت عليه مذكراً إياها بأنه سريع التأثر. أما جدتي فقد ألفتني دونما شك شديد الطيش ورفعت يدها كأنها لتقول: «وماذا في الأمر؟ لا أهمية لذلك على الإطلاق».

أجل، كان يمكن القول منذ قليل، حينما كنت أبحث عن عربة، إن جدتي كانت تجلس على مقعد في شارع «غابرييل» وإنها مرت بعد ذلك بقليل في عربة مكشوفة. ولكن، أكان ذلك صحيحاً تمام الصحة؟ إن المقعد لا حاجة به، فيما يخصه، كيما يقيم في أحد الشوارع- مع أنه يخضع بدوره لبعض شروط التوازن- لقدرة معينة. ولكننا ينبغي، كيما يكون الكائن الحي مستقراً وإن استند إلى مقعد أو داخل عربة، تؤثر قوى لانحس بها عادة أكثر مما نحس بالضبط الجوي (لأنه يتم في جميع الاتجاهات). وربما شعرنا، لو تحقق، الفراغ في داخلنا وتركنا نتحمل ضغط الهواء، ربما شعرنا في أثناء اللحظة التي تسبق تدميرنا بالثقل الرهيب الذي لا يعطله شيء من بعد. كذلك حينما تنفتح فينا هاويات المرض والموت ولا يظل لدينا من بعد ما نضعه قبالة الضوضاء الذي يكرّ به علينا العالم وجسدنا نفسه، اقتضانا حينذاك حتى نحمل فكرة عضلاتنا، حتى العشة التي تزرع الدمار في مخاينا، حتى الوقوف بلا حراك في مانتظنه عادة محض الوضع السليبي للشيء اقتضانا حينذاك، إن شئنا أن نظل الرأس قائماً والنظرة هادئة، طاقة حيوية وأصبح موضع عراك مضن.

ولئن نظر إلينا «لوغراندان» بهذه الهيئة المستعجبة فلأن جدتي ظهرت له ولجميع الذين كانوا يمرّون حينذاك على السواء، ظهرت، في العربة التي كانت تبدو جالسة فيها على المقعد، كأنها تهوي، كأنها تنزل

إلى الهاوية وتشتبث يائسه بالمساند التي تكاد لا تستطيع احتجاز جسدها المندفع، والشعر منكوش والعين شاردة لا تقوى من بعد على مجابهة كَرّ الصور التي لم تعد حدقتها تفلح في حملها. لقد ظهرت، مع أنها بالقرب منّي، غارقة في هذا العالم المجهول الذي سبق أن تلقّت في صميمه الضربات التي كانت تحمل آثارها حينما شاهدتها منذ قليل في «الشانزليزيه» وقد عبث بقبعتها ووجهها ومعطفها يد الملاك الخفي الذي صارعه.

لقد خطر لي مذ ذاك أن تلك اللحظة من النوبة التي أصابت جدتي لا بدّ لم تفاجئها تمام المفاجأة، بل لعلّها توقعتها قبل الأوان بفترة طويلة وعاشت في انتظارها. هي لم تعلم دونما ريب متى تحلّ تلك اللحظة الختومة وبها حيرة، مثلها في ذلك مثل العشاق الذين يدفعهم شكّ من ذات القبيل إلى أن يبنوا آمالاً غير معقولة تارة وطوراً شكوكاً ليس لها ما يبررها حول إخلاص عشيقتهم. على أنه يندر لمثل تلك الأمراض الجسيمة الشبيهة بذلك الذي أصابها في نهاية المطاف إصابة صريحة ألا تتخذ مسكناً لها فترة طويلة لدى المريض قبل أن تقتله وألا تحمله في أثناء تلك الفترة، شأن جار أو مستأجر سريع الصلة بالغير، إلى التعرف بها. وإنه لتعارف رهيب، وأقلّ رهبة من جراء الآلام التي يسببها منه من جراء الجدة الغريبة للقيود النهائية التي يفرضها على الحياة. فأنك تبصر ذاتك تموت في هذه الحالة، لا في لحظة الموت نفسها، بل قبل ذلك بشهور وأحياناً بسنين منذ أن أقبل بقبحة ليسكن لدينا. إن المريضة لا تعرف شكله ولكنها تستخلص عاداته من الضجيج الذي تسمعه يحدثه بانتظام. فهل هو فاعل سوء؟ إنها ذات صباح لا تسمعه من بعد. لقد مضى. أه! لو يدوم الأمر أبداً فما هو ذا في المساء قد عاد. ماهي مقاصده؟ ويوجب الطبيب المستشار بعدما يطرح عليه السؤال يوجب كعشيقة معبودة بأيام تصدّق هذا اليوم ويرتاب بها في ذاك. والطبيب على أي حال يؤدي دور الخدم المساءلين أكثر منه دور العشيقة. فليس الخدم إلا السوى. أما تلك التي نشدها إلينا، والتي نشكّ أنها على شفا أن تخوننا، فهي الحياة بعينها، ومع أننا لا نشعر من بعد أنها لا تزال ذاتها فإننا نظلّ نؤمن بها. نظلّ في جميع الأحوال سجناء الشكّ إلى اليوم الذي تكون فيه قد هجرتنا.

وضعت جدتي في مصعد الأستاذ... وبعد لحظة أقبل إلينا وأدخلنا إلى مكتبه. ولكنه وإن يكن معجلاً فقد تبدّلت هنا هيئته المتعجرفة لشدة ما العادات قوية، وكان من عادته أن يكون لطيفاً مع مرضاه، وحتى ممزاحاً. ولما كان يعرف جدتي طويلة الباع في الثقافة وكان هو على ذاك فقد أخذ يروي لها على مدى دقيقتين أو ثلاث أبياتاً جميلة حول الصيف المشرق الذي كان سائداً. وكان قد أجلسها فوق كنبه وظلّ بعكس الضوء كي يحسن رؤيتها. وجاء فحصه دقيقاً واقتضى حتى أن أخرج برهة. وتابعه أيضاً ثم شرع، بعدما انتهى ومع أن ربع الساعة قارب النهاية، يعيد على جدتي بعض الاستشهادات. ووجه إليها حتى بعض المزاحات المرهفة إلى حدّ ما والتي لعلني كنت فضلت سماعها في يوم آخر وذكرت حينذاك أن السيّد «فالير» رئيس مجلس الشيوخ أصيب منذ عدّة سنوات بنوبة كاذبة وأنه أخذ بعد ثلاثة أيام، والياس يطبق على منافسيه، يمارس وظائفه من جديد وكان يعدّ، فيما يقولون، لترشيح بعيد أو قريب لرئاسة الجمهورية. وازدادت ثقتي بشفاء جدتي السريع تماماً بقدر ما انتشلتني، لحظة كنت أتذكر مثال السيّد «فالير»، من فكرة هذه المقاربة قهقهة صريحة ختمت مزحة للأستاذ... وإذ ذاك أخرج ساعته وقطّب الحاجب باضطراب إذ رأى أنه تأخّر خمس دقائق، وفيما كان يستودعنا رنّ الجرس كي يجيئوه في الحال بردائه. وتركت جدتي تمرّ أمامي وأغلقت الباب وسألت العالم الحقيقة. فقال لي:

- «جَدَّتْكَ مَيُوسُ منها. إِنَّهَا نَوْبَةُ نَاجِمَةٍ عَنْ تَسَمُّ بُولِي. وَلَيْسَ التَّسَمُّ الْبُولِيَّ فِي حَدِّ ذَاتِهِ مَرَضًا قَاتِلًا بِالضَّرُورَةِ وَلَكِنَّهُ الْحَالَةُ تَبْدُو لِي مَيُوسًا مِنْهَا. لَاحَاجَةٌ لِي أَنْ أَقُولَ لَكَ إِنَّي أَمَلُ أَنْ أَكُونُ مَخْطُئًا. أَنْتُمْ مَعَ «كُونَار» بَيْنَ أَيْدِ أَمِينَةٍ». ثُمَّ قَالَ لِي وَهُوَ يَبْصُرُ خَادِمَةً تَدْخُلُ وَتَحْمِلُ عَلَى ذِرَاعِهَا رِداءَ الْأُسْتَاذِ الْأَسْوَدَ: «مَعْدَرَةٌ، أَنْتِ تَعْلَمُ أَنِّي أَتَنَاوَلُ طَعَامَ الْعِشَاءِ فِي مَنْزِلِ وَزِيرِ التَّجَارَةِ وَعَلَيَّ أَنْ أَقُومَ بِزِيَارَةٍ قَبْلَ ذَلِكَ. آه! لَيْسَتْ الْحَيَاةُ وَرُودًا فَحَسْبُ، كَمَا يَظُنُّونَ ذَلِكَ فِي سِنِّكَ».

وَمَدَّ إِلَيَّ يَدَهُ بِلُطْفٍ. كُنْتُ قَدْ أَغْلَقْتُ الْبَابَ فِيمَا يَقُودُنَا خَادِمٌ أَنَا وَجَدَّتِي عَبْرَ غُرْفَةِ الْإِنْتِظَارِ حِينَمَا سَمِعْنَا صِيحَاتِ غَضَبٍ كَبِيرَةٍ. فَقَدْ كَانَتْ الْوَصِيفَةُ نَسِيَتْ أَنْ تَتَقَبَّ الْعُرْوَةَ لِلْأُوسَمَةِ، وَالْأَمْرُ سَيَتَطَلَّبُ عَشْرَ دَقَاقَتَيْنِ أُخَرَى. كَانَ الْأُسْتَاذُ يُوَالِي صَرَاحَهُ فِيمَا كُنْتُ أَتأملُ عَلَى صَحْنِ الدَّرَجِ جَدَّتِي الْمَيُوسُ مِنْهَا. كُلُّ أَمْرٍ وَحِيدٍ تَمَامًا وَمُضِينًا ثَانِيَةً إِلَى الْبَيْتِ.

كَانَتْ الشَّمْسُ آخِذَةً فِي الْأَفُولِ، وَكَانَتْ تَلْهَبُ جِدَارًا لَا يَنْتَهِي يَنْبَغِي لِعَرَبَتِنَا أَنْ نَحَافِظَهُ قَبْلَ الْوُصُولِ إِلَى الشَّارِعِ الَّذِي كُنَّا نَقُطِنُ فِيهِ، جِدَارًا يَبْرُزُ عَلَيْهِ أَسْوَدٌ عَلَى خَلْفِيَّةٍ ضَارِبَةٍ إِلَى الْحُمْرَةِ، كَعَرَبِيَّةٍ مَوْتَى عَلَى فَخَّارٍ مِنْ «بُومِيي». ظَلَّ الْحِصَانُ وَالْعَرَبِيَّةُ الَّذِي يَسْقُطُهُ الْغُرُوبُ. وَأَخِيرًا وَصَلْنَا. وَأَجْلَسْتُ الْمَرِيضَةَ فِي أَسْفَلِ الدَّرَجِ فِي الرَّدْءَةِ وَصَعِدْتُ أَخْطَرُ وَالِدَتِي. قُلْتُ لَهَا إِنْ جَدَّتِي تَعُودُ وَبِهَا وَعَكَّةٌ بَسِيطَةٌ إِذْ قَدْ أَصْبَحْتُ بِدَوَارٍ. وَمِنْذُ كَلِمَاتِي الْأُولَى بَلَغَ وَجْهُ أُمِّي ذُرُوءَةً يَأْسُ بِدَتْ تَسَلِّمُ بِهِ مَعَ ذَلِكَ إِلَى حَدِّ بَعِيدٍ أَدْرَكْتُ مَعَهُ أَنَّهَا كَانَتْ تَحْتَفِظُ بِهِ مِنْذُ سَنَوَاتٍ كَثِيرَةٍ جَاهِزًا فِي دَاخِلِهَا مِنْ أَجْلِ يَوْمٍ غَيْرٍ مُعَيَّنٍ وَأَخِيرٍ. وَلَمْ تَسْأَلْنِي شَيْئًا؛ كَانَ يَبْدُو، مِثْلَمَا يَحْلُو لِلأُذْيَةِ أَنْ تَبَالِغَ فِي آلامِ الْآخَرِينَ، أَنَّهَا لَمْ تَشَأْ، بِدَاعِيِ الْحَنَانِ، أَنْ تَسَلِّمَ بَأْنَ وَالدَّتْهَا مَصَابَةَ إِبْصَابَةِ الْبَالِغَةِ، وَلَا سِيَّمَا بِمَرَضٍ يُمْكِنُ أَنْ يَمَسَّ الْعَقْلَ. كَانَتْ وَالِدَتِي تَرْتَعْشُ وَيَكِي وَجْهَهَا دُونَمَا دُمُوعٍ، وَحَجَرَتْ تَقُولُ أَنْ يَذْهَبُوا فِي طَلَبِ الطَّبِيبِ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَسْتَطِعْ الْإِجَابَةَ إِذْ كَانَتْ «فَرَانْسَوَاز» تَسْأَلُ مَنْ كَانَ مَرِيضًا، وَتَوَقَّفَتْ صَوْتَهَا فِي حَنْجَرَتِهَا. وَانْحَدَرْتُ تَجْرِي مَعِي وَهِيَ تَزِيلُ عَنْ مِحْيَاها الرُّفْرَةَ الَّتِي تَغْضُنُهُ. كَانَتْ جَدَّتِي تَنْتَظِرُ فِي الْأَسْفَلِ عَلَى أَرِيكَةِ الرَّدْءَةِ وَلَكِنَّهَا اعْتَدَلَتْ مَا أَنْ سَمِعْتُنَا وَنَهَضَتْ وَاقْفَةً وَلَوَّحَتْ لَوَالِدَتِي بِأَشَارَاتٍ مَرَحَةٍ مِنْ يَدِهَا. وَكُنْتُ قَدْ أَحْطَطْتُ رَأْسَهَا نِصْفَ إِحَاطَةٍ بِخَمَارٍ مِنَ الدَّائِتِيلَا الْبَيْضَاءِ قَاتِلًا لَهَا إِنْ الْغُرْضُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ لَا يَصِيبَهَا الْبَرْدُ فِي الدَّرَجِ. فَمَا كُنْتُ أُرِيدُ أَنْ تَلَاظِحَ أُمِّي كَثِيرًا امْتِقَاعَ الْوَجْهِ وَالتَّوَاءِ الْفَمِ؛ وَجَاءَتْ حَيْطَتِي عَدِيمَةُ الْجَدْوَى، فَقَدْ اقْتَرَبَتْ أُمِّي مِنَ الْجَدَّةِ وَقَبَّلَتْ يَدَهَا وَكَأَنَّمَا يَدُ إِلَهِهَا وَسَانِدَتِهَا وَحَمَلَتِهَا إِلَى الْمَصْعَدِ بِصَنْوَفٍ مِنَ الْحِيطَةِ لِاحِدَةٍ لَهَا نَجْدٌ فِيهَا إِلَى جَانِبِ خَشْيَةِ أَنْ تُكُونَ هُوَجَاءَ وَتُؤْذِيهَا تَوَاضِعَ مَنْ يَحْسُنُ أَنَّهُ غَيْرُ أَهْلِ الْمَلَامَةِ مَا يَعْلَمُ أَنَّهُ أَثْمَنُ الثَّمِينِ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَرْفَعْ عَيْنَيْهَا مَرَّةً وَلَا نَظَرَتْ لِي وَجْهَ الْمَرِيضَةِ. رُبَّمَا كَانَ ذَلِكَ كَيْ لَا تَغْتَمَّ هَذِهِ وَهِيَ تَظُنُّ أَنْ رُؤْيَها أُمْكِنُ أَنْ تَقْلُقَ ابْنَتِهَا. وَرُبَّمَا مَخَافَةٌ أَلَمٍ بِالْغِ الْغِنْفِ لَمْ تَجْرُؤْ عَلَى مُوَاجَهَتِهِ. وَرُبَّمَا بِدَاعِيِ الْإِجْلَالِ لِأَنَّهَا لَا تَعْتَقِدُ أَنَّهُ يَسْعَاهَا دُونَمَا عَقُوقٍ أَنْ تَلَاظِحَ أَثَرُ أَيِّ وَهْنٍ عَقْلِيٍّ عَلَى الْوَجْهِ الْمَكْرَمِ. وَرُبَّمَا كَيْ تَحْفَظَ فِيمَا بَعْدَ عَلَى حَالِهَا وَعَلَى نَحْوِ أَفْضَلِ صُورَةٍ وَجْهَ أُمِّهَا الْحَقِيقِيِّ يَشَعُّ ذِكَاؤُهَا وَطَبِيعَةٍ. وَهَكَذَا صَعِدَا الْوَاحِدَةَ إِلَى جَانِبِ الْأُخْرَى، تَخْتَفِي جَدَّتِي خَلْفَ خَمَارِهَا وَتُشِيعُ وَالِدَتِي بِعَيْنَيْهَا.

وَفِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ كَانَ ثَمَّةُ شَخْصٍ لَا يَرْفَعُ عَيْنَيْهِ عَمَّا يُمْكِنُ أَنْ يُسْتَشْفَى مِنْ مَلَامَحِ جَدَّتِي الْمُتَغَيِّرَةِ الَّتِي لَا تَجْرُؤُ ابْنَتِهَا أَنْ تَرَاهَا، شَخْصٌ يَثْبِتُ عَلَيْهِمَا نَظْرَةً دَهْشَةً وَفُضُولَ وَشَوْمٍ: إِنَّهَا «فَرَانْسَوَاز». وَلَيْسَ يَعْنِي ذَلِكَ أَنَّهَا

لا تحبّ جدّتي حبّاً صادقاً (بل هي خاب ظنّها وأثار استنكارها برودة والدتي وكانت تودّ لو رأتها ترتدي باكية بين ذراعي والدتها)، ولكنّما كان بها ميل إلى توقّع الأسوأ أبداً واحتفظت من طفلتها بخاصيتين تبدوان وكأنّما ينبغي أن تتنافيا ولكنّهما حينما تجتمعان تقوي إحداهما الأخرى، عينا قلة تهذيب عامّة الناس الذين لا يحاولون إخفاء الإنطباع، بل الرعب المؤلم الذي تبعثه رؤيّة تبدل جسمي ربّما كان أكثر لباقة أن لا يبدو المرء وكأنّه يلاحظه، والخشونة البعيدة عن الإحساس لدى الفلاحة التي تنتزع أجنحة اليعاسيب قبل أن تتوافر لها فرصة دقّ أعناق الفراريج وينقصها الاحتشام الذي قد يحملها على إخفاء الاهتمام الذي تحسّ به لرؤية الجسد الذي يتعدّب.

حينما تمّ وضع جدّتي في سريرها بفضل عناية «فرانسواز» الثامّة. تبينت أنّها كانت تتكلّم بسهولة أكبر إذ لا بدّ أن التمرّق الضئيل أو الاختناق الذي أحدثه التسمّم البولي في أحد الأوعية كان طفيفاً جداً حينئذ شاءت ألا تكون بعيدة عن أمّي وأن تعينها في أقسى ما لعلّ هذه الأخيرة اجتازت من لحظات.

وقالت لها، وهي تأخذ يدها وتمسك بالثانية أمام فيها كي توفرّ هذا السبب الظاهر للصعوبة الطفيفة التي لا تزال تعاني منها في لفظ بعض الكلمات: «ماذا، يا ابنتي! أهلكذا ترئين لحال أمك! أراك تظنين أن ليس يزعج سوء الهضم!».

حينئذ حطّت عينا والدتي للمرّة الأولى بحرارة على عيني جدّتي إذ لا ينبغي أن تبصر بقية وجهها وقالت وهي تبدأ لائحة تلك الأيمان الكاذبة التي لا نستطيع البرّ بها:

- «سوف تشفين عمّاً قريب يا أمّي، ذلك عهد على ابنتك».

واحتسبت أشدّ حبّها وكامل مبتغاها لأن تشفى والدتها في قبلة استودعتها إيّاها وراقفتها بفكرها وبكلّ كيانهما حتّى حافة شفّتها وأقبلت تطبعها بتواضع وورع على الجبين الحبيب.

كانت جدّتي تشكو من نوع من انحراف الأغطية وكان يتمّ على الدوام في الجهة نفسها على ساقها اليسرى وما كانت تفلح في رفع تلك الأغطية. على أنّها لم تكن تتبيّن أنّها كانت هي السبب (حتّى أنّها اتّهمت في كل يوم «فرانسواز» زوراً أنّها تسيء ترتيب سريرها). فقد كانت تلقي بحركة تشنجية في ذلك الجانب كامل سيل تلك الأغطية المزبلة التي من صوف ناعم والتي كانت تتكدّس فيه كالرمال في خليج صغير سرعان ما يستحيل شاطئاً رملياً (إن لم نبين فيه سداً) من جرّاء أجلاب الموج المتعاقبة.

أمّا أنا (الذي كان كذبه يُكتشف سلفاً على يد «فرانسواز» الثاقبة النظرة والمسيسة) وأمّي فما كنّا حتّى نبغي أن نقول إنّ جدّتي مريضة جدّاً كما لو أمكن ذلك أن يسرّ الأعداء، ولا أعداء لها على آية حال، وكما لو بدا أكثر حناناً أن نجد أنّها ليست سيّقة الحال إلى هذا الحدّ. وذلك باختصار القول بالإحساس الغريزي نفسه الذي حملني على افتراض أن «أندريه» كانت تفرط من الرثاء لحال «أليبرتين» كيما تحبّها كثيراً. وإنّ الظاهرات نفسها تتكرّر من خاصّة الناس إلى الجمهور في الأزمان الكبيرة. إنّ الذي لا يحبّ بلاده لا يتناولها بسوء في الحرب ولكنّما يعتقد أنّها هالكة ويرثي لحالها ويرى الأمور بلون السواد.

كانت «فرانسواز» تؤدّي لنا خدمة لحدود لها بقدرتها على الاستغناء عن النوم وأداء أكثر الأشغال مشقة. فإن اضطرت، بعدما ذهبت لتنام عدّة ليال أمضتها واقفة، أن تناديها ربع ساعة بعدما أخذها النوم، كانت سعيدة أن تستطيع أداء أمور شاقّة كما لو كانت أبسط مافي العالم إلى حدّ تبدي معه على وجهها الرضى والتواضع بدلاً من أن تمتنع. فأما حينما تخلّ ساعة القداس وساعة الإفطار فتلعلّ «فرانسواز» كانت تتوارى في الوقت المناسب كي لا تتأخّر وإن كانت جدّتي في طور النزاع. وما كانت تستطيع ولاهي تريد أن يحلّ محلّها خادمها الشاب. أجل، لقد حملت من «كومبريه» فكرة رفيعة جدّاً عن واجبات كلّ واحد تجاهنا، وما كانت لتسمح أن يقصّر أحد خدمننا في احترامنا. وقد جعل ذلك منها مربية كريمة متجربة فعالة إلى حدّ أنّه لم يتفق أن كان لدينا خدام مفسدون إلى حدّ بعيد لم يبدلوا وينقروا بسرعة مفهومهم للحياة إلى حدّ أنّهم لا يقبضون فلساً واحداً من بعد ويسارعون - مهما كانوا قليلي المروءة حتى ذاك - كي يأخذوا من يديّ آية رزمة ولا يدعوا لي أن أتعب في حملها. إلا أن «فرانسواز» كانت قد اتّخذت في «كومبريه» أيضاً - وحملت معها إلى باريس - عادة ألا تطيق احتمال آية مساعدة في عملها. فأن ترى من يمدّ لها يد العون كان في نظرها إهانة توجه إليها وقد ظلّ بعض الخدم أسابيع دون أن يحصلوا منها على ردّ على تحيتهم الصباحية، بل هم ذهبوا لقضاء العطلة دون أن تودّعهم ودون أن يحزروا لماذا، والأمر بالحقيقة لحضّ أنّهم أرادوا أن يقوموا بشيء من عملها في يوم كانت فيه متوقعة. وفي هذه الفترة التي كانت فيها جدّتي في أسوأ حال كان عمل «فرانسواز» يبدو لها ملك يديها على نحو خاصّ. فما كانت تريد، هي صاحبة الحقّ، أن تسمح بسرقة دورها في هذه الأيام الاحتفالية وما كان خادمها الشاب الذي استعملته يعلم ما يفعل وقد أخذ، إذ لم يكتف بأنه أخذ أوراقاً من مكتبي على غرار «فيكتور»، أخذ إلى ذلك يحمل معه مجلّدت شرعية من مكتبي. وكان يقرؤها، على مدى نصف نهار ويزيد، داعي الإعجاب بالشعراء الذين ألفوها وكما يرصّع كذلك في الجزء الآخر من وقته بالشواهد الرسائل التي كان يسطرها لأصدقائه في القرية. كان يأمل بالتأكيد أن يهرمهم بذلك. بيد أنّه لما كان قليل الترابط في أفكاره فقد شكّل في ذاته هذه الفكرة التي قوامها أن تلك القصائد التي وجدها في مكتبي كانت أمراً يعرف سائر الناس ومن الشائع العودة إليه، فكان بذلك إذ يكتب إلى هؤلاء الفلاحين الذين يتوقّع إذهالهم يمزج أفكاره الخاصة بأبيات لـ «لامارتين» كما لعلّه كان قال: من يعيش يرّ، أو حتّى: صباح الخير.

سُمِحَ لجدّتي بالمورفين بسبب ما تعاني من آلام: ولئن كان هذا الأخير يسكنها فقد كان لسوء الحظّ يزيد كذلك من كمية الزلال. فالضربات التي كنّا نوجهها للداء الذي سكن داخل جدّتي كانت تخطئ الهدف أبداً، فهي التي كانت تتقبّلها، وكذلك جسدها المسكين الذي حلّ بين الداء والدواء، دون أن تشتكي إلاّ بأنين ضعيف. وما كانت الآلام التي نسببها لها، ما كانت تستعاض بخير لانستطيع أن نوقره لها. والداء الشرّس الذي ودنا لو نقضي عليه لم نلامسه إلاّ قليلاً وكنّا نزيد فحسب من حدّته وربما استعجلنا الساعة التي ستفترس فيها السجينة. كان «كوتار» يرفض المورفين، بعد تردّد، في الأيام التي يتجاوز فيها الزلال الحدّ. فقد كان لدى هذا الرجل التافه إلى حدّ بعيد والعاديّ إلى حدّ بعيد، في هذه اللحظات القصيرة التي يتفكّر فيها والتي تتصارع فيها في صدره مخاطر علاج وآخر إلى أن يتوقّف عند أحدهما، كان لديه ما يشبه عظمة جنرال يثير مشاعرك، هو العامّي في باقي الحياة، بقراره لحظة يحيق الخطر بمصير الوطن، حينما يخلص بعدما تردّد

لحظة إلى ما كان أكثر الأمور حكمة على الصعيد العسكري فيقول: «اصمِدُوا شرقاً». كان ينبغي على الصعيد الطبي، مهما قلَّ الأمل في وضع حدٍّ لنوبة التسمم البوليّ هذه، ألا تَرْهَقَ الكلية. بيد أن أوجاع جِدَّتِي كانت لاتطاق من جهة أخرى حينما لايتوافر لها المورفين، وكانت تكرر دونما انقطاع حركة يصعب عليها تحقيقها دون أنين: فالألم في جزء كبير منه ضرب من حاجة الجسم إلى أن يعي حالة جديدة تقلقه، وأن يجعل الإحساس مطابقاً لهذه الحالة. ويمكن تمييز منشأ الألم هذا في حال مرعجات ليست كذلك بالنسبة إلى سائر الناس. ففي غرفة ملاءى بدخان ثاقب الرائحة يدخل رجلان فظان ويقومان بأعمالهما، وييدي ثالث أدقّ بنية اضطراباً لاينقطع. فلن يتوقف منخره عن أن يستنشق بقلق الرائحة التي ينبغي، فيما يبدو، أن يحاول إغفال شَمِّها والتي يجهد في كلِّ مرّة أن يلصقها بفضل معرفة أكثر دقّة بحاسة شَمِّه المزعوجة. من ذلك ينشأ دونما شك أن اهتماماً شديداً يحول دون أن نشتكى من ألم أسنان عنيف. فحينما كانت جِدَّتِي تتألم على هذا النحو كان العرق ينساب على جبينها الواسع البنفسجي الشاحب ويلصق به الخصل البيضاء، فإن ظنّت أننا لسنا في الغرفة أطلقت صرخات: «آه! ما أظنّ ذلك!» ولكنها إن لحت أمّي استخدمت في الحال كامل قوتها لتمحو عن وجهها آثار الألم أو ردّدت على العكس الأثبات نفسها وترافقها بايضاحات تصفي رجعيّاً معنى آخر على تلك التي أمكن أن تسمعها أمّي:

- «آه! يا ابنتي، إنّه لأمر فظيح أن يظلّ المرء طريحاً في هذا الطقس المشمس الجميل حينما يؤدّ الذهاب في نزهة، إنّي أبكي حنقاً من إرشاداتكم».

ولكنّها لم تكن تستطيع الحيلولة دون أنين نظراتها وعرق جبينها والانتفاضة المشتجّة في أعضائها والتي تكتسها في الحال.

- «ليس بي ألم، إنّي أشكو لأنّي راقدة على نحو غير مريح وأحسّ شعري مشعثاً ويوجعني بطني وقد ارتطمت بالجدار».

أمّا أمّي، وهي على حضيض السرير مشدودة إلى ذاك الألم كما لو انبغى لها في النهاية، لشدة ما تخترق بنظرها هذا الجبين الموضع، هذا الجسد الذي يحتوي الداء، أن تبلغه وتحمله، فكانت تقول:

- «لا، يا أميتي، لن ندعك تتألمين على هذا النحو، سوف نجد شيئاً، فنجملّي بالصبر ثانية، وهل تسمحين أن أعانقك دون أن يقع عليك القيام بحركة؟».

وإذ تنحني فوق السرير مثنيّة الساقين نصف جاثية كما لو يتوافر لها، كلما ازدادت اتّضاعاً، حظ أكبر في أن يقبل جودها المحموم بذاتها، كانت تميل على جِدَّتِي بكامل حياتها تحمّلها في وجهها وكأنّما في كأس قربان تمدّها إليها، كأس ازدانت بنقوش بارزة من غمّايزات وتجاعيد حارة حزينة عذبة إلى حدّ لا تعلم معه إن كان قد حفرها فيه لإزميل قبله أم زفرة أم إيتسامة. كانت جِدَّتِي بدورها تحاول أن تمدّ وجهها صوب أمّي، وكان قد تغيّر إلى حدّ أنّها ما كانت لتعرف دونما شك، لو توافرت لها القدرة على الخروج، إلا من ريشة قَبْعَتِها. كانت ملامحها تبدو وكأنّما تجدّ، كما هي الحال في جلسات صنع النماذج، من خلال جهد يصرفها عن كل ماتبقّى، في مطابقة نموذج ما كنّا نعرفه. وكان عمل المثال هذا يقارب نهايته ولئن تقلّص

وجه جدتي فقد تصلب كذلك. وكانت الأوردة التي تخترقه تبدو وكأنها لاعروق المرمر بل عروق حجر أكثر خشونة. ولما كانت تنحني أبداً إلى الأمام من جرأ صعوبة التنفس فيما تنطوي على ذاتها في الوقت نفسه من جرأ التعب فقد كان وجهها الخشن المقلص المعبر إلى حد فظيع يبدو وكأنه، في نحت قديم يقارب أن يرتقي إلى ما قبل التاريخ، الوجه الخشن الضارب إلى البنفسجي الأصهب اليأس لحارسه قبر متوحشة. ولكن العمل لم يكن قد أنجز بكامله، ولا بد بعد ذلك من تحطيمه ثم إنزاله في هذا القبر - الذي تمت حراسته بهذا القدر من المشقة وهذا التشنج القاسي -.

وفي واحدة من تلك اللحظات التي لا يدري المرء من بعد فيها إلى أي شنيع يلجأ حسبما يقول سواد الناس، وبما أن جدتي كانت تسعل وتعطس كثيراً، تبعا مشورة قريب كان يؤكد أن الأمر ينتهي في ثلاثة أيام بواسطة الأخصائي من... إن رجال المجتمع يقولون ذلك عن طبيهم ونصدقهم مثلما كانت «فرانسواز» تصدق دعايات الصحف. وجاء الأخصائي بحقيقته المثقلة بجميع رشوحات زبائنه، شأن قرية «أبولوس»^(١). ورفضت جدتي رفضاً قاطعاً أن تسمح بفحصها.

أما نحن الذين أصابهم الإزعاج من أجل هذا الطبيب الذي كلف نفسه عناء الجيء بلا جدوى، فقد انصعنا للرغبة التي عبر عنها في فحص أنف كل منا مع أنه لم يكن به شيء. وكان يزعم أن بلى وأن الأمر مرض في الأنف أسوأ فهمه سواء أكان شقيقة أم مفعصاً، وداء في القلب أم داء السكري. وقد قال لكل واحد منا: «هذا قرين يسرني أن ألتقيه ثانية. فلا تنتظر أكثر من اللازم، وسوف نخلصكم بوضع وخوات بالنار». كنا نفكر بالتأكد في أمر مختلف أتم الاختلاف. ومع ذلك فقد تساءلنا قائلين: «ولكن نتخلص من أي شيء؟» وخلاصة القول إن أنوفنا كلها كانت مريضة، ولم يخطئ إلا وضعه الأمر في الزمن الحاضر. ذلك أن فحصه وضماده المؤقت قد فعلا مفعولهما منذ الغد. فقد أصاب كل منا زكامه. وفيما كان يلاقي في الشارع والذي تهوّه نوبات السعال ابتسم لخطرة أن يستطيع جاهل الظن أن الداء ناشئ عن تدخله، إذا أقدم على فحصنا ساعة كنا مرضى.

لقد أفسح مرض جدتي لعدة أشخاص مجال إبداء إفراط في المودة أو تقصير فيها فاجأنا بقدر ما فاجأنا نوع المصادفة التي كان هؤلاء أو أولئك يكشفون لنا بها حلقات مناسبات أو حتى صنوف مودة لعلنا ما ارتبنا بوجودها. وكانت علامات الاهتمام التي يديها الأشخاص الذين كانوا يقبلون بدون انقطاع للتزود بالأخبار تكشف لنا عن خطورة الداء الذي لم تكن حتى ذلك قد عزلناه تماماً وفصلناه عن ألف من الانطباعات المؤلمة التي نحس بها بالقرب من جدتي. فلم تغادر أخواتها «كومبريه»، وقد أخطرن بريقاً، إذ سبق أن اكتشفن فناناً كان يقدم لهن حفلات من موسيقى الحجرة الممتازة التي يخلن أنهن واجدات في سماعها. أكثر مما يتوافر أمام سرير المريضة، خلوة نفسية وتسامياً مؤلماً بدا شكلهما غريباً على الدوام. وكتبت السيدة «سازرا» إلى والدتي، ولكن على نحو ما يفعل شخص فصلتنا عنه إلى الأبد خطوبة فسخت فجأة (والفسخ كان الاتجاه «الدريفوسي»). وفي مقابل ذلك جاء «بيرغوت» فقضى كل يوم عدة ساعات معي.

(١) Eole إله الرياح ومحرك العواصف لدى قدماء الرومان.

لقد أحبّ دوماً أن يأتي ليقيم بعض الوقت في بيت واحد لا يقع عليه فيه تحتل المشقات. بيد أن ذلك كان فيما مضى كيماً يتحدث فيه دون أن يقاطعه أحد، أما الآن فليصمت طويلاً دون أن يطلب إليه الكلام. ذلك أنه كان مريضاً جداً؛ فالبعض يقولون من زلال في البول، شأن جلدتي، وكان به ورم حسبما يرى آخرون. وكان أخذاً في الضعف، فقد كان يصعد درجنا بصعوبة، وبصعوبة أكبر يهبطه. وكثيراً ما كان يتعثّر مع أنه يستند إلى الدرابزين وأظنه كان ظلّ في بيته لو لم يخش أن يفقد كلياً عادة بل امكان الخروج، هو، الرجل «ذو اللحية القصيرة» الذي سبق أن عرفته رشيقاً منذ وقت ليس بطويل. ولم يعد يبصر البتة وكثيراً ما كان يتلعثم في كلامه.

ولكنّما اتخذ مجمل مؤلفاته في الوقت نفسه، وعلى العكس تماماً، وكانت معروفة لدى المثقفين فحسب في الفترة التي كانت السيّد «سوان» ترعى فيها جهودها الخجولة في الانتشار، وأما الآن فقد عظمت في عيون الجميع وقويت، لقد اتخذ مجمل مؤلفاته قوّة انتشار خارقة لدى الجمهور العريض. وإنه يتفق دونما شك ألا يضحى الكاتب مشهوراً إلا بعد وفاته. إلا أنه كان يشهد، ولا يزال بعد حياً وفي أثناء تقدّمه البطيء نحو الموت الذي لم يبلغه بعد، تقدّم مؤلفاته نحو الشهرة. المؤلف المتوقّي مشهور على الأقلّ دونما مشقة، فإن إشعاع اسمه يتوقّف أمام شاهدة قبره. وفي صمّ النوم الأبدى لا يزعمه المجد ولكنّ النقيض لم يكن قد اكتمل كلياً بالنسبة إلى «بيرغوت»، فهو بعد يحيا بما يكفي ليتعذب من جرّاء الضجيج. وهو لا يزال يتحرك، وإن فعل بمشقة، فيما تسوق مؤلفاته كلّ يوم، طافرات كفتيات شجّهن ولكنّ شبابهنّ الجارف وضجيج ملذّاتهن يتعبانك، تسوق إلى حضنّ سريره معجبين جدداً.

أما الزيارات التي كان يقوم لنا بها الآن فتجيء في نظري متأخرة بضع سنوات إذ لم أعد معجباً به بالمقدار نفسه، الأمر الذي لا يناقض تعاطف شهرته ذاك. فنادر ما يتمّ فهم عمل أدبي وانتصاره دون أن يكون عمل كاتب آخر، ولا يزال مغموراً، قد شرع، لدى بعض أشخاص أكثر تشدداً، في إحلال ولع جديد محلّ ذاك الذي بلغ تقريباً حدود التسيد. ففي كتب «بيرغوت» التي كنت أعيد قراءتها كثيراً كانت جملة واضحة أمام عيني وضوح أفكارها ذاتها وأثاث غرفتي والعربات في الشارع. كلّ شيء كان يرى يسر فيها على الأقلّ مثلما تعود المرء أن يبصره الآن إن لم يكن على نحو ماراً أبداً. فإن كاتباً جديداً كان قد شرع ينشر مؤلفات كانت العلاقات بين الأشياء مختلفة فيها في نظري عن تلك التي تربط بينها إلى حدّ أنّي ما كنت أفهم شيئاً تقريباً ممّا يكتبه. كان يقول مثلاً: «كانت أنابيب السقاية تنظر باعجاب إلى حسن صيانة الطرق» (وهذا سهل فقد كنت انزل على امتداد هذه الطرق) «الطرق التي تنطلق كلّ خمس دقائق من «بريان» و«كلوديل»^(١). حينذاك كنت لا أفهم، لأنني توقعت اسم مدينة فيما يقدّم لي اسم شخص. بيد أنني كنت أحسّ أن ليست الجملة هي الرديئة الصياغة ولكنّما تنقصني أنا القوّة والرشاقة اللتان أبلغ بهما حدّ النهاية. فكنت أستعيد قواي وأستعين برجلتي ويدي لأصل إلى المكان الذي أبصر منه العلاقات الجديدة بين الأشياء. وفي كلّ مرة أعود، بعدما أصل إلى نصف الجملة تقريباً، فأسقط كما هي حالي فيما بعد في الكتيبة في

(١) Briand : رجل سياسة وخطيب مفوه (١٨٦٢ - ١٩٣٢). Claudel كاتب فرنسي شغل مناصب دبلوماسية، تصف كتبه بالشاعرية والعمق وروح الإيمان. (١٨٦٨ - ١٩٥٥).

التمرين المسمّى «الرجّاحة». ولا يحول ذلك دون أن أكنّ للكاتب الجديد إعجاب طفل أهوج يعطى درجة الصفر في الرياضة أمام طفل آخر أكثر براعة. ومذ ذاك تناقص اعجابي بـ«بيرغوت» الذي بدا لي صفاءه قصوراً. وقد حلت فترة كان الناس فيها يتعرّفون الأشياء تماماً حين كان «فرونتان» هو الذي يرسمها ولا يتعرّفونها من بعد إن كان «رنوار».

إنّ أهل الذوق يقولون لنا اليوم إن «رنوار» رسّام كبير من القرن الثامن عشر. ولكنهم إذ يقولون ذلك ينسون الزمن وأنّه انبغى الكثير منه حتّى في صميم القرن التاسع عشر كيما ينادى بـ«رنوار» فنناً كبيراً. وينحو الرسّام الأصيل والفنان الأصيل ليفلحاً في أن يعترف هكذا بهما نحو أطباء العيون. وليست المعالجة برسمهما وثرهما ممتعة دوماً. فحينما تنتهي يقول لنا الطبيب الممارس: انظروا الآن. فإذا العالم (الذي لم يخلق مرّة واحدة بل بقدر ما اتفق ثمة فنّان أصيل) يبرز مختلفاً كلياً عن القديم ولكنه واضح تماماً. وتمرّ نسوة في الشوارع مختلفات عن نسوة الأمس بما أنهنّ من لوحات «رنوار»، هذه اللوحات التي كنّا نرفض بالأمس أن نبصر فيها نسوة. والعربات كذلك من لوحات «رنوار»، والماء والسماء؛ وبهزّنا الشوق إلى التنزّه في الغابة المشابهة لتلك التي كانت تبدو لنا في اليوم الأوّل كلّ شيء ما خلا الغابة، كسجادة على سبيل المثال عديدة الألوان ولكنّها تنقصها بالضبط الألوان الخاصّة بالغابات. ذلك هو العالم الجديد الزائل الذي تمّ إيداعه منذ حين، وسوف يدوم حتّى الكارثة الجولوجية المقبلة التي يطلقها رسّام جديد أصيل أو كاتب جديد أصيل.

كان الذي حلّ في نظري محلّ «بيرغوت» يبعث فيّ السأم لامن جرّاء اللا ترابط، بل من جرّاء الجذّة وهي متماسكة تماماً في علاقات لم أعود متابعتها. وكانت النقطة التي لا تتغيّر والتي أحسنّي أعود إلى السقوط فيها تشير إلى هويّة كلّ حركة صعبة ينبغي القيام بها. وحينما كنت أستطيع، على آية حال، مرّة من ألف مرّة أن ألحق بالكاتب إلى آخر جملة فالذي كنت أرى كان أبداً من غرابة وصحّة وسحر شبيهة بتلك التي سبق أن وجدتها بالأمس في قراءة «بيرغوت» ولكنها أكثر عدوية. وفكرت أنّه لم ينقض العديد من السنين على تجديد مائل للعالم كان «بيرغوت» من جاءني به، تجديد شبيه بالذي انتظره من خلفه. وبلغ بي أن أتساءل إن كان ثمة شيء من الحقيقة في هذا التمييز الذي نقرّه على الدوام بين الفنّ الذي لم يتقدّم أكثر ممّا كان عليه في زمن هوميروس والعلم الذي يتقدّم باستمرار. فربّما مائل الفنّ على العكس العلم في ذلك؛ فقد كان كلّ كاتب أصيل جديد يبدو لي في تقدّم على الذي سبقه؛ ومن ذا يقول لي إنّّه لن يطلع، بعد عشرين عاماً، وحينما أحسن مرافقة جديد اليوم دون تعب، لن يطلع آخر ينطلق الحاليّ هارباً أمامه للحاق بـ«بيرغوت»؟

وحلّثتُ هذا الأخير عن الكاتب الجديد، فبعث في نفسي القرف منه بروايته لي أنّه رآه يشبه «بلوك» إلى حدّ يختلط فيه الأمر عليك أكثر منه بتأكيد لي أنّ فنّه خشن وسهل وفارغ. وارتسمت هذه الصورة مذ ذاك على الصفحات المكتوبة ولم أعد أعتقد أنّي ملزم من بعد بعناء فهمه. ولئن حلّثني «بيرغوت» عنه فإنّما كان ذلك أقلّ، فيما أعتقد، بداعي الغيرة من نجاحه منه من جرّاء الجهل بآثاره. فقد كاد لا يقرأ شيئاً، وكان معظم فكره قد مرّ من دماغه إلى كتبه. وكان به هزال كأنّما تمّ اقتطاعها منه. ولم تعد غريزته المولّدة تحثّه على النشاط الآن وقد دفع إلى الخارج كلّ ما كان يفكر فيه تقريباً. لقد كان يعيش الحياة الخاملة التي تعيشها ناقة

أو امرأة ولود. وكانت عيناه الجميلتان تلبثان جامدتين ومبهورتين إلى حدٍّ ما كعيني رجل مستقل على شاطئ البحر ينظر في تأملٍ حالمٍ إلى كلِّ موجةٍ صغيرةٍ فحسب. ولئن كنت أقلُّ اهتماماً بالتحدّث إليه مما لعلّني كنت بالأمر فما كنت على أيِّ حال أحسنُ بتأنيب الضمير لذلك، كان رجل عادات إلى حدٍّ أن أكثرها بساطة وأوفرها ترفاً على حدٍّ سوى كانت تضحّي، إمّا أتخذها، ضروريّةً له إلى حين. لست أدري ما الذي حمّله على المجيء أوّل مرّة ولكن الأمر بعد ذلك تمَّ كلُّ يومٍ للسبب أنّه جاء البارحة. كان يصل إلى البيت، كما لعلّه يذهب إلى القهوة، كي لا يتحدّث أحد إليه، وكيفما يستطيع التحدّث - والأمر نادر جدّاً -، إلى حدٍّ أنّه ما كان من الممكن في مجمل الأمر أن يجد إشارة إلى أنّه متأثر لغمناً أو هو يستمتع في التحدّث معي لو شاء المرء أن يستخلص شيئاً من مثل تلك المواظبة، على أنّها لم تكن غير ذات بال في نظر والدتي، وهي حسّاسة بكلِّ ما يمكن أن يؤخذ مأخذ التكريم لمريضتها. فكانت تقول لي كلَّ يوم: «لا تنس بوجه الخصوص أن تشكره أحسن الشكر».

ونعمنا بزيارة السيّد «كوتار»، كزيادة بالجنّان على الزيارات التي كان يوجد بها علينا زوجها - والأمر لفظة رقيقة من امرأة، كالعصرونية التي تقدّمها لنا بين جلستي رسم رفيقة أحد الرسّامين -. لقد جاءت تعرض علينا «وصيفتها» ؛ وتهمّ، إن فضلنا خدمات رجل، في المبادرة إلى البحث، ثمّ تقول، إن واجهناها بالرفض، إنّها تأمل على الأقل ألا يكون الأمر من جانبنا «هزيمة»، والكلمة تعني في عالمها حجة زائفة كي لا يقبل المرء بالدعوة. وأكّدت لنا أنّ الأستاذ الذي ما كان يتحدّث البتّة في بيته عن مرضاه كان حزينا حزنه لو كان الأمر أمرها هي. وسرّى فيما بعد أنّ ذلك، حتّى لو كان صحيحاً، لجاء قليلاً جدّاً أو كثيراً في الآن نفسه من جانب أقلّ الأزواج إخلاصاً وأكثرهم امتناناً.

وجاءتني عروض في مثل جدواها، ولكنّها أكثر تأثيراً في النفس بما لا يقاس في طريقتها (التي كانت مزيجاً من أرفع الذكاء وأوسع القلب ونادرة التوفيق في عبارتها) على لسان الدوق الأكبر وريث «لوكسمبور». وكنت قد عرفته في «باليك» حيث جاء لزيارة إحدى عمّاته، أميرة «لوكسمبور»، حين لم يكن بعد سوى الكونت «دو ناساو». لقد تزوّج بعد بضعة شهور الابنة الرائعة لأميرة أخرى من أميرات «لوكسمبور» فاحشة الثراء لأنّها كانت وحيدة أمير يملك تجارة ضخمة من الطحين. وعليه فإن دوق «لوكسمبور» الأكبر الذي لم يكن له بنون وكان يعبد ابن أخيه «ناساو» قد حمل المجلس على أن يوافق على إعلان الدوق الأكبر وريثاً. وكما هي الحال في جميع الزيجات التي من هذا القبيل فإن منشأ الثروة هو العقبة وهو إلى ذلك أيضاً السبب الفعّال. كنت أتذكر الكونت «دو ناساو» هذا على أنّه من ألمع الشبان الذين صادفتهم، قد تأكله مذّ ذاك حبّ رهيب وداو لخطيئته. لقد تأثّرت بأبلغ التأثير من الرسائل التي لم ينفكّ يسطرها لي في أثناء مرض جدّتي وأخذت والدتي بدورها، وقد اهتزّت مشاعرها، تعبد بأسى كلمة أمّها: ما كانت «سيفينييه» لتقول أفضل من ذلك.

وفي اليوم السادس اضطّرت أمّي، امتثالاً لتوسّلات جدّتي، أن تتركها حيناً وتظاهر بالذهاب طلباً للراحة. ووددت أن تمكث «فرانسواز» دون حركة كي تنام جدّتي. ولكنّها خرجت من الغرفة على الرغم من توسّلاتي ؛ لقد كانت تحبّ جدّتي، وقد حكمت بنفاذ بصيرتها وتشاؤمها أنّها هالكة. لقد ودّت إذن لو

تمنحها جميع صتوف العناية. بيد أنه جاء من قال إن هناك عامل كهرباء قديماً جذاً في مؤسسته وصهر رب عمله ويحظى بكامل التقدير في بنايتنا حيث كان يجيء للعمل منذ سنوات طويلة، ولاسيما من جانب «جويان». كانوا قد أوصوا على ذلك العامل قبل أن تمرض جدتي. وبدا لي أنه كان بالإمكان ترحيله أو مطالبته بالانتظار. ولكن قواعد المجاملات لدى «فرانسواز» ما كانت تسمح بذلك فلعلها كانت تخالف اللباقة، أما حالة جدتي فلم تعد في الحسبان. وحينما ذهبت، بعد مرور ربع ساعة، أبحث عنها في المطبخ وقد أخذني أشد الحق، لقيتها تتحدث إليه على «تريعة» درج الخدم الذي كان بابه مفتوحاً، والفضل في الطريقة أن تسمح، إن وصل أحدنا، بالتظاهر بافتراق وشيك، ولكن المزعج فيها التسبب في تيارات هوائية مريضة. وفارقت «فرانسواز» العامل إذن دون أن يكون فاتها أن تبعث بأعلى صوته بعض التحيات التي نسيها إلى زوجته وصهره. والاهتمام بيميز «كومبريه» في الابتعاد عن مخالفة اللباقة، وكانت «فرانسواز» تحمله حتى في السياسة الخارجية. يتخيل البلهاء أن الأحجام الضخمة للظاهرات الاجتماعية مناسبة ممتازة للتنفذ إلى مدى أبعد في النفس الإنسانية؛ وينبغي لهم على العكس أن يعلموا أنه ربما حالفهم الحظ في إدراك تلك الظواهر في الانحدار إلى اعماق الفرد. كانت «فرانسواز» قد رددت ألف مرة لبستاني «كومبريه» أن الحرب أشد الجرائم جنوناً وأنه لا يساورها شيء فيما عدا الحياة. ولكن حينما اندلعت الحرب الروسية اليابانية ضاقت نفسها ألا تكون، إزاء القيصر، قد دخلنا الحرب لمد يد العون «للروس المساكين»، «بما أننا متحلقون»، فيما تقول. لم تكن ترى ذلك من اللباقة حيال «نقولا الثاني» الذي خصصنا على الدوام «بكلمات في غاية الطيبة بالنسبة إليه»؛ وإنها لتنتيجة القواعد نفسها التي كانت حالت دون أن ترفض لـ «جويان» كأسا صغيراً تعلم أنه سوف «يعاكس هضمها»، والتي كانت تحملها، وهي قاب قوسين أو أدنى من وفاة جدتي. على الاعتقاد بأن الخسة نفسها التي تجرّم بها فرنسه إذ مكثت على الحياد حيال اليابان سوف تقع فيها إن لم تبادر وتعتذر بنفسها إلى عامل الكهرباء الطيب هذا الذي تحمّل الكثير من الإزعاج.

وما أسرع ما تخلصنا لحسن الحظ من ابنة «فرانسواز» التي وقع عليها أن تتغيب عدة أسابيع. فقد أضافت إلى النصائح العادية التي كانت تسدى في «كومبريه» إلى أسرة المريض: «لم تجربوا الرحلة الصغيرة، فتغيير الهواء، واستعادة الشهية، الخ» الفكرة الفريدة تقريباً التي كوّنتها على نحو خاص في ذهنها وكانت إلى ذلك ترددها كلما يرونها دونما كلل وكأنما لتغرسها في رأس الآخرين: «كان عليها أن تتعالج جذرياً منذ البداية». ما كانت توصي بنوع من الاستشفاء دون آخر بشرط أن يكون ذلك الاستشفاء جذرياً. أما «فرانسواز» فكانت ترى أن جدتي تعطى القليل من الأدوية. ربما أنها لا تنفع، في رأيها، إلا في تخريب المعدة فقد كانت سعيدة للأمر ولكنها فوق ذلك مدّة. لقد كان لها أبناء عم في الجنوب - أغنياء نسبياً - ماتت ابنتهم في الثالثة والعشرين بعدما أصابها المرض وهي في ريعان الشباب. وفي أثناء هذه السنوات القليلة بدد الوالد والوالدة أموالهما في الدواء والأطباء المختلفين والحلّ والترحال من مركز مياه حارة إلى آخر حتى الوفاة. على أن ذلك كان يبدو لـ «فرانسواز»؛ فيما يخصّ ذينك الوالدين، ضرباً من الترف كما لو امتلكا خيول سبق وقصرأ. حتى هما كانا يجدان، مهما بلغ بهما الحزن، شيئاً من الزهو لهذا القدر من الإنفاق. لم يظلّ لديهما شيء ولاسيما أثمن ما يملكان، ابنتهما، ولكنهما يحلو لهما أن يردّدا أنهما فعلاً من أجلها على قدر مايفعل أوفر الناس ثراء وأكثر. كانت الأشعة مافوق البنفسجية التي أخضعت الفتاة التعيسة لمفعولها عدة مرّات في اليوم وعلى مدى

شهور، كانت تدغدغ كبرياءهما على نحو خاص. وقد بلغ بالوالد، وهو مزهو في آلامه بضرب من الفخار، أن يروي عن ابنته وكأنما عن نجمة أوبرا بدد في سبيلها أمواله. ولم تكن «فرانسواز» عديمة الإحساس بمثل هذه المبالغة في الإخراج. فأما الذي يحيط بمرض جدتي فيبدو لها هزياً بعض الشيء وصالحاً لمرض على مسرح صغير في الريف.

وحلت فترة انتقل فيها التسمم البولي إلى عيني جدتي. ولم تعد تبصر على الإطلاق على مدى بضعة أيام. ولم تكن عينها البتة عيني عمياء وظلتا لا يتبدلان. وأدركت فقط أنها لا تبصر من غرابة ابتسامة ترحيب تملو شفيتها ما أن يفتح الباب إلى أن تأخذ يدها لتقرئها التحية، ابتسامة تبدأ قبل أوانها بكثير وتظل جامدة على شفيتها وثابتة ولكنها تواجهك أبداً وتجهد أن ترى من كل مكان لأنه لم يظل لها عون النظر كي ينظّمها ويعين لها اللحظة والاتجاه ويضبطها ويبدّلها كلما تبدّل مكان الشخص الذي دخل أو ملامح وجهه ؛ ولأنها تلبث وحيدة دون بسمة في العينين ربما صرفت عنها قليلاً اهتمام الزائر فتتخذ بذلك في إرباكها أهمية مفرطة تولي انطباعاتاً بلطافة مبالغ فيها. ثم عاد البصر تماماً وانتقل الداء الرخال من العينين إلى الأذنين. وعلى مدى بضعة أيام أضحت جدتي صماء. ولما كانت تخشى أن يفاجئها دخول أحدهم على حين غرة دون أن تكون سمعته يقبل إليها فقد كانت تدبر في كل لحظة رأسها نحو الباب على نحو مفاجئ (مع أنها تنام إلى جانب الجدار). ولكن حركة رقبته كانت مريكة لأن المرء لا يألّف في بضعة أيام هذا التحول، وهو إن لم يكن إيصار صنوف الضجة فعلى الأقل الإصغاء بالعينين. وأخيراً تناقصت الأوجاع ولكننا ازداد اضطراب الكلام. فكنا نضطر إلى حمل جدتي على تكرار كل ما نقوله تقريباً.

وأخذت جدتي، وقد أحست أننا لانفهمها من بعد، ترفض أن تتطرق بكلمة واحدة وتظل لاهرباً بها. وحينما كانت تلمحني كانت تتفص انتفاضة من يعوزهم الهواء فجأة وتود أن تكلمني ولكنها لا تلتفت إلا بأصوات لأفهم. حينئذ كانت تدع رأسها يهوي، وقد قهرها عجزها نفسه، وتتمدّد بطولها على السرير وفي الوجه وقار وجمود الرخام واليدان لاهرباً بهما فوق الشرف أو تهتم بحركة مادية بحثة كتشيف أصابعها بمنديلها. كانت لا تود أن تفكر. ثم أخذت تتناوب حركة مستمرة. فكانت ترغب دونما انقطاع في النهوض، ولكننا نمنعها قدر المستطاع من تحقيق ذلك مخافة أن تبين شللها. وفي يوم تركت فيه حيناً وحدها، وجدتها واقفة في ثوب النوم تحاول فتح النافذة.

لقد سبق أن قالت لي في «البليك» ذات يوم تمّ فيه غضباً إنقاذ أرملة ألفت بنفسها في الماء (وربما دفعها إلى القول واحد من صنوف الحسد التي نقرؤها أحياناً في خفايا حياتنا العضوية، مع أنها شديدة الإبهام، ولكننا يبدو أن المستقبل ينعكس فيها) إنها لا تعرف وحشية مماثلة لاتنزاع يائسة من الموت الذي أرادته وردها إلى شديد عذابها.

ولم يتسع لنا من الوقت أكثر من الأسماك بجدتي وقامت بعراك قارب الشراصة مع والدتي، وبعدما غلب على أمرها وأجلست عنوة في مقعد توقفت عن المراد والأسف وعاد وجهها فأضحى جامداً وشرعت تنزع باهتمام أوبرا الفرو التي خلّفها على ثوب نومها معطف سبق أن ألقي عليها.

وتبدلت نظرتها تماماً، وغلب عليها القلق والشكوى والضيق، لم تعد نظرتها بالأمس، لقد أوضحت النظرة المتجهمة لامرأة عجوز تهذي.

وبلغ الأمر بـ«فرانسواز»، لكثرة ما تسألها إن كانت لا ترغب في تسريح شعرها، أن اقتنعت بأن الطلب صادر عن جدتي. فجاءت بفراشي وأمشاط وماء «كولونيا» ومبذل. كانت تقول: «لا يمكن أن يتعب السيدة «أميديه» أن أسرحها، فالمرأة يمكن دوماً أن تسرح مهما وهنت». والأمر يعني أن ليس المرء قط أضعف من أن يستطيع شخص آخر، فيما يخصه، أن يسرحه. ولكنني حين دخلت الغرفة أبصرت بين يدي «فرانسواز» القاسيتين، وهي مفتونة وكأنها أخذه في رد العافية لجدتي، أبصرت، تحت كآبة شعر هرم لا يقوى على احتمال ملاسة المشط، رأساً يعجز عن الحفاظ على الوضعة التي يعطاها فيهوي في درأمة لا تتوقف يتعاقب فيها انحطاط القوى والألم. وشمرت بأن اللحظة التي تزعم «فرانسواز» الانتهاء فيها تقترب ولم أجرؤ في استمجالها بقولي: «كفي» مخافة أن تعصى أمري. ولكنني في مقابل ذلك انقضضت حينما قرئت «فرانسواز» القاسية في براءتها مرآة كي ترى جدتي إن كانت حسنة التسريحة. ورأيتني بادئ الأمر سعيداً أن استطعت انتزاعها في الوقت المناسب من بين يديها قبلما يتم لجدتي التي أبعدت عنها بعناية أية مرآة أن تلمح عن غير ماقصد صورة لها لا تستطيع أن تتمتعها. ولكنني حينما انكبت بعد لحظة عليها، وأأسفي، لأقبل ذاك الجبين الجميل الذي بولغ في إرهاقه نظرت إلي بهيئة مستعجبة محاذرة مستنكرة: إنها لم تتعرفني.

كان ذلك، فيما رأى طبيبنا، عرض يزيد منه احتقان الدماغ، وكان لابد من إزالته. وبتردد «كوتار». وأملت «فرانسواز» لحظة آله سيتم وضع محاجم «منقاة». وبحثت عن آثارها في قاموسي ولكنها لم تستطع العثور عليها. ولو أنها قالت تماماً «مشفرة»^(١) بدلاً من «منقاة» لما زاد ذلك من حظها في العثور على تلك الصفة لأنها لم تكن تبحث عنها في حرف «الميم» أكثر منها في حرف «النون». وبالفعل كانت تقول «منقاة» ولكنها تكتبها (وتظن بالتالي أنها تكتب) «منقاة». ومال «كوتار» دون كبير أمل إلى العلق، الأمر الذي خيب أملها. وحينما دخلت بعد بضع ساعات غرفة جدتي، كانت الحيات الصغيرة تتلوى وكأنما في شعر «المدوسة» في شعرها المدمى، وقد علقت في قفا رأسها وصدغيها وأذنيها. ولكنني أبصرت في وجهها الشاحب المستكين الجامد كل الجمود عيني الأمس الجميلتين مستديرتين مشرقتين هادئتين (وربما حملتا ذكاء أكثر مما كانت حالهما قبل مرضها لأنها إنما كانت تستودع عينيها وحدهما فكرها، إذ هي لا تستطيع الكلام وينبغي ألا تتحرك، الفكر الذي يمكن أن ينبعث ثانية وكأنما بفعل التوالد الذاتي بفضل بضع قطرات دم يتم سحبها)، عينيها العذبتين المائعتين كما هو الزيت واللتن كانت النار المشبوبة التي تشتعل فوقهما تنير أمام المريضة الكون المستعاد. ولم يعد هدوؤها الحكمة التي يبعثها اليأس بل الأمل. أخذت تدرك أنها تتحسن ومرادها أن تكون حذرة وألا تتحرك فاقتصر على منحي ابتسامة جميلة كي أعلم أنها تحسن بالتحسن وضغطت بلطف على يدي.

كنت أعلم أي قرف يداخل جدتي أن ترى بعض الهوام، فما بالك إن هي لامستها. وكنت أعلم أنها

(١) علقت بها شفرات

تتحمل العلق آخذة في حسابها منفعة عليا. ولذلك كانت «فرانسواز» تثير أشد حنقي إذ ترد لها بتلك الضحكات الصغيرة التي توافينا مع طفل نبغي حمله على اللعب: «آه! هذه الدويبات التي تجري على سيدتي». والأمر يعني إلى ذلك معاملة مريضتنا دون احترام كما لو عادت إلى الطفولة. ولكن جدتي التي اتخذ مجيها الشجاعة الهادئة التي لأحد الرواقبين لم تبد حتى أنها تسمع.

وما نزعَ العلاقات حتى عاد الاحتقان، وأسفي، متزايد الخطورة. وأدهشني أن تتواري «فرانسواز» في كل لحظة أن كانت جدتي في أسوأ حال. ذلك أنها كانت قد أوصت على أبواب حداد ولا تود أن تحمل الخيطة على الانتظار فكل شيء يقضي في حياة معظم النساء إلى مسألة قياس، حتى ما كان من أعظم الأحران.

وبعد بضعة أيام، وفيما كنت نائماً، أقبلت أمي تناديني في وسط الليل. وقالت لي برقيق العناية التي يديها في المناسبات الكبيرة، أولئك الذين يرزحون تحت نير حزن عميق، حتى لمتاعب الآخرين الطفيفة:.

— «اعذرني أن آتي فأعكر نومك».

فأجبت وأنا استيقظ: «ما كنت نائماً».

وكنيت أقول ما أقول عن حسن نية. فإن التبدل الكبير الذي تحمله إلينا اليقظة يكمن في إفقادنا ذكرى الضياء الملطف إلى حد ما الذي كان عقلنا يرقد فيه، وكأنما في أعماق المياه المتلافة، أكثر منه في إدخالنا إلى حياة الوعي الواضحة. إن الأفكار نصف الختجة التي كنا نطفو فوقها منذ لحظة كانت تسبب فينا حركة كافية تماماً إلى حد استطعنا معه أن نطلق عليها اسم اليقظة. ولكن الاستيقاظ يلقي حينذاك تداحلاً للذاكرة. وبعد قليل نصفه بالنوم لأننا لا نتذكره من بعد. وعندما تشرق هذه النجمة الملتعة التي تنير، لحظة الاستيقاظ، نوم النائم بكامله من خلفه، فإنها تحمله على الاعتقاد على مدى بضع ثوان أنه لم يكن يوماً بل يقظة. وهي والحق يقال شهاب يغيب مع ضيائه الوجود الكاذب للحلم، بل مظاهره أيضاً ويسمح لمن يستفيق فحسب أن يقول في نفسه: «لقد نمت».

وسألتني أمي، بصوت رقيق إلى حد بدت معه وكأنها تخشى إيلامي، إن لم يكن سيتعيني كثيراً أن أنهض، وقالت وهي تلامس يدي بلطف:

— «ياصغيري المسكين، لن تستطيع الاعتماد بعد الآن إلا على أبيك وعلى أمك».

ودخلنا الغرفة. كان ثمة كائن آخر غير جدتي التوى فوق السرير على هيئة نصف دائرية، وما يشبه حيواناً وضع شعرها ونام في شراشفها وهو يلث ويثن ويهز الأغطية بتشنجاته. كان الجفنان مطبقين وكانا يسمحان، لسوء الإطباق أكثر منهما لأنهما يفتتحان، برؤية زاوية من الحديقة غائمة لزجة تعكس ظلام رؤية عضوية وعذاب داخلي. ولم يكن كل هذا الاضطراب موجهاً إلينا نحن الذين لا تبصرنا ولا تعرفنا. ولكن إن لم يعد ما يتحرك هناك إلا محض حيوان فأين كانت جدتي؟ كنا نتعرف مع ذلك شكل أنفها، ولاتناسب الآن بينه وبين بقية وجهها، ولكننا ظلت شامة عالقة في زاويته، ويدها التي كانت تبعد الأغطية بحركة لعلها عنت

فيما مضى أن هذه الأغطية تضايقها وهي لاتعني الآن شيئاً.

وسألتني أمي أن أذهب وآتي بقليل من الماء والخل لتبيل جبين جدتي. لقد كان الشيء الوحيد الذي يربطها فيما تظن أمي التي كانت تراها تحاول إبعاد شعرها. إلا أنه أشير إلي من الباب بالجيء. فالخبر الذي مفاده أن جدتي في الرمق الأخير كان قد انتشر في الحال داخل المنزل. لقد قام أحد «الخدم فوق العادة» الذين يؤتى بهم في الفترات الاستثنائية للتخفيف من تعب الخدام، الأمر الذي من شأنه أن يكسب فترات الاحتضار شيئاً من الأعياد، قام بفتح الباب لدوق «غيرمانت» الذي ظل في غرفة الانتظار فأرسل يطلبني ؛ ولم أستطع الإفلات منه.

— «لقد عرفت منذ قليل، ياسيدي العزيز، هذه الأخبار المرعبة، وأود أن أشد على يد السيد والدك رمزاً للتوادة».

واعذرت لصعوبة إزعاجه في هذه اللحظة. لقد حلّ السيد «دو غيرمانت» مثلما هي الحال آن تزمع الذهاب في سفر. ولكنه كان يحسّ بأهمية المجاملة التي يقدمها لنا إلى حد أن الأمر كان يحجب عنه ماعداه وأنه كان يريد الدخول إلى الصالة على الرغم من كل شيء. وكان من عادته بوجه العموم أن يصبر على التأدية الكاملة لصنوف التأديب التي قرأ أن يكرم بها أحدهم، وقلما يهتم أن تكون الحقائق محزومة أو التابوت جاهزاً.

— «هل استقدمتم «ديولافوا»؟ آه! ذلك خطأ فادح. ولو كنتم طلبتموه مني لرجاء من أجلي فهو لايرفض لي شيئاً، مع أنه رفض لدوقة «شارتر». ترى، إنني أضع نفسي دون مواربة فوق أميرة من الأسرة المالكة». ويضيف قوله: «جميعنا متساوون أمام الموت على أية حال»، لا ليقنعني بأن جدتي أضحت مساوية له بل لأنه ربّما شعر بأن حديثاً مطوّلاً فيما يخصّ سلطانه على «ديولافوا» وتقدمه على دوقة «شارتر» لن يتّسم بحسن الدوق.

ولم تكن نصيحته تدهشني على أيّ حال. فقد كنت أعلم أنهم كانوا لدى آل «غيرمانت» يذكرون على الدوام اسم «ديولافوا» (مع شيء من مزيد الاحترام فحسب) على أنه اسم «مورد» لا منافس له. وقد أوصت الدوقة العجوز «دو مورتمار»، المولودة لآل «غيرمانت» (ويستحيل أن ندرك لماذا يقول الناس دوماً على وجه التقريب، ما أن تعلق الأمر بدوقة: «الدوقة العجوز» أو على العكس. إن كانت شابة فبلهجة لطيفة عليها مسحة من «واتو»، «الدوقة الصغيرة») أوصت على نحو آلي تقريباً وهي تغمز بعينها، في الحالات الخطيرة «ديولافوا، ديولافوا»، كقولك «بواريه بلانش» إن كنت بحاجة إلى مثلجة، أو «روباتيه، روباتيه» للمعجنات المحمصة، ولكنني كنت أجهل أن والذي قام بالضبط منذ قليل بطلب «ديولافوا».

وفي تلك اللحظة دخلت والدتي التي كانت تنتظر بفارغ الصبر قارورات أوكسجين من شأنها أن تزيد من يسر تنفّس جدتي، دخلت بنفسها إلى الردهة حيث ما كانت تعلم أنها واجدة السيد «دو غيرمانت» ووددت لو أخبته في أي مكان. ولكنه أخذ ذراعي بعنف، وهو قانع أن ليس ما كان أكثر أهمية وما يمكن على أية حال أن يرضي كبرياءها أكثر منه وكان أكثر ضرورة في الحفاظ على سمعة النبيل الذي لا عيب فيه، وعلى الرغم من ممانعتي وكائننا حيال اغتصاب وأنا أردد: «ياسيد، ياسيد، ياسيد» فقد قادني إلى

والدتي وهو يقول لي: «هلاً أوليتي عظيم الشرف في أن تقدمني إلى والدتك؟» متهدج الصوت بعض الشيء على كلمة والده. وكان يرى أن الشرف من نصيبها هي إلى حد لا يستطيع معه أن يملك نفسه عن الابتسام فيما يصنع لنفسه وجهاً مناسباً ولم أملك إلا أن أسمى، الأمر الذي تسبب في الحال من جهته بالانحناءات واختلاجات ساقين وأوشك الشروع في حفلة التحية كاملة. وقد خطر له حتى أن يباشر الحديث، ولكن أمي التي كانت غارقة في حزنها قالت لي أن أجيء بسرعة ولم تجب حتى عن جمل السيد «دو غير مانت» الذي كان يتوقع أن يرحب به في زيارة وألقى نفسه على العكس وقد ترك وحده في غرفة الانتظار ولعله كان خرج في النهاية لو لم يشاهد في اللحظة نفسها «سان لو» داخلاً وقد وصل في الصباح نفسه إلى باريس وسارع يستقصي الأخبار. وصاح مغتبطاً، وهو يمسك ابن أخيه بزر أوشك أن ينتزعه ودون أن يهتم بوجود أمي التي كانت تجتاز الردهة مرة ثانية: «آه! ما أحسن المصادفة!» ولم يكن «سان لو»، فيما أعتقد، على الرغم من حزنه الصادق، أكثر استياءً من أنه يتجنب لقائي وذلك بسبب ما كان يكتفه لي. وذهب يجره عمه الذي ما كان يستطيع أن يصدق فرحته، إذ كان لديه أمر هام جداً يقوله له وأوشك لذلك أن يذهب إلى «دونسير»، أن استطاع توفير مثل ذلك الإزعاج. «آه! لو قيل لي أنه لا يقع عليّ إلا اجتياز الباحة وألقاك هنا لظننتها مزحة ضخمة. إنها من قبيل المهزلة، كما قد يقول رفيقك السيد. «بلوك». ويردد وهو يتعد برفقة «روبير» ويمسك به من كتفه: «الأمر سوء، واضح تماماً أن أبواب السماء قد تفتحت أمامي أو ما كان من هذا القبيل، حظي يفلق الصخر». وليس يعني ذلك أن الدوق «دو غير مانت» كان سيء التهذيب، بل على العكس. ولكنه كان من قوم يعجزون أن يحلوا أنفسهم محل الآخرين، قوم يشبهون في ذلك غالبية الأطباء ودافني الموتى، وهم بعدما اتخذوا وجهاً مناسباً وقالوا: «إنها لحظات صعبة جداً»، وبعد ما عانقوك، إن قضت الضرورة، وأشاروا عليك بالراحة، لا ينظرون إلى الاحتضار أو الدفن إلا بمثابة لقاء لأهل المجتمع أكثر أو أقل رواداً يبحثون بالعين فيه، بمرح يكتمونونه حيناً، عن الشخص الذي يستطيعون أن يحدثوه عن أمورهم الصغيرة أو يسألوه أن يقدمهم لشخص آخر أو يعرضوا مكاناً في عربتهم لتقلهم في العودة، وفيما كان الدوق «دو غير مانت» يغبط نفسه على «الريح المؤتية» التي دفعت به إلى ابن أخيه، ظل مندهشاً من استقبال والدتي، مع أنه طبيعي جداً، إلى حد أنه أعلن فيما بعد أنها قليلة التهذيب على قدر ما يتحلى به والدي من تهذيب، وأنها تعاني من «فترات غياب» تبدو في أثنائها وكأنها لاتسمع الأشياء التي يقال لها وأنها «غير راكزة» فيما يرى وربما لم تملك كامل عقلها. على أنه شاء، فيما قيل لي، أن يضع ذلك جزئياً على عاتق «الظروف» ويعلم أن والدتي بدت له شديدة التأثر من جراء هذا الحادث. بيد أنه كان لا يزال في ساقه كل بقية التحيات والانحناءات المتراجعة التي حيل بينه وبين أن يبلغ بها غايتها ولا يتبين من جهة أخرى إلى حد بعيد ما كان عليه حزن أمي إلى حد أنه سأل عشية الدفن إن لم أكن أحاول أن أسليها.

وأبرق أحد أسلاف جدتي، وكان رجل دين، وكنت لا أعرفه، إلى النمسا حيث رئيس جمعيته، وجاء في ذلك اليوم بعد ما حصل على الإذن بانعام استثنائي. كان يقرأ بجانب السرير، وقد هدأ الحزن، نصوص صلوات وتأملات دون أن يرفع ناظره الثاقبين عن المريضة. وقد أملتني رؤية حزن هذا الكاهن في لحظة كانت فيها جدتي فاقدة الوعي، ونظرت إليه. وبدا أنه ذاهل من إشفاعي وجرى إذ ذاك أمر غريب. فقد ضمّ يديه أمام وجهه شأن رجل غارق في تأمل مؤلم، ولكنني أبصرت أنه ترك فاصلاً صغيراً بين أصابعه وقد أدرك أنني سوف

أشبح بعيني عنه. ولحيت، لحظة تغادره نظراتي، عينه الثاقبة التي استغلت مخبأ يديه ذاك لتتقرب منه إن كان حزني صادقا. كان يكمن هناك وكأنما في عتمة كرسى اعتراف. ولاحظ آتي أراه فأحكم في الحال إغلاق الشبك الذي سبق أن تركه نصف مفتوح. لقد عدت فرأيتة فيما بعد ولم يجر قط بيننا البحث في تلك الدقيقة. وتم الاتفاق ضمناً أنني لم ألاحظ أنه كان يرصدني. ثمة على الدوام لدى الكاهن وطبيب الأمراض العقلية على حد سواء شيء من قاضي التحقيق. وعلى آية حال أين الصديق، مهما غلا، الذي لا يوجد في ماضيه المشترك مع ماضينا من تلك الدقائق التي نرى من الخير لنا أن نفتتح أنه لا بد قد نسيها؟

قام الطبيب بزرقه مورفين وطلب بقوارير أوكسجين كي يقلل من مشقة التنفس. كانت أمي والطبيب والأخت يمسكون بها بين أيديهم، فما أن تفرغ واحدة حتى يعطوا غيرها. كنت قد خرجت حيناً من الغرفة. وحينما عدت وجدته وكأنما أمام أعجوبة. فقد بدت جدتي، يرافقها في خفوت همس لا ينقطع، وكأنها توجه إلينا نشيداً طويلاً سعيداً كان يملأ الغرفة سريعاً موسيقياً. وأدركت في الحال أنه لم يكن أكثر وعياً وأنه كان يمثل الآلية التي تميزت بها الحشرة التي سبقته. وربما عكس بمقدار ضعيف بعض تحسن جاءت به المورفين. ولكنه كان ناجماً على وجه الخصوص عن تبدل في سلم التنفس، إذ لم يعد الهواء يمر على النحو نفسه في القصبات. فأنفاس جدتي لم تعد، وقد تحررت بفعل التأثير المزدوج للأوكسجين والمورفين، تعاني مشقة ولا تفر. بل تنساب نشيطة رشيقة منزوعة نحو الجسم الغازي اللذيذ. وربما امتزج في هذا النشيد بالأنفاس، ولاتشعر بها كأنفاس الريح في ناي القصب، بعض من تلك الزفرات الأكثر إنسانية التي إذ تنطلق لدى اقتراب الموت إنما تحملك على الاعتقاد بانطباعات عذاب أو سعادة لدى أولئك الذين أضحوا لا يحسون من بعد، وجاءت تضيف نغمة أكثر رخامة، ولكن دونما تغيير في الإيقاع، إلى هذه الجملة الطويلة التي كانت ترتفع وتوالي الصعود ثم تهوي لتنتقل ثانية في إثر الأوكسجين من الصدر المراتح. ثم يبدو ذاك النشيد، وقد بلغ هذا الارتفاع وتطاول بهذا القدر من القوة، يبدو، وقد امتزج بهمسة توصل في اللذة، وكأنه يتوقف بعض الأحيان تماماً مثلما ينضب النبع.

كانت «فرانسواز» إن حلّ بها غم كبير تشعر بالحاجة اللامجدية إلى حد بعيد، ولا تملك الفن البسيط إلى حد بعيد، للتعبير عنه. فهي إذ حكمت أن جدتي هالكة لا محالة إنما كانت ترغب في إطلاعنا على انطباعاتها هي، «فرانسواز». ولم تكن تعلم غير أن تردد: «ما أكثر مايزعجني الأمر» باللهجة نفسها التي تقول بها بعد ما أكثرت من تناول حساء بالملفوف: «كأنني أحمل أثقالاً في معدتي»، الأمر الذي كان في الحالين أقرب إلى الطبيعة مما يبدو أنها تظن. ولم يكن غمها، على هزلة ترجمته، أقل ضخامة لذلك، وقد زاد فيه من جهة أخرى الضيق من أن ابنتها التي احتجرت في «كومبريه» (وكانت الباريزية الشابة تدعوها الآن «كامبروس» وتحس أنها تضحي فيها «فلاحة») لن تستطيع على الأرجح العودة للاحتفال الجنائزي الذي تشعر «فرانسواز» أنه لا بد سيكون شيئاً رائعاً. وإذا كانت تعلم أننا قليلاً ما نفصح عن ذات النفس فقد استدعت «جويان» مسبقاً وتحسباً لكل طارئ إلى جميع عشيّات الأسبوع. كانت تعلم أنه لن يكون خالي الأشغال ساعة الدفن، ولكنها كانت تريد على الأقل أن «تروي» له عنه.

أخذ والدي وجدتي وأحد أبناء عمومتنا يسهرون منذ عدة ليال وما عادوا يغادرون البيت. وقد بلغ

بتفانيهم المستمّر أن يتّخذ قناع اللامبالاة، والبطالة المتطاولة حول هذا الاحتضار تضع على ألسنتهم تلك الأقوال نفسها التي لا تنفصل عن إقامة طويلة في عربة سكة حديدية. وكان ابن العمومة ذاك (ابن أخ والده عمّي) يثير لديّ من الكراهية بقدر ما يستحق من التقدير وما يصيب منه بعمامة.

كنت تلقاه أبداً في الظروف الخطيرة وكان شديد المواظبة بالقرب من المحتضرين إلى حدّ أن الأسر، لرغمها أنّه رقيق الصحة، على الرغم من مظهره القويّ وصوته الغليظ ولحية جنديّ الأنفاذ التي يحملها، كانت تستحلفه دوماً بالعبارات المعهودة ألاّ يجيء إلى الدفن، وكنت أعلم سلفاً أن أمّي التي كانت تفكر في الآخرين في غمرة أكثر الأحران هولاً سوف تقول له بصيغة أخرى ماعود سماعهم ممّن يقولون له:

– «عدني بأنك لن تجيء غداً». افعل ذلك «من أجلها». لا تذهب على الأقلّ إلى «هناك» لقد سبق أن سألتك الامتناع عن المجيء.

وما كان ينفع شيء في ذلك، فقد كان أبداً الأوّل في «البيت»، فاطلقوا عليه لذلك السبب في وسط آخر اللقب الذي كنّا نجهله: «لازهر ولا أكاليل». وكان دوماً قبلما يذهب إلى «كل مكان» قد فكّر «في كل شيء»، الأمر الذي كان يعود عليه بهذه الكلمات: «هل من ضرورة لشرك، أنت؟»

وسأل جنديّ بصوت قوي، وكان قد أصابه شيء من الصمم ولم يسمع أمراً قاله ابن عمّي لوالدي قبل قليل: «ماذا؟».

فأجاب ابن العمّ: «لا شيء»، كنت أقول فقط إنني تسلّمت هذا الصباح رسالة من «كومبريه» حيث الطقس رهيب، وهنا شمس يكاد يكون حرّها مفرطاً.

وقال والدي: «مع أنّ ميزان الضغط الجوي منخفض جدّاً».

وسأل جنديّ قائلاً: «وأيّن تقول إن الطقس رديء؟».

– «في كومبريه».

– «آه! لست أستغرب، ففي كلّ مرة يسوء الطقس هنا يكون صحوّاً في «كومبريه» والعكس بالعكس.

ياإلهي! تتحدّث عن «كومبريه»: فهل فكرتم في إخطار «لوغراندان»؟

فقال ابن عمّي الذي ابتسمت وجنتاه المسمرتان من جرّاء لحية شديدة الكثافة ابتسامة خفية لسروره أن يكون فكّر في الأمر: «أجل، لا تقلق، فقد تمّ ذلك».

وهرع والدي في تلك اللحظة فظننت أن نمة تحسناً أو تردّياً فإذا هو الدكتور «ديولافوا» الذي وصل لتوّه. وذهب والدي لاستقباله في الصالة المجاورة كالممثل الذي يزعم المجيء للتمثيل. وكانوا قد أرسلوا في طلبه لا للمعالجة بل لإثبات الواقعة بمثابة نوع من كاتب العدل. لقد أمكن أن يكون الدكتور «ديولافوا» بالفعل طبيباً عظيماً وأستاذاً رائعاً؛ وكان يقرن هذه الأدوار المختلفة التي أبدع فيها بآخر مكث فيه أربعين عاماً دون

منافس، دور في مثل أصالة المحاجّ أو «سكاراموش»^(١) أو الوالد النبيل وقوامه الحجيء لاثبات واقعة النزاع أو الموت. كان اسمه يؤذن بالوقار الذي سيجري به بالوظيفة، وحينما تقول الخادمة: «السيد ديولافوا» كنت تحسب أنك لدى «موليير» كانت تسهم في وقار المظهر دون أن تتكشف للعين مرونة قامته ساحرة. ووجه له مفرط الجمال في حد ذاته كانت تخفف منه ملاءمته ظروفاً مؤلمة. كان الأستاذ يدخل بسترته الرسمية السوداء المهيبة، وهو حزين دون تصنع ولايجود بتعزية واحدة يمكن أن تظن متكلفة ولايقع إلى ذلك في أقل خروج على اللياقة. كان هو لادوق «غيرمانت» من كان السيد العظيم أمام سرير الميت. بعدما تفحص جدتي دون أن يتعبها ويفرط من التحفظ كان مجاملة للطبيب المعالج قال بضع كلمات لوالدي بصوت منخفض وانحني باحترام أمام والدتي التي أحسست أن والدي كان يتملك نفسه كي لايقول لها: «الأستاذ ديولافوا». ولكن هذا الأخير كان قد أدار رأسه، إذ لا يود الإزعاج، وخرج كأحسن ما يكون المخرج وهو يأخذ فحسب الأجر الذي سلموه إياه. ولم يد منه أنه رآه وقد تساءلنا بدورنا حيناً إن كنا سلمناه إياه لشدة ما أبرز من مرونة لاعب الخفة في إخفائه دون أن يفقد لذلك شيئاً من وقار، تزايد بالأحرى، وقار طبيب عظيم ذي ستره رسمية طويلة بمقالب من حرير، ورأس جميل مليء بنبيل الإشفاق. كان بطؤه وحيويته يبرزان أنه لا يريد، وإن كان لا يزال في انتظاره مدة زيارة، أن يبدو في عجلة من أمره. ذلك أنه كان اللياقة والذكاء والطبعية مجسدة. لقد ارتحل هذا الرجل البارز. ويمكن أن يكون أطباء آخرون وأساتذة آخرون قد ساووه وربما فاقوه، ولكن «الوظيفة» التي كان علمه ومواهبه الجسدية وتربيته العالية توفر له الغلبة فيها لم تعد موجودة لانعدام الخلف الذي أفلح في القيام بها. لم تكن والدتي حتى لحت السيد «ديولافوا» فكل ما لم يكن جدتي لم يكن موجوداً. وإني أذكر (واستبق الأمور هنا) أن والدي حين قال لها في المقبرة حيث شوهدت مثل ظهور عجائبي تقترب بوجل من القبر وتبدو وكأنها تنظر إلى كائن طار وغدا الآن بعيداً عنها: «لقد جاء العم «نوربوا» إلى البيت والكنيسة والمقبرة وقد فوّت عليه لجنة هامة جداً بالنسبة إليه ومن واجبك أن تقولي له كلمة فسوف يؤثر فيه ذلك كثيراً»، لم يستطع أمي حينما انحنى السفير بتجاهها إلا أن تميل برفق وجهها الذي لم يبك، وقبل ذلك بيومين - ولنستبق الأمور مرة أخرى قبل أن نعود في الحال بالقرب من السرير الذي كانت المريضة تختضر فيه - وفيما كانوا يسهرون على جدتي المتوفاة كانت «فرانسواز» التي ترتعد لأقل ضجة إذ هي لاتنفي تماماً العائدين، كانت تقول: «يبدو لي أنها هي». ولكن هذه الكلمات أيقظت بدلاً من الرعب عذوبة لاحت لها في صدر والدتي التي ما أكثر ما رغبت أن يعود الأموات كي تكون أمها أحياناً بالقرب منها.

وكيما نعود الآن إلى ساعات الاحتضار تلك: سأل جدتي ابن عمي: «أندري بما أبرقت به لنا شقيقتاها؟».

- «أجل، «بيتهوفن»، قيل لي ذلك وينبغي وضعه داخل إطار، والأمر لا يدهشني».

وقال جدتي وهو يمسح دموعه: «وزوجتي المسكينة التي كانت تحبهما أشد الحب. يجب ألا نحقد عليهما. إنهما مجنونتان حتى لينبغي تكبيلهما، لقد قلت ذلك دوماً. ماذا هناك، ألم تعد تعطى أوكسجين؟».

(١) من مشاهير الممثلين في المهزأة الإيطالية النمط، ويعني المهرج بعامه.

وقالت أمي: «ولكن ستعاود أُمِّي التنفّس بصعوبة، والحالة هذه. فردّ الطبيب قائلاً: «لا، سيدوم مفعول الأوكسجين فترة مقبولة بعد، وستعاود الكثرة بعد قليل».

كان يخيّل إليّ أنّهم ما كانوا ليقولوا ذلك بصدد مائته وأنّه إن انبغى أن يستمرّ ذاك المفعول الخيّر فمفاده أنّهم يستطيعون شيئاً على حياتها. وتوقّف صفيّر الأوكسجين بضعة لحظات. ولكنّ أنّ التنفّس السعيدة كانت تنبثق دوماً خفيفة قلقة غير تامةً ولا تني تستعاد. كان يبدو بين الحين والحين أنّ كلّ شيء قد انتهى فتوقّف الأنفاس إمّا بفعل تلك التغيّرات في نقطة القرار التي تقوم في تنفّس النائم، وإمّا من جرّاء تقطّع وأثر للتحذير وتزايد للاختناق وبعض قصور في القلب، وعاد الطبيب فأخذ نبض جدّتي، ولكنّ غناء جديد أخذ مذ ذاك يتّصل بالجملة المقطوعة، كما لو أنّ رافداً جاء يحمل ضربته إلى المجرى الذي جفّ. وكانت الجملة تعود على مستوى آخر وبالزخم نفسه الذي لا ينضب. ومن ذا يعلم إن لم يكن الكثير من الحالات السعيدة الرقيقة التي اجتجزها الألم ينطلق منها الآن، حتّى دون أن يوافي جدّتي شعور بذلك، كتلك الغازات الأقلّ وزناً والتي كتمّت زمناً طويلاً؟ لكأنّ كلّ ما كانت تودّ أن تقوله لنا أخذ ينكشف وأنّها كانت تخاطبنا نحن بهذا التطويل وهذه الحماسة وهذه الاستفاضة. وكانت أمي في أسفل السرير وقد تشنّجت بفعل سائر أنفاس هذا النزاع، لاتبكي ولكنّها تبلّله الدموع بين الحين والحين وبها الغمّ الشديد الخالي من الفكر الذي لأوراق الشجر يضرّبها المطر وتقلبها الريح. وطلبوا إليّ مسح عينيّ قبل أن أبادر إلى تقبيل جدّتي.

وقال والدي: «ولكنّي ظننت أنّها لم تعد تبصر».

فأجاب الطبيب: «لا يمكن البتّة معرفة ذلك».

حينما لامستها شفتاي اضطربت يدا جدّتي وهزّت كامل جسمها رعشة طويلة إمّا من قبيل المنعكس وإمّا لأنّ لبعض صنوف الحنان فرط حساسيتها الذي يتعرّف عبر حجاب اللاوعي ماليست بها حاجة تقريباً إلى الحواس لتورده. وفجأة نهضت جدّتي نصف جالسة وقامت بجهد عنيف كمن يدافع عن حياته. ولم تستطع «فرانسواز» مقاومة ذلك المنظر فاجهشت في البكاء. وأردت أن أخرجها من الغرفة وقد تذكّرت ما قاله الطبيب. وفي تلك اللحظة فتحت جدّتي عينيها. فصارعت إلى «فرانسواز» لأخفي دموعها فيما يحدث والدائي المريضة. إلّا أنّ الأوكسجين كان قد صمت وابتعد الطبيب عن السرير. كانت جدّتي قد فارقت الحياة.

وبعد مرور بضعة ساعات استطاعت «فرانسواز» مرّة أخيرة أن تسرّح ذلك الشعر الجميل دون أن تعذّبه. وكان متشبيهاً فحسب وبدا حتّى ذاك أصغر سنّاً منها. أمّا الآن فقد كان على العكس الوحيد الذي يفرض اكليل الشيخوخة على الحيّا الذي عاد فأضحى فتياً وقد زالت منه التجاعيد والتقلّصات والتهذّل والثوتر والارتخاء وقد أضافها إليه العذاب منذ العديد من السنين. وكما كان شأنها في الزمن البعيد الذي اختار لها أهلها فيه زوجاً، كانت النقارة والطاعة تخطان ملامحها خطأ ناعماً والوجنتان لتلمعان بعفيف الأمل وحلم بالسعادة وبهجة بريئة هدمتها السنون شيئاً فشيئاً. ولقد حملت الحياة معها في انسحابها خيبات الحياة. فتبدو ابتسامة وكأنّها حطّت على شفتي جدّتي. وفوق ذاك السرير الجنائزي كان الموت، شأن نحّات العصر الوسيط، قد مدّدها بهيئة فتاة شابة.

الفصل الثاني

- زيارة «البيرتين». توقع زواج ثري لبعض أصدقاء «سان لو».
- ذكاء آل «غير مانت» في حضرة أميرة «بارما».
- زيارة عجيبة للسيد «دو شارلوس». - أراني أقل فأقل فهاً لطباعه.
- حذاء الدوقة الأحمر.

مع أن اليوم كان محض يوم أحد خريفى فقد أخذت أعود إلى الحياة من جديد، والوجود كان بكرة أمامي إذ حل في الصبيحة، بعد سلسلة من الأيام الدافئة، ضباب بارد لم يتلاش إلا حوالي الظهر: وإن تحولاً في الطقس لكافٍ لإعادة خلق العالم وخلقنا. فقد كنت بالأمس حين تهبّ الرياح في موقدي أصغي إلى الضربات التي تضربها على بابي بانفعال يوازي انفعالي لو أنها كانت، على غرار ضربات القوس المشهورة التي تبدأ بها «سمفونية دو الصغرى»، نداءت قدر خفي لا تقاوم. إن كلّ تغير ظاهر للعيان في الطبيعة يقدم لنا تبدلاً مشابهاً إذ يوافق بين الصيغة الجديدة للأشياء ورغباتنا المؤلفة. لقد جعل الضباب مني، حالما استيقظت، عوضاً عن الكائن الهارب من نفسه الذي نضحيه في الأيام الصباحية، رجلاً منطوياً راغباً في ركن النار والسرير المُقسّم، آدم بروتاً يبحث عن حواء مقيمة، في هذا العالم المختلف.

بين اللون الرماديّ الرقيق لسهول صباحية ومذاق كوب شوكولاته كنت أحصر كامل أصالة الحياة الجسمية والعقلية والأخلاقية التي جئت بها قبل سنة تقريباً إلى «دونسير» والتي كانت تكون في، يميزها شعار مستطيل الشكل لراية جرداء - قائمة دوماً حتى حينما كانت غير مرئية -، سلسلة من المتع متميزة تماماً عن كلّ ماعداها ونعجز عن روايتها للأصدقاء، بمعنى أن الانطباعات الغنية التي تداخلت خيوطها والتي كانت تنظمها، إنما كانت تطبعها بالنسبة إليّ ودون علم مني بما يفوق الوقائع كثيراً التي كان يمكن أن أروها. كان العالم الجديد الذي غمسنى فيه ضباب هذا الصباح، كان من وجهة النظر هذه عالماً مألوفاً لديّ (الأمر الذي ما كان إلا ليزيده حقيقة) ومنسياً منذ بعض الزمن (الأمر الذي كان يعيد إليه كلّ نضارته). وقد استطعت أن أنظر إلى عدد من لوحات الضباب التي سبق أن اقتنتها ذاكرتي، ولاسيما لوحات لـ «صباح في دونسير»، إما أول يوم في الشكّة، وإما مرة أخرى في قصر مجاور اصطعجني إليه «سان لو» لقضاء أربع وعشرين ساعة: فمن النافذة التي رفعت ستائرهما في الفجر قبل أن أعود فأستلقي تبدى لي في الأولى فارس، وفي الثانية (وعلى الحدّ الدقيق الفاصل بين غدير وغابة غاص كلّ ما بقي منهما في لطافة الضباب المتساوية الرجاءة) حوزي ماض في تلميع سيور كمثّل هؤلاء الأشخاص القليلين، وتكاد لا تميزهم العين التي تضطر أن تتلاطم وإبهام الظلال الخفي، الذين يبرزون من جدارية دارة.

ولنما كنت ألاحق اليوم تلك الذكريات من سريري، فقد عدت فأويت إليه لانتظار اللحظة التي عزمت فيها في هذا المساء، مستغلاً غياب والديّ اللذين ذهبا بضعة أيام إلى «كومبريه»، أن أذهب لسماع مسرحية

صغيرة كانت تمثّل في منزل السيّدة «دوفيلبا ريزيس». وما كنت ربّما تجرأت على القيام بذلك بعد ما يعودان، فقد كانت أمّي تريد، في وساوس إجلالها لذكرى جدّتي، أن تكون علامات الأسف التي تخصّ بها حرّة صادقة، وما كانت لتمنع عني تلك النزهة بل كانت استنكرتها. ولكنّها لو استشيرت لما أجابتنني من «كومبريه» بهذه العبارة الحزينة: «إفعل ما تشاء فقد كبرت إلى الحدّ الذي تعلم معه ما ينبغي أن تفعل»، ولكنّها كانت تمنّت. وهي تلوم نفسها أن تركتني وحدي في باريس وتحكم على غمي بالقياس على غمّها، كانت تمنّت له تسليات لعلّها كانت تحجبها عن نفسها وتعتقد أن جدّتي، وهمّها قبل كلّ شيء صحيّ وأتراني العصبيّ،. كانت تشير بها عليّ.

لقد تمّ منذ الصباح إشعال جهاز التدفئة المائيّ الجديد. ولم يكن لضجّة المزعجة التي تطلق بين الحين والحين ضرباً من الفواق آية صلة بذكراتي في «دونسير». ولكن لقاءها المستفيض معها في داخلي عصر هذا اليوم كان سيكسبها تقارباً معها شديداً إلى حدّ أنها سوف تذكّرني بها في كلّ مرّة أسمع فيها التدفئة المركزية من جديد (بعدها فقدت عاداتها بعض الشيء).

لم يكن في البيت غير «فرانسواز». وكان الضباب قد تلاشى، والضياء الرماديّ ينهمر على هيئة مطر ناعم فينسج دون انقطاع شبكاً شفافاً يبدو المتنزهون يوم الأحد وكأنّهم يتفضّضون فيها. وكنت قد رميت على قدميّ صحيفة «لوفيفارو» التي كنت أمر بشرائها على نحو دقيق منذ أن أرسلت إليها مقالة لم تنشر فيها. كانت شدة الضياء تشير على الرغم من غيبة الشمس إلى أننا مازلنا في منتصف العصر وكانت ستائر «التول» في النافذة تبدو ضبابيّة متفتّنة كما لعلّها لا تبدر في طقس صاح وبها ذاك المزيج نفسه، من نومة وسرعة انكسار، الذي لأجنحة اليعاسيب وزجاج البندقيّة. كان يزيد من ضيقي بالوحدة في يوم الأحد ذاك أنّني بعثت في الصباح برسالة إلى الأنسة «دوستيرماريا». وكان «روبير دو سان لو» الذي أفلحت والدته في حمله، بعد محاولات مؤلمة باءت بالفشل، على قطع صلته بعشيقته والذي تمّ إرساله منذ ذلك الحين إلى المغرب لينسى تلك التي لم يعد يحبّها منذ بعض الوقت، كان قد سطر لي كلمة وصلّتنني العشيّة يعلمني فيها بمجيئه القريب إلى فرنسا لقضاء عطلة قصيرة جداً. وإذا كان يمرّ محض مرور الكرام في باريس (حيث تخشى أسرته دونما شكّ أن تراه يعيد صلته بـ«راحيل»)، فقد أخطرتني، ليظهر لي أنّه فكّر في أنّه التقى في طنجه بالآنسة أو بالأحرى بالسيّدة «دوستيرماريا» لأنّها حصلت على الطلاق بعد ثلاثة شهور من الزواج. وإذا تذكّر «روبير» ما سبق أن قلته له في «بالبيك» فقد طلب باسمي موعداً من المرأة الشابة. وقد أجابته بأنّها سوف تتناول طعام العشاء معي بكلّ طيبة خاطر في أحد الأيام التي ستقضيها في باريس قبل العودة إلى «بريتانيه». كان يقول لي أن أسارع إلى الكتابة إلى السيّدة «دوستيرماريا» لأنّها قد وصلت بالتأكيد.

لم أعجّب لرسالة «سان لو» مع أنّني لم أتلّق منه أخباراً منذ أن اتهمني في حين مرض جدّتي بالغدر والخيانة. وكنت قد أدركت أنّ الإدراك آنذاك ما الذي جرى. فقد أقنعت «راحيل» عشيقها، وكانت تحبّ استشارة غيرته (ولديها كذلك أسباب إضافية لتحقق عليّ): أنّني قمت بمحاولات غادرة كي تتمّ لي علاقات معها في أثناء غيابه. ومن المرجّح أنّه كان يوالي الظنّ بأنّ الأمر صحيح، ولكنّه كفّ عن التولّه بها حتّى أنّ الأمر أضحى، أصبحياً كان أم غير صحيح، سواء لديه وأن صداقتنا وحدها ظلت باقية. وحينما ابتغيت محاولة

التحدث إليه عن مأخذه عليّ، بعدما التقيته ثانية، وافته فقط ابتسامة طيبة ورقيقة بدا وكأنه يعتذر بها ثم غيّر الحديث. وليس يعني ذلك أنه لم يلتق أحياناً «راحيل» في باريس بعد ذلك بقليل، فإن المخلوقات التي كان لها دور كبير في حياتنا إنما يندر أن تخرج منها دفعة واحدة وعلى نحو نهائي، إنها تعود لتلحظ فيها بين الحين والحين (إلى حدّ أن بعضهم يعتقدون بعودة للحب) قبل أن تغادرها إلى الأبد. وسرعان ما أضحت القطيعة بين «سان لو» و«راحيل» أقلّ إيلاماً بالنسبة إليه بفضل المتعة المهدئة التي كانت تحملها إليه طلبات صديقه التي لاتنقطع للمال. إن الغيرة التي هي امتداد للحب لايمكن أن تحتوي أشياء أكثر بكثير من أشكال الخيال الأخرى. فإن حملنا معنا حينما نذهب في سفر ثلاث صور أو أربعاً سوف تضيق على ملأى حال في الطريق (كزنابق «الجسر القديم وشقائقه»، والكنيسة الفارسية في الضباب، إلخ). فالحقيقة مذ ذاك ملأى تماماً. وحينما نهجر عشيقه فأننا نودّ، إلى أن ننساها قليلاً، ألاّ تضحي ملكاً لثلاثة أو أربعة من المولّين المحتملين وتراودنا صورههم، يعني أننا نغار منهم. أمّا جميع الذين لا تراودنا صورههم فهباء. ولكن طلبات المال المتكررة لعشيقة مهجورة لا تراودك بفكرة كاملة عن حياتها أكثر ممّا قد تفعل أوراق حرارة مرتفعة عن مرضها. على أن الثانية قد تكون مع ذلك دليلاً على أنها مريضة. وتقدّم الأولى افتراضاً، غامضاً بالحقيقة إلى حدّ ما، بأنّ المهجورة أو الهاجرة لا بدّ لم تجد الشيء الكثير بمنزلة النصير الغني. ولذلك يتمّ الترحيب بكلّ طلب بالسُرور الذي توليه الهدأة في عذاب الغيران، ويتمّ اتباعه في الحال بمرسلات مالية لأننا نريد ألاّ ينقصها شيء فيما عدا العشاق (أي واحداً من العشاق الثلاثة الذين تتصوّرهم)، بانتظار أن نتعافى قليلاً وأن يسعنا معرفة اسم الخلف دون ضعف. لقد عادت «راحيل» أحياناً في وقت متأخّر من السهرة لتستأذن عشيقها السابق في النوم إلى جانبه حتّى الصباح. كان ذلك هناة كبيرة في نظر «روبير»، فقد كان يتبيّن إلى أيّ مدى عاشا معاً عيشة حميمة على الرغم من كل شيء لمحض ما يرى أنّه، وإن خصّ نفسه بجزء كبير من السرير، لا يضيقها في شيء في نومها. كان يدرك أنها أكثر راحة بالقرب من جسم الصديق القديم الذي كان، منها في أيّ مكان آخر، وأنها تلقى نفسها بجانبه - وإن كان ذلك في الفندق - وكأنما في غرفة هي قديمة العهد بها وللمرء فيها عاداته وينام فيها نوماً أفضل. كان يحسّ أن منكيه وساقيه وكلّ ذاته كانت في نظرها، حتّى حينما يبالغ في الحركة من جرّاء الأرق أو عمل يقوم به، من تلك الأمور المعتادة جداً إلى حدّ أنها لايمكن أن تولّد إزعاجاً وأنّ الإحساس بها يزيد من الشعور بالراحة.

وكيما أعود إلى الوراء، لقد تزايد اضطرابي من جرّاء الرسالة التي سطرها لي «سان لو» من المغرب بقدر ما كنت أقرأ بين السطور مالم يجرؤ أن يكتب عنه كتابة أكثر صراحة. كان يقول لي «يمكنك تماماً دعوتها إلى حجرة خاصة. إنها امرأة شابة فائنة عذبة الطباع وسوف تتفاهمان على أكمل وجه وإني متيقّن سلفاً أنك ستقضي أمسية طيبة جداً». وبما أنّ والديّ سيعودان في آخر الأسبوع، يوم السبت أو الأحد، وأنني قد أضطرّ بعدها إلى العشاء كلّ مساء في البيت فقد كتبت في الحال إلى السيّد «دوستير ماريا» كي أعرض عليها اليوم الذي تشاء حتّى يوم الجمعة. وقد أجبّت أنني سأتلّم رسالة حوالي الساعة الثامنة في هذا المساء نفسه. وكنّت بلغتته بسرعة مقبولة لو تيسّر لي في أثناء العصر الذي يفصلني عنه عون يجيئني من زيارة. فحينما تلفّ الأحاديث الساعات فإنك لاتستطيع قياسها من بعد، ولاحتى رؤيتها، إنها تلاشي، وإنما يعود فيبرز فجأة في ساحة انتباهك الزمن الرشيق المختلس بعيداً جداً عن النقطة التي غاب عنك فيها. أمّا إذا كنّا وحدنا فإنّ

الاهتمام إذ يعيد أماننا اللحظة التي لانزال بعيدة والتي ننتظرها دون انقطاع، يعيدها بتواتر تكتكة الساعة وانتظامها، إنما يقسم بل يضاعف الساعات بعدد جميع الدقائق التي لعلنا ما كنا نعدّها في مجلس أصدقاء. وكان ذلك العصر الذي أزمع أن أكمله وحدي، إما قوبل من جرّاء رجعة شوقي المستمرة باللذة اللاهية التي سأندوّقها مع السيّدة «دوستير ماريّا»، ولكن بعد بضعة أيّام للأسف، كان يبدو لي شديد الفراغ وشديد الكآبة.

كنت أسمع بين حين وآخر ضجّة المصعد وهو يرتفع، ولكنّما كانت تلبّها ضجّة ثانية، لا تلك التي أملها، أي التوقف في طابقي، بل أخرى مختلفة جداً يطلقها المصعد لمواصلة طريقه المندفعة صوب الطوابق العليا وقد ظلت لكثرة ما عنت هجر طابقي حين كنت أنتظر زيارة، ظلت بالنسبة إليّ فيما بعد، حتّى حين لا أرغب في أي زيارة، ضجّة مؤلّة في حدّ ذاتها ويدويّ فيها كأنّما حكم بالهجران كان النهار الأغبر ينسج تخاريمه اللؤلؤيّة متعباً مستسلماً منصرفاً عدّة ساعات أيضاً إلى عمله المغرق في القدم، وكنت أغتم للتفكير بأنني سوف ألبث وحدي أجلس قباليته هو الذي ما كان يعرفني أكثر من عاملة أتخذت مكانها قرب النافذة كي تبصر على نحو أوضح وهي تؤدّي عملها، ولا تهتمّ بالشخص الحاضر في الغرفة. وفجأة، ودون أن أكون سمعت قرع الجرس، أقبلت «فرانسواز» تفتح الباب وتدخل «البيرتين» التي دخلت مبتسمة صامتة سميّة حاوية في امتلاء جسمها الأيّام التي قضيتها في «بالبيك» حيث لم أعد قطّ، الأيّام التي أعدتُ كي أستمّر في عيشها، والتي أقبلت إليّ. وليس من شكّ أنّنا كلّما عدنا فالتقينا شخصاً اتفق لعلاقتنا به - مهما تكن هزيلة - أن تتغيّر فكأنّما تلك مقابلة بين عصوين. وليس من حاجة لذلك أن تجيء عشيقه سابقة لتلقانا لقاء صديقة، بل تكفي زيارة إلى باريس يقوم بها واحد عرفناه في السياق اليومي لنمط معيّن من الحياة، وأن تكون تلك الحياة قد توقفت حتّى منذ أسبوع فحسب. كنت أستطيع تهجئة هذه الأسئلة على كل خطّ ضاحك مستفسر منقبض من وجه «البيرتين»: «ماذا عن السيّدة «دو فيلباريزيس»؟ ومعلّم الرقص؟ والحلوّاني؟» وحينما جلست بدا ظهرها وكأنّه يقول: «ليس من جرف بالطبع ههنا، أسمح مع ذلك أن أجلس بالقرب منك كما لعلني كنت فعلت في «بالبيك»؟ كانت تبدو وكأنّها ساحرة تقدّم لي مرآة الأزمنة. وكانت في ذلك شبيهة بجميع الذين نادراً ما نلتقيهم ولكنهم عاشوا معنا بالأمس عيشة أشدّ وثوقاً. لم يكن ذلك فحسب، فيما يخصّ «البيرتين». فالصحيح أنّي كنت أدهش دوماً، حتّى في «بالبيك»، حينما أبصرها في أثناء لقاءاتنا اليوميّة لكثرة ما كانت مستمرة. ولكنك الآن تكاد لا تتعرفّها. فقد برزت ملامحها شأن تمثال، بعدما شجّرت من الضباب الوردّي الذي كانت غارقة فيه. لقد صار لها وجه آخر، أو هي بالأحرى أصبح لها أخيراً وجه، وقد كبر جسمها. ولم يظَلْ شيء تقريباً من الغلاف الذي سبق أن لفت به والذي كان ينخبط على صفحته في «بالبيك» شكلها الآتي.

لقد عادت «البيرتين» هذه المرّة إلى باريس أبكر من المعتاد. فلم تكن تصل إليها عادة إلّا في الربيع حتّى أنّي، وبني جرع منذ بضعة أسابيع من جرّاء العواصف على الأزاهير الأولى، ما كنت أفضل في المتعة التي أصيبها بين عودة «البيرتين» وعودة الربيع. كان يكفي أن يقال لي إنّها في باريس وإنّها مرّت في بيتي حتّى أعود فأراها مثل وردة على شاطئ البحر. ولست أدري تماماً إن كان اشتياقي إلى «بالبيك» أو إليها هو الذي كان يستولي عليّ حينذاك، ولأنّ اشتياقي إليها ربّما كان صيغة كسلى متراخية غير تامّة لامتلاك «بالبيك» كما لو كان امتلاك شيء مادّيّ، اختيار الإقامة في مدينة، يساوي امتلاكها روحياً. ولكنّما كانت تبدو لي

على آية حال، حتى مادياً، حينما لا يرجحها خيالي أمام الأفق البحري بل هي ثابتة بالقرب مني، كانت تبدو لي في الغالب وردة هزيلة جداً أردت لو أطبق الأجفان دونها كي لا أرى هذا العيب أو ذاك في التوبيجات وليخيل إليّ أنني أتنفّس على الشاطئ.

بوسعي أن أقولها ههنا، مع أنني ما كنت أعلم حينذاك ما كان لن يحدث إلا فيما بعد. إنه أكثر صواباً بالتأكيد أن نضحّي بحياتنا في سبيل النساء منه في سبيل الطوايع البريدية وعلب السكاير القديمة وحتى اللوحات والتماثيل. على أن مثل المجموعات الأخرى ينبغي أن ينهبنا إلى التغيير وألا يكون لنا امرأة واحدة بل كثيرات. فنلك الأخلاط الساحرة التي تؤلفها فتاة مع أحد الشواطئ، مع الشعر المجدول لتمثال في كنيسة، مع صورة مطبوعة، مع كل ما من أجله نحب في إحداهن، كل مرة تدخل فيها، لوحة ساحرة، تلك الأخلاط ليست مستقرة إلى حد كبير. عش كلياً مع المرأة ولن ترى فيها من بعد شيئاً مما حملك على حبها. إن الغيرة تستطيع بالتأكيد، إن انفصل العنصران، أن تجمعهما من جديد. فإن بلغ بي الأمر بعد زمن طويل من الحياة المشتركة ألا أرى في «ألبيرتين» من بعد سوى امرأة عادية فعلت أي مكيدة لها مع رجل أحبته في «هاليك» ربما كانت كافية لتدخل إليها من جديد وتمزج بها الشاطئ وتدفق الموج. بيد أن هذه الأخلاط الثانوية لا تخلق أبصارنا من بعد وإنما يحسّ بها فؤادنا وهي شؤم عليه. ولا يمكن أن نجد رغبة في تجدد المعجزة في صيغة خطيرة إلى هذا الحد. ولكنني استبق السنين. وعليّ أن أسف هنا فقط أنني لم أظلّ على تعقل كاف كي يكون لي محض مجموعة من النساء مثلما يملك المرء مجموعة مناظر قديمة، وليست في يوم كافية العدد خلف الواجهة حيث ينتظر دوماً مكان فارغ منظاراً جديداً وأشدّ ندرة

لقد جاءت هذه السنة، بعكس الترتيب المعهود لأمكنه اصطفاها، جاءت مباشرة من «هاليك» وهي إلى ذلك قد مكثت فيها أقل من عاداتها بكثير. ولم أكن قد رأيتها منذ زمن طويل. ولما كنت لا أعرف حتى أسماء الأشخاص الذين تتردد عليهم في باريس فقد كنت لا أعلم شيئاً عنها في أثناء الفترات التي تلبث فيها دون أن تأتي للقاء. وكثيراً ما كانت تلك طويلة إلى حد ما. ثم إذا به «ألبيرتين» تطلع فجأة ذات يوم، «ألبيرتين» التي كانت تجلياتها الموردة وزياراتها الصامتة تطلعنني على النزر اليسير مما أمكن أن تفعل في الزمن الفاصل بينهما، ويظل غارقاً في هذه الظلمة من حياتها التي تكاد لا تهتم عينا بالنفاذ إليها.

على أن بعض الدلائل كانت تبدو هذه المرة وكأنها تشير إلى أن أموراً جديدة لا بدّ جرت في هذه الحياة. غير أنه ربما كان ينبغي أن نستخلص منها فحسب أن المرء يتغير بسرعة كبيرة في سن «ألبيرتين». من ذلك مثلاً أن ذكائها كان يبرز على نحو أفضل، وحينما عدت فحدثتها عن اليوم الذي أبدت فيه الكثير من الحماسة لفرض فكرتها في حمل «سوفوكليس» على أن يكتب: «عزيزي راسين»، كانت أول من ضحك مشروع الفؤاد. وقالت: «آندريه» هي التي كانت على حق، وكنت غبية. كان ينبغي لـ «سوفوكليس» أن يكتب: «سيدي». فأجبتها أن كلمتي: «سيدي» و«سيدي العزيز» لـ «آندريه» لم تكونا أقل إضحاً من كلمتها هي: «عزيزي راسين»، وكلمة «جيزيل»: «صديقي العزيز» وأن ليس من كان غيباً في الأساس سوى أساتذة يطلبون أن يوجه «سوفوكليس» رسالة لـ «راسين». وهنا لم تتبني «ألبيرتين»، فلم تكن ترى ما في ذلك من غباء؛ لقد كان عقلها يتفتح ولكنه لم يكن قد نما. كان ثمة وجود جلة أكثر اجتذاباً فيها. كنت

أحسّ في الفتاة الجميلة نفسها التي جلست منذ قليل قرب سريري شيئاً مختلفاً، وفي تلك الخطوط التي تعبّر في النظرة وملامح الوجه عن الإرادة المعتادة تغيراً واضحاً ونصف انقلاب وكأنا قضي فيها على صنوف المقاومة التي تحطمت على صخورها في «البليك» ذات مساء أضحي الآن بعيداً وكنا نؤلف فيه زوجاً يناظر زوج بعد الظهيرة الحاضرة ولكنه عكسه بما أنها هي التي كانت مستلقية في سريرها حينذاك وأنا بجانب السرير. ولما كنت أبغي التأكد إن كانت تدع لأحد أن يقبلها وتخونني الجراءة في ذلك، فقد كنت أسألها أن تمكث بعد في كل مرة تنهض فيها للذهاب. ولم يكن من السهولة بمكان الحصول على ذلك فقد كانت، على الرغم من أن ليس ثمة ما تفعله (ولولا ذاك لوئبت خارجاً)، امرأة دقيقة وقليلة اللطف معي على أي حال إذا بدا أو كاد أنها لا تستمتع من بعد برفقتي. ولكنها كانت تعود في كل مرة فتجلس نزولاً عند رجائي بعدما تنظر إلى ساعتها حتى أنها قضت بضع ساعات معي ودون أن أكون طلبت إليها شيئاً. كانت الجمل التي أقولها لها ترتبط بتلك التي سبق أن قلتها لها في أثناء الساعات السابقة ولا تتصل بشيء مما كنت أفكر فيه، مما كنت أتوق إليه، وتظل موازية له إلى الملائمة. فليس كالشوق يحول دون أن تكتسب الأشياء التي نقولها أيّ شبه بما يجول في خاطرنّا. فالوقت يستعجلنا ويبدو مع ذلك أننا ينبغي كسب الوقت بالتحدث عن موضوعات غريبة تماماً عن الموضوع الذي يشغلنا. ويجري الحديث بينما الجملة التي نود لو ننطق بها قد تراقفها مذ ذاك حركة، على افتراض أننا (كيما نوكر لذاتنا متعة الأمر الفوري ونشبع الفضول الذي ينتابنا حيال ردود الفعل التي سيجعلها) لم نقم بتلك الحركة دونما كلمة قلناها ودون أن نلتبس إذناً بذلك. أجل ما كنت أحبّ «ألبيرتين»: فقد كان بوسعها، هي وليدة الضباب في الخارج، أن تشبع فحسب الرغبة المتخيلة التي أيقظها في صدري الطغس الجديد والتي كانت نقطة وسيطة بين الرغبات التي يمكن لفنون الطبع أن تسدها وتلك العائدة إلى النحت الأثري، فقد كانت تملؤني بأحلام قوامها أن أمزج بجسمي مادة مختلفة دافئة وأن أربط في الآن نفسه بنقطة ما من جسمي الممدود جسماً مختلفاً مثلما كان جسم حواء عالقاً بقدميه، أولاًيكاد، بورك آدم وهي تعامد جسمه تقريباً في تلك النقوش البارزة الرومانية في كاتدرائية «البليك» التي تصوّر على نحو نبيل وهادئ، ربما لا يزال يقارب إفريزاً قديماً، خلق المرأة. والله يتبعه فيها في كل مكان، وكأنا وزيران، ملاكان صغيران تتعرّف فيهما آلهة حب من «هركولا نوم» لاتزال تعيش في قلب القرن الثالث عشر ويترّر آخر رقة لها، رقة متعبة ولكننا لا تنقصها الرشاقة التي يمكن أن تتوقعها منها، على كامل واجهة البوابة— مثلها مثل تلك المخلوقات الصيفية المجنحة المحوّة التي فاجأها الشتاء وأبقى عليها.

ولكن تلك المتعة التي ربّما أنقذتني، بتحقيق رغبتني، من هذه الأحلام والتي لعنني كنت بحث عنها بمثل الطيبة لدى آية امرأة حلوة أخرى، لو أنني سئلت— في غضون هذه الثروة التي لا تنتهي والتي كنت أكنم «البيرتين» فيها الشيء الوحيد الذي أفكر فيه— على أي أساس تقوم فرضيتي المتفائلة بشأن التسهيلات الممكنة فربّما أجب أن هذه الفرضية ناجمة (فيما كانت الملامح المنسية في صوت «ألبيرتين» ترسم لي من جديد معالم شخصيتها) عن ظهور بعض كلمات لم تكن في عداد مفرداتها، بالمعنى الذي كانت تخصّها به الآن على الأقل. فقيما كانت تقول لي إن «إيلستير» غيبي وأنا أصبح مندداً، أجابني بتبسم قائلة: «أردت أن أقول إنه كان غيباً في تلك المناسبة، ولكنني أعلم تمام العلم أنه رجل مرموق إلى أبعد حدّ».

وقد أعلنت كذلك، بغية أن تقول عن «غولف فونتينيلو» إنه أنيق:

- «إنَّه بالتمام صفوة مختارة» .

وقالت لي بصدد مبارزة سبق أن وقعت لي، قالت بشأن شهودي: «إنَّهم شهود مصطفون»، وأقرت إذ نظرت إلى وجهي أنَّها تودُّ لو تراني بشاربين. وبلغ بها حتَّى أن تقول، وبدا لي إذ ذاك أن احتمالات نجاحي كبيرة جدًّا، إنَّه انقضى منذ أن التقت «جيزيل» «ردح من الزمن»، واللفظة، وكنت أقسمت على ذلك، إنَّما كانت تجهلها في السنة السابقة. وليس يعني أنَّ «ألبيرتين» لم يسبق أن ملكت عندما كنتُ في «البليك» كمية مناسبة جدًّا من تلك العبارات التي تكشف في الحال أنَّك تنحدر من أسرة ميسورة والتي تتخلَّى عنها الوالدة لابنتها سنة بعد سنة مثلما تهبها كلُّما كبرت مجوهراتها الخاصة في المناسبات الهامة. وقد سبق الإحساس بأنَّ «ألبيرتين» كفت عن كونها صبيبة صغيرة حينما أجابت ذات يوم للشكر على هدية قدَّمتها لها إحدى الغريمات: «إنَّني خجلى». ولم تمالك السيِّدة «بوتان» عن النظر إلى زوجها الذي أجاب قائلاً:

- «بالطبع، فإنَّها تناهز الرابعة عشرة» .

وقد برزت علامات البلوغ على نحو أكثر وضوحاً حينما قالت «ألبيرتين» وهي تتحدَّث عن فتاة سيئة المظهر: «أنت لا تستطيع حتَّى أن تميِّز إن كانت حلوة فإنَّها تضع قدماً من الحمرة على وجهها». وكانت أخيراً تنصرف، مع أنَّها فتاة بعد، تصرَّف امرأة من بيتها ومكانتها إذ تقول إن كثر أحدهم: «لا أقوى على رؤيته لأنَّني أُرغب أن أفعل مثله»، أو أن تلهوا بتقليد بعضهن: «أُغرب الأمر حينما تقلدنيها أنَّك تشبهينها». وكلَّ ذلك مقتبس من الذخيرة الاجتماعية. بيد أن ييعة «ألبيرتين» لم تكن تبدو لي قادرة أن توقِّرها «بتمميِّز» بالمعنى الذي كان والدي يقول فيه عن واحد من زملائه لم يكن يعرفه بعد وكانوا يشيدون أمامه بذكائه العظيم: «يبدو أنَّه رجل متميِّز تماماً». وبدا لي «اصطفاء»، حتَّى فيما يخصَّ لعبة الغولف، لا ينسجم وعائلة «سيمونية» بقدر قلَّة انسجامه لو جاء مصحوباً بالصفة «طبيعي» في نصِّ سابق عدَّة قرون لأعمال «داروين». وبدا لي «ردح من الزمن» أفضل فالاً. وبرزت لي أخيراً بجلاء انقلابات ما كنت أعرفها ولكن من شأنها أن تصرِّح لي بكلِّ الآمال حينما قالت لي «ألبيرتين» بالرضى الذي يديه امرؤ لا يستهان برأيه:

- «ذلك، فيما أرى، أفضل ما كان يمكن أن يحدث... وفي تقديري أنَّه الحلُّ الأفضل، الحلُّ الأنيق» .

كان ذلك بالغ الجلَّة وجلية شديدة الوضوح تدع لك أن تخمن عطفات غير منتظرة إلى حدِّ بعيد عبر أراض مجهولة بالأمس لديها حتَّى أنَّي جذبت «ألبيرتين» حال سماعي كلمات «فيما أرى»، ولدى «في تقديري» أجلسستها على سريري.

لاشكَّ أنَّه يتفق أن تتسلَّم نسوة هيئات الثقافة يتزوجن رجلاً كثير الثقافة مثل تلك العبارات في إسهامهن الصداقي. وبعد التحوُّل الذي يلي ليلة العرس بقليل، وحينما يقمن بزياراتهنَّ ويبدن تحفظاً مع صديقاتهنَّ السابقات، نلاحظ بدهشة أنَّهنَّ غدون نساء إن هنَّ قمن، لدى تقريرهنَّ أنَّ أحد الناس ذكي، بوضع شدتين للفتة ذكي، ولكنَّ ذلك بالضبط دليل تغير، وكان يبدو لي أنَّ ثمة عالماً بين العبارات الجديدة ومفردات «ألبيرتين» التي سبق أن عرفتھا، المفردات التي كان أكثر صنوف الجرأة فيها أن تقول عن شخص غريب الأطوار: «إنَّه إنسان غريب»، أو إن هم عرضوا على «ألبيرتين» أن تلعب: «لا مال عندي أضيِّعه»، أو إن

وجهت لها هذه أو تلك من صديقاتها لوماً لا ترى أنه مبرر: «أجذك بالحقيقة رائعة!»، والجمل يملئها في تلك الحالات نوع من التقليد البورجوازي يكاد يكون في قدم «عظمي يانفسى» ذاتها وتستخدمها الفتاة التي يتتابها شيء من الغضب وهي واثقة من حقها، تستخدمها على النحو الذي يسمونه «طبيعياً جداً»، وأعني لأنها تعلمتها من والدتها كما تعلمت أداء صلاتها أو التحية. كل تلك الجمل علمتها إياها السيدة «بونتان» إلى جانب كراهية اليهود والتقدير للون الأسود الذي يبدو فيه المرء لائقاً على الدوام وعلى أحسن وجه، حتى دون أن تعلمها إياها تعليماً صريحاً، بل مثلما تتطابق وزقزقة الوالدين من الحساسين زقزقة الحساسين المولودة حديثاً حتى إنها تصبح هي الأخرى حساسين حقيقية. وعلى الرغم من كل شيء فقد بدا لي «اصطفاء» من تربة أخرى وفي تقديرى مشجعاً. لم تعد «ألبيرتين» كما كانت ولعلها لن تتصرف التصرف نفسه ولن تكون لها ردود الفعل نفسها.

لم أعد أحس بأي حب نحوها، وليس ذلك فحسب، بل لم يعد عليّ أن أخشى، كما لعلني كنت أفعل في «البليك»، أن أحطم فيها مودة لي لم تعد موجودة. ولم يكن ثمة أي شك في أنني غدوت منذ زمن طويل لا أهمية لي البتة في عينيها. لقد أخذت أثبتن أنني لم أعد بالنسبة إليها من أفراد «الجماعة الصغيرة» التي جهدت كثيراً فيما مضى في الانضمام إليها وسعدت جداً فيما بعد أن أفلحت في ذلك. ثم إنني لم أكن أشعر بمخاوف كبيرة بما أنها لم تعد حتى تظهر، شأنها في «البليك»، بمظهر الصراحة والطيبة. على أنني أعتقد أن ما حلمني على التقرير كان اكتشافاً أخيراً لغويّاً. فلما كنت أوالي إضافة حلقة جديدة إلى سلسلة الأقوال الخارجية التي كنت أخفي خلفها رغيتي العميقة وأتحدث، فيما تجلس «ألبيرتين» الآن في زاوية سريري، عن واحدة من فتيات «الجماعة الصغيرة»، وكانت أكثر نحولاً من الأخريات، ولكنني كنت أجدها مع ذلك على جمال كافٍ، أجابتنى «ألبيرتين» قائلة: «أجل، إنها تبدو وكأنها مومس صغيرة». وجلي كلّ الجلاء أن كلمة «مومس» كانت مجهولة لدى «ألبيرتين» حينما عرفتها. ومن المحتمل أنها ما تعلمتها في يوم لو جرت الأمور مجراها الطبيعي وما كنت وجدت في ذلك فيما يخصني أي ضير إذ ليس ما كان أكثر إثارة للاشمئزاز. فأنك شخصاً إما سمعتها بمثل ما يصيبك من ألم الأسنان إن أنت وضعت قطعة كبيرة من المثلجات في فمك. أما لدى «ألبيرتين»، وبالجمال الذي كانت عليه، فما كانت حتى «مومس» تستطيع أن تسوء في عيني. ولكننا بدا لي بالمقابل أنها إن لم تكشف عن تدرب خارجي، فعن تطور داخلي على الأقل. وكانت قد حانت للأسف الساعة التي ينبغي لي أن أودعها فيها إن أردت أن تعود في الوقت المناسب من أجل عشاها وأن أنهض بدوري قبل أواني بعض الشيء من أجل عشاها. وكانت «فرانسواز» هي التي تعدّ ولائحاً أن ينتظر ولا بد أنها وجدت منافياً لأحدى موادّ مدونتها أن تكون «ألبيرتين» قد قامت، في غياب والدي، بزيارة لي طويلة إلى هذا الحد، وتوشك أن تؤخر كل شيء، ولكن هذه الأسباب تهاوت أمام كلمة «مومس» وسارعت إلى القول:

— تصوّري أنني لا أثار بالددغة على الإطلاق، ويمكنك أن تدغدغيني على مدى ساعة فلا أشعر حتى بذلك.

— «صحيح!».

- «أؤكد لك».

وأدركتُ دونما شكٍّ أنَّ ذلك كان التعبير غير الحاذق عن رغبة ما، فقد قالت لي بتواضع المرأة، شأن من يقدِّم لك توصية ما كنت تجرؤ على التماسها لكن أقولك برهنت له أنَّه يمكن أن تفيد منها:

- «أتريد أن أجرب؟».

- «إن شئت، لكننا يبدو من الأسهل آنذاك أن تتمددي تماماً فوق سريي».

- «هكذا؟».

- «لا، غوري».

- «ولكن ألسنتُ ثقيلة جداً؟».

وفيما كانت تنهي هذه الجملة انفتح الباب ودخلت «فرانسواز» تحمل مصباحاً. ولم يتسع لـ «أليبرتين» أكثر من أن تعود فتنجلس على الكرسي. ربّما اختارت «فرانسواز» هذه اللحظة لتخزينها وقد مضت تصغي «من وراء الباب أو حتى تنظر من ثقب المغلاق. بيد أنَّه لم تكن بي حاجة إلى القيام بمثل هذا الافتراض فقد أمكن أن تزحزحي التأكد بالعين مما لا بدَّ استشفته بالغريزة استشفافاً كافياً لأنَّ الخشية والحذر والانتباه والحيلة قد زودتها في النهاية عناءً، لطول معيشتها معي ومع والدي، بهذا النوع من المعرفة الغريزية التي تقارب الكهانة والتي تتوافر للبحار عن البحر وللطرائد عن الصياد وأما عن المرض فللمريض في الغالب على الأقل إن لم يكن للطبيب. كان يمكن لكلِّ ما تفعل في معرفته أن يذهل بحقَّ شأن الواقع المتطوّر لبعض المعارف لدى القدماء نظراً لوسائل الإعلام المدومة تقريباً التي كانت بحوزتهم (ولم تكن وسائلها أوفر عدداً؛ كانت بعض أقوال تكاد لا تشكّل واحداً من عشرين من حديثنا في العشاء التقطها رئيس الخدم بسرعة ونقلها نقلاً غير دقيق إلى غرفة الخدمة). ثم إن أخطاءها كانت تنجم بالأحرى، شأن أخطائهم، شأن الأساطير التي كان «أفلاطون» يعتقد بها، عن تصوّر خاطئ للعالم وعن أفكار مسبقة أكثر منها عن نقص الإمكانات المادية. فمن ذلك أن أعظم اكتشافات في مضمار عادات الحشرات أمكن أن تتم، حتى في أيامنا، على يد عالم ما كان يملك أيّ مخبر أو أيّ جهاز. ولئن لم تحلّ المضايقات الناجمة عن مركز الخادمة الذي تشغله دون اكتساب علم لاغني عنه للفن الذي كان غايته -والذي قوامه أن تسومنا الخزفي بنقل نتائجه إلينا - فقد فعل القسر أكثر، فالقيد لم يكتفِ هنا بالأشياء بل أدّى له عوناً كبيراً. وليس من شكٍّ أنَّ «فرانسواز» ما كانت تهمل آية وسيلة معينة، كوسيلة الإلقاء والوقفة على سبيل المثال. ولما كانت توافق دون أدنى ارتياب «إن لم تكن تصدّق البتة مانقولها لها ومانتمنى أن تصدّقه» على كلّ ما يرويه لها أيّ شخص من طبقته ممّا كان منافياً للعقل أكثر ما يكون ويستطيع في الوقت نفسه أن يصدّم أفكارنا، فيقدر ما كانت طريقتها في الإصغاء إلى توكيداتنا تتم عن قلّة تصديقها، كانت اللهجة التي تنقل بها (لأنّ الكلام المنقول يسمح لها بأن توجه لنا دونما عقاب أشنع الشتائم) رواية طاهية حكّت لها أنَّها هدّدت أسيادها ونالت منهم، فيما تمنعهم أمام الجميع «بالزبالة»، الجَم من النعم، كانت تظهر بالمقدار نفسه أنَّها كلام الإنجيل بالنسبة إليها. بل كانت «فرانسواز» تضيف قائلة: «أما

أنا، فلو كنت ربة البيت لوجدتني مغضبة». وعبثاً كنا، على الرغم من قلة مودتنا الأصلية للسيدة التي تقطن الرابع، نهز المنكبين إزاء رواية مثل سيئ إلى هذا الحد، وكأننا إزاء خرافة لانصدق، فقد كانت لهجة الراوية تفلح في اتخاذ النبوة القاطعة الباترة التي تطبع أكثر مالا يحتمل النقاش ويثير الحنق من توكيد.

زد على ذلك أنه، مثلما يبلغ الكتاب في الغالب قوة في التركيز لعلّ نظام الحرية السياسية أو الفوضى الأدبية كان أعفاهم منها، وذلك حينما يكبلهم استبداد سلطان أو مذهب شعري وقسوة قواعد العروض أو دين الدولة، كذلك كانت «فرانسواز» تتحدث مثل «تيريزياس»^(١) ولعلها كان كتبت مثل «تاكيتوس»^(٢)، إذ لا يسعها أن ترد علينا ردّاً صريحاً. كانت تعلم كيف تضمن كل مالا تستطيع التعبير عنه مباشرة في جملة ما كان باستطاعتنا أن نطعن فيها دون أن نتهم أنفسنا، وحتى في أقل من جملة، في لحظة صمت، في الطريقة التي تضع بها حاجة ما.

من ذلك أنه حينما كان يتفق لي أن أدع سهواً على طاولتي بين رسائل أخرى رسالة ما كان ينبغي أن تراها لأنه جرى فيها على سبيل المثال التحدث عنها بنية سوء افتترض أخرى بحقها لدى المرسل إليه تعادل مقدارها لدى المرسل، فإن عدت مضطرب النفس في المساء وذهبت رأساً إلى غرفتي كانت الوثيقة المثيرة الشبهات فوق رسائلي التي نسقت على أحسن وجه في كومة متقنة تسترعي للوهلة الأولى أنظاري مثلما لم يكن ممكناً ألا تسترعي أنظار «فرانسواز» وقد وضعتها هي في الأعلى تماماً، وكأننا على حدة، وفي جلاء كانت كلاماً في حد ذاته وله من الكلام بلاغته وكان يبعث في ما أن أجتاز الباب رعشة مثلما تفعل صرخة. كان تجيد تنظيم صنوف الإخراج هذه المعدة لإطلاع المشاهد، في غياب «فرانسواز»، إطلاعاً تاماً إلى حد يعلم معه مذ ذاك أنها تعلم كل شيء حينما تدخل فيما بعد. وكيفا تنطق على هذا النحو حاجة لروح فيها كانت تملك الفن العبقري والمتأن في آن معاً الذي يمتاز به «إيرفنج» و«فريدريك لوميتير» وفي هذه اللحظة كانت «فرانسواز» تبدو، وهي تمسك فوق «ألبيرتين» وفوق بالمصباح المضاء الذي ما كان يدع في الظلام آيامن الأخاديد التي لانزال واضحة والتي سبق أن حفرها جسم الفتاة في اللحاق، كانت تبدو وكأنها العدالة تلقي الضوء على الجريمة. ولم يكن وجه «ألبيرتين» ليخسر من جراء هذه الإضاءة فقد كانت تكشف على الوجنتين الطلاء المتور نفسه الذي سبق أن فتنني في «بالبيك». إن وجه «ألبيرتين» هذا الذي كان لجملة في الخارج أحياناً نوع من الإصفرار الشاحب كان يبرز على العكس مساحات برّاقة الألوان متساويتها إلى حد بعيد وشديدة الصلابة والملاسة كلما نشر المصباح ضياءه عليها حتى ليتمكن تشبيهها بالألوان الوردية الثابتة في بعض الأزهار. وقد فوجئت مع ذلك بدخول «فرانسواز» اللامتوقع فصرخت قائلاً:

— «كيف، أحيان وقت المصباح؟ ياإلهي ما أشد هذا النور»

كان غرضي دونما ريب من ثاني هاتين الجملتين أن اخفي اضطرابي، ومن الأولى أن أجد العذر لتأخيري. واجابت «فرانسواز» بلبس قاسي:

(١) Tiresias من كهان «ثيبه»، عوقب بالعمى لأنه كشف أسرار مقر الآلهة للبشر.

(٢) Tacitus مؤرخ روماني، اشتهر بخطابه وكتابات التاريخية الرصينة كما اشتهر بوصفه الدقيق للأخلاق والأهواء.

— «أفنيغي أن اطفئ؟».

وهمست «البيرتين» في أذني: «أن اطفئ؟». فخلقتني مفتوناً بسرعة المخاطر الأليفة التي دست بها، وقد اتخذت مني معلماً وشريكاً في الجريمة في آن واحد، هذا التأكيد النفسي عبر اللهجة المستفهمة التي أضفتها على سؤال قواعدي.

وبعدما خرجت «فرانسواز» من الغرفة وعادت «البيرتين» فجلست على سريري، قلت لها:

— «تعلمين ما الذي اخشاه، وهو أنني، إن تابعتنا على هذا المنوال، لن أستطيع الامتناع عن تعذيبك».

— «ما اجملها مصيبة تحل».

ولم امثل في الحال لهذه الدعوة. ولعل آخر غيري كان يمكن حتى أن يجدها نافلة، فقد كان لـ «البيرتين» نطق شهواني وعذب إلى حد تبدو معه وكأنها تقبلك بمحض تحذنها إليك. كان القول منها منة وكان حديثها يغمرك بالقبل. بيد أن تلك الدعوة كانت مع ذلك محبة جداً إلى نفسي. ولعلها كانت كذلك بالنسبة إليّ حتى من فتاة جميلة أخرى في سنّها؛ لكن، أن تغدو «البيرتين» الآن سهلة بالنسبة إليّ إلى هذا الحدّ كان يخلف في أكثر من المتعة، كان يخلف تقابل صور يطبعها الجمال. كنت أتذكر «البيرتين» أول الأمر أمام الشاطئ وكأنما تمّ رسمها على خلفية البحر وهي لا تملك في نظري وجوداً حقيقياً أكثر من تلك الرؤى المسرحية حيث لا تدري إن كنت تواجه الممثلة التي يفترض أن تظهر، أو محض بديلة تحل محلها في تلك اللحظة أو محض إسقاط. ثم إن المرأة الحقيقية انفصلت عن الحزمة المضيفة، لقد جاءت إليّ، ولكن لحض أن أستطيع ملاحظة أنها لم تكن، في العالم الحقيقي، على السهولة الغرامية التي يفترض لها في اللوحة السحرية. لقد علّمت أنه لا يمكن لمسها وتقيلها وأنه يمكن التحدث إليها فحسب وأنها لم تكن بالنسبة إليّ امرأة أكثر مما تكون أعنان من اليشم، وهي زينة غير صالحة للأكل على الموائد في الزمن الغابر، أعناناً. ثم إذا هي تبدو لي على مستوى ثالث حقيقية شأنها في المعرفة الثانية التي سبقت لي عنها، ولكنها سهلة شأنها في الأولى؛ سهلة سهولة تترايد عدويتها بقدر ماظننت مدة طويلة أنها لم تكن كذلك. كانت زيادة معرفتي بالحياة (بالحياة الأقلّ اتساقاً والأقلّ بساطة مما ظننت بادئ الأمر) تفضي مؤقتاً إلى اللا أدريّة. فما الذي يمكن توكيده بما أننا ظننا محتملاً في البداية مائتدي كذباً فيما بعد وبدا أنه حقيقة في مرحلة ثالثة؟ (ولم أكن للأسف في نهاية اكتشافاتي مع «البيرتين»)..

وحتي لو لم يتوافر في جميع الأحوال الجاذب العاطفي لهذه المعرفة المقتبسة عن وفرة أكبر من المستويات التي كشفتها الحياة الواحد تلو الآخر (هذا الجاذب الذي هو عكس الجاذب الذي كان «سان لو» يتذوقه أثناء أعشية «ريفيل» في أن يعود فيلقى بين الأقنعة التي راكمتها الحياة فوق وجه هادئ ملامح سبق أن علقت بالأمس تحت شفتيه)، فأن أعلم أن تقبيل وجنتي «البيرتين» أضحي أمراً ممكناً إنما كان بالنسبة إليّ متعة ربما فاقت أيضاً متعة تقبيلهما، فأني فارق بين امتلاك امرأة يلتصق بها جسداً وحده لأنها لاتعدو كونها قطعة لحم وامتلاك الفتاة التي كنّا نلمحها على الشاطئ مع صديقاتها في بعض الأيام، حتى دون أن نعلم لماذا في تلك الأيام دون أخرى غيرها، الأمر الذي كان مآله ان نرتجف خوفاً من ألا نلقاها ثانية. لقد تلطفت الحياة فكشفت لك بالتفصيل قصة هذه الفتاة وزودتك لتراها آلة بصرية، ثم أخرى، وأضافت إلى الرغبة الجنسية

الجوقة التي تزيدها اضعافاً مضاعفة وتنوعها، جوقة تلك الرغبات الأكثر روحانية والأقل إشباعاً التي لا تنفص عنها خدرها وتدعها تمضي وحدها حينما لا تبغي سوى امتلاك قطعة لحم، بيد أنها، من أجل امتلاك منطقة كاملة من الذكريات التي تشعر بحنين أنها مبعدة منها. ترتفع إرتفاع العاصفة إلى جانبها وتضخمها ولا تستطيع اللحاق بها حتى إتمام حقيقة لامادية، حتى تمثلها، وهو مستحيل بالشكل الذي تتمنى به، ولكنها تنتظر تلك الرغبة في منتصف الطريق وتعود فتواكبها لحظة العودة. فإن أقبل بدلاً من وجنتي أول عابرة سبيل، مهما كانتا غضبتين إلا أنهما غفلان لاسرّ بهما ولا روعة لهما، الوجنتين اللتين طالما حلمت بهما إنما يعني معرفة مذاق وطعم لون كثيراً ما نظرت إليه. لقد رأيت امرأة، وهي محض صورة في زخارف الحياة، شأن «البيرتين» المرتسمة على البحر، ثم تستطيع أن تنزعها وأن تضعها بالقرب منك وأن ترى شيئاً فشيئاً حجمها وألوانها كما لو أنك نقلتها خلف زجاج منظار مجسّم. ولذلك فإن النساء المتمنعات بعض الشيء اللواتي لا يمتلكن في الحال بل هو حتى لا يدري في الحال إن كان سيملكهن في يوم إنما يثرن وحدهن الاهتمام. ذلك أن معرفتهن والاقتراب منهن وامتلاكهن إنما تعني تنويع الصورة الإنسانية شكلاً وحجماً وبروزاً هي درس في النسبية في تقدير جسم امرأة، حياة امرأة يحلو لنا أن نبصرها من جديد بعدما تستعيد نحافة الأطياف في زخارف الحياة. إن النساء اللواتي نعرفهن بادئ الأمر لدى القوادة لا يحظين بالاهتمام لأنهن يبقين على ما هن عليه لا يتبدّلن.

كانت «البيرتين» من جهة أخرى تجمع حولها سائر الانطباعات عن مجموعة بحرية كانت عزيزة على فؤادي على نحو خاص. فقد كان يبدو لي أنني ربما قبلت شاطئ «بالبيك» بكامله على وجنتي الفتاة.

— «إن أذنت حقاً بأن أقبلك فأني أفضل إرجاء الأمر إلى ما بعد وأن أحسن اختيار اللحظة التي تناسبني. بيد أنه ينبغي ألا يغرب عن بالك آنذاك أنك أذنبت.. ولا بد لي من «قسمة صالحة لقبله».

— «أبنيغي أن أوقعها؟

— «فإن غنمتها في الحال فهل أحصل على ثانية مع ذلك فيما بعد؟

— «تضحكني بقسائمك، سوف أحرر لك بعضها بين الحين والحين».

— «قولي، لدى كلمة بعد، تدرين، في «بالبيك» حينما كنت بعد لا أعرفك، كثيراً ما كانت لك نظرة فاسية محتالة، أفلا يمكنك أن تقولي لي بأي أمر كنت تفكرين في تلك اللحظات؟».

— «لست أذكر البتة».

— «إليك مثلاً من أجل أن أساعدك، ذات يوم قفرت صديقتك «جيزيل» من فوق الكرسي الذي كان يجلس عليه سيد عجوز. حاولي أن تتذكري فيما فكرت في تلك اللحظة».

— «كانت «جيزيل» أقل من تتردد عليها، لقد كانت من المجموعة إن شئت، ولكنها لم تكن منها تماماً. لا بد أنني حسبت أنها سيئة التهذيب إلى حد بعيد وعادية».

— «آه! هذا كل شيء؟».

وددت، قبل تقبلها، لو أستطيع ملأها من جديد بالأسرار التي كانت تكتنفها في نظري على الشاطئ قبل أن أعرفها، وأن أعود فألقى فيها المنطقة التي عاشت فيها سابقاً ؛ فإن لم أعرفها كان بوسعي على الأقل أن أدخل مكانها جميع ذكريات حياتنا في «البليك» وضجيج الموج المتكسر تحت نافذتي وصيحات الأطفال. بيد أنني لا بدّ قلت وأنا أدع عيني تنزلق على كرة وجنتيها الوردية الجميلة التي تقبل سطوحها المثنية بلطف لتلفظ أنفاسها على حضيض أولى انشاءات شعرها الأسود الجميل الذي يجري سلاسل كثيرة التضاريس ويرفع ركائزه الوعرة ويريز تموجات وديانه: سوف أعرف أخيراً مذاق الوردة المجهولة التي تمثلها وجنتا «البيرتين» بعدما لم أفلح في ذلك في «البليك» وبما أن الدوائر التي يمكن أن نحمل الأشياء والكائنات على اجتيازها في بحر حياتنا ليست عديدة جداً فربّما استطعت أن أعدّ حياتي وكأنّها ناجزة إلى حدّ ما حينما أكون قد حملت إلى هذا المستوى الجديد الوجه النظير الذي سبق أن اخترته من بينها جميعاً بعدما أخرجه من إطاره النائي، الوجه الذي سيستسي لي أخيراً أن أعرفه بالشفيتين» كنت أقول في نفسي لأنني كنت أعتقد أن ثمة معرفة بالشفيتين ؛ كنت أقول في نفسي إنّي أزمع أن أعرف مذاق هذه الوردة الجسدية لأنّه لم يخطر لي أن الإنسان، وهو مخلوق أقلّ بدائية بالطبع من الأخنوس أو حتّى من الحوت، إنّما يفتقر بعد مع ذلك إلى عدد من الأعضاء الأساسية وهو لا يملك على وجه الخصوص أيّ عضو يستخدم في القبلة. وإنّه ليعوّض هذا العضو المفقود بالشفيتين وربّما بلغ بذلك نتيجة مرضية إلى حدّ ما أكثر ممّا لو اقتصر على مداعبة المحبوبة بناب قرني. ولكنّ الشفتين المصنوعتين لتحملنا إلى سقف الفم طعماً ما يغريهما ينهي لهما أن رضيا بالهيمان على سطح الوجنة الممتنة والمشتهاه وبالاصطدام بسياجها دون إدراك ضلالتهم ودون الاعتراف بخيبتهم. والشفتان على أيّة حال قد لاتستطيعان في تلك اللحظة لدى ملاسة الجسد نفسه، حتى بافتراض أنّهما قد تضحيان أكثر خبرة وأوفر مواهب، قد لاتستطيعان دون شك أن تتذوّقا أكثر من قبل الطعم الذي تحوّل الطبيعة حالياً دون بلوغه لأنهما وحيدتان في هذه المنطقة المقفرة التي لايمكنهما أن تلقيا فيها غذاءهما إذ النظر ثم الشّم قد هجرهما منذ فترة طويلة. فكلّما ازداد فمي بادئ الأمر اقتراباً من الوجنتين اللتين سبق أن دعتهم نظراتي إلى تقبيلهما، أبصرت هذه الأخيرة وجنات جديدة. وأبرز العنق، وقد شوهد من مسافة أقرب وكأنّما بالمكبّرة، أبرز في مضلّعات نسيجه صلابة بدلت طابع الوجه.

إنّ آخر تطبيقات التصوير الشمسيّ- التي ترمي على أقدام كاتدرائية جميع البيوت التي كثيراً ما بدت لنا عن قرب بمثل ارتفاع الأبراج تقريباً، والتي تحرك على التوالي، على غرار كنيّة، الأبنية نفسها، تحركها أرتالا وشتاتاً وكتلاً متراصة، وتقرب عمودي «الساحة الصغرى» الواحد من الآخر، وما أبعدهما منذ قليل، وتبعد كنيسة «سالوتا» القرية وتفلح على خلفيّة شاحبة متدرجة في احتواء أفق مترام تحت قطرة جسر وفي فتحة نافذه ومابين أوراق شجرة واقعة في مقدّمة اللوحة، وبوساطة لون أكثر زخماً تجعل للكنيسة نفسها على التوالي إطاراً من جميع أقواس الكنائس الأخرى- ذلك مالست أرى سواء قادراً قدرة القبلة أن يبرز ممّا كنّا نظنّه شيئاً محدد المظهر الأشياء المثة الأخرى التي تمثّله على السواء بما أنّ كلّاً منها متّصل بمنظور لا يقلّ شرعية عن غيره. وقصارى القول إنه مثلما سبق بدت لي «البيرتين» غالباً مختلفة في «البليك»، فإنّما رأيت الآن - وكأنّما أردت بزيادة سرعة تبدلات المنظور وتبدلات الألوان التي يزودنا بها شخص في مختلف لقاءاتنا به زيادة هائلة أن أحيتها كلّها في مدى بضع ثوان كيما أوجد ثانية بالتجربة الظاهرة التي تنوع فردية كائن ما وأنّ

استخلص جميع الإمكانات التي تتضمنها بعضها من بعضها الآخر وكأنا من قراب - رأيت عشر «ألبيرتينات» في هذا المشوار القصير لشفتي باتجاه خدها. وإذ كانت هذه الفتاة وحدها وكأنها إلهة بعدة رؤوس، فإن الذي كنت رأيته في آخر المطاف كان يخلي المكان لآخر غيره إن حاولت الاقتراب منه. ذلك الرأس كنت أراه على الأقل مادمت لم ألمسه، إذ يقبل إليّ منه عطر خفيف، ولكن عيني، وأسفي! - لأن منخرينا وعينينا رديئة الموقع بقدر ما الشفتان رديتا الصنع - كفتنا فجأة عن الرؤية ولم يشم أنفي بدوره، وقد تسطح، آية رائحة من بعد، وعلمت لدى هذه العلامات المقيمة، ودون أن أعرف لذلك أكثر من ذي قبل مذاق اللون الوردى المشتبه، أنني كنت آخذاً بتقبيل «ألبيرتين».

أفلا كنا كنا نمثل المشهد المعاكس لمشهد «بالبيك» (والذي يرمز إليه دوران جسم صلب)، وأنني كنت مستلقياً وهي واقفة وقادرة على تفادي هجمة شرسة وعلى توجيه المتعة على هواها، ألدلك تركتني أخذ الآن بهذا القدر من السهولة ما كانت رفضت بالأمس بمظهر القسوة الشديدة؟ (وليس من شك أن الملامح الشهوانية التي يتخذها اليوم وجهها لدى اقتراب شفتي ما كانت تختلف عن هيئة الأمس تلك إلا بانحراف في الخطوط ضئيل جداً، إلا أنه يمكن أن يحتوي بين حديه كامل المسافة التي تفصل بين حركة رجل يجهر على جريح وآخر يسعفه، بين رسم بديع أو قبيح). ودون أن أعلم إن كان عليّ أن أبدي التكريم والامتنان على تبدل موقفها لحسن غير قاصد عمل من أجلي في باريس أو «بالبيك» في واحد من هذه الشهور الأخيرة، فقد خطر لي أن الطريقة التي اتخذنا بها مطارحنا كانت السبب الرئيسي في هذا التبدل. على أن «ألبيرتين» قدّمت لي سبباً آخر لذلك، وهو بالضبط هذا: «آه! ذلك لأنني في ذلك الحين في «بالبيك» ما كنت أعرفك وكان يمكنني الظن بأن لك مقاصد سوء». وخلّفتني هذا السبب حائراً. لقد قدّمت لي «ألبيرتين» صادقة دون شك. فإن المرأة لتصادف الكثير من المشقة في أن تتعرف في حركات أعضائها وفي الأحاسيس التي تنتاب جسمها أثناء لقاء منفرد مع أحد الأصحاب الزلة المجهولة التي كانت ترتعد أن يكون غريب قد صمّم إيقاعها فيها.

وآية كانت في جميع الأحوال التبدلات الطارئة منذ بعض الوقت في حياتها والتي ربّما فسرت أن تمنح رغبتني المؤقتة والجسدية البحتة بذلك اليسر ما سبق أن حجبت بهلع في «بالبيك» عن حبي، فقد جرى تحوّل أكثر إدهاشاً في «ألبيرتين» في ذلك المساء ذاته حالما جاءتني مداعبتها في منزلي بالارتياح الذي لا بدّ أنّها لاحظته تماماً والذي خشيت حتّى أن يسبب لديها الانتفاضة الهيئة من اشمئزاز وحياء مجروح والتي تمت لـ «جيلبيرت» في لحظة مشابهة خلف دغل أشجار الغار في محلة «الشانزليزيه».

وقد كان العكس تماماً. فقد سبق أن اتخذت «ألبيرتين» قبل ذلك، حين مدّتها على سريري وشرعت أدايعها، هيئة ما كنت أعرفها لديها من مرونة في المراس وبساطة تكاد أن تكون طفولية. وقد أزالّت اللحظة التي تسبق المتعة، وهي شبيهة في ذلك بتلك التي تلي الوفاة، أزالّت عنها جميع الاهتمامات وجميع المزاعم المعتادة فأعادت إلى قسماتها التي استعادت نضارتها كأنما براءة السن الأولى. وليس من شك أن أيّ إنسان توضع موهبته فجأة موضع اختبار إنّما يصبح متواضعاً ومجداً ولطيفاً، ولاسيما إن عرف كيف يمنحنا بتلك الموهبة متعة عظيمة فإنه يسعد من جرّائها ويودّ أن يمنحنا إيّاها كاملة. بيد أنه كان في ملامح وجه «ألبيرتين» الجديدة تلك أكثر من التجردّ والوجدان والسخاء المسلّكين، كان ثمة ضرب من التفاني المألوف والمفاجيء. فلقد عادت

إلى أبعد من طفولتها، بل إلى شباب سلالتها الأولى. لقد بدت «ألبيرتين»، وهي شديدة الاختلاف عني أنا الذي لم يتمن أكثر من تسكين جسديّ بلغه في النهاية، بدت وكأنها ترى بعض الفظاظ فيما يخصها أن تحسب أن هذه المتعة الجسدية تستقيم دون شعور نفسي وأنها تنهي أمراً ما. كانت، هي المعجلة منذ قليل، تقول الآن، ولأنها ترى دونما شك أن القبل تتضمن الحب وأن الحب يعلو على أي واجب آخر، تقول حينما أذكرها بعشائها:

— «لابأس عليّ من ذلك مطلقاً، لدي كل الوقت، ويحك».

كانت تبدو وكأنما يجرّجها أن تنهض في الحال بعد الذي أقدمت عليه، يجرّجها بداعي التأدب، شأن «فرانسواز» حينما ظنّت أن من واجبها، دون أن تشكو العطش، أن تقبل باحتشام مرح كأس الخمرة التي كان «جويان» يقدمها لها، وما كانت لتجرؤ على الذهاب حالما تشرب آخر جرعة أيا كان الواجب الملح الذي استدعاه. كانت «ألبيرتين» واحداً من رموز الفلاحة الصغيرة الفرنسية التي مثالها من حجر في كنيسة «سانت أندريه دي شان» — وربما كان ذلك، بالإضافة إلى سبب آخر سوف نراه فيما بعد، واحداً من الأسباب التي جعلتني دون علم مني أشتتهاها — فقد تعرفت فيها تأدب «فرانسواز» التي كانت ستضحي على ذلك بعد قليل عدوتها اللدودة، إزاء الضيف والغريب، والحشمة واحترام الفرائش.

ولعلّ «فرانسواز» التي ما كانت تحسب بعد وفاة عمتي أنها تستطيع التحدّث إلا بلهجة مشفقة، لعلها كانت ترى أمراً فاضحاً، في بحر الأشهر التي سبقت زواج ابنتها، في ألا تأخذ هذه الأخيرة بذراع خطيبها حينما كانت تنزّه معه.

كانت «ألبيرتين» تقول لي، وقد ظلّت لاحراك بها بالقرب مني:

— «شعرك جميل وعيناك جميلتان وأنت لطيف».

ولما أضفت أقول، بعدما حملتها على ملاحظة أن الوقت قد تأخر: «ألا تصدّقيني؟» أجابتنني قائلة «إني أصدّقك على الدوام»، الأمر الذي ربّما كان صحيحاً، ولكن منذ دقيقتين فحسب وعلى مدى بضع ساعات.

وحدثتني عن نفسي وعن أسرتي وعن بيئتي الاجتماعية. قالت لي:

«أه! أعلم أن ذوبك يعرفون جماعات راقية. إنك صديق لـ «روبير فورستيه» و«سوزان دولاج» ولم تكن تلك الأسماء شيئاً لي على الإطلاق في الدقيقة الأولى. ولكنّي ذكرت فجأة أنني لعبت بالفعل في «الشانزليزيه» و«روبير فورستيه» الذي لم أراه من بعد البتّة. أمّا «سوزان دولاج» فقد كانت ابنة شقيقة السيّد «بلانديه» وقد وقع عليّ مرة أن أذهب إلى درس في الرقص وحتى أن أمثل دوراً صغيراً في مهزلة بيتية في منزل ذوبها. ولكنّ خشيتي أن أنفلت ضاحكاً ومن بعض الرعاف حالت دون ذلك حتى أنني لم أراها في يوم. وأكثر الأمر أنه خيل إليّ فيما مضى أن معلّمة آل «سوان» ذات الريشة قد كانت لدى ذوبها، ولكنّها ربّما كان مجرد شقيقة لتلك المعلّمة أو صديقة. وأعلنت لـ «ألبيرتين» معارضة بأن «روبير فورستيه» و«سوزان دولاج» يشغلان حيّزاً قليلاً في حياتي. «ذلك ممكن، إن والديكما ترتبطان بصداقة والأمر يسمح بتحديد مواقعكم. كثيراً ما ألتقي «سوزان

«دولاج» في شارع «ميسينا» وإنها لأنيقة» وما كانت والدانا تعرف إحداهما الأخرى إلا في مخيلة السيدة «بونتان» التي استخلصت، إذ علمت أنني لعبت فيما مضى مع «روبير فور يستيه»، وكنت فيما يبدو أنشدت أشعاراً، أننا كنّا نرتبط بعلاقات عائلية. وما كانت تدع البتة. فيما قيل لي، اسم والدتي يمرّ دون أن تقول: «أجل، إنه وسط آل «دولاج» و«فوريستيه» إلخ» وتمنح والديّ بذلك نقطة لصالحهما لا يستحقانها.

كانت مفاهيم «ألبيرتين» الاجتماعية على أية حال تتصف بحمافة بالغة. فكانت تظنّ آل «سيمونيّه» بنون مشدّدة أقلّ قدرّاً لآمن آل «سيمونيّه» بنون غير مشدّدة فحسب، بل من جميع ما أمكن من أناس آخرين. فإن يحمل أحدهم الاسم الذي تحمله دون أن يكون من أسرتك سبب كبير لازدراجه. ثمة استثناءات بالتأكيد. فقد يتفق إن رأى اثنان من أسرة «سيمونيّه» (وقد تمّ تعريف أحدهما بالآخر في واحد من تلك الاجتماعات التي يشعر المرء فيها بالحاجة إلى التحدّث عن أيّ شيء والتي يحس فيها على أيّ حال أنّه يفيض استعدادات متفائلة كحالته مثلاً في مركب جنازة ينطلق إلى المقبرة) أنّهما يحملان الاسم نفسه، أن يحثا بتلطف متبادل ودونما نتيجة إن كان لايربطهما أيّ رباط قربي. ولكنّ هذا محض استثناء. فكثير من الناس قلّما يجدر احترامهم، ولكنّا نجهل ذلك أولاً نهتمّ به. فإن أوصل إلينا تطابق الأسماء رسائل متوجهة إليهم، أو العكس بالعكس، بدأنا بالحذر، ويغلب أن يكون مبرراً، حول ما يساوون. إنّنا نخشى الخلط وتلافاه بتكثيرة اشتمزاز إن حدّثونا عنهم. وحينما نقرأ في الصحيفة اسمنا الذي يحملونه يبدو لنا أنّهم يتحلّون. إن ذنوب غيرهم من أعضاء الهيئة الاجتماعية لاكتثرت بها. ولكنّا نثقل بها كاهل سميننا. والنقد الذي نحمله لآل «سيمونيّه» يزداد قوة بقدر ماهو غير فرديّ ولكنّا يتناقل بالوراثة. وبعد انقضاء جيلين نتذكر فحسب التكثيرة المهينة التي كانت تعلو شفاه الجدود إزاء الآخرين من آل «سيمونيّه». إنّنا نجهل السبب، ولكنّا لن يدهشنا أن نعلم أن الأمر بدأ بجريمة قتل. إلى اليوم، وهو كثير، الذي ينتهي به الأمر إلى زواج بين واحدة من آل «سيمونيّه» وآخر من آل «سيمونيّه» لا تربطه بها البتة صلة قربي.

ولم تحذني «ألبيرتين» عن «روبير فور يستيه» و«سوزان دولاج» فحسب بل روت لي تلقائياً، بدافع من واجب المسارة الذي ينشئه تقارب الأجساد في البداية على الأقل وعلى مدى مرحلة أولى قبل أن يولد نفاقاً خاصاً والكتمان تجاه الكائن نفسه، روت «ألبيرتين» عن أسرتها وأحد أعمام «أندريه» قصة سبق أن رفضت في «البليك» أن تقول كلمة واحدة عنها، ولكنها كانت تظنّ أنّه لاينبغي لها أن تبدو وكأنها لاتزال تملك أسراراً إزائي. ولكن روت لها الآن أفضل صديقة لها أمراً ما ضدي لرأت من واجبتها أن تنقله لي وألححت في أن تعود إلى منزلها فذهبت في النهاية ولكنها بها وجل بشأني من جراء فظاظتي حتى لتضحك أو تكاد لتعذرني، مثلها مثل ربّة بيت تذهب إلى منزلها بستره عادية فتقبلك على هذا النحو ولكنّا ليس الأمر غير ذي أهمية في نظرها.

وقلت لها: «أنضحكين؟»

فأجابتي بحنان: «لست أضحك، إنّني ابتسم لك». وأضافت قولها: «متى أعود فألقاك؟» وكأنها لاتقرّ بأن ماقمنا به لم يكن على الأقلّ المقدمة لصداقة كبرى، لصداقة سابقة الوجود ومن واجبتنا أن نكتشفها، أن نعرف بها وتستطيع وحدها أن تفسر ما انصرفنا إليه، بما أنّه بالعادة تتوجع لتلك الصداقة.

- «بما أنك تأذنين لي بذلك فسأرسل في طلبك حينما أستطيع».

ولم أجزؤ أن أقول لها إني أبغى إخضاع كل شيء لإمكان لقاء السيدة «دو ستير ماريا».

وقلت لها: «سيتم الأمر على نحو مفاجئ فلست أعلم البتة مسبقاً أفيمكن أن أرسل في طلبك في المساء حينما لا أربط بموعد»؟

- «سيكون ذلك عملاً قليل ممكناً جداً فسوف أنفرد بمدخل مستقل عن مدخل عملي، ولكن الطريق غير سالكة الآن. سأتي على أي حال على سبيل الاحتياط في الغد بعد الظهر. لا تستقبلني إلا إذا استطعت ذلك».

وإذ بلغت الباب مدت لي وجنتها، وقد أدهشها ألا أكون سبقتها إلى ذلك، إذ ترى أن لاجحة البتة لرغبة جسدية فظة كيما تتعانق الآن ولما كانت العلاقات القصيرة التي أقدمنا عليها منذ قليل معاً من تلك التي تقود إليها أحياناً ألفة مطلقة واصطفاء قلبي ظننت «ألبيرتين» من واجبه أن ترتجل وتضيف مؤقتاً إلى القبلات التي تبادلناها فوق سريري الشعور الذي ربما كانت عنواناً له في نظر فارس وسيدته على نحو ما يمكن أن يتصورها بهلوان قوطي.

بعدما فارقتني البيكاريدية الشابة التي كان يمكن أن ينحتها على بوابته مثال «سانت أندريه دي شان» جاءتني «فرانسواز» برسالة ملأتني فرحاً إذ كان من السيدة «دو ستير ماريا» التي توافقت على تناول طعام الغداء وإيائي نهار الأربعاء. من السيدة «دو ستير ماريا»، يعني بالنسبة إليّ أكثر من السيدة «دوستير ماريا» الحقيقية، من تلك التي فكرت فيها طوال النهار قبل وصول «ألبيرتين». إنها لخدعة الحب الرهيبة أنه يشرع في حملنا على اللهو مع امرأة ليست من العالم الخارجي، بل مع دمية في داخل دماغنا، وهي الوحيدة على آية حال التي تظل دوماً في متناولنا، الوحيدة التي ستكون في حوزتنا والتي ربما جعلها اعتبار الذكري، ويقارب أن يكون مطلقاً كاعتباط الخيلة، مختلفة عن المرأة الحقيقية اختلاف ما كان بالنسبة إليّ من أمر «البليك» المتخيلة عن «البليك» الحقيقية. وهي خليقة مصطنعة سوف نرغم المرأة الحقيقية شيئاً فشيئاً أن تشبهها، والأمر مدعاة لعذابنا.

كانت «ألبيرتين» قد أخرتني إلى حد أن التمثيلية كانت قد انتهت حينما وصلت إلى منزل السيدة «دو فيلباريزيس». ولما كنت قليل الرغبة في أن آخذ من الخلف موج المدعوين المتدفق وهو يعلق على الخبر العظيم، على الانفصال الذي يقولون إنه تمّ مذ ذاك بين الدوق «دو غير مانت» والدوقة، جلست بانتظار أن أستطيع تحية ربة البيت، على متكأ خال في الصالة الثانية حينما أبصرت الدوقة تطلع من الأولى، حيث كانت قد جلست دونما شك في الصف الأول تماماً، مهيبة واسعة مديدة القامة في فستان طويل من الساتين الأصفر علقت به على نحو بارز أزهار خشخاش سوداء ضخمة. ولم تعد رؤيتها تثير في صدري أي اضطراب. وذات يوم وضعت فيه والدتي يديها على جيني (كما كانت عاداتها حين كانت تخشى أن تغمني) وهي تقول لي: «لا تتابع طلعاتك من أجل ملاقة السيدة «دو غير مانت»، فقد أضحيت مضغة الأنفاه في البيت. وانظر على آية حال كم هي مريضة جدّك، إنّ لديك بالحقيقة أموراً أكثر جدية من وقوفك على درب امرأة تسخر منك»،

فأيقظتني فجأة من حلم تطاول فجاوز مداه كمنوم مغناطيسي يعيدك من البلاد البعيدة التي تخيلت نفسك فيها ويفتح عينيك من جديد أو كالطبيب الذي يردك إلى حس الواجب والواقع فيشفيك من داء وهمي كنت تنعم بالا فيه. لقد تم تكريس النهار التالي لوداع أخير لذلك الداء الذي تخليت عنه. وقد أنشدت ساعات على التوالي وأنا أبكي «الوداع» لشويرت:

«الوداع، إن أصواتاً غريبة تناديك بعيداً عني يا شقيقة الملائكة السماوية».

ثم انتهى الأمر. لقد قطعت طلعتني في الصباح ويسر بلغ بي أن استخلصت حينذاك التوقع الذي سنتبين خطئه فيما بعد والذي قوامه أنني سأعود بسهولة خلال حياتي ألا أرى امرأة من بعد. وحينما روت لي «فرانسواز» بعدها أن «چويان» رغبة منه في التوسع، كان يبحث عن دكان في الحي، ورغبة مني في أن ألقى له دكاناً (وبي سعادة كبيرة كذلك، فيما أتسكع في الشارع الذي كنت أسمع من سريري يضج أنواراً وكأنه شاطئ) أن أبصر تحت ستارة دكاكين الألبان الحديدية المرفوعة بالعمات الحليب الصغيرات ذوات الأكمام البيضاء، استطعت أن أبشر ثمانية تلك الطلعات. وبحرية شديدة على أي حال، إذ كنت أشعر أنني لا أقوم بها من بعد بهدف لقاء السيدة «دو غير مانت»: كحال امرأة تتخذ احتياطات لاحد لها مادامت تتخذ عشيقاً فما أن تقطع صلتها به حتى تدع رسائله مبعثرة وهي عرضة لأن تكشف لزوجها سر زلة بلغ بها في النهاية أن تدع منها في الوقت الذي تكف فيه عن اقترافها.

ما كان يبعث الغم في نفسي هو أن أعلم أن جميع البيوت على وجه التقريب كان يسكنها أناس تعساء فهنا لا تكف امرأة عن البكاء لأن زوجها يخدعها. وهناك يقع العكس. وفي مكان آخر تحاول والددة شغيلة تضرب ضرباً مبرحاً على يد ابن سكير أن تخفي عذابها عن أعين الجيران. كان نصف البشرية يبكي بكامله. وحينما عرفتُها وجدتها مغيظة إلى حد أنني سألت نفسي إن لم يكن الزوج أو الزوجة الزانيان (وإنهما لكذلك) لمحض أنهما حرما السعادة المشروعة، فيما يبديان ظرفاً ووفاء إزاء أي شخص آخر فيما عدا الزوجة أو الزوج) من كانا على حق. وبعد قليل لم تتوافر لي حتى حجة إفادة «چويان» لأوالي مشاوريري الصباحية فقد أعلمت أن بخار باحتنا الذي لم يكن يفصل بين مشغله ودكان «چويان» سوى حاجز دقيق جداً كان يزعم أن يصرفه المدير لأنه يضرب ضربات شديدة الصخب. لم يكن بوسع «چويان» أن يأمل أفضل من ذلك فقد كان للمشغل قبو توضع فيه الأخشاب ويتصل بأقيبتنا. سوف يضع «چويان» فحمه فيه ويقوم بهدم الحاجز ويحصل على حائوت واحد فسيح. أضف أن «فرانسواز»، إذ كان «چويان» يرى أن الثمن الذي حدده السيد «دو غير مانت» مرتفع جداً ويسمح بزيارة المكان كي يوافق الدوق، وقد فقد الأمل في أن يجد مستأجراً، على إجراء تخفيض له، إن «فرانسواز»، إذ لاحظت أن الباب كان يدع، حتى بعد الساعة التي لا تتم فيها الزيارة، لوحة «للإيجار» خلف باب الدكان استشعرت شركاً ينصبه البواب لاجتذاب خطيبة خادم آل «غير مانت» (فسوف يجدان فيها حلوة غرامية) ومفاجأتهما بعد ذلك.

ومهما يكن من أمر، ومع أنه لم يظل لي أن أبحث عن دكان لـ «چويان» فقد واليت الخروج قبل الغداء. وكثيراً ما كنت ألتقي في هذه الطلعات بالسيد «دو نوربوا» وكان يتفق أن ألقني علي، وهو يتحدث مع زميل له، نظرات تنصرف، بعدما تفحصتني ملياً، إلى محدثه دون أن يكون ابتسم لي أو حياني أكثر مما لو لم

يعرفني على الإطلاق. ذلك أن النظر بطريقة معينة لدى هؤلاء الدبلوماسيين الهامين لايهدف إلى إعلامك بأنهم أبصروك، بل بأنهم لم يبصروك وأن عليهم أن يحدثوا زميلهم عن مسألة جدية. وكان ثمة امرأة طويلة القامة كثيراً ما التقى بها قرب المنزل وهي أقل تحفظاً معي. فقد كانت تلتفت إليّ، مع أنني لا أعرفها، وتنتظرني - وعبثاً تفعل - أمام واجهات البائعين ويتنسم لي كما لو تزعم أن تقبلي وتقوم بحركة من تسلّم نفسها. ثم تعود فتتخذ هيئة مفاجية تجاهي إن إلتقت بمن تعرفه. كنت أنتقي منذ زمن بعيد في تلك المشاوير الصباحية، وحسبما يقع عليّ أن أفعله، وإن يكن ذلك شراء أكثر الصحف تفاهة، الدرب الأكثر مباشرة دونما أسف إن كان خارج الخطّ المعتاد الذي تتبعه نزوات الدوقة، فإن كان، على العكس، من ذاك الخطّ فدونها هاجس ودونها رياء لأنه لم يعد يبدو لي وكأنه الدرب الممنوع الذي أنتزع فيه من ناكرة للجميل منّة أن أراها على الرغم منها. ولكنّما لم يخطر ببالي أن شفائي، فيما يوفر لي إزاء السيّدة «دو غير مانت» موقفاً طبيعياً، سوف ينجز بالتوازي العمل نفسه فيما يخصّها ويضع موضع الممكن تودداً وصدافاً لم أعد أعيرهما اهتمامي. ولعلّ جهود العالم بأسره التي تضافرت حتّى ذاك لتقربني منها، لعلها كانت تلفظ أنفاسها أمام السحر البغيض الناجم عن حبّ فاشل. لقد قرّرت جنّيات أكثر اقتداراً من الناس أن ليس من شيء يستطيع في هذه الحالات أن يجيء بفائدة إلى اليوم الذي نكون قلنا فيه بصدق داخل فؤادنا القول التالي: «لست أحبّ من بعده». وكنت قد حققت على «سان لو» أنّه لم يصحبني إلى منزل عمته. ولكنّه لم يكن قادراً أكثر من آخر سواء أن يكسر طوق السحر. فما دمت على حبّ السيّدة «دو غير مانت» كانت مظاهر اللطف التي تزديني من الآخرين تغمني، وتغمّي كلمات المديح، لا لأنها لا تصدر عنها فحسب بل لأنها لم تكن تدري بها. ولعلّ الأمر كان لايجدي على الإطلاق حتّى لو علمت بها. ولكنّ غياباً والامتناع عن عشاء وتشدداً غير مقصود وغير واع إنّما تفيد حتّى في تفاصيل المودة أكثر من جميع موادّ التجميل وأبهى الأتواب. وربما كان ثمة من يبلغون غاياتهم لو تمّ تعليم فنّ بلوغ الغاية بهذا المعنى.

حينما كانت السيّدة «دو غير مانت» تجتاز الصالة التي كنت أجلس فيها والفكر مليء بذكرى الأصدقاء الذين لا أعرفهم والذين ربّما التقتهم بعد قليل في أمسية أخرى، أبصرتني على متكئي (أنا اللامبالي الحقيقيّ) الذي ما كان يبحث إلا عن أن يكون لطيفاً في حين حاولت كثيراً فيما كنت أحبّ أن أتخذ هيئة اللامبالاة دون أن أفلح في ذلك؛ وانعطفت وجاءت إليّ وقالت لي وهي تعود فتلقّي ابتسامة أمسية الأوبرا التي لم يعد يمحوها الشعور المؤلم بأن يجبها من لاثحبّ، قالت لي وهي ترفع بلطف تنوّرتها الفسيحة التي كانت شغلت لولا ذاك المتكأ بكامله:

«لا، لا تزعج نفسك، تأذن بأن أجلس لحظة إلى جانبك؟»

ولما كانت أطول قامة منّي ويزيدها إلى ذلك كامل حجم فستانها، فقد كانت تلامسني ملامسة خفيفة أو تكاد بذراعها العارية الرائعة التي يطلّق من حولها زغب لانبصره العين ولايحصى ضباباً دائماً كأنه بخار مذهب، ويجدلة شعورها الشقراء التي كانت ترسل إليّ رائحتها، وما كانت تستطيع، إذ لا مكان لها، أن تلتفت إليّ بسهولة وتتخذ، وقد اضطرت أن تنظر أمامها أكثر منها في اتجاهي، تتخذ هيئة حاملة رقيقة وكأنّما في رسم. وقالت لي:

— «هل لديك أخبار عن «روبير»؟

ومرّت السيّدة «دو فيلباريزيس» في تلك اللحظة.

— «ماذا! لقد بكّرت في الجيء ياسيد، وهي مرّة نراك فيها!»

وإذ لاحظت أنني أخذت مع ابنة شقيقها وربما افترضت أننا أوثق صلات مما تعلم أضافت قولها (لأنّ المساعي الحميدة لدى القوادة هي جزء من واجبات ربّة المنزل):

— «ولكنّي لا أريد تعكير حديثك مع «أوريان». أفلا تريد الجيء لتناول الغداء معها نهار الأربعاء؟»

وكان اليوم ذاك الذي ينبغي أن أتغذّى فيه مع السيّدة «دو ستير ماريا»، فرفضت.

— «ونهار السبت؟»

ولما كانت والدتي ستعود السبت أو الأحد، فلعلّه كان من قلة اللطف ألا أمكث كلّ مساء للعشاء معها، ورفضت إذن مرّة أخرى.

— «آه! لست رجلاً يسهل استقدامه إلى المنزل».

— «لماذا لايجيء البنت لزيارتي؟» تقول السيّدة «دو غيرمانت» بعدما ابتعدت السيّدة «دو فيلباريزيس» لتنهى الفنانين وتسلم «الصوت الملائكي» طاقة من الورد كلّ ثمنها في اليد التي تقدّمها لأنّها لم تكلف سوى عشرين فرنكاً (وكان الثمن على أية حال الحدّ الأقصى حين لايسم الغناء إلا مرّة واحدة. أمّا اللواتي كنّ يتطوّعن في حفلات بعد الظهر والمساء جميعها فتردهنّ ورود رسمتها يد المركيزة). (من المزعج ألا نلتقي مرّة إلا في منزل الآخرين. وبما أنك لا تريد تناول العشاء معي في منزل عمتي، فلماذا لايجيء لتناول العشاء في منزلي؟»

ولما مكث بعض الأشخاص أطول فترة ممكنة بداعي حجج، أيّ حجج، وأخذوا يخرجون في النهاية، وإذ أبصروا الدوقة جالسة للتحدّث مع شاب على قطعة أثاث ضيقة حتّى لا تتسع إلا لاثنتين ظلّوا أنّه قد أسى إعلامهم وأنّ الدوق، لا الدوقة، هو الذي كان يطلب الانفصال بسببي. ثم سارعوا إلى نشر هذا الخبر. وكنت أكثر قدرة من أي إنسان على معرفة زيفه. ولكنّنا أذهلني أنّ الدوقة، في هذه الفترات الصعبة التي يقع فيها انفصال لم يتمّ بعد، تدعو من تعرفه معرفة يسيرة إلى هذا الحدّ عوضاً عن أن تنعزل. وخامرني شكّ بأنّ الدوق كان وحده من لم يود أن تستقبلني وأنّها إذ تهجره الآن لم تعد ترى مانعاً في أن تحيط نفسها بمن يروقونها.

ولعلني كنت دهشت قبل دقيقتين لو قيل لي إنّ السيّدة «دو غيرمانت» تزعم أن تسألني المضىّ للقائها، وأكثر من ذلك أن أجيء للعشاء. وعبثاً كنت أعلم أن صالة آل «غيرمانت» لايمكن أن توفر الخصائص التي سبق أن استخلصتها من ذاك الإسم فإنّ الأمر الذي قوامه أنّه حيل دون دخولي إليها جعلني أتخيلها، حتّى وأنا متيقّن من أنّها شبيهة بجميع الأخريات، مختلفة تماماً إذ يضطرني أن أضفي عليها نوع الوجود نفسه الذي

يُمَيِّز الصلوات التي قرأنا أوصافها في رواية أو رأينا صورتها في حلم ؛ فقد كان بيني وبينها الحاجز الذي ينتهي الواقع عنده لقد كان تناول العشاء لدى آل «غيرمانت» كالقيام برحلة طال اشتهاؤها وتثقل شوق من رأسي إلى مواجهة عيني والتعرّف بحلم. ولعله كان يمكنني الظنّ على الأقلّ بأنّ الأمر أمر واحدة من دعوات العشاء تلك التي يدعو إليها أرباب البيوت واحداً لا يرغبون في إظهاره إذ يقولون له: «تعال، فلن يكون ثمة قطعاً سوانا»، ويتظاهرون بخضّ المنبوذ بالخشية التي تداخلهم من أن يروه يختلط بأصحابهم ويحاولون قلب حجر المبعد، وقد أضحي على الرغم منه منزول الطبايع ومُحايي، إلى امتياز مشتهى يخصّ به الألاف. وشعرت على العكس أنّ لديّ السيّد «دو غيرمانت» رغبة في أن تدقني ما كان أمتع شيء لديها حينما قالت لي وهي تضع على آية حال أمام عينيّ ما يشبه الجمال البنفسجيّ لحلول في منزل عمّة «فابريس» وأعجوبة تعرّف إلى الكونت «موسكا»^(١).

– «والجمعة ألن تكون حرّاً، في مجلس صغير؟ فما ألطف ما يكون الأمر. ستحضر الأميرة «دو بارما»، وهي فانتة. ثم إنّي لا أدعوك لو لم يكن ذلك للقاء أناس ممتعين».

إنّ الأسرة التي تهجر في الأوساط المجتمعية المتوسطة، الأوساط التي تنتابها حركة صعود مستمرة، إنّما تمثل على العكس دوراً هاماً في الأوساط الثابتة كالبرجوازية الصغيرة وكأرستقراطية الأمراء التي لا تستطيع البحث عن الارتقاء بما أنّه لا شيء فوقها من وجهة نظرها الخاصة. وإنّ المودة التي كانت تبديها لي «العمّة فيلباريزيس» و«روبير» ربّما جعلت منّي في نظر السيّد «دو غيرمانت» وأصدقائها، وهم يعيشون أبداً على أنفسهم وفي عصبية واحدة، موضوع اهتمام فضوليّ ما كنت أرتاب بأمره.

لقد كانت تعرف أولئك الأقارب معرفة عائلية يومية عادية شديدة الاختلاف عمّا نتخيّل، وإن نحن دخلنا دائرتها فما أبعد أن تُلَفِّظَ أعمالنا منها كحبة الرمل من العين أو قطرة الماء من القصبة الهوائية، بل يمكن أن تظلّ منقوشة وأن يعلّق عليها وتروى سنوات أيضاً، بعد أن نسيناها نحن، في القصر الذي ندهش أن نعود فنلقاها فيه كرسالة منّا في مجموعة ثمينة من الأقوال الموقعة.

إن محض أناس أتيقن يمكن أن يمنعوا بابهم المزدهم جدّاً. وما كان ذلك أمر باب آل «غيرمانت» فلم تكن تتوافر لغريب في يوم تقريباً فرصة المرور أمامه. وإذا يتفق مرّة واحدة لدوقة أحد من يشيرون إليه بتلك الصفة فما كان يخطر لها أن تهتمّ بالقيمة المجتمعية التي قد يحملها معه، إذ هي التي تسبغها ولا يمكن أن تتلقّاها. لم تكن تفكر إلا في صفاته الحقيقية، وقد سبق للسيّد «دو فيلباريزيس» و«سان لو» أن قالا لها إنّي أخجلّ ببعضها. ولعلّها ما كانت لتصدّقهما دونما ريب لو لم تلاحظ أنّهما ما كانا يستطيعان البتّة الإفلاح في إحضاري حينما يشاءان وأن المجتمع إذن ما كان يهتمّني، الأمر الذي يبدو للدوقة وكأنّه الدليل بأنّ أحد الغرباء يدخل في عداد «الناس الممتعين».

كان ينبغي أن ترى، وأنت تتحدّث عن نسوة لا تحبّهنّ على الإطلاق، كيف يتبدّل وجهها في الحال إن

(١) من أبطال رواية ستاندار الشهيرة La chartreuse de Parme

أنت ذكرت بصدد إحداهن اسم زوجة أخيها على سبيل المثال. كانت تقول بلهجة ناعمة متيقنة: «آه! إنها فاتنة». والسبب الوحيد الذي تدلي به في ذلك أن هذه السيدة رفضت أن يتم تقديمها إلى المركيزة «دو شو سغرو» والأميرة «دو سيليس تري». ولكنها لا تضيف أن هذه السيدة رفضت أن يتم تقديمها لها، هي «دوقة غير مانت». لقد وقع الأمر مع ذلك، ومنذ ذلك اليوم يعمل فكر الدوقة حول ما كان يمكن أن يجري لدى السيدة التي يصعب التعرف بها. كانت تتحرق شوقاً إلى أن تستقبل في منزلها. فإن أهل المجتمعات قد تعودوا أن يسعى الناس إليهم إلى حد يبدو فيه من يتهرّب منهم وكأنه طائر العنقاء ويستحوذ على اهتمامهم.

فهل كان الدافع الحقيقي لدعوتي في ذهن السيدة «دو غير مانت» (منذ لم أعد أحبها) أنني لا أسمى إلى ذوبها مع أنهم يسعون إليّ؟ لست أدري. ومهما يكن من أمر، فقد كانت تودّ، بعدما قرّرت أن تدعوني، أن تكرمني بأفضل ما كان في منزلها، وأن تبعد من ريمّا استطاعوا من بين أصحابها أن يحولوا دون عودتي، أولئك الذين تعلم أنهم مزعجون. ولم أدري إلى ما أريد تغيير طريق الدوقة حينما رأيتها تنحرف عن مسيرتها الكوكبية وتقبل لتجلس بالقرب منّي وتدعوني إلى العشاء، والأمر نتيجة أسباب مجهولة: فأننا لغياب حسّ خاصّ يحيطنا علماً بهذا الشأن تتمثل الأشخاص الذين نكاد لانعرفهم - كأمر من الدوقة -، كأنهم لا يفكرون فينا إلا في اللحظات القليلة التي يلقوننا فيها. ولكن هذا النسيان المثالي الذي نتصور أنهم يضعوننا فيه اعتباطي على الإطلاق حتى إننا فيما نتصور في سكّون العزلة الذي يشبه سكّون ليلة جميلة ملكات المجتمع المختلفات يوالين سيرهن في السماء على مسافة لا متناهية لا يمكننا أن نملك النفس عن انتفاضة تكدر أو سرور إن هبطت علينا من فوق، وكأنما نيزك يحمل اسمنا منقوشاً وكنا ظنّاه مجهولاً في الزهرة أو «كاسيوييه»^(١)، دعوة للعشاء أو قيل وقال.

وربّما قالت السيدة «دو غير مانت» أحياناً حينما كانت تبحث، على غرار أمراء فارس الذين كانوا يأمرّون، حسبما ورد في «كتاب إيستر»، أن تقرأ عليهم السجلات التي دوّنت فيها أسماء الذين أبدوا من بين أتباعهم غيرّة عليهم، تبحث في لائحة من كانوا حسني النوايا، ربّما قالت عني: «واحد سوف نطلب إليه إن يجيء للعشاء». ولكن أفكاراً أخرى شردت بها.

(إن الأمير حينما يحاط باهتمامات صاخبة

إنّما ينحرف باستمرار إلى أغراض جديدة)

حتى اللحظة التي لحتني فيها وحيداً شأن «مردخاي» على باب القصر، وإذا أنعشت رؤيتي ذاكرتها فقد ابتغت، شأن «أحشورش»، أن تغمرني بعطاياها.

على أنّه ينبغي لي أن أقول أن مفاجأة من نوع معاكس كانت تزعم أن تلي تلك التي أصابنتي حينما دعنتي السيدة «دو غير مانت». ذلك أنّي لما رأيت أكثر أنصاعاً فيما يخصّني وأوفر امتناناً ألا أخفي هذه المفاجأة

(١) Cassiopée من الأساطير اليونانية، زوجة «سيفي» والدة «أندروميد»، أثارت غضب الآلهة فانقلب مجموعة نجمية تحمل هذا الاسم.

الأولى وأن أبالغ على العكس في التعبير عما كان بها من أمر مفرح، فقد قالت لي السيدة «دو غير مانت»، وكانت تستعدّ للذهاب إلى أمسية أخيرة، قالت بما يقارب أن يكون تبريراً وخشية ألا أكون علمت تماماً من كانت كي أبدو بمثل تلك الدهشة أن تتم دعوتي إلى منزلها: «تعلم أنني عمّة «روبير دوسان لو» وأنه سبق على أي حال أن تلاقينا هنا». وإذا أجبت أنني أعلم ذلك، أضفت أنني أعرف كذلك السيد «دو شارلوس» الذي سبق أن كان شديد اللطف معي في «بالبيك» وباريس». وبدت الدهشة على السيدة «دو غير مانت» وبدت نظراتها وكأنها تعود، فيما يشبه التحقق، إلى صفحة أكثر قدماً في الكتاب الداخلي. «عجباً! أو تعرف «بالاميد»». ويكتسب هذا الاسم في فم السيدة «دو غير مانت» حلاوة عظيمة من جرّاء البساطة غير المتعمّدة التي كانت تتحدث بها عن رجل لامع إلى هذا الحدّ ولكنّه بالنسبة إليها لا يعدو كونه صهرها وابن العم الذي نشئت معه. كان اسم «بالاميد» هذا يضيف على العتمة الغامضة التي تمثلها في نظري حياة دوق «غير مانت» ما يشبه ضياء أيام الصيف الطويلة التي لعبت فيها فتاة وريّاه في الحديقة في «غير مانت». أضف أن «أوريان دوغير مانت» وابن عمّها «بالاميد» كانا في هذا الجزء من حياتهما الذي انقضى منذ زمن بعيد شديدي الاختلاف عما أصبحا عليه مذ ذاك، ولاسيما السيد «دو شارلوس» وقد انصرف بكليته إلى ميول فتية أفلح في كبجها فيما بعد إلى حدّ أنني ذهلت أن أعلم أن المروحة الضخمة ذات السوسن الأصفر والأسود والتي تبسطها الدوقة في هذه اللحظة قد رسمتها يداها. ولعله كان يمكنها أيضاً أن تريني «سوناتا» صغيرة كان قد ألّفها فيما مضى من أجلها. كنت أجهل تماماً أن للبارون كلّ هذه المواهب التي لم يكن يتحدث عنها البتّة. ولنقل إذ نحن بهذا الصدد أن السيد «دو شارلوس» لم يكن مغتبطاً أن يدعى في أسرته «بالاميد». ولعله كان من الممكن أن ندرك أن الأمر فيما يخصّ «ميميه» ما كان ليروقه. فهذه الاختصارات الغبية دليل على قلة الإدراك الذي تبديه الأرستقراطية تجاه شاعريتها الخاصة (ولليهودية قلة الإدراك نفسها بما أن أحد أبناء شقيق عقيلة «روفوس ايسرائيلز»، وكان يدعى «موسي»، كانوا يسمّونه عادة «مومو») وعلى اهتمامها في الوقت نفسه ألا تبدو وكأنّها تعلق أهمية على ما كان أرستقراطياً. غير أن السيد «دو شارلوس» كان يملك إزاء هذه النقطة خيالاً شاعرياً أوسع ويبدى اعتزازاً أكبر. ولكنّ السبب الذي يجعله قليل التدوّق لـ «ميميه» لم يكن ذلك بالضبط بما أنّه كان يشمل أيضاً اسم «بالاميد» الجميل. والحقيقة أنّه كان يودّ، إذ يحكم ويعلم أنّه سليل أمراء، لو يقول عنه شقيقه وزوجة أخيه: «شارلوس» كما كان بوسع الملكة «ماري اميلي» أو دوق «أورليان» أن يقولوا عن أبنائهما وأحفادهما وأبناء أشقائهما وأشقائهما: «جوانفيل ونومور وشارتر وباريس».

وصاحت قائلة: «أي متكتّم هو «ميميه» هذا! لقد حدّثناه عنك حديثاً طويلاً فقال لنا أنّه سوف يسمعه أشدّ السعادة أن يتعرّف بك، كما لو أنّه بالضبط لم يرك في يوم. هيا اعترف أنّه غريب الأطوار وأنّه بين الحين والحين على شيء من الجنون، وليس من التلطّف في شيء فيما يخصّني أن أقول ذلك عن شقيق لزوجي أعشقه وأنا معجبة بعظيم قدره».

ودهشت أيما دهشة لهذه الكلمة التي تلصق بالسيد «دو شارلوس» وقلت في نفسي إنّ بعض الجنون هذا ربّما أوضح بعض الأمور، كأن يكون بدا على سبيل المثال شديد الاغتراب لعزّه أن يسأل «بلوك» ضرب والدته. وانتبهت إلى أن السيد «دو شارلوس» كان على بعض الجنون لامن جرّاء الأشياء التي كان يقولها فحسب، بل من جرّاء الطريقة التي كان يقولها بها. فحينما تسمع للمرّة الأولى محامياً أو ممثلاً، تدهشك

لهجتهما المختلفة عن الحديث. ولكنك إذ تبين أن الجميع يجدون الأمر طبيعياً جداً لا تقول شيئاً للآخرين ولا تقول شيئاً لنفسك وتكتفي بتقدير درجة الموهبة. وأكثر ما هنالك أن تظن فيما يخص ممثلاً من فرقة المسرح الفرنسي: «لماذا أنزل ذراعه المرفوعة بحركات صغيرة متقطعة تتخللها فترات راحة على مدى عشر دقائق على الأقل عوضاً عن أن يدعها تهوي؟» أو فيما يخص أمثال «لابوي»: «لماذا أصدر، ما أن فتح فاه، هذه الأصوات المأساوية غير المنتظرة ليقول أبسط الأمور؟» ولكننا لا يصدمك الأمر بما أن الجميع يسلمون به قليلاً. كذلك كنت تقول في نفسك، بعد تفكير، إن السيد «دو شارلوس» يتحدث عن نفسه بأسلوب مفخم ولهجة ليست البتة لهجة الالتقاء المعتاد. ويخيل إليك أنه كان ينبغي أن يقال له في كل دقيقة: «ولكن، لماذا تصرخ بهذه القوة، ولم أنت وقع إلى هذا الحد؟» ولكننا كان يبدو أن الجميع قد سلموا ضمناً بأن الأمر حسن هكذا. فكنت تدخل حلقة الذين كانوا يهللون له فيما هو يخطب. على أنه من المؤكد أنه كان سيخيل لغريب في بعض الأحيان أنه يسمع معنوها أخذاً في الصراخ.

وعادت الدوقة تقول بالوقاحة الطفيفة التي تنضاف لديها إلى البساطة: «ولكن، هل أنت على تمام اليقين من أنك لا تخطئ وأنك تتحدث بالضبط عن صهري «بالاميد»؟ فمهما شغل بالأسرار فإن الأمر يبدو لي مبالغاً فيه...!»

فأجبت أنني على أتم اليقين وأن السيد «دو شارلوس» لابد أن سماع اسمي.

وقالت لي السيدة «دو غير مانت» بما يشبه الأسف: «حسن! إنني أتركك. ينبغي أن أذهب مقدار ثانية إلى منزل الأميرة «دوليني». ألا تذهب إلى هناك؟ لا، لست تحب عالم المجتمعات؟ إنك على أتم الحق، فذلك ممل. لو لم أكن ملزمة، ولكنها ابنة عمي، وما ذلك بلطيف: إنني آسف بدافع الأنانية، من أجلي أنا، فقد كان يسعني أن أخلدك في عربتي وحتى أن أعيدك. إنني استودعك إذن، واغتنب لنهار الجمعة».

لابأس أن يكون السيد «دو شارلوس» خجل مني في حضرة السيد «دار جنكور» فأما أن ينكر على شقيقة زوجته، وهي تحمل أرفع فكرة عنه، أنه يعرفني، والأمر طبيعي إلى حد بعيد بما أنني كنت أعرف عمته وابن أخيه معاً، فذلك مالم يكن يسعني إدراكه.

وسأختتم ذلك بقولي إن السيدة «دو غير مانت» كانت تتحلي من وجهة نظر معينة بسمو حقيقي قوامه أن تطمس طمساً كلياً كل مألّف غيرها ما تناساه إلا جزئياً فحتى لو لم تلقني في يوم أطاردها وألحقها واقتني آثارها في نزهاتها الصباحية، حتى لو لم تردّ على تحيتي اليومية بنقاد صبر حائق ولم تزجر في يوم «سان لو» حينما توسّل إليها أن تدعوني، ما كان وسعها أن تسلك معي سلوكاً أكثر نبلاً وأوفر لطفاً فطرياً. فلم تكن لتستوقفها استفسارات تتناول الماضي وتلميحات وابتسامات غامضة وإضممارات فحسب، ولم تكن تملك في لطافتها الراحنة، ودونما عود إلى الوراء، دونما تحفظ، شيئاً بمثل اعتزاز واستقامة قامتها المهية فحسب، بل كانت المآخذ التي أمكن أن تأخذها على أحدهم في الماضي تستحيل بكليتها رماداً والرماد نفسه يلقي به بعيداً جداً عن ذاكرتها أو على الأقل عن مسلكها إلى حد أنك لو نظرت إلى وجهها في كل مرة وقع لها أن تعالج بأفضل طرق التبسيط مالمه كان لدى كثيرين غيرها حجة لبقايا جفاء وصنوف ملامة لأحسست بما يشبه

عملية تطهير.

ولئن دهشت للتبدل الذي تم في داخلها إزائي فكلم كانت دهشتي أعظم أن أجد في داخلي تبدلاً إزاءها أعمق بكثير! أفلم تكن ثمة فترة لاتعود فيها إلي الروح والقوة إلا إذا بحثت، وأنا أعد على الدوام مشروعات جديدة، عمّن يجعلها تستقبلني ويوفر بعد هذه السعادة الأولى صنوفاً أخرى كثيرة من السعادة لفؤادي الذي يزداد تطلباً؟ أما ما حلمني على الذهاب إلى «دونسير» للقاء «سان لو» فاستحالة أن أجد شيئاً. أما الآن فمن جراء النتائج الناجمة عن رسالة منه أراني مضطرب النفس، ولكن بسبب السيدة «دو ستير ماريا» لاسبب السيدة «دو غير مانت».

ولنصف، بغية أن نأتي إلى ختام هذه الأمسية، أنه جرى فيها حادث كذب بعد بضعة أيام ولم تنقطع دهشتي حياله وقد أثار الخلاف بيني وبين «بلوك» بعض الوقت وهو يشكل في حد ذاته واحداً من هذه التناقضات الغريبة التي سنجد تفسيرها في نهاية هذا المجلد^(١). لم يكف «بلوك» إذن في منزل السيدة «دو فيلياريزيس» عن الإشادة أمامي بمظهر اللطف لدى السيد «دو شارلوس» الذي كان حينما يلتقي في الشارع ينظر في عينيه وكأنه يعرفه، كأنه يتوق إلى التعرف به، ويعلم تمام العلم من هو. وابتسمت لذلك بادئ الأمر إذ سبق لـ «بلوك» أن تحدث في «البليك» بكثير من العنف بحق السيد «دو شارلوس» نفسه. وظننت فحسب أن «بلوك» كان يعرف البارون «دون أن يعرفه»، على غرار والده بالنسبة إلى «بيرغوت»، وأن ما كان يعدّه نظرة لطيفة كان نظرة ساهية. ولكن «بلوك» بلغ في النهاية حدّاً من الإيضاحات الدقيقة وبدا متيقناً أن السيد «دو شارلوس» ودّ مرتين أو ثلاثاً أن يبادره بالحديث إلى حدّ أنني افترضت، وقد تذكّرت أنني رويت عن رفيقي للبارون الذي طرح عليّ بالضبط في عودتنا من زيارة لدى السيدة «دو فيلياريزيس» أسئلة مختلفة حوله، أن «بلوك» لم يكن كاذباً وأنّ السيد «دو شارلوس» عرف اسمه وأنه كان صديقي، إلخ. ولذلك فقد طلبت بعد وقت يسير من السيد «دو شارلوس» في المسرح أن أقدم له «بلوك» وذهبت في طلبه بناءً على موافقته. ولكن ما أن أبصره السيد «دو شارلوس» حتّى ارتسمت على محياه دهشة كتمها في الحال وحلّ محلّها غضب متطائر الشر. فلم يمدّ لـ «بلوك» يده، وليس ذلك فحسب بل أجابه في كلّ مرة وجه هذا الأخير الكلام إليه بلهجة يشوبها أشدّ الوقاحة بصوت غاضب وجارح. حتّى إن «بلوك»، ولم يكن البارون قد قابله حتّى ذاك، فيما يقول، إلا بالابتسامات، ظنّ أنني لم أوص به بل أسأت إليه في أثناء الحديث القصير الذي كلمت فيه السيد «دو شارلوس»، وأنا عارف بميله إلى الرسميات، عن رفيقي قبل أن أصبح إليه. وغادرن «بلوك» منهكاً كمن شاء أن يعتلي صهوة حصان يوشك دوماً يجمع، أو أن يسبح بعكس أمواج تردّد دون انقطاع إلى رمال الشاطئ، ولم يعد يكلمني طوال ستة أشهر.

لم تلدّ لي الأيام التي سبقت عشائي مع السيدة «دو ستير ماريا» بل كانت لاتطاق. ذلك أنه كلما كان الوقت الذي يفصلنا عمّا نقصد إليه قصيراً بعامّة كلما بدا طويلاً لأننا نطيق عليه مقاييس أكثر قصراً، أو لحض

(١) القسم الأول من كتاب «سادوم وعامورة» لأن هذه المؤلف كان يحوي في الطبعة الأصلية «جانب غير مانت ٢» و«سادوم وعامورة ١».

أننا نفكر في قياسه. إن البابوية فيما يقال تحسب بالقرون بل هي ربما لا تفكر في الحساب لأن غايتها تمتد إلى مالانهاية. ولما كانت غايتي على مسافة ثلاثة أيام فحسب فقد كنت أحسب بالثواني وأنصرف إلى تلك التخييلات التي هي بدايات مداعبات، مداعبات يثير حنقك أن لا تستطيع حمل المرأة نفسها على انجازها (تلك المداعبات بالضبط دون الأخريات جميعها). وخلاصة القول إن من صَحَّ بعامة أن صعوبة بلوغ موضوع رغبة ما إنما تنمّيها (الصعوبة لا الاستحالة لأن هذه تفضي عليها)، فإن اليقين، فيما يتعلق برغبة جسدية محضة، بأنها ستتحقق في وقت قريب ومحدد ليس أقل إثارة من الشك، فإن غياب الشك إنما يجعل انتظار اللذة الواقعة لا محالة أمراً لا يطاق، بمقدار ما يفعل الشك القلق تقريباً، لأن الغياب إنما يجعل من ذلك الانتظار تحقّقاً لا يحصى ويقسم الوقت من جرّاء كثرة التصوّرات المسبقة إلى شرائح دقيقة على نحو ما قد يفعل القلق.

إن ما كان يلزمني هو امتلاك السيّد «دوستير ماريا» فمنذ عدّة أيام كانت رغباتي قد أعدت، بنشاط لا ينقطع، تلك المتعة في خيالي، تلك المتعة وحدها. وما كانت سواها (المتعة مع أخرى غيرها) لتكون جاهزة، إذ المتعة لا تعدو كونها تحقيق شهوة سابقة ليست على الدوام واحدة وهي تتغير وفق آلاف المزجات في الأحلام ومصادفات التذكّر وحالة المزاج وترتيب جاهزية الرغبات التي يستريح آخر ما تمت تلبيته منها إلى أن تنتسى إلى حدّ ما خيبة الإنجاز. وكنت قد هجرت طريق الرغبات العامة العريض وسرت على درب رغبة أكثر خصوصيّة؛ وكان لابدّ لي، بغية تمنّي موعد آخر، أن أعود أدراجي من مكان قصي لأدرك الطريق الرئيسي واتخذ درياً آخر، فامتلاك السيّد «دوستير ماريا» في جزيرة غابة بولونيا التي دعوتها للعشاء فيها، تلكم كانت المتعة التي كنت أتخيلها في كلّ دقيقة. ولعلها كانت تلاشت بالطبع لو تناولت عشائي في تلك الجزيرة بدون السيّد «دوستير ماريا»؛ بل ربما تناقصت أيضاً إلى حدّ بعيد لو تناولت عشائي في مكان آخر حتّى يرفقتها. وإنّ المواقف التي تمثل متعة ما وفقاً لها لسابقة على أيّة حال للمرأة، لنوعية النساء التي توافق ذلك. إنها تتحكم بها، وكذلك يفعل المكان. وهي لهذا السبب تعيد بالتناوب إلى فكرنا المتقلب هذه المرأة أو تلك، وهذا الموقع أو ذاك، وهذه الغرفة أو تلك، ولعلنا كنّا ازدريناها في أسابيع أخرى. فهؤلاء نساء. وهنّ وليدات الموقف، لا يستقيم أمرهنّ بمعزل عن السرير الواسع الذي نجد فيه راحة النفس إلى جانبهنّ، وأخريات يتطلبنّ، كيما تتم مداعبتهنّ بمقصد أكثر خفاءً، الأوراق خافقات في الريح والمياه في صميم الليل، وهنّ خفيفات متهرّيات بقدر ماهي.

وليس من شكّ أن جزيرة الغابة قد سبق أن بدت لي، قبل أن اتسلّم رسالة «سان لو» بفترة طويلة وحين لم يكن الأمر بعد أمر السيّد «دوستير ماريا»، وكأنّها صنعت للمتعة إذ سبق لي أن وجدتني أمضي لأتذوق فيها حزني ألا يتوافر لي أيّة متعة أحجبتها فيها عن الأبصار. وإنّا لنهيم على وجهنا على ضفاف البحيرة التي تقودنا إلى تلك الجزيرة والتي تمضي الباريسيّات، اللواتي لم يرحلن بعد، للنزهة على امتدادها في أسابيع الصيف الأخيرة، نهيم أملين أن تمرّ بنا الفتاة التي وقنا في حبّها في آخر حفلة راقصة من العام والتي لن يسعنا من بعد أن نلقاها ثانية في أيّة أمسية قبل الربيع القادم، إذ لا نعلم من بعد أين نلتقيها، بل إن لم تكن قد غادرت باريس. وإذا نحس أننا في عشية رحيل المحبوب، وربّما في غدائه، فإننا نسير على حافة الماء المرتعش في تلك المسالك الجميلة حيث تزهو ورقة أولى حمراء وكأنّها ودرّة أخيرة، ونتحرّى ذاك الأفق حيث لا تعلم عينانا، من جرّاء خدعة معاكسة لخدعة تلك المناظر التي تضيئ الأشخاص الشمعية الأمامية تحت استدارتها،

تضفي على اللوحة الخلفية المرسومة مظهر العمق والحجم الخداع، لاتعلم عينانا، إذ تنتقلان دون تمهيد من الروضة المزروعة إلى المرتفعات الطبيعية العائدة لـ «مودون» وجبل «فاليريان»، أين تضعان حدوداً وتدخلان السهول الحقيقية ضمن أعمال البستنة فتنقلان إلى ما خلف حدودها ذاتها متعتها الصنعية، وهو شأن تلك الطيور النادرة التي تنشأ طليقة في حديقة نبات والتي تمضي كل يوم على هوى نزهاتها المجنحة فتضع حتى في قلب الأحراج المجاورة لونا غريباً. وإنا لنطوف بقلبي، بين آخر احتفالات الصيف وغربة الشتاء، في هذه المملكة الخيالية للقاءات غير المؤكدة وكآبات الغرام ولعلّه لن يدهشنا أن تقع خارج العالم الجغرافي أكثر مما لو تم لنا في «فيرساي» في أعلى الشرفة، هذا المرقب الذي تراكم السحب من حوله وتبرز على السماء الزرقاء وفق أسلوب «فان دير مولن»، أن نعلم، بعدما ارتفعنا على هذا النحو خارج الطبيعة، أن القرى، في المكان الذي تعود تلك الطبيعة فتبدأ فيه من جديد في آخر القناة الكبرى، تلك القرى التي لا نقوى على تمييزها في الأفق الملتحم كالبهر، إنما تدعى «فلوروس» أو «نيمينغ».

وبعدما تمرّ آخر عربة، حينما نشعر شعوراً مؤلماً بأنّها لن تجيء من بعد، نمضي للعشاء في الجزيرة. وفوق أشجار الصفصاف المرتعشة التي تذكر إلى مالا نهاية بأسرار المساء أكثر مما تشكل جواباً لها، تضفي سحابة وردية لونا أخيراً من الحياة في السماء الساكنة. وتسقط بعض قطرات من المطر دونما ضجة فوق الماء العتيق الذي ظلّ أبداً، في طفولته الرائعة، على حاله بالأمس والذي ينسى في كل لحظة صور السحب والأزهار وبعد أن تكافح أزهار الجير انبوم دون جدوى ضدّ الغسق المحلولك وذلك بتكثيف ضياء ألوانها، يقبل ضباب فيغمر الجزيرة التي تغفو. وتتزّه في العتمة الرطبة على امتداد الماء، وأكثر مافي الأمر أن تدهشك خطرة تمّ يمرّ هادئاً مثلماً في سرير ليليّ عينا طفل تنفتحان لحظة وابتهامته وماكنت تحسبه مستيقظاً. حينئذ تود لو تصحبك حبيبة وعلى نحو يتزايد بمقدار ما تلقي نفسك وحيداً ويسعك الظنّ بأنك بعيد.

ولكن، كم كنت أزداد سعادة، في هذه الجزيرة التي كثيراً ما يغمرها الضباب حتى في الصيف، أن أصطبغ السيدة «دوستير ماريا» الآن وقد حلّ الفصل المشؤوم، وقد حلّ آخر الخريف! ولو لم يجعل الطقس السائد منذ نهار الأحد، لو لم يجعل بمفرده المناطق التي يعيش فيها خيالي غائمة بحرية— مثلما تجعلها فصول أخرى معطرة منورة إيطالية— لكان أملّي في امتلاك السيدة «دوستير ماريا» بعد بضعة أيام كافياً ليتمدّ عشرين مرة في الساعة ستاراً من الضباب في خيالي الذي يعصف به حنين لا يتبدّل. والضباب الذي كان قد امتدّ منذ البارحة حتى فوق باريس لم يكن يذكّرني على أية حال دون انقطاع بمسقط رأس الإمراة الشابة التي أقدمت على دعوتها فحسب، بل لما كان من المرجح أنّه سيغمر الغابة في المساء وهو أشدّ كثافة منه في المدينة، ولاسيما على ضفة البحيرة، فقد ظننت أنّه سوف يحيل من أجلي جزيرة طيور التّم إلى ما يقرب من جزيرة «بريتانيه» التي أحاط جوّها البحريّ والضبابي أبداً في نظري إحاطة الرداء بطيف السيدة «دوستير ماريا» الشاحب. صحيح أن رغبتنا واعتقادنا ونحن أحداث، وفي سنّي يوم كنت أقوم بنزهاتي في جانب «ميز كيليز» إنما يضيفان على رداء المرأة خاصية فردية وجوهرأ لا يردّ إلى سواء. فانت تلاحق الحقيقة. ولكنّما يبلغ بك في النهاية، لكثرة ما تفلت منك، أن تلاحظ أنّه قد ظلّ لديك من خلال جميع تلك المحاولات اللامجدية التي أفضت بك إلى العدم شيء صلب، وهو ما كنت تبحث عنه. وتبدأ باستخلاص ما تحبّ وتعرفه وتحاول الحصول عليه ولو كان ذلك لقاء خدعة، حينئذ إنما يعني الثوب، في غياب الاعتقاد المتلاشي، ما يقوم مقام

هذا الأخير بوساطة وهم متعمد. كنت أعلم تمام العلم أنني لن ألقى «بريتانيه» على مسافة نصف ساعة من بيتي. ولكنني سوف أفعل وأنا أعانق أثناء الزهرة السيّدة «دوستير ماريا» في ظلمات الجزيرة على ضفاف الماء، سوف أفعل ما يفعله آخرون ممن لا يستطيعون الدخول إلى دير فيلبسون امرأة قبل امتلاكها ثوب الراهبات على الأقل.

كان بوسعي حتى أن أمني النفس بسماع بعض ثرثرة الموج برفقة المرأة الشابة لأن عاصفة هبت عشيّة دعوة العشاء. وكنت أخذاً في حلاقة ذقني للذهاب إلى الجزيرة بغية حجز الحجرة (على الرغم من خلوّ الجزيرة في هذه الفترة من العام وإقفار المطعم) وتقرير أطباق الطعام لعشاء الغد عندما أنبأني «فرانسواز» بقدوم «ألبيرتين» وأمرت بأن تدخل في الحال، غير عابئة بأن تراني يقبطني ذقن أسود، تلك التي ما كنت أجدني يوماً في «باليك» على جمال كاف بالنسبة إليها والتي كلفّنتني آنذاك ما تكلفني السيّدة «دوستير ماريا» الآن من اضطراب ومشقة. كان يهمني أن تحمّل هذه الأخيرة أفضل انطباع ممكن عن سهرة الغد. ولذلك سألت «ألبيرتين» أن ترافقني في الحال حتى الجزيرة كي تساعدني على وضع لائحة الأطباق. إن التي نمنحها كل شيء سرعان ما نحلّ أخرى محلها حتى لنعجب أن نهب مالدينا من جديد وفي كلّ ساعة دون أمل في المستقبل وبدا وجه «ألبيرتين» المشرق المورد تحت قبعة عريضة تنخفض إلى حدّ كبير حتى لتحجب العينين، بدا وكأنه حائر. فلا بد أن مقاصدها كانت مختلفة، وقد ضحكت بها بيسر على آية حال من أجلي فبعثت في نفسي ارتياحاً كبيراً لأنني كنت أعلّق الكثير من الأهمية على أن أصطحب ربة منزل شابة تعرف أفضل مني بكثير كيف توصي على طعام العشاء.

والأكيد أنها كانت قد مثلت بالنسبة إليّ أمراً مختلفاً تمام الاختلاف في «باليك». ولكنّ ألفتنا، حتى حينما نحكم أنها ليست حيثنّد كافية الوثاقة، بامرأة نهيم بحبها إنما تنشئ بينها وبيننا، على الرغم من النواقص التي تعذبنا آنذاك، روابط اجتماعية تظلّ قائمة بعد حبنا وحتى بعد ذكر حبنا. حينئذ يدهشنا ويسلينا، في التي لم تعد بالنسبة إلينا سوى وسيلة ودرب يقودنا إلى أخريات غيرها، أن نعلم من ذاكرتنا ما عناء اسمها من أمر غريب بالنسبة إلى الكائن الآخر الذي سبق أن كنّاه بالأمس، بمقدار ما يتمّ لنا إن انتبهنا، بعدما تلقينا إلى الحوزي بعنوان في جادة «الكبوشيات» أو جادة «المعبرة» فيما نفكر فحسب بالمرأة التي نزع أن نلقاها فيهما، أن هذين الأسمين كانا فيما مضى اسم الراهبات الكبوشيات اللواتي يقوم ديرهنّ هناك واسم الزورق الذي كان يعبر نهر «السين».

صحيح أن أشواقني في «باليك» كانت قد أنضجت إلى أبعد الحدود جسد «ألبيرتين» وراكت فيه مذاقات نديّة وعذبة حتى أنني كنت أقول في نفسي، أثناء مشوارنا في الغابة، وفيما كانت الريح، شأن بستانني دقيق في عمله، تهزّ الأشجار وتسقط الثمار وتكنس الأوراق اليابسة، إنّي ربما حدّدت لـ «ألبيرتين» موعداً في المساء نفسه وفي ساعة متأخرة إن اتفق أن كان «سان لو» مخطئاً، أو كنت أسأت فهم رسالته فلا يفضي بي عشائني برفقة السيّدة «دوستير ماريا» إلى شيء، وذلك كي أنسى على مدى ساعة غرامية بهتة، وأنا أمسك بين ذراعي الجسد الذي سبق أن خمنّ فضولي بالأمس وراز جميع صنوف الفتنّة التي يزرعها الآن، إنفعالات بداية الحبّ هذه للسيّدة «دوستير ماريا» وربما صنوف كربتها. وصحيح أنني لو أمكنتني افتراض أن السيّدة

«دو ستير ماريا» لن تمنّ علي بأي شيء في هذه الأمسية الأولى كنت تمثلت سهرتي وإياها على نحو مخيبٍ للآمال إلى حدّ ما. كنت أعلم بالتجربة أنّ العلم كيف أن المرحلتين اللتين تتعاقبان داخلنا في بدايات الحب هذا لامرأة اشتتهيناها دون أن نعرفها إذ أحببنا فيها الحياة الخاصة التي تغمرها أكثر منها ذاتها وهي لا تزال مجهولة لدينا تقريباً - كيف أن هاتين المرحلتين تنعكسان انعكاساً غريباً في مجال الوقائع، واعني لا في داخلنا من بعد بل في مواعيدنا معها. لقد تردّدنا، دون أن نكون نحدّثنا إليها في يوم، وقد وقعنا في إغراء الشعر الذي تمثله في نظرنا فهل تكون هي أو أخرى غيرها؟ فإذا بالأحلام تستقرّ من حولها ولا تؤلف من بعد إلا شيئاً واحداً معها.

ولابدّ أن يعكس أوّل موعد معها هذا الحب الوليد. ولايتمّ شيء من ذلك، وكما لو كان من الضروري أن تكون للحياة الماديّة أيضاً مرحلتها الأولى فأنا نتحدث إليها، وقد أحببناها مذ ذاك، أنفه الحديث: «لقد طلبت إليك الجحى للعشاء في هذه الجزيرة لأنني حسبت أن الموقع سيروقك. وليس لدي على أي حال أمر خاص أقوله لك. ولكنّي أخشى أن يكون الطقس رطباً جداً وأن يصيبك البرد». - «لا، لا». - «تقولين ما تقولين تطفلاً. إنّي أسمح لك ياسيدي أن تكافحي البرد ربع ساعة أيضاً كي لا أشيع الضيق في نفسك، ولكنّي سوف أعيدك بالقوّة بعد ربع ساعة، فلست أريد أن تصابي بزكام». ونعيدها دون أن نكون قلنا لها شيئاً ولا نتذكّر شيئاً منها، أو على الأكثر طريقة معيّنة ننظر بها، ولكننا لا نفكر إلا في لقاءها ثانية. بيد أن المرحلة الأولى، في المرة الثانية (وما عدنا نلقى حتّى النظرة، وهي الذكرى الوحيدة، ولكننا لانفكر من بعد على الرغم من ذلك - بل وأكثر بكثير من ذي قبل - إلا بلقائها ثانية) قد تم تجاوزها. ولم يجر شيء في غضون ذلك. بيد أننا نقول، عوضاً عن أن نتكلّم عن أسباب الراحة في المطعم، نقول، دون أن يدعش الأمر المرأة الجديدة التي نراها قبيحة ولكننا نودّ لو يحدثونها عنا على مدى كامل دقائق حياتها: «سوف يقع علينا أن نفعل الكثير كي نتغلب على سائر العقبات المراكمة بين قلوبنا. أنظنيننا نفلح في ذلك؟ وهل تتصورين أننا سنستطيع أن نقهر اعداءنا وأن نأمل مستقبلاً سعيداً؟» على أن هذه الأحاديث المتعارضة التي لا طائل تحتها بادئ الأمر والتي تلمح بعد ذلك إلى الحب لن تجري وكان بوسعي أن أصدق في ذلك رسالة «سان لو» فالسيدة «دوستير ماريا» سوف تسلم نفسها منذ أوّل مساء ولن تلج بي الحاجة إذن إلى استدعاء «ألبيرتين» إلى منزلي بمثابة أسوأ حلّ لنهاية السهرة. كان ذلك غير ذي جدوى وما كان «روبير» يبالغ قطّ ورسالته واضحة.

كانت «ألبيرتين» قليلة الكلام إذ تخسّني مشغول البال. وقمنا ببضع خطوات سيراً على الأقدام داخل المغارة المخفضة التي تقرب أن تكون بحرية لدوحة كثيفة كنّا نسمع الريح تعصف بقبتها وترشها بالمطر. وكنت أدوس الأوراق اليابسة التي تنغرس في الأرض مثلما الأصداغ وأدفع بعصاي كستناء شائكة كرخويات الأحيوس.

كانت الأوراق الأخيرة المتقبضة فوق الأغصان لاتتبع الريح إلا بقدر طول معلاقها، ولكنّها كانت تهوي أحياناً على الأرض إن انقطع فتلحق بها جرياً. وكنت أفكر بسرور إلى أي مدى ستضحى الجزيرة في غد، إن دام هذا الطقس، أكثر بعداً ومقفرة إقماراً كلياً في جميع الأحوال. وعدنا فصعدنا إلى العربة، ولما كانت العصفرة قد هدأت سألتني «ألبيرتين» أن أتابع السير حتّى «سان كلو». وكمثل الأوراق اليابسة على الأرض

كانت السحب في السماء تتبع الريح. كان ثمة عثيات مهاجرة، يكشف ضرب من المقطع المخروطي في السماء عن تناضدها الوردي والأزرق والأخضر، قد جهزت تماماً للانطلاق إلى مناخات أكثر صحواً. وكما تبصر «ألبيرتين» عن كتب إلهة من المرمر كانت تندفع من قاعدتها وتملأ، إذ هي وحيدة في حرج كبير يبدو وكأنما كرس لها، تملأ ذلك الحرج بالرعب الأساطيري الذي نصفه حيواني والنصف مقدس والمنبعث من وثباتها العنيفة، كيما تبصرها اعتلت أكمة فيما كنت انتظرها على الدرب. كانت تبدو بدورها، إما شوهدت هكذا من أسفل، وليست من بعد سمنية بدينة شأنها على سريري في ذاك اليوم الذي تظهر فيه تحببات عنقها تحت مكبرة عيني القريتين، بل منمقة الخطوط ورشيقة، كانت تبدو وكأنها تمثال صغير خلقت عليها لحظات «باليك» السعيدة قشرتها الرقيقة وحينما عدت فوجدتني وحيداً في منزلي قلت في نفسي، وأنا أذكر أنني قمت بمشوار بعد الظهر برفقة «ألبيرتين» وأني أتغدي بعد الغد لدى السيِّدة «دو غير مانت»، وأنه ينبغي لي أن أجيب عن رسالة لـ «جيلبيرت»، وهن ثلاث نساء كنت أحببتهن، قلت إن حياتنا الاجتماعية تزخر، شأن مشغل فنان، بمحاولات مهجورة ظناً أنه يسعنا أن نثبت فيها حاجتنا إلى حب كبير، ولكنما لم يخطر لي أنه قد يتفق لنا أحياناً، إن لم تكن المحاولة مغرقة في القدم، أن نستعيدها وأن نجعل منها عملاً مختلفاً أتم الاختلاف، بل ربما كان أكثر أهمية من ذلك الذي سبق أن عقدنا عليه العزم بادئ الأمر.

وفي الغد كان الطقس بارداً وصحواً؛ كنت تحس الشتاء (وكان في الواقع شديد التسبيق حتى ليبدو من قبيل الأعجوبة إن كنا استطعنا أن نلقى في الغابة الخربة بعض القباب التي من أخضر ذهبي)، وأبصرت. وأنا أستيقظ، وكأنما من نافذة ثكنة «دونسير» الضباب الكامد المتساوي الأبيض يتدلى بمرح في الشمس متماسكاً ناعماً كالسكر المغزول. ثم اختفت الشمس فتكاثف أيضاً بعد الظهر. وحلّ الليل في ساعة مبكرة فقامت بارتداء ملابس لي ولكن الوقت كان لا يزال مبكراً جداً للذهاب. وقررت إرسال عربة للسيِّدة «دو ستير ماريا». ولم أجزؤ على الصعود إليها كيلا أرغمها على قطع الطريق برفقتي، ولكنني سلمت الحودي «كلمة» لها أسألهما فيها إن كانت تأذن بأن أجيء لاصطحابها ويانتظار ذلك استلقيت على سريري وأطبقت عيني لحظة ثم عدت ففتحتهما من جديد. لم يعد ثمة فوق الستائر سوى حاشية دقيقة من الضوء آخذة في الإظلام. كنت أستبين هذه الساعة اللا مجدية، دهليز المتعة العميق، التي تعلمت في «باليك» كيف أتعرف فراغها العاتم اللذيذ حينما أشاهد، وأنا وحيد في غرفتي شأني الآن، وفيما الآخرون جميعهم على مائدة العشاء، أشاهد دون اغتمام احتضار النهار فوق الستائر وأعلم أنه يزعم عما قليل، وبعد ليلة قصيرة قصر ليالي القطب، أن ينبعث أشد سطوعاً في لآء «ريفيل» فأقفز من سريري وأعددت ربطة عنقي السوداء وأمررت الفرشاة في شعري، وهي آخر حركات في ترتيب متأخر أقوم بها في «باليك» وأنا أفكر لا في بل في النساء اللواتي سأشاهدن في «ريفيل» فيما كنت ابتمس لهن مسبقاً في المرأة المائلة في غرفتي، وقد ظلت تلك الحركات لذلك العلامات التي تبشر بلهو متمرج فيه الأضواء والموسيقى. فكانت شأن علامات سحرية توحى به بل بتحقيقه مذ ذلك، ويتجمع لديّ بفضلها فكرة مؤكدة عن حقيقته واستمتاع مسكر طائش في مثل تمام يقين ما كان يتجمع لديّ في «كومبريه» في شهر تموز حينما أسمع ضربات مطرقة حازم المتاع واستمتع في برودة غرفتي السوداء بالدفء والشمس.

ولم تعد السيِّدة «دو ستير ماريا» لذلك، لم تعد تماماً من لعلني كنت أتوق إلى لقاءها. ولعلني كنت

أفضل وأنا مضطّر الآن لقضاء سهرتي معها، وإذ كانت تلك آخر سهرة لي قبل رجوع والدي، أن تظلّ حرّة وأن يمكنني محاولة لقاء نسوة من «ريفيل» مجدداً. وعدت فغسلت يدي مرّة أخيرة ونشفتهم، أثناء الجولة التي كان السرور يحملني على القيام بها عبر الشقة، في قاعة الطعام المظلمة. وبدأت لي مفتوحة على الردهة المضاءة، ولكنّ ما أخذته على أنّه الشق المضاء في الباب الذي كان على العكس مغلقاً لم يكن سوى انعكاس منشفتي الأبيض في مرآة وضعت بمحاذاة الجدار بانتظار أن توضع في مكانها من أجل عودة أمي. وعدت بالفكر ثانية إلى جميع ضروب السراب التي سبق أن اكتشفتها على هذا النحو في شقتنا والتي لم تكن خدعاً بصريّة فحسب، ذلك أنّه خيل إليّ في الأيام الأولى أن جارتنا تملك كلباً من جراء النباح المتطاوّل والبشريّ تقريباً الذي تعودته أنبوب في المطبخ في كل مرة يفتح فيها صنوبر الماء. وما كان الباب المطلّ على صحن الدرج ينغلق من تلقاء ذاته ببطء شديد على إثر تيارات الهواء في الأدراج إلّا بأداء نفث الجمل التي تنضح شهوة وشكوى والتي تنضاف إلى نشيد جوقة الحجاج في نهاية افتتاحية «تانهويزر»^(١). وقد سنحت لي الفرصة على أية حال، بعدما قمت باعادة منشفتي إلى مكانها، أن استمع ثانية إلى هذه المقطوعة السمفونية الرائعة، إذ جريت بعدما دوت رنة جرس لأفتح باب الردهة للحوذي الذي يحمل إليّ الجواب. كنت أحسب أنّ الأمر من هذا القبيل: «إن هذه السيّدة في الأسفل»، أو «هذه السيّدة تنتظرك» ولكنه كان يمسك رسالة بيده. وتردّدت لحظة في الإطلاع على ماسطرته السيّدة «دو ستير ماريا» التي كان يمكن أن تكون على غير هذه الصورة مادامت الريشة في يدها ولكنها الآن، وقد أفلتت منها، مصير يوالي طريقه وحده ولاستطيع أن تبدّل شيئاً فيه من بعد. وطلبت من الحوذي النزول والانتظار لحظة على الرغم من تذرّمة من الضباب وما أن انصرف حتّى فضضت المغلف. وعلى البطاقة كانت مدعوتي الفيكونتيسة «أليكس دو ستير ماريا» قد خطت: «إني مغتمة. ثمة ظرف طارئ يحول دون عشائي هذا المساء برفقتك في جزيرة الغابة. كنت مغتعبة بذلك. سوف أكتب إليك مطوّلاً من «ستير ماريا» إليك أسفي ومودتي». وظللت لأحرك بي وقد أذهلتني الصدمة التي أصبت بها. كانت البطاقة والمغلف قد سقطا على قدمي كحشوة سلاح ناري بعدما تنطلق القذيفة. ولمتهدما وحللت تلك الجملة «تقول لي إنّها لا تستطيع تناول العشاء معي في جزيرة الغابة». فيمكن أن نستخلص من ذلك أنّها قد تستطيع العشاء معي في مكان آخر. لن أنطفل فأمضي لاصطحابها، ولكنّما يمكن في النهاية فهم الأمر على هذا النحو. ولما كان فكري قد أقام سلفاً منذ أربعة أيام في جزيرة الغابة هذه مع السيّدة «دو ستير ماريا» فلم يكن بمقدوري أن أقبلح في إعادته منها. كانت، رغبتني تتخذ غير متعمدة المنحدر الذي سارت عليه منذ العديد من الساعات، وعلى الرغم من تلك البرقية، وهي أقرب عهداً من أن تقوى عليها، كنت أستعدّ تلقائياً للذهاب مثلما يؤدّ تلميذ راسب في امتحان أن يجيب عن سؤال آخر إضافي. وانتهى بي الأمر أن أقرّر الذهاب لأقول لـ «فرانسواز» ان تنزل وتدفع للحوذي. واجتزت الممرّ وإذ لم ألقها مررت في قاعة الطعام. وفجأة كفت خطاي عن الضجيج فوق الأرضية الخشبية مثلما سبق أن فعلت حتّى ذاك وخرست يلقها صمت خلف في نفسي حتّى قبل أن أعرف سببه شعوراً بالاختناق والاحتجاز. كان ذلك السجاد الذي شرعوا يشترونه بالمسامير من أجل عودة والدي، هذا السجاد الشديد الجمال في الصبيحات السعيدة حينما تنتظرك الشمس عبر

(١) مسرحية غنائية شهيرة لـ «فاغنر».

تبعثره شأن صديق جاء ليصطحبك إلى غداء في الريف، ويخطّ فوقه نظرة الغابة، ولكنه يمثل الآن على العكس أوّل تجهيز للسجن الشتائي الذي لن أستطيع من بعد مغادرته بملء الحرية فيما أزمع أن أعيش فيه وأتناول طعامي فيه مع أسرتي مرغماً. وصاحت بي «فرانسواز» :

– «فيلخترس سيدي من السقوط فأنه لم يسمر بعد. كان ينبغي أن أوقد النار، فأننا في آخر «أيلول»، وقد انقضت أيام الصيف».

عما قليل يحل الشتاء، وفي زاوية النافذة عرق من الثلج المتصلب وكأنما على زجاج من «غاليه». وحتى في محلة «الشانزيليزه» ليس سوى عصافير الدوري عوضاً عن الفتيات اللواتي تنتظرهنّ.

ما كان يزيد من كآبتي ألا ألقى السيّد «دوستير ماريا» أن جوابها كان يحملني على الظنّ بأنّها لم تفكر دون شكّ مرة واحدة بذلك العشاء فيما لم أعش منذ يوم الأحد إلا من أجله ساعة فساعة. وقد علمت فيما بعد أنّها أقدمت على زواج حبّ لا يصدق بشاب لا بد أنّها كانت تلتقيه في تلك الفترة وقد أنساها دونما شكّ دعوتي. ذلك لأنّها لو تذكرتها لما انتظرت دون ريب العربة التي ما كنت أزمع أن أبعث بها إليها على أية حال، وفق ما اتفقنا عليه، كيما تخطرني بأنّها لم تكن غير مرتبطة بموعد. كانت أحلامي، أحلام عذراء إقطاع في جزيرة ضبابية، قد أفسحت الطريق لحبّ لم يكن بعد قائماً. وكان باستطاعة خيبة أملي الآن وحقيقي ورغبتني اليائسة في استعادة تلك التي أقدمت على استبعادي، كان باستطاعتها، وقد أشركت بالأمر مشاعري، أن تثبت الحب الممكن الذي كان محض خيالي حتّى ذاك قد قدمه لي ولكن على نحو أقلّ تماسكاً.

كم من وجه فتاة وامرأة شابة يعمر ذكرياتنا، وأكثر منها في زوايا النسيان، وكلها مختلفة ولم نصف إليها سحراً وشوقاً محموماً إلى لقاءهنّ إلا لأنهنّ تهرين في آخر لحظة! أما فيما يخص السيّد «دوستير ماريا» فالأمر أكثر بكثير وكان يكفيني الآن كيما أحبها أن أعود فألقاها كي تتجدّد تلك المشاعر المتقدمة والبالغة القصر والتي ما كانت الذاكرة لتقوى لولا ذاك على الاحتفاظ بها في الغياب. وقد قضت الظروف بغير ذلك فلم أرها ثانية. ما كانت هي من أحببت، بيد أنه كان بالأمكان أن تكون هي. وإن من بين ما جعل الحب الكبير الذي كنت وشيك الوقوع فيه أكثر ما يكون قسوة أن قلت في نفسي، وأنا أتذكر هذه الأمسية، إنه كان يمكن، لو تبدّلت ظروف بسيطة جداً، أن ينصرف إلى اتجاه آخر، إلى السيّد «دوستير ماريا». فلم يكن إذن، وقد انصب على تلك التي أوحّت إلي به بعد ذلك بقليل، لازماً لزوماً مطلقاً ومقدر الوقوع كما لعلني كنت راغباً إلى حدّ بعيد وكانت بي حاجة إلى تصديقه.

كانت «فرانسواز» قد تركتني وحدي في قاعة الطعام وهي تقول لي إني مخطئ إن مكثت فيها قبل أن توقد النار. لقد ذهبت لإعداد العشاء، ولقد بدأت عزلي حتّى قبل وصول والديّ ومنذ هذا المساء. ولحت رزمة ضخمة من السجاد لانزال ملفوفة وقد وضعت في زاوية الصوان فأخفيت رأسي فيها أبتلع غبارها ودموعي، شأنّي شأن اليهود الذين كان يغطون رؤوسهم بالرماد أيام الحداد، وطفقت انتحب. كنت أرعش لا من جرّاء أن الحجرة كانت باردة فحسب، بل لأنّ انخفاضاً حرارياً هاماً (ولا نحاول مقاومة خطره، بل ربما انبغى أن نقول اللذة الطفيفة الناجمة عنه) إنما تشبه بعض دموع تنهمر من عينينا قطرة قطرة مثل مطر خفيف نفاذ شديد البرودة يبدو وكأنّه لا يزمع أن يتوقف في يوم. وسمعت فجأة صوتاً يقول:

«هل أستطيع الدخول؟ قالت لي «قرانسواز» إنك لابد في قاعة الطعام. لقد جئت استطلع إن كنت لاتود أن نذهب لتناول العشاء معاً في أي مكان، وإن كان ذلك لا يؤذيكَ إذ الضباب كثيف حتى لتقطعه بالسكين».

وكان «روبير دو سان لو»، وهو وصل في الصباح في حين كنت أظنه لا يزال في المغرب أو في عرض البحر. لقد قلت رأيي في الصداقة (وكان «روبير دو سان لو» بالضبط هو الذي مدّ لي يد العون رغمًا عنه لأعي ذلك): ومفاده أنها أمر زهيد إلى حدّ أنه يعسر عليّ إدراك أن يكون رجال على شيء من النبوغ من أمثال «نيتشه» قد بلغوا من السذاجة أن يخصوها بقيمة فكرية وأن يمتنعوا بالتالي عن صداقات لاصلة لها بالتقدير الفكري. أجل لقد أدهشني أبداً أن أرى أن رجلاً كان يبلغ بالصراحة مع ذاته حدّ الانقطاع عن موسيقى «فاغنر» بداع من رهافة الوجدان قد تصوّر أنّ الحقيقة يمكن أن تتحقق في صيغة تعبير هي غامضة بطبيعتها وغير ملائمة وقوامها أعمال على وجه العموم وصداقات على وجه الخصوص وأنه يمكن أن تكون ثمة دلالة، آية دلالة، في أن تترك المرء عمله ليذهب للقاء صديق ويكي معه إذ يحاط علماً بنبأ حريق «اللوفر» الكاذب لقد بلغ بي في «باليك» أن أرى متعة اللهو مع فتيات أقل شؤماً على الحياة الروحية، وإنها لتظل على الأقل غريبة عنها، من الصداقة التي ينصرف كامل جهدها إلى حملنا على التضحية بالجزء الوحيد الحقيقي الممتنع على التواصل (بغير وساطة الفن) من ذواتنا لصالح «أنا» سطحية لا تجد كذلك الأخرى مسرة في ذاتها بل تجد تأثراً غامضاً في الإحساس بأنها تستند إلى ركائز خارجية وتستريح في شخصية غريبة تبث منها، وقد أسعدتها الحماية التي توفر لها هئاءها استحساناً وتستعجب من صفات لعلها تدعوها عيوباً لديها وتخالو إصلاحها. وإن مزدري الصداقة ليستطيعون على آية حال، يستطيعون دون توهّم لا دون وخز ضمير، أن يكونوا أفضل أصدقاء في العالم مثلما يهب فنان يحمل في ذاته رائعة فنية ويحس أن واجبه يقتضيه أن يعيش ليعمل، يهب على الرغم من ذلك، وكبي لا يبدو أنانياً أو يقع له أن يكونه، حياته في سبيل قضية لاطائل تحتها ويهبها بشجاعة تتزايد بمقدار ما كانت الأسباب التي ربما فضل ألا يهبها من أجلها أسباباً متجردة. ولكن أياً كان رأيي في الصداقة، حتّى إن لم أتحدث إلا عن المتعة التي كانت توفرها لي وهي من نوعية ضحلة حتّى لتشبه ما كان واقعاً بين التعب والملل، فليس من شراب، مهما يكن مشؤوماً، إلا ويستطيع أن يضحي في بعض الساعات ثميناً مشجعاً إذ يجيئنا بضربة السوط التي كانت تلزمننا وبالحرارة التي لا نستطيع أن نجد لها في ذواتنا.

وما أبعد ما كنت بالحقيقة عن أن ابتغي سؤال «سان لو»، مثلما كنت راغباً في ذلك قبل ساعة، أن يهيئ لي لقاء جديداً مع نسوة «ريفيل»، فالأخود الذي خلفه في نفسي أسفي على السيّد «دو ستير ماري» كان يرفض أن يمحي بهذه السرعة، ولكننا حين لم أعد أحس في نفسي آياً من أسباب السعادة كان دخول «سان لو» بمثابة حلول لطيفة ومرح وحياة كانت خارج ذاتي دونما شك ولكننا كانت تقدّم نفسها ولا ينبغي إلا أن تكون لي. ولم يدرك هو نفسه صيحة امتناني ودموع تأثري. فهل هنالك ما كان أكثر مودة على نحو مفارق على أيّ حال من واحد من هؤلاء الأصدقاء، ديبلوماسياً كان أو مكتشفاً أو طياراً أو جندياً شأن ما كان «سان لو»، الذين يبدون، وهم يعودون في الغد إلى الريف ومن هناك إلى حيث يعلم الله. وكأنهم يضمنون لأنفسهم السهرة التي يكرسونها لنا انطباعاً يدهشنا أن يستطيع، لشدة ندرته وقصره، أن يلذ لهم إلى هذا الحدّ، وأن نراهم لا يطيّلون فيه أكثر من ذلك أو لا يجدونه مرات أكثر بما أنه يروقههم إلى هذا الحدّ؟ إن طعاماً

يتناولونه معنا، وهو أمر طبيعي جداً، إنما يولي هؤلاء المسافرين المتعة الغريبة واللذيذة نفسها التي توليها شوارعنا لأحد الأسويين. وذهبنا سوية لتناول طعام العشاء، وفيما كنت أنحدر على الأدراج تذكرت «دونسير»، حيث كنت أمضي كل مساء للحاق بـ «روبير» في المطعم، وحجرات الطعام الصغيرة المنسية. وتذكرت واحدة لم أكن قد عدت إلى التفكير بها قط ولم تكن في الفندق الذي كان «سان لو» يتعشى فيه بل في آخر أكثر اتضاعاً بكثير وهو وسط بين الفنادق والنزل العائلية وتقدم الطعام لك فيه صاحبه واحدة من خادمتها. وكان الثلج قد أوقفني هنالك، ولم يكن «روبير» يزعم في ذلك المساء أن يتناول العشاء في الفندق فلم أشأ أن أمضي إلى أبعد من ذلك. وحملوا إلي الأطباق إلى فوق حجرة صغيرة كلها من خشب. وانطلق المصباح في أثناء العشاء فأشعلت لي الخادمة شمعتين. أما أنا فقد تظاهرت بأنني لا أرى بوضوح تام وأنا أمد إليها قصعتي فيما كانت تضع فيها البطاطا فأخذت ساعدها العاري بيدي وكأنما لأرشدها. وإذا رأيت أنها لا تسترده قمت بمداعبتها ثم شددتها إلي كلياً دون أن أنبس ببنت شفة وأطفأت الشمعة وقلت لها حينئذ أن تفتشني كي تحصل على بعض المال. وبدأ لي في الأيام التي تلت أن المتعة الجسدية تقتضي، كيما يتم تذوقها، لتلك الخادمة فحسب، بل حجرة الطعام الخشبية المعزولة تماماً. بيد أنني إنما عدت في كل مساء إلى حجرة الطعام التي كان «روبير» وأصدقائه يتعشون فيها، بداعي العادة، بداعي الصداقة وذلك حتى رحيلي من «دونسير» على أنني لم أعد أفكر منذ فترة طويلة حتى بذلك الفندق الذي كان يحلّ نزيراً فيه مع أصدقائه. إنما لانفيد من حياتنا وندع الساعات التي بدا لنا أنه يمكن لقليل من الراحة أو المتعة أن يحتبس فيها، ندعها غير مكتملة في سويحات الشفق في الصيف وفي ليالي الشتاء المبكرة. ولكن هذه الساعات لا تذهب هدراً. فحينما تصدح لحظات جديدة من المتعة، وقد تنقضي على نحوها وفي مثل نحولها وخطيتها، تقبل لتحمل إليها قاعدة ارتكازها وتماسك جوقه غنية من الذكريات، وتمتد هكذا حتى واحد من صنوف السعادة النموذجية التي لا نلقاها إلا بين حين وآخر ولكنها تستمر في البقاء؛ وفي المثال الراهن كان قوام الأمر التخلي عن الباقي كله لتناول العشاء في إطار مريح يتضمن بفضل الذكريات داخل لوحة طبيعية وعوداً بالسفر، برفقة صديق سوف يحرك حياتنا الراكدة بكل طاقته وكل مودته ويبعث في نفسنا متعة تهزّ مشاعرنا وهي شديدة الاختلاف عن تلك التي يمكن أن ندين بها لجهننا الخاص أو لصنوف من اللهو الاجتماعي. وسوف ننصرف إليه وحده ونبشه عهود الصداقة التي ربما لم يرب بها بما آتيا ولدت ضمن قضبان هذه الساعة وستظل حبيسة داخلها، ولكنني كنت أستطيع أن أثبت دون توجس لـ «سان لو» بما أنه سيكون قد رحل في الغد بشجاعة بداخلها الكثير من الحكمة واستشفاف أن الصداقة لا يمكن أن تعمق.

ولكن كنت أعيش ثانياً عشيات «دونسير» فيما أنحدر على الأدراج فإن الليل المطبق، حينما بلغنا الجادة، الليل الذي بدا فيه الضباب وكأنه أطقاً المصاييح التي ما كنت تميزها، وهي ضعيفة جداً، إلا عن قرب شديد قد ردتني إلى ما لست أدري من وصول في المساء إلى «كومبريه» حين لم تكن المدينة منارة بعد إلا على مسافات متباعدة ويتلمس المرء طريقه فيها عبر عتمة مذود رطبة دافئة مقدسة ترصعها ههنا وهناك، ولا تكاد فتيلة مصباح لا يسطع أكثر مما تفعل شمعة. ولكن آية فروق بين عام «كومبريه» هذا، وهو غير محدد على أي حال، وعشيات «ريفيل» التي عدت أراها منذ قليل فوق الستائر! كنت أحس في ترائيها لي حماسة كان يمكن أن تكون خصبة لو أنني بقيت وحدي وكانت جنبتي على هذا النحو عطفة العديد من السنوات اللا

مجدية التي أزمع المرور بها قبل أن تظهر بوادر هذه الموهبة الخفية التي يؤلف هذا الكتاب قصتها، ولو اتفق هذا الأمر في ذلك المساء لحق أن تظل هذه العربية جديرة بالذكرى في نظري أكثر من عربية الدكتور «بير سبييه» التي سبق أن ألفت على مقعدها وصفاً صغيراً لقباب أجراس «مارتنفيل» - سبق بالضبط أن عثرت عليه منذ وقت قليل مضى وربته وبعثت به، وبعثاً فعلت، إلى صحيفة الـ«فيغارو» - أفلا نتا لا نعيش ثانية سني عمرنا في تسلسلها المستمر ويوماً إثر يوم بل في الذكرى التي تسمرت في برودة أو إشماش صباح أو مساء وامتد عليها ظلّ موقع، أيّ موقع، منعزل سجين أسوار ثابت جامد قصي بعيد عن كلّ ماعده، وأنّ التبدلات المتدرجة تفضي هكذا إلى زوال لافي الخارج فحسب، بل في أحلامنا وطباعنا المتطورة التي قادتنا على نحو لاشعوري عبر الحياة من زمن إلى آخر سواء شديد الاختلاف عنه؟ فإن عشنا ثانية ذكرى أخرى نقطعها من سنة مختلفة وجدنا بينها من جرّاء ثغرات ومساحات شاسعة من النسيان ما يشبه الهوة الناجمة عن فارق الارتفاع وما يشبه تنافر مزيتين لا مجال لتشابه بينهما من هواء مستنشق وألوان محيطية. ولكنّي كنت أحسّ بين الذكريات التي توالى منذ قليل في خاطري عن «كومبريه» و«دونسيير» و«ريفيل» أكثر من فاصل الزمن، كنت أحسّ بالمسافة التي يمكن أن تقوم بين أكوام مختلفة ليست المادّة فيها واحدة. ولو شئت أن أحكي في مؤلف المادّة التي كانت أتفه ذكرياتي تبدو لي منقوشة فيها لابنّي لي أن أجعل عروفاً وردية في المادّة التي كانت تشبه حتى ذلك صخر «كومبريه» الرملي القاتم القاسي وأن أحيلها فجأة مادّة شفافة متراصة باردة رنّانة.

ولكن «روبير» لحق بي في العربية بعدما انتهى من تزويد الحوذيّ بإيضاحاته. وفرت الأفكار التي تبدّت لي. فتلك آلهات يتنازلن أحياناً ويظهرون لأحد الفنانين المتوحّدين في عطفة طريق وحتى في غرفته أثناء نومه حين يقفن بالباب ويحملن إليه بشارتهن. ولكنهنّ يختفين ما أن نضحى اثنين فالتاس إن اجتمعوا لا يشهدونهن البتة. وألفيتني أرتد إلى الصداقة.

كان «روبير» قد حذرني لدى وصوله أنّ الضباب كثيف، ولكنه لم يفتأ يزداد كثافة فيما كنّا نتحدّث. فلم يعد ذلك الضباب الخفيف الذي تمنيت أن أراه يتصاعد من الجزيرة ويلفنا أنا والسيدة «دوستير ماريا» فالمصاييح كانت تنطفئ على خطوتين ويحلّ الليل إذ ذلك حالكا حلكة وسط الحقول أو في غابة أو بالأحرى في جزيرة غير متماسكة من مقاطعة «بريتانية». كنت وددت لو أذهب إليها، وأحسستني ضائعاً وكأنما على شاطئ بحر شمالي تواجه الموت فيه عشرين مرّة قبل أن تصل إلى نزل منفرد. وأخذ الضباب يضحي، وقد كفّ عن كونه سراياً نبحت عنه، واحداً من تلك المخاطر التي نكافحها حتى أننا واجهنا لنجد طريقنا ونصل إلى دار الأمان والمصاعب والقلق ومن ثمّ الفرح الذي يوليه الأمان - وما أبعد عن إحساس من ليس مهتداً بفقدانه - للمسافر الحائر المبلبل الدهن شيء واحد أوشك أن يودي بيهجتي في أثناء رحلتنا الملائى بالأخطار بسبب الدهشة الخائفة التي رمانني فيها لحظة، فقد قال لي «سان لو»: «تدري، لقد رويت لـ «بلوك» أنك لا تحبه إطلاقاً إلى هذا الحدّ وأنت ترى له بعض جوانب سوقية». وخلص يقول قول الراضي عن نفسه بلهجة لا تقبل الجواب: «هذه حالي، إنّي أحبّ المواقف الواضحة». لقد أصابني الدهول، فلم تكن تقني مطلقة إلى أبعد حدّ بـ«سان لو» ويصدق صبحته فحسب. وقد خانها بما قاله لـ«بلوك»، ولكنّا بدا لي إلى ذلك أنّه كان لا بد له أن يحول بينه وبين ما فعل معاييه وصفاته على حدّ سواء وهذا المكتسب الخارق على صعيد التربية والذي كان يمكن أن يبلغ بالتهذيب حدّ مجانية الصراحة بعض الشيء فهل كان مظهره المظفر المظهر الذي نتخذة لنخفي

بعض الارتباك إذ نبوح بأمر نعلم أنه ما كان ينبغي لنا أن نفعله؟ وهل كان يعرب عن شيء من اللاتقدير؟ عن غباء يضع موضع الفضيلة عيباً ما كنت أعرفه لديه؟ عن نوبة غضب عابرة عليّ تدفعه إلى هجري أم تسجيل نوبة غضب عابرة لزاء «بلوك» وقد شاء أن يقول له أمراً مكثراً وإن أدى إلى الأساءة إليّ؟ كان وجهه على أي حال، وهو يقول تلك الأقوال التافهة، يند به التواء رهيب لم أبصره لديه سوى مرة أو مرتين في الحياة وكان يتبع بادئ الأمر منتصف الوجه تقريباً فاذا بلغ الشفتين لواههما فأضفى عليهما تعبيراً بشعاً من السفالة وما يقارب الحيوانية العابرة والموروثة دون شك عن الأجداد. كان لابد أن يتم في تلك اللحظات التي لا تعود دون شك سوى مرة كل سنتين احتجاب جزئي لأناء الخاصة بمرور شخصية أحد الجدود عليه وانعكاسها فيه. وكلمات «روبير» : «إنني أحبّ المواقف الواضحة» كانت تفضي إلى الريبة نفسها وربما استوجبت، لا بد في ذلك، الملامة نفسها التي تستوجبها هيئة الرضى لديه. كنت أود أن أقول له إنه ينبغي، إن أحببنا المواقف الواضحة، أن نتأبنا موجات من الصراحة فيما يتعلّق بنا وألا نبدى من سهل الفضيلة على حساب الآخرين. ولكن العربة كانت قد توقفت أمام المطعم الذي كانت واجهته العريضة المزججة المتوهجة تفلح وحدها في اختراق الظلمة. والضباب نفسه، من جرّاء الأضواء المريحة في الداخل، كان يبدو حتّى الرصيف وكأنما يدلّك على المدخل بنبطة هؤلاء الخدم الذين يعكسون نفسيات سيّدهم ؛ كان يتقزح بأكثر الألوان لطافة ويشير إلى المدخل مثل العمود المضيء الذي قاد العبرانيين. وكان الكثير منهم على أي حال بين الزبائن، ذلك أنّ «بلوك» وأصدقائه سبق أن جاؤوا على مدى فترة طويلة يلتقون في المساء وبهم نشوة صوم يجوعهم بقدر ما يفعل الصوم الطقسي الذي لا يحل على الأقل إلا مرة في العام، صوم عن المقهى، وحسب استطلاع السياسة. ولما كانت كل إثارة ذهنية تخلف قيمة تفضل سواها وميزة فائقة للعادات التي تتعلق بها فليس من ميل على شيء من القوة إلا ويؤلف على هذا النحو من حوله مجتمعاً يوحدّه ويكون تقدير الأعضاء الآخرين فيه هو التقدير الذي يسعى إليه كلّ منهم أوّل ما يسعى في الحياة. وإنك لتجد هنا، حتّى في مدينة ريفية صغيرة، عشاقاً يهيمنون بالموسيقى ؛ فهم ينفقون أفضل الوقت لديهم وأكثر ما لهم في حفلات موسيقى الحجرة، وفي الاجتماعات التي يجري الحديث فيها عن الموسيقى، وفي المقهى الذي يلتقي فيه الهواة فيما بينهم ويجلسون جنباً إلى جنب مع الموسيقيين. أمّا غيرهم فعشاق طيران وهمهم أن يحسنوا في عين خادّم البار المزجج وقد جثم في أعلى المطار. وسيستطيع هنا وهو بمأمن عن الريح، وكأنما في قفص منارة زجاجي، أن يتابع برفقة طيار لا يطير في هذا الوقت تحركات قائد طائرة يقوم بدورات عمودية حول ذاته فيما قام آخر، وكان لا يرى قبل لحظة، بالخط فجأة على الأرض والارتطام بها محدثاً الضجيج الضخم الذي لجناحي طائر الرخ. إن الجماعة الصغيرة التي كانت تلتقي لتجهد في استمرار الانفعالات الخاطفة الناجمة عن محاكمة «زولا» وتعميقها كانت تعلق كذلك أهمية كبرى على هذا المقهى. ولكنّ النبلاء الشباب الذين كانوا يؤلفون القسم الآخر من الزبائن لم يكونوا ينظرون إليها بعين الرضى وقد اتخذوا لأنفسهم قاعة ثانية في المقهى مفصولة عن الأخرى بمحض ساتر خفيف تزينه الخضرة. كانوا يعدّون «دريفوس» وأنصاره خونة على الرغم من أن أبناء هؤلاء النبلاء الشباب أنفسهم، بعد خمسة وعشرين عاماً وبعدما اتسع الوقت لتحلّ الأفكار في مراتبها ولتتخذ «النزعة الدريفوسية» في التاريخ شيئاً من الأناقة، أبناءهم البارعين في الرقص ذوي النزعة البلشفية لا بدّ سيعلنون «للمتقنين» الذين يسألونهم أنهم لو عاشوا في ذلك الزمان لكانوا بالتأكيد إلى جانب «دريفوس» دون أن يعلموا عن جوهر القضية ما يجاوز كثيراً ما يعرفونه عن الكونتيسة «أدمون دو بورتاليس» والمركيزة «دو غالفيه» ،

وهما من أمجاد أخرى انطفأت يوم مولدها. ففي أمسية الضباب هذه كان نبلاء المقهى الذين سيصبحون فيما بعد آباء هؤلاء المثقفين الشباب الدريفيوسيين النزعة باتجاه الماضي لايزالون فتياناً. صحيح أن عائلات الجميع كانت تتطلع إلى زواج غني، ولكنه لم يكن بعد قد تحقق لأحد. كان ذلك الزواج الغني الذي يشتهي كثيرون في الآن نفسه ولا يزال بعد في دنيا الاحتمال، (صحيح أن هنالك عدّة «زوجات ثريات» مرتقيات ولكن عدد البائئات الضخمة أقل بكثير من عدد المرشحين) كان يقف عند حد إثارة بعض التنافس بين هؤلاء الشباب.

وقد شاء سوء الطالع فيما يخصني أن اضطرت إلى الدخول بمفردي إذ ظلّ «سان لو» يضع دقائق يخاطب فيها الحوذي كيما يعود فيأخذنا بعد تناول العشاء. ففي البداية ظننت بعدما دخلت في الباب الدوار الذي لم أتعوّد أنني لن أفلح في الخروج منه. (ولنقل، إذ نحن بهذا الصدد، بالنسبة إلى هواة مفردات أكثر دقة، إن هذا الباب المنفاخ إنّما يدعى على الرغم من مظهره السلمي الباب المسدس، من الإنكليزية Revolving door «*) وقد لبث صاحب المطعم في ذلك المساء، إذ لم يجزّ على الليل بالذهاب خارجاً ولا على ترك زبائنه، لبث مع ذلك بالقرب من الباب كي يمتع النفس بسماع شكاوى الوافدين المبهجة وقد أشرقت أساريرهم أيما إشراق بارتياح من صافد مشقة في الوصول وخالجه الخوف من الضياع، بيد أن ودّ استقباله الضاحك تلاشى من جرّاء رؤية مجهول لا يعرف كيف يتخلص من المصاريع الزجاجية. وقد حملته علامة الجهل الفاضح هذا على تقطيب حاجبيه تقطيب فاحص شديد الرغبة في الامتناع عن النطق بعبارة «Dignus est intrare» (إنّه أهل للدخول). وزيادة في سوء الطالع ذهبت وجلست في القاعة المخصصة لأرستقراطيين فجاء يسبحني منها يخشونه وهو يدلني بفظاظة حدا حدوه فيها فوراً جميع الخدم، على مكان في القاعة الأخرى، كان إعجابي به قليلاً بمقدار ما كان المقعد الذي يقع فيه مليئاً بالناس وأنّ قبّاتي الباب المخصص للعبريين الذي لم يكن دواراً بن كان يحمل إليّ برداً مخيفاً إذ يفتح وينغلق في كل لحظة ولكن صاحب المطعم رفض خصني بمكان آخر وهو يقول: «لاياسيد، لايمكنني إزعاج الجميع من أجلك». ونسي بعد قليل على آية حال المتعشي المتأخر والمزعج الذي كنته وقد أخذه وصول كلّ وافد جديد كان عليه، قبل أن يطلب كأس البيرة أو جناح القروج البارد أو الشراب الساخن (إذ انقضت ساعة العشاء منذ وقت طويل)، كما هي الحال في الروايات القديمة، أن يشارك وذلك براوية مغامرته لحظة كان يدخل إلى ملجأ الدفء والأمان هذا حيث كان التناقض مع ما نجا منه المرء يشيع المرح وروح الرفاقية اللذين يمزجان سوية أمام نار معسكر في العراء.

كان أحدهم يروي أن عربته قد دارت ثلاث مرّات حول مبنى «الأنفاليده» إذ تبادل لها أنّها وصلت إلى جسر «الكونكوردي» وآخر أن عربته قد دخلت، وهي تحاول الإنحدار في شارع «الشانزليزيه»، في كتلة شجراء من المستديرة قضت ثلاثة أرباع الساعة في الخروج منها. ثم تلي ذلك منادب حول الضباب والبرد وصمت القبور في الشوارع كانت تحكى ويصنّى إليها بهيئة الابتهاج اللا متوقع الذي يفسره جرّ القاعة اللطيف حيث يعم الدفء باستثناء المكان الذي أشغله والنور الشديد الذي ترف له العيون وقد تعودت ألا تبصر وجبة الأحاديث التي تعيد للأذان نشاطها.

(*) الباب الدوار.

كان الوافدون يجدون مشقة في التزام الصمت. ذلك أنَّ غرابة الحوادث الطارئة، ويظنونها فريدة، كانت تكوي ألسنتهم فيبحثون بالعين عنَّ يباشرون الحديث معه. حتَّى صاحب المطعم أخذ يفقد حسَّ المسافات ولم يخش أن يقول ضاحكاً: «لقد ضاع السيد الأمير «دوفوا» ثلاث مرات وهو آت من بوابة «سان مارتان»، ولا يغفل أن يدل، وكأنما في تعارف، على الأرستقراطي الشهير محامياً يهودياً لعله كان فصله عنه في أي يوم آخر حاجز تفوق صعوبة اجتيازه أكثر من النافذة المزدانة بالخضرة. وقال المحامي وهو يلمس قبعته: «ثلاث مرّات! رأيت لذلك». ولم يستسغ المحامي جملة المقاربة هذه. فقد كان من جماعة أرستقراطية تبدو لها ممارسة الوقاحة، حتَّى تجاه فئة النبلاء حين لا تنتمي إلى أرفع مرتبة، وكأنها الشاغل الوحيد. لا يردون على تحية؛ فإن أعاد الرجل المهذب الكرة فقهقوا بهيئة ساخرة أو ردوا الرأس إلى الوراء بهيئة حائقة؛ ويتظاهرون بأنهم لا يعرفون رجلاً مسناً سبق أن أدى لهم خدمات؛ ويقفون المصافحة والتحية على الدقة والأصداق الحميمين للدقة من يعرفونهم بهم؛ ذلكم كان موقف هؤلاء الشبان ولاسيما الأمير «دوفوا». كان مثل هذا الموقف تيسره فوضى سني الشباب الأولى (التي يظهر المرء فيها عقوقاً، حتَّى في البرجوازية، ويدي فظاظة لأنّه نسي على مدى شهر أن يكتب إلى محسنٍ فقد زوجته منذ فترة قليلة ثم هو لا يحييه من بعد لاختصار الأمور)، ولكننا نوحى به على وجه الخصوص سنويّة طبقية حادة. صحيح أن تلك السنوية، مثلها مثل بعض الأمراض العصبية التي تخف أعراضها في سن النضوج، كان لابد بعامة أن تكف عن الظهور ظهوراً عادياً إلى هذا الحدّ لدى أولئك الذين سبق أن كانوا شباباً لا يطاقون. فمن النادر أن يظل المرء حبس الوقاحة بعدما ينقضي الشباب. لقد ظنّوا أنّها موجودة وحدها، ويكتشفون فجأة، مهما بلغوا من إمارة، أن ثمة الموسيقى أيضاً والآداب وحتّى التمثيل النيابي وبذلك يتغير ترتيب القيم الإنسانية ونباشر الحديث مع الناس الذين كنّا نرشفهم فيما مضى بنظرات غاضبة. فليحالف التوفيق أولئك الذين تخلّوا بالصبر للانتظار والذين حسنت طباعهم إلى حد ما - إن كان لابد أن نقول قولاً من هذا القبيل - كي يلقوا متعة في أن يتقبلوا حوالي الأربعين اللطف والاستقبال اللذين حجبنا عنهم بجفاء في سن العشرين!

ويجدد أن نقول فيما يخص الأمير «دوفوا»، بما أنَّ الفرصة قد سنحت، أنّه كان في عداد جماعة تتراوح بين اثني عشر إلى خمسة عشر شاباً وزمرة محدودة أكثر قوامها أربعة. أمّا جماعة الاثني عشر إلى خمسة عشر فقد كانت تتصف بهذه الميزة التي كان الأمير بمنأى عنها، فيما اعتقد، وقوامها أنَّ هؤلاء الشبان كانوا يبدون، كلّ فيما يخصه، مظهرًا مزدوجاً. فقد كانوا يبدون، وقد غرقوا في الديون، عديمي الشأن في نظر مومنيهم على الرغم من المتعة التي يصيبها هؤلاء في أن يقولوا لهم: «سيدي الكونت... سيدي المركز... سيدي الدوق...» وكانوا يأملون الخروج من المأزق بواسطة «الزواج الغني» المدعو أيضاً «بالجرب الكبير، ولما كانت البائئات الضخمة التي يطعمون بها لا تتجاوز الأربع أو الخمس فقد كان العديد ينصبون مدافعهم في الخفاء في سبيل الخطيئة نفسها. وكان السرّ يحسن كتمانته إلى حدّ أنَّ العديد من الصيحات كانت تدوي، حينما يقول أحدهم وهو آت إلى المقهى: «يا أحسن الأحبة إنني أودكم أكثر من ألا أخبركم بخطوتي للآنسة «دامبرساك»، إذ يظنّ العديد منهم أنَّ الأمر معها تحصيل حاصل بالنسبة إليه ولا يملك برودة الأعصاب اللازمة ليكنتم لأوّل وهلة صبيحة الغيظ ودهشته؛ ولا يستطيع أمير «دو شاتيلرو» أن يملك نفسه عن الاستعجاب ويترك شوكتة تهوي من استغراب ويأس إذ قد ظنّ أن خطوبة الآنسة «دامبرساك» نفسها كانت ستعلن عما قريب

ولكن له هو، «شاتيلرو»: «يروقك إذن أن تتزوج يا «بيبي»؟ ومع ذلك فإله يعلم كل ما سبق أن رواه والده بمهارة لآل «دامبر ساك» ضدّ والده «بيبي» ولا يتمالك عن أن يسأل «بيبي» مرّة ثانية: «إيسرك إذن أن تتزوج؟» فيجيب مبتسماً، وهو أفضل استعداداً إذ اتسع له كامل الوقت لاختيار مظهره منذ أن أضحي الأمر رسمياً تقريباً: «إني مسرور لأنني أتزوج، فكدت لا أرغب في ذلك، ولكن لاقتراني بـ«ديزي دامبر ساك» التي أجدها رائعة». كان «شاتيلرو» قد استعاد رباطة جأشه في المدى الذي استغرقه هذا الجواب ولكنه كان يفكر أنه ينبغي أن يتقلب بأسرع ما يمكن باتجاه الأنسة «دو لا كانورك» أو الأنسة «فوستر»، وهما الزوجتان الثريتان رقم ٢ و ٣، وأن يسأل الدائنين الذين ينتظرون زواج «دامبر ساك» طول الأناة وأن يوضح أخيراً لمن سبق أن قال لهم أيضاً إن الأنسة «دامبر ساك» فائنة أن هذا الزواج مناسب بالنسبة إلى «بيبي»، ولكنه لو تزوجها هو لخالف أسرته كلها. وقد بلغ الأمر بالسيدة «دو سوليون»، فيما يزمع أن يدعيه، أن تقول إنها لن تستقبلهما.

ولكن كانوا يدون في نظر الممولين وأصحاب المطاعم إلخ، أناساً قليلي الشأن فلم يكن ينظر إليهم، وهم شخصيات مزدوجة. ما أن يحلوا في المجتمع، بمنظار ثروتهم المتهذبة والمشاكل التسه التي كانوا ينصرفون إليها لمحاولة إصلاحها. لقد كانوا يضحون من جديد السيد الأمير والسيد الدوق فلاناً ولا يعدون إلا بحسب منازلهم. وهذا الدوق الذي يقارب أن يكون من أصحاب المليارات ويبدو وكأنما تجتمع له كل شيء في ذاته إنما كان يجيء بعدهم لأنهم كانوا فيما مضى، بوصفهم رؤساء أسر، أمراء مطلقي السلطة في بلد صغير حقاً لهم فيه أن يسكوا النقود، إلخ. وكثيراً ما كان أحدهم يفض الطرف في هذا المقهى حينما يدخل آخر حتى لا يجبر الوافد على تحيته. ذلك أنه قد دعا في مطاردته الخيالية للثراء صاحب مصرف إلى العشاء. وفي كل مرّة يقيم فيها أحد رجال المجتمع ضمن هذه الظروف صلات مع صاحب مصرف فإن هذا الأخير يخسره زهاء مئة ألف فرنك، الأمر الذي لا يحول دون أن يعيد رجل المجتمعات الكرة مع آخر. فإننا نستمر في إشعال الشموع واستشارة الأطباء.

بيد أن الأمير «دوفوا»، وهو نفسه ثري. لم يكن ينتمي فحسب إلى هذه الجماعة الأنيقة التي يؤلفها خمسة عشر شاباً، بل إلى جماعة من أربعة أكثر انغلاقاً ولا يتفصل بعضهم عن بعض وكان «سان لو» في عدادهم. وما كانوا يدعون قطّ الواحد دون الآخر ويسمون بالعشاق الأربعة ويشاهدون على الدوام معاً في الزهرة ويعطون في القصور غرضاً متصلة إلى حدّ سرت معه شائعات يزيد منها أنهم كانوا جميعهم على جمال عظيم. حول علاقتهم الحميمة. واستطعت أن أكذبها تكديماً قاطعاً فيما يخص «سان لو» ولكن الغريب في الأمر أنه إن عرف الناس فيما بعد أن تلك الشائعات كانت صحيحة بالنسبة إلى الأربعة فإن كلا منهم بالمقابل قد جهلها عن الثلاثة الآخرين جهلاً تاماً. مع أن كلا منهم قد جدّ في تقصي أخبار الآخرين إما لإشباع رغبة أو ضغينة بالأخرى أو الحؤول دون زيجة أو بزّ الصديق المكتشف. وقد انضمّ خامس إلى الأفلاطونيين الأربعة «فثمة على الدوام أكثر من أربعة في الزمر التي يؤلفها أربعة»، وكان أكثر أفلاطونية من الآخرين جميعهم، ولكن وسواس دينية استوقفته حتى بعد ما انفرط عقد الأربعة بكثير وتزوج وأصبح أباً لأسرة يتوسل في «لورد» أن يكون الطفل المقبل صبيّاً أو بنتاً ويرتمي في هذه الأثناء على العسكر.

وعلى الرغم من وضع الأمير فأن يكون الكلام جرى في حضرته دون أن يوجه إليه مباشرة قد جعل

غضبه أقل حدة مما لعله كان لولا ذلك. أضف أن هذه الأسمية كانت تتسم بطابع استثنائي إلى حد ما. ثم إن المحامي لم يكن أوفر حظاً في إقامة علاقات مع الأمير «دوفوا» من الحوذي الذي صحب هذا السيد النبيل. وقد ظن هذا الأخير لذلك أنه يستطيع أن يرد. ولكن بلهجة متعجرفة وصوت خفيض، على هذا المخاطب الذي كان بفضل الضباب كأنما رفيق سفر صادفته على شاطئ واقع في أقاصي الدنيا تضربه الرياح أو يغرقه الضباب: «ليست المشكلة أن نضيق، ولكنما أن لا نهتدي إلى الطريق من بعد». وقد أذهلت صحة هذه الفكرة صاحب المقهى إذ سبق أن سمع من يعبر عنها مراراً هذا المساء.

فقد تعود بالفعل أن يقابل على الدوام ما يسمعه أو يقرؤه بنص معروف من قبل ويحس بإعجابه يستفيق إن لم يجد فروقاً. وليست هذه الحالة الذهنية غير ذات بال لأنها إما تم تطبيقها على الحوادث السياسية وعلى قراءة الصحيفة فإنها تشكل الرأي العام وتجعل أعظم الأحداث ممكنة بذلك. فكثيرون من أصحاب المقاهي الألمان الذين كانوا ينظرون بإعجاب إلى الزبون لديهم أو إلى صحيفتهم فحسب قد أدخلوا في حيز الممكن حينما كانوا يقولون إن فرنسه وإنكلتريه وروسيه «تستفز» ألمانیه. أدخلوا يوم «أغادير» حرباً لم تندلع على أية حال. ولئن لم يخطئ المؤرخون في الإحجام عن تفسير أفعال الشعوب بمشيئة ملوكهم فلا بد أن يحلوا محلها سيكولوجية الفرد، الفرد ذي السوية الضحلة.

لم يكن صاحب المقهى الذي وصلت إليه منذ قليل يطبق ذهنية مدرس المحفوظات التي يتسم بها، لم يكن يطبقها في حقل السياسة منذ بعض الوقت إلا على عدد معين من المقطوعات حول مسألة «دريفوس». فإن لم يلق اللفظ المصنوع في أقوال زبون أو على أعمدة صحيفة أعلن أن المقالة مملّة أو أن الزبون غير صريح. أما الأمير «دوفوا» فقد فتنه على العكس حتى كاد لا يدع لحديثه الوقت لإنهاء جملته. وصاح قائلاً: «أحسن القول، يا أمير، أحسن القول (الأمر الذي كان يعني، باختصار الكلام، تلوت دون خطيئة» وقد انشرح فؤاده، حسب تعبير كتاب «ألف ليلة وليلة»، وهو في غاية الارتياح». ولكن الأمير كان قد اختفى في الحجرة الصغيرة. وبما أن الحياة تمضي من جديد حتى بعد أكثر الأحداث غرابة فقد أخذ الذين كانوا يخرجون من بحر الضباب يوصي بعضهم بشرا به والآخرين بعشائهم، ومن بينهم شبان من نادي سباق الخيل لم يترددوا بسبب طابع اليوم غير العادي في الجلوس إلى طاولتين في القاعة الكبرى فإذا هم، وتلك حالهم، على قرب شديد مني. وهكذا فقد أرست الكارثة، حتى من القاعة الصغرى إلى الكبرى، بين جميع هؤلاء الناس تستثيرهم في ذلك أسباب الراحة في المطعم، بعد ضلالتهم الطويلة في خضم الضباب، ألفة أقيمت عنها وحدي وكانت لابد تشبهها تلك التي سادت سفينة نوح.

وفجأة أصبحت صاحب المقهى تلويه الانحناءات ورؤساء الخدم يهرعون بكامل عددهم. الأمر الذي حمل جميع الزبائن على تحويل أنظارهم إليه. وكان صاحب المقهى يصرخ قائلاً: «بسرعة. نادوا لي على «سيريان»، إلي بطاولة السيد المركيز «دوسان لو». وما كان «روبير» في نظره محض سيد عظيم يتمتع بمهابة حقيقية حتى في نظر الأمير «دوفوا»، بل زبون يقضي الحياة واسعة، وينفق في هذا المطعم كثيراً من المال. كان زبائن القاعة الكبرى ينظرون بفضول وزبائن القاعة الصغرى يتسابقون إلى دعوة صديقهم الذي كان ينتهي من مسح رجليه. ولكنه لحني في القاعة الكبرى لحظة كان يزعم الدخول إلى الصغرى وصاح قائلاً: «يا إلهي، ماذا

تفعل ههنا، وهذا الباب مفتوح أمامك»، ولا يغفل أن يرمي بنظرة حانقة صاحب المقهى الذي سارع إلى إغلاقه وهو يعتذر محملاً الخدم «إني أقول لهم دوماً أن يظل مغلقاً».

وكنت قد اضطررت إلى إزعاج مائدتي وموائد أخرى كانت أمامها من أجل المضي إليه. «لماذا تحركت من مكانك؟ أنفضّل العشاء ههنا على العشاء في القاعة الصغرى؟ ولكنك ستتجمد، يا صديقي المسكين». وقال لصاحب المقهى: «ستتكرّم عليّ بإغلاق هذا الباب نهائياً»

«في الحال ياسيدي المميز. وعلى الزبائن الذين سيجيئون منذ الآن أن يمرّوا من القاعة الصغرى، هذا كل ما في الأمر». وكفي بيدي اندفاعه على نحو أفضل امر أن يقوم بهذه العملية رئيس خدم وعدد من الخدم فيما يطلق بأعلى صوته تهديدات مخيفة إن لم تتمّ على أحسن وجه. وكان يوجّه إليّ أمارات إجلال بالغ كفي أنسى أنها لم تبدأ منذ وصولي. بل بعد وصول «سان لو» فقط، ويخصني خفية، كفي لا أظنّ أنها ناجمة عن الصداقة التي يبيدها لي زبونه الثري الأرستقراطي، بابتسامات صغيرة كأنما تستبين فيها مودة شخصية تماماً.

وحملني قول زبون خلف ظهري على أن أدبر رأسي مقدار ثانية. فقد سمعت عوضاً عن الكلمات التالية: «جناح فرّوج، حسن جداً، وقليل من الشمبانيا، ولكن لا تكن مرّة جدّاً». هذه الأخرى: «أفضل الغليسرين أجل دافئة، حسن جداً» ووددت لو أرى من كان الناسك الذي يقضي على نفسه بمثل هذه الوجبة. وأدّرت رأسي بسرعة صوب «سان لو» كفي لايتعرّفني الذواقة العجيب. كان محض دكتور كنت أعرفه وقد طلب إليه أحد الزبائن استشارة مستغلاً الضباب كفي يسجنه في هذا المقهى.

وفي تلك الأثناء كنت أنظر إلى «سان لو» وأفكر في الأمر التالي. كان نمة في هذا المقهى، وكذلك عرفت في الحياة، العديد من الغرباء من مثقفين ورسامين من كل نوع يسلمون بالضحك الذي يشيرونه معظمهم المغرور وربطات عنقهم التي تعود إلى عام ١٨٣٠ بل وأكثر من ذلك حركاتهم الخرقاء، ويبلغ بهم أن يستثيروه ليعربوا عن آثمهم لا يابّهون له، وهم جماعة يتمتعون بقيمة عقلية وأدبية حقيقية وعميق المشاعر. كانوا لا يروقون - اليهود بخاصة، اليهود غير المنصهرين بالطبع، إذ لا يمكن أن يكون الآخرون موضوع بحث - الأشخاص الذين لا يطبقون احتمال مظهر مستغرب عجيب (مثلما «بلوك» «ألبيرتين») بيد آثمهم كانوا يعترفون بعامة بعد ذلك أنه من الصبياني، إن اتفق لهم لغير صالحيهم شعور بالغة الطول وأنف وعينان زائدة الاتساع وحركات مسرحية متقطعة، أن نحكم عليهم بناء على ذلك، وأنهم يتمتعون بكثير من الذكاء والعاطفة وأنهم لدى التعامل معهم أناس يمكن أن نحبههم حباً عميقاً. وفيما يتعلق باليهود على وجه الخصوص كان القليل منهم من لا يتمتع ذوقهم بنبل في النفس واتساع في الفكر وصراحة تبدو إزاءها والدّة «سان لو» والدوق «دو غير مانت» في صورة خلقية هزيلة من جراء جفاف نفسيهما وتدينهما السطحي الذي لا يندد إلاّ بالفضائح ودفاعهما عن مسيحية تفضي حتماً (على دروب العقل اللا متوقعة، العقل الذي يحظى وحده بالتقدير) إلى زواج ثروات ضخم. أمّا لدى «سان لو»، فأية كانت الطريقة التي ائتمنت بها معاييب الأهل في إبداء جديد للمزايا، فقد كان يسود الساح أروع انفتاح للعقل والقلب. وإذ ذاك، ولا بدّ أن نقولها مجد فرنسه الخالد، حينما تجتمع تلك المزايا لفرنسيّ أصيل، أكان من الأرستقراطية أم من الشعب، فإنها تزهو - «تتفتّح» قد تبدو مبالغاً فيها، لأن الاعتدال يظلّ قائماً في تلك المزايا والقيود - برشاقة لا يتحفنا بها الغريب

مهما يكن جديراً بالتقدير. صحيح أن الآخرين يملكون بدورهم المزايا العقلية والمخلقية وليست أقل ثمناً إن انبغى بادئ الأمر أن نحتاز ما لا يروق وما يصدم وما يعث الابتسامة بيد أن ذلك أمر حلو وربما كان فرنسياً حصراً وقوامه أن يجيء ما كان جميلاً في حكم الإنصاف وما كان ذا قيمة بحسب العقل والقلب. أن يجيء قبل كل شيء فائناً للأنظار وملوناً برشاقة ومنقوشاً بدقة وأن يحقق كذلك في مادته وفي شكله الكمال الداخلي كنت أنظر إلى «سان لو» وأقول في نفسي إنه لأمر جميل حين لا يكون ثمة قبح جسماني يجيء بمثابة ردهة تقود إلى الألفاظ الداخلية، وتكون فتحات الأنف دقيقة بديعة الخطوط كأجنحة الفراشات الصغيرة التي تحط على أزاهير المروج حول «كومبريه». وإن «الصنع الفرنسي» الحقيقي الذي لم يفقد سره منذ القرن الثالث عشر. ولعله لن يزول مع كنائسنا، ليس ملائكة الحجر في كنيسة «سانت أندريه دي شان» بقدر ما هم صغار الفرنسيين، النبلاء منهم أو البورجوازيون أو الفلاحون ممن نقش وجهم بهذه الرقة وهذه الصراحة اللتين ظلتا تقليديتين كما هي الحال في البوابة الشهيرة ولكنهما لا تزالان خلاقيتين.

بعد ما مضى صاحب المقهى لحظة ليسهر بنفسه على إغلاق الباب والإيصاء بالعشاء (وقد ألح كثيراً كي نأخذ من «لحم الذبائح». إذ الطيور غير فاخرة دون شك)، عاد يقول لنا إن السيد الأمير «دوفوا» ودّ لو يأذن له السيد المريكز بالاجيء لتناول العشاء إلى طاولة بالقرب منه. وأجاب «روبير» إذ رأى الطاولات التي تخصر طاولتي: «ولكنها مشغولة كلها». — «لا أهمية للأمر، وإن أمكن أن يحسن ذلك في عين السيد المريكز فسيكون من اليسير عليّ أن أرجو هؤلاء الناس بتبديل مكانهم تلك أمور يمكن أن نقوم بها من أجل السيد المريكز» وقال لي «سان لو»: «ولكن الأمر يعود إليك. إن «فوا» فتى طيب ولا ادري إن كان سيرعجك إنه أقل غباء من الكثيرين». وأجبت «روبير» أنه سوف يروفتني بالتأكيد ولكنني وددت كثيراً لو نظل وحدنا مادمت أتناول مرة طعام العشاء معه وأحسنني شديد السعادة بذلك. وقال لصاحب المقهى في أثناء مداولتنا: «آه! إن للسيد الأمير معطفاً حلواً جداً». فأجاب «سان لو»: «أجل، إنني أعرفه». وكنت أبني أن أروي لـ «روبير» أن السيد «دو شارلوس» كتم عن شقيقة زوجته أنه يعرفني، وأن أسأله ما يمكن أن يكون سبب ذلك ولكننا حال دون أن افعل وصول السيد «دوفوا». لقد شاهدناه يقف على خطوتين وقد أقبل ليري إن كان التماسه قد صادف قبولاً. وقدمنا «روبير» الواحد للآخر ولكنّه لم يكتم صديقه أنه يفصل أن نترك وشأننا إذ هو ينبغي التحدث إليّ. وابتعد الأمير وهو يضيف إلى تحية الوداع التي أداها لي ابتسامة تشير إلى «سان لو» وتبدو وكأنها تجدد العذر في مشيئة هذا الأخير عن قصر تعارف لعله تمناه أكثر طولاً. بيد أن «روبير» بدا وكأننا استولت عليه فكرة مفاجئة فابتعد مع رفيقه بعد أن قال لي: «اجلس أنت وياشر تناول العشاء، فأنني قادم». واختفى في القاعة الصغيرة. وشقّ عليّ أن أسمع الشبان الأنقيين الذين ما كنت أعرفهم يروون أكثر الحكايات سخفاً وإساءة حول كبير الدوقة الشاب وريث «لو كسمبور» (الكونت «دوناساو» سابقاً) الذي سبق أن عرفته في «بالبيك» وقدم لي براهين رقيقة جداً من المودة في أثناء مرض جدتي. وكان أحدهم يزعم أنه قد قال للدوقة «دو غير مانت»: «إنني أطلب بأن يقف الجميع عندما تمر امرأتي» وأن الدوقة أجابت (ما لعله كان خلواً لا من الظرف فحسب بل من الصحة فقد كانت جدّة الأميرة الشابة على الدوام أشرف امرأة في العالم): «لا بد أن يقف الناس حينما تمرّ زوجتك فسيغير ذلك من شأن جدتها لأن الرجال فيما يخصها كانوا يتمددون». ثم رروا أنه جاء في ذاك العام للقاء عمته أميرة «لو كسمبور» وحلّ في الفندق الكبير واشتكى إلى المدير (صديقي) أنه لم يرفع علم اللاكسمبور فوق السدّ وإذ كان هذا العلم أقلّ ذيوماً وأقلّ استعمالاً من أعلام انكلترة أو

إيطاليا فقد انبغى عذّة أيام للحصول عليه الأمر الذي أثار أشدّ استياء كبير الدوقة الشاب . لم أصدق كلمة واحدة من هذه الرواية ولكنني عزمّت أن أسأّل مدير الفندق حالما اذهب إلى «البليك» لأتأكد من أنّها محض اختلاق. وبانتظار «سان لو» طلبت من صاحب المطعم أن يأمر من يعطيني خبزاً. - «في الحال. ياسيدي البارون». فأجبت بلهجة كنيّة بقصد الضحك: «لست بارون». - «آه! عفوك ياسيدي الكونت!» ولم يتسع لي الوقت لاسماعه احتجاجاً آخر كنت أضحيته بعده بالتأكيد «السيد المركيز» وعاد «سان لو» بمثل ما سبق أن أعلن من سرعة فظهر من جديد في المدخل وهو يمسك بيده المعطف الصوفيّ الكبير العائد للأمير وقد أدركت أنّه قد طلبه منه كي يوفر لي الدفء وأشار إليّ من بعيد ألا أكلف نفسي عناء، وتقدم وكان لابدّ أيضاً من تحريك طاولتي أو من تبديل مكاني كيما يستطيع الجلوس وما أن دخل القاعة الكبرى حتى صعد بخفة على المقاعد ذات المحمل الأحمر التي صفت من حولها على طول الجدار والتي لم يكن يجلس عليها باستثنائي سوى ثلاثة فيان أو أربعة من نادي السباق، وهم معارف له لم يستطيعوا أن يجدوا مكاناً لهم في القاعة الصغرى. وكانت أسلاك كهربائية قد مدّت بين الطاولات على ارتفاع معين ؛ وقفز «سان لو» من فوقها بمهارة ودون أن تريكه مثلما يفعل حصان سبق بحاجز. وقد أدهشتني تلك الثقة التي كان صديقي ينجز بها ذاك التمرين البهلواني، وأخجلني في الآن نفسه أن تتمّ من أجلي وحدي وبهدف مجنبي حركة بسيطة جداً. ولم تكن تلك حالي فقط، فقد ظل صاحب المقهى والخدم مقتونين شأن خبراء في عملية وزن. على الرغم من أنّهم ما كانوا استساغوا الأمر كثيراً دونما شك من قبل زبون أدنى أرستقراطية وأقلّ أريحية. وقد لبث أحد الخدم لاحراك به، وكأنما أصابه الشلل، يحمل طبقاً كان متعشون بالقرب منه ينتظرونه ؛ وحينما صعد «سان لو» وقد اضطرّ أن يمرّ خلف أصدقائه، على حافة المسند وتقدّم عليها متوازن الخطو تعالي تصفيق خافت في أقصى القاعة. وإذ أصبح أخيراً بمحاذاة أوقف على الفور اندفاعته بدقة قائد أمام منصة سلطان وانحنى ومدّ إليّ مدّة تأدب وخضوع المعطف الصوفيّ الناعم الذي رتبة في الحال، بعدما جلس بجاني، على هيئة شال خفيف ودافئ على كتفيّ دون أن يقع عليّ القيام بأية حركة.

وقال لي «روبير» : «قل لي، ما دام الأمر في بالي، لدى عمي «شارلوس» مايقوله لك. لقد وعدته بأن أوفدك إلى منزله في مساء الغد».

- «كنت عازماً بالضبط على التحدّث إليك عنه. ولكنني سأتعشّي في مساء الغد في منزل عمّتك «غير مانت».

- «أجل، ستقام مأدبة كبرى غداً في منزل «أوريان». لست مدعوّاً. ولكن عمّي «بالاميد» يودّ ألا تذهب إليها. ألا يمكنك أن تلغي الدعوة؟ اذهب في جميع الأحوال إلى منزل عمّي «بالاميد» بعد ذلك، فاني أظنّه يصبر على لقاءك. هيّا، يمكنك أن تكون هناك حوالي الحادية عشرة. الحادية عشرة، لاننس، وأخذ على عاتقي أن أخطره بالأمر. إنّه شديد الحساسية، فإن لم تذهب أو غرت صدره عليك. والأمر تنتهي أبداً في ساعة مبكرة لدى «أوريان». فإن لم تقدم على غير العشاء هناك أمكنك تماماً أن تكون في الحادية عشرة في منزل عمي، وأنا على أيّ حال كان ينبغي لي أن ألقّي «أوريان» من أجل منصب في المغرب الذي أودّ تبديله. إنّها لطيفة جداً بالنسبة إلى هذه الأمور وتستطيع كلّ شيء لدى اللواء «دو سان جوزيف» الذي يرتبط الأمر به.

ولكن لا تحدثها عن ذلك. لقد قلت كلمة للأميرة «دو بارما» وستسير الأمور وحدها. آه! المغرب، شيق جداً. ربما كان ثمة الكثير أحدثك به. إنهم أناس مرهفون الذكاء هناك، وإنك لتشعر بالتمائل في الذكاء».

«ألا تظن أن الألمان يستطيعون المضي حتى الحرب بهذه المناسبة؟».

«لا، الأمر يزعمهم، وهو صحيح تماماً في الأساس. ولكن الأمبراطور مسالم. إنهم يحملوننا دوماً على الظن بأنهم يريدون الحرب ليرغمونا على التنازل. (عد إلى البوكر). يأتي أمير موناكو عميل غليوم الثاني ليقول لنا سرّاً إن ألمانيا تنقض علينا إن لم نتنازل، فنتنازل حيثذاك، ولكننا إن لم نتنازل لن يكون ثمة أي صنف من الحروب. عليك أن تفكر فقط أي شيء كوني قد تكونه الحب في يومنا. سوف يكون ذلك أكثر جلباً للكوراث من «الطوفان» و«غروب الآلهة»، على أن الأمر قد يدوم فترة أقل».

وحدثني عن الصداقة والإيثار والأسف مع أنه كان يجمع، شأن جميع المسافرين من نوعه، الرحيل في الغد لمدة عدة شهور كان ينبغي أن يقضيها في الريف وسوف يعود ثماني وأربعين ساعة فقط إلى باريس قبل أن يعود إلى المغرب (أو أي مكان آخر) ؛ ولكن الكلمات التي ألقى بها على هذا النحو في حرارة القلب التي كانت بي في ذلك المساء كانت تشب فيه أحلاماً عذبة. إن مقابلاتنا الانفرادية النادرة، وهذه على وجه الخصوص، قد خلقت مذ ذاك في ذاكرتي أثراً عميقاً. لقد كانت تلك في نظره وفي نظري على السواء أمسية الصداقة. بيد أن الصداقة التي كنت أحس بها في هذه اللحظة لم تكن (ولا أدخل من بعض تبكيت الضمير بسبب ذلك)، وهو ما كنت أخشاه، تلك التي ربما راقه أن يوحى بها إليّ. كنت أحسّ، ولا أزال يملؤني السرور الذي أصبته إذ رأيته يتقدم خبياً ويبلغ الهدف برشاقة، كنت أحسّ أن ذلك السرور ناجم عن أن كلاً من الحركات المنفذة على امتداد الجدار وعلى المقعد كان يملك دلالة وسببه ربما في طبيعة «سان لو» الفردية، بل وأكثر من ذلك في الطبيعة التي ورثها عن جنسه عن طريق المولد والتنشئة.

فسلامة ذوق في نطاق السلوك لا الجمال تمكن الرجل الأنيق أن يدرك في الحال بمواجهة ظرف جديد- شأن موسيقي يطلب إليه عزف مقطوعة مجهولة- الشعور والحركة اللذين يتطلبهما وأن يوائم بينهما وبين الآلية والتقنية اللتين تناسبان أفضل ما يكون، ثم تسمح لهذا الذوق أن يعمل بمعزل عن ضغط أي اعتبار آخر ربما شل العديد من البورجوازيين الشباب مخافة أن يغدوا أضحوكة في نظر الآخرين يخرجهم على اللياقة وأن يبدو مسرفين في التهذيب في نظر صديقهم في الآن نفسه، اعتبار كان يحلّ محله لدى «روبير» ازدراء لم يداخل بالتأكيد قلبه في يوم ولكنما حلّ بالورائة في جسده وكان قد طبع سلوك أسلافه بألفة يعتقدون أنها لا تستطيع إلا أن تدغدغ مشاعر من توجه إليه وفتنته ثم شهامة في سخاء لا يوضع في حسابه أي اعتبار لهذا العدد الكبير من الامتيازات المادية (فقد بلغ بغيض إنفاقه في هذا المطعم في النهاية أن جعل منه ههنا وفي أي مكان آخر على السواء الزبون الأكثر رواجاً والأكبر حظوة، وهي الحالة التي تبرزها العناية الفائقة التي تبديها له لا مجموعة الخدم فحسب بل سائر الشبيبة الأكثر شهرة) فيحمله على دوسها بالأقدام، شأن هذه المقاعد الأرجوانية التي تمّ دوسها فعلاً ورمزاً. وهي شبيهة بدرب فخم ما كان يروق صديقي إلا لتمكينه من الهجيء إليّ بقسط أوفر من الرشاقة والسرعة ؛ تلكم كانت الصفات، وكلها من جوهر الأرستقراطية، التي كانت تبرز من وراء هذا الجسم، لا الجسم الأغشى العاتم كما لعلّ جسمي كان، بل المعبر الصافي مثلما تبرز من خلال

العمل الفني القدرة الحاذقة الفاعلة التي ابتدعته وتجعل حركات هذا الجري الرشيق الذي قام به «روبير» على طول الجدار بمثل وضوح وروعة حركات فرسان تمّ نقشهم على إفريز ولعلّ «روبير» فكّر قائلاً: «أكان من داع، وأسفي، أن أكون قضيب شبابي في ازدراء كرم المتحد وفي تكريم العدل والفكر فحسب، وأن انتقي من خارج نطاق الأصدقاء الذين فرضوا عليّ رفاقاً قليلي اللبابة سيئي الملبس إن توافرت لهم البلاعة، كيما يكون الكائن الذي يظهر فيّ والذي يحفظون منه ذكرى غالية لا ذلك الذي صورته لإرادتي بالجدّ والاستحقاق على شبيهي بل كائن ليس من صناعي، ولا هو حتّى أنا وقد احتقرته دوماً وحاولت قهره؛ أكان من داع أن أكون أحببت صديقي المفضل على نحو ما فعلت كيما تكون أعظم متعة يجدها فيّ أن يكتشف أمراً أكثر عمومية من ذاتي، متعة ليست على الإطلاق، حسبما يقوله وحسبما لا يستطيع بصدق أن يعتقد، متعة ناجمة عن الصداقة، بل متعة فكرية مجدة وضرب من متعة الفن؟» هذا ما أخشى اليوم أم يكون خطر لـ «سان لو» أحياناً. وقد أخطأ في هذه الحالة. فلو لم يحب، على نحو ما فعل، أمراً أكثر سموً من مرونة جسمه الفطرية، ولو لم يتجرّد فترة طويلة إلى هذا الحدّ عن استعلاء النبلاء لكان ثمة قدر أكبر من الاجتهاد والتثاقل في رشاقتة نفسها وسوقية وافرّة في مسلكه. ومثلما انبغى للسيدة «دو فيلباريزيس» كثير من الجدية كي تولي في حديثها ومذكراتها شعوراً بالطيش، وهو فكريّ، كذلك كان لا بدّ كيما يعمر جسم «سان لو» هذا القدر من الأرستقراطية أن تكون هذه الأخيرة قد هجرت فكره النازع إلى أغراض أسمى وأن تكون استقرت في جسمه، بعد ما غارت فيه، خطوطاً لا واعية ونبيلة. وبذلك لم تكن أناقته الفكرية غائبة عن أناقة جسمية لعلها لم تكن تامة لو غابت الأولى. فليس يحتاج فنان إلى التعبير عن فكره تعبيراً مباشراً في إنتاجه كيما يعكس هذا الإنتاج جودته، بل أمكن أن يقال إن أرفع تسبيح لله كامن في نقي الملحد الذي يرى الخليفة على قدر من الكمال كاف لتكون في غنى عن خالق لها. وكنت أعلم كذلك تمام العلم أنني ما كنت أنظر باعجاب إلى محض عمل فني في هذا الفارس الشاب الذي ينشر على امتداد الجدار إفريز جريه. أفلم يكن الأمير الشاب (سلي) «كاترين دو فوا» ملكة «نافار» وحفيدة شارل السابع) الذي فارقه منذ قليل لصالحه، والمكانة الناجمة عن المولد والثروة التي كان يحنيها أمامي، والأسلاف المتعالمون المرنون الذين لم يبرحوا الثقة والرشاقة والتعذيب التي رتب بها منذ قليل حول جسمي المقرور المعطف الصوفي الناعم. ألم يكن كلّ ذلك بمثابة أصدقاء أعرق منّي في حياته ظننت أنّه لا بدّ أن نظل من جرائهم منفصلين أبداً وكان على العكس يضحي لي بهم بخيار لا يمكن أن نقوم به إلا في مرتفعات العقل وبتلك الحرية المطلقة التي كانت حركات «روبير» صورة لها والتي تتحقق فيها الصداقة الكاملة؟

وما لعلّ ألفة أمثال آل «غير مانت» كانت تكشف من عجرفة تافهة (بدلاً من الأناقة التي تتميز بها لدى «روبير» لأنّ الاستعلاء الوراثي لم يكن فيها سوى غطاء، أضحى ظرفاً لا واعياً، لاتضاع خلقي حقيقي) إنما أمكنني أن أعيه، لا لدى السيد «دو شارلوس» الذي كانت عيوب طباعه، وقد أسأت فهمها حتّى ذلك، قد انضافت لديه إلى العادات الأرستقراطية، بل لدى الدوق «دو غير مانت». فقد كان يكشف بدوره، في الجميل العادي الذي سبق أن ساء إلى حدّ بعيد في عيني جدتي حينما التقت به فيما مضى في منزل السيدة «دو فيلباريزيس»، عن أجزاء من سموّ قديم أحسست بها عندما ذهبت لتناول طعام العشاء في منزله في غد الأمسية التي قضيتها برفقة «سان لو».

ولم تكن قد برزت لناظري لا لديه ولا لدى الدوقة، حينما رأيتهما بادئ الأمر لدى عمتيها، مثلما لم أبصر في اليوم الأول الفروق التي كانت تفصل بين «لايبرما» ورفاقها مع أن الخصائص لدى هذه الأخيرة أوقع في النفس بما لا يقاس مما هي لدى أرباب المجتمع بما أنها تضحي أكثر بروزاً كلما كانت الأشياء أكثر حقيقة وأسهل تصوراً بالعقل. ولكن مهما تكن الفروق الاجتماعية طفيفة (إلى حدّ تبدو معه المتنديات جميعها، عندما يؤدّ رسام صادق من أمثال «سانت بوف» أن يحدّد على التوالي الفروق التي وجدت بين منتدي السيّد «جوفران» والسيّد «ريكاميه» والسيّد «بوانتي»، متشابهة إلى حدّ أن الحقيقة الرئيسية التي تستخلص من دراسات المؤلف، على غير علم منه، قوامها «عدم» حياة المتنديات) فقد أمكنتني مع ذلك، وبموجب السبب نفسه فيما يخص «لايبرما»، بعد ما أضحي آل «غير مانت» قليلي الأهمية في نظري ولم يعد خيالي يبخّر قطرة غرابتهم، أمكنتني التقاطها مهما دقّ حججها.

ولما لم تكلمني الدوقة عن زوجها في أمسية عمتها فقد تساءلت في نطاق ما يسري من إشاعات طلاق إن كان سيحضر مأدبة العشاء. ولكن سرعان ما استقر رأيي، فقد رأيت بين صفوف الخدم الذين وقفوا في الردهة ولا بدّ أنّهم (بما أنّهم لا بدّ نظروا إليّ حتّى الآن مثل أولاد التجار تقريباً. يعني على نحو أكثر مودة من سيّدهم، ولكن كمن لا يمكن أن يستقبل في منزله) كانوا يمشون عن سبب هذا الانقلاب، رأيت السيّد «دو غير مانت» ينسل، وكان يتربّع وصولي ليستقبلني على عتبة الباب ويخلع بنفسه معطفي عني.

وقال لي بلهجة حاذقة في إقناعها: «السيّد «دو غير مانت» ستكون في غاية السعادة. اسمح لي أن أخلصك من أهدامك (وكان يرى سذاجة وهزلًا على السواء في التحدّث بلغة العامة). لقد خشيت زوجتي بعض الشيء لإحجاماً منك مع أنك سبق أن أعلنت عن يومك. كنّا نقول منذ هذا الصباح الواحد للآخر: «سوف ترى أنه لن يجيء». ولا بدّ لي أن أقول إنّ السيّد «دو غير مانت» كانت أصدق رؤية منّي. لست رجلاً يسهل استقدامه وكنت على يقين أنك ستخلف الوعد».

كان الدوق زوجاً ديباً بل شرساً فيما يقولون إلى حدّ أنك كنت ممتناً له، مثلما تمتن للأشرار بلطفهم، بهذه الكلمات: «السيّد «دو غير مانت» التي كان يبدو وكأنه ينشر بها على الدوقة جناح الرعاية كي تؤلف وإياه شيئاً واحداً. بيد أنه أخذ على نفسه وهو يمسك بيدي مسكة الألف أن يرشدني إلى الصلات ويدخلني إليها. إن هذه العبارة أو تلك يمكن أن تروقك في فم فلاح إن أعربت عن تواتر تقليد محلي وعن بقايا حدث تاريخي ربما جهلها من يلمح إليها، كذلك فتنتني لدى السيّد «دو غير مانت» هذا التهذيب الذي كان سيعرب لي عنه أثناء الأمسية كلّها وكأنه بقية عادات مضت عليها قرون عدة. عادات من القرن السابع عشر على وجه الخصوص. إن أقوام الأزمنة الغابرة يدون لنا بعيدين عنا بعداً لا حدود له. ولا تجرؤ أن نفترض لهم مقاصد عميقة تتجاوز شكل ما يعبرون عنه. وإننا لنعجب حينما نصادف شعوراً لدى أحد أبطال هرميوس يماثل تقريباً ما نحس به أو خطة مخادعة حاذقة لدى هنيعل في أثناء معركة «كان» سمح فيها أن يخترق جناحه كي يطوق خصمه على حين غرة. لكأنني بنا لتخيل هذا الشاعر الملحمي وهذا القائد بعيدين عنا بعد حيوان نشاهده في حديقة حيوان، بل إننا حين نجد لدى شخصيات من بلاط لويس الرابع عشر دلائل تأدب في رسائل سطروها لرجل من مرتبة أدنى ولا يمكن أن يفيدهم في شيء فإنها تخلف فينا الدهشة لأنها تظهر لنا فجأة لدى

هؤلاء السادة العظام عالماً كاملاً من المعتقدات التي لا يعبرون قطّ عنها تعبيراً مباشراً ولكنها تحكمهم ولا سيما الاعتقاد الذي مفاده أنّه ينبغي بداعي التهذيب التظاهر ببعض المشاعر وممارسة بعض واجبات التودّد بأكبر قسط من الدقة.

وربما كان هذا البعد التخيلي في الماضي أحد الأسباب التي تسمح بأن ندرك أن يكون كتاب عظام قد وجدوا جمالاً عبقرياً في مؤلفات دجالين ضحكين من أمثال «أوسيان» وإننا لندهش أن يتأتى لشعراء قدامى أفكار عصرية دهشة تصل بنا حدّ الأفئتان إن نحن صادفنا، في ما نظنّه نشيداً «غاثليلاً» قديماً، فكرة ما كنا لنراها لا بارعة لدى أحد المعاصرين. وما على مترجم موهوب إلا أن يضيف إلى مؤلف قديم برّده بأمانة نقل أو تزيد مقطوعات قد تبدو لو ذلت بتوقيع أحد المعاصرين أن نشرت على حدة متممة فحسب؛ فإذا هو يضيف في الحال مهابة تهزّ المشاعر على شاعره الذي ينقل، وهذه حاله، أصابعه على مضارب قرون عدّة. وما كان هذا المترجم قادراً إلا على كتاب ضحل لو اتفق أن نشر هذا الكتاب بمثابة نتاج أصليّ له. فإنّ عدّ ترجمة بدا وكأنّه لرائعة فنية. ليس الماضي سريع الزوال، بل هو لا يبرح مكانه. إن قوانين أقرّت دون استعجال يمكن أن تؤثر في الحرب تأثيراً فعالاً لا على مدى شهر من بدايتها فحسب، وإنّ قاضياً ليستطيع أن يجد، لا خمسة عشر عاماً فحسب بعد جريمة ظلت غامضة، العناصر التي ستفيد في كشفها. وسيظل بإمكان العالم الذي يدرس في منطقة بعيدة أسماء البلدان وعادات السكان أن يدرك فيها أسطورة سبق عهدها المسيحية بكثير وقد كانت غير مفهومة، إنّ لم نقل حتّى منسية، في عهد «هيرو دوتس» ولاتزال باقية في قلب الحاضر. من خلال التسمية المعطاة لإحدى الصخور، من خلال أحد الطقوس الدينية، وذلك بمثابة انبعاث أكثر كثافة ومغرق في القدم ومستقرّ. كان ثمة انبعاث آخر كذلك أقلّ قدماً بكثير، انبعاث من حياة البلاط إن لم يكن في تصرفات السيّد «دو غير مانت» العامية في كثير من الأحيان فعلى الأقلّ في الروح التي كانت توجهها. وكنت سأستمتع به مرة أخرى. وكأنما برائحة قديمة، حينما عدت فلقيته بعد قليل في الصلاة. لأنني لم أذهب إليها في الحال.

وكنت قد قلت للسيّد «دو غير مانت» وأنا أغادر الردهة إنّني شديد الرغبة في مشاهدة ما يملك من لوحات «إيلستير». «أنا رهن إشارتك، هل السيّد «إيلستير» من أصدقائك إذن؟ إنّني شديد الاهتمام أن لم أعلم أنّه يثير اهتمامك إلى هذا الحد، فإنني أعرفه بعض الشيء، إنّهُ رجل لطيف وما كان يدعو أباًؤنا بالرجل النبيل، كان بإمكانني أن أسأله التلطف بالخيء ويدعوته للعشاء. ولعلّه كان بالتأكيد سيغتنب أشدّ الغبطة بقضاء الأمسية بصحبتك». كان الدوق قليلاً ما يبدو من طراز قديم حينما يجهد على هذا النحو في أن يكون ثمّ يعود فيصبح من جديد كذلك دون أن يقصده. وبعدما سألتني إن كنت أرغب في أن يريني تلك اللوحات اقتادني وهو يتنحى بلطف أمام كل باب ويعتذر حين يضطر أن يمرّ أمامي ليرشدني إلى الطريق. هذا المشهد الصغير الذي لا بدّ أن آخرين عديدين من آل «غير مانت» (منذ الزمن الذي يروي فيه «سان سيمون» أنّ أحد جدود آل «غير مانت» قد رحّب به في فندقه بصنوف الدقة نفسها في إتمام واجبات النبيل السطحية) قاموا به من أجل زائرين آخرين كثيرين قبل أن ينتقل إلينا. وبما أنني قلت لدوق إنّهُ سوف يسرني أن ألثب وحدي فترة أمام اللوحات فقد انسحب دون ضجة وهو يقول إنّهُ لم يبق عليّ سوى أن أمضي للحاق به في الصلاة.

إلا أنني ما أن لبثت وحدي مع لوحات «إيلستير» حتى نسيت تماماً ساعة العشاء. كان أمامي من جديد، شأن الحال في «باليك». تنف من هذا العالم ذي الألوان المجهولة الذي لا يعدو أن يكون إسقاط الرؤية الخاصة بهذا الرسام الكبير والذي لا ترجمه أقواله على الإطلاق. كانت أجزاء الجدار المغطاة بلوحات بريشته، وكلها متجانسة فيما بينها، كانت كأنما الصور المضطربة لفانوس سحري نفترض أنه في الحالة الراهنة رأس الفنان وأنه ما كان يمكن أن نخمن غرابتها مادامنا لم نعلم بأكثر من معرفة الرجل، يعني مادامنا لم نعلم بأكثر من رؤية الفانوس الذي يغطي المصابيح قبل أن يتم وضع أية زجاجة ملونة. ومن بين تلك اللوحات عدد من تلك التي كانت تبدو من أكثرها سخفاً في نظر أرباب المجتمع وكان يثير اهتمامي أكثر من الأخريات من حيث أنه يعيد صورة تلك الأوهام البصرية التي تثبت لنا أننا قد لا نتعرف الأشياء إن لم نلجأ إلى المحاكاة العقلية. فكم مرة اكتشفنا فيها ونحن في عربة جادة طويلة مضطربة تبدأ على بضعة أمتار منا في حين ليس أمامنا سوى جانب من حائط شديد الإضاءة خلف فينا وهم العمق! أفليس من المنطق إذ ذاك. لا من باب الخدعة الرمزية بل من باب الرجوع الصادق إلى جذر الانطباع نفسه، أن نمثل أمراً بالأمر الآخر الذي ظنناه هو في باريك الوهم الأول؟ إن المساحات والأحجام مستقلة في الواقع عن أسماء الأشياء التي تفرضها ذاكرتنا عليها بعد ما تعرفناها. كان «إيلستير» يحاول أن ينتزع مما يحس به ما كان يعرفه وغالباً ما كان يقوم جهده في حل ركام المحاكمات العقلية هذه التي نسميها الرؤية.

كان أولئك الذين يسمون هذه «القباحات» يدهشون أن يعجب «إيلستير» بـ «شاردان» و«بيرونو» وكثير من الرسامين الذين يحبونهم هم، أرباب المجتمع. وما كانوا يتبينون أن «إيلستير» قد عاد فبذل لحسابه الخاص أمام الواقع الجهد نفسه الذي بذله أمثال «شاردان» أو «بيرونو» (بالإضافة إلى العلامة الخاصة الدالة على ميله إلى بعض التقصيات) وأنه كان يعجب لديهم نتيجة لذلك. حينما يتوقف عن العمل لنفسه، بمحاولات من ذات القبيل، بما يشبه أجزاء مسبقة لأعمال له. ولكن أرباب المجتمع ما كانوا يضيفون بالفكر إلى أعمال «إيلستير» منظور الزمن هذا الذي كان يسمح لهم بأن يحبو رسم «شاردان» أو «أن ينظروا إليه على الأقل دون حرج بيد أنه كان يمكن أن يقول أكبرهم سناً في أنفسهم أنهم شاهدوا في غضون حياتهم المسافة الشاسعة القائمة بين ما كانوا يحكمون أنه رائعة فنية لـ «أنفر» وما يظنون أنه لابد باقي «قباحة» إلى الأبد (كلوحة الـ «أوليمبيا» لـ «مانيه» مثلاً) تتناقص كلما باعدت السنون بينهم وبينها، إلى حد تبدو معه اللوحات وكأنهما توأمان، ولكن المرء لا يفيد من أي درس لأنه لا يحسن الانحدار إلى العام وأنه يتصور على الدوام أنه أمام تجربة لاسابقة لها في الماضي.

وقد أثر في نفسي أن ألقى في لوحتين (وهما أكثر واقعية ومن طريقة سابقة) الرجل نفسه، مرة باللباس الرسمي في صالته، وأخرى بالسترة والقبعة العالية المستديرة في احتفال شعبي على حافة الماء لايعنيه بالبداية شيء فيه وقيم البرهان على أنه لم يكن في نظر «إيلستير» جليساً غادياً فحسب بل صديقاً وربما نصيراً كان يحب أن يكون موجوداً في لوحاته، شأن «كاربا تشيو» بالأمس وبعض الأسياد المشهورين في البندقية-والشبة تام بينهم-؛ كذلك «بيتهوفن» كان يجد متعة في تسجيل اسم الأرشيديوق «رودولف» المحبوب في مستهل عمل فني مفضل. كان ذلك الاحتفال على حافة الماء يتسم بشيء من السحر. فالنهر وفساطين النساء وأشعة القوارب والإنعكاسات التي لا تخصي لهذه وتلك كانت تتجاوز وسط مربع الرسم هذا الذي اقتطعه «إيلستير»

من ساعة عصر رائعة. وما كان يفتنك في فسطان امرأة كفت لحظة عن الرقص بسبب الحر وفقد الأنفاس كان يتلأل كذلك وبالطريقة نفسها في قماش شراع ساكن وفي مياه المرفأ الصغير والجسر الخشبي الصغير وأوراق الشجر والسماء. ومثلما كان المشفى، وهو في مثل جمال الكاندرائية نفسها تحت سمائه الزمردية، مثلما كان يبدو، وهو أكثر جرأة من «إيلستير» المنظر، من «إيلستير» الذواقة وعاشق العصر الوسيط، وكأنه ينشد: «ليس ثمة من طراز قوطي، ليس من رائعة فنية، إن المشفى الذي لا طراز له يساوي البوابة المجيدة»، كذلك كان يطرق أذني: «إن المرأة العادية إلى حد ما التي يتجنبها في نزهة أن ينظر إليها، ويستشبهها من اللوحة الشاعرية التي تؤلفها الطبيعة أمامه، هذه المرأة جميلة بدورها وينعم فسطانها بالضياء نفسه الذي ينعم به شراع المركب، وليس ثمة أشياء أكثر ثمناً أو أقل فالفسطان العادي والشراع الجميل في حد ذاته مرآتان لانعكاس الضياء نفسها. القيمة كلها تكمن في نظرات الرسام». وإن هذا الأخير قد أفلح في أن يوقف ويخلد حركة الساعات في هذه اللحظة المثيرة التي اشتد فيها الحر بالسيدة فتوقفت عن الرقص، والتي كانت الشجرة محاطة فيها بهالة عاتمة والأشعة تبدو وكأنها تنزل في فيها على طلاء من ذهب. ولكن هذه اللوحة المثبتة إلى أبعد حد كانت تورثنا بالضبط، لأن اللحظة كانت تضغط علينا أعظم الضغط، الانطباع الأكثر زوالاً ويوافينا شعور بأن السيدة تزعم أن تعود عما قليل أدراجها، والراكب أن تخفي والظل أن يتدل مكانه والليل أن يحل وأن المتعة تنتهي والحياة تنقضي وأن اللحظات التي تبرزها في الآن نفسه كثرة من الأضواء تتجاوز فيها لاستبعاد. كنت أتعرف كذلك وجهاً مختلفاً تماماً بالحقيقة لما هي عليه «اللحظة» في بضع لوحات مائة ذات موضوعات ميثولوجية تعود إلى بدايات «إيلستير» وكانت هذه الصالة مزينة بها أيضاً. كان أرباب المجتمع «المتطورون» يذهبون «حتى» هذه الطريقة ولكن لا إلى أبعد من ذلك. وما كان ذلك بالتأكيد خير ما فعل «إيلستير»، ولكن الصديق الذي عولج به الموضوع كان يقلل مذ ذاك من جفافه. من ذلك مثلاً أن ربات الشعر كانت ممثلة مثلما قد يتم تمثيل كائنات تنتمي إلى نوع مستحاثي ولكنما قد لا يندر أن تراها في العصور الميثولوجية تمر في المساء مثنى أو ثلاث على امتداد درب جبلي. وأحياناً كان شاعر من سلالة تنفرد كذلك بشخصية خاصة في نظر عالم الحيوان (وتتسم بشيء من اللاجنس) ينتزه برفقة إحدى ربات الشعر مثلما في الطبيعة مخلوقات من أجناس مختلفة ولكنها صديقة وبمضي بعضها برفقة بعض. وكنت ترى في إحدى هذه اللوحات المائية شاعراً خائراً القوي من جرأة نزهة طويلة في الجبل يحمله رجل ثور التقاه، فهزه تبعه، على ظهره ويرجعه، وفي أكثر من واحدة أخرى كان يتم رد المنظر المترامي الأطراف، (حيث يشغل المشهد الأساطيري والأبطال الخرافيون مطرحاً صغير جداً ويخيل إليك أنهم ضائعون)، من القمم إلى البحر، بدقة تزودك بأكثر من الساعة، تزودك حتى بدقيقة الحدث بفضل الدرجة المحددة لانحدار الشمس وصدق الظلال العابر. وإنما يزود الفنان بذلك رمز الأسطورة، إذ يضيف الآنية عليه، بضرب من الواقع التاريخي المعاش ويصوره ويرويه في الماضي المحدد.

وفيما كنت أتأمل لوحات «إيلستير» كانت رنات جرس المدعوين الوافدين تطنّ غير منقطعة وتهدهدني برفق. ولكن الصمت الذي أعقبها والذي كان يخيم منذ فترة طويلة أيقظني في النهاية - بسرعة أقل بالحقيقة - من أحلامي، مثلما الصمت الذي يعقب موسيقي «ليندور» يوقظ «بارتولو» من نومه. وخشيت أن يكونوا قد نسوني وأنهم يجلسون إلى المائدة ومضيت مسرعاً إلى الصالة. وألقيت على باب حجرة لوحات «إيلستير» خادماً

ينتظر، وهو عجوز أو «مُودور» الشعر، لست أدري، وله مظهر وزير إسباني ولكنه يعرب لي عن الإجلال نفسه الذي ربما أبداه في حضرة أحد الملوك. وأحسست في هيئته أنه ربما انتظرني ساعة بعد وفكرت بهلع في التأخير الذي ألحقته بالعشاء ولاسيما أنني وعدت بالحضور في الحادية عشرة إلى منزل السيد «دو شارلوس» وقادني الوزير الإسباني (ناهيك أنني التقيت في طريقي الخادم الخاص الذي يضايقه الباب والذي قال لي، وقد تألق من السعادة حينما سألته عن أخبار خطيبته، إن الغد كان بالضبط يوم خروجها وإياه وإنه يمكنه قضاء النهار كله برفقتها وأشاد بفضل السيدة الدوقة) إلى الصالة حيث كنت أخشى أن أجِد السيد «دو غير مانت» معكر المزاج. فاستقبلني على العكس بفرح مصطنع جزئياً بالطبع أملاه التهذيب، ولكنه صادق من ناحية أخرى، أوحى به على السواء معدته التي جوعها مثل هذا التأخير والشعور بنفاد صبر مماثل لدى جميع المدعوين الذين كانوا يملؤون الصالة تماماً. وقد علمت بالفعل فيما بعد أنهم انتظروني حوالي ثلاثة أرباع الساعة، وليس من شك بأن الدوق «دو غير مانت» قد ظن بأن تمديد العذاب العام دقيقتين لن يزيد منه وأن التهذيب، وقد دفعه إلى تأخير لحظة الجلوس إلى المائدة، قد يضحى أكثر اكتمالاً إن هو أفلح في إقناعي، إذ لا يأمر بتقديم العشاء في الحال، أنني لم أكن متأخراً وأنهم لم ينتظروا من أجلي. وقد سألتني، وكأنما لا تزال لدينا ساعة قبل العشاء وأن بعض مدعويه لم يحضروا بعد، كيف كنت أرى لوحات «إيلستير». ولكنه أخذ في الوقت نفسه يقوم بالتعريف توارزه الدوقة في ذلك، كي لا يضيع ثانية إضافية ودون أن يظهر اعتلاجات معدته. ولاحظت حينذاك فقط أنه قد تمّ للتو من حولي، من حولي أنا الذي حتى هذا اليوم - باستثناء الدورة التدريبية في صالة السيدة «سوان» - قد عود في منزل والدته في «كومبريه» وباريس التصرفات الحانية أو المتمنعة لبورجوازيات متبرعات كن يعاملنني معاملة الطفل، بدلاً في المظهر الخارجي شبيهاً بذلك الذي يجيء فجأة بـ «بارسيفال» وسط الفتيات الأزاهير. فاللواتي كن يحطن بي عاريات الكتفين تماماً (كانت بشرتهن الموردة تبرز من جانبي غصن ميموزا متعرج أو تحت بتلات وردة عريضة) لم يقرئني السلام إلا وهن يرمقنني بنظرات طويلة متحبة كما لو حال الخفر وحده دون أن يعانقني. وليس يقلل ذلك من أن الكثيرات كن فاضلات جداً على صعيد الأخلاق، الكثيرات لا كلهن، إذ أن أكثرهن عفة ما كن يبدن إزاء من كن طائشات ذاك النفور الذي ربما أحسست به والدتي. فقد كانت نزوات المسلك التي تنكرها صديقات فاضلات على الرغم من جلاء الأمر، كانت تبدو في دنيا آل «غيرمانت» وكأنها أقل أهمية بكثير من العلاقات التي أفلح المرء في الحفاظ عليها. كانوا يتظاهرون بأنهم يجهلون أن جسد واحدة من سيدات البيوت كان نهب من يشاء بشرط أن تكون «الصالة» قد لبثت لامساس بها.

ولما كان الدوق قليل التحرج إلى حد بعيد مع مدعويه (الذين لم يظل له منذ زمن بعيد ما يطلعه عنهم ويطلعههم عليه)، ولكنه كثير التحرج معي أنا الذي كان نوع تفوقه. وهو مجهول لديه، يبعث في صدره نوع الاحترام نفسه الذي يبعثه الوزراء البورجوازيون في صدور السادة الكبار في بلاط لويس الرابع عشر، فقد كان يرى بالطبع أن أمر الجهل بمدعويه لا أهمية له على الإطلاق، إن لم يكن في نظرهم فعلى الأقل في نظري. وفيما كنت أهتم بسببه بالأثر الذي سأخلفه في نفوسهم كان يهتم فحسب بالأثر الذي سيخلفونه في نفسي.

وقد وقع بادئ الأمر على أية حال اختلاط طفيف مزدوج، ففي اللحظة نفسها التي دخلت فيها إلى الصالة اصططحني السيد «دو غير مانت» دون أن يدع لي حتى متسعاً من الوقت لتحية الدوقة، إلى سيّدة على

شيء من قصر القامة وكأنما ليوفر مفاجأة سارة لتلك المرأة التي بدا وكأنه يقول لها: «هوذا صديقك: ترين، لآتي أجيتك به بعظم رقبته» ذلك أن تلك السيّدة لم تكن قد كفت، قبل أن أصل أمامها، يدفني الدوق، بوقت طويل، عن أن توجه إليّ فيض البسمات المقتضى الذي توجهه إلى أحد المعارف القدامى الذي ربما لا نعرفنا، وذلك بعينيها السوداوين الوديعتين الواسعتين. ولما كانت تلك حالي بالضبط وأنني ما كنت أفلح في تذكر من تكون فقد كنت أشيح بعيني فيما أتقدم كي لا يقع عليّ أن أجيب إلى أن يكون التعارف قد خلصني من ورطتي.

وقد ظلت السيّدة في تلك الأثناء توالي الاحتفاظ في توازن غير مستقر بابتسامتها الموجهة إليّ. وكانت تبدو وكأنها في عجلة من أمرها للتخلص منها وأن أقول أخيراً: «آه! ياسيدي، ذلك ما أعتقد بالتمام. وكم سيسعد والدتي أن عدنا فالتقينا» وكنت أبدي من نفاذ الصبر لمعرفة اسمها بقدر ما تبدي للملاحظة أنني أسلم عليها سلام المعارف بالأمر تماماً وأن ابتسامتها، التي تطاولت تطاول «صول» مرفوعة، يمكن أن تتوقف أخيراً. ولكن السيّد «دو غير مانت» لم يحسن التصرف، في نظري على الأقل، إلى حد بدا لي معه أنه لم يسم غيري وأنا لا أزال غير عارف بالجهولة الزائفة التي لم يتبادر إليها أن تذكر اسمها لفرط ما تبدو لها دواعي ألفتنا، وهي غامضة لديّ، واضحة فلم تمد إليّ يدها حالما أصبحت بالقرب منها بل أخذت يدي أخذ الألف وكلمتني بمثل اللهجة التي تكلمني بها لو كنت على مثل إحاطتها بالذكريات الطيبة التي كانت تعود بالفكر إليها. وقالت لي إلى أي حدّ سيأسف «ألبير»، الذي أدركت أنه ابنها، أن لم يسعه المحييء. وبحث بين رفاقي القدامى من عساه يدعى «ألبير» فلم أجد غير «بلوك»، بيد أنه ما كان يمكن أن تكون تلك المائلة أمامي السيّدة «بلوك» الوالدة بما أن هذه الأخيرة قد توفيت منذ سنوات طويلة. وعيناً كنت أجهد في استشفاف هذا الماضي المشترك بيني وبينها والذي كانت تعود بالفكر إليه. ولكني ما كنت أبصره عبر السبح الشفاف في الحدقتين الواديتين الواسعتين اللتين لا تسمحان بغير مرور الابتسامة أفضل مما نميز منظرًا واقعاً خلف زجاج أسود وإن ألهمته الشمس. وسألتني إن كان والدي لا يفرط في التعب وإن كنت لا أودّ الذهاب في يوم إلى المسرح برفقة «ألبير» وإن كنت أقل مرضاً، ولما لم تصبح إجاباتي، وهي تترنح في عتمة الفكر التي كنت فيها، واضحة إلا لأقول أنني لم أكن على مايرام في ذلك المساء، دفعت إليّ بنفسها كرمياً وهي تبذل جهوداً لا تخصني لم يعودي قطّ عليها أصدقاء والدي الآخرون وأخيراً زودني الدوق بكلمة اللغز، فهمت في أذني التي قرعتها هذه الكلمات كما لو لم تكن مجهولة لديها، همس قائلاً: «إنها تجدك ظريفاً» وكانت تلك التي سبق أن قالتها لنا السيّدة «دو فيلبازيس» لي ولجديتي عندما تعرفنا بأمية «لوكسمبور» حينئذ أدركت كلّ شيء، فالسيّدة الحالية لا يربطها بالسيّدة «دو لو كسمبور» رباط ولكنني ميزت صنف الطريدة لدى سماع من كان يقدمها لي. لقد كانت صاحبة سمّ. لم تكن تعرف أسرتي ولا تعرفني بدوري ولكنها كانت ترغب، وهي تنحدر من أكرم سلالة وتملك أعظم ثروة في العالم (إذ هي ابنة الأمير «دوبارما» وقد تزوجت ابن عم هو الآخر من سلالة أمراء)، كانت ترغب في امتنانها للخالق أن تعرب للقريب أنها لا تحتقره مهما كان فقير المحتد أو متواضعه. وكان بوسع الابتسامات، والحق يقال، أن تكشف لي الأمر، فقد سبق أن رأيت أميرة «لوكسمبور» تبتاع شطائر خبز الشيلم على الشاطئ كي تقدم منها لجديتي وكأنما لأيلة في «حديقة الأقلمة». ولكنها لم تكن سوى ثاني أميرة من أسرة مالكة يتم تعريفها بي وكان يمكن التماس العذر لي لأنني لم

استخلص الميزات العامة في تلطف الكبار. أفلم يكلفوا أنفسهم على أي حال عناء تنبيهي إلى الأبالغ في الاتكال على ذاك التلطف بما أن الدوقة «دو غير مانت» التي سبق أن حيتني كثيراً بيدها في مسرح الأوبرا الهازلة بدا أنها حانقة من أن أحبيها في الشارع شأن الذين يحسبون أنهم، بعدما أعطوا أحدهم ليرة ذهبية، قد أدوا ما عليهم إزاءه إلى الأبد. أما السيد «دو شارلوس» فقد كانت محاسنه ومساوئه أبرز تناقضاً. وقد عرفت أخيراً، كما ستري، صاحبات سمو وصاحبات جلالة من نوع آخر، من ملكات يمثلن دور الملكة ويتكلمن لا وفق عادات أبناء سلالتهن بل كما تفعل الملكات في مسرح «ساردو».

ولكن لجأ السيد «دو غير مانت» إلى هذا الاستعجال في التعريف بي فلأنه لا يمكن احتمال أن يكون في اجتماع شخص مجهول لدى صاحبة سمو ملكية ولا يمكن أن يدوم الأمر ثانية واحدة. كان ذلك هو الاستعجال نفسه الذي أبداه «سان لو» في طلب تعريف جدتي به. كان الدوق والدوقة «دو غير مانت» يعتبران على أية حال، من جرء بقية موروثه من حياة البلاط تدعي التهذيب الاجتماعي وليست سطحية ولكنهما السطح فيها هو الذي يضحى، من جرء انقلاب من الخارج إلى الداخل جوهرياً وعميقاً، كانا يعتبران بمثابة واجب جوهري أكثر من تلك المتعلقة بالإحسان والعفة والشفقة والعدل، وهي في الغالب لا يكثر بها على الأقل في نظر أحدهما، ذلك الواجب الأكثر صرامة وقوامه ألا تتحدث إلى أميرة «بارما» إلا بضمير الغائب.

ولكن كنت لم أذهب البتة بعد في حياتي إلى «بارما» (الأمر الذي كنت أتوق إليه منذ عطلة فصح بعيدة)، فإن معرفة أميرتها التي كانت تملك فيما أعلم أجمل قصر في تلك المدينة الفريدة حيث كان لابد أن يكون كل شيء متجانساً على أية حال إذ هي معزولة عن بقية العالم بين الجدران المصقولة وفي الجو الخانق كحاله في أمسية صيف لاهواء فيها على ساحة مدينة إيطالية صغيرة، جو اسمها الكثيف المفرط في عدوبته، إن تلك المعرفة كان ينبغي أن تحل فجأة محل ما كنت أحاول تمثله ما كان موجوداً بالحقيقة في «بارما»، ويضرب من الوصول الجزئي ودون أن أكون برحت مكاني. كان ذلك في جبر الرحلة إلى مدينة «جورجون» بمثابة معادلة أولى بذاك المجهول. على أنني إن كنت منذ سنوات قد أشبعت اسم أميرة «بارما» بعطر ألوف من زهر البنفسج - شأن ما يفعل عطار بكتلة متساوية من مادة دسمة - فقد بدأت بالمقابل، ما أن رأيت الأميرة التي لعني كنت متيقناً حتى ذاك أنها الـ «صانصفرينا» (*) على الأقل عملية ثانية لم تكتمل والحق يقال إلا بعد انقضاء ببضعة شهور على ذلك وقامت بواسطة جيلات كيماوية جديدة على طرد كل الزيوت الأساسية من زهر البنفسج وكل فوح «ستاندالي» من اسم الأميرة وأدخلت مكانها صورة امرأة قصيرة سوداء تشغلها المبرات ذات لطف عظيم الانضاع حتى لتدرك في الحال في أي كبر واعتزاز اتخذ هذا اللطف منشأه. لقد كانت على أية حال، وهي شبيهة مع بعض الفوارق البسيطة بالأخريات من كبار السيدات، قليلة الانتماء بـ «الستاندالية» قلة شارع «بارما» في حي أوروبا في باريس مثلاً الذي هو أقل شبيهاً باسم «بارما» منه بجميع الشوارع المجاورة وأقل تذكيراً بدير الرهبان الذي يموت فيه «فابريس» منه بصالة «الخطي الضائعة» في محطة «سان لازار».

(*) من بطلات رواية ستاندال الشهيرة «محبس بارما»..

كان لطفها ناجماً عن سببين ؛ أحدهما، وهو عام، التربية التي توافرت لابنة الملوك هذه. فقد رست والدتها (ولم تكن ترتبط بعلاقة مصاهرة بجميع الأسر الملكية في أوروبا فحسب بل كانت، على نقيض الأسرة الدوقية في «بارما» أوفر ثراء من أية أميرة مالكة أخرى)، رست في نفسها، منذ نعومة أظفارها، تعاليم سنوبية انجيلية مستكبرة في انضاعها. كان كل ملمح في وجه الفتاة، كانت استدارة كتفيها وحركات ذراعيها تبدو وكأنها تقول: «تذكري أنه ينبغي لك، إن سمح الله بأن تولدي على سلاله العرش، ألا تستغلي ذلك لاحتقار أولئك الذين شاعت العناية الإلهية (سبحانها) ! أن تفوقهم مولداً وثروات. كوني على العكس رفيقة بالصغار لقد كان جدودك أمراء «كليف» و«چوليه» منذ عام ٦٤٨ ؛ وقد شاء الله في طبيته أن تملكي جميع أسهم قناة السويس تقريباً وثلاثة أمثال «أدمون دوروتشليد» في الشركة الهولندية الملكية، وأثبت علماء الأنساب خطأ بنوتك المباشر منذ عام ٦٣ من العهد المسيحي، ولديك امبراطوران بين شقيقات زوجك. فلا يدون عليك البتة إذن وأنت تتحدثين أنك تذكرين مثل هذه الامتيازات العظيمة، لا لأنها صائرة إلى زوال (إذ لا يمكن أن تغير شيئاً في قدم الأصل وسنظل أبداً بحاجة إلى البترول) ولكننا لايجدي أن تعلن أنك أفضل مولد من أي إنسان وأن توظيفاتك من الطراز الأول بما أن الجميع يعرفون ذلك. هبي إلى مساعدة المساكين، وزودي جميع الذين منت عليك الأطفاف السماوية بوضعهم في مرتبة أدنى منك بما يمكن أن تعطيتهم إياه دون أن تخطي من مقامك، وأعني مساعدات مالية وحتي عناية تمريضية، ولكن دون دعوات إلى أمسياتك بالطبع، فالأمر قد لايعود عليهم بأي خير بل هو يقلص من فعالية أعمالك الخيرية فيما يقلل من مهابتك».

كانت الأميرة تحاول لذلك، حتى في الفترات التي لا تستطيع فيها فعل الخير، أن تظهر أو بالأحرى أن توهم بجميع العلامات الخارجية التي تميز اللغة الصامتة أنها لا تظن نفسها أرفع من الذين تعيش بينهم. كانت تبدي لكل منهم هذا التهذيب الرائع الذي يديه أناس حسنو التربية لمن هم أدنى منهم مرتبة وتدفع في كل لحظة، كيما تؤدي خدمة ماء، كرسيها من أجل أن توسع المكان وتحمل قفازي وتقدم لي كل هذه الخدمات التي لا تليق بالبورجوازيات المستكبريات والتي تؤديها بملء خاطر الملكات أو يفعل بالغريزة ومن جراء عادة مهنية قدامى الخدم.

أما السبب الآخر لما أبدت لي الأميرة «دو بارما» من لطف فأكثر خصوصية ولكننا لا يمكنه على الإطلاق ودّ خفيّ تكنه لي. ولكن الوقت لم يتسع لي لتعميق هذا السبب الثاني في تلك اللحظة. فقد دفعني الدوق مذ ذاك، وكان يبدو على عجلة من أمره لاتمام التعريف بي، إلى واحدة أخرى من الفتيات الأزهري وإذ سمعت اسمها قلت لها إنه سبق أن مررت أمام قصرها في مكان غير بعيد عن «البليك» فقالت: «آه! كم كان يسعدني أن أريك إياه»، قالت بصوت يكاد يكون خافتاً كأنما لتبدو أكثر انضاعاً ولكننا بلهجة صادقة التعبير مشبعة بالأسف لفرصة مفقودة في متعة فريدة وأضافت بنظرة موحية: «أمل أن كل شيء لم ينقض. ولا بد أن أقول إن ما كان استهواك أكثر منه فقصر عمتي «برانكاس» فقد بناه «ما نصار» وهو درة الأقليم. ولعلها ما كانت وحدها لتسعد بأن تريني قصرها، فذلك حال عمتها «برانكاس» التي ربما لم تكن لتنهزها نشوة أقل للترحيب بي في قصرها، فيما أكدت لي هذه السيّد التي كانت تحسب بالطبع أنه لا بد أن يحافظ الكبار، ولاسيما في زمن تميل فيه الأرض إلى الانتقال إلى أيدي رجال مال لا يحسنون العيش، على التقاليد العريقة في ضيافة عليّة القوم بأقوال لا تلزم صاحبها في شيء أضف أنها كانت تحاول، شأن جميع الناس في

وسطها، أن تقول من الأمور ما يمكن أن يدخل أعظم السرور في نفس من تخدئه وأن توليه أرفع فكرة عن ذاته وأن يعتقد أنه يروق من يكتب إليهم ويشرف مستضيفيه ويتحرق الناس إلى معرفته. وإن ابتغاء ايلاء الآخرين هذه الفكرة المفرحة عن ذواتهم موجودة أحياناً والحق يقال حتى في صفوف البورجوازية. فأنك تصادف فيها هذه النزعة الخيرة، وذلك بمنزلة ميزة فردية تعرض عن عيب ما، لالدى أكثر من تثق بهم من الأصدقاء للأسف بل لدى أكثر من يروك من الرفيقات على الأقل. وهي تزدهر على أية حال على نحو افراي. أما لدى قسم هام من الأرستقراطية فقد كفت هذه الميزة في الطباع على العكس عن كونها فردية، وأضحت، وقد نمتها التربية وتعهدها فكرة عظيمة خاصة لا يمكن أن تخشى التحقير ولا تعرف منافساً لها وتعلم أنها تستطيع بالوداعة أن تسعد البعض ويطيّب لها أن تفعل، الطابع المميّز لطبقة معينة، حتى أولئك الذين تحول معاب شخصية مفرطة التناقض دون أن يحفظوها في قلوبهم يحملون أثرها اللاواعي في كلماتهم أو حركات أيديهم.

وقال لي السيد «دو غير مانت» «عن الأميرة» «دو بارما»: «إنها امرأة طيبة جداً وتعرف كيف تكون سيّدة كبيرة» كما لا يستطيع غيرها.

وفيما كان يتم تعريفني بالنساء كان ثمة رجل يطلق أمارات اضطراب كثيرة: وكان الكونت «هانيل دو بريوتي كونسالفي». فقد وصل متأخراً فلم يتسع له الوقت للاستعلام عن المدعوين وحينما دخلت إلى الصالة وإذا أبصر في مدعوا لم يكن في عداد مجتمع الدوقة وكان لابد بالتالي أن يمتلك ألقاباً خارقة تماماً كي ينفذ إليه فقد وضع نظارته تحت قوس حاجبيه المستدير وفي اعتقاده أنها ستعيّنه على تمييز نوع الرجل الذي كنته أكثر منه على رؤيتي كان يعلم أن السيّدة «دو غير مانت» تملك، والأمر امتياز ثمين للنساء المتفوقات حقاً، ما يدعى بـ«الصالة»، يعني أنها تضيف أحياناً إلى جماعة محيطها رجالاً مرموقاً أبرزه منذ قليل اكتشاف دواء أو إنتاج رائعة فنية. كان حي «سان جيرمان» لا يزال تحت تأثير معرفته أن الدوقة لم تخش أن تدعو السيّد «دو تاي» إلى حفل الاستقبال على شرف ملك إنكلترا وملككتها. وكانت متظرفات «الحي» يسلين بصعوبة أنهن لم يدعين لشدة ما لعلهن كن استحلين الاقتراب من تلك العبقريّة الغريبة. وكانت السيّدة «كورفوازييه» تدعي أن السيّد «رييو» كان أيضاً حاضراً ولكنه كان اختلافاً معدداً للحمل على الظن بأن «أوريان» كانت تحاول أن يتم تعيين زوجها سفيراً ثم إن السيّد «دو غير مانت»، زيادة في الفضيحة، كان قد ذهب إلى قاعة استراحة مسرح «الكوميدي فرانسيز» ورجا الآئمة «رايشنبرغ» بتأديب يليق بالمشير «دو ساكس» أن تنجي وتندش الشعر أمام الملك، الأمر الذي تم وألف واقعة لا سابقة لها في حوليات اللقاءات المجتمعية. ولدى تذكر هذا القدر من اللامتوقع الذي كان يقره على أي حال تماماً. وعلى قدر ما كان السيّد «دو بريوتي» نفسه زينة لأي صالة وتكريساً لها على نحو ما كانت الدوقة «دو غير مانت» ولكن في فئة الذكور، أخذ يحسّ، وهو يسائل نفسه من كان يمكن أن أكون، بحفل فسيح جداً يفتح أمام تحرياته. ومر اسم السيّد «ويدور» لحظة في خاطره ولكنه حكم أنني فتي جداً كيما أكون عازف أرغن وأن السيّد «ويدور» هين الشخصية إلى حد بعيد كيما يتم استقباله. وبدا له أكثر احتمالاً أن يبصر في فحسب الملحق الجديد في مفوضية السويد الذي سبق أن حدثوه عنه، وأخذ يعدّ العدة ليسألني أخبار الملك «أوسكار» الذي استقبله أحسن استقبال مرّات عديدة. ولكن عندما قال الدوق اسمي للسيّد «دو بريوتي» بغية التعريف بي وإذا رأى هذا الأخير أن الاسم مجهول لديه تماماً لم

يشك مذ ذاك بعد أنني لوجودي هناك من بعض المشاهير. ولم تكن «أوريان» بالتأكيد تفعل غير ذلك وهي تتقن فن اجتذاب الرجال المرموقين إلى صالحتها بمعدل واحد إلى مئة بالطبع وإلا لكانت سبقت. وشرع السيد «دو بريوتيه» إذن يمرر لسانه على شفتيه و«يشمشم» بأنفه النهم، وقد أهاج شهيتته لا العشاء الطيب الذي هو على يقين من الحصول عليه، بل طابع الاجتماع الذي لا يمكن إلا أن يضفي عليه وجودي إثارة وسوف يوفر له موضوع حديث مثير في الغد أثناء غداء دوق «شارتر» ولم يكن بعد قد قرأ رأية على النقطة التي مفادها أن يعلم إن كنت أنا ذاك الذي جاؤوا على تجريب مصله ضد السرطان أو على اعتماد نصة للتمثيلية الجديدة في المسرح الفرنسي، ولكنه لم يكن يتوقف، وهو مثقف كبير وهاوٍ كبير «لقصص الأسفار»، عن مضاعفة الإنحناءات أمامي وعلامات التفاهم والابتسامات التي تسربها نظارته، إما انطلاقاً من الفكرة الزائفة القائلة بأن أي إنسان ذي شأن سوف يزيد من تقديره له إن هو أفلح في أن يدخل في روعه الوهم بأن امتيازات الفكر ليست في نظره، هو الكونت «دو بريوتيه كونسالفي»، أقل جدارة بالاحترام من امتيازات المولد، وإما لحض حاجة إلى التعبير عن رضاه وصعوبة في التعبير عنه في جهله للغة التي ينبغي أن يحدثني بها، كما لو اتفق له، باختصار القول، أن يكون في حضرة واحد من السكان الأصليين في أرض مجهولة وصل إليها طوفه ويحاول، أملاً في الريح، وفيما يلاحظ باستغراب عاداتهم ودون أن يوقف تظاهرات الصداقة أو يغفل عن إطلاق صيحات عالية مثلهم، أن يبادل ببيض نعامة وتوابل مصنوعات زجاجية صغيرة. وبعد أن استجبت جهده المستطاع لابتهاجه، شددت على يد الدوق «دو شاتيلرو» الذي سبق أن لقيته لدى السيدة «دو فيلباريزيس» التي قال لي عنها إنها داهية. كان من آل «غير مانت» إلى حد بعيد بشقرة الشعر وعقفة الأنف في منظره الجانبي والنقاط التي يمتقع فيها جلد الخد وكل ما تبصره العين مذ ذاك في رسوم هذه الأسرة التي خلفها لنا القرنان السادس عشر والسابع عشر. ولما لم أعد أحب الدوقة فإن عودتها في جسد شاب كانت خالية من أي جاذب في نظري وكنت أقرأ العقفة التي يشكلها أنف الدوق «دو شاتيلرو» بمثابة توقيع رسام درسته فترة طويلة ولكنه لم يعد يهمني على الإطلاق ثم حييت كذلك الأميرة «دوفوا». وتركت سلامياتي لتعس حظها تدخل في الملمزة، ولاتبرحها لأمر مروض، والملمزة التي تؤلفها مصافحة على الطريقة الألمانية ترافقها ابتسامة ساخرة أو ساذجة يوجد بها الأمير «دو فافنهايم» صديق السيد «دو نوربوا» والذي كان يدعى، من جرأ هوس الألقاب الذي يميز هذا الوسط، الأمير «فون» وذلك على نطاق شامل إلى حد أنه أخذ يوقع بدوره «الأمير فون» أو «فون» إن هو راسل الآلاف والاختصار هذا تدرجه عند اللزوم بسبب طول الاسم المركب ولكنك أقل تبييناً للأسباب التي كانت تحمل على استبدال «اليزابيت» بـ«ليلي» طوراً وقرأه بـ«بيبيت» مثلما تكثر في وسط آخر أسماء «كيكيم» وإنك لتدرك أن جماعة ربما اختاروا «كيو» كي لا يضيعوا وقتهم بقولهم «مونتسكيو» مع أنهم قليلو المشاغل ومستهترون بعامة. ولكنك أقل تبييناً لما كانوا يكسبونه في تسمية أحد أبناء عمهم «دينان» بدلاً من «فيردينان» وينبغي ألا نعتقد على أية حال أن آل «غير مانت» كانوا يلجؤون دوماً في إطلاق الأسماء إلى ترداد أحد المقاطع. فمن ذلك أن شقيقتين هما الكونتيسة «دو مونبيرو» والفيكوتيسة «دو فيلود»، وكلتاها على بدانة هائلة، لم تسمعا قط من يناديهما بغير «صغيرة» و«ظريفة» دون أن تغضبا لذلك أقل الغضب ودون أن يخطر لأحد أن يتسم للأمر لفرط قدم العادة. ولعل السيدة «دو غير مانت» التي كانت تعشق السيدة «دو مونبيرو»، لعلها لو أصيبت هذه الأخيرة إصابة خطيرة، سألت أختها دامعة العين: «يقولون إن «صغيرة» في أسوأ حال». أما السيدة «دو ليكلان» التي كان تصفف شعرها شرائط تحجب أذنيها كلياً فما

كانوا يدعونها قط بغير «البطن الخاوي» ويكتفون أحياناً بإضافة «ة» مربوطة إلى كنية الزوج أو اسمه للدلالة على الزوجة. ولما كان اسم الرجل الأشدّ بخلًا والأكثر خسة والأكثر قسوة في الحيّ «رافائيل» فإن فاتنته وزهرته التي نبئت كذلك في الصخر كانت توقع دوماً باسم «رافائيله» على أن تلك نماذج لقواعد لا تخصى يمكننا دوماً، إن سنحت الفرصة، أن نشرح بعضاً منها.

وسألت الدوق بعد ذلك أن يقدمني للأمير «داغر بجانت»، فصاح السيّد «دو غير مانت» قائلاً: «عجياً، ألا تعرف هذا الصرار الرائع»، وذكر اسمي للسيّد «داغر بجانت». وقد سبق أن بدا لي اسم هذا الأخير على الدوام، وكثيراً ما ذكرته «فرانسواز» بمثابة زجاج شفاف كنت أبصر تحته المكعبات الوردية لمدينة قديمة تسقط فوقها على شاطئ البحر البنفسجي الأشعة المائلة لشمس ذهبية، وما كنت أشك أن الأمير - وقد مرّ في باريس بأعجوبة خاطفة - هو نفسة سلطانها الحقيقي الواضح إلى حدّ بعيد في طابعه الصقلي والذي اكتسى بالأعجاد. ولكنّ الخنفس التافه الذي عرفوني إليه والذي دار على نفسه ليسلم عليّ بوقاحة متناقلة يظنها متأنقة كان بعيداً عن اسمه بعده عن عمل فني ربما حازه دون أن يحمل في نفسه أيّ انعكاس منه ودون أن يكون ربما نظر إليه في يوم. كان الأمير «داغر بجانت» خلواً تماماً من أيّ طابع أميريّ ويمكن أن يذكر به «أغريجانت» إلى حدّ تفترض معه أن اسمه، وهو مختلف أتمّ الاختلاف عنه ولا يربطه بشخصه رباط، كان بمقدوره أن يجتذب إليه كلّ ما أمكن أن يكون ثمة من غامض الشعر لدى هذا الرجل، كما هي الحال لدى سواه، وأن يسجنه بعد هذه العملية داخل المقاطع المسحورة. ولئن تمت هذه العملية فقد أنجزت في جميع الأحوال على أحسن وجه إذ لم يظل ذرة واحدة من سحر يمكن استخلاصها من قريب آل «غيرمانت» هذا، حتى اتفق له أن يكون في الآن نفسه الرجل الوحيد في العالم الذي كان أمير «أغريجانت» وربما أقلّ رجل في العالم يمكن أن يكونه. وقد أسعده جدّاً على أية حال أن يكونه، ولكن على نحو ما يسعد صاحب مصرف لأن يملك أسهماً كثيرة في منجم دون أن يهتم من ناحية أخرى إن كان هذا المنجم يتفق وجمال أسماء منجم «إيفانهو» ومنجم «بريمروز» أو إن كان يدعى منجم «الأول» فحسب. وفي تلك الأثناء وفيما كانت تنجز أدوار التعريف الطويلة جدّاً إما رويتها ولكنها لم تدم، وقد تمّ البدء بها منذ دخولي إلى الصالة، سوى بضع لحظات، وفيما كانت السيّد «دو غير مانت» تقول بلهجة التوسل تقريباً: «إني متيقنة من أن «بازان» يتعبك باصطحابك على هذا النحو من هذا إلى ذاك، نحن نريد أن تعرف أصدقاءنا ولكننا نريد على وجه الخصوص ألا نتعبك كيما تعود مرّات كثيرة»، أشار الدوق بحركة غير حاذقة إلى حدّ ما ومتهية إلى أنهم يستطيعون تقديم الطعام (الأمر الذي وُدّ لو قام به منذ ساعة عبثت فيما يخصني بتأمل لوحات «ابليستير»).

وينبغي أن نضيف بأن أحد المدعوّين لم يكن حاضراً، وهو السيّد «دو غروشي» التي جاءت زوجته، وقد ولدت لآل «غير مانت». وحدها من جانبها، إذ يصل الزوج مباشرة من الصيد حيث قضى النهار. وكان السيّد «دو غروشي» هذا، وهو سليل «غروشي» في زمن الإمبراطورية الأولى الذي قيل زوراً إن غيابه في أوّل «واترلو» كان السبب الرئيسي لهزيمة نابليون، ينحدر من أسرة ممتازة ولكنها غير كافية مع ذلك في نظر بعض المولعين بأمور النبلاء. من ذلك أن الأمير «دو غير مانت» الذي كان يزعم أن يكون بعد ذلك بسنوات كثيرة أقلّ تشدداً فيما يخصه قد تعود أن يقول لبنات أخيه: «يا المحصية السيّد «دو غيرمانت» المسكينة هذه «وهي الفيكونتيسة «دو غيرمانت» والدة السيّد «دو غروشي»» أنّها لم تستطع قطّ تزويج بناتها!.

- «ولكنّ البكر ياعمى تزوجت السيّد «دو غروشي». - لا أسمّي هذا زوجاً! على أنّهم يزعمون أنّ العم «فرنسوا» قد طلب الصغرى، الأمر الذي من شأنه ألا يكن كلهن قد لبثن بنات».

وما أن صدر الأمر بتقديم الطعام حتّى انفتحت أبواب قاعة الطعام على مصراعيها في صرّة دائرية واسعة متعدّدة متوافقة. وانحنى رئيس خدم يبدو وكأنّه رئيس تشريفات أمام الأميرة «دو بارما» وأعلن الخبر: «طعام سيّدتي جاهز» «بلهجة شبيهة بتلك التي ربما قال بها: «سيّدتي تصارع الموت» ولكنّها لن تثر أي غمّ في الجماعة إذ تقدّم الأزواج بهيئة مريحة، وكما هو الصيف في «روبنسون، الواحد تلو الآخر إلى قاعة الطعام ينفضلون حينما يبلغون أماكنهم حيث يدفع خدم من الخلف مقعدهم. وتقدمت السيّد «دو غير مانت» آخر المطاف صوبي كيما أصبحها إلى المائدة ودون أن يداخلني أي حجل كان يمكن أن أخشى منه، فقد دارت، فلة الصيادة التي أولت المهارة العضلية الكبيرة رشاقتها سهولة، وإذ أبصرت دون شكّ أنّي وقفت في الجانب الذي لا ينبغي لي الوقوف فيه، دارت من حولي بقدر من الدقة ألقيت معه ذراعها على ذراعي ووجدتني أنغمس انغمساً طبيعياً في إيقاع حركات دقيقة ونبيلة. وانصرفت لها بيسر تزايد بقدر ما كان آل «غير مانت» لا يولونها أهمية أكثر مما يولي المعرفة عالم حقيقي أنت في حضرته أقلّ تهيباً مما في حضرة جاهل. وانفتحت أبواب أخرى دخل منها الحساء الذي يتصاعد بخاره وكأنّما أقيم العشاء في مسرح دمي أعدّ بمهارة وحرك فيه وصول المدعو الشاب المتأخّر جميع الأجهزة بإشارة من القائم عليها.

وإنما كانت وجلة، لا عظيمة في جلالها. إشارة الدوق تلك التي استجاب لها انطلاق هذه المجموعة الآلية والبشرية الفسيحة المبكرة الطيعة الفخمة. ولم تضّر حيرة الحركة في نظري بأثر المشهد الذي كان يرتبط بها. فقد كنت أحسّ بأنّ ما جعلها متردّدة مربكة إنّما الخشية من أن أبصر أنّهم ما كانوا ينتظرون سواي للعشاء وأنّهم انتظروني فترة طويلة، مثلما كانت تخشى السيّد «دو غير مانت» أن يرهقوني بعد ما شاهدت الكثير من اللوحات ويحولوا دون أن أرتاح بالتعريف بي على نحو مستمرّ. إلى حدّ أنّ غياب العظمة في الحركة هو الذي كان يبرز العظمة الحقيقية، لامبالاة الدوق تلك ببذخه الخاصّ ومراعاته على العكس لضييف غير ذي شأن في حدّ ذاته ولكنه يؤدّ تكريمه.

وليس يعني ذلك أنّ السيّد «دو غير مانت» لم يكن عادياً جداً في بعض الجوانب ولم يبدُ حتّى مهالز رجل مفرط الثراء واستعلاء وصولي لم يكنه. مثلما يصير الموظف أو الكاهن موهبتهما الضحلة تتضاعف إلى ما لانهاية من جرّاء تلك القوى التي يستندان إليها. ونعني الإدارة الفرنسية والكنيسة الكاثوليكية، (كما الموجة من جرّاء كامل البحر الذي يتدافع خلفها) كذلك كان السيّد «دو غير مانت» تدفعه تلك القوة الأخرى، أي التهذيب الأرستقراطي الأكثر صدقاً. ولكن هذا التهذيب يستبعد الكثير من الناس. فما كانت السيّد «دو غير مانت» لتستقبل السيّد «دو كامبرمير» أو السيّد «دو فورشفيل». فإن بدا أحدهم، وتلك كانت حالتي، وكأنّما يمكن ضمّه إلى وسط آل «غير مانت» كشف ذاك التهذيب كنوزاً من بساطة الضيافة أكثر روعة بعد، إن أمكن ذلك، من تلك الصالات العتيقة وذلك الأثاث الرائع الذي لم يرح مكانه.

وهكذا كان السيّد «دو غير مانت» يملك، إن شاء إشاعة السرور في صدر أحدهم، فنأ يحسن الإفادة من الظرف والمكان كي يجعل منه في ذلك اليوم الشخصية الأساسية. ولعلّ صنوف أناقته وظرفه كانت اتّخذت

في «غير مانت» دونما شك صبيغة أخرى. فرمّا أمر أن تسرج الخيول كي يصطحبني وأقوم وحدي بنزهة معه قبل العشاء.. كنت تحس أن سلوكه، بالشكل الذي هو عليه، كان يؤثر فيك مثلما تؤثر فيك، وأنت تقرأ ذكريات من العصر الغابر، ذكريات لويس الرابع عشر حينما يجيب بلطف وبلهجة ضاحكة وينصف انحناءة واحداً جاء يلتسمه. على أنه ينبغي أن ندرك في كلا الحالتين أن ذاك التهذيب ما كان يتجاوز حدود دلالة هذه اللفظة.

ولويس الرابع عشر (الذي ينعي عليه المولعون بطبقة النبلاء في عصره مع ذلك قليل اهتمامه باللياقة إلى حدّ أنه لم يكن، فيما يقول «سان سيمون»، سوى ملك هين جدّاً من حيث المنزل إذ ماquis بد«فيليب دو فالوا» و«شارل الخامس»، إلخ) يأمر بصياغة أكثر التعليمات دقة كي يعلم أمراء الأسرة المالكة والسفراء أيّ ملوك ينبغي لهم أن يقدموهم عليهم. وإزاء استحالة الوصول إلى وفاق في بعض الحالات يفضل الاتفاق على أن مولاي ابن لويس الرابع عشر لن يستقبل هذا العاهل الأجنبي أو ذلك في منزله إلا خارجاً وفي الهواء الطلق كي لا يقال إن أحدهما قد سبق الآخر وهو يدخل إلى القصر. أمّا والي مقاطعة البالاتينا فيتظاهر، في استقبال الدوق «دو شوفروز»، كي لا يدع له أن يتقدّمه، بأنّه مريض ويتناول عشاء معه ولكنه يفعل في سريره، الأمر الذي يحسم الصعوبة. وإذ يتجنب الدوق فرص تأدية خدمة «لسيادته» فإنّ هذا الأخير يتخذ، بناءً على مشورة الملك أخيه الذي يحبه حباً رقيقاً، ذريعة ليحمل ابن عمّه على الحضور ساعة استيقاظه وأن يلبسه قميصه. ولكن حالما يدور الأمر حول عاطفة عميقة، حول أمور القلب، فإن الواجب الذي لايلين مادام الأمر يتعلق بالتهذيب إنّما يتغيّر تغيراً كلياً. فبعد بضع ساعات من وفاة الشقيق هذا، وهو أحد أكثر من أحب من الناس، وحين لايزال «سيادته»، حسب تعبير الدوق «دومونفور» ساخناً بعد تماماً، يغتنى لويس الرابع عشر ألباناً أوبرالية ويدهش أن تبدو الدوقة «دو بورغونني» التي تلاقي عنتاً في إخفاء ألمها حزينة إلى هذا الحدّ وإذ ينبغي أن يعود المرح ثانية في الحال وكما يقرّر رجال البلاط العودة إلى اللعب فإنّه يأمر الدوق «دو بورغونني» أن يياشر لعبة ورق سريعة. والحقيقة أنّك كنت تلقى التناقض نفسه، لا في أعمال السيّد «دو غير مانت» المجتمعية والمركّزة فحسب، بل في كلامه الأقلّ تعمداً وفي مشاغله وفي برنامج عمله: فما كان آل «غير مانت» يحسّون بغموم أكثر من باقي الفنانين، ويمكن حتّى أن نقول إنّ حساسيتهم الحقيقية كانت أقلّ. ولكنك كنت تبصر بالمقابل اسمهم في كل يوم في باب أخبار المجتمع من صحيفة «الغالي» بسبب العدد الهائل من الماتم التي ربّما ألفوا أنفسهم مذنبين إن لم يسجلوا اسمهم فيها. ومثلما يلقي المسافر البيوت المغطاة بالتراب والسطوح التي أمكن أن يعرفها «كزينوفون» أو القديس بولس، كذلك كنت ألقى في سلوك السيّد «دو غير مانت»، وهو رجل يهزّ باللطف مشاعرك ويثير بالقسوة اشمعزارك، وهو عبد لأصغر الالتزامات ومتحلل من أقدم الموائيق، ذاك الانحراف الخاصّ بحياة البلاط في عهد لويس الرابع عشر، ولايزال على حاله بعد انقضاء أكثر من قرنين، الانحراف الذي ينقل وسواس الضمير من نطاق مشاعر الودّ والأخلاقية إلى مسائل شكلية بحتة.

أمّا السبب الآخر للطف الذي أبدته لي أميرة «بارما» فأكثر خصوصية. ذلك أنّها كانت توقن سلفاً أنّ كلّ ماتراه لدى الدوقة «دو غير مانت» من أشياء وأشخاص كان من نوعية أرفع من كلّ ما تملك لديها. كانت تنصّرف، والحقّ يقال، لدى جميع الناس الآخرين وكان الأمر على هذه الشاكلة. فما كانت تكثفي، إزاء الطبّق الأكثر بساطة والأزهار العادية كأكثر ما تكون، بالافتتان، بل كانت تستأذن في أن ترسل منذ الغد

في طلب الوصفة أو تأمر بتحرّي النوعية على يد طبّاخها أو بستانيها الأول، وهما من ذوي الرواتب الضخمة ومن يملكون عربتهم الخاصة ولهم على وجه الخصوص ادّعاءاتهم المهنية، فكانا يجدان إذلالاً كبيراً في المجيء للاستعلام عن طبق مزدري أو تقليد صنف من زهر القرنفل لم يكن على مثل نصف الجمال ونصف تعدد الألوان ونصف الحجم - قياساً على أحجام الأزهار - الذي بلغت الأزهار التي حصلوا عليها منذ فترة طويلة لدى الأميرة. ولئن كانت هذه الدهشة التي تعترى هذه الأخيرة لدى جميع الناس إزاء أقلّ الأمور، لئن كانت مصنعة ترمي إلى إبراز أنّها لا تستمد من سمّ منزلتها ومن ثرواتها استعلاء يحظره مربوها القدامى وتخفيه والدتها ولا يطبق الله احتماله، فقد كانت في مقابل ذلك تنظر بكامل الصدق إلى صالة الدوقة «دو غير مانت» على أنّها مكان مفضل لاستطيع أن تنتقل فيه إلّا من مفاجأة إلى نشوة. لقد كان آل «غير مانت» على نحو عام على آية حال، ولكنّه قد لا يكون البتّة كافياً لشرح هذه الحالة الذهنية، مختلفين إلى حدّ ما عن باقي المجتمع الأرستقراطي فقد كانوا أكثر تأنقاً وأكثر ندرة. لقد خلّفوا لديّ للوهلة الأولى الانطباع المعاكس، فقد سبق أن وجدتهم عاميين يشبهون جميع الرجال وجميع النساء، ولكنّما ذلك لأنني رأيت مسبقاً فيهم أسماء كما رأيت في «البليك» و«فلورانس» و«بارما». وفي هذه الصالة بالطبع كانت جميع النساء، اللواتي سبق لي أن تخيلتهن بحتابة تماثيل صغيرة، أكثر شبهاً مع ذلك بالكثرة الكثيرة من النساء. بيد أن آل «غير مانت»، شأنهم شأن «البليك» أو «فلورانس»، كانوا يستطيعون، بعد ما خيّبوا الخيال لما يشبهون أمثالهم أكثر من اسمهم، كانوا يستطيعون فيما بعد أن يزودوا العقل وإن بدرجة أقلّ ببعض الخصائص التي كانت تميزهم، فتكوينهم الجسماني ولون بشرتهم وهو من ورديّ خاصّ يبلغ أحياناً حدّ البنفسجيّ وشقرة تكاد تكون منوّرة لشعر ناعم، حتّى لدى الرجال، يتراكم خصللاً مذهبة حلوة نصفها من الأشنة الجدارية والنصف من فروستوري (والبريق المضيء كان يقابله تألق في الذكاء، فلئن قيل لون عائلة «غير مانت» وشعرهم فقد كانوا يقولون كذلك ظرف آل «غير مانت» مثلما يقولون ظرف آل «مورتمار»)، وسمة اجتماعية أكثر رقة - منذ ما قبل لويس الرابع عشر - يزيد من إقرار الجميع بها أنّهم كانوا يعلنون عنها بأنفسهم، كلّ ذلك كان يؤدّي إلى أن يظّل آل «غير مانت» في مادة المجتمع الأرستقراطي ذاتها، مهما غلت ثمناء، والتي تجدهم ينفرون فيها ههنا وهناك، أن يظلّوا يسيري التعرّف سهلي التمييز والمتابعة شأن العروق التي تخطط شقرتها حجارة الشبب والعقيق أو بالأحرى شأن التموّج المرن لشعور الضياء هذه التي تجري أعرافها المشعّنة كأشعة طيعة في زوايا العقيق الرغويّ.

ولم يكن آل «غير مانت» - على الأقلّ من كانوا أهلاً لهذا الاسم - يميّزون بنوعية بدیعة من بشرة وشعور ونظرة صافية فحسب بل كانت لهم طريقة في الوقفة والمشية والتحية والنظرة قبل المصافحة، وكانوا بذلك مختلفين في مجموع هذه الأمور عن أيّ رجل من أرباب المجتمع اختلاف هذا الأخير عن مزارع بصدرية. كان المرء يقول في قرارة نفسه، على الرغم من لطفهم: أليس لهم بالحقيقة أن يفكّروا، مع أنّهم يكتمون الأمر، حينما يصبروننا نمشي ونحيي ونخرج، كلّ هذه الأمور التي إمّا أنجزوها أصبحت بمثل رشاقة طيران السنونوة أو انحناء الورد: «إنّهم من سلالة غير سلالتنا وإنّنا نحن، أمراء البسيطة»؟ لقد أدركت فيما بعد أنّ آل «غير مانت» كانوا يظنونني بالفعل من سلالة أخرى، ولكنّما من سلالة تثير حسدهم لأنني أملك مزايًا كنت أجهلها وكانوا يجاهرون بأنهم يعدّونهم وحدها مهمة. وشعرت فيما بعد كذلك أنّ هذه المجاهرة لم

تكن إلا نصف صادقة وأن الاستخفاف أو الدهشة يتعايشان لديهم والإعجاب والحسد. لقد كانت المرونة الجسمية المميّزة لآل «غير مانت» مزدوجة، فبفضل الأولى، وهي دائمة النشاط، كان أحد آل «غير مانت» الذكور يحصل في كل لحظة، إن ذهب مثلاً لتحية سيّدة، على صورة لذاته يؤلفها التوازن اللا مستقرّ لحركات غير متناظرة ومستعاضة على نحو عصبي، فساق تجرّ قليلاً إمّا عمداً وإمّا لأنها سبق أن كسرت كثيراً في الصيد فأخذت تخلف في العجذع، للحاق بالساق الأخرى، انحرافاً يوازنه ارتفاع أحد الكتفين. فيما النظارة الوحيدة تتمركز في العين وترفع حاجباً في الوقت الذي تنحدر فيه خصلة الشعر للتحية؛ أمّا المرونة الثانية فكانت، على غرار شكل الموجة أو الريح أو الأخدود البحري الذي تحتفظ أبداً به المحارة أو المركب، قد اختصرت، إن جاز القول، في ضرب من الحركة المثبّثة تقوِّس الأنف المعقوف الذي كان يذكر، تحت العينين الزرقاوين البارزتين وفوق شفتين رقتا بافراط ومنهما ينطلق لدى النساء صوت أجشّ، كان يذكر بالمنشأ الأسطوري الذي خصّ به كرم علماء أنساب طفيليين من دارسي اليونانية في القرن السادس عشر هذا العرق العتيق دونما شكّ ولكن ليس إلى الحدّ الذي كانوا يدّعون حينما يردون منشأة إلى الإخصاب الأسطوري الذي وقع بين طائر إلهيّ وحوريّة.

ولم يكن آل «غير مانت» أقلّ تفرّداً على الصعيد الفكريّ منهم على الصعيد الجسمي. فباستثناء الأمير «جيلبير»، زوج «ماري جيلبير» ذي الأفكار البالية والذي كان يجلس زوجته، حينما يتنزّهان في عربتهم، عن يساره لأنها أدنى منه مولداً، مع أن المولد ملكي (ولكنّه كان يشدّ عن القاعدة ويؤلف في غيابه موضوع تهكم الأسرة ونوادير دائمة الجدة)، كان آل «غير مانت» يتظاهرون بأنهم لا يقيمون أيّ وزن لطبقة النبلاء، مع أنّهم يعيشون في صلب النخبة المختارة من الأرستقراطية. وكانت نظريات الدوقة «دو غير مانت»، التي أضحت، والحق يقال، لفرط ماتبدي من مزاي آل «غير مانت»، أضحت إلى حدّ ما أمراً مغايراً وأشدّ إمتاعاً، تضع الذكاء فوق كلّ شيء وكانت في حقل السياسة اشتراكية إلى حدّ يتساعل المرء معه أين كان يختبئ في فندقها «العبرة» المكلف بالحفاظ على الحياة الأرستقراطية والذي كان، وهو متوارٍ أبداً عن الأبصار ولكنّه قابض بالطبع في الردهة تارة وفي الصالة أخرى وطوراً في حجرة الملابس، كان يذكر خدام هذه المرأة التي لا تؤمن بالألقاب بأن يقولوا لها «سيّدي الدوقة»، وهذه المرأة التي لا تحبّ غير القراءة ولا يهوّها الحياء البشري بأن تذهب للعشاء لدى شقيقة زوجها حينما تدقّ الثامنة وبأن تكشف لذلك عن عنقها وكثفها.

وعبقريّة الأسرة نفسها كانت تظهر للسيّدة «دو غير مانت» حالة الدوقات، الأوليات من بينهنّ على الأقلّ وصاحبات الملايين العديدة مثلها، والتضحية في سبيل حفلات شاي عملة وأعشية في المدينة وحفلات راقصة بساعات ربّما أمكن أن تقرأ فيها أشياء مسليّة على أنّها ضرورات مزعجة شبيهة بالمطر تقبل بها السيّدة «دو غير مانت» وهي تعمل فيها قريحتها الساخرة ولكن دون أن يبلغ بها أن تبحث عن أسباب قبولها. وهذه الصدفة الغريبة التي قوامها أن يقول دوماً رئيس خدام السيّدة «دو غير مانت»: «سيّدي الدوقة» لهذه المرأة التي لا تؤمن بغير العقل لم تكن تبدو وكأنّها تصدّمها. فلم تفكّر في يوم أن ترجوه أن يقول لها «سيّدي» فحسب. وربّما أمكن أن نظنّ، إن ذهبنا بسلامة الطويّة إلى أقصى حدودها، أنّها كانت تسمع، وهي شاردة، «سيّدي» فحسب وأنّ الرائدة الكلامية الملحقة بها لم تكن تبلغ مسمعها. على أنّها لم تكن خرساء إن هي تظاهرت بالصمم. ففي كلّ مرّة تبغي أن تبليغ زوجها رسالة كانت تقول لرئيس الخدم: «ذكر السيّد الدوق...»

وكان لعبقريّة الأسرة على أيّ حال مشاغل أخرى كأنّ تحمل على حديث الأخلاق. كان ثمة بالتأكيّد «غرمانيّون» أذكّاء على الأخصّ و«غرمانيّون» أخلاقيّون على الأخصّ، وما كانوا بالعادة الأفراد ذاتهم. ولكنّ أولئك - بمن فيهم من سبق من آل «غير مانت» أن يزيّف وكان يغشّ في اللعب وكان أروعهم جميعاً ومنفتحاً على جميع الأفكار الجديدة والصائبة - كانوا ييخون في الأخلاق أفضل من هؤلاء وبطريقة السيّدة «دو فيلباريزيس» ذاتها في الفترات التي كانت عبقرية الأسرة تتكلّم فيها بلسان السيّدة العجوز. لقد كنت ترى آل «غير مانت» يتخذون فجأة في لحظات متماثلة لهجة في مثل تقادم وسداجة لهجة المركّزة تقريباً، بل وأكثر تأثيراً منها بسبب درجة من الفتنة أعظم لديهم، ليقولوا عن إحدى الخادماّت: «تخسّ أنّ لها أساساً طيباً، أنّها فتاة غير عادية ولا بدّ أنّها ابنة ملاح وقد ظلت أبداً بالتأكيّد في الصراط المستقيم». في تلك الفترات كانت عبقرية الأسرة تستحيل نبرة. ولكنّها كانت أحياناً كذلك طريقة وهيئة في الوجه هي واحدة لدى الدوقة ولدى جدّها المشير وهي ضرب من التقبض اللا مدرك الشبيه بتقبض الحية، وهي العبقرية القرطاجية لاسرة «برقا»، والتي أصابني منها مرّات عديدة خفقان في القلب في نزهاّتي الصباحية حينما كنت أحسّي، قبل أن أكون تعرّفت السيّدة «دو غير مانت»، تنظر إليّ من أقصى محلّ ألبان صغير. وقد تدخلت هذه العبقرية في ظرف ما كان أبعد أن يبيّء غير ذي بال لا في نظر آل «غير مانت» فحسب، بل في نظر آل «كورفوازييه» كذلك وهم القسم المناوئ من الأسرة ونقيضهم تماماً مع أنّهم يساوون آل «غير مانت» طيب محمّد (فقد بلغ بال «غير مانت» أن يفسّروا تقصّد الأمير «دو غير مانت» في التحدّث أبداً عن كرم المولد وطبقة الأشراف، وكأنّما ذلك الشئ الوحيد ذو الأهمية، بجذته التي من آل «كورفوازييه»). فما كان آل «كورفوازييه» لا يولون الذكاء المرتبة نفسها التي يوليها آل «غير مانت» فحسب، بل كانوا لا يحملون عنه الفكرة نفسها. فأن تكون ذكياً في نظر واحد من آل «غير مانت» (وإن يك غيباً) فإنّما أن تكون هجاءً قاسياً على التفوّه بأقوال مسيئة وأن تغنم الغنائم وأن تستطيع كذلك الصمود في موضوع الرسم والموسيقى وهندسة العمارة على حدّ سواء وأن تتكلّم الإنكليزية. أمّا آل «كورفوازييه» فكانوا يحملون عن الذكاء فكرة أقلّ إيجابية وما كان بعيد، لأقلّ مالا تكون عن عالمهم. أن يعني الذكاء لهم «أن تكون على الأرجح قد قتلت أبك وأمك». لقد كان الذكاء في نظرهم ضرباً من العلة المسطحة التي يقتحم بها أناس لا تعرفهم من حواء أو آدم أبواب أكثر الصالات تقديراً وكانوا يعملون لدى آل «كورفوازييه» أنّك تكتوي دوماً في آخر الأمر لأنك استقبلت مثل هذه «الأصناف». كان آل «كورفوازييه» يقابلون أقلّ التوكيدات شأناً على لسان أناس أذكّاء ليسوا من أرباب المجتمع بارتياب لا يتبدّل. فقد قال أحدهم ذات مرّة: «ولكنّ «سوان» أصغر سنّاً من «بالاميد». فأجابّت السيّدة «دو غالاردون» قائلة: «إنه يقول لك ذلك على الأقلّ، وإن يقل ذلك فتبيّن أنّه إنّما يلقي مصلحته في ذلك». بل أكثر من ذلك، فقد سألت السيّدة «دو غالاردون»، فيما كانوا يقولون بشأن أجنبيّتين بالغتي الأناقة كان آل «غير مانت» يستقبلونهما إنّهم جعلوا هذه تمرّ بادي الأمر بما أنّها الكبرى، سألت قائلة: «ولكن أتراها حتّى هي الكبرى؟»، لا على نحو إيجابيّ كما لو لم يكن لهذا الصنف من الناس عمر، بل كما لو كانتا، وهما تفتقران على الأرجح إلى سجلّ مدنيّ ودينيّ وإلى تقاليد أكيدة. أكبر أو أصغر سنّاً شأن القبط الصغيرة الموجودة في السلة نفسها والتي لا يستطيع غير الطبيب البيطريّ أن يتعرّف سبيله بينها. كان آل «كورفوازييه» بمعنى أو بآخر يحافظون أفضل من آل «غير مانت» على أيّة حال على صفاء طبقة النبلاء بفضل ضيق عقلهم وخبث فؤادهم في أن معاً. ومثلما كان آل «غير مانت» (الذين كان كلّ شيء أدنى من الأسر الملكية وبعض

الأسر الأخرى كأسرة «لينبي» و«لاتريمواي»، إلخ، يختلط في نظرهم في غمامة من الناس القليلي الشأن) وقحين مع أناس من سلالة عريقة كانوا يقطنون حول «غير مانت» لأنهم بالضبط ما كانوا يصرفون انتباههم إلى مزايا النسق الثاني هذه التي كان يهتم لها آل «كورفوازيه» أعظم الاهتمام، فإن غياب هذه المزايا كان قليل الأهمية في نظرهم. فقد كانت بعض النساء اللواتي لايشغلن منزلة رفيعة جداً في إقليمهم ولكنهن زوجن ألع الأزواج، وهن غنيات جميلات تحبهن الدوقات، يشكلن في نظر باريس حيث الناس قليلو الإحاطة بأمر «الأب والأم» سلعة مستوردة ممتازة وأنيقة. كان يمكن أن يتفق. وإن ندر الأمر، أن يتم استقبال مثل تلك النسوة لدى بعض سيّدات «غير مانت» عن طريق أميرة «بارما» وبفضل موافقتهن الخاصة. ولكن سخط آل «كورفوازيه» بشأنهن ما كان يلين في يوم. فقد كان لقاءهم بين الخامسة والسادسة في منزل ابنة عمهم بأناس ما كان ذورهم يحبون أن يخالطوا ذويهم في محلة «بيرش» يضحي في نظرهم سبب حنق متنام وموضوع خطب لانتتهى فمئذ اللحظة التي كانت الكونتيسة الفاتنة ج... تدخل فيها مثلاً إلى منزل آل «غير مانت» كان وجه السيّدة «دو فيلبون» يتخذ بالضبط الهيئة التي كان لابد أن يتخذها لو وقع عليها أن تشد البيت التالي:

«فان لم يبق سوى واحد كنت ذاك الرجل».

والبيت مجهول لديها على أي حال. لقد سبق أن ازدردت هذه «الكورفوازية» كل يوم اثنين تقريباً قطع حلوى مثقلة بالكريما على بضع خطوات من الكونتيسة ج... ولكن دون جدوى. وكانت السيّدة «دو فيلبون» تعترف في الخفاء بأنها لا تستطيع أن تتصور كيف تستقبل ابنة عمومته «الغرماتية» امرأة لم تكن حتى من النسق الثاني في المجتمع في «شاتودان». وكانت السيّدة «دو فيلبون» تخلص إلى القول: «لاداعي بالحقيقة لأن تكون ابنة عمي متصعبة إلى هذا الحد في علاقاتها، فالأمر قد بلغ حدّ الهزء بالناس»، وتقولها بهيئة أخرى على وجهها، باسمه هذه وساخرة في رأسها، ولعلّ لعبة حزازير كانت وضعت فوقها بالأحرى بيتاً آخر ما كانت الكونتيسة بالطبع تعرفه أكثر من الأول:

«الشكر للآلهة! إن مصيبتني تجاوز مرئحي».

ولتستبق الأحداث على أي حال بقولنا إن «مناورة السيّدة «دو فيلبون»، التي تماشي «المكابرة» على صعيد القافية في البيت التالي، مثابرتها على صبّ سنوبيتها على السيّدة ج... لم تكن غير ذات جدوى تماماً. فقد أولت السيّدة «دو فيلبون» في نظر السيّدة ج... مهابة عظيمة، وهي من فعل الخيال المحض على أية حال، إلى الحد الذي عجب معه الناس، حينما حان تزويج ابنة السيّدة ج... التي كانت أجمل وأغنى من شهد الحفلات الراقصة في تلك الحقبة، أن رأوها ترفض جميع الدوقة. ذلك أنّ والدتها ما كانت، إذ تذكر الإهانات الاسبوعية التي لحقت بها في شارع «غرونيل» استذكراً لـ «شاتودان». ما كانت تتمنى بالحقيقة سوى زوج واحد لابنتها: أحد أبناء أسرة «فيلبون».

نقطة واحدة كان يلتقي فيها آل غير مانت وآل «كورفوازيه»، وكانت تكمن في فنّ تحديد المسافات الفارقة، فنّ متنوّع إلى مالا حدود بأية حال. ولم تكن تصرفات آل «غير مانت» متساوية كلياً لدى الجميع. ولكن سائر «الغرماتيين» مثلاً، وأولئك الذين كانوا حقاً من آل «غير مانت»، كانوا يلجؤون، حينما تقدّم لهم،

إلى نوع من الاحتفال، تماماً كما لو أن مدّ يدهم كان جسيماً جسامة لو أن الأمر تعلق بتكريسك فارساً. ففي اللحظة التي يسمع فيها أحد «الغرمانيين»، وإن يكن بعد في العشرين ولكنه سائر مذ ذلك على خطي من يكبرونه سناً، اسمك ينطق به أحد المعرفين كان يلقي عليك، كما لو لم يكن مصمماً البتة أن يقرئك السلام، نظرة زرقاء بعامة وهي أبداً ببرودة شفرة فولاذية يبدو على استعداد لغرسها في أعماق شغاف فؤادك. ذلك على أية حال هو ما كان آل «غير مانت» يظنون أنهم فاعلوه فعلاً إذ يحكمون أنهم جميعاً علماء نفس من الطراز الأول. وكانوا يحسبون علاوة على ذلك أنهم يزيدون بهذا التفحص من لطف التحية التي تزعج أن تتبع ذلك والتي لن توجه إليك إلا عن دراية تامة. كل ذلك كان يجري على مسافة منك صغيرة لو أن الأمر أمر تبادل ضربة سيف، لا أنها تبدو ضخمة من أجل مصافحة وكانت تجمد الدم في عروقك في الحالة الثانية كما لعلها كانت تفعل في الأولى بحيث أن يد «الغيرماني» بعد ما يكون هذا الأخير قد حكم أنك أهل مذ ذاك للتلاقي وإياه على إثر رجولة سريعة تمت في آخر مخابيء نفسك وكرامتك، يده الموجهة إليك في آخر ذراع ممدودة على مدى طولها كانت تبدو وكأنها تقدّم لك سيف مبارزة من أجل قتال غريب، وكانت تلك اليد باختصار القول بعيدة جداً عن «الغيرماني» في تلك اللحظة إلى حدّ يصعب معه، حينما كان يحني الرأس حينذاك، أن تميز إن كنت أنت من يحييه أم يده. كان بعض آل «غير مانت»، ولا يملكون حسّ الاتزان أو هم عاجزون عن ألا يكبروا أنفسهم دون انقطاع، يبالغون إذ يعيدون ذلك الحفل في كلّ مرة يلتقونك فيها. ولما لم يعد ينبغي لهم أن يقوموا بالتحقيق السيكولوجي المسبق الذي من أجله فوضتهم «عقيرة الأسرة» بسلطانها ولا بدّ أنهم كانوا يتذكرون نتائجه، فلم يكن من الممكن تفسير النظرة الثاقبة التي تسبق المصافحة إلا بالآلية التي اكتسبتها نظرتهم أو بموهبة سحر يظنون أنهم يملكونها. أمّا آل «كورفوازييه» الذين كانوا يختلفون عنهم بنية فعبثاً حاولوا تمثل هذه التحية المتفحصة فانقلبوا إلى الجفاء المتعالي أو الإهمال السريع. ولكنّما كان يبدو بالمقابل أن عدداً قليلاً جداً من «الغيرمانيات» أخذن عن آل «كورفوازييه» تحية السيدات. فحينما كانوا يقدّمونك إلى واحدة من تلك «الغيرمانيات» كانت تحييك تحية واسعة تقرب منك فيها وفق زاوية من خمس وأربعين درجة رأسها وجذعها فيما يظلّ أسفل الجسم (وهو مرتفع جداً لديها) إلى الزنار الذي يؤلف محور دوران ثابتاً لا حراك به. ولكنها ما أن تقذف على هذا النحو باتجاهك القسم العلوي من شخصها حتى تردّه خلف الخطّ العمودي بانسحاب مفاجئ يبلغ طولاً مكافئاً على وجه التقريب. كان الانقلاب اللاحق يعطل ما سبق أن بدا لك وكأنه مسلم به، والأرض التي حسبت أنك ربحتها لاتلبث حتى في حيازتك كما هي الحال في ما يخصّ المبارزة فالمواقع الأولية كانت محفوظة. وكان هذا الإبطال نفسه للطف باستعادة المسافات (وكان من منشأ «كورفوازي» ويرمي إلى إبراز أن محاولات التقرب التي تمت في الهولة الأولى لم تكن سوى تظاهر دام لحظة واحدة) يتجلّى بمثل ذاك الوضوح، لدى آل «كورفوازييه» وآل «غيرماني» سوا بسوء، في الرسائل التي كانت تردّ منهنّ على الأقلّ في أثناء الفترات الأولى من التعرّف بهنّ. فقد كان يمكن أن يحوي «جسم» الرسالة جملاً قد لا تكتبها فيما يبدو إلا لصديق، ولكن عبثاً حسبت أنك تستطيع المفارقة بأنك صديق السيّد لأن الرسالة كانت تبدأ بعبارة: «سيدي» وتنتهي بعبارة: «وتفضّل» ياسيدي بقبول أسمى المشاعر. كان يمكن أن تتوالى مذ ذاك، بين هذه البداية الباردة وهذه النهاية القارسة، وكلاهما تبدلان معنى كلّ ماتبقّى، (إن كان ذلك جواباً لرسالة تعزية منك) الصور الأشدّ تأثيراً للغمّ الذي ألمّ بـ«الغيرمانيّة» لفقدانها شقيقتها وللألغة التي كانت سائدة بينهما ولجمال المنطقة التي كانت تصطاف فيها ولصنوف العزاء التي

كانت تلقاها في روعة أحفادها، كل ذلك لم يعد سوى رسالة من مثل ما نجد في مجموعات مختارة ولايستتب طابع الألفة فيها مع ذلك قدراً أكبر من الألفة بينك وبين كاتبة الرسالة مما لو كانت هذه الأخيرة «بلين» الأصغر أو السيّدة «دوسميان».

صحيح أن بعض «الغيرمانيّات» كنّ يكتبن إليك منذ المرات الأولى «صديقي العزيز»، «صديقي»: وما كنّ على الدوام أكثرهنّ بساطة بل بالأحرى أولئك اللواتي لايعشن إلا في وسط الملوك وهنّ إلى ذلك «طائشات» فكنّ يوقنّ في كبريائهنّ أن كلّ ما يصدر عنهنّ يثير البهجة وتعودن في فسادهنّ ألا يساو من في أيّ من صنوف المسرة التي يمكن أن يوفرنها. ولما كان يكفي على أيّ حال أن يتوافر لك جدّة ثلاثة مشتركة في عهد لويس الثالث عشر كيما يقول شاب من آل «غيرمانت» في حديثه عن المركيزة «دو غيرمانت» «العمة آدم»، فقد كان آل «غير مانت» عديدين إلى حدّ أنّه كان يوجد كثير من الأنواع حتّى بالنسبة إلى هذه الطقوس البسيطة كطقس تحية التعارف على سبيل المثال. فلكلّ جماعة فرعية على شيء من رهافة الذوق تحيتها التي يورثها الأهل للأبناء كوصفة دواء خاص بالجروح وطريقة خاصّة بتحضير المربيات. وقد رأينا على هذا النحو يد «سان لو» تنطلق للمصافحة كأنما غضباً عنه لحظة كان يسمع اسمك دون اشارك لنظر ودون إضافة لتحية. كان كلّ تعيس حظّ من العوام تمّ تعريفه لسبب خاص - وقلمّا يتفق ذلك على أيّ حال - بواحد من مجموعة «سان لو» الفرعية يشحذ ذهنه، إزاء هذا الحد الأدنى الشديد الجفاء من التحية التي تتخذ عمداً مظاهر اللامبالاة، كي يعلم ما يمكن أن يحمله «الغير مانت» أو «الغير مانتية» من عداء له. وشدّ ما كان يدهشه أن يعلم أنّه رأى أو رأت من المناسب أن تكتب بوجه خاصّ إلى المعرف لتقول له إلى أيّ حدّ رقتها أو رفته وأنه أو أنها تأمل تماماً في لقاءك ثانية. وفي مثل تفرّد حركة «سان لو» الآلية كانت القفزات الراقصة المعقدة والسريعة (ويهاها السيّد «دو شارلوس» مضحكة) التي يقوم بها المركيز «دو فيريو» وخطوات الأمير «دو غير مانت» الرصينة المنتظمة. ولكنما يستحيل ههنا أن نصف وفرة حركات آل «غير مانت» الراقصة هذه بسبب اتساع مجموعتهم الراقصة.

فإن عدنا إلى الكراهية التي كانت تعتمل في صدر آل «كورفوازييه» ضدّ الدوقة «دو غيرمانت» فقد كان يمكن أن يتعرّى هؤلاء بالراء لحالها طوال ما كانت فتاة إذ كانت هيئة الثروة آنذاك. بيد أنّ ضرباً من الانبعاثات السخامية الخاصة كانت لسوء الحظّ توارى على الدوام وتحتجب عن الأنظار ثراء آل «كورفوازييه» الذي كان يلبث مجهولاً مهما تعاضم. وعبثاً تتزوج «كورفوازييه» بلغة الثراء نصيباً دسماً فقد كان يتفق دوماً ألا يكون للزوجين الشابين مسكن خاصّ في باريس فيحلان فيها في دار الحموين ويقضيان باقي العام في الريف بين ظهرائي مجتمع لا اختلاط فيه ولكنه خلو من الرونق. وفيما كان «سان لو» الذي كاد لا يملك من يعد سوى الديون يفتن «دونسير» بجياده وعرباته لم يكن يستقل أيّ «كورفوازي» واسع الثروة سوى الحافلة. وعلى عكس ذلك (قبل سنوات عديدة على أيّ حال) كانت الأنسة «دو غير مانت» (أوريان) (التي لا تملك الكثير تشغل الناس بالحديث عن ملابسها أكثر مما يتأتّى لجميع نساء آل «كورفوازييه» مجتمعات عن ملابسهنّ. حتى الفضيحة الناجمة عن أقوالها كان توفّر نوعاً من الدعاية لطريقتها في الملابس وتصنيف الشعر. فقد تجرأت على أن تقول لدوق روسيا الكبير: «ويحك ياسيدي، يبدو أنّك تبغي تدبير مقتل «تولستوي»؟ وذلك في عشاء لم يدع إليه آل «كورفوازييه» وهم على أيّ حال قليلو الاطلاع على أحوال «تولستوي». وما كانوا

أكثر اطلاعاً بكثير على المؤلفين اليونانيين إن حكمنا في ذلك بناء على الدوقة الوريثة «دو غالاردون» (وهي حمة الأميرة «دوغالاردون» التي كانت بعد فتاة) التي إذ لم تظهر في غضون خمس سنوات بشرف زيارة واحدة من «أوريان» أجابت شخصاً كان يسألها عن سبب غيابها: «يبدو أنها تلقي أشعاراً لأرسطو طاليس (وتقصّد أن تقول لأرسطو فانيس) في المجتمع الراقي، ولست أسمح بذلك في منزلي!».

ويمكن أن نتصور إلى أي حدّ كانت «فلتة» الأنسة «دو غير مانت» تلك حول «تولستوي»، إن هي أثارت سخط آل «كورفوازيه»، تثير دهشة آل «غير مانت» ومن ورائهم كل ما يرتبط بهم لا من قريب فحسب، بل من بعيد. والكونتييسة الوريثة «دار جنكور»، وهي من عائلة «سينبور»، التي كانت تستقبل جميع الناس تقريباً لأنها من دعيّات الأدب وعلى الرغم من أن ابنها كان سنوياً شديداً، كانت تروي النكتة أمام بعض أرباب الأدب قائلة: «إن «أوريان دو غير مانت» وهي في رقة العنبر وخشب القرد وتتمتع بمواهب في كلّ شيء وترسم رسوماً مائية جذيرة برسم كبير وتقرظ شعراً من مثل ما تفعل قلة من الشعراء العظام، وهي على صعيد الأسرة، كما تدرون، من أرفع ما وجد فقد كانت جدّتها الأنسة «دو مونبا نسييه»، وهي «أوريان دو غير مانت» الثامنة عشرة دونما أي زواج غير متكافئ، إنها السلالة الأكثر صفاء والأكثر عراقية في فرنسه». ولذلك فإن أرباب الأدب المزيّفين وأنصاف المثقفين الذين كانت تستقبلهم السيّد «دار جنكور» كانوا يتمثلون «أوريان دو غير مانت» التي قد لا تتاح لهم الفرصة في يوم لمعرفتها شخصياً بمثابة شيء مدهش وخارق أكثر من الأميرة بدر الدور فلا يحسون أنهم على استعداد للموت من أجلها فحسب إذ يعلمون أن امرأة رفيعة المولد إلى هذا الحدّ كانت تمجّد «تولستوي» فوق كل شيء، بل يحسون كذلك أن حبهم الخاص لـ «تولستوي» ورغبتهم في مناهضة القيصرية كانا يستعبدان في أذهانهم قوة جديدة. لقد أمكن أن تهزل فيهم هذه الأفكار الليبرالية وأمکن أن يشككوا بروعتها فلا يجرؤون من بعد على المجاهرة بها حينما وافهم فجأة مثل هذا العون من الأنسة «دو غير مانت» نفسها أي من فتاة ذات شأن وسلطان عظيمين بما لا يقبل النقاش وشعر ترسله أملس على جبينها (وهو ما لم تكن «كورفوازيه» لتقبل به في يوم) إن عدداً من الوقائع الجيدة أو السيئة تفيد كثيراً على هذا النحو من أن يتبنّاها قوم لهم سلطان علينا. مثال ذلك أن طقوس الملاطفة في الشارع لدى آل «كورفوازيه» كان قوامها نخبة معينة شديدة القبح وقليلة اللطف في حدّ ذاتها ولكننا يعلم الناس أنها الطريقة المتأنقة في إلقاء التحية حتّى إن الجميع كانوا يجهدون في محاكاة هذه الرياضة الجافية فيزيلون عنهم الابتسامة وحسن الوفادة. أمّا آل «غير مانت» بعامّة، ولاسيّما «أوريان»، فما كانوا يتردّدون، مع أنهم يعرفون تلك الطقوس أفضل من سواهم، أن يحيّوك، إن هم لحرك من عربة، بإشارة لطيفة من يدهم، ويقومون في صالة بانحناءات حلوة، تاركين لآل «كورفوازيه» أن يؤدّوا تحياتهم المتكلفة الجادة، ويمدّون يدهم إليك وكأننا إلى رفيق فيما تبسّم عيونهم الزرقاء حتى ليدخل فجأة بفضل آل «غير مانت» في صلب الأنافة، وهي حتّى ذاك خاوية بعض الشيء وجافّة، كل مالعلك أحببت بالطبع وجهدت في أن تستبعده: حسن الوفادة ودفق اللطافة الحقة والعفوية. وإنما يفلح بالطريقة نفسها، ولكن برّد اعتبار قلماً نجد تبريراً له هذه المرّة، الأشخاص الذين يحملون أكثر ما يحملون في نفوسهم الميل الغريزي إلى الموسيقى الرديئة والألحان التي تميّز بشيء من الرقة السهلة، مهما تكن تافهة، يفلحون بفضل الثقافة السمفونية في إمارة هذا الميل في صدورهم. ولكنهم بعدما يبلغون هذه النقطة وحينما يرون، وقد فتنهم بحق الألوان الأوركسترالية الرائعة لدى «ريشار شتراوس»، حينما

يرون هذا الموسيقي يحتضن أكثر الموضوعات عامية بتساهل يليق بـ «أوير» فإن ما كان يحبه هؤلاء الأشخاص يلقي فجأة لدى سلطة رفيعة إلى هذا الحد التبرير الذي يخلب ألبابهم فيفتنون دونما وسوس وبامتنان مزدوج لدى سماع «صالومي»، بما كان محظوراً عليهم أن يحبوه في «لآلى التاج».

وسواء أكان انتهاز الأنسة «دو غير مانت» للدوق الأكبر حقيقة أم لا فقد كان، بانتقاله من بيت إلى آخر، مناسبة للرواية عن الأناقة المفرطة التي زوّقت بها «أوريان» نفسها في ذلك العشاء. ولئن كان البذخ لا ينبع من الثراء (الأمر الذي كان يجعله بالضبط عزيز المنال على آل «كورفوازيه») بل من الإسراف فإن هذا الأخير يدوم فترة أطول إن اتفق له أخيراً أن يسانده الأول الذي يمكنه آنذاك من التألق إلى أبعد حدوده. وحيث أن المبادئ التي تجاهر بها علناً لا «أوريان» فحسب بل السيّدة «دو فيلباريزيس» كذلك، ومفادها أن شرف النسب لا يؤخذ في الحسبان وأنه من المضحك أن تهتم للمكانة وأن الثروة لا تعني السعادة وأن العقل والقلب والموهبة هي الهامة وحدها فقد كان بإمكان آل «كورفوازيه» أن يأملوا أن تتزوج «أوريان» بمقتضى هذه التربية التي قبستها عن المركيزة شخصاً لا يكون من المجتمع الراقي، فثناً أو محكوماً سابقاً أو متسولاً أو ملحداً وأنها ستضمّ نهائياً إلى فئة من كان آل «كورفوازيه» يدعونهم «الضالّين». كان يمكن أن يتزايد أملهم بمقدار ما كانت السيّدة «دو فيلباريزيس»، وهي تتجاذر في هذه الفترة على الصعيد الاجتماعي أزمة صعبة (فلم يعد إليها بعد أيّ من الأشخاص اللامعين النادرين الذين لقيتهم في منزلها)، تجاهر بقرف عميق إزاء المجتمع الذي كان يضعها جانباً. حتى حينما كانت تتحدّث عن ابن أخيها الأمير «دو غيرمانت» لم تكن تملك ما يكفي من عبارات الهزء تجاهه لأنّه كان شغوفاً بكرم مولده. ولكن حينما اقتضى الأمر أن يلقوا زوجاً لـ «أوريان» لم تعد المبادئ التي جاهرت بها العمّة وابنة الأخ هي التي تولت القضية، ولكنّها فعلت «عبقريّة الأسرة» الغامضة، ويمثل ما يتفق من حتمية لو أن السيّدة «دو فيلباريزيس» و«أوريان» ما تحدّثتا في يوم إلا في سندات الدخل والأنساب عوضاً عن القيمة الأدبية ومزايا القلب وكما لو أن المركيزة وافتها المنية ووضعت في تابوت بضعة أيام – مثلما سوف يتمّ لها ذلك فيما بعد – في كنيسة «كومبريه» حيث لم يعد أيّ فرد من الأسرة سوى واحد من آل «غيرمانت» وقد فقد فرديتّه وأسماءه الأمر الذي يبرزه على الستائر السوداء الكبيرة حرف «غ» الأرجواني وحده يعلوه التاج الدوقي، فإن عبقرية الأسرة وجهت اختيار السيّدة «دو فيلباريزيس» المثقفة المتهمكة الملائكية إلى الرجل الأوفر ثراء والأكرم مولداً، إلى أعظم نصيب في حيّ «سان جيرمان»، إلى ابن دوق «غيرمانت» البكر أمير «لوم». وعلى مدى ساعتين في يوم زواجها جمعت السيّدة «دو فيلباريزيس» في منزلها جميع النبلاء الذين كانت تسخر منهم، بل الذين كانت سخرت منهم، بل الذين سخرت منهم مع بعض البورجوازيين الحميمين الذين كانت قد دعتهم والذين وضع لهم أمير «لوم» بطاقات حيثنّذ قبل أن يقطع بهم الحبل منذ العام التالي. وكما تزداد الأمور سوءاً بآل «كورفوازيه» فإن الحكيم التي تجعل من الذكاء والموهبة وجوه التفوق الاجتماعي الوحيدة عادت تلقى من جديد في منزل أميرة «لوم» عقب الزواج مباشرة. ولتقل عرضاً، إذ نحن بهذا الصدد، إن وجهة النظر التي كان «سان لو» يدافع عنها حينما كان يعيش مع «راجيل» ويتردد على أصدقاء «راجيل» ويودّ لو يقرن بـ «راجيل» كانت تتضمن – أيّا كان القرف الذي توحى به في الأسرة – قدراً من الكذب أقلّ ممّا تتضمنه وجهة نظر آنسات «غيرمانت» عامّة وهنّ يشدن بالذكاء ويكدن لا يقبلن بأن توضع المساواة بين الناس موضع شكّ فيما يؤوّل كلّ ذلك في الوقت المحدد إلى النتيجة نفسها التي يؤوّل إليها لو

أنهن جاهرن بحكم مناقضة، أي إلى الاقتران بدوق عظيم الثراء. أمّا «سان لو» فكان يعمل على العكس وفق نظرياته الأمر الذي كان يجعلهم يقولون إنه في الطريق الخاطئة. صحيح أن «راجيل» كانت بالفعل لائرضي إلا قليلاً وجهة النظر الأخلاقية. ولكنه ليس أكيداً أن السيدة «دو مارسانت» ما كانت لتؤيد الزواج لو أن ثمة امرأة ليست أفضل منها ولكنها دوقة أو هي تملك الكثير من الملايين.

ولكن إن عدنا بالحديث إلى السيدة «دي لو» (التي أضحت بعد ذلك بقليل دوقة «غيرمانت» بوفاء والد زوجها)، فمما زاد في المصيبة التي حلت بال «كورفوازييه» أن لم توجه نظريات الأميرة الشابة، وقد لبثت على هذا النحو في حديثها، لم توجه في شيء سلوكها، وهكذا لم تسيء تلك الفلسفة (إن جاز القول) إطلاقاً إلى الأناقة الأرستقراطية في صالة آل «غيرمانت». وليس من شك أن جميع الأشخاص الذين ما كانت السيدة «دو غيرمانت» تستقبلهم إنما كانوا يتخيلون أن الأمر مردّه أنهم لم يكونوا على قسط كاف من الذكاء، فهذه الأميركية التي لم تملك في يوم كتاباً غير نسخة صغيرة قديمة لم تفتحها البتة من قصائد «بارني» موضوعة على قطعة أثاث في حجرة استقبالها لأنها تعود إلى تلك الفترة كانت تبرهن عن مقدار إحلالها لمزايا الفكر بالنظرات اللاهية التي تثبتها على الدوقة «دو غيرمانت» حينما كانت هذه الأخيرة تدخل إلى الأوبرا. وليس من شك كذلك أن السيدة «دو غيرمانت» كانت صادقة حينما تختار شخصاً بسبب ذكائه. وما كانت تظن، حينما تقول عن امرأة: يبدو أنها «رائعة»، وعن رجل إنه غاية في الذكاء، أنها تملك أسباباً أخرى للموافقة على استقبالها غير هذا السحر أو هذا الذكاء، إذ إن عبقرية آل «غيرمانت» لم تكن تتدخل في هذه الدقيقة الأخيرة: فقد كانت هذه العبقرية اليقظة، وهي أكثر عمقاً وقد اتخذت موقعها في المدخل المظلم من المنطقة التي كان آل «غيرمانت» يطلقون منها أحكامهم، كانت تحول دون أن يجد آل «غيرمانت» أن هذا الرجل ذكي أو أن هذه المرأة ساحرة إن لم يمتلكا قيمة مجتمعية راهنة أو مقبلة. فكانوا يعلنون أن الرجل عالم ولكن على غرار معجم، أو أنه على العكس عامي يتمتع بفكر مثل تجاري جوال، وأن المرأة الجميلة تصرف بطريقة مقبلة أو هي كثيرة الكلام. فأما الذين لا مركز لهم فقد كانوا متحذلقين، وبالفكر. كان السيد «دو بريوتيه»، وقصره مجاور تماماً لأرض «غيرمانت»، لا يتردد إلا على أصحاب سمور. ولكنه كان يسخر منهم ولا يحلم إلا بالعيش في المتاحف. ولذلك كانت تثار لثارة السيدة «دو غيرمانت» حينما ينعنون السيد «دو بريوتيه» بالسنيوية «بابال» سنيوي! إنك مجنون يا صديقي المسكين، فهو عكس ذلك تماماً، إنه يكره الناس اللامعين ولست تستطيع حمله على التعرف بأحدهم. حتى إلى منزلي! هو لا يجيء إلا متذمراً إن أنا دعوته مع شخص جديد.

وليس يعني ذلك أن آل «غيرمانت» ما كانوا يقيمون للذكاء حتى على صعيد التطبيق وزناً يختلف اختلافاً تاماً عما يفعل آل «كورفوازييه». كان ذاك الفارق بين آل «غيرمانت» وآل «كورفوازييه» يعطي مذ ذاك على صعيد الإيجاب ثماراً طيبة إلى حد ما. من ذلك أنه سبق للدوقة «دو غيرمانت»، ويلفهاً على أي حال سر كان العديد من الشعراء يحلمون من بعيد أمامه، إن أقامت ذاك الاحتفال الذي قد تخدنا عنه والذي سر به ملك انكلكره أفضل من أي مكان آخر لأنه خطر لها ماله لا يخطر يوماً ببال وتجرت على ما كان رد على أعقابها شجاعة آل «كورفوازييه» بأسرهم وهو أن تدعو إلى جانب الشخصيات التي جئنا على ذكرها الموسيقي «غاستون لومبر» والمؤلف المسرحي «غرانموجان». ولكن الصبغة الفكرية كانت تستبين بوجه الخصوص على

الصعيد السليبي. فان راح المعامل الضروري من الذكاء والفتنة في انخفاض كلما ارتفعت مكانة الشخص الذي كان يتوق أن يدعى إلى منزل الدوقة «دو غيرمانت» إلى حد الاقتراب من الصفر إن تعلق الأمر بالرؤوس المتوجة البارزة، فكلما كان يتم الانحدار، في مقابل ذلك، دون هذا المستوى الملكي كان المعامل يرتفع. كان ثمة على سبيل المثال لدى الأميرة «بارما» العديد من الأشخاص الذين كانت تستقبلهم لأنها عرفتهم طفلة أو لأنهم كانوا على علاقة نسب بهذه الدوقة أو تلك أو هم يرتبطون بشخص هذا العاهل أو ذاك وإن كان هؤلاء الأشخاص إلى ذلك قبيحي المنظر أو مملكين أو أغبياء. ولعل السبب التالي في نظر واحد من آل «كورفوازييه» «أن الأميرة دوبارما تحبه» أو «هي شقيقة للدوقة «دارباجون» من أمها» أو «هي تقضي ثلاثة شهور كل عام في منزل ملكة إسبانية»، لعله كان كافياً ليحمله على دعوة مثل هؤلاء الناس، في حين لم تدع السيدة «دو غيرمانت» التي كانت تقبل بتأدب منذ عشر سنوات تحياتهم في منزل الأميرة «دو بارما»، لم تدع لهم في يوم أن يجتازوا عتبة إذ ترى أن أمر الصالة على الصعيد الاجتماعي كأمرها على الصعيد المادي حيث تكفي قطع أثاث لا نجد لها جميلة ولكننا نبقها بمثابة ملء للمكان وبرهان على الثراء كيما تجعلها قبيحة. فمثل تلك الصالة إنما تشبه كتاباً لا يحسن المرء فيه أن يمسه عن جمل تبرهن عن معرفة وبهرج وسهولة. أمر الكتاب كأمر البيت وجودة «الصالة»، فيما تظن السيدة «دو غيرمانت»، وبحق تفعل، إنما التضحية حجر الزاوية فيها.

كثيرات من صديقات الأميرة «دو بارما» من اللاتي كانت الدوقة «دو غيرمانت» تكتفي منهن منذ سنوات بالثقة المناسبة نفسها أو تقابل بطاقتهن بأخرى دون أن تدعوهم في يوم أو تذهب إلى احتفالهن كن يشتكين سراً إلى صاحبة السمو التي كانت في الأيام التي يجيء فيها السيد «دو غيرمانت» وحده لزيارتها تقول له كلمة في ذلك. بيد أن السيد الماكر، وهو زوج سيء للدوقة بما كان له من عشيقات ولكنه صاحب يعتمد عليه فيما يتعلق بسير صالتهما الصحيح (وبظرف «أوريان» الذي كان يشكل الجاذب الرئيسي فيها)، كان يجيب قائلاً: «ولكن هل تعرفها امرأتى؟ أه كان عليها الفعل أن تقدم على ذلك. ولكني سأقول الحقيقة لسيدتي: إن «أوريان» في الأساس لا تحب حديث النساء. وهي محاطة ببلاد من العقول المتفوقة—أما أنا فلست زوجها، لست سوى خادما الخاص الأول. وإن النساء، باستثناء عدد هين جداً هن، فيما يخصهن، بالغات الظرف، يبعثن الملل في نفسها. هيأ ياسيدتي، لن نقولي لي، سموك، وأنت على هذا القدر من الرهافة، إن المركيزة «دو سوفريه» تملك شيئاً من الذكاء. أجل، أدرك تماماً، إن الأميرة تستقبلها تكراً. ثم إنها تعرفها. تقولين إن «أوريان» شاهدتها، هذا ممكن، ولكن أقل القليل، أوكد لك. ثم إني سأقول للأميرة، ثمة أيضاً بعض ذنب لي. إن زوجتي متعبة جداً وما أكثر ما تحب أن تكون لطيفة حتى لتتوالى الزيارات إلى مالا نهاية إن تركتها تفعل. ليس أبعد من مساء البارحة كان بها حمى، وكانت تخشى أن تغم الدوقة «دو بوربون» بالاحجام عن الذهاب إلى بيتها. كان لابد أن أكثر عن أسناني فمعت أن يسرجوا. هاك، تدرين ياسيدتي، إني شديد الرغبة حتى في ألا أقول لـ «أوريان» إنك حدثتني عن السيدة «دو سوفريه». إن «أوريان» تحب سموك إلى حد أنها ستبادر في الحال إلى دعوة السيدة «دو سوفريه» وسيكون ثمة زيارة إضافية وسيضطرن الأمر إلى الاتصال بالشيقة التي أعرف زوجها تمام المعرفة. أظن أنني لن أقول شيئاً البتة لـ «أوريان» إن أذنت لي الأميرة بذلك. سوف تجتنبها على هذا النحو كثيراً من التعب والاضطراب. وإني أوكد لك أن الأمر لن يشكل حرماناً للسيدة «دو سوفريه». إنها تذهب إلى كل مكان وتخل في أشهر المطارح. أما نحن فأننا حتى لانستقبل، أعشية

صغيرة لا شأن لها، والسيدة «دو سوفريه» قد يصيبها ملل قاتل. أما الأميرة «دو بارما»، فإذا اقتنعت بسذاجة بأنّ الدوق «دو غير مانت» لن ينقل طلبها إلى الدوقة واعتصمت أنها لم تستطع الحصول على الدعوة التي كانت ترغب فيها السيدة «دو سوفريه»، فقد زاد ذلك من زهوها لأن تكون واحدة ممن يترددن على صالة قلما يمكن الوصول إليها. وليس من شك أن هذا الارتياح ما كان يحصل دون إزعاجات. ففي كل مرة كانت الأميرة «دو بارما» تدعو فيها السيدة «دو غير مانت» كان ينبغي لها أن تجهد الفكر كي لا يكون لديها من يستطيع أن يسوء في عيني الدوقة ويحول دون أن تعود.

في الأيام المعتادة وبعد العشاء حيث يجتمع لديها على الدوام (من فترة مبكرة جداً، إذ هي احتفظت بالعادات القديمة) بعض المدعوين كانت صالة الأميرة «دو بارما» مفتوحة في وجه الرواد وعلى نحو عام في وجه كبار الأرسطراطيين الفرنسيين والأجانب كافة. وكان الاستقبال قوامه أن تجلس الأميرة لدى مغادرة قاعة الطعام على أريكة أمام طاولة كبيرة مستديرة وتتحدث إلى اثنتين من أكثر النساء اللواتي تعشن أهمية أو تلقي نظرة على مجلة مصورة وتلعب بالورق (أو تتظاهر باللعب حسب عادة مستقاة من البلاط الألماني) إما بالقيام بترتيب الورق ترتيباً معيناً وإما باتخاذ شخصية بارزة بمثابة شريك حقيقي أو مفترض. وفي حوالي الساعة التاسعة كان باب الصالة الكبرى لا يفتح من بعد عن أن يفتح على مصراعيه وينغلق وينفتح من جديد كي يسمح بمرور الزائرين الذين سبق أن تناولوا عشاءهم أربعة أربعة (أو هم إن تناولوا عشاءهم في المدينة تتحاشوا القهوة بقولهم إنهم يزمعون العودة، وهم يتوقعون بالفعل «الدخول من باب والخروج من الآخر») كي يوافقوا ساعات الأميرة. إلا أن هذه الأخيرة كانت تتظاهر، وهي تصرف النفس إلى لعبها أو إلى الحديث، بأنها لا تبصر الوافدات ولم تكن تقف بلطف وهي تبسم ابتسامة رقيقة للنساء إلا لحظة يكنّ على خطوتين منها. بيد أنهن كنّ يقمن أمام سموها الواقعة بالحناءة تبلغ حدّ الجشع بحيث يضعن شفاههن بموازاة اليد الجميلة التي تتدلى كثيراً ويقبلنّها. ولكن الأميرة في تلك اللحظة كانت تنهض الجائبة كما لو أنها تدش في كلّ مرة من جرّاء مراسم كانت تعرفها مع ذلك حق المعرفة. تنهضها كأنها عنوة برقة وعدوبة لامتثال لهما وتقبلها على الوجنتين. والرقّة والعدوبة شرطهما، يقول قائل، الانضاع الذي تشي به الوافدة ركبتهما. لاشك في ذلك ؛ ويدو أن التهذيب قد يزول في مجتمع ينادي بالمساواة لا من جرّاء غياب التربية، كما يظنون، بل لأنّه قد يزول لدى بعضهم الإجلال الواجب للمهابة التي ينبغي أن تكون خيالية كيما تكون فعالة، ويزول على وجه الخصوص لدى الآخرين اللطف الذي يبدّل ويرق حين يتمّ الإحساس بأنّه يكتسب في نظر من يناله ثمناً لاحتاد له، ثمناً قد يهاوى فجأة إلى لاشيء في عالم مبنّي على المساواة على غرار كل مالم يكن يملك سوى قيمة اثتمانية. ولكن زوال التهذيب هذا في مجتمع جديد ليس أكيداً وإتّنا لنغالي أحياناً في استعدادنا للاعتقاد بأن الشروط الراهنة لحالة معينة إتّما هي الوحيدة الممكنة. لقد ظنّت عقول حسيّة أن الجمهورية لن تستطيع أن توفر لنفسها دبلوماسية وأحلافاً وأن طبقة الفلاحين لن تطبق الانفصال بين الكنيسة والدولة. والتهذيب في مجتمع ينادي بالمساواة قد لا يكون في جميع الأحوال معجزة أعظم من نجاح السكك الحديدية واستخدام الطائرة عسكرياً. ثم إنه لاشيء يثبت، حتّى إذا التهذيب زال، أن الأمر يشكل مصيبة. وأخيراً ألن يتراتب مجتمع في الخفاء كلما أضحي في الواقع أكثر ديموقراطية؟ ذلك ممكن تماماً. لقد تعاظم سلطان البابوات السياسي كثيراً منذ أن لم يعد لديهم دول أو جيش ؛ والكاتدرائيات كانت تلقي المهابة في نفس متدين من

القرن السابع عشر أقل منها بكثير في نفس ملحد من القرن العشرين، ولو أن الأميرة «دوبارما» كانت مليكة إحدى الدول لكان خطر لي دونما شك أن أتحدث عنها بمقدار ما أفعل تقريباً عن رئيس للجمهورية، يعني ألا أفعل على الإطلاق.

وما أن يتم إنهاء ذات اللقب وتقبيلها على يد الأميرة حتى تعود هذه الأخيرة إلى الجلوس وتنصرف ثانية إلى ترتيب الورق، ولا تفعل، إن كانت الوافدة الجديدة ذات شأن، دون أن تكون تحدثت إليها فترة وهي تجلسها على مقعد.

وعندما تمتلئ الصالة بما يجاوز الحد كانت وصيفة الشرف المكلفة بحفظ النظام تفسح المكان إذ تقود الرّواد إلى بهو فسيح كانت الصالة تطلّ عليه وكان مليئاً بالرسوم والتحف النادرة العائدة إلى بيت آل «بوربون». حينئذ كان مدعو الأميرة المعتادون يقومون راضين بدور الدليل ويقولون أموراً ذات بال لا يملك الشبان الصبر لسماعها وهم أكثر اهتماماً بالنظر إلى صاحبات السمو اللواتي على قيد الحياة (وأن يطلبوا إلى وصيفة الشرف والفتيات التابعات أن يعرفن بهم إن قضت الحاجة) منهم يتأمل بقايا المعاملات المتوفيات. وما كانوا، وهم شديداً الانصراف إلى المعارف التي يمكن أن تتوافر لهم والدعوات التي ربما تصيدها، وما كانوا يعرفون شيئاً على الإطلاق حتى بعد سنوات مما في هذا المتحف الثمين من محفوظات النظام الملكي ويتذكرون فحسب على نحو غامض أنه كان مزيناً بأشجار الصبار والنخيل العملاق التي تجعل مركز الأناقة هذا شبيهاً بمركز النخيل في حديقة الأقلمة.

لا شك أن الدوقة «دو غير مانت» كانت تحيي أحياناً لتقوم في تلك الأمسية، بزيارة هضم للأميرة التي كانت تحتفظ بها طوال الوقت إلى جانبها فيما تمازح الدوق. ولكن حينما كانت الدوقة تحيي للعشاء كانت الأميرة تتحاشى وجود رواد بيتها وتغلق بابها لدى مغادرة المائدة مخافة أن يسوء زوار غير مصطفين تماماً في عيني الدوقة المتشددة. فإن أقبل في تلك العشيات خلص لم يتم إعلامهم على باب صاحبة السمو كان البواب يجب: «إن صاحبة السمو الملكي لاستقبل هذا المساء» فيعودون أدراجهم. كان كثيرون من أصدقاء الأميرة يعلمون سلفاً على أية حال أنهم لن يدعوا في التاريخ. لقد كانت حلقة خاصة، حلقة مغلقة دون العديد ممن لعلمهم تمنوا أن تضمهم. كان بمقدور المستعدين أن يسموا المختارين بما يشبه اليقين وكانوا يقولون فيما بينهم بلهجة يلونها الغضب: «تعلمون أن «أوريان دو غير مانت» لا تنتقل البتة دون كامل أركانها». كانت الأميرة «دو بارما» تحاول بوساطة هذه الأركان أن تحيط الدوقة كأنما بسور بقيها الأشخاص الذين ربما كان نجاحهم بالقرب منها أكثر مدعاة للشك. بيد أن الأميرة «دو بارما» كانت تضيق ذرعاً بملاطفة العديد من أصدقاء الدوقة المفضلين، العديد من أعضاء هذه الأركان اللامعين إذ كانوا يدون لها القليل من اللطف. وليس من شك أن الأميرة «دوبارما» كانت تسلم تماماً بإمكان الارتياح إلى مخالطة السيّد «دو غير مانت» أكثر مما لمخالطتها هي. لقد كانت تلاحظ اضطراراً أن الناس يتدافعون إلى «أيام» الدوقة وأنها غالباً ما كانت تلتقي بنفسها هناك بثلاثة أو أربعة من أصحاب السمو ممن يكتفون بوضع بطاقتهم في بيتها. وعشياً تحاول حفظ عبارات «أوريان» وتقليد فساطينها وتقديم معجّات توت الأرض نفسها في حفلات الشاي لديها فقد كان يتفق لها مرّات أن تظلّ وحيدة طوال النهار برفقة وصيفة شرف ومستشار مفوضة

أجنبية. ولذلك لم يكن يداخل الأميرة «دو بارما» رغبة كبيرة، حينما لم يكن أحدهم (كما سبق أن كانت تلك حال «سوان» فيما مضى على سبيل المثال) يختم نهاره قطّ دون أن يكون قد بادر إلى قضاء ساعتين في منزل الدوقة فيما يقوم مرة واحدة في كلّ عامين بزيارة لها. في استدراج أيّ «سوان» من هذا القبيل لدعوته للعشاء. وقصارى القول إنّ دعوة الدوقة كانت بالنسبة إلى الأميرة «دو بارما» مدعاة لصنوف من الحيرة لشدة ما تتأكلها خشية أن تجد «أوريان» كلّ شيء رديئاً. بيد أن الأميرة «دو بارما» في مقابل ذلك وللسبب نفسه كانت على يقين مسبق، حينما تجيء للعشاء في منزل السيّدة «دو غير مانت»، أن كلّ شيء سيكون حسناً ولذيذاً ولاتداخلها إلا خشية قوامها ألا تحسن الإدراك والحفظ والإمتاع، ألا تحسن تمثّل الأفكار والناس. كان وجودي يثير من هذه الزاوية اهتمامها وطعمها تماماً كما ربّما فعلت طريقة جديدة في تزيين المائدة بجمال من الفواكه وهي لا تدرى إن كان هذا أم ذلك، تزيين الطاولة أم وجودي، الذي كان يشكل على نحو أكثر خصوصية واحداً من صنوف الروعة تلك التي هي سرّ نجاح حفلات استقبال «أوريان»، وقد صمّمت أن تحاول الحصول على هذا وذلك في مأدبة عشائها المقبلة. وما كان يبرّر على أي حال أتمّ التبرير الفضول المفتون الذي تحمله الأميرة «دو بارما» إلى منزل الدوقة فإنّما هذا الجزء المضحك الخطر المثير الذي كانت الأميرة تغوص فيه بضرب من الخشية والدهشة والسعادة (كما هي الحال على شاطئ البحر في واحد من «حمامات الموج» التي يشير أدلاء السباحة إلى خطرها لمحض أن ليس منهم من يحسن السباحة) والذي كانت تطلع منه منشطّة سعيدة مجدّدة الشباب وهو ما كان يدعى بظرف آل «غير مانت» كان ظرف آل «غير مانت» - وهو كيان لا وجود له شأن تريخ الدائرة، حسبما ترى الدوقة التي كانت تحكم أنّها الوحيدة من آل «غير مانت» التي تملكه - صيّتاً كـ «مفرومة» مدينة تور أو بسكويت مدينة راتس. وليس من شكّ (إذ لا تستخدم خاصيّة عقلية من أجل انتشارها الطرق نفسها التي يستخدمها لون الشعر أو البشرة) أن بعض آلاف الدوقة ممّن لم يكونوا من سلالتها كانوا يملكون مع ذلك هذا الظرف الذي لم يستطع بالمقابل أن يغشى بعضاً من آل «غير مانت» يستعصون بشدة على أيّ من أنواع الظرف. وإن أصحاب ظرف آل «غير مانت» من غير أقرباء الدوقة كانوا يمتازون بعامة بما سبق أن كانوا أفراداً لامعين ومهيّمين لوظائف فضلوا عليها، سواء في ذلك الفنون والديبلوماسية والبلاغة النيابية والجيش، حياة العشرة المترابطة. وربما أمكن تفسير هذا التفصيل بشيء من النقص في الأصالة أو روح المبادرة أو الإرادة أو الصحة أو الحظ أو بالتحذلق.

ولكن كانت صالة آل «غير مانت» بالنسبة إلى بعضهم (وينبغي الإقرار على أيّة حال بأنّ ذلك استثناء) حجر العثرة في وجه مستقبلهم فإنّما كان ذلك على كره منهم. من ذلك أن طبيياً ورساماً وديبلوماسياً ذوي مستقبل عظيم لم يستطيعوا النجاح في مهنتهم، مع أنّهم كانوا ألع مواهب من الكثيرين بالنسبة إليها، لأنّ ألقتهم لدى آل «غير مانت» أفضت إلى أن يعدّ الأولان من رجال المجتمعات والثالث رجعيّاً، الأمر الذي حال دون ثلاثتهم أن يعترف بهم أقربائهم. إنّ الحلة القديمة والقلنسوة الحمراء، ولا تزال هيئة الناخبين في الكليات ترتدي تلك وتعتزم هذه، ليست أو ما كانتا على الأقلّ منذ فترة ليست ببعيدة محض استمرار خارجي بحث لماضي ضيق الأفكار أعمى في تشيّه. فقد كان الأساتذة بعد، تحت القلنسوة ذات الشرايب الذهبية شأن كبار الكهنة تحت قبة اليهود المخروطية، لا يزالون في الأعوام التي سبقت مسألة «دريفوس» سجناء داخل أفكار فريسية تماماً. كان «دي بولبون» فنّاناً في أساسه ولكنّما كان خلاصه في أنّه لم يكن يحبّ المجتمع الراقي.

وكان «كوتار» يتردد على قوم الـ«فيردوران» ولكن السيدة «فيردوران» كانت إحدى زبائنه، ثم إن سوقته كانت تحميه، وما كان أخيراً يستقبل في منزله سوى جماعة الكلية في ولائم تفوح منها رائحة حمض الفينيك. ولكن الأستاذ، داخل الهيئات الشديدة التماسك حيث لاتعدو قسوة الأفكار المسبقة كونها الثمن لأجمل صنوف النزاهة ولأرفع الأفكار الأخلاقية التي تضعف في أوساط أكثر تسامحاً وأكثر حرية وسرعان ما تضحي أكثر انحلالاً، إن الأستاذ بطلته التي من الساتين القرمزي المبطن بفراء القاقوم كحلة دوج (يعني دوقاً) من البندقية حبيب في القصر الدوقي كان يماثل في فضائله وتعلقه بالمبادئ السامية، بل في قسوته التي لا ترحم إزاء كل عنصر غريب، ذلك الدوق الآخر الرائع والخيف، عينا السيد «دو سان سيمون» كان التعيس الذي نتحدث عنه هنا، بغية أن يحسن صنماً وكى لانيهمه زملاؤه باحتقاره لهم (إية فكرة هذه لدى رجل مجتمعات راقية!) إنه هو نجب الدوقة «دو غير مانت»، كان يأمل أن يهتئ سخطهم بإقامة مآذب عشاء مختلطة يضيغ فيه العنصر الطبي داخل عنصر المجتمعات. وما كان يعلم أنه إنما يحكم هكذا على نفسه بالهلاك، أو هو بالأحرى يُلغ الأمر حينما كان ينبغي أن يشغل مجلس العشرة (وهو أكبر عدداً بقليل) كرسياً شاغراً فلا يخرج من صندوق الاقتراع المشؤم على الدوام سوى اسم طبيب أقرب إلى العادي، وإن يكن أكثر ضحالة، ويتردد «الفيتو» في الكلية القديمة رسمياً مضحكاً مخيفاً شأن «القسم» الذي توفي «موليير» في إبانته. كذلك هو أمر الرسام الذي صنف أهد الدهر رجل مجتمعات حينما أفلح رجال مجتمعات يتعاطون الفن في أن يصنقوا فنّانين، وكذلك أمر الديبلوماسي الذي أفرط في ارتباطاته الرجعية.

ولكن هذه الحالة كانت من أكثرها ندرة. فإن نموذج الرجال البارزين الذين كانوا يؤلفون خلفية صالة آل «غير مانت» كان نموذج الناس الذين تخلوا طوعاً (أو ظنوا ذلك على الأقل) عن الباقي، عن كل ما لا ينسجم وروح آل «غير مانت»، وتهذيب آل «غير مانت»، وهذا السحر الخفي البغيض في نظر أية هيئة شرعية التنظيم إلى حد ما.

ولعله كان بمقدور الذين كانوا يعلمون أن أحد رواد صالة الدوقة سبق له أن نال الميدالية الذهبية في المعرض، وأن الآخر، وهو أمين سر مؤتمر المحامين، كانت له بدايات مدوية في المجلس، وأن ثالثاً خلم قضية فرنسة ببراعة كقائم بالأعمال، لعله كان بمقدورهم أن يضعوا موضع الفاشلين أناساً لم يأتوا من بعد شيء منذ عشرين عاماً. ولكن هؤلاء «المطلعين» كانوا قلة وربما كان المعنيون أنفسهم آخر من يذكر بالأمر إذ يرون تلك الألقاب القديمة عديمة القيمة بموجب روح آل «غير مانت» ذاتها: أفما كانت تصف وزراء بارزين، هذا الرسمي بعض الشيء وذاك المخرم بالتلاعب اللفظي، من الذين تتغنى الصحف بمدائحهم ولكنما تتناوب السيدة «دو غير مانت» بجانبهم وتبدي نفاذ صبر إن جاءتها قلة تبصر رية بيت بهذا أو ذاك جاراً لها، بالرجل الممل أو المرذ أو على العكس بأجير الخازن؟ وبما أن كونك رجل دولة من الطراز الأول لم يكن على الإطلاق ليشفع لك لدى الدوقة فقد كان يحكم أولئك الذين سبق أن قدموا استقالتهم من «السلك» أو الجيش ولم يرشحوا أنفسهم ثانية للمجلس، إذ يجيئون كل يوم لتناول الغداء أو التحدث مع صديقهم العظيمة، إذ يلقونها في منزل صاحبات سم لا يقدرنهن إلا قليلاً على أية حال، أو هكذا يقولون على الأقل، كانوا يحكمون أنهم اختاروا أفضل حصاة مع أن مظهرهم الحزين حتى في صميم المرح كان يناقض بعض الشيء صحة هذا الحكم.

أضف أنه لابد من الإقرار بأن لطاقة الحياة الاجتماعية ونعومة الأحاديث في منازل آل «غير مانت» كان يطبعهما شيء من الحقيقة مهما دق الطابع. فليس من لقب رسمي يساوي فيها متعة بعض المفضلين لدى السيدة «دو غير مانت» الذين ربما لم يستطع أكثر الوزراء اقتداراً أن يفلحوا في اجتذابهم إلى منازلهم. ولئن دُفنت إلى الأبد في تلك الصالة طموحات فكرية ما أكثرها، بل جهود كريمة، فقد نبت فيها على الأقل أندر أزهار الكياسة من ترابها. صحيح أن رجال فكر من أمثال «سوان» كانوا يحكمون أنهم يفوقون رجالاً ذوي قدر هم يحتقرونهم، ولكننا ذلك لأننا كانت الدوقة تضعه فوق كل شيء لم يكن العقل بل الظرف - وهو حسبما ترى صيغة رفيعة من العقل أكثر ندرية وأوفر روعة، العقل الذي سموا به حتى شكل كلامي من الموهبة. وحينما كان «سوان» فيما مضى يعد «بريشو» و«ايلستير»، في منزل آل «فيردوران»، الأول بمثابة متحذلق والآخر بمثابة فظ على الرغم من كل علم الأول وكل عبقرية الآخر فأنما تسرب ظرف آل «غير مانت» هو الذي حمل على تصنيفهما على هذا النحو. وما كان ليجرؤ البتة أن يقدم هذا أو ذاك للدوقة إذ يحس سلفاً بأية هيئة استقبلت مقالات «بريشو» وهراء «ايلستير» إذ إن ظرف آل «غير مانت» يضع الأقوال المتكلفة المطولة من النوع الجدي أو النوع الهازل موضع أقل أنواع الغباء احتمالاً.

فأما ما يخص آل «غير مانت» بحسب اللحم والدم فإن لم تغشهم روح آل «غير مانت» بمثل التمام الذي يقع على سبيل المثال في الندوات الأدبية حيث يتخذ جميع الناس طريقة واحدة في النطق، في التعبير، وبنتيجة ذلك في التفكير فليس يعني ذلك بالتأكيد أن الأصالة أشد زخماً في أوساط المجتمعات الراقية وتقيم فيها حاجزاً في وجه المحاكاة. ولكن للمحاكاة شروطاً ليس قوامها غياب أصالة لا يمكن ردها إلى سواها فحسب بل رهافة نسبية في الأذن أيضاً تسمح بأن نميز أولاً ما نحاكبه فيما بعد. ولكننا نمة من آل «غير مانت» من كان ينقصهم هذا الحس الموسيقي تماماً كآل «كورفوازيه».

وكيما تتخذ على سبيل المثال التمرين الذي يدعونه، بمعنى آخر للفظلة محاكاة، «المعارضة» (وما يدعونه لدى آل «غير مانت» بـ «التحميل»)، فعبتاً كانت السيدة «دو غير مانت» تفلح فيه إلى حد خلب الألباب فقد كان آل «كورفوازيه» عاجزين عن تبين ذلك عجزهم لو كانوا جماعة من الأرباب بدلاً من رجال ونساء لأنهم لم يفلحوا يوماً في ملاحظة العيب أو النبذة التي تتناول الدوقة ردها. فحينما كانت «تعارض» الدوق «دو ليموج» كان آل «كورفوازيه» يحتجون قائلين: «لا، إنه لا يبلغ هذا المبلغ في حديثه، فإني تعشيت مساء البارحة معه في مطعم «بيبيت» وقد كلمني طوال السهرة، وما كان يتكلم على هذا النحو»، في حين يصرخ من كان من آل «غير مانت» على شيء من الثقافة: «يالله كم هي مضحكة «أوريان»! وأغرب الأمر أنها فيما تقلده تشبهه. أخالني اسمه، هيا، قليلاً من «الليموج» يا «أوريان»! وعبتاً يفتقر هؤلاء «الغير مانتين» (دون أن نذهب حتى أولئك الذين كانوا يقولون بأعجاب حينما تقلد الدوقة الدوق «دو ليموج»: «آه! يمكن أن نقول إنك تمسكين بتلايبه») إلى الظرف فقد توصلوا، حسبما ترى السيدة «دو غير مانت» (وكانت مصيبة فيما ترى) لكثرة ما يسمعون كلمات الدوقة، أن يحاكوها كيفما تيسر الأمر طريقتها في التعبير وإبداء الرأي وما لعل «سوان» كان سماً، شأن الدوقة نفسها، طريقتها في «الصياغة» إلى حد يقدمون فيه في حديثهم شيئاً كان يبدو في نظر آل «كورفوازيه» وكأنما يشبه أفضح الشبه ظرافة «أوريان» وكانوا يعتبرونه بدورهم روح آل «غير مانت». وبما أن هؤلاء «الغير مانتين» لم يكونوا من أقرباء «أوريان» فحسب بل من المعجبين فأنها (هي

التي كانت تستبعد أشد الاستبعاد باقي أسرتها فتأثر الآن بصنوف ازدهارها للاساءات التي ألحقتها بها هذه عندما كانت فتاة) كانت تذهب أحياناً لزيارتهم وتفضل عامةً بصحبة الدوق في الربيع حينما كانت تخرج برفقته. كانت تلك الزيارات تشكل حدثاً. كان قلب الأميرة «دييينيه» يسرع قليلاً في خفقاته، وهي تستقبل في صالتها الكبرى في الطابق الأرضي، حينما تلمح من بعيد، وكأنما أول الأضواء تنبعث من حريق لا أذية فيه أو «استطلاعات» غزو غير متوقع، الدوقة تجتاز الباحة على مهل مائلة المشية وهي تعتمر قبة رائعة وتحتفي شمسية تنهمر منها رائحة صيفية. «ويحكم، هي أوريان»، تقول وكأنما تلك عبارة «انتبه!» تحاول أن تخطر زائرتها بحذر وكيفية يتسع الوقت للخروج بانتظام وإخلاء الصالات دونما دعر، كان نصف الأشخاص الحاضرين لا يجروا على البقاء فيهنض. وكانت الأميرة تقول بلهجة طليقة مطمئنة (لتظهر بمظهر السيدة الكبيرة) ولكن بصوت أصبح متكلفاً: «لا، ما الخبر؟ عودوا إلى مقاعدكم، فأنما يغطني استيقاظكم بعد قليلاً». - «قد تودون التحدث فيما بينكم». وتجب سيدة البيت اللواتي تود أن يمضين في سبيلهن: «أأنت حقاً معجلة؟ إذا أذهب إلى منزلك». كان الدوق والدوقة يحييان بأدب بالغ أناساً كانا يصبرانهما هناك منذ سنوات، دون أن يزيدهما الأمر معرفة بهم، وممن لا يقرئونهم السلام إلانماً بداعي التحفظ. فما أن يمضوا حتى يطلب الدوق بلهجة لطيفة معلومات حولهم كي يبدو وكأنه يهتم بالصفة الذاتية لدى الأشخاص الذين ماكان يستقبلهم بسبب قسوة القدر أو بسبب حالة «أوريان» العصبية التي تؤذيها مخالطة النساء: «من تراها كانت تلك السيدة الصغيرة ذات القبة الوردية؟» - «ولكنك كثيراً ما رأيتها يابن عمي، إنها الفيكونتيسة «دو تور» من عائلة «لامارزيل». - «ولكن هل تدرين أنها جميلة، إنها تبدو ظريفة. ولو لم يكن ثمة عيب صغير في الشفة العليا لكانت بكل بساطة رائعة. وإن كان ثمة فيكونت «دوتور» فلا بد أنه لا يصيبه الملل. أأدرين يا «أوريان» بمن ذكرني حاجها وأغراس شعرها؟ بانه عمك «هيدويج دوليني». أما الدوقة «دو غيرمانت» التي كانت تفتخر ما أن يأخذوا في الحديث عن امرأة غيرها فتهمل الحديث. بيد أنها لم تدخل في حسابها الميل الذي لدى زوجها إلى إبراز علمه التام بحال الأشخاص الذين لم يكن يستقبلهم، الأمر الذي يظن أنه يدي به «جدية» أكثر من أمرته. ثم يقول فجأة بنبرة قوية: «ولكنك أتيت على اسم «لامارزيل». إني أذكر أن خطاباً ملفتاً تماماً قد ألقى حينما كنت في المجلس...» - «إنه عم المرأة الشابة التي التقيتها منذ قليل». - «آه! يا للموهبة...» أو يضيف قوله للفيكونتيسة «ديغرمون» التي لا تطيق السيدة «دو غيرمانت» احتمالها والتي ما كانت ترح منزل الأميرة «دييينيه» حيث تتنازل طوعاً إلى دور خادمة (وإن هي ضربت خادماتها إذ تعود) وتظل، خجلة حزينة المظهر، ولكنها تظل حينما يحضر الدوقان وتأخذ المعاطف وتجهد في أن تكون مفيدة وتعرض من باب التحفظ الانتقال إلى الغرفة المجاورة: «لا، يا صغيرتي، لا تحضري الشاي من أجلنا، ولنتحدث بهدوء إننا قوم بسطاء لا نتكلف الأمور». ويضيف وهو يلتفت إلى السيدة «دييينيه» (ويدع «ديغرمون» خجلي متواضعة طامحة مندفعة): «لا نملك على أي حال سوى ربع ساعة نخصكم بها». وكان ربع الساعة يشغل بتمامه بما يشبه عرضاً للكلمات التي حضرت الدوقة في أثناء الأسبوع والتي ما كانت لتجيء بنفسها على ذكرها ولكن الدوق يدفعها بحذق كبير إلى ترادها وكأنما غير متعمد إذ يبدو وكأنه يؤنبها بشأن الحوادث التي استجرتها.

أما الأميرة «دييينيه» التي كانت تحب ابنه عمومته وتعلم أنها تهوى المديح فقد كانت تطرب أيما

طرب لقبعتها وشمسيتها وظرفها. «حديثها ما شئت عن ملابسها وزينتها»، يقول الدوق بلهجة خشنة كان قد اعتمدها ولكنما يلفظها بابتسامة ساخرة كي لا يؤخذ استياؤه مأخذ الجد، «لاعن نباهتها، بحق السماء، فلعلني في غنى تام عن أن يكون لي امرأة بمثل نباهتها. إنك تشيرين على الأرجح إلى التلاعب اللفظي غير اللائق الذي ألفته على شقيقي «بالاميد»، يضيف قوله وهو يعلم تمام العلم أن الأميرة وباقي الأسرة لا يزالون يجهلون هذا التلاعب ويغبطه أن يبرز مواهب زوجته. «فلست أرى بادئ الأمر أنه يليق بامرئ قال أحياناً، إنني مقررٌ بذلك، أموراً على شيء من الحلاوة أن يؤلف صنوفاً غير لائقة من التلاعب بالألفاظ ولا سيما بحق شقيقي الذي هو سريع التأثر؛ وإن كان لابد أن يفضي ذلك إلى خلفي معه فما أجمل الداعي!».

— «ولكنما لاندري! ثمة نكتة لـ «أوريان»؟ ذلك لابد رائع، هيّا، أسمعنا!».

وعاد الدوق يقول، ولا يزال حردان وإن تعاضمت بسمته: «لا، لا، إنني شديد الاحتياط أنكم لم تبتلقوها. إنني جادٌ في أنني أودّ شقيقي كثيراً».

وتقول الدوقة وقد آن الأوان لتردّ على زوجها: «اسمع يا «بازان»، لست أدري لماذا تقول إن الأمر يمكن أن يفضّب «بالاميد» وأنت تعلم العكس تماماً. فإنه أشدّ ذكاء بكثير من أن يجرّحه ذلك المزاح السخيف وليس فيه ما يسيء، أيّاً كان. سوف توحى بأنّي قلت قولاً مسيئاً وقد أجبت محض إجابة لاغربة فيها، وإنما أنت من يوليها أهمية من جرّاء استنكارك، لست أفهمك».

— «تثيرون أشدّ فضولنا، فما الأمر؟»

ويصرخ السيد «دو غيرمانت» قائلاً: «ليس بالتأكيد ما كان هاماً. ربما سمعتم من قال إن شقيقي كان يبغي أن يهب «بريزيه»، وهو قصر زوجته، لشقيقته «مارسانت».

— «أجل، غير أنه قيل لنا إنها لا ترغب فيه وإنها لا تحبّ المنطقة التي يقع فيها. وإن المناخ لا يلائمها».

— «لقد قال قائل بالضبط كلّ ذلك لزوجتي وإن أخي إن كان يهب ذاك القصر لشقيقتنا فما ذلك لإدخال السرور على قلبها بل ليشاكسها. ذلك أنه مشاكس جداً، «شارلوس»، يقول ذاك الشخص. ولكنكم تعلمون أن «بريزيه» شيء ملوكي ويمكن أن يساوي عدّة ملايين، إنها أرض قديمة للملك وثمة واحدة من أجمل غابات فرنسه. هنالك الكثيرون ممن يرغبون أن تتم مشاكستهم على هذا النحو. ولذلك لم تستطع «أوريان»، وهي تسمع كلمة «مشاكس» هذه تطلق على «شارلوس» لأنه يهب قصرأً جميلاً إلى هذا الحدّ، أن تملك نفسها عن الصراخ، دون تعمّد، لابدّ لي من الإقرار بذلك، فإنها لم تحمّله ما يسيء والنكتة جاءت سريعة كالبرق: «مشاكس... مشاكس..إذن هو «مشاكس المتكبر»» (*)! — ثم يضيف الدوق وهو يستعيد لهجته المخشوشة ولا يخفل أن يلقي نظرة دائرية ليحكم على الأثر الذي خلفته ظرافة امرأته، يضيف وبه بعض

(*) لم أجد سبيلاً إلى رد هذا التلاعب اللفظي القائم بين Tarquin, taquin والمقصود هو التذكير بـ «تروكيونوس المتكبر» وهو من ملوك روما واشتهر بصلفه واستبداده برأيه.

الشكوك على أية حال فيما يخص معرفة السيدة «ديينيه» بالتاريخ القديم: «تفهمين، ذلك بسبب «تركوينوس المتكبر» ملك روما. تلك سخافة وتلاعب بالألفاظ رديء ولا يليق بـ«أوريان» ثم إنني أنا أشد حذراً من امرأتي، وإن كنت أقل ظرفاً فاني أفكر بالعواقب، فإن شاء سوء الطالع أن يرددوا ذاك لشقيقي كان ثمة قصة، أي قصة». وأضاف يقول: «أضف أنه لابد من الإقرار، بما أن «بالاميد» بالضبط شديد الاستعلاء وصعب المراس كذلك إلى حد بعيد وشغوف بالقليل والقال حتى في غير مسألة القصر، بأن «مشاكس المتكبر» يلائمة إلى حد ما. تلك منجاة نكات السيدة وهي أنها تلبث ظريفة على الرغم من كل شيء وتصف الناس وصفاً جيداً إلى حد ما حتى حينما تشاء النزول إلى مستوى التقريبات السخيفة».

وهكذا كانت زيارات الدوق والدوقة لأسرتهم، بفضل «مشاكس المتكبر» مرة وأخرى بفضل نكتة ثانية، إنما تجدد مؤونة الحكايات وكان الاضطراب الناجم عنها يدوم فترة طويلة جداً بعد رحيل المرأة النبيهة ومدير أعمالها الفنية. كانوا يتلذذون أول الأمر بالنكات التي قالتها «أوريان» مع أصحاب الحظ الذين حضروا الاحتفال (أولئك الذين مكثوا هناك). كانت الأميرة «ديينيه» تسأل قائلة: «أما كنت تعرفين «مشاكس المتكبر؟» فتجيب المركيزة «دو بافينو» والحمرة تكسو مضيها: «لقد سبق للأميرة «دو سارسينا لاروشفوكو» أن حدثتني عن ذلك ولكننا لم تفعل باللفظاتها نفسها. بيد أنه لابد كان أكثر إثارة بكثير أن تسمع من يرويها في حضرة ابنة عمي على هذا النحو، تضيف قولها كما لعلها كانت تقول «أن تسمعها يرافقها المؤلف فيها». وكانوا يقولون لإثارة كانت ستغتم لأنها لم تجيء قبل ساعة: «كنا نتحدث عن آخر نكتة لـ«أوريان» التي كانت ههنا منذ قليل».

- «عجاً، هل كانت «أوريان» ههنا؟».

فتجيبها الأميرة «ديينيه» غير لائمة ولكننا توحى بكل ما لم تصبه الطائشة: «بالطبع، ولو اتفق أن جئت مبكرة بعض الشيء...» فالذنب ذنبها أن لم تشهد خليقة العالم أو آخر عرض للسيدة «كارفالهو». «ماقولك في نكتة «أوريان» الأخيرة؟ إنني أقر بأنني أقدر كثيراً مشاكس المتكبر». ويتم تناول «النكتة» باردة أيضاً في الغد على مائدة الغداء وتعود إلى الظهور بمختلف أنواع المرق في أثناء الأسبوع. حتى الأميرة تستغل أنها تقوم في ذاك الأسبوع بزيارتها السنوية للأميرة «دو بارما» لتسأل صاحبة السموان كانت تعرف النكتة وترويها لها. «آه! مشاكس المتكبر»، تقول الأميرة «دو بارما» محمقة العينين من جراءة إعجاب قبلي ولكنه يلتمس شروحا إضافية لا تمنع بها الأميرة «ديينيه» فتخلص الأميرة إلى القول: «اعترف أن «مشاكس المتكبر» تروفي كثيراً على صعيد الصياغة». وكلمة «صياغة» كانت بالحقيقة غير ملائمة البتة بالنسبة إلى هذا التلاعب اللفظي، ولكن الأميرة «ديينيه» التي كانت تدعي أنها تمثلت روح آل «غيرمانت» قد أخذت من «أوريان» عبارتي «مصوغ وصياغة» وتقوم باستعمالها دونما تمييز كبير. بيد أن الأميرة «دو بارما» التي ما كانت تود كثيراً السيدة «ديينيه» إذ تجدها قبيحة وتعلم أنها بخيلة وتظن أنها شريرة، على ذمة آل «كورفوازييه»، تعرفت كلمة «الصياغة» هذه التي سبق أن سمعت السيدة «دو غيرمانت» تتفوه بها وما كانت لتعرف وحدها كيفية تطبيقها. فقد خيل إليها بالفعل أن «الصياغة» هي التي كانت تؤلف سحر «مشاكس المتكبر» ولم تستطع، ودون أن تغفل تماماً نفورها من السيدة القبيحة البخيلة، أن تتمالك عن شعور بالاعجاب عظيم بامرأة تملك

إلى هذا الحد روح آل «غير مانت» حتى عازمت أن تدعو الأميرة «دييينيه» إلى الأوبرا. ولم يحل دون ذلك سوى أنه ربما كان من اللائق استشارة السيدة «دو غير مانت» بادئ الأمر. أما السيدة «دييينيه» التي كانت، على اختلافها الشديد عن آل «كورفوازييه»، تبدي الكثير من صنوف اللطف لـ «أوريان» وتحتبها ولكنها تغار من علاقاتها في حضرة جميع الناس بشأن بخلها فقد روت لدى عودتها إلى منزلها كم صادقت الأميرة «دو بارما» من المشقة لتفهم «مشاكس المتكبر» وكم كان ينبغي أن تكون «أوريان» سنوية كي تدخل في ألفتها بلهاء على هذه الشاكلة. وقد قالت للأصدقاء الذين كانوا على مائدة عشائها: «لو شئت لما استطعت قط مخالطة الأميرة «دو بارما» لأن السيد «دييينيه» ما كان البتة ليصرح لي بذلك بسبب فجورها»، قالت تشير بذلك إلى بعض تجاوزات محض وهمية للأميرة: «ولكنني اعترف أنني ما كنت أستطيع حتى لو اتفق لي زوج أقل قسوة. ولست أدري كيف تفعل «أوريان» لتلقيها باستمرار. أما أنا فأذهب إليها مرة كل عام وألقي الكثير من المشقة لأصل إلى نهاية الزيارة».

فأما من كانوا من آل «كورفوازييه» في منزل «فيكتور نيين» أن زيارة السيدة «دو غير مانت» فإن وصول الدوقة كان يدفعهم عامة إلى الهرب بسبب السخط الذي تسببه لهم السلطات المفترطة التي تقابل بها «أوريان». واحد منهم فقط ظل يوم «مشاكس المتكبر». ولم يفهم المزحة تمام الفهم ولكنه فهم نصفها مع ذلك لأنه كان متعلماً. وراح آل «كورفوازييه» يرددون أن «أوريان» دعت العم «بالاميد» «تروكينوس المتكبر»، الأمر الذي كان يصوره، حسبما يرون، على نحو مقبول. ثم يضيفون قولهم: «ولكن لم يثار كل هذا الضجيج حول «أوريان»، فما كانوا ليفعلوا أكثر منه للكمة. وما عسى تكون «أوريان» باختصار القول؟ لست أقول أن ليس آل «غير مانت» من أصل عريق، ولكن آل «كورفوازييه» لا يقلون عنهم في شيء لا على صعيد الشهرة ولا على صعيد العراقة ولا على صعيد المصاهرة. وينبغي ألا ننسى أنه فيما كان ملك انكلترة في مخيم الملاة الذهبية يسأل «فرانسوا» الأول من كان أعرق الأسياد الحاضرين. أجاب ملك فرنسة قائلاً: «إنه «كورفوازييه» ياسيدي». ولو مكث جميع آل «كورفوازييه» لتركهم النكات في جمود متزايد بمقدار ما قد ينظرون إلى الحوادث التي أورثتها بعامّة من وجهة نظر مختلفة تماماً. فإن اتفق على سبيل المثال لواحده من آل «كورفوازييه» أن تعوزها المقاعد في حفل استقبال تقيمه أو أن تخطئ في الاسم وهي تتحدث إلى زائرة لم تتعرفها، أو إن وجه إليها أحد خدمها جملة سخيفة كانت «الكورفوازييه» تأسف وهي في أشد الأزعاج لمثل هذا الحادث الطارئ خجلى راعشة من اضطرابها. وحينما كان لديها زائر وتزعم «أوريان» الجيء كانت تقول بلهجة مستفهمة يشوبها الضيق والإلحاح: «هل تعرفها؟» مخافة أن يخلف وجود الزائر إن كان لا يعرفها انطباعاً سيئاً في نفس «أوريان»، ولكن السيدة «دو غير مانت» كان تستخلص على العكس من مثل هذه الحوادث مناسبة لحكايات تضحك آل «غير مانت» حتى لتدفع عيونهم فيرى الناس لزماً عليهم أن يحسدوها لأنها أعوزتها المقاعد، لأنها هفت أو سمحت أن يهفو خادمها هفوة، لأنها استقبلت في منزلها شخصاً لا يعرفه أحد مثلاً يرون لزماً عليهم أن يغبطوا أن يكون الكتاب العظيم قد استبعدهم الرجال وخانتهم النساء حينما كان لإذلالهم وعذابهم مادة أعمالهم الفنية على الأقل إن لم يكن حافزاً لعبقريتهم.

ولم يكن آل «كورفوازييه» أكثر قدرة على التسامي حتى روح التجديد الذي كانت الدوقة «دو غير مانت» تدخله في حياة المجتمع والذي كانت تجعل منه، إذ تكيّفه بغريزة سليمة مع ضرورات الساعة، شيئاً فنياً

حيث كان التطبيق المعقّل لقواعد صارمة سوف يقضي إلى نتائج بمثل سوء مايجنيه من يبنني نجاحاً في الحب أو السياسة فيكرّر في حياته الخاصة مآثر «بوسّي دامبواز» بحذاقها. وإن أقام آل «كورفوازيه» عشاء عائلياً أو تكريماً لأحد الأمراء بدا لهم أن إضافة رجل فكر أو أحد أصدقاء ابنهم أمر شاذ من شأنه أن يخلف أسوأ الأثر. فقد استنتجت «كورفوازيه» سبق أن كان والدها وزيراً لدى الإمبراطور، وكان عليها أن تقيم حفلة بعد الظهر على شرف الأميرة «ماتيلد»، استنتجت بذهنية هندسية أنها لا تستطيع أن تدعو غير «بونا برتيني». لكنّها لم تكن تعرف أحداً منهم تقريباً. وقد تمّ استبعاد جميع النساء الأنيقات من معارفها وجميع الرجال الظرفاء دون رحمة إذ ربّما أمكن، وهم أصحاب رأي أو صلات مع المنادين بالشرعية، ربّما أمكن، حسب منطق آل «كورفوازيه» أن يسوعوا في عيني صاحبة السموّ الإمبراطوري. أمّا هذه الأخيرة التي كانت تستقبل في منزلها صفوة حيّ «سان جيرمان» فقد دهشت إلى حدّ ما حينما لم تجد في منزل السيّد «دو كورفوازيه» سوى متطفلة شهيرة، وهي أرملة حاكم سابق في زمن الإمبراطورية، وأرملة مدير البريد وبعض الأشخاص المعروفين بولائهم لنابليون الثالث وغبائهم وثقلاتهم. ولم يحل ذلك دون أن تنشر الأميرة «ماتيلد» لطفها للملكي الفيّاض الحلو على هؤلاء القبيحات المفجعات اللواتي تخاشت الدوقة «دو غير مانت». فيما يخصها أن تدعوها حينما جاء دورها في استقبال الأميرة واللواتي استبدلت بهنّ، دون تفكير قبليّ باليونباريّة، أئمن باقة مؤلفة من جميع ربّات الجمال وجميع ذوي الشأن وجميع المشاهير الذين يدفعها ضرب من الفطنة واللباقة والحذافة إلى الإحساس بأنهم لابدّ سيروقون ابنة شقيق الإمبراطور حتّى إن هم كانوا من أسرة الملك الخاصة. حتى الدوق «دومال» لم يتغيّب عنها. وحينما قبلت الأميرة، وهي تغادر المكان وتنهض السيّد «دو غير مانت» التي كانت تحني محبةً وتهمّ بتقبيل يدها، حينما قبلت هذه الأخيرة على الوجنتين قائماً أمكنها أن تؤكد من صميم الفؤاد للدوقة أنّها لم تقض في يوم نهاراً أفضل ولم تشهد احتفالاً أوفر نجاحاً. كانت الأميرة «دو بارما» كورفوازيّة يعجزها عن التجديد على الصعيد الاجتماعي ولكنّها الدهشة التي تسببها أبداً لها الدوقة «دو غير مانت» إنّما كانت تبعث في نفسها، بخلاف آل «كورفوازيه»، لا النفور، كما هي الحال لديهم، بل الانبهار. وكان يزيد من ذلك العجب أن ثقافة الأميرة كانت متخلّفة إلى ما لا حدود. كانت السيّد «دو غير مانت» بدورها أقلّ تقدماً بكثير مما تعتقد. بيد أنّه كان يكفي أن تكون أكثر تقدماً من السيّد «دو بارما» كيما تدهش هذه الأخيرة، ومثلما يكتفي كلّ جيل من النقاد باتخاذ عكس الحقائق التي أقرّها أسلافهم، فقد كان يكفيها أن تقول إن «فلوير» عدوّ البورجوازيين هذا كان بورجوازيّاً قبل كلّ شيء أو إنّ ثمة الكثير من الموسيقي الإيطاليّة لدى «فاغنر» كيما توفّر للأميرة، مقابل إرهاق دائم الجدّة وكأتما لشخص يسبح داخل العاصفة، آفاقاً تبدو لها خارقة وتظلّ غامضة لديها. والدهشة على إيّة حال إزاء المفارقات المعلنة لا يصدد الأعمال الفنية فحسب، بل حتّى يصدد أشخاص من معارفهم والأعمال الاجتماعية كذلك. وليس من شكّ بأنّ العجز الذي كان لدى السيّد «دو بارما» في تمييز روح آل «غير مانت» الحقيقية عن أشكال هذه الروح التي تمّ تعلّمها على نحو بدائيّ (الأمر الذي كان يجعلها تؤمن بالقيمة الفكرية الرفيعة التي تميّز بعض «الغير مانتين» وعلى وجه الخصوص بعض «الغير مانتات» اللواتي كان يذهلها فيما بعد أن تسمع الدوقة تقول عنهنّ والبسمة على شفيتها إنهنّ محض غبيّات) إنّما كان واحداً من أسباب الدهشة التي تنتاب الأميرة على الدوام لدى سماعها السيّد «دو غير مانت» تطلق أحكامها على الناس. بيد أنّه كان ثمة سبب آخر أوضحته لنفسه، أنا الذي كان يعرف في تلك الفترة من الكتب أكثر ممّا يعرف من الناس، والأدب أفضل من دنيا المجتمع، بتصوّري أنّ

الدوقة، إذ تخيا هذه الحياة الاجتماعية التي تشكّل البطالة والعقم فيها بالنسبة إلى أي نشاط اجتماعي حقيقي ما يشكّله النقد في القرن بالنسبة إلى الإبداع، إنّما كانت تعمّم على من يحيطون بها تقلب وجهات النظر والعطش غير السليم الذي يبدية الحاج الذي يمضي في سبيل إرواء فكره المفرط في جفافه باحثاً عن آية مفارقة لاتزال على شيء من الندوة ولا يحجم عن مساندة الرأي المروي القائل بأن أجمل «إيفيجيني» هي ماوضع «بيتشيني» لا ماوضع «غلوك» وأن «فيدر» الحقيقية لدى الاقتضاء ماكتب «برادون». فان تزوجت امرأة ذكية متعلّمة نبهة رجلاً فظاً خجولاً يندر أن يراه الناس ولا يسمعون البتّة استنبطت السيّد «دو غير مانت» ذات يوم لنفسها متعة روحية لا في ذمّ الزوجة فحسب بل في «اكتشاف» الزوج. فلو أنّها، فيما يخصّ الزوجين «كامبرير» على سبيل المثال، لو أنّها عاشت آنذاك في ذلك الوسط لقرّرت أنّ السيّد «دو كامبرير» بلهاء وأن الشخص الممتع المنتقص القدر الرائع الذي كتب عليه الصمت على يد امرأة ثرثرة ولكنه يساويها ألف مرّة إنّما هو المركز على العكس ولأحسّت الدوقة في الإعراب عن ذلك بنوع البرودة نفسها التي يحسّ بها الناقد الذي يعترف، وقد مضى سبعون عاماً على إعجاب الناس بـ«هيرتاني»، أنّه يفضلّ عليها «الأسد العاشق». وبسبب الحاجة المرضية نفسها إلى اللقيات الاعتبارية كانت السيّد «دو غير مانت»، إن رثوا لحال امرأة نموذجية وقديسة حقيقية لأنّها منذ شبابها زوّجت وغداً، كانت تؤكّد ذات يوم أنّ ذاك الوغد كان رجلاً طائشاً ولكنه يفيض شهامة وقد دفعته قسوة زوجته التي لا ترحم إلى أعمال طائشة حقيقية. كنت أعلم أنّ النقد يتلهّى في أن يعيد إلى العتمة ما كان منذ فترة طويلة جداً متألّفاً وأن يخرج منها ما كان يبدو وكأنّما كتب عليه ليل نهائي، وذلك لابن الأعمال الفنية فحسب، في سلسلة القرون الطويلة، بل حتّى في صميم العمل الفني الواحد. ولم أر فحسب «بليني» و«فنتر هالتر» والمهندسين المعماريين اليسوعيين ونجاراً من عهد عودة الملكية يحلون محلّ عباقرة قيل إنّهم متعبون لحض أنّ المثقفين العاطلين عن العمل تعبوا منهم مثلما مرضى الأعصاب هم على الدوام متعبون ومتقلّبون. فقد رأيت من يفضلّ في «سانت بوف» الناقد طوراً والشاعر تارة، و«موسيه» ينكرونه فيما يخصّ أشعاره، ما خلا مقطوعات صغيرة عديمة الشأن إلى حدّ بعيد، ويشيدون به قاصداً وليس من شكّ أنّ بعض كتّاب المقالة على غير حقّ أن يؤثروا على أشهر مشاهد مسرحيّة «السيد» أو «بوليوكت» هذا المقطع أو ذاك من مسرحيّة «الكذاب» الذي يزوّد، شأن خريطة قديمة، بمعلومات عن باريس في تلك الحقبة، ولكن إيثارهم الذي إن لم تبرّه دواعٍ جمالية فاهتمام وثائقي على الأقل لايزال مفرطاً في عقلايته بالنسبة إلى النقد المجنون. فإنّه يستبدل بكلّ «موليير» بيت شعر من مسرحيّة «الطائش» وهو وإن عدّ أوبرا «تريستان» لـ«فاغنر» قاتلة فإنّما يستبقي منها «نغمة حلوة للبوق» لحظة مرور الصيادين. ولقد أعانني هذا الفساد على إدراك ذاك الذي كانت تبديه السيّد «دو غير مانت» حينما تقرّر أن رجلاً من دنياهم مشهوداً له بطيبة القلب ولكنه أحمق كان فظيع الأنانية وأكثر إرهاباً ممّا يظنون، وأن آخر معروفاً بكرمه يمكن أن يكون رمزاً للبخل، وأنّ والدته مخلصه لانهتم بأبنائها. وأن امرأة خيلت فاسقة تحمّل أنبل المشاعر. كان عقل السيّد «دو غير مانت» وإحساسها شديدي التردّد، وكأنّما عيبت بهما عدم الحياة الاجتماعية، كي لا يعقب الاشمئزاز لديها الافتتان بسرعة (على أن تحسّ ثائية أنّها مجتذبة إلى نوع التفكير الذي سبق أن سعت إليه وهجرته على التوالي)، وكي لا ينقلب السحر الذي لقيته لدى رجل عزيز النفس، إن كان يفرط في التردّد عليها ويكثر من البحث لديها عن اتجاهات كانت عاجزة عن تزويده بها، إلى تبرّم تظنّه من صنع المعجب بها وإنّما هو ناجم عن العجز الذي بك أن تلقى المتعة حينما تكتفي بالبحث عنها.

وما كانت تقلبات أحكام الدوقة ترحم أحداً باستثناء زوجها. فهو وحده لم يحبها في يوم، وقد أحست دوماً لديه طبعاً حديدياً لا يابيه للنزوات لديها غير عابي بجمالها عنيماً. وإرادة من النوع الذي لا يلين البتة والذي يعرف العصبيون تحت حكمه وحده سبيلهم إلى الهدوء. ولم يكن لدى السيد «دو غير مانت» من جهة ثانية، وهو يلاحق نمطاً واحداً من الجمال النسائي ولكنه يبحث عنه لدى عشيقات كثيراً ما يجددهن، لم يكن لديه بعدما يهجرهن وكَيْما يسخر منهن سوى شريكة دائمة لا تتبدل وغالباً ما تثير حنقه بثررتها ولكنه يعلم عنها أن الجميع يعدونها الأكثر جمالاً والأوفر فضيلة والأشد ذكاء والأكثر علماً بين الأرستقراطيين وامرأة أسعده جداً هو السيد «دو غير مانت» أن وجدها وكانت تستر سائر مفاسده وتستقبل كما لا يفعل أحد وتحافظ لصلاتهم على مكائنها كأول صالة في حي «سان جيرمان». ورأي الآخرين هذا إنما كان يشاطره بدوره، فقد كان فخوراً بزوجته وهو غالباً ساخط عليها، ولكن كان يفضلها، وهو بخيل بمثل بذخه، أقل المال في سبيل أعمال خيرية ومن أجل الخدم فقد كان يصّر على أن تحوز أروع الملابس وأجمل الجياد والعربات. وكان يهيم أخيراً إبراز ذكاء امرأته. ففي كل مرة يتفق للسيدة «دو غير مانت» فيها أن تبكر مفارقة جديدة وشهية بخصوص مزايا واحد من أصدقائهم ومعانيه، وقد جرى قلبها فجأة على يدها، كانت تتحرق إلى تجربتها بحضرة أشخاص قادرين على تذوقها، وأن تحمل على التلذذ بتميزها السيكلوجي وعلى إبراز أذاه السريع المقتضب، ولا شك أن هذه الآراء الجديدة لم تكن تتضمن عادة قدراً من الحقيقة أكبر من القديمة، بل أقل في الغالب. ولكن ما بها من مظهر اعتباطي غير متوقع كان يضفي عليها شيئاً من صيغة فكرية تجعل إصالتها مؤثراً. بيد أن المريض الذي تناولته سيكلوجية الدوقة كان بعامّة أحد الألاف وكان أولئك الذين ترغب إليهم نقل اكتشافها مجهولون أتم الجهل أنه لم يعد في أعلى درجات الحظوة. ولذلك فإن السمعة التي عرفت بها السيدة «دو غير مانت» بأنها صديقة لاتضاهى عاطفية رقيقة متفانية كانت تجعل من العسير بدء الهجوم ؛ وإن أقصى ماتستطيعه هو التدخل فيما بعد وكأنها مجبرة ملزمة وذلك بالرّد كي تهذيء، كي تكذب في الظاهر وتساند في الواقع شريكاً أخذ على نفسه أن يستثيرها ؛ كان ذلك بالضبط الدور الذي يبرع فيه السيد «دو غير مانت».

فأما الأعمال المجتمعية فقد كانت أيضاً متعة أخرى ممسحة على نحو اعتباطي تحسّ بها السيدة «دو غير مانت» في إصدار أحكام عليها من تلك اللامتوقعة التي تهزّ الأميرة «دو بارما» بمفاجآت للذلة لا تنتقطع. ولكن متعة الدوقة هذه إنما حاولت إدراك ما يمكن أن تكون انطلاقاً من الحياة السياسية والأنباء البرلمانية أكثر منّي بوساطة النقد الأدبي. فلما لم تعد الأوامر المتوالية والمتناقضة التي كانت السيدة «دو غير مانت» تقلب بها دونما انقطاع ترتيب القيم لدى جماعة وسطها كافية لتسليتها كانت تحاول كذلك بالطريقة التي تنظم بها سلوكها الاجتماعي وتعرض أقلّ قراراتها المجتمعية أن تتدقّ هذه الانفعالات المصطنعة وتخضع لهذه الواجبات المتكلفة التي تثير مشاعر المجالس وتفرض نفسها على فكر السياسيين. فإننا نعلم أنه حينما يشرح وزير للمجلس النيابي اعتقاده بأنه أحسن فعلاً في اتباع خطّ سلوك معين يبدو بالفعل بسيطاً جداً في نظر الإنسان ذي الحسّ السليم الذي يقرأ في الغد محضر الجلسة في صحيفته، فإن هذا القارئ السليم الحسّ يشعر مع ذلك أن مشاعره تهتزّ فجأة ويشرح يشكّ أنه كان على حقّ في تصديق الوزير إذ يرى أن خطاب هذا الأخير قد جرى الإصغاء إليه وسط بلبله شديدة وأنه قوطع بعبارات لوم من مثل: «ذلك خطير جداً» تفقّه بها نائب يغطي اسمه وألقابه مساحة كبيرة جداً وتعقبها حركات أبرزت إلى حدّ بعيد حتى لتشغل الكلمات «ذلك خطير جداً»

داخل مقاطعة الخطاب كلها مكاناً أقلّ من عجز بيت من البحر الطويل. مثال ذلك فيما مضى حينما كان السيّد «دو غير مانت» أمير «لوم» يحتلّ مقعداً في المجلس آنك كنت تقرأ أحياناً في صحف باريس، مع أنّ ذلك موجّه خصوصاً إلى مقاطعة «ميز يكليز» وكيفا يبين للنّخبين أنّهم لم يمنحوا أصواتهم لمرشّح خامل أو أبكم: «السيّد دو غير مانت - بويون أمير لوم: «هذا خطير!» (عظيم! عظيم! في الوسط وعلى بعض مقاعد في اليمين، صبيحات شديدة في أقصى اليسار).

والقارئ السليم الحسّ يحتفظ بعد بومضة لإخلاص للوزير الحكيم ولكنّ فؤاده تزعزعه خفقات جديدة من جرّاء أولى كلمات الخطيب الجديد الذي يرّد على الوزير:

- «إن العجب والذهول، ولست أبالغ في ما أقول، (تأثير شديد في القسم اليميني من القاعة النصف دائرية) اللذين بعثهما في نفسي من لايزال، في افتراضي، عضواً في الحكومة... (عاصفة من التصفيق؛ بعض التوّاب يسارعون إلى مقعد الوزراء؛ السيّد أمين الدولة المساعد لشؤون البريد والبرق يشير برأسه من مكانه بالاجاب).

وتقضي «عاصفة التصفيق» هذه على آخر معاقل مقاومة القارئ ذي الحسّ السليم، ويجد من المهين للمجلس والفظيخ طريقة في التصرف هي في حدّ ذاتها غير ذات بال. ورّماً بلغ به، إزاء أمر عاديّ؛ كالعزم، مثلاً، على أن يدفع الأغنياء أكثر من الفقراء، والضوء يلقي على مظلمة، وتفضيل السلم على الحرب، أن يلقي ذلك فاضحاً ويرى فيه إهانة لمبادئ لم يكن قد فكّر فيها بالفعل وليست مسجلة في فؤاد الإنسان ولكنّها تهزّ المشاعر بقوة بسبب الهتافات التي تطلقها والأغليبيّات المترابطة التي تجمعها.

على أنّه لا بدّ من الاعتراف بأنّ رهاقة السياسيّين هذه التي أفدت منها في أن أوضح لنفسه الوسط «الغير مانتّي» وأوساطاً غيره فيما بعد لا تعدو كونها انحراف دقّة معينة في التفسير غالباً ما يطلقون عليها عبارة «القراءة ما بين السطور» فثكن كان في المجالس سخف صادر عن انحراف هذه الرهاقة فثمة غياب لانعدام تلك الرهاقة في صفوف الجمهور الذي يأخذ كلّ شيء «حرفياً» ولا يفترض العزل حينما يقال صاحب رتبة عالية من وظيفته «بناء على طلبه» ويقول في نفسه: «إنّه لم يعزل بما أنّه هو من طلب ذلك»، ولا الهزيمة حينما يتراجع الروس بحركة استراتيجية أمام اليابانيّين إلى مواقع أكثر قوة وقد أعدت سلفاً، ولا الرفض حينما تطلب مقاطعة استقلالها من إمبراطور ألمانيه فيمنحها هذا الأخير الاستقلال الذاتي الديني. ومن المحتمل من ناحية ثانية، كيما نعود إلى جلسات المجلس تلك، أن يكون التوّاب أنفسهم، لدى افتتاحها، ممائلين للرجل ذي الحسّ السليم الذي سوف يقرأ محضرها. فربّما تساءلوا بسذاجة إذ يعلمون أن عمّالاً مضربين قد أرسلوا مندوبيهم إلى أحد الوزراء: «هيا، ماعساهم قالوا فيما بينهم؟ نرجو أن يكون كلّ شيء قد سوي»، لحظة يصعد الوزير إلى المنصة وسط صمت عميق يهيء النفس مذ ذاك للانفعالات المصطنعة ونجى أولى كلمات الوزير: «لا حاجة بي أن أقول للمجلس إنّي أملك حساً بواجبات الحكومة أرفع من أن أكون استقبلت هذا الوفد الذي ليس من اختصاص السلطة التي أنا مكلف بها». بمثابة انقلاب مفاجئ إذ تلك الفرضية الوحيدة التي ما كان حسّ التوّاب السليم ليفترضها. ولأنّه بالضبط انقلاب مفاجئ يستقبل بتصفيق يبلغ حدّاً لا يستطيع الوزير معه أن

يُسمعُ صوته لإبعد انقضاء بضع دقائق، الوزير الذي سيتقبل لدى عودته إلى مقعدة تهاني زملائه. ويبلغ الانفعال الحد الذي بلغه يوم أغفل أن يدعو رئيس المجلس البلدي الذي كان يعارضه إلى احتفال رسمي كبير، ويعلن الناس أنه تصرف في هذا الظرف وذاك على السواء تصرف رجل دولة حقيقي.

وكثيراً ما كان السيد «دو غيرمانت» في تلك الحقبة من حياته في عداد زملائه الذين يذهبون لتهنئة الوزير، مما يثير استنكار آل «كورفوازيه». وقد سمعت فيما بعد من يروي أنه، حتى في الفترة التي مثل فيها دوراً كبيراً إلى حد ما في المجلس وكانت الأنظار متجهة إليه لوزارة أو سفارة، كان، حينما يجيئه صديق يسأله خدمة، أكثر بساطة بما لا يقاس ويتصنع الشخصية الكبيرة على صعيد السياسة أقل بكثير من آخر سواء لم يكن الدوق «دو غيرمانت» فلتن كان يقول إن طبقة النبلاء شيء يسير ولئن كان يعدّ زملاءه مساوين له فيما كان يفكر في كلمة مما يقول. كان يسعى إلى المراكز السياسية ويتظاهر بتقديرها ولكنه يحقرها، ولما كان يلبث بالنسبة إلى ذاته السيد «دو غيرمانت» فلم تكن تحيط شخصه بتصنع الوظائف الكبرى الذي يجعل سواء عسيري المراقبة. وكانت كبريائه بذلك لا تخفي من أي سوء تصرفاته التي تتصنع الألفة فحسب بل ما كان يمكن أن يكون لديه من بساطة حقيقية.

لم تكن السيدة «دو غيرمانت»، إمّا عدنا إلى قراراتها المصطنعة والمؤثرة على غرار قرارات السياسيين، أقلّ إذهاً لآل «غيرمانت» وآل «كورفوازيه» وسائر «الحي» والأُميرة «دو بارما» أكثر من سواها من جُراء قرارات غير متوقعة تحسّ من خلفها مبادئ تزيد من دهشتك بقدر ما قلّ توقّعتك لها. فإن أقام وزير اليونان الجديد حفلة راقصة تنكرية كان كلّ ينتقي حلّته ويتساءلون ماعسى أن تكون حلّة الدوقة. فتظنّ إحداهن أنّها تود أن تظهر بملابس الدوقة «دو بورغوني». وتقول ثانية باحتمال تنكرها بملابس أميرة من «دو جابار»، وثالثة بتنكرها على هيئة «بسيشي»، (*) وإذ تسأل أخيراً واحدة من آل «كورفوازيه» قائلة: «ماذا تراك تختارين من لباس يا «أوريان»، يأتيها الجواب الوحيد الذي ما كانوا ليفكّروا فيه: «لا شيء على الإطلاق!» الأمر الذي كان يطلق الألسنة كثيراً على أنه يكشف رأي «أوريان» حول موقع وزير اليونان الجديد الحقيقي في الوسط الراقي وحول السلوك الواجب أتباعه إزاءه، يعني الرأي الذي كان ينبغي توقّعه وقوامه أنه «لا يقع على» دوقة أن تذهب إلى الحفلة الراقصة التنكرية التي يقيمها هذا الوزير الجديد. «لست أرى ثمة ضرورة للذهاب إلى منزل وزير اليونان الذي لأعرفه، لست يونانية فلماذا أذهب إلى هناك؟ لا شغل لي لديه»، تقول الدوقة.

وتصبح السيدة «دو غالارودن» قائلة: «ولكنّ الجميع ذاهبون ويبدو أنّها ستكون ممتعة».

فتجيب السيدة «دو غيرمانت»: «ولكنّنا من الممتع كذلك البقاء إلى جانب الموقد».

ويصاب آل «كورفوازيه» بدهشة أيما دهشة أمّا آل «غيرمانت» فكانوا يقرّون الموقف دون أن يقلّدوه: «ليس الجميع بالطبع في موقع يمكنهم على غرار «أوريان» من مقاطعة كلّ العادات. ولكنّنا لا نستطيع أن نقول من جهة إنّها مخطئة في عزمها على إظهار أنّنا نبالغ في ارتمائنا أمام هؤلاء الغرباء الذين لانعلم على

(*) Psyché من الأساطير اليونانية، فتاة رائعة الجمال عشقها إله الحب.

الدوام من أين يجيئون».

وإذا كانت السيِّدة «دو غيرمات» تعلم التعليقات التي سيثيرها هذا الموقف أو ذاك فقد كان يغبطها أن تذهب إلى حفلة لايجرؤون على توقُّعها فيها بقدر ما يغبطها أن تمكث في المنزل أو أن تقضي الأمسية مع زوجها في المسرح عشية حفلة «يذهب إليها الجميع»، أو حينما يظنون أنها سوف تغطي على أجمل الماسات بتاج تاريخي أن تدخل دون أية حلية وفي ملابس غير تلك التي كانوا يظنون خطأ أنها إلزامية. ومع أنها كانت من مناهضي «دريفوس» (فيما تعتقد ببراءته تماماً كما كانت تقضي حياتها في دنيا المجتمعات وهي لاتعتقد إلا بالأفكار)، فقد خلفت إنطباعاً ضخماً في أمسية لدى الأميرة «دولينبي» حينما ظلت بادئ الأمر جالسة في حين وقفت جميع السيِّدات لدى دخول اللواء «ميرسيه»، ثم بوقوفها ومناداتها على خدمها على نحو يبين حينما شرع خطيب وطني يحاضر مظهره بذلك أنها لاترى أن المجتمع الراقي جعل للتحدث في السياسة. وقد اتجهت جميع الرؤوس إليها في حفلة موسيقية يوم الجمعة العظيمة لم تلبث فيها، مع أنها من فكر «فولتير»، لأنها رأت من غير اللائق تمثيل المسيح على المسرح. وإنا نعلم ما تمثله، حتى في نظر أعظم نساء المجتمعات الراقية، هذه الفترة من العام التي تبدأ فيها الحفلات: إلى حد أن المركيزة «دامونكور» التي كانت، لحاجة تحسُّها للكلام وهوس سيكولوجي وانعدام للعاطفة كذلك، غالباً ما يبلغ بها أن تنفوه بالحماقات، استطاعت أن تجيب واحداً جاء يعزيها بموت والدها السيِّد «دومونمو رانسي»: «ربما جاءك بمزيد من الحزن أن يتفق لك مثل هذا الغم في فترة يتجمع لك فيها في مرآتك مئات من بطاقات الدعوة. ففي تلك الفترة من العام حينما كانوا يدعون الدوقة «دو غيرمات» إلى العشاء ويسرعون كي لا تكون قد حجزت بعد كانت ترفض للسبب الوحيد الذي ما كان ليخطر يوماً ببال رجل مجتمعات: لقد كانت تزعم الذهاب في حلة لزيارة خلدجان النرويج التي تثير اهتمامها. لقد ذهل رجال المجتمع للأمر، ودون أن يهتموا بمحاكاة الدوقة أحسوا مع ذلك تجاه فعلتها بنوع الارتياح الذي يداخلنا في قراءة «كانت» حينما نكتشف بعد إقامة البراهين الأكثر إحكاماً على الحتمية أن ثمة فوق عالم الضرورة عالم الحرية. إن أيَّ اختراع لم يسبق أن انتبهنا له في يوم إنمّا يستثير الفكر حتى لدى أولئك الذي لا يعلمون كيف يفيدون منه. لقد كان اختراع السفن البخارية أمراً يسيراً في مقابل استخدام السفن البخارية في الفترة غير المترحلة من الـ season* . ولم تبدُ فكرة إمكان التخلي طوعاً عن مئة عشاء أو غداء وعن ضعفها من حفلات الشاي وثلاثة أمثالها من الأمسيات وعن أجمل أيام الإثنين في الأوبرا وأيام الثلاثاء في مسرح «الفرنسيون» من أجل الذهاب لزيارة خلدجان النرويج، لم تبدُ لآل «كورفوازيه» أكثر وضوحاً من كتاب «عشرون ألف فرسخ تحت البحار»، ولكنها أشاعت فيهم الشعور نفسه بالاستقلال والظرف. ولذلك لم يكن ثمة يوم لاتسمع من يقول فيه لا هذه العبارة فحسب «هل تعرف آخر نكتة لـ «أوريان»؟ بل هذه أيضاً «أتعرف الأخيرة لـ «أوريان»؟ وعن «الأخيرة لأوريان» و«آخر نكتة لأوريان» كانوا يرددون على السواء: «إنها بالضبط من أوريان»، «هذا أسلوب أوريان بالضبط»، «هذا أسلوب أوريان الخالص». وآخر ما جادت به «أوريان» كان على سبيل المثال، إذ وقع عليها أن تجيب باسم جمعية وطنية الكاردينال س... مطران مدينة «ماكون» (الذي كان السيِّد «دو غيرمات» يدعوه حينما يتحدث عنه «السيِّد دو ماسكون» لأنَّ الدوق كان

(*) أثبتناها بالإنكليزية لابرار تصنع بعض الأرستقراطيين وتعني فصل الشتاء هنا.

يرى ذلك من النمط الفرنسي القديم» وإذ كان كلٌّ يحاول أن يتخيّل كيف تصاغ الرسالة ويجد بالضبط أولى كلماتها: «صاحب النيافة» أو «صاحب السيادة» ولكنّا يحار إزاء الباقي، أن رسالة «أوريان» كانت، وبالدّهشة الجميع، تبدأ بـ «سيدي الكاردينال» بسبب عادة أكاديمية قديمة أو بـ «ابن العم» إذ اللفظة مستخدمة بين أمراء الكنيسة وآل «غيرمانت» والملوك الذين كانوا يدعون الله أن يكلاً هؤلاء وأولئك «برعايته المقدسة الكريمة». وكما يجري الحديث عن «نكتة أخيرة لأوريان» كان يكفي، إيان عرض نجد فيه كلّ باريس ويتم فيه تمثيل مسرحية حلوة جدّاً، وفيما يبحثون عن السيّد «دو غيرمانت» في مقصورة الأميرة «دوبارما» والأميرة «دو غيرمانت» وأخريات كثيرات كنّ دعونها، كان يكفي أن يجدوها وحيدة بأثواب سوداء وقبّة صغيرة جدّاً على مقعد وصلت إليه أن رفع الستارة. وكانت توضح قائلة: «السماع أفضل بالنسبة إلى مسرحية على جانب من الأهمية»، ممّا يثير استنكار آل «كورفوازييه» وانبهار آل «غيرمانت» والأميرة «دو بارما» إذ يكتشفون فجأة أن «طريقة» سماع بداية مسرحية ما كانت أكثر جدّة وتدلّ على قدر أعظم من الابتكار والذكاء (الأمر الذي ما كان ليدهش على لسان «أوريان») من الوصول ساعة الفصل الأخير عقب عشاء كبير وظهر في إحدى الأمسيات.. تلك كانت طرق الإدهاش المختلفة التي كانت الأميرة «دو بارما» تعلم أنه يمكن أن تستعد لها إن هي طرحت سؤالاً أدبياً أو اجتماعياً على السيّد «دو غيرمانت» والتي كانت تحمّل صاحبة السموّ في أثناء هذه الأعشيه لدى الدوقة على ألا تزج نفسها في أيّ موضوع إلّا بالخطر الخائف المغتبط الذي تبديه السباحة إذ تطلع من بين موجتين.

ومن بين العناصر التي غابت عن الصالنتين أو الثلاث الأخرى المتساوية تقريباً والتي كانت على قمة حيّ «سان جيرمان»، من تلك العناصر التي كانت تميز صالة الدوقة «دو غيرمانت» عنها، ومثلما يسلّم «لاينتس» بأنّ كلّ موناكا تضيف إلى الكون، فيما تعكسه بكامله، شيئاً خاصاً، كان أقلّ ما يستجيب من عناصر فيها إتّما توفره عادة امرأة أو امرأتان على جمال عظيم وليس ما يسوّغ حضورهما هنالك سوى جمالهما، سوى ما سبق أن فعل به السيّد «دو غيرمانت»، وكان وجودهما يكشف في الحال، مثلما هذه اللوحات أو تلك في صالات أخرى، عن أن الزوج في هذه الصالة كان محبباً متحمساً لحاسن النساء. كنّ كلهنّ متشابهات إلى حدّ ما لأنّ الدوق كان يميل إلى النساء ذوات القامات الطويلة المهيئات الطليقات في آن واحد ومن نوعية متوسطة بين «فينوس ميلو» وتمثال «نصر ساموتراس». كنّ في الغالب شقراوات وفيما ندر سمراوات وصهباءوات أحياناً كقاريهنّ عهداً، وكانت في ذاك العشاء، وهي الفيكونتيسة «دار باجون» التي سبق أن أحبّها حبّاً جمّاً إلى حدّ أنه أرغمها مدّة طويلة على أن تبعث إليه قرابة عشر برقيات في اليوم (الأمر الذي كان يزعج الدوقة بعض الشيء)، والتي كان يرسلها بوساطة الحمام الزاجل حينما يقيم في «غيرمانت» وقد لبث أخيراً فترة طويلة عاجزاً تماماً عن أن يكون في غنى عنها إلى حدّ أنه كان ذات شتاء اضطرّ أن يقضيه في «بارما» يعود في كل أسبوع إلى باريس فيقوم برحلة تدوم يومين ليلتقيها.

لقد سبق أن كانت تلك الممثلات الصامتات الجميلات عشيقاته عادة وما عدن كذلك (كما هي الحال بالنسبة إلى السيّد «دار باجون») أو كنّ على شفا أن يكففن عنه. إلّا أنّ المهابة التي تخلّقها الدوقة في نفوسهنّ وأمل أن يتمّ استقباهنّ في صالتهنّ مع أنهنّ ينتمين إلى أوساط أرستقراطية جدّاً ولكن من مرتبة ثانية حملهنّ على الإذعان لرغبات الدوق حتّى أكثر مما لجمال هذا الأخير وكرمه. وما كانت الدوقة على أيّ حال

لتعارض دخولهن إلى بيتها معارضة مطلقة، فقد كانت تعلم أنها لقيت لدى أكثر من واحدة من بينهن حليفة حصلت بفضلها على مالا يحصى من أمور كانت رغبة فيها وكان السيد «دو غير مانت» يرفضها لزواجه دونما شفقة مادام لايعشق أخرى غيرها. ولذلك فإن ما يفسر انتفاء استقبالهن لدى الدوقة مالم تكن علاقتهن قد قطعت شوطاً بعيداً إنما كان بادئ الأمر ناجماً بالأحرى عن أن الدوق ظن في كل مرة خاض فيها حباً جديداً أنه محض نزوة عابرة يحسب من المغالاة أن يجيء في مقابلها الاستقبال لدى زوجته. ولكنما كان يتفق أن يقدمه لأقل من ذلك بكثير، من أجل قبلة أولى لأن صنوفاً من المقاومة لم يكن قد أخذها في الحسبان جرت، أو لأنه لم يكن ثمة على العكس مقاومة. ففي الحب غالباً ما يحمل الامتنان والرغبة في الإبهاج على عطاء يجاوز حدود ماوعده به الأمل والمصلحة. ولكنما كانت تعترض سبيل تحقيق ذاك العطاء حينئذ ظروف أخرى. فقد كانت تحتجز بادئ الأمر، كل بدورها على يد السيد «دو غير مانت»، جميع النساء اللواتي استجبن لحبه وأحياناً حتى حينما لم يكن بعد قد استجبن. فما كان يسمح لهن من بعد بلقاء أحد وكان يقضي بالقرب منهن ساعاته كلها تقريباً ويهتم بتربية أطفالهن الذين اتفق له أحياناً، إن ابني أن نحكم في الأمر فيما بعد بناء على وجه شبه صارخ، أن يوفر لهم أختاً أو أختاً. ولئن كان للتعريف بالسيدة «دو غير مانت» الذي لم تراود فكرته الدوق على الإطلاق، لئن كان له في أول العلاقة دور في ذهن العشيقة، فإن العلاقة نفسها قد حوكت وجهات نظر تلك المرأة؛ فلم يعد الدوق في نظرها زوج أكثر نساء باريس أناقة فحسب، بل رجل أخذت العشيقة الجديدة تحبه، رجل غالباً ما وقر لها إلى ذلك وسائل مزيد من البذخ وميل إليه وقد قلب الترتيب السابق على صعيد الأهمية بين مسائل السنوية ومسائل المصلحة وأخيراً كانت ثمة أحياناً غير من كل صوب تتحمل في صدور عشيقات الدوق ضد السيدة «دو غير مانت». ولكن هذه الحالة كان من أندرهما. وحينما كان يحل أخيراً على أي حال يوم التعريف (في فترة أضحت عادة فيها ممالك غير ذي بال في نظر الدوق الذي كانت تحكم أعماله، شأن أعمال كل الناس، الأعمال السابقة أكثر منها الدافع الأول الذي لم يعد موجوداً) غالباً ما كان يتفق أن تكون السيدة «دو غير مانت» هي التي سعت إلى استقبال العشيقة التي كانت تأمل أن تلقى فيها وهي بحاجة كبرى إلى أن تلقى فيها حليقة ثمينة تنصرها على زوجها المرهوب الجانب. وليس يعني ذلك أن السيد «دو غير مانت» كان يخلّ إزاء زوجته بما يدعى به «الشكليات» فيما عدا فترات نادرة في المنزل كان يطلق فيها، حينما تفرط الدوقة في الكلام، أقوالاً وعلى وجه الخصوص لحظات صمت صاعقة. أما أولئك الذين لايعرفونها فقد كان يمكن أن يخدعوا ففي الخريف أحياناً، بين فترتي سباقات «دوفيل» والحمّامات والرحيل إلى «غير مانت» وطلعات الصبد، وفي غضون بضعة أسابيع يقضونها في باريس، وإذا كانت الدوقة تحب المقاهي الغنائية، كان الدوق يمضي معها ليقضي أمسية فيها. كان الجمهور يلاحظ في الحال في واحدة من تلك المقصورات الصغيرة المكشوفة التي لا تتسع إلا لاثنتين ذاك الجبار بلباس «السموكنغ» (بما أنهم في فرنسه يطلقون على كل شيء ذي طابع بريطاني في كثير أو قليل الإسم الذي لا يحمله في انكتره) وعلى العين نظارته وفي يده السمينة والجميلة مع ذلك التي تلتصع في ينصرها ياقوتة زرقاء سيكار ضخمة ينفت منه بين الحين والحين دفعة دخان، ونظاراته تتجه عادة إلى خشبة المسرح ولكنما يلفظها، حينما يخفضها على القاعة حيث لايعرف أحداً على الإطلاق على أية حال، بمظهر من العذوبة والتحفظ والتأدب والاحترام. وحينما يبدو له مقطع مضحكاً ولا يفرط في قلة الاحتشام كان الدوق يلتفت إلى زوجته باسماء ويشاطرها، بإشارة تعرف عن الإدراك والعطف، المرح البريء الذي توفره له الأغنية

الجديدة. وكان بوسع النظارة أن يحسبوا أن ليس من زوج أفضل منه وأن ليس من امرأة خليقة بأن تحسد أكثر من الدوقة - هذه المرأة التي كانت كل اهتمامات الحياة في نظر الدوق خارج نطاقها، هذه المرأة التي ما كان يحبها ولم يكف في يوم عن خداعها. وحينما تحسّ الدوقة أنها متعبة كانوا يصرون السيد «دو غير مانت» ينهض فيلبسها معطفها بنفسه وهو يرتب عقودها كي لا تعلق بالبطانة، ويشقّ لها درياً بصنوف من العناية تتسم بالاهتمام والاحترام فتقبلها ببرود امرأة المجتمع التي لا ترى في ذلك سوى شيء من محض آداب السلوك، بل تضيف أحياناً المראה الساخرة قليلاً تبديها الزوجة الخبيثة التي لم يظّل لها وهم تفقده من بعد. بيد أن حياة الدوقة كانت صعبة على الرغم من هذه المظاهر، وهي جزء من ذلك التهذيب الذي نقل الواجبات من الأعماق إلى السطح في فترة أضحت قديمة ولكنها لا تزال مستمرة للباقيين منها على قيد الحياة. ولا يعود السيد «دو غير مانت» فيضحي كريماً وإنسانياً إلا بالنسبة إلى عشيقة جديدة تتخذ، مثلما كان يتفق ذلك في الأغلب، جانب الدوقة وتناصرها. وترى هذه الأخيرة أن صنوفاً من السخاء إزاء مرؤوسيه وحسنات للفقراء وحتى بالنسبة إليها فيما بعد سيارة جديدة رائعة تعود فتصبح في حيز الممكن بيد أن عشيقات الدوق ما كنّ مستثنيات من الغنظ الذي تبعته بشيء من السرعة عادة في صدر السيدة «دو غير مانت» نساء يفرطن في خضوعهنّ لها، فلا يمضي سوى القليل حتى تملهنّ الدوقة. والحقيقة أن علاقة الدوق بالسيدة «دار باجون» أخذت تقرب في تلك الفترة أيضاً من نهايتها. ذلك أن عشيقة أخرى كانت تطلع في الأفق.

ليس من شك أن الحب الذي داخل السيد «دو غير مانت» على التوالي إزاءهنّ كافة كان يعود ذات يوم إلى الظهور: فقد كان ذلك الحب يخلقهنّ إذ يتلاشي كتماثيل جميلة من المرمر-تماثيل من المرمر جميلة في نظر الدوق وقد أضحي على هذا النحو فتناً في جزء من ذاته لأنه سبق أن أحبها وأضحى الآن يقدر خطوطاً ماكان لولا الحب ليقدرها - تتقابل في صالة الدوقة أشكالها المتعادية فترة طويلة والتي تأكلتها صنوف الغيرة والمشاجرات وتوافقت أخيراً في السلام الذي توليه الصداقة. ثم إن هذه الصداقة نفسها كانت من نتائج الحب الذي أبرز للسيد «دو غير مانت» لدى أولئك اللاتي كنّ عشيقاته فضائل موجودة لدى كلّ كائن بشري ولكنما لا تدرکها إلا اللذة وحدها حتى لتصبح العشيقة السابقة، وقد أضحت «رفيقاً ممتازاً» قد يقدم على أي أمر في سبيلنا، روسماً شأن الطبيب الوالد الذي ليس طبيباً أو والداً بل صديق. على أن المرأة التي كان السيد «دو غير مانت» يشرع في هجرها كانت تشتكي في فترة أولى وتثور وتبدي تشدداً وتبدو غير متحفظة ومنكدة.. ويشرع الدوق في النفور منها. حيثئذ كان يتسنّى للسيدة «دو غير مانت» أن تبرز المعاييب الحقيقية أو المفترضة لدى امرأة كانت تزعجها. كانت السيدة «دو غير مانت» التي اشتهرت بطبيعتها تستقبل هوائف المهجورة ونجاواها ودموعها ولا تشكو من الأمر. كانت تضحك من ذلك مع زوجها، ثم مع بعض الألف. وما كانت السيدة «دو غير مانت»، وهي تحسب أن لها الحق من جرّاء الإشفاق الذي تبديه لمنكودة الحظ أن تضايقها في حضرتها هي وأياً كان ما تقول هذه الأخيرة بشرط أن يتسنّى حشر ذلك في إطار الطباع المضحكة التي صنعها لها الدوق والدوقة منذ عهد قريب، ما كانت ترى حرجاً في تبادل نظرات متواطئة ساخرة مع زوجها.

وفيما كانوا يجلسون إلى المائدة تذكرت الأميرة «دو بارما» أنها تبغي دعوة السيدة «دو ديكور» إلى الأوبرا وإذا كانت راغبة أن تعلم إن كان الأمر لن يسوء في عيني السيدة «دو غير مانت» حاولت أن تسبر أعماقها.

وفي تلك اللحظة دخل السيد «دو غروشي» الذي تعطل قطاره ساعة بسبب خروجه عن الخط، فاعتذر جهد المستطاع. ولو أن امرأته كانت من آل «كورفوازيه» لمانت خجلاً. ولكن السيدة «دو غوشي» لم تكن من آل «غيرمانت» عبثاً. ففيما كان زوجها يعتذر عن تأخره قالت مستهله كلامها: «أرى أن التأخر حتى في الأمور الصغيرة تقليد في أسرنا».

وقال الدوق: «إجلس يا «غروشي» ولا تفقد رباطة جأشك».

— «أرى لزماً علي أن اعترف، مع أنني أمانني زماني، بأن لمعركة «واترلو» جوانب جيدة بما أنها سمحت بإعادة حكم آل «بوربون»، وأفضل من ذلك أنها فعلت بطريقة جعلتهم بعيدين عن نفوس الشعب. ولكنني أرى أنك «نمرود» حقيقي!».

— «لقد عدت بالحقيقة ببعض الطرائد الجميلة، وسوف أسمح لنفسي أن أبعث إلى الدوقة غداً بدزينة من التندارج».

وبدا كأنما تلوح فكرة في عيني السيدة «دو غير مانت»، فألحّت ألا يكلف السيد «دو غروشي» نفسه عناء إرسال التندارج، وقالت وهي تشير إلى الخادم الخطيب الذي سبق أن تحدّثت إليه وأنا أغادر قاعة عائلة «إيلستير»:

— «بولان، إذهب لجلب تدارج السيد الكونت وعد بها في الحال، أليس أنك تسمح يا «غروشي» أن أقدم على بعض المجاملات؟ فلن نأكل أنا و«بازان» بمفردنا اثني عشر تدرج».

وقال السيد «دو غروشي»: «لعل في بعد الغد ما يكفي من تبكير».

وتلحّ الدوقة: «لا، أفضّل الغد».

وشحب «بولان» أشدّ الشحوب، لقد فشل موعده مع خطيبته. وكان ذلك كافياً لتسلية الدوقة التي كانت تصرّ أن يحتفظ كل شيء بمظهر إنساني، فقالت لـ «بولان»: «أعلم أنه يوم عطلتك، ماعليك إلا أن تبادل جورج فيخرج غداً ويمكث بعد غد».

ولكن خطيبة «بولان» قد لا تكون حرة بعد الغد، وسيان لديه أن يخرج. وما أن غادر «بولان» القاعة حتى هنا كل منهم الدوقة على رفقها بخدمها.

— «ولكنني لأفعل أكثر من أن أكن معهم كما أود أن يكون الناس معي».

— «بالضبط! بوسعهم أن يقولوا إن لهم لديك عملاً ممتازاً».

— «ليس خارقاً إلى هذا الحدّ. ولكنني أعتقد أنهم يودّوني. أما ذاك فمزعج إلى حدّ ما لأنه عاشق ويحسب أنه يجدر به اتخاذ ملامح حزينة».

ودخل «بولان» في تلك اللحظة، فقال السيد «دو غروشي».

- «بالفعل، فليس يبدو باسم الوجه. لابد أن نكون طبيين معهم، ولكن دون إفراط في الطيبة».
- «اعترف أنني لست قاسية؛ فلن يقع عليه في كامل نهاره سوى الذهاب لجلب تدارجك والمكوث ههنا لا يفعل شيئاً وتناول حصته منها»
- وقال السيد «دو غروشي»: «كثيرون يودون لو يحتلون مكانه فالحسد أعمى».
- وقالت الأميرة «دوبارما»: «أوريان، لقد حظيت ذاك اليوم بزيارة ابنة عمك «دوديكور». هي بالطبع امرأة ذات ذكاء رفيع؛ إنها «غير مانتية» وذلك يختصر كل شيء. ولكننا يقولون إنها نمامة...».
- وألقي الدوق على زوجته نظرة طويلة محملة بدهشة مقصودة. وأخذت السيدة «دو غير مانت» في الضحك؛ ولاحظت الأميرة ذلك في النهاية فسألت يساورها القلق:
- «ولكن... ألا توافقيني... الرأي...».
- «ولكن سيدي بالغة الطيبة أن يشغلها ما يبدي «بازان». هيّا يا «بازان»، لا يوحين مظهرك أنك تغتاب أقرباءنا».
- وسألت الأميرة بحرارة: «أريدتها بالغة السوء؟».
- فردت الدوقة قائلة: «لا! على الإطلاق لست أدري من قال لسموك إنها نمامة. إنها على العكس مخلوقة ممتازة لم تغتب أحداً في يوم ولا أساءت إلى أحد».
- وقالت السيدة «دوبارما» وقد انزاح الهم عن صدرها: «آه! لم أكن قد لاحظت ذلك بدوري. ولكنني لما كنت أعلم أنه يصعب في الغالب ألا يداخل المرء شيء من الخبث حينما يتمتع بكثير من الذكاء...».
- «آه! أما هذا مثلاً فنصيبها منه أقل».
- وسألت الأميرة ذاهلة: «أقل ذكاء؟...»
- وقاطع الدوق الحديث بلهجة شاكية وهو ينظر من حوالبه يميناً وشمالاً نظرات ساخرة: «ويحك يا «أوريان، أنت تسمعين أن الأميرة تقول لك إنها امرأة متفوقة».
- «أفليست كذلك؟».
- «إنها على الأقل متفوقة ببدانتها».
- «لاتصغي إلي ياسيدي إنه ليس صادقاً. إنها غبية غباء (هم...) إوزة»، تقول السيدة «دوغير مانت» بصوت قوي أبج، وكانت، وهي أكثر إغراقاً في الماضي من الدوق حينما لا يجهد في الأمر، تحاول غالباً أن تبدو كذلك، ولكن على نحو مناقض لطريقة زوجها الأرستقراطية المتميعة إلا أنها في الواقع أشد إرهافاً بكثير،

بضرب من تلفظ فلاحيّ تقريباً له طعم الأرض القوي واللذيذ. «ولكنّها أفضل امرأة في الدنيا. ثم إنّي لأدري إن كان يمكن في هذا الحدّ أن نسَمّي ذلك غباء. ولا أظنّ إنّي عرفت في يوم مخلوقة شبيهة بها. إنّها حالة جديرة بطبيب وبها شيء من الحالة المرضيّة، إنّها من نوع «البريّة» البلهاء «المتخلّفة» كما هي الحال في الميلو دراما أو في أوامر «الآرليزيين». وإنّي اتساءل على الدوام حينما تكون ههنا إن لم يحن الوقت الذي سيستفيق فيه عقلها، الأمر الذي يورث دوماً بعض الخشية». كانت الأميرة تعتريها الدهشة لتلك العبارات فيما تظنّ مذهولة من جرّاء الحكم، وتجيّب: «لقد ذكرت لي، وكذلك فعلت السيّدّة «دييينيه»، نكتك حول «مشاكس المتكبّر» ؛ إنّها رائعة».

وشرح لي السيّد «دو غير مانت» الطرفة. كنت راغباً فأقول له إنّ شقيقه الذي كان يدّعي أنّه لا يعرفني ينتظرني في المساء نفسه الساعة الحادية عشرة. بيد أنّي لم أكن سألت «روبير» إن كنت أستطيع التكلّم عن هذا الموعد، وبما أن كون السيّد «دو شارلوس» قد حدّده لي على وجه التقريب يناقض ما سبق أن قاله للدوقة فقد رأيت لياقة أكبر في أن أصمت.

وقال السيّد «دو غير مانت»: «مشاكس المتكبّر لا بأس به..، ولكنّ السيّدّة «دو ديكور» لم تروّ لكم على الأرجح طرفة أجود بكثير قالتها لها «أوريان» ذاك اليوم جواباً عن دعوة إلى الغداء؟»

— «لا، لا! قلها!»

— «أصمت، ويحك، يا «بازان»، فهذه الطرفة سخيفة بادئ الأمر وسوف تحمل الأميرة على الحكم بأنّي أدنى بعد من ابنة عمّي البلهاء ثم إنّي لا أدري لماذا أقول ابنة عمّي، فإنّها ابنة عمّ لـ «بازان»، ولكنّها مع ذلك على شيء من القرابة معي».

وصاحت الأميرة «دو بارما» لدى التفكير بأنّها قد تجد السيّدّة «دو غير مانت» غيبيّة وهي تحتجّ بشدّة أنّه لا يمكن لأمر أن ينتقص من المنزلة التي تشغلها الدوقة في إعجابها: «أوه!»

— «ثم إنّنا قد خلعتنا عنها صفات الفكر، ولما كانت الطرفة تنزع إلى انكار بعض صفات القلب لديها فيبدو لي أنّها في غير محلّها».

وقال الدوق بسخرية متصنّعة وكبي يحمل على الإعجاب بالدوقة: «إنكار! في غير محلّها! كم تحسن التعبير!».

— «هيا يا بازان، لاتسخر من امرأتك».

وعاد الدوق يقول: «لا بدّ أن أقول لسمّوك الملكي أن ابنة عمّ «أوريان» راقية طيبة بدينة وما شئت لها أن تكون، ولكنّها ليست بالضبط، ماذا عساي أقول... مسرفة».

قاطعتها الأميرة قائلة: «أجل، أدري، إنّها شديدة الشح».

— «ما كنت لأسمح لنفسي بالعبرة، ولكنك لقيت الكلمة الصحيحة. إنّ ذلك بين في نمط معيشتها

البيتية وعلى وجه الخصص في طعامها، فهو رائع ولكنه مقنن.

وقاطعه السيد «دو بريوتيه» قائلاً: «بل إن ذلك يفضي إلى مشاهد مضحكة إلى حد ما. من ذلك، يا عزيزي «بازان»، أنني مررت ذات يوم في «أوديكور» حيث كانوا في انتظار كما أنت و«أريان» وكانا قد أعدوا أشياء فاخرة عندما حمل أحد الخدم الخاصين بعد الظهر برقية بأنكما لن تجيئا.

فقال الدوقة التي لم يكن من العسير التقاؤها فحسب بل هي تحب أن يعرف الناس ذلك: «لست أستغرب الأمر!»

— «وتقرأ ابنة عمك البرقية وتغتم ثم تعود في الحال، دون أن تفقد رباطة جأشها، فتستدعي الخادم قائلة في نفسها إنه لا ضرورة لنفقات لاطائل تحتها تجاه سيد لا أهمية له مثلي وتصيح به: «قل للطاهي أن يرفع القروج». وفي المساء سمعها تسأل رئيس الخدم: «قل لي، وبقايا «بقر» البارحة؟ ألا تقدمونها؟».

— «لابد أن نعترف على أي حال بأن الماكل لا غبار عليها»، يقول الدوق الذي يظن باستخدامه هذه العبارة أنه يبدو من العهد السابق، «فسلت أعرف داراً فيها الطعام أطيب».

— «أقل»، تضيف الدوقة مقاطعة.

وأردف الدوق قائلاً: «إنه صحي جداً وكاف تماماً لما يدعونه بالرجل الفظ السخيف مثلي، فهو لا يشفي من جوع».

— «آه! إن كان بمثابة استشفاء فالأمر حينئذ مختلف تماماً. إنه بالطبع صحي أكثر منه فاخراً. على أنه ليس طبيباً إلى هذا الحد»، تضيف السيدة «دو غير مانت» التي ما كانت تحب كثيراً أن يمنح لقب أفضل مائدة في باريس لغير مائدها. «وابنة عمي إنما يتفق لها ما يتفق لمؤلفين يعانون من الإمساك وبييضون في كل خمسة عشر عاماً مسرحية من فصل واحد أو قصيدة قصيرة. ذلك ما يدعونه بالروائع الصغيرة وبالهنات التي هي جواهر هو باختصار القول الأمر الذي أمقته أكثر ما أمقت. ليس الطعام لدى «زينائيد» رديئاً لكنك قد تجده عادياً وأكثر من عادي لو كان أقل تقثيراً. ثمة أشياء يحسن طاهيها صنعها، وأشياء يفشل فيها. لقد تناولت لديها شأني في أي مكان آخر أعشيت رديئة جداً لكنها ألحقت بي ضرراً أقل من أي مكان آخر لأن المعدة أكثر تأثراً في الأساس بالكمية منها بالكيفية».

وخلص الدوق إلى القول: «وأخيراً وفي نهاية المطاف أخذت «زينائيد» تلح كي تأتي «أوريان» لتناول طعام الغداء، وبما أن امرأتي لا تحب كثيراً الخروج من منزلها فقد كانت تقاوم وتستعلم إن كانوا لا يزوجونها مخادعين، بحجة وليمة خاصة، في احتفال كبير وتحاول دون جدوى أن تعلم أي مدعوين سيحضرن إلى هناك كانت «زينائيد» تلح وهي تمتدح الطبيبات التي ستقدم في الغداء: «تعال، تعالي، ستأكلين مهروس الكستناء، لن أقول تلك غير ذلك، وسيقدم سبع قطع صغيرة من «لقم الملكة». وصاحت «أوريان» قائلة: «سبع لقم صغيرة. ذلك يعني إذا أننا سنكون ثمانية على الأقل!».

وبعد بضع لحظات أطلقت الأميرة ضحكاتها، بعدما فهمت. وكأنها هزيم الرعد. «آه! سنكون ثمانية

إذن، ذلك رائع! وما أحسن الصياغة! تقول وقد عادت فلقيت في جهد أخير العبارة التي سبق أن استخدمتها السيدة «ديينيه» والتي كانت أحسن موقعاً هذه المرة.

- «أوريان، جميل جداً ما تقوله الأميرة، تقول إنه «حسن الصياغة».

وأجابت السيدة «دو غيرمات» التي كانت تستسيف بيسر طرفة حينما تنطق بها صاحبة سمو وتمتدح نباهة فكرها في الآن نفسه: «ولكنك لاتعلمني شيئاً يا صديقي. إنني شديدة الاعتزاز أن تقدر سيدتي صياغتي المتواضعة على أنني لا أذكر أنني قلت ذلك. وإن كنت فعلت فلاأدغدغ مشاعر ابنة عمي، ذلك لأنه لو كان لديها سبع لقم فلا بد أن الأفواه، إن توفرت لي جرأة التعبير على هذا النحو، كانت تتجاوز الدزينة».

وفي هذه الأثناء كانت الكونتيسة «دار باجون» التي سبق أن قالت لي قبل العشاء إن عمته كانت تستعد أعظم السعادة أن تفرجني على قصرها في النورماندي، كانت تقول لي من فوق رأس الأمير «داغريجات» إن المكان الذي تود على وجه الخصوص أن تسقيلي فيه واقع في منطقة «الساحل الذهبي» لأنها هناك، في «بون لودك»، إنما هي في دارها.

أكدت لي الكونتيسة، التي سبق أن أخطرتني السيدة «دو غيرمات» أنها طويلة الباع في الآداب، قائلة: «قد تثير محفوظات القصر اهتمامك فثمة مراسلات غريبة إلى حد بعيد بين جميع أبرز الشخصيات في القرن السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر. إنني أقضي هناك ساعات رائعة وأعيش في الماضي».

وعادت الأميرة تقول، وهي تتحدث عن السيدة «دو ديكور»، وكانت تريد أن تجهد في إبراز الأسباب الوجهية التي يمكن أن تكون لديها لإقامة علاقات صداقة معها: «إنها تملك جميع مخطوطات السيد «دو بورنيه».

فقالت الدوقة: «لابد أنها حلمت بذلك وأظن أنها ما كانت حتى تعرفه».

وتابعت الكنتيسة «دار باجون» التي كانت تربطها بالبيوتات الدوقية في أوروبا، وحتى الملكية منها، علاقات مصاهرة يسعدها أن تذكر بالأمر: «ما هو جدير بالاهتمام على وجه الخصوص أن تلك المراسلات صادرة عن شخصيات من بلدان مختلفة».

وقال السيد «دو غيرمات» دون أن يكون خالي القصد: «بلى. يا أوريان، تتذكرين تماماً ذاك العشاء الذي كان فيه السيد «دوبورنيه» جاراً لك!».

فقاطعت الدوقة قائلة: «إن كنت تقصد أن تقول يا «بازان» إنني عرفت السيد «دو بورنيه» فبالطبع، وهو حتى جاء عدة مرات ليلقاني ولكني ما استطعت في يوم أن أعقد العزم على دعوته فقد كنت أضطر في كل مرة إلى طلب التطهير بالفورمول. فأما عن ذلك العشاء فإنما أتذكره تمام التذكر ولم يكن على الإطلاق في منزل «زينائيد» التي لم تبصر «بورنيه» طوال حياتها ولا بد أنها تعتقد، إن حدثوا عن «ابنة رولان»، بأن الحديث عن أميرة من أسرة «بونابرت» يزعمون أنها خطيبة ابن ملك اليونان. لا، كان ذلك في سفارة النمسا.

لقد ظنَّ «هريوس» الظريف أنه يسعدني وهو يطرح على كرسيّ إلى جانبي عضو الأكاديمية النتن هذا. لقد خلت سرية من رجال الدرك جيراناً لي، واضطرت أن أكم أنفي قدر المستطاع في أثناء العشاء كله ولم أجرؤ على التنفّس إلا حين تقديم جبة «الغروير»!

وتفحصُ السيّد «دو غيرمانت». بعدما بلغ هدفه الخفيّ، تفحصُ خلصة الأثر الذي خلفته كلمة الدوقة على وجوه المدعوّين.

وتابعت السيّد «الطويلة الباع في الأدب والتي كانت تملك في قصرها رسائل غريبة إلى هذا الحدّ، وذلك على الرغم من اعتراض وجه الأمير «داغر يجات»: «إني أجد للمرسلات على أيّ حال سحراً خاصاً. فهل لاحظتم أنّ رسائل الكاتب غالباً ما تفوق بقيّة آثاره؟ ماعساه يدعى ذاك الكاتب الذي ألف «سالمبو»؟

وددت ألاّ أجيّب كي لأطيل هذا الحديث، ولكنني شعيت أنّي سأكدر الأمير «داغر يجات» الذي تظاهر بأنّه يعرف أنّ المعرفة ممّن كانت «سالمبو» وأنّه يدع لي لذّة الإعلان عنه محض مجامل، لكنّه كان في أشدّ الحيرة.

وقلت آخر الأمر: «فلوير»، ولكن إشارة الموافقة التي رسمها رأس الأمير قضت على صدى إجابتي حتّى أنّ محدثي لم تعلم بالضبط إن كنت قلت «بول بير» أو «فلوير» وهما اسمان لم يخلقا في نفسها رضى تاماً.

فأردفت تقول: «وفي جميع الأحوال ما أغرب مراسلاته وكم تفوق كتبه! وإنّها لتفسره على أيّ حال إذ إننا نبصر في كلّ ما يقال عن المشقة التي يصادفها في وضع أيّ كتاب أنّه لم يكن كاتباً حقيقياً وإنساناً موهوباً».

— تتحدّثين عن المراسلات، وإنّي أجد مراسلات «غامبيتا» رائعة، تقول الدوقة «دو غيرمانت» كي تبرز أنّها لاتخشى الاهتمام ببروليتاري وراييكالي. وأدرك السيّد «دو بريوتيه» كامل معنى هذه الجرأة ونظر من حوله بعين زائفة ورفيقة معاً، وبعد ذلك مسح نظارته.

وقال السيّد «دو غيرمانت»: «ياإلهي، ما أسأماها كانت ابنة رولان!»، وهو لايزال بعد في أمر السيّد «دو بورنيه»، وبالرضى الذي يخلقه لديه شعوره بالتفوق إزاء مؤلف قد أضجره إلى هذا الحدّ وربما أيضاً من جرّاء «يطيب لك، والبحر هائج» (*)، الذي تحسّ به، أثناء عشاء فاخر، في تذكّر أمسيات مريّة إلى هذا الحدّ. «على أنّه كان فيها بعض البيوت الجميلة وعاطفة وطنيّة».

وألحت إلى أنّي لم يكن يداخطني أيّ إعجاب بالسيّد «دو بورنيه».

وسألني الدوق باستغراب: «أليديك ماتلومه عليه؟»، وكان يظنّ على الدوام، حينما يتناولون بالسوء أحدهم، أنّ الأمر ناجم عن استياء شخصي، وامرأة بالحسنى، أنّها بداية حبّ عابر. «أرى أنّك حاقّد عليه، فما

(*) ورد في النص استشهد بالشاعر الروماني «لوكريس»: Suave marimagno وهي بداية قصيدة تقول: «يطيب لك، والبحر هائج، أن تنظر من اليابسة إلى المخاطر الرهيبة التي يتعرض لها الغير».

الذي فعله بك؟ قص ذلك علينا! بلى، لابد أن بينكما جثة بما أنك تدمه. «ابنة رولان» مؤلف طويل ولكنه صادق الشعور إلى حد ما».

وقاطعته السيّدة «دو غيرمانت» قائلة: «صادق الشعور» كلمة صحيحة تماماً بالنسبة إلى كاتب ذكي الرائحة إلى هذا الحد. فإن اتفق أن كان هذا الصغير برفقته في يوم فمن المنطقي إلى حد ما أن يعلق في أنفه!».

وعاد الدوق يقول وهو يوجّه الحديث للأميرة «دوبارما»: «لابد لي على أيّ حال أن أعترف لسيّدتني أنني في الأدب وحتى في الموسيقى، باستثناء «ابنة رولان»، قديم الهوى فليس من هزار مهما شاخ إلا وبرقني. قد لاتهدّفتني ولكنما يتفق لي في المساء، أن جلست زوجتي إلى البيانو، أن أطلب منها لحناً قديماً لـ «أوبري»، لـ «بوالديو» وحتى لـ «بيتهوفن»! ذلك ما أحب. أمّا بخصوص «فاغنر» في مقابل ذلك فإنه ينوّمني في الحال».

وقالت السيّدة «دو غيرمانت»: «لست على حقّ، فقد كان «فاغنر»، إلى جانب تطويل لا يطاق، يملك العبقرية. إن «لوهانجرين» رائعة فنية. حتى في غنائية «تريستان» ثمة ههنا وهنالك صفحة طريفة. أمّا كورس الغزالات في «السفينة الشبح» فأية محضة.

وقال السيّد «دو غيرمانت» موجّهاً كلامه للسيّد «دو بروتيه»: «أليس أننا نفضل يا «بابال».

«إن مواعيد الرفاقة الكريمة

تضرب كلها في هذا المقام الساحر» (*).

ذلك رائع. وفرا ديافولو» والمزمار المسحور» و«الشالية» و«عرس فيغارو» و«ماسات التاج»، تلكم هي الموسيقى! والأمر واحد في الأدب. وهكذا فأنّي أعشق «بلزاك» و«حفلة سو الراقصة» و«موهيكان باريس».

— «آه! يا عزيزي، إن أنت انطلقت في الحديث عن «بلزاك» فما أبعد أن ننتهي. احتفظ بذلك ليوم يكون فيه «ميميه» حاضراً هو في ذلك بعد أفضل، إنّه يعرفه عن ظهر القلب».

وسلّط الدوق، وقد غاظته مقاطعة زوجته، سلط عليها بضع لحظات نيران صمت متوعد. وكانت عيناه الحادتان تبدوان وكأنّهما مسدّسان محشوان. وفي أثناء ذلك كانت السيّدة «دار باجون» قد تبادلت والأميرة «دو بارما»، حول الشعر المأساوي وغيره، أقوالاً لم تبلغ مسامعي على نحو واضح حينما سمعت هذا القول نجود به السيّدة «دار باجون»: «آه! كلّ ما تشاء سيّدتي إنّي أوافقها أنّه يرينا العالم قبيحاً لأنّه لايحسن التمييز بين القباحة والجمال أو بالأحرى لأن غروره الذي لا يطاق يحمله على الاعتقاد بأن كلّ مايقوله جميل، وإنّي أقرّ مع سمّوك أنّ في المقطوعة المعنية أموراً مضحكة ومتعذّرة الفهم وأخطاء ضدّ الذوق وأنها عسيرة الإدراك وهي توليك في قراءتها مشقة بقدر ما لو كانت مكتوبة بالروسية الصينية، فهي كلّ شيء بالطبع باستثناء

(*) هي بداية الثنائي «جيرو» و«نيسيت» في غنائية لـ «هيرولد» (١٨٣٢).

الفرنسية. ولكننا، بعد ما ننفق هذه المشقة، آية مكافأة ننال، فما أكثر ما فيها من خيال! لم أكن قد سمعت بداية هذا الخطاب الصغير. وأدركت في النهاية أن الشاعر العاجز عن التمييز بين الجمال والقباحة هو «فيكتور هوغو»، وليس ذلك فحسب بل إن القصيدة التي كانت تقتضيك لفهما قدرأ من المشقة يساوي ما تقتضيه الروسية الصينية هي:

«عندما يطلع الطفل

يضجّ مجلس العائلة بالصباح والتصفيق...»

وهي مقطوعة من فترة الشاعر الأولى وربما كانت حتى أكثر قرباً من «مدام ديزولبير» منها من أسلوب فيكتور هوغو في «أسطورة القرون». وعوضاً عن أن أجد السيدة «دار باجون» سخيفة رأيتها وهي الأولى على هذه المائدة الحقيقية إلى حد بعيد، العادية إلى حد بعيد. التي جلست إليها بهذا القدر من خيبة الأمل، رأيها بعيني الفكر في قلنسوة الدانتيل تلك التي تفلت منها قصيبات مستديرة لذوائب طويلة والتي اعتمرتها السيدة «دوريموزا» والسيدة «دوبروي» والسيدة «دو سانت أولير» وسائر النساء العظيمات الأناقة اللواتي يستشهدن في رسائلهن الرائعة وبالكثير من العلم وحضور البديهة بسوفوكليس وشيلر وكتاب «المضاهاة» واللواتي كانت أولى قصائد الرومانتيكيين تبعث في نفوسهن هذا الرعب وهذا التعب اللذين لا ينفصلان في نظر جدتي عن آخر أشعار «ستيفان مالارميه».

وقالت الأميرة «دو باما» للسيدة «دو غيرمانت» وقد أثرت فيها اللهجة الحماسية التي قيل بها الخطاب: «إن السيدة «دار باجون» تحب الشعر كثيراً».

وأجابت السيدة «دو غيرمانت» بصوت خافت: «لا، إنها لا تفهم شيئاً منه على الإطلاق»، مستغلة أن كانت السيدة «دار باجون» فيما تردّ على اعتراض اللواء «دو بوتريي» أكثر انصرافاً إلى أقوالها الخاصة من أن تسمع تلك التي همست بها الدوقة. «لقد أضحت أدبية النزعة منذ أن هجرت. سوف أقول لسموك إنني إنما أحمل أنا وزر كل هذا لأنها إنما تجيء إليّ شاكية في كلّ مرة لم يذهب فيها «بازان» للقائها، يعني كلّ يوم تقريباً. على أن الذنب ليس ذنبي إن كانت تشيع الملل في نفسه ولا أستطيع إجباره على الذهاب إلى منزلها مع أنني ربما فضّلت أن يكون بعض الشيء أكثر إخلاصاً لها لأنني أراها بذلك أقلّ بعض الشيء. لكنها «تزهقه» وليس ذلك بغريب. ماهي بالمرأة السيئة ولكنها مزعجة إلى درجة لا تستطيعين تخيلها. وإنها تورثني في كلّ يوم أوجاعاً في الرأس شديدة إلى حد اضطر معه أن أتناول في كلّ مرة قرصاً من البيراميدون. كلّ ذلك لأنه طاب لـ «بازان» طوال عام أن يخذعني معها. ولكن لك فوق ذلك خادماً خاصاً يعشق بلهاء صغيرة ويحرد إن لم أطلب إلى هذه المرأة الشابة أن تغادر رصيفها المريح فترة لتأتي وتتناول الشاي معي!» واختتمت الدوقة الحديث بلهجة فاترة: «آه! إن الحياة قاتلة».

كانت السيدة «دار باجون» تزهق السيد «دو غيرمانت» بوجه خاص لأنه كان منذ وقت وجيز عشيقاً لأخرى علمت أنها المركيزة «دو سورجي لو دوك». وكان الخادم الخاص الذي حرم يوم عطلته يقوم بالضبط بتقديم الطعام. وحسبته يفعل ذلك، ولا يزال حزناً، بكثير من الاضطراب إذ لاحظت وهو يقدم الأطباق للسيد

«دوشاتيلرو» أنه يودّي مهمته برعونة كبيرة إلى حدّ أن اتفق أن يصدم مرفق الدوق عدّة مرّات مرفق الخادم. ولم يغضب الدوق على الطلاق من الخادم الذي كست وجهه الحمره بل نظر إليه على العكس وهو يضحك بعينه الزرقاء الصافية. وبدا لي أنّ البشاشة فيما يخصّ المدعوّ كانت برهاناً على الطيبة. ولكنّ الإلحاح في الضحك حملني على الاعتقاد بأنّه على علم بخيبة الخادم وأنّه ربما داخله على العكس فرح ماكر.

وتابعت الدوقة تقول وهي توجّه الحديث هذه المرّة إلى السيّدة «دار باجون» التي أبصرتها منذ قليل تدبر رأسها بادية القلق: «ولكنّك تعلمين يا عزيزتي أنّك لاتقومين باكتشاف وأنت تحدّثيننا عن «فيكتور هوغو». لا تأملني أن تروّجني لهذا المبتدئ؛ فالكلّ يعلم أنّه صاحب موهبة. إنّ ماهو مقيت هو «فيكتور هوغو» الفترة الأخيرة. فترة «اسطورة القرون»، لم أعد أعرف العناوين. ولكنّ «أوراق الخريف» و«أناشيد الغروب» هما في الغالب من عمل شاعر حقيقي». وأضافت الدوقة التي لم يجرؤ محدثوها على مخالفتها، والسبب وجيه: «حتّى في «التأمّلات» لا يزال هناك أشياء حلوة. ولكنّي أقرّ أنّي أفضل ألا أغامر بعد «الغروب»! ثم إنّك غالباً ما تلقى في قصائد «فيكتور هوغو» الجميلة، وهي موجودة، فكرة، بل فكرة عميقة».

ثمّ قالت الدوقة على مهل وباحساس صحيح وهي تستخلص الفكرة الحزينة بكامل قوى نبرتها وتضعها خلف حدود صوتها وتحقّق أمامها بنظرة حاملة رائحة:

— «خذي مثلاً:

«إنّ الألم ثمرة ليس ينميها الله على غصن لا يزال شديد الضعف كيما يحملها».

أو هذا أيضاً:

«ما أقلّ ما يدوم الأموات...

ولأنهم وأسفي لينقلبون في التابوت تراباً

بأقلّ سرعة ممّا يفعلون في قلوبنا»

وفيما كانت ابتسامة مخيبة تغصّن فمها الذي ينضح ألماً بالتواؤة ناعمة ثبتت الدوقة على السيّدة «دار باجون» نظرة حاملة من عينها الصافيتين الساحرتين. لقد أخذت أعرفهما كما أعرف صوتها المتمهل المتثاقل المستملح كأشدّ ما يكون. وكنت ألقى في هاتين العينين وهذا الصوت الكثير من طبيعة «كومبريه». كان ثمة بالتأكيد أشياء كثيرة في التصنّع الذي كان يبرز به ذلك الصوت بين الحين والحين خشونة تفوح منها رائحة الأرض؛ فالمنشأ الريفي تماماً لفرع من أسرة «غير مانت» ظلّ محدد المكان فترة أطول، وأكثر إقداماً وأشدّ انعزلاً وأكثر تحدّياً؛ ثمّ تعود جماعة من أهل الأناقة الحقّة وجماعة فكر يعلمون أنّ الأناقة ليست في التحدّث من طرف الشفتين وكذلك نبلاء يرتضون التآخي مع فلاحيهم أكثر منهم مع جماعة من البورجوازيين؛ كلّ هذه الخصائص التي سمح وضع السيّدة «دو غير مانت» ملكة أن يبرزها بسهولة أكبر وأن ينشرها على الملأ. ويبدو أنّ هذا الصوت نفسه كان يميّز شقيقات لها تكرههنّ وكنّ. وهنّ أقلّ ذكاء وقد

زَوْجَنَ زَوْجاً يكاد يكون بورجوازيّاً تقريباً، إن أمكن استخدام هذه الصفة حينما يتناول الأمر زيجات من نبلاء مغمورين يقبعون في مقاطعتهم أو في باريس في زاوية من حيّ «سان جيرمان» لا ألق فيها، كنّ يمتلكن ذاك الصوت لكنهن كبحنه وأصلحن منه ولطفنه جهد المستطاع مثلما يندر أن تتوافر لأحد منا جرأة الأخذ بتفردّه وألّا يصرف جهده إلى محاكاة النماذج الأكثر تحبباً. ولكنّ «أوريان» كانت أكثر ذكاء بما لا يقاس وأوفر ثراء وأقرب إلى الموضة على وجه الخصوص من شقيقاتها ولقد كان تأثيرها، بوصفها أميرة «لوم»، عظيماً جداً على أمير «غال» إلى حد أدركت معه أنّ ذاك الصوت الناشئ كان من السحر وأنها جعلت منه، على صعيد المجتمع الراقي، بالجرأة التي يوقرها التفرد والنجاح، ماصنعت على صعيد المسرح مثيلات «ريجان» و«جان غرانييه» (دون مقارنة بالطبع وعلى أيّ حال بين قدر هاتين الفنّانيتين وموهبتهما) من صوتهما، أي شيئاً رائعاً ومتميزاً ربما حاولت شقيقات بدعيّين «ريجان» و«غرانييه» ولم يعرفهن أحد في يوم أن يطمسهن على أنّه عيب من العيوب.

وقد جاء الكتاب المفضلون لدى السيّدة «دو غيرمانت»: «ميريميه» و«ميلاك» و«هاليقي» يضيفون إلى هذا العدد من الأسباب الداعية إلى إبراز تفردّها المحلي، يضيفون، إلى جانب احترام «الفطري» من الأمور، ميلاً إلى العبارة العادية تبلغ به حدّ الشعر وظرفاً مجتمعيّاً صرفاً كان يوقظ مساحات أمام عينيّ. وكانت الدوقة قادرة تماماً على أيّ حال، إذ تضيف إلى هذه التأثيرات سعيّاً فنياً، أن تكون اختارت لمعظم المفردات النطق الذي يبدو لها أقرب ما يكون إلى منطقة «إيل دو فرانس» وأكثر ما يكون من محلّة «الشامبانيي» لأنها، وإن لم تبلغ تماماً مبلغ شقيقة زوجها «مارسانت»، قلما كانت تلجأ إلى غير المفردات الصرقة التي ربّما أمكن أن يستخدمها كاتب فرنسيّ قديم. وحينما كنت تملّ اللغة الحديثة المخلطة المرقّشة كان الإصغاء إلى حديث السيّدة «دو غيرمانت» راحة عظيمة، مع علمك التام أنّها تعبر عن أشياء أقل بكثير - الراحة نفسها التي تحسّ بها، إن اتّفقت أن تكون وحدك معها وحدت من غزارة القول ووضّحته، في الاستماع إلى أغنية قديمة. وفيما كنت أنظر إلى السيّدة «دو غيرمانت» وأصغي إليها كنت أبصر حينذاك، وأنا سجين عصر عينيها الدائم المطمئن، سماء من مقاطعة «إيل دو فرانس» أو «الشامبانيي» تمتد زرقاء مائلة وبها زاوية الميل نفسها التي كانت تتخذها لدى «سان لو».

هكذا، وبفضل هذه الثقافات المختلفة، كانت السيّدة «دو غيرمانت» تعبر في الآن نفسه عن أعرق الأرستقراطية الفرنسية، وبعد ذلك بكثير عن الطريقة التي ربّما استطاعت الدوقة «دو بروي» بها أن تتذوق «فيكتور هوغو» وتذمه في عهد ملكية تموز، وأخيراً عن ميل قوي إلى الأدب صادر عن «ميريميه» و«ميلاك». كانت أولى هذه الثقافات تروقي أفضل من الثانية وتعيّني أكثر منها على تعويض خيبة الرحلة والوصول إلى حيّ «سان جيرمان» هذا، وما أكثر اختلافه عمّا كنت قد ظننت، ولكنّي كنت أفضل الثانية على الثالثة. ففيمّا كانت السيّدة «دو غيرمانت» غير مانتية عن غير قصد تقريباً كانت نزعتها «البايرونية» (*). وحبّها لـ«دوماس» الإبن صادريّن عن ترو وقصد ولما كان هذا الحب نقيض حيّي، فقد كانت توفر لفكري الأدب حينما تخدثني عن حيّ «سان جيرمان» ولاتبدولي البتّة بمثل التصاقها الغبي بحيّ «سان جيرمان» إلا حينما

(*) نسبة إلى الكاتب المسرحي الفرنسي Pailleron

تحدثني في الأدب.

صاحت السيدة «داراجون» وقد هزتها الأبيات الأخيرة:

«إن لبقايا القلب هذه ترابها أيضاً!».

وقالت للسيد «دو غيرمانت»:

«ينبغي أن تكتب لي ذلك على مروحتي ياسيدي».

فقالَت الأميرة «دو بارما» للسيدة «دو غيرمانت»: «بالمرأة المسكينة، إنها تبعث الأسى في نفسي».

— «لا، لا يرق قلب سيدي، فليست تنال إلا ما تستحق».

— «ولكن.... عفوك أن أقول ذلك لك أنت... ولكنها تحبه حقاً!».

— «لا، على الإطلاق، إنها عاجزة عن ذلك، تظن أنها تحبه كما تظن في هذه اللحظة أنها تروي لـ«فيكتور هوغو» لأنها تذكر بيتاً لـ«موسيه». وأضافت الدوقة بلهجة حزينة: «خذي، ليس من قد يهزه شعور صادق أكثر مني: ولكنني سأقدم لك مثلاً. البارحة أقامت الدنيا وأقعدتها على رأس «بازان»، وربما ظننت، سموك، أنها فعلت لأنه يحب أخريات غيرها، لأنه لم يعد يحبها. لا على الإطلاق. لقد فعلت لأنه لا يريد أن يقدم أبناءها في نادي الفروسية! أفتري سيدي أن تلك فعلة عاشقة؟» وأضافت السيدة «دو غيرمانت» تتوخي الدقة «لا! سوف أقول لك أكثر من ذلك، إنها امرأة نادرة في قلة إحساسها».

كان السيد «دو غيرمانت» أثناء ذلك قد أصغى، والعين يلتصق فيها الرضى، إلى زوجته وهي تتحدث عن «فيكتور هوغو» دون سابق استعداد وتروي له بضعة أبيات. وعبثاً يتفق له أن تزعجه الدوقة فقد كان فخوراً بها في مثل هذه اللحظات. «أوريان» رائعة حقاً. تستطيع التحدث في كل شيء وقد قرأت كل شيء لم يكن بوسعها أن تحزر أن الحديث سيتناول «فيكتور هوغو» في هذا المساء. إنها على استعداد أيّاً كان الموضوع الذي يطرح عليها وتستطيع مجابهة أكثرهم علماً. لا بد أنها خلبت لب هذا الشاب».

وأضافت السيدة «دو غيرمانت» تقول: «لكن هيّا نغير الحديث لأنها سريعة الغضب». وأردفت قائلة وهي تلتفت إلي: «لا بد أنك تجدني من طراز قديم جداً، فأني أعلم أن حب الأفكار في الشعر يعتبر اليوم ضعفاً شأن الشعر الذي يحوي فكراً».

— «من طراز قديم؟» تقول الأميرة «دو بارما» بالدهشة الخفيفة التي كانت تسببها لها هذه الموجة الجديدة التي لم تكن تتوقعها، مع أنها تعلم أن حديث الدوقة «دو غيرمانت» يخفي لها دوماً هذه الصدمات المتلاحقة اللذيذة وهذا الرعب الذي يقطع الأنفاس وهذا التعب الصحي الذي كانت تفكر بعده على نحو غريزي بضرورة غسل قدميها في حجرة حمام والسير بسرعة للحصول على ردة الفعل».

وقالت السيدة «دو بريساك»: «لا يا أوريان فيما يخصني، فلست غاضبة من «فيكتور هوغو» لأنه يملك

أفكاراً، بل على العكس تماماً، وإنّما للبحث عنها في كلّ ما كان فظيماً. فهو الذي عوّدنا في الأساس على القباحة في الأدب. إنّ في الحياة ما يكفي من قباحات، فلماذا لا ننساها على الأقلّ حينما نقرأ؟ إنّ المشهد المؤلم الذي ربّما أشحنا بوجهنا عنه في الحياة، ذلك مايجتذب «فيكتور هوغو».

وسألت الأميرة «دو بارما» قائلة: «ليس فيكتور هوغو بقدر واقعية «زولا» مع ذلك؟».

ولم يحرك اسم «زولا» عضلة في وجه السيّد «دو بوتريي». لقد كان عداء اللواء لـ«دريفوس» أعمق من أن يحاول التعبير عنه. كان سكوته اللطيف حينما يطرقون تلك الموضوعات يهزّ مشاعر غير العارفين بالأمر بالركة نفسها التي يديها كاهن إذ يتجنّب التحدّث إليك عن واجباتك الدينية، ورجل مال إذ يجهد ألا يوصي المشروعات التي يديرها، وجبار حين يدي اللطف ولا يوجّه إليك اللكمات.

وقالت لي السيّد «دو فارامبون» بلهجة العارف، وكانت وصيفة شرف للأميرة «دو بارما» وامرأة ممتازة ولكنّها محدودة الأفق وقد وفّرتها للأميرة «دو بارما» فيما مضى والدة الدوق: «أعلم أنّك قريب أمير البحر «جوريان دو لاغرافير» ولم تكن بعد قد وجهت إليّ الحديث ولم أستطع البتّة فيما بعد، على الرغم من تعنيفات الأميرة «دوبارما» واحتجاجاتي الخاصة، أن أترع من ذهنها فكرة أنّ لي صلة آية كانت بأمر البحر عضو الأكاديمية الذي كان مجهولاً تماماً عندي لقد كان في إصرار شرف الأميرة «دو بارما» أن تبصر في شخصي ابن أخ لأمير البحر «جوريان دو لاغرافير» ما يثير الضحك إلى حدّ الابتذال. ولكن الخطأ الذي كانت ترتكبه لم يكن سوى النموذج اليابس المبالغ فيه لأخطاء ما أكثرها أقلّ وزناً وأفضل تنوعاً غير مقصودة أو متعمدة ترافق اسمنا في البطاقة التي يخطها المجتمع فيما يتعلق بنا. وإنّي أذكر أنّ صديقاً لآل «غيرمانت» أبدى رغبته الشديدة في التعرف بيّ وقدم لي بمنزلة السبب أنني كنت أعرف أتمّ المعرفة ابنة عمّه السيّد «دو شوسغرو»، إنّها فائنة وشجّك حباً جمّاً» وتوخيت الدقّة، دونما جدوى، في الإلحاح على أن ثمة خطأ وأنّي ما كنت أعرف السيّد «دو شوسغرو»: «أنت تعرف أختها إذاً، والأمر واحد. لقد التقت بك في سكوتلندا». ولم أكن ذهبت قط إلى سكوتلندا وتكلّفت عبثاً عناء تنبيه معذّني إلى الأمر بداعي النزاهة. كانت السيّد «دو شوسغرو» نفسها هي التي قالت إنّها تعرفني وكانت تعتقد ذلك دونما شكّ عن حسن نيّة من جرّاء التباس سابق لأنها لم تنفك تمدّ لي يدها بعد ذلك حينما كانت تشاهدني. وقصارى القول إنه لما كان الوسط الذي أرثاه هو بالضبط وسط السيّد «دو شو سغرو» فإنّ نواضعي ما كان ليغني شيئاً أمّا أن أكون من آلاف عائلة «شو سغرو» فضلالة بالمعنى الحرفي للكلمة ولكنّه على الصعيد الاجتماعي مكافئ لمكانتي، إن أمكن التحدّث عن مكانة بالنسبة إلى من كان يمثل شبّابي. فعبثاً لا ينقل إليّ صديق آل «غيرمانت» سوى أمور خاطئة عني فإنّه لم يخفّض ولا رفع من قدرتي (على الصعيد الاجتماعي) في الفكرة التي لم ينفك يحملها عني. ومجمل القول أن سأم العيش الدائم داخل الشخصية نفسها إنّما يتبدّد برهة، بالنسبة إلى الذين لايتصنّعون أدورهم، كما لو يعتلي المرء خشبة المسرح حينما يكون شخص آخر فكرة زائفة عنك ويظنّ أنّنا على علاقة صداقة بسيّدة لانعرفها ويسجّل علينا أنّنا عرفناها في أثناء رحلة بديعة لم نقم بها البتّة. إنّها أخطاء مكثّرة ولطيفة حينما لا تتسم بالتصلب الذي لايلين والذي يميز ذاك الذي كانت ترتكبه وارتكبته طوال حياتها كلها، على الرغم من صنوف إنكار، وصيغة الشرف البلهاء لدى السيّد «دو بارما»، الوصيفة التي ترسخ أبداً في اعتقادها أنّي

كنت قريب أمير البحر المملّ «جوريان دو لاغرافير». وقال لي الدوق: «ليست قوية جداً، ثم إنه لا يلزمها الكثير من الشراب المراق وأظنها قليلاً تحت وطأة «باخوس»^(*). ولم تكن السيّدة «دو فارامبون» شربت بالحقيقة غير الماء ولكنّ الدوق كان يعشق استخدام عباراته المفضّلة.

— «ولكن «زولا» ليس واقعياً ياسيّدتي! إنه شاعر!» تقول السيّدة «دو غيرمانت» مستلهمة الدراسات النقدية التي سبق أن قرأتها في هذه السنوات الأخيرة وموائمة بينها وبين موهبتها الخاصّة. أمّا الأميرة «دو بارما» التي طاب لها مازحهما من أمور حتّى الآن خلال الجوّ الفكريّ الذي لفّها هذا المساء، وهو جوّ مضطرب فيما يخصّها، والذي حكمت أنّه لابدّ سيفيدها على نحو خاصّ، وإذ استسلمت تتقاذفها المفارقات التي كانت تندفق الواحدة تلو الأخرى، فقد قفرت إزاء هذه الأخيرة، وهي أكثر حسامة من الأخرى، مخافة أن تسقط أرضاً وقالت بصوت متقطع وكأنّها تفقد أنفاسها:

— «زولا» شاعر! فأجابت الدوقة ضاحكة وقد أبهجها أثر الاختناق هذا: «أجل، وتلاحظني سمّوك كيف يُعلي قدر كلّ ما يلمسه. سوف تقولين لي إنه لا يلمس بالضبط إلّا ما.... يجلب السعد! ولكنه يجعل منه شيئاً مترامي الحدود. إن في زبالتة طابع الملحمة! إنه هوميروس الأقذار! وليس يملك ما يكفي من حروف كبيرة ليخطّ بها كلمة «كامبرون»^(***).

كانت الأميرة مغتبطة على الرغم من التعب العظيم الذي أخذت تحسّ به، فلم يسبق لها قطّ أن ألقت نفسها أفضل حالاً. وما كانت لتستبدل إقامة في «شون برون»، مع أنّها الأمر الوحيد الذي يدغدغ مشاعرها، بهذه الأعشية الرائعة لدى السيّدة «دو غيرمانت» والتي توليها نشاطاً من جرّاء ما يداخلها من ظرف كبير.

وصاحت السيّدة «دار باجون» قائلة: «إنّه يكتبها بحرف C كبير» وتجيّب السيّدة «دو غيرمانت»: «بل بحرف M كبير فيما أعتقد يا صغيرتي»، ولا يفوتها أن تبادل زوجها نظرة مرحة تقول بها: «ما أشدّ غباءها!» ثمّ قالت لي السيّدة «دو غيرمانت»: «إليك بالضبط مثلاً»، وهي تثبت عليّ نظرة مشرقة عذبة ولأنّها كانت تبغي كربة بيت كاملة أن تظهر لي علمها حول الفنّان الذي كان يهمني على نحو خاص وتوفر لي فرصة إظهار علمي إن دعت الحاجة، قالت لي وهي تحرك قليلاً مروحيتها التي من ريش لشدة ماتعي في تلك اللحظة أنّها تؤدي على أنّم وجه واجبات الضيافة وتومع كذلك، كي لا تخل بأيّ منها، ليقدموا لي مرّة أخرى هليوئاً بالمرق الهلاميّ، «إليك مثلاً»، إنّي أعتقد بالضبط أنّ «زولا» كتب دراسة حول «إيلستير» هذا الرسّام الذي رحت منذ قليل تتأمل لوحاته، وتضيف قولها: «وهي الوحيدة التي أحبّها له على أي حال».

كان في الواقع تكره رسم «إيلستير» ولكنها ترى في كلّ ما تملك في بيتها ميزة فريدة. وسألت السيّد «دو غيرمانت» إن كان يعرف اسم السيّد الذي يظهر بقبعة رسمية في اللوحة الشعبية والذي عرفت أنّه هو

(*) إله الخمر لدى قدماء الرومان.

(**) Cambronne جنرال فرنسي من القرن التاسع عشر عرف بإكثاره من استخدام كلمة merde بالفرنسية وتقابله بالعربية كلمة ط.... حتى درج الناس على استخدام اسمه بدلا من الكلمة تلك وهو ما يفسر قول الدوقة فيما بعد.

نفسه الذي كانت عائلة «غير مانت» تملك رسمه بلباسه الرسمي إلى جانب تلك تماماً ويعود تاريخه تقريباً إلى تلك الفترة نفسها التي لم تكن شخصية «إيلستير» قد برزت بعد فيها بروزاً تاماً وتستلهم «مانيه» قليلاً. فأجابني: «يا لهي، أعلم أنه ليس بالرجل المجهول ولا هو معتوه في اختصاصه، ولكنني على خصام مع الأسماء. إنه ههنا، على رأس لساني، إنه السيد... السيد... لا أهمية لذلك على أية حال، فلم أعد أعرف. قد ينبشك «سوان» عن الأمر فهو الذي حمل السيدة «دو غير مانت» على شراء هذه البضاعة، وهي أبداً بالغة اللطف وبها أبداً فرط خشية تكدير الناس إن هي رفضت أمراً ما. وإني أظن، وأقولها فيما بيننا، أننا ابتلينا بالرديء من اللوحات. ما يمكنني أن أقوله لك أن هذا الرجل كان بالنسبة إلي «إيلستير» بمثابة مناصر لفئة وقد روج له وغالباً ماجنبه خطر الضائقة المالية بأن أوصاه على لوحات. وقد رسمه بداعي الامتنان - إن كنت تسمي ذلك امتناناً، إذ الأمر رهن بالأذواق - في ذلك المكان حيث يخلف فيك أثراً غريباً. قد يكون جبراً طويلاً الباع ولكنه يجهل بالبداية في أية مناسبات يعتمر المرء قبعة رسمية. وإنه ليبدو بقبعته، وسط البنات الحاسرات وكأنه كاتب عدل صغير من الريف لعبت الخمرة برأسه. ولكن، قل لي، تبدو لي مغرماً تماماً بهذه اللوحات. فلو أنني عرفت ذلك لجمعت المعلومات لأجييك. ولا ضروره بأية حال أن تهتم كثيراً للغوص في رسم «إيلستير» كما لو تناول الأمر لوحة «النبع» لـ «أنغر» أو لوحة «أولاد إدوار» لـ «بول دولا روش». إن ما تقدره فيها أن الأمور تمت ملاحظتها على نحو دقيق وهي مسلية وعليها مسحة باريزية، ثم تمر مرور الكرام. ولا حاجة بك أن تكون واسع الاطلاع لتشاهد ذلك. أعرف تماماً أنها محض رسوم بسيطة وسريعة ولكنني لا أرى أنه صرف فيها ما يكفي من جهد. وقد بلغت الجرة بـ «سوان» أن ابتغى حملنا على شراء لوحة «حزمة هليون» ؛ بل هي ظلت ههنا بضعة أيام. لم يكن في اللوحة سوى ذلك، حزمة هليون شبيه تماماً بهذا الذي تبتلعه. ولكنني أنا رفضت ابتلاع هليون السيد «إيلستير». كان يطالب بثلاث مئة فرنك. ثلاث مئة فرنك لحزمة هليون! عشرون فرنكاً، هذا كل ما تساوية. حتى البواكير منها! لقد وجدت ذلك صعب التصديق. فما أن يضيف شخصيات إلى هذه الأشياء حتى يضحى لها جانب مبتذل تشاؤمي لا يروقني. وإني أعجب لرؤية فكر مرهف وعقل متميز على نحو ما أنت عليه بحب ذلك».

وقالت الدوقة التي لم تكن تحب أن ينتقص ما تحويه صالاتها: «ولكنني لا أدري لماذا تقول ذلك يا «بازان» ما أبعدني أن أقبل كل شيء دون تمييز في لوحات «إيلستير»، ففيها الغث والسمين، ولكنّها على الدوام لا تخلو من موهبة. وينبغي الإقرار بأن اللوحات التي ابتعتها نادرة الجمال».

- «أوربان»، إنني أفضل ألف مرة، في ما كان من هذا القبيل، دراسة السيد «فيبير» الصغيرة التي شاهدناها في معرض الرسامين المائتين. إنها لأشياء إن شئت وربما وسعتها قبضة اليد، ولكن فيها ذكاء حتى أصغر خطأ فيها: إن هذا المرسل المهزول الوسخ في حضرة هذا الحبر الناعم الذي يلعب كلبه الصغر، إن ذلك لقصيدة صغيرة صيغت من رهافة وحتى من عمق».

وقالت لي الدوقة: «أظنك تعرف السيد «إيلستير». إن الرجل ممتع».

وقال الدوق: «إنه ذكيّ وبدهشك حينما تتحدث إليه أن يكون رسمه عادياً إلى هذا الحد».

- «إنه أكثر من ذكيّ، بل هو ظريف إلى حد ما»، تقل الدوقة بلهجة العارف الذواق المطلع على

بواطن الأمور.

وسألت الأميرة «دو بارما» قائلة: «ألم يكن قد باشر رسماً لك يا «أوريان»؟

فأجابت السيِّدة «دو غير مانت»: «بلى، باللون الأحمر السرطاني. وما ذلك ما سيحمل اسمه إلى الأجيال القادمة. إنه شيء مقيت وكان «بازان» ينوي إتلافه».

كانت السيِّدة «دو غير مانت» كثيراً ما تقول هذه الجملة، ولكنَّ تقييمها كان مغايراً في مرَّات أخرى: «لست أحبَّ فنَّه في الرسم ولكنَّه أنجز فيما مضى رسماً جميلاً لي». كان أحد هذين الرأيين يوجِّه عادة إلى الأشخاص الذين يحدثون الدوقة عن صورتها والآخر لمن لا يحدثونها عنها وهي راغبة أن تطلعهم على وجودها. فالأوَّل كانت تستوحيه من غنجها والثاني من غرورها.

وقالت الأميرة «دو بارما» بسداجة: «ينجز شيئاً مقيتاً في رسم لك! إنه ليس إذ ذاك رسماً، إنه كذبة؛ فأنا التي تكاد لاندري كيف تمسك ريشة إنَّما يبدو لي أنَّني لو رسمتك لأنجزت رائعة فنيَّة بمحض تمثيل ما أرى».

وقالت السيِّدة «دو غير مانت»: «إنَّه يراني على الأرجح كما أرى نفسي، أعني خلواً من الجاذبيَّة»، قالت بالنظرة الحزينة والمتواضعة والمغناجعة في آن واحد والتي بدت لها أكثر ما يكون من شأنها أن تظهرها على غير ما أظهرها «إيلستير».

وقال الدوق: «لا بدَّ أن هذا الرسم لا يسوء في عيني السيِّدة «دو غالاردون».

وسألت الأميرة «دو بارما» التي كانت تعلم أن السيِّدة «دو غير مانت» تحتقر ابنة عمِّها إلى مالا حدود: «ألأنَّها غير عارفة بأمر الرسم؟ ولكنَّها امرأة طيبة جداً، أليس كذلك؟» قالت. فعلت وجه الدوق دهشة عميقة.

— «ويحك يا «بازان»، ألا ترى أنَّ الأميرة تسخر منك؟» (ولم يكن ذلك يخطر على بال الأميرة). وأردفت السيِّدة «دو غير مانت» تقول: «إنَّها تعلم مثلما تعلم تماماً أن «غالاردون» الصغيرة عجوز مشاكسة»، وكانت مفرداتها، وقد اقتصرت عادة على سائر هذه العبارات القديمة، لذيدة كتلك الأطباق التي يمكن اكتشافها في كتب «بامبي» الرائعة ولكنَّها أضحت في الواقع شديدة الندرة والتي تكون الجمِّدات فيها والزبدة والعصير والفظائر حقيقيَّة ولا تحوي أيَّ خليط آخر بل التي جيء لها بالملح من ملاحات بريتانيه: فقد كنت تحسُّ في النبرة واختيار المفردات أنَّ أساس حديث الدوقة يصدر مباشرة عن «غير مانت». بذلك كانت الدوقة تختلف اختلافاً عميقاً عن ابن أختها «سان لو» الذي ازدحم رأسه بالكثير من الأفكار والعبارات الجديدة. فمن الصعب حينما تقلِّقك أفكار «كنت» وحنين «بودليو» أن تكتب الفرنسية الحلوة التي استخدمها «هنري الرابع»، حتَّى إنَّ صفاء لغة الدوقة نفسه إنَّما كان علامة حصر وأنَّ العقل والعاطفة قد ظلَّا لديها مغلقين دون جميع صنوف التجديد. في هذه النقطة أيضاً كان فكر السيِّدة «دو غير مانت» يروقني بالضبط بما يستبعده (وما يشكِّل بالدقَّة مادَّة تفكيري الخاص) وبكلِّ ما استطاع من جراء ذلك نفسه أن يحافظ عليه، هذه الحيوية

الجذابة في الأجسام المرنة التي لم يفسدها أي تفكير مرهق أو هم خلقي أو اضطراب عصبي. كان فكرها الذي تشكل قبل فكري بكثير، كان في نظري المرادف لما سبق أن قدمته لي مشية فتيات الزمرة الصغيرة على شاطئ البحر. كانت السيدة «دو غير مانت» تعرض لناظري، وقد روضتها وأخضعتها الدماء والاحترام الذي تبديه إزاء القيم الروحية، القوة والفتنة لدى فتاة صغيرة قاسية القلب من أرستقراطي ضواحي «كومبريه» كانت، منذ طفولتها، تمتطي الجياد وتقسم ظهور الهررة وتنزع عيون الأرناب، ولعلها كانت استطاعت، تماماً مثلما لبثت زهرة فاضلة، أن تكون قبل سنوات ليست بالقليلة، ولشدة ما تمتاز بصنوف الأناقة نفسها، ألح عشيقه للأثير «دو ساغان». بيد أنها كانت عاجزة عن إدراك ما بحثت عنه في شخصها - السحر الكامن في اسم «غير مانت» - والقليل الذي لقيته فيه، بقية قروية من آل «غير مانت». كانت علاقتنا قائمة على أساس سوء تفاهم لا يمكن إلا أن يبرز ما أن تذهب صنوف تقديره، بدلاً من أن تتخذ طريقها إلى المرأة المتفوقة نسبياً التي تظن أنها تمثلها، باتجاه أية امرأة أخرى بمثل ضحالتها وينبث منها السحر اللا متمعد نفسه. وسوء التفاهم هذا طبيعي جداً وسوف يظل قائماً أبداً بين شاب حالم وامرأة من دنيا المجتمعات ولكنه يبعث في نفسه اضطراباً عميقاً مادام لم يتعرف بعد طبيعة قدراته التخيلية ولم يسلم بخيبات الأمل المحتملة التي لابد سيعانيها بالقرب من الناس، شأنه في المسرح والسفر وحتى في الحب.

حينما أعلن السيد «دو غير مانت» (بنتيجه هليون «إيلستر» والهليون الذي قدم لي منذ قليل بعد الفروج المعد بمرق العجل والدجاج) أن الهليون الأخضر الذي ينبت في الهواء الطلق والذي «لا يملك صلابه شقيقه المذهلة»، على حد غريب القول الذي ينقله إلينا المؤلف الظريف الذي يوقع باسم «أ. دو كليرمون تونير»، يجدر أن يؤكل مع البيض أجاب السيد «دو بريوتيه» قائلاً: «الأمر الذي يروق بعضهم ويسوء البعض الآخر والعكس بالعكس. ففي مقاطعة «كانتون» في الصين لا يمكن أن يقدموا لك طبقاً أطيب مذاقاً من بيض الأرطلاق الفاسد تماماً». ولم يكن السيد «دو بريوتيه»، وهو مؤلف دراسة على قوم المورمون ظهرت في «مجلة العالمين»، لم يكن يخالف غير أكثر الأوساط أرستقراطية، ومن بينها فحسب تلك التي تتمتع ببعض الشهرة في دنيا الذكاء، حتى ليعرف الناس من جرأ حضوره، المتواصل منه على الأقل، إلى منزل امرأة إن كانت هذه الأخيرة تملك صالة. كان يدعي أنه يكره دنيا المجتمعات ويؤكد لكل دوقه على حدة أنه إنما يسعى إليها نظراً لظرفها. وكن جميعهن واثقات من ذلك. وفي كل مرة كان يسلم، والأسى يعتصر فؤاده، بالذهاب إلى أمسية كبرى لدى الأميرة «دوبارما» كان يستدعيهن جميعهن كي يشجعهن ولا يظهر هكذا إلا وسط مجموعة أليفة. وكما يظل صيته كمتقف في منجى من واجباته المجتمعية كان يمضي، مطبقاً بذلك بعض قواعد مأثورة من روح آل «غير مانت»، بصحبة سيدات أنيقات ليقوم برحلات علمية طويلة في فترة الحفلات الراقصة وحينما يأخذ شخص متحلق، وبالتالي لامرکز له بعد، في التردد على كل مكان، كان يصبر إصراراً عنيفاً على رفض التعرّف به وألا يسمح بأن يقدم له. كان كرهه للمتحدثين نابعا من سنوبيته ولكنه يحمل السذج، يعني سائر الناس، على الاعتقاد بأنه خلو منها.

وصاحت الدوقة «دو غير مانت» قائلة: «بابال» يعرف دوماً كل شيء. إن بلدًا تود فيه التأكد من أن بائع الألبان يبيعك بيضاً فاسداً تماماً، بيضاً من عام المذنب، إنما أجده رائعا. وأراني من هنا أغمس فيه كمعكتي المطلية بالزبدة. وينبغي أن أقل إنه يتفق لدى العمة «مادلين» (السيدة «دو فيلاريزيس») أن يقدموا أشياء

متفسخة وحتى بيضاً (وإذ أخذت السيّد «دارجون» تحتج): ولكن عجباً يا «فيلي» إنك تعرفين ذلك تماماً كما أعرفه. الصوص مذ ذاك في البيضة. ولست حتى أعلم كيف يقودهم العقل إلى المكوث هناك. فليست عجة، إنها خمّ دجاج ولكننا لم يشر إلى ذلك على الأقل في لائحة الطعام. حسناً فعلت أن لم تجيئي للعشاء قبل البارحة فقد كان ثمة سمكة شبوط بحمض الفينيك! ولم تكن تبدو مائدة ممدودة بل دائرة أمراض سارية. حقاً إن «نوربوا» يبلغ بالإخلاص حدّ البطولة: لقد عاد فصبّ منها!.

- «أظنّ أنني رأيتك في منزلها يوم حملت على السيّد «بلوك» (ولم يلفظ السيّد «دو غير مانت» اسم «بلوك» بالكاف بل بالخاء كما هي الحال في الألمانية ربما ليضفي على اسم يهودي كهذا سمة أجنبية أكبر) الذي قال عن شاعر لم أعد أدري من كان إنه رائع. وعبثاً كان «شاتيلرو» يضرب على عظم ساق «بلوك» فلم يكن هذا الأخير يفهم وفي ظنه أن همزات ركبة ابن أخي موجهة لامرأة شابة كانت تلاصقه تماماً» (وهنا كست حمرة طفيفة وجه السيّد «دو غير مانت»). ولم يتبين أنه يزعم عمتنا «بروائعه» التي يوزّعها ذات اليمين وذات الشمال. وقصارى القول إن العمّة «مادلين»، وليست قصيرة لسان، ردّت عليه قائلة: «ويحك ياسيد ماذا عساك تبقي إذن للسيّد «دو بوسويه»؟ «وكان السيّد «دو غير مانت» يحسب أن لفظة السيّد والأداة قبل اسم مشهور كانا بالضرورة مطبوعين بطابع العهد السابق» (*). «كان ذلك في غاية الامتاع».

- «فهم أجاب السيّد «بلوخ» هذا؟ «تقول السيّد «دو غير مانت» ساهية وقد ظنّت من واجبها، إذ نضب معين تفردّها في تلك اللحظة، أن تقلّد لفظ زوجها الألماني».

- «آه! أؤكد لك أن السيّد «بلوك» لم ينتظر، ولا يزال يجري».

وقالت لي السيدة «دو غير مانت» بلهجة واضحة: «أجل، إني أذكر تماماً أنني رأيتك في ذلك اليوم»، وكأنما كان في تلك الذكرى فيما يخصها أمر ينبغي أن تغتبط له نفسي كثيراً. «الأمور على الدوام مسلية جداً في منزل عمتي. كان بودّي في الأمسية الأخيرة التي التقيت بك بالضبط فيها أن أسألك إن لم يكن ذاك السيّد العجوز الذي مرّ بالقرب منّا «فرانسوا كوييه». لا بدّ أنك تعرف جميع الأسماء»، تقول وهي تحسدني صديقة علاقتي الشعرية وكذلك بداعي التلطف إزائي وكما تزيد في نظر مدعويها من قدر شاب طويل الباع إلى هذا الحدّ في الأدب. وأكدت للدوقة أنني لم أراً من الوجوه المشهورة في أمسية السيّد «دو فيلباريزيس». فقالت السيّد «دو غير مانت» بلهجة طائشة: «عجباً عجباً! لم يكن ثمة كتاب كبار! إنك تذهلني مع أن كان ثمة هيئات لاتطاق!» تقول فتقرّ بذلك أن إجلالها لأهل الأدب وازدراءها لدنيا المجتمعات كانا أكثر سطحية مما تقول بل ربما مما تعتقد.

كنت أتذكر بوضوح تام ذلك المساء بسبب حادثة غير ذات شأن البتة. فقد قدّمت السيّد «دو فيلباريزيس» «بلوك» للسيّد «ألفونس دو روتشيلد» لكن رفيقي لم يسمع الاسم ولم يجب، وقد ظنّ الأمر أمر

(*) Bossuet مطران ذائع الصيت من القرن السابع عشر، وبحسب السيّد «دو غير مانت» أنه يزيد مكانة باستخدام كلمة السيّد بالإضافة إلى الأداة «دو» التي تميز أسماء النبلاء.

إنكليزية عجوز مجنونة بعض الشيء، إلا بكلمات متقطعة على الأقوال المسهبة التي جادت بها جميلة الجميلات السابقة حينما قالت السيِّدة «دو فيلباريزيس»، وهي تقدِّمها لآخر غيره، بوضوح شديد هذه المرَّة: «البارونة ألفونس دو روتشيلد». حينئذ انصبَّ في شرايين «بلوك» فجأة ودفعة واحدة عدد كبير من أفكار الملايين والمهاجرة التي كان ينبغي أن يقوم بتفريغها بحذر إلى حدِّ أنه أصيب وكأنما بطعنة في القلب وحمى في الدماغ وصاح في حضرة السيِّدة العجوز اللطيفة: «لو أني عرفت!» صبيحة حال غباؤها دون أن ينام على مدى ثمانية أيام. كانت كلمة «بلوك» تلك قليلة الشأن ولكنِّي أتذكرها بمثابة البرهان على أننا نقول أحياناً في حياتنا ما نفكر فيه وذلك تحت وطأة انفعال غير عادي..

وقالت الأميرة «دو بارما»: «أعتقد أنَّ السيِّدة «دو فيلباريزيس» ليست... أخلاقية تماماً»، وكانت تعلم أنَّهم لا يرتادون منزل عمَّة الدوقة وترى، انطلاقاً ممَّا أقدمت هذه على قوله، أنه يمكن التحدث بحرية عن ذلك. ولكنها أضافت تقول، وقد بدا أنَّ السيِّدة «دو غير مانت» لاتوافقها:

— «ولكن الذكاء كفيف يتمير كلُّ شيء على هذا المستوى».

فأجابت الدوقة: «إنَّك تخملين عن عمَّتي الفكرة التي يحملها الناس بعامة وهي باختصار القول مغلوطة تماماً. ذلك بالضبط ما كان يقوله لي «ميميه» وليس بأبعد من البارحة». (وكست الحمرة وجهها وغامت عينها من جرَّاء ذكرى مجهولة لدي. وافترضت أن السيِّدة «دو شارلوس» طلب إليها أن تحجم عن دعوتي مثلما سبق أن رجاني بواسطة «روبير» ألا أذهب إلى بيتها. وخیل إليَّ أنَّ الحمرة — وسرها خاف عليَّ بأية حال— التي كست وجه الدوق وهو يتحدث عن شقيقه لا يمكن ردِّها إلى السبب نفسه). «مسكينة عمَّتي! سوف تلازمها سمعة امرأة من العهد السابق ذات فكر خلَّاب، وتهتِك لا ضابط له، وليس من عقل أكثر برجوازية وأوفر جدية وأقلَّ رونقاً. سوف تعد حامية للفنون، الأمر الذي يعني أنَّها كانت عشيقة رسَّام كبير ولكنه لم يستطع في يوم أن يفهمها ماعسى تكون اللوحة. أمَّا فيما يخصَّ حياتها فلم تكن امرأة فاسدة، وما أبعد أن تكون، بل كانت معدة للزواج وقد ولدت تطبعها الزوجية إلى حدِّ أنَّها إذ لم تستطع الحفاظ على الزوج لم تقدم على علاقة إلا أخذتها مأخذ الجدِّ كما لو كانت قرأناً شرعياً تصعبه صنوف الانفعال نفسها وصنوف الغضب نفسها والإخلاص نفسه. ولا حظي أنَّها أحياناً من أكثرها صدقاً، فثمة باختصار القول عدد يأبى العزاء أكبر بين العشاق منه بين الأزواج».

— «ومع ذلك فهياً انظري يا «أوريان» إلى سلفك «بالاميد» الذي تتحدثين عنه، فليس من عشيقة يمكن أن تخلم بمن ييكها على غرار ماتم للسيِّدة «دو شارلوس» المسكينة».

فأجابت الدوقة: «فلتسمحي سمَّوك ألا أكون تماماً من رأيك. ليس يحبُّ الجميع أن ييُكوَّ بالطريقة نفسها فلنكل ميوه».

— «ولكنه خصَّها بتكريم حقيقي منذ وفاتها. صحيح أنَّ المرء يقدم أحياناً في سبيل الأموات على أمور ما كان ليقدم عليها في سبيل الأحياء».

فأجابت السيِّدة «دو غيرمانت» بلهجة حاملة كانت تناقض مقصدها المستهزئ: «أولا نذهب إلى ماتمهم

وهو مالا نفعله البتة من أجل الأحياء» (ونظر السيد «دو غيرمات» إلى السيد «دو بروتيه» على نحو ماهر وكأنما ليستثير ضحكك إزاء نظرف الدوقة). وأردفت السيدة «دو غيرمات» تقول: «بيد أنني اعترف بصراحة أن الطريقة التي أتمنى أن يبكي بها رجل أحبه ليست طريقه سلفي».

وتجهّم وجه الدوق، فما كان يحب أن تطلق امرأته أحكاماً كيفما تيسر ولاسيما بحق السيد «دو شارلوس»، وقال بلهجة خشنة متعالية: «أنت صعبة الإرضاء، فإن أسفه كان له أحسن الأثر لدى الجميع». لكنّ الدوقة كانت تبدي مع زوجها نوع الجساسة الذي يميّز المروحين أو أولئك الذين يعيشون مع مجنون ولا يخشون إغضابه:

– «بالطبع لا، ماذا عساك تريد، إنه له أحسن الأثر، لست أقول العكس، فهو يمضي كلّ يوم إلى المقبرة ليروي لها عن عدد الذين دعاهم إلى مائدة الغداء، وهو يأسف عليها أعظم الأسف، ولكن أسفه على ابنة عمّ، أسفه على جدّة، أسفه على شقيقة ليس ذلك حداد زوج. صحيح أنّهما كانا قديسين، الأمر الذي يجعل الحداد غير عاديّ بعض الشيء.» (كان السيد «دو غيرمات»، وقد ضاق بثرثرة زوجته، يثبت عليها بجمود مخيف حدقتين مشحونتين تماماً). وعادت الدوقة تقول: «وماذلك لأتناول بسوء «ميميه» المسكين الذي لم يكن، وأقولها بين قوسين، حرّاً هذا المساء، فأنّي أعترف بأنّه طيب مثلما لايتفق لأحد، إنه رائع ويمتاز بلطافة ويملك قلباً لايملك الرجال بعامة مثله، إنه قلب امرأة «ميميه» هذا».

فقاطعها السيد «دو غيرمات» بلهجة حادة: «ما تقولين محال، «ميميه» ليس على شيء من التخنّث وليس من هو أكثر رجولة منه». وعادت الدوقة تقول: «ولكنّي لا أقول لك إنه مخنّث أقلّ ما يكون التخنّث. إنهم على الأقلّ ما أقوله. أهذا الأخير، ما أن يظنّ أنّهم يغيغون المساس بشقيقه...»، تضيف قولها وهي تلتفت إلى الأميرة «دو بارما».

فقال الأميرة «دو بارما»: «ذلك لطيف جداً وبلدّ الأذن سماعه. فليس ما كان أجمل من أخوين متحابين، على نحو ماقد يفعل الكثيرون من طبقة الشعب، لأنك يمكن أن تنتمي بالدم إلى أسرة أمراء، وبالفكر إلى أسرة عاميّة جدّاً».

وقالت الأميرة: «بما أننا كنّا نتحدّث عن أسرتك يا «أوريان» فقد رأيت البارحة ابن اختك «سان لو»، وأظنّ أنّه يؤدّ أن يسألك خدمة».

وقطّب الدوق «دو غيرمات» حاجبه «الجريترى» (*)، فلم يكن يؤدّ حينما لا يحب أن يؤدّي خدمة أن تتكفل بها زوجته إذ يعلم أنّ الأمر واحد وأنّ الأشخاص الذين ربّما اضطرت أن تسألهم إيّاهما سوف يدوّنونها على حساب الزوجين المشترك كما لو طلبها الزوج بمفرده.

وقالت الدوقة: «لماذا لم يطلبها منّي بنفسه؟ فقد ظلّ البارحة ساعتين ههنا ويعلم الله إلى أي حدّ كان

(*) منبة إلى جريتر كبير آلهة الرومان.

مملأ. قد لا يكون أكثر غباءً من غيره لو عرف مثل العديد من رجال المجتمعات كيف يظلّ أبه. ولكننا قشرة العلم هذه هي المريعة. إنه يودّ أن يكون مفتوح العقل... مفتوح العقل على جميع الأمور التي لا يدركها. إنه يحدثك عن المغرب وذلك أمر فظيع».

فقال الأمير «دوفوا»: «لا يريد الرجوع إلى هناك بسبب «راحيل».

فقاطعه السيد «دوبريوني» قائلاً: «ولكن القطيعة وقعت بينهما».

وأجاب الأمير «دوفوا» الذي كان يحبّ نشر جميع الشائعات التي من شأنها أن تعطلّ زواج «روبير» والذي كان يمكن أن تضلّله جميع المعادلات المتقطعة لعلاقة قضى عليها بالحقيقة: «إن القطيعة بينهما سيرة إلى حدّ آتت لقيتها منذ يومين في شقة «روبير» الخاصة وأؤكد لك أنّهما لم يظهرهما بمظهر المتخاصمين».

- «راحيل هذه حدثتني عنك، أتت أراها هكذا عرضاً في الصباح في محلّة الشانزليزيه، وهي نوع من الفتاة الطائشة العقل مثلما تقول، وما تدعوه بالمتطرقة وضرب من «غادة الكاميليا»، بالمعنى المجازي طبعاً. كانت تلك المقالة تردني على لسان الأمير «فون» الذي كان يهيمّه الظهور بمظهر المحيط بالأدب الفرنسي وبالظرافات الباريزية».

وصاحت الأميرة منتهزة على عجل هذه القرينة: «بالضبط، كان ذلك بصدد المغرب...».

فسأل السيد «دو غيرمانت» بلهجة صارمة: «وماذا عساه يبغى بالنسبة إلى المغرب؟ إن «أوريان» لا تستطيع شيئاً على الإطلاق في هذا المجال، وهو يعرف ذلك تماماً».

وتابعت السيّد «دو غيرمانت» تقول: «يظنّ أنه اخترع الإستراتيجية، ثم إنه يستخدم كلمات مستحيلة لأدنى الأمور، الأمر الذي لا يحول دون زرعه لطخات الجبر في رسائله. فقد قال ذاك اليوم إنه أكل بطاطا «فاقة» ووجد مقصورة «فاقة» للإيجار».

وزاد الدوقة فقال: «وبتكلم اللاتينية».

فسألت الأميرة: «كيف ذلك، اللاتينية؟».

- «بشرفي! فلتسأل سيّدتي «أوريان» إن كنت مبالغاً».

- «كيف ذلك ياسيّدتي، لقد قال في ذلك اليوم في جملة واحدة ودفعة واحدة: «لست أعرف مثلاً على Sic transit gloria» (هكذا يزول مجد العالم) أوقع في النفس؛ وإني أقول الجملة لسموك لأننا توصلنا بعد عشرين سؤالاً وباللجوء إلى اللسانيين إلى استعادتها، ولكن «روبير» قذف بذلك دون أن يلتقط أنفاسه وكاد المرء لا يستطيع أن يميّز أن ثمة جملة لاتينية، وكان يبدو وكأنه شخصية من مسرحية «المريض بالوهم»! وكلّ ذلك كان ينطبق على موت امبراطورة النمسا!».

وصاحت الأميرة قائلة: «يا للمرأة المسكينة! ما أروعها مخلوقة كانت!».

فأجابت الدوقة: «أجل، مع ذرة من الجنون وذرة من الحمق، ولكنها كانت امرأة بالغة الطيبة ومجنونة محبة بالغة اللطف، على أنني لم أفهم قط لماذا لم تشتت في يوم طقم أسنان ثابت، فقد كان طقمها يفلت دوماً قبل نهاية جملها فتضطر أن تقطعها كي لا تبتلعها».

وقال الأمير «فون»: «راحيل هذه حدثتني عنك وقالت لي إن «سان لو» العزيز يعشقك ويفضلك حتى عليها»، قال، وهو يأكل كالغول، قرمزي اللون وضحكته الدائمة تكشف عن سائر أسنانه.

فأجبت قائلاً: «هي لابد منّي إذن وتكرهني».

– «لا على الإطلاق، لقد أننت عليك كثيراً أمامي؛ ربما غارت عشيقته الأمير «دوفوا» لو فضلك عليها. أما فهمت؟ عد معي وسوف أشرح لك كل هذا».

– «لست أستطيع فآني ذاهب إلى منزل السيد «دو شارلوس» في الحادية عشرة».

– «عجباً، لقد أرسل يطلب إليّ البارحة المجيء لتناول العشاء هذا المساء، على ألا أجيء بعد الحادية عشرة إلا ربعا. فإن أصبرت على الذهاب إلى منزله فهلهم معي على الأقل حتى المسرح الفرنسي وستكون في «الدوائر»، يقول الأمير الذي كان يعتقد دونما شك أن الأمر يعني «على مقربة من» أو ربما «في المركز».

ولكن عينيّه الموسعتين في وجهه الأحمر السمين والجميل أثارتا مخاوفي فرفضت قائلاً إن أحد الأصدقاء سوف يجيء ليصحبني. ولم تبد لي هذه الإجابة مهينة. وقد خلقت دونما شك في صدر الأمير انطباعاً مغايراً إذ لم يوجه قط إليّ الحديث من بعد.

– «ينبغي لي بالضبط أن أذهب للقاء ملكة «نابولي»، فما أعظم ما بها من غم»، تقول الأميرة «دوبارما» أو بدا على الأقل أنها قالت. ذلك لأن أقوالها لم تبلغ مسامعي إلا مبهمة من خلال تلك الأقرب التي وجهها إليّ الأمير «فون»، مع أنه قالها بصوت منخفض جداً.

وقد خشي دون شك، إن هو تحدّث بصوت أعلى، أن يسمعه السيد «دو فوا».

فأجابت الدوق: «لا، أعتقد فيما يخص ذلك أن ليس بها غم البتة».

– «لا غم البتة؟ إنك على الدوام يا «أوريان» متطرفة»، يقول السيد «دو غيرمانت» وقد استعاد دوره كصخرة تضطر الموجة فيما تقاومها إلى أن تقلد خصل زبدها إلى نقطة أعلى.

فأجابت الدوقة: «بازان يعرف خيراً منّي أنني أقول الحقيقة، ولكنه يظن أنه ملزم باتخاذ مظاهر صرامة من جرّاء وجودك ويخشى أن أصدمك».

وصاحت الأميرة «دو بارما»: «لا، أرجوك»، وقد خشيت أن يفسدوا شيئاً بسببها في أيام الأرباء الرائعة التي تقيمها الدوقة «دو غيرمانت»، هذه الثمرة المحرمة التي لم تستحق بعد ملكة السويد نفسها أن تذوق طعمها.

- «ولكنها أجابته هو فيما كان يقول لها بلهجة مبتذل حزنها: «لكن الملكة في حداد؛ على من ياترى؟ أفيه ماينغم جلاتلك؟- لا، ليس حداداً عظيماً، إنه حداد طفيف، حداد طفيف جداً، إنها شقيقتي». والحقيقة أنها مغتبطة بذلك، و«بازان» يعرف الأمر تمام المعرفة، فقد دعته إلى حفلة في اليوم نفسه ووهبتي لأولوتين. وددت لو تفقد في كل يوم شقيقة! إنها لاتبكي موت شقيقتها بل «تقهقهه» عالياً. وإنها على الأرجح تقول في نفسها، شأن «روبير»، أن «Sic transit» (هكذا يزول). ولكنني ماعدت أعرف، تضيف قولها بداعي الاقتضاع مع أنها تعرف أتم المعرفة.

كانت السيدة «دو غيرمانت» على آية حال تبدي بذلك ظرفاً فحسب، ظرفاً من أشدها زيفاً لأن ملكة «نابولي»، شأن الدوقة «دالانسون» التي وافتها بدورها منية مفاجئة، كانت كبيرة القلب وقد بكت ذوبها بصدق. لقد كانت السيدة «دو غيرمانت» تعرف الشقيقات البافاريات الكريزمات بنات عمومته إلى حد لا تجهل معه ذلك.

وقالت الأميرة «دو بارما» وهي تنتهز ثانية اسم «روبير» هذا الذي كانت السيدة «دو غيرمانت» تقدمه لها بمثابة عون غير مقصود: «كان بوده ألا يعود إلى المغرب. واعتقد أنك تعرفين اللواء «دو مونسيرفوي».

فأجابت الدوقة: «معرفة سيرة جدّ»، كانت وثيقة العلاقة بذلك الضابط. وشرحت الأميرة ماينغيه «سان لو».

- «ياإلهي، إن رأيته... فقد يتفق أن أصادفه»، تجيب الدوقة كي لايد أنها ترفض، وقد بدا أن علاقاتها باللواء «دو نسير فوي» أخذت تتباعد بسرعة منذ أن اقتضى أن تطالبه بأمر ما. على أن هذا الشك لم يكن كافياً في نظر الدوق الذي قاطع امرأته قائلاً:

- «تعلمين تماماً أنك لن تلتقيه يا «أوريان»، ثم إنك قد سألته أمرين لم يبر بهما». وأردف يقول متزايد الحقن كي يرغم الأميرة على سحب طلبها دون أن يقود ذلك إلى التشكيك بلطف الدوقة وكي تردّ السيدة «دو بارما» الأمر إلى طباعه الشخصية المتقلبة في جوهرها: «إن زوجتي شغوفة بأن تكون لطيفة. وإن «روبير» لقادر على نيل ما يبتغيه من «مونسيرفوي». ولكنه إذ لايدري مايريد فإنه يحملنا نحن على طلبه لأنه يعلم أن ليس من طريقة أفضل لإفشال الأمر. لقد طلبت «أوريان» من «مونسيرفوي» أكثر من الكثير. وإن طلباً يصدر عنها الآن لسبب كافٍ كي يرفضه».

فقالت السيدة «دو بارما»: «من الأفضل إذن في هذه الظروف ألا تفعل الدوقة شيئاً».

وقال الدوق في ختام حديثه: «بالطبع».

فقالت الأميرة «دو بارما» بغية تغيير الحديث: «ياللواء المسكين، لقد هُزم مرة أخرى في الانتخابات».

- «أوه، الأمر ليس بالخطير فما هي إلا المرة السابعة»، يقول الدوق الذي كان يحبّ إلى حدّ ما خيبات الآخرين الانتخابية وقد اضطرّ هو نفسه أن يتخلّى عن السياسة.

- «وقد تعزى بعزمه على أن تنجب امرأته ولداً جديداً».

فصاحت الأميرة قائلة: «عجباً! أهي حامل بعد هذه المسكينة «دو مونسيرفوي»؟

وأجابت الدوقة: «تماماً، وإنها «الدائرة» الوحيدة التي لم يفشل فيها اللواء المسكين قط».

لم ينفك القوم بعد ذلك طلك يدعوني باستمرار، حتى مع بضعة أشخاص فحسب، إلى تلك المآدب التي سبق أن تمثلت مدعوياً بالأمس وكأنهم رسل «الكنيسة الصغيرة المقدسة». فقد كانوا يجتمعون هناك على غرار المسيحيين الأوائل لا ليقسموا غذاء مادياً فحسب، غذاء للذيداً على أي حال، بل في ضرب من العشاء السري الاجتماعي، حتى أنني بعد عدد قليل من الأعشيّة تمثلت معارف جميع أصدقاء مضيقي، هؤلاء الأصدقاء الذين كانوا يقدموني لهم بمسحة من العطف بارزة (كمن لعلهم فضّلوه أبدأ تفضيل الآباء) إلى حدّ أن ليس من بينهم من كان لا يظنّ أنّه يسيء إلى الدوق والدوقة إن هو أقام حفلة راقصة دون أن يدون اسمي على اللائحة، وكنت اتذوق في الوقت نفسه، فيما اتناول واحداً من الخمر التي تحتويها أقبية آل «غيرمانت»، طيور أورطولان محضرة وفق الوصفات المختلفة التي كان الدوق يضعها ويبدل فيها بحذر. بيد أنّ تناول هذه الأخيرة لم يكن محتتماً على من سبق أن جلس أكثر من مرة إلى المائدة السرية. وكان يجيء أصدقاء قدامي للسيد «دو غيرمانت» وعقيلته للقائهما بعد العشاء «وكأنما تلك على حدّ ما تقول السيدة سوان «خطرة المساويك» على غير موعد ويتناولون في الشتاء كوباً من مغلي الريفون تحت أضواء الصالة الكبيرة وفي الصيف كأساً من عصير البرتقال في ظلام الحديقة المستطيلة الصغيرة. ولم يعرف أحد قط، عن آل «غيرمانت»، في عشيّات الحديقة تلك، سوى عصير البرتقال. لقد كان يتسم بما يشبه الطابع الطقسي. ولعلّ إضافة مرطبات أخرى إليه، لعلّها كانت بدت إفساداً للتقليد مثلما لاثبت حفلة راقصة كبرى في حيّ «سان جيرمان» حفلة راقصة من بعد إن كان ثمة مسرحية هزلية أو موسيقى. فلا بدّ أن يفترض أنّك تجيء- وإن حضر خمس مئة شخص- لحض زيارة الأميرة «دو غيرمانت» مثلاً. وقد أعجب القوم بنفوذني لأنني استطعت حملهم على أن يضيفوا إلى عصير البرتقال زجاجة تحوي عصير كرز مطبوخ أو إيجاص مطبوخ. وقد داخلني من جرّاء ذلك عداء للأمر «داغريجان» الذي كان شأنه شأن جميع الناس الذين يفتقرون إلى الخيال لا إلى البخل والذين يعجبون بما تشرب ويستأذنونك في تناول شيء منه، حتى أنّ السيد «داغريجان» كان في كلّ مرة يفسد سروري بانقاص حصّتي. ذلك لأنّ عصير الفواكه هذه لا يتوافر البتّة بكميّة كبيرة إلى حدّ ما كيما يروي. فليس ما يقلل مللك مثل انقلاب لون الثمرة طعماً، هذه الثمرة التي تبدو مطبوخة وكأنها تعود القهقري إلى فصل الأزهار. فالعصير الذي اكتسى حمرة مثل بستان في الربيع أو كان فاقد اللون ندياً كالنسيم في ظلّ الأشجار المثمرة إنّما يستسلم للشّم والنظر قطرة فقطرة ويحول السيد «داغريجان» بانتظام دون أن أرتوي منه. وعلى الرغم من هذه الفواكه المطبوخة فقد ظلّ عصير البرتقال التقليدي موجوداً شأن مغلي الريفون. وظلت المشاركة الاجتماعية تحت هذه الأعراض المتواضعة على أنّ أصدقاء السيد والسيدة «دو غيرمانت» لبثوا في ذلك دونما شكّ، على نحو ما سبق أن تمثلتهم بادئ الأمر، أكثر اختلافاً ممّا ربّما حملني على الاعتقاد به مظهرهم الخيّب. فقد كان العديد من الشيوخ يجيئون إلى منزل الدوقة لينعموا، إلى جانب الشراب الذي لا يتبدل، باستقبال قليل الودّ في الغالب. وما كان يمكن أن يكون ذلك بداعي السنويّة إذ هم

في مكانة لا يسمو عليهم فيها أحد، ولا بداعي حبّ البذخ: فرُبّما كانوا يخبّونه لكن ربّما كان بمقدورهم، في شروط اجتماعية أدنى، أن ينعموا بالرائع منه إذ ربّما فعلت الزوجة الفاتنة لأحد رجال المال الطائلي الثراء، ربّما فعلت في تلك الأمسيات نفسها كلّ شيء في سبيل دعوتهم إلى حفلات صيد بديعة تقيمها طوال يومين من أجل ملك اسبانيه. ولكنّهم رفضوا مع ذلك وجاؤوا على سبيل الاحتياط ليروا إن كانت السيّدة «دو غيرمانت» في منزلها. وما كانوا حتّى على يقين أنّهم واجدون هناك آراء مطابقة تماماً لآرائهم أو مشاعر تتسم بحرارة خاصّة فقد كانت السيّدة «دو غيرمانت» ترسل أحياناً حول مسألة «ديفوس» أو حول الجمهورية أو حول القوانين المناهضة للدين أو حتّى، وتخفيض الصوت، حولهم وحول عاهاتهم والطابع المملّ لحديثهم ملاحظات كان ينبغي لهم أن يتظاهروا بأنّهم لا ينتبهون لها. وليس من شك أنّهم إن كانوا يحتفظون بعاداتهم هناك فمن جرّاء تربية مرهفة تميّز ذوقاً المجتمعات الراقية من جرّاء معرفة واضحة بميزة الكمال الأولى في الطبق الاجتماعي ذي الطعم المألوف المطنّن الحلو المذاق الذي لا اختلاط فيه ولا غشّ والذي يعرفون منشأه وتاريخه بقدر ما تعرف تلك التي تقدّمه لهم وقد ظلّوا أكثر «ارستقراطية» في ذلك ممّا يدرون هم أنفسهم. وفي عداد هؤلاء الرّؤا الذين عرفتهم بهم بعد العشاء شاعت المصادفة أن يكون اللواء «دو مونسيرفوي» هذا الذي سبق أن تحدّثت عنه الأميرة «دو بارما» والذي لم تكن السيّدة «دو غيرمانت» التي كان أحد رواد صالحتها تعلم أنّه يزعم الحجيء في هذا المساء. وانحى أمامي لدى سماع اسمي كما لو كنت رئيس المجلس المحرّبي الأعلى. كنت ظننت أنّ الدوقة رفضت أن توصي السيّد «دو مونسيرفوي» بابن اختها منجّر عزوف عن المعروف متأصل كان الدوق فيه شريكاً لزوجته شأنه في أمر التظرف الفكري إن لم يكن في أمر الحبّ. وكنت أرى هنا لا مبالاة يزيد من جرمها أنّه خيّل إليّ من جرّاء بضع كلمات أفلّنت من الأميرة «دو بارما» أنّ مركز «روبير» كان محفوظاً بالمخاطر وأنّ من الحكمة العمل على إبداله. على أنّي إنّما ثارت ثائرتي من جرّاء قسوة السيّدة «دو غيرمانت» الحقيقية حينما اقترحت الأميرة «دو بارما» بلهجة وجلة أن تحدّثت بنفسها ولحسابها هي، اللواء عن ذلك ففعلت الدوقة كلّ ما بوسعها كي تصرف صاحبة السموّ عن الأمر، وصاحت قائلة:

— ولكن «مونسيرفوي» ياسيّدتي لأنفوذ له من أيّ نوع ولاسلطة مع الحكومة الجديدة وسوف يكون ذلك ضربة في الهواء.

وهمست الأميرة وهي تدعو الدوقة إلى التكلّم بصوت أخفض: «أظنّ أنّه قد يستطيع سماعنا».

فقال الدوقة دون أن تخفض الصوت وقد سمعه اللواء تماماً: «لا تخشي سمّوك شيئاً فإنّه اصمّ كالحجر».

وقالت الأميرة: «ذلك أنّي اعتقد أنّ السيّد «دو سان لو» ليس في مكان مطمئن جدّاً».

فأجابت الدوقة قائلة: «معاسك تبغين، إنّ حاله حال جميع الناس مع فارق أنّه هو الذي طلب الذهب إلى هناك، ثم إن المكان ليس خطراً، لا، وإلاّ لأكنت اهتممت للأمر بالطبع، ولكنك حدّثت بذلك «سان جوزيف» في أثناء العشاء، فهو أشدّ نفوذاً وكم هو مثابر! ترين، ها إنّّه قد ذهب. ولعل الأمر من جهة أخرى أقلّ إجحافاً منه مع هذا الأخير، فثلاثة بالضبط من أبنائه في المغرب ولم يشأ أن يطلب تغيير مكانهم. وربّما أثار

الأمر. وبما أن سموك تصرّ على ذلك فسأفأخ به «سان جوزيف»... إن التقيته، أو «بوترني». أما إذا لم ألقهما فلا ترثي كثيراً لحال «روبير». لقد أوضحوا لنا في ذاك اليوم مكان إقامته، وفي اعتقادي أنه لا يمكن أن يكون في أي مكان أفضل حالاً من هناك.

وقالت الأميرة «دو بارما»: «باللزهره الجميلة، إنني لم أشاهد البتّة مثيلتها، وليس سواك يا «أوريان» من يملك مثل هذه الروائع!»، قالت تحاول أن تغير الحديث مخافة أن يكون اللواء «دو مونسيرفوي» قد سمع الدوقة. فتعرفت نبته من صنف تلك التي سبق أن رسمها «إيلستير» أمامي.

— «ينبغي أنأها تروكك. فهي رائعة، انظري إلى دائرة عنقها الصغيرة التي من مخمل ليلكي. بيد أن لها اسماً شنيعاً ورائحتها قبيحة مثلما يمكن أن يتفق ذلك لأشخاص شديدي الجمال وأنيقي الملبس إلى حدّ بعيد. ولكنني أحبها كثيراً على الرغم من ذلك. بيد أن ما يغني بعض الشيء أنها ستموت عمّا قريب».

فقالت الأميرة: «ولكنها في الآنية وليست أزهاراً مقطوعة».

وأجابت الدوقة ضاحكة: «لا، ولكن الأمر واحد بما أنهما من صنف السيدات. إنهما ضرب من النباتات لا توجد فيها السيدات والسادة على النبتة نفسها. مثلي مثل الجماعة الذين يملكون كلبه. لا بد لي من زوج لأزهاره، وبدون ذلك لن أحصل على صغار».

— «باللغرابه! ففي الطبيعة إذن...»

— «أجل، ثمة بعض الحشرات التي تتولي إتمام الزواج بالتفويض، شأن الحال بالنسبة إلى الملوك، دون أن يكون الخطيب والخطيبة قد التقيا في يوم. ولذلك فأنني أقسم لك أنني أوصي خادمي بوضع نبتتي في النافذة قدر المستطاع تارة من جانب الباحة وطوراً من جانب الحديقة عسى أن تجيء الحشرة التي لاغنى عنها. ولكن الأمر قد يتطلب مصادفة وآية مصادفة فكري، ينبغي بالضبط أن تكون مضت للقاء شخص من الصنف نفسه من جنس مختلف وأن يخطر لها المجيء لحمل بطاقات إلى البيت. ولكنها لم تجيء إلى هنا وأظن أن نبتتي لا تزال أهلاً لأن تكون فتاة فاضلة وأقر أن قليلاً من التهنّك ربما سرّني أكثر من ذلك. خذي، إنهما حال هذه الشجرة الجميلة التي في الباحة فسوف تموت دون أطفال لأنّها صنف نادر جداً في بلادنا. الريح هي المكلفة، فيما يخصّها، بعقد القران، ولكنّ الجدار عال قليلاً».

وقال السيد «دو بروتيه»: «بالفعل كان عليك أن تهدمي بضعة ستمترات فحسب فربما كان ذلك كافياً. تلك عمليّات ينبغي أن نحسن القيام بها. إن عطر الفانيليا الكائن في المثلجة الرائعة التي قدّمتها لنا منذ قليل أيّتها الدوقة مصدره نبات يدعى شجرة الفانيليا. وصحيح أن هذه الشجرة تنتج أزهاراً مذكرة ومؤنثة في الآن نفسه ولكن نوعاً من الحاجز الصلب القائم بينها يمنع الاتصال أيّا كان. ولم يكن قطّ ممكناً لذلك الحصول على ثمار إلى أن خطر ذات يوم لزيجي شاب من مواليد جزيرة «الريونيون» يدعى «ألبان»، الأمر الذي يثير الضحك إلى حدّ ما بالنسبة إلى أحد السود، ونقلوها بين قوسين، بما أن الاسم يعني «الأبيض»، أن يصل ما بين الأعضاء المفصولة بوساطة رأس صغير فصاحت الدوقة قائلة: «أنت رائع يا «بابال»، إنك عالم بكلّ

شيء».

وقالت الأميرة: «وأنت أيضاً يا «أوريان» علمتني أموراً كنت أشك بوجودها».

- «سوف أقول لسموك إن «سوان» هو الذي حدثني كثيراً على الدوام عن علم النبات، فقد كنتاً نمضي أحياناً إلى الريف، حينما كان يزعمنا أشدّ الإزعاج أن نذهب إلى حفلة شاي أو إلى «عصريّة»، وكان يدلّني على تزاوجات غريبة للأزهار، والأمر أبعث على السلوة من زيجات الناس دون حفل غداء ودون سكرتية^(*). وما كان يتسع لنا الوقت البتّة للذهاب بعيداً جداً. أمّا الآن وقد وجدت السيارة فرُبما كان ذلك رائعاً. ولكنه أقدم في هذه الأثناء لسوء الحظّ على زواج أشدّ إدهاشاً بكثير ويجعل كلّ شيء عسيراً. آه! ياسيدي، إن الحياة لأمر فظيع، فإنك تقضين الوقت في القيام بأمر تبعث الملل في نفسك فإن عرفت مصادفة من يمكنك الذهاب برفقته لرؤية أشياء جديدة بالاهتمام لانبغي أن يتزوج زواج «سوان» وإذ لقيتني بين التخلي عن النزعات النباتية وواجب مخالطة امرأة تلحق بي العار فقد اخترت أولى هاتين البليتين. قد لا تدعو الحاجة على أيّ الحال إلى المضي بعيداً جداً. ذلك إنه يجري فيما يبدو، في حديقتي الصغيرة وحدها، وفي وضع النهار أمور غير محتشمة أكثر مما يجري ليلاً... في «غابة بولونيا»! ولكننا لا ننتبه للأمور لأنّ ذلك يتمّ بأبسط حال بين الأزهار إذ ترى رذاذاً برتقاليّ اللون أو ذبابة مثقلة بالغبار تقبل لتمسح قدميها أو تغتسل قبل الدخول في زهرة. وينقضي كل شيء».

قالت الأميرة: «الصوان الذي وضعت فوقه النبتة بديع هو الآخر، إنه من الطراز الإمبراطوري فيما أعتقد، وكانت لاتدرك تماماً دلالة دعابات الدوقة إذ لا عهد لها بأعمال «داروين» وخلفائه».

فأجابت الدوقة: «أليس أنه جميل. يغبطني أن تحبّ سيدتي. إنها قطعة رائعة. سأقول لك إنني عشقت على الدوام الطراز الإمبراطوري حتّى في حين لم يكن شائعاً. وإنني أذكر أنّ حماتي شنت عليّ في «غيرمانت» أنّي قلت بأن ينزلوا من السقيفة جميع الأثاث الرائع الإمبراطوري الطراز الذي سبق أن ورثه «بازان» عن آل «مونتسكيو» وأنني أثبت به الجناح الذي كنت أسكنه».

ابتسم السيد «دو غيرمانت». على أنّه كان لابدّ يتذكّر أنّ الأمور جرت على نحو مغاير تماماً. ولكن مزحات الأميرة «دي لوم» حول رداءة ذوق حماتها إذ ظلّت عادة أثناء الزمن القليل الذي كان فيه الأمير مولعاً بزوجه فقد أعقب حبه للثانية شيء من الإزدراء لقلّة نباهة الأولى، ازدراء كان يقترب على أيّ حال بالكثير من التعلّق والاحترام.

- «لدى أسرة «إيبينا» المقعد نفسه بتطعيم من يد «ودجود»، إنه جميل ولكنني أفضّل مقعدي»، تقول الدوقة باللهجة المتجرّدة نفسها التي تتخذها لو أنّها لم تملك آية من قطعتي الأثاث. «وإنّي أقرّ من جهة أخرى أنّ لديهم أشياء بديعة لا أملكها».

(*) مكان ملحق بالكنيسة يحوي ملابس الكهنة وأشياء أخرى تستخدم في الطقوس الدينية؛ المقصود بالعبرة: دون أخذ بالمستلزمات الاجتماعية.

وظلت الأميرة «دو بارما» صامتة.

« ولكن صحيح، إن معاليك لاتعرف مجموعتهم. وينبغي لها بالتأكيد أن تجيء برفقتي إلى هناك. إنها من أروع الأمور في باريس، إنها متحف تدبّ فيه الحياة».

ولما كان هذا المقترح أحد صنوف القحة الأكثر اتساماً «بالغرمانية» لدى الدوقة لأن آل «إيبينا» كانوا في نظر الأميرة «دو بارما» محض منتحلين إذ يحمل ابنهم، شأن ابنها، لقب دوق «غاستالا»، فإنّ السيّدة «دو غيرمانت» لم تملك وهي تلقي به على هذا النحو «لشدّة ما يغلب الحبّ الذي تكنّه لتفرداها على إجلالها للأميرة «دو بارما» أن ترمق المدعوّين الآخرين بنظرات هازئة مشرقة. هم كذلك كانوا يجهدون في التسميم وبهم فرع وذهول وافتتان على وجه الخصوص إذ يفكرّ أنّهم شهود «آخر نكتة» له «أوريان» وسوف يستطيعون نقلها «ساختة تماماً». كانوا نصف ذاهلين فحسب إذ يعلمون أنّ الدوقة تملك فنّ اللامبالاة بجميع آراء آل «كورفوازييه» مقابل عمل ناجح في الحياة أكثر إثارة وأشدّ إمتاعاً. أفلم تجتمع في غضون هذه السنوات الأخيرة بالأميرة «ماتيلد» الدوق «دومال» الذي سبق أن كتب لشقيق الأميرة نفسه الرسالة الشهيرة: «جميع الرجال في أسرتي شجعان وجميع النساء عفيفات»؟ ولما كان الأمراء على هذا حتّى حينما يبدو أنّهم يودّون تناسي أنّهم كذلك، فقد طاب المقام للدوق «دومال» والأميرة «ماتيلد» في منزل السيّدة «دو غيرمانت» إلى حدّ أن ذهب كلّ منهما فيما بعد إلى منزل الآخر وبهما تلك القدرة على تناسي الماضي التي أبداهما لويس الثامن عشر حينما أخذ بمثابة وزير له «فوشيه» الذي سبق أن صوّت على موت شقيقه. كانت السيّدة «دو غيرمانت» تفكرّ في مشروع التقارب نفسه بين الأميرة «مورا» وملكة «نابلي». وفي أثناء ذلك كانت الأميرة «دو بارما» تبدو بمثل الحيرة التي يمكن أن تتناوب وريثي عرش هولندا وبلجيكا، وهما، كلّ فيما يخصّه، أمير «أورايج» ودوق «برابان»، لو اعتزموا أن يقدموا لهما السيّد «دو مائي نيل» أمير «أورايج» والسيّد «دو شارلوس» دوق «برابان». ولكنّ الدوقة التي توصّل «سوان» والسيّد «دو شارلوس» (على الرغم من تصميم هذا الأخير على تجاهل آل «إيبينا») بجهد عظيم إلى تحبيّتها بالطراز الإمبراطوري، صاحبت بادئ الأمر قائلة:

«صدقاً ياسيّدتي، لا أستطيع أن أقول لك إلى أيّ حدّ ستجدين ذلك جميلاً! أنّي أقرّ أن الطراز الإمبراطوري قد أثر فيّ على الدوام. أمّا في منزل آل «إيبينا» فالأمر هناك بالحقيقة أشبه بالاستيهام. إن هذا النوع، ماذا عساي أقول لك، من... تراجع حملة مصر وكذلك عودة العصور القديمة إلينا وكلّ ذلك الذي يجتاح منازلنا وتماثيل أبي الهول التي تجيء لتقف على أقدام المقاعد والحيات تلتف على الشمعدانات وربة شعر ضخمة تمدّ إليك مشعلاً صغيراً لتعلب الورق أو هي اعتلت مطمئنّة موقدك واستندت ذراعها إلى ساعة جدارك، وجميع المصاييح التي من طراز «بومبيّي» والأسرة الصغيرة المراكبية الشكل التي تبدو وكأنّها عثر عليها في النيل وتوقع رؤية «موسى» خارجاً منها، وهذه العربات القديمة التي تجرّي على أطراف طاولات الأسرة».

وتجرّأت الأميرة فقالت: «لايجلس المرء مرتاحاً على الأثاث الذي من الطراز الإمبراطوري».

فأجابت الدوقة: «لا»، وأردفت تلحّ بابتسامة: «ولكنّي أحبّ أن أجلس جلسة غير مريحة على مقاعد الأكاجو هذه المغطّاة بالخمّل الرماني أو الحرير الأخضر. إنّني أحبّ شظف المحاربين الذين لايفهمون سوى

الكرسي العسكري البسيط والذين كانوا يشبهون الأسلحة ويكومون أكاليل الغار وسط الصالة الكبرى. وإني أؤكد أنهم لا يفكرون لحظة واحدة لدى آل «إينا» في الطريقة التي يجلسون بها حينما يبصر المرء أمامه تمثال «نصر» كبير لعين رسم على الجدار بطريقة الرسم المائي. سوف يجدن زوجي ملكية رديئة جداً ولكنني غير سديدة الرأي إلى حد بعيد، تدرين، على أنني أؤكد لك أن الأمر يبلغ بك لدى هؤلاء القوم أن تحب كل حروف «النون» تلك وجميع تلك النحلات (*). ولما كنا لم نحظ في عهد الملوك، منذ زمن ليس باليسير، بنصيب من الدلال عظيم في زاوية الأمجاد فإن هؤلاء المحاربين الذين كانوا يجلبون معهم الكثير من التيجان إلى حد أن يخلقوا بعضاً منها حتى على سواعد المقاعد، إني أجد في ذلك شيئاً من الأناقة! يجدر بسموك أن تفعلني».

وقالت الأميرة: «يا إلهي، إن كنت ترين ذلك، ولكننا يبدو لي أن الأمر لن يكون سهلاً».

- «لكن سيدي ستري أن كل شيء سيؤى على أحسن حال. إنهم جماعة طيبون جداً وليسوا بالأغبياء». وتضيف الدوقة قولها، وهي عالمة بقوة المثال: «لقد اصطحبنا إلى هناك السيدة «دو شوفروز» فاعتبطت بذلك أيما اعتباط. بل إن الابن محب جداً...» وأردفت تقول: «إن ما سأقوله ليس لائقاً جداً، ولكن لديه غرفة وسيراً على وجه الخصوص يوم المرء لو ينام فيه - بدونه! وما كان أقل لياقه بعد أنني ذهبت مرة لزيارته فيما كان مريضاً يلزم سريريه. كان إلى جانبه على حافة السرير حفر لعروس بحر طويلة مستلقية فاتنة لها ذيل صدف وتمسك في يدها ما يشبه أزهار اللوتس». أضافت السيدة «دو غيرمانت» وهي تتمهل في إلقاتها كي تحسن أكثر فأكثر إبراز الكلمات التي بدت وكأنها تقولها في التواء شفتيها الجميلتين وانطلاقة يديها الطويلتين المعبرتين وفيما ترمق الأميرة بنظرة عذبة ثابتة عميقة: «وإني أؤكد لك أن المشهد كان مؤثراً مع وريقات النخيل والتاج الذهبي الذي كان إلى جانبه، كان ذلك عين الترتيب الذي في لوحة «الشاب والموت» لـ «غوستاف مورو» (وسمك تعرف بالتأكيد هذه الرائعة).

أما الأميرة «دو بارما» التي كانت تجهل حتى اسم الرسام فقد هزت رأسها هزاً عنيفاً وابتسمت بحماسة كي تعرب عن إعجابها بتلك اللوحة. ولكن شدة إيمائها لم تفلح في النجاة عن ذلك الضوء الذي يظل غائباً عن عينينا مادما لانعرف عما يودون أن يحدثونا».

وتسأل قائلة: «هو شاب جميل فيما اعتقد؟».

- «لا، فإن له هيئة تابير هندي. فالعينان إلى حد ما عينا «هورثانس» الملكة المستخدمة كحامل مصابيح. ولكنه ظن على الأرجح أن تعزيز هذا الشبه قد يكون فيما يخص الرجال مدعاة للسخرية إلى حد ما، فيضيع الأمر في وجنتين ملمعتين تضفيان عليه نوعاً من مظهر الممالك. وبوافيك احساس بأن الملمع لابد يمر كل صباح». ثم تضيف قولها: «لقد ذهل «سوان» في عودته إلى سرير الدوق الشاب من الشبه بين عروس البحر هذه ولوحة «الموت» لـ «غوستاف مورو». وأردفت تقول بلهجة أكثر سرعة ولكنها جدية مع ذلك بغية الزيادة في

(*) إشارة إلى الحرف الأول من اسم نابليون والتحل الذهبي الذي كان يزين رداء الإمبراطور.

الإضحاك: «ليس لنا أن نعجب على أيّ حال إذ الأمر رشحاً كان وصحة الشاب كأنها من خشب السنديان».

وسأل السيد «دو بريوتيه»: «يقولون إنه سنوي؟» سأل بلهجة تبطنها الأذية مستثارة تنتظر في الجواب ما ينتظر من دقة لو أنه قال: «قيل لي أن ليس في يده اليمنى سوى أربعة أصابع، أصحيح ذلك؟».

فأجابت السيدة «دو غيرمانت» بابتسامة عذبة في تسامحها: «لا... لا... ياربي؛ ربما كان على قليل من السنوية في الظاهر لأنه حديث السن جداً ولكننا قد يدهشني أن يكون كذلك في الواقع لأنه ذكي»، تضيف قولها كما لو كان ثمة فيما ترى تعارض مطلق بين السنوية والذكاء. وأضافت تقول: «إنه مرهف الذكاء وقد وجدته غريب الأطوار»، تقول وهي تضحك ضحكة الذواقة العارف بالأمر وكأنها يستوجب الحكم بغرابة الأطوار على أحدهم مظاهر المرح أو كأنها تعود إلى ذهنها في هذه اللحظة نواذر الدوق «دوغاستالا». وأردفت قائلة: «ولما كان لا يرحب به على أيّ حال فلن يتسنى لهذه السنوية أن تلقى صيغتها العملية، دون أن تفتن إلى أنها لم تكن تشجع كثيراً على هذا النحو الأميرة «دو بارما».

— «أسألك ماعسى أن تقول الأمير «دو غيرمانت» الذي يدعوها السيدة «إيننا» إن علم أنني ذهبت إلى منزلها».

وصاحت الدوقة بحدة غريبة: «ولكن عجباً، تعلمين أننا إنما تخليقنا نحن لـ «جيلبير» (وهي اليوم نادمة ندماً مرياً) عن قاعة لعب كاملة من الطراز الإمبراطوري ورثناها عن «كيوكيو» وهي آية في الجمال! لم يكن يتسع المكان ههنا مع أنني أرى أنها أكثر ملائمة هنا منها في منزله. إنها حاجة في غاية الجمال نصفها «اتروسكي» والنصف مصري».

فسألت الأميرة التي كانت لفظة «اتروسكي» لاتعني لها إلا القليل: «مصري؟»

— «ياربي، الإثنان إلى حدّ ما، كان «سوان» يقول لنا ذلك وقد أوضحه لي ولكني، تدرين، جاهلة مسكينة، ثم إن ما ينبغي أن نقوله في الأساس يأسديتي إن مصر الطراز الإمبراطوري لاصلة لها البتة بمصر الحقيقية، ولا رومانيتهم بالرومانيين، ولا ما يقولون عن «اتروريا»...

فقالت الأميرة: «حقاً»

— «لا، بالطبع، فذلك من قبيل ما كان يدعى بلباس لويس الخامس عشر في فترة الإمبراطورية الثانية وفي شباب «آنا دو موشي» أو والدته «بريغود» العزيز. منذ قليل كان «بازان» يحدّثكم عن بيتهوفن. لقد عرفوا لنا في ذلك اليوم حاجة منه جميلة جداً على أيّ حال وعلى شيء من البرودة وفيها فكرة روسية».

ويوتر في نفسك أن تفكر أنه كان يحسب ذلك روسياً. كذلك ظنّ الرسامون الصينيون أنهم يقتلدون «بليني». أضف أن أربعة أرباع الناس حتّى في البلد الواحد لا يرون، في كل مرة ينظر فيها أحدهم إلى الأشياء نظرة على شيء من الجدة، لا يرون شيئاً لبتة فيما يعرضه عليهم. ولابدّ من أربعين عاماً على الأقل كي يفلحوا في التمييز».

وصاحت الأميرة مذعورة: «أربعون عاماً!».

فأردفت الدوقة: «أجل»، وهي تضيف أكثر فأكثر إلى الكلمات (التي كانت كلمات لي تقريباً، إذ سبق لي بالضبط أن أعربت أمامها عن فكرة مشابهة)، بفضل نطقها، المقابل لما يسمّى بالنسبة إلى حروف الطباعة «الحرف المائل»، «إنّه ضرب من الرجل الأول المعزول عن جنس لا يزال غير موجود وسوف يتكاثر، رجل يتمتع بنوع من «الحس» لا يملكه الجنس البشري في عصره. ليس باستطاعتي الاستشهاد بنفسى لأنني أنا أحببت دوماً على العكس ومنذ البداية جميع ما يبرز من أمور مثيرة مهما ارتدت من جدّة. ولكنّي رحت في ذلك اليوم إلى متحف اللوفر برفقة الدوقة الكبرى فمررنا أمام لوحة «أولمبيا» من أعمال «مانيه». والآن لا يدهش أحد من ذلك بعد، إنّها تبدو وكأنّها من أعمال «أنغر»! والله يعلم مع ذلك كم حرية انبغى لي أن أكسر في سبيل هذه اللوحة التي لا أحبّد فيها كل شيء ولكنّها بالتأكيد من صنع شخص ذي شأن. وربما لم يكن اللوفر مطرحها بالضبط.

وتسأل الأميرة «دو بارما» قائلة: «أهي على مايرام الدوقة الكبرى؟» وكانت عمّة القيصر أقرب إليها بما لا يقاس من مثال «مانيه».

- «أجل، وقد تكلمنا عنك». وأردفت الدوقة قول، وبها إصرار على فكرتها: «الحقيقة في الأساس، كما يقول سلفي «بالاميد»، أن بيننا وبين أيّ إنسان جدار لغة أجنبية. وإنّي أقرّ من ناحية أخرى أن الأمر لا يصح عن أحد بقدر ما يصحّ عن «جيلبير». وإن طاب لك الذهاب إلى منزل آل «إيبينا» فأنت أكثر نباهة من أن تربطي أفعالك بما يمكن أن يخطر لهذا الرجل المسكين، وهو مخلوق عزيز بريء، ولكنّ له على كلّ حال أفكاراً من غير عالمنا. وأحسني أكثر قرباً وأقرب، عصباً من حوذيّ وجيادي منّي من هذا الرجل الذي يرجعك باستمرار إلى ماعلّمهم كانوا يفكرون في عهد «فيليب الجسور» أو في عهد «لويس الثخين». تصوّري أنّه حينما يتنزّه في الريف يبعد الفلاحين بعصاه بهيئة ساذجة وهو يقول: «تنحّوا أيّها الحقراء» وإنّي في الأساس، حينما يكلّمني بمثل الاستغراب الذي يتناهي لو كنت أسمع تماثيل «رقّده» القبور القوطية القديمة تخدثني وعبثاً يكون هذا الحجر الحيّ ابن عمّ لي فإنّه يخيفني ولا تراودني سوى فكرة واحدة وهي أن أدعه في عصره الوسيط. على أنّي اعترف فيما عدا ذلك أنّه لم يقتل أحداً في يوم».

وقال اللواء: «لقد تعشّيت بالضبط وإيّاها منذ قليل في منزل السيدة «دو فيلبارييس» ولكن دون أن يتسهم ودون أن يتبنّى مزحات الدوقة.

وسأل الأمير «فون»، وكان دائم التفكير بأكاديمية العلوم الأخلاقية: «هل كان السيّد «دو نوربوا» حاضراً؟».

فقال اللواء: «أجل، وقد جاوز فتحدّث عن امبراطوركم».

- «يبدو أن الأمبراطور «غليوم» ذكيّ جدّاً ولكنه لا يحبّ رسم «ايلستير». ولست أقول ذلك على آية حال ضدّة فأنّي أشاطره نظرتة إلى الأمور، تجيب الدوقة. «مع أنّ ايلستير صنع رسماً جميلاً لي. عجباً! ألا

تعرفه؟ ليس فيه من شبه ولكنه غريب. إنه مثير في أثناء جلسات الرسم. لقد جعل مني ما يشبه العجوز، وفي ذلك تقليد للوحة «المشرفات على المشفى» من أعمال «هالز». ثم قالت الدوقة وهي تلتفت إليّ وتحرّك ببطء مروحتها التي من ريش أسود: «في اعتقادي أنّك تعرف هذه الروعات كيما ألجأ إلى تعبير عزيز على قلب ابن أختي»، كانت الدوقة منتصبّة على كرسيها، بل أكثر من ذلك، وكانت تردّ رأسها إلى الوراء بإباء، ذلك أنّها كانت تمثّل بعض الشيء دور السيّدة الكبيرة مع أنّها ظلّت على الدوام سيّدة كبيرة. وقلت إنني ذهبت فيما مضى إلى امستردام ولاهاي، ولكنني بغية ألاّ أخلط الحابل بالنابل تركت «هارلم» جانباً إذ كان وقتي محدوداً.

وصاح السيّد «دو غير مانت» قائلاً: «آه! لاهاي، أيّ متحف ذاك!» فقلت له إنّه أعجب فيه ولاشكّ بلوحة «منظر ديلفت» من أعمال «فيرمير». ولكن الدوق كان أقلّ علماً منه كبرياء، لذلك اكتنفي بأن يجهيني بلهجة متغطّسة شأنه في كلّ مرّة يحدثونه فيها عن عمل فني في أحد المتاحف أو عن «الصالون» ولا يتذكّر: «إن كان لابدّ من رؤيته فقد رأيته!».

وصاحت الدوقة بدورها: «عجباً! قمت برحلة إلى هولندا ولم تذهب إلى «هارلم»؟ فإن تكون شاهدت لوحات «هالز» أمر غير عاديّ حتّى لو لم يتّسع لك سوى ربع ساعة. وربّما طاب لي أن أقول إنّه ينبغي لمن قد لا يستطيع رؤيتها إلّا من أعالي عربة حافلة كهربائية دون أن يتوقف، إن اتّفق عرضها في الهواء الطلق، أن يفتح عينيه وسعهما».

وصدمني هذا القول من جرّاء أنّه يتجاهل كيفيّة تشكّل الانطباعات الفنيّة في داخلنا وإنّه يبدو وكأنّه يفترض أن عينا في هذه الحالة محض آلة مسجّلة تأخذ لقطات آنيّة.

كان السيّد «دو غير مانت» ينظر إلى مهابة زوجته المشهورة، وهو سعيد أن تحدّثني بمثل تلك الكفاءة عن موضوعات تستأثر باهتمامي، ويصني إلى ما تقوله عن «فرانس هالز» ويفكرّ في نفسه قائلاً: «إنّها طويلة الباع في - كل شيء، ويستطيع ضيقي الشاب أن يقول بينه وبين نفسه إنّ في حضرته سيّدة كبيرة من الأمس بكلّ ما للكلمة من معنى وكما لا يتفقّ لها من مثيلة في يومنا». هكذا كنت أبصرهما كليهما وقد أُخْرِجَا من اسم «غيرمانت» هذا الذي كنت بالأمس أتخيّلهما فيه يعيشان حياة يتعلّر تصوّرها، وهما اليوم شبيهان بالرجال الآخرين والنساء الأخريات، بيد أنّهما يتخلّقان قليلاً عن معاصريهما ولكن على نحو غير متساوٍ شأن العديد من الأسر في حيّ «سان جيرمان» حيث أفلحت المرأة في التوقّف في العصر الذهبي وساء حظّ الرجل فانحدر إلى عهد الفظاظّة من الماضي، فلا تزال الأولى من عهد لويس الخامس عشر في حين تحيط بالزوج فخامة عصر «لويس فيليب». فأما أن تكون السيّدة «دو غيرمانت» شبيهة بالنساء الأخريات فقد كان الأمر بالنسبة إليّ بادئ الأمر مخيباً للآمال ويكاد يبدو الآن من جرّاء ردّة الفعل ويفضّل الكثير من طيّب الخمر اندهاشاً. إن أمثال «دون جوان» النمسوي و«إيزابيل ديست» الواقعين بالنسبة إلينا في دنيا الأسماء إنّما تكون صلتهم بالتاريخ الحقيقيّ قليلة بقدر الصلة التي تجتمع بين جانب «ميزيكليز» وجانب «غيرمانت» لقد كان «إيزابيل ديست» دونما شكّ أميرة صغيرة جدّاً في الواقع شبيهة باللواتي ما كنّ يملن في عهد لويس الرابع عشر آية مكانة خاصّة في البلاط. ولكننا لانستطيع، إذ تبدو لنا من ماهية فريدة ولانضاهي بالتالي، أن نتصوّرها أقلّ عظمة منه حتّى أنّ عشاء مع لويس الرابع عشر ربّما بدا يحمل في نظرنا بعض الأهميّة فحسب

في حين نجدنا نصبر بألم العين، بفضل مصادفة خارقة، بظلة روائية في شخص «إيزابيل ديسته» وإننا، بعدما نلاحظ، بدراسة «إيزابيل ديسته» ونقلها من هذا العالم الخرافي إلى عالم التاريخ، أنَّ حياتها وتفكيرها لا يحويان شيئاً من تلك الغرابة الزاخرة بالأسرار التي سبق أن أوحى لنا بها اسمها، وبعد ما تبلغ هذه الخيبة تمامها، إنما نبدي امتناناً لا حدَّ له لهذه الأميرة أنْ تجتمعَ لديها حول رسم «مانتينيا» معلومات مساوية لما تجتمعُ من معلومات احتقرناها حتى ذاك ووضعناها، على حدِّ قول «فرانسواز» «في أسفل السافلين»، لدى السيّد «لافيتير» لقد كنت أحسُّ، بعد ما تسلّقت مرتفعات اسم «غيرمانت» المنيعه وانحدرت على السفح الداخلي من حياة الدوقة، كنت أحسُّ إذ أجد فيه أسماءً هي مألوفة في أمكنة أخرى، أسماء «فيكتور هوغو» و«فرانس هالز» و«فيلبر» للأسف، بالاستغراب نفسه الذي يحسُّ به مسافر، بعدما أخذ في اعتباره، كيما يتخيل تميّز العادات في وادٍ موحد من أميركا الوسطى أو أفريقيا الشمالية، البعد الجغرافي وغرابة التسميات والنباتات، إذ يكتشف بعد اجتياز ستار من السولج أو شجر المنسنيلاً سكاناً يقرؤون «ميروب» أو «ألزير» (وربما اتفق ذلك أحياناً أمام خرائب مسرح روماني أو عمود مكرّس لـ«فينوس»). وكان للثقافة المماثلة التي جهدت السيّد «دو غيرمانت» دون مصلحة ودون علة طموح أنْ تتحدّر بها إلى سوية اللائي لن تعرفهنّ في يوم، كان لتلك الثقافة البعيدة جداً المنزلة جداً والتي تفوق كثيراً البورجوازيات المتعلّقات اللواتي عرفتهنّ الطابع الحميد، المؤثّر تقريباً لشدة مايدو غير ذي جدوى، طابع التبهرّ في مادة الآثار الفينيقيّة لدى أحد رجال السياسة أو أحد الأطباء.

قالت لي السيّد «دو غيرمانت» بلهجة لطيفة وهي تتحدّثني عن «هالز»: «كان بمقدوري أن أريك لوحة جميلة جداً، بل أجملها فيما يزعم بعض الناس، ورثتها عن ابن عمّ ألماني. ولكننا اتفق لسوء الحظّ أنّها «أُقطعت» للقصر. ألا تعرف هذه العبارة؟ ولا أنا بدوري، تضيف قولها من جرّاء هذا الميل الذي بها في إطلاق المزاح (الذي تخال أنّها عصريّة به) حول العادات القديمة التي كانت مع ذلك شديدة التعلّق بها على نحو غير واع. «يسرّني أنّك شاهدت لوحاتي التي من أعمال «إيلستير» ولكنّي أقرّ أنّي كنت سأسرّ أكثر بكثير لو استطعت أن أرحب بك أمام لوحة «هالز»، أمام تلك اللوحة «المقطّعة».

وقال الأمير «فون»: «أعرفها، إنّها لوحة دوق «هيس» الأكبر».

فقالت السيّد «دو غيرمانت»: «بالضبط، لقد سبق أن تزوّج أخوه أختي، وكانت والدته على آية حال ابنة عمّ والد «أوريان».

وأضاف الأمير يقول: «أمّا فيما يخصّ السيّد «إيلستير» فسوف أسمح لنفسني أن أقول، دون أن يكون لي رأي في أعماله الفنيّة التي لا أعرفها، إنّ الكراهية التي يكتفها له الإمبراطور لا يبدو لي أنّه ينبغي اتّخاذها حجة ضده. إنّ الإمبراطور رائع الذكاء».

- «أجل، لقد تعشّيت مرتين معه، مرّة في منزل عمّتي «ساغان» ومرّة في منزل عمّتي «رادزيفيل» ويجدر بي أن أقول إنّني وجدته غريباً. لم أجده بسيطاً! ولكنّ لديه شيئاً مسلياً، شيئاً «صنعيّاً» (تقول وهي تبرز الكلمة) مثل قرنفل خضراء، أعني شيئاً يدهشني ولا يروقني إلى مالا حدود، شيئاً يدهشك أنّهم استطاعوا أن يفعلوه، ولكنّي أرى أنّهم كانوا أحسنوا فعلاً كذلك لو أنّهم لا يستطيعون. أمل أنّي لا أصدم مشاعرك؟»

وأردف الأمير: «يتمتع الإمبراطور بذلك لا يصدق، وهو يحبّ الفنون إلى حدّ التوكله. وإنّ له في الأعمال الفنية ذوقاً منزهاً من الخطأ إلى حدّ ما، إنه لا يخطئ البتّة. فإن اتفق ما كان جميلاً تعرّفه في الحال وأضمر له الكراهية، وإن كره شيئاً فهو، ما من شكّ في ذلك، ممتاز».

وابتسم الجميع.

وقالت الدوقة: «تطمئنّي».

وعاد الأمير يقول (وما كان يحسن لفظ كلمة «أركيولوج» (Archéologue)*) - كما لو أنّها كتبت بالكاف - ولا يضيّع قطّ فرصة يستخدمها فيها: «يطيب لي أن أشبه الإمبراطور بأركيولوج عجوز (ويقول الأمير أركيولوج) من برلين. إن الأركيولوج العجوز يبكي أمام الآثار الآشورية القديمة. فإن كانت من الحديث المزيّف، وإن لم تكن قديمة حقاً، فإنّه لا يبكي. فإن ودّوا أن يعلموا إن كانت هذه القطعة الإركيولوجية أو تلك قديمة حقاً حملوها إلى الأركيولوج العجوز. فإن بكى ابتاعوا القطعة للمتحف. وإن ظلت عينا ناشفتين ردّوها إلى التاجر ولحقّ بهمة التزييف. وإني في كل مرّة أتناول فيها عشاّي في «بوتسدام» أدوّن جميع القطع التي يقول لي الإمبراطور بشأنها: «أيها الأمير، عليك برؤية ذلك فإنّه يفيض عبقرية» وذلك كي احتز من الذهب إليها، وحينما أسمع يصبّ جام غضبه ضدّ معرض فإنّي أجري إليه حالماً يمكنني ذلك».

وقال السيّد «دو غير مانت»: «أليس «نوربوا» إلى جانب تقارب إنكليزي - فرنسي؟».

فسأل الأمير «فون» بلهجة غاضبة ماكره، وكان لا يطبق احتمال الإنكليز: «وما عساكم تفيدون من ذلك؟ فما أعظم غباهم. أعرف تماماً أنّهم لن يكونوا عوناً لكم على الصعيد العسكري. على أنّه يمكن الحكم عليهم بناء على غباء جنرالاتهم. لقد تحدّث أحد أصدقائي مؤخراً إلى «بوتا»، تدري، القائد البويري. كان يقول له: «جيش كهذا شيء مخيف. غير أنني لى على حال أحبّ بالأحرى الإنكليز، ولكن فكّر أنّي أنا، ولست سوى فلاّح، قد نلت منهم في جميع المعارك. وفي المعركة الأخيرة وفيما كنت أتناهى تحت عدد من الأعداء يفوقني عشرين مرّة لقيت الوسيلة، وأنا أستسلم لأنني أرغمت على ذلك، أن أخذ ألفي أسيراً وحسناً كان ذلك لأنني كنت محض رئيس فلاحين، ولكن لو اتفق لهؤلاء المعوهين في يوم أن يجابهوا جيشاً أوروبياً حقيقياً فإنّي أرتجف خوفاً عليهم لدى التفكير فيما قد يحدث!» وما عليك على أية حال إلا أن ترى أنّ ملكهم الذي تعرفه كما أعرفه يعد رجلاً عظيماً في إنكلترة».

كنت لا أكاد أصغى إلى هذه القصص وهي من نمط التي كان السيّد «دو نوربوا» يرويها لو الذي، فما كانت توقّر أيّ غذاء للأحلام التي أعشقها. وحتى لو ملكت على أية حال تلك الأغذية التي كانت خلوا منها فكم كان ينبغي أن تتسم بميزة الإثارة الشديدة كي يمكن لحياتي الداخلية أن تستيقظ في أثناء هذه الساعات الاجتماعية التي كنت أسكن فيها جلدي وشعري الحسن التصفيف وصدار قميصي يعني تلك التي ما كنت أستطيع فيها الاحساس بأيّ شيء ممّا كان يشكّل المتعة في الحياة بالنسبة إليّ.

(*) عالم آثار وقد عربنا اللفظ فحسب لنستطيع رد الخطأ الذي غالباً ما يقع فيه الألمان في لفظ.. arché (وتقال «أركيه» بالفرنسية) أرشيه...

وقالت السيِّدة «دو غيرمانت» التي كانت ترى أنَّ الأمير الألماني يخلُ باللباقة: «آه! لست من رأيك، فأنِّي أجد الملك «ادوار» رائعاً وبسيطاً جداً وأكثر رهافة ممَّا يظنون. والمملكة لاتزال حتَّى الآن أجمل ما أعرف في العالم».

– «لكن ياسيِّدتي الدوقة»، يقول الأمير غاضباً وهو لا ينتبه إلى أنَّه يسوء في عين الناس، «ولكن لو كان أمير «غال» فرداً بسيطاً لما كان ثمة منتدئ إلا ويشطب اسمه ولما رضى أحد أن يشدَّ على يده. إن الملكة رائعة بالغة العذوبة محدودة الأفق. بيد أنَّ ثمة ما يصدم في هذه الأسرة الملكية التي ينقو عليها رعاياها بالمعنى الحرقي للكلمة والتي تحمل كبار رجال المال من اليهود على دفع جميع نفقاتها، التي كان جديراً به هو أن يدفعها، فيعينهم من صغار البارونات في مقابل ذلك. كما هي حال أمير «بلغاريه»...

قالت الدوقة: «هو ابن عمنا وهو على ظرف».

فقال الأمير: «وهو ابن عمي أيضاً، ولكننا لا نعتقد لذلك أنَّه طيب القلب. لا، إنَّما يجدر بكم أن تتقاربوا وإيانا، تلك أعظم رغبة لدى الإمبراطور، ولكنَّه يودُّ أن يأتي ذلك من القلب، ويقول: «ما أبغيه أن تصافحي يدهم لاحتجة إجلال! هكذا يتعدَّر قهركم. ولعلَّ الأمر عملي أكثر من التقارب الإنكليزي – الفرنسي الذي يكرز به السيد «دو نوربوا».

وقالت الدوقة «دو غيرمانت» كي لاتدعني خارج دائرة الحديث: «أنت تعرفه، أدري». وإذ تذكَّرت أنَّه سبق للسيد «دو نوربوا» أن قال إنَّه بدا عليَّ وكأنِّي أبغى تقبيل يده وإذ حسبت أنَّه لابدَّ روى تلك الحكاية للسيِّدة «دو غيرمانت» وأنَّه ما كان يمكن في جميع الأحوال إلا أن يحدثها عني حديث الأذية بما أنَّه لم يتردَّد على الرغم من صداقته لوالدي في أن يهزئي إلى حدِّ بعيد، فأنِّي لم أفعل مالمعل رجل مجتمعات كان فعل. كان قال إنَّه يكره السيد «دو نوربوا» وأشعره بذلك، كان قال ذلك كي يبدو وكأنَّه السبب المتعمَّد لنميمة السفير التي لاتضحى من بعد سوى عملية انتقامية كاذبة ومغرضة. وقد قلت على العكس إنَّني أظنُّ، وبني أسف شديد، أنَّ السيد «دو نوربوا» لا يحبني فأجابت السيِّدة «دو غيرمانت»: «أنت مخطئ، إنَّه يحبك كثيراً. تستطيع مساعلة «بازان». فإنَّ عرفَ عني أنَّني لطيفة أكثر ممَّا ينبغي فأنَّه ليس كذلك. سوف يقول لك إنَّنا لم نسمع السيد «دو نوربوا» في يوم يتحدَّث عن أحد بمثل اللطف الذي يتحدَّث به عنك. وقد عزم مؤخراً أن يستد إليك في الوزارة مركزاً عظيماً. ولما علم أنَّك تعاني من مرض وقد لايمكنك القبول به أبدى لباقة حتَّى في ألا يحدث بجميل قصده والدك الذي يقدِّره لى مالا حدود». كان السيِّد «دونوربوا» بالتأكيد آخر من لعنني توقعت منه خدمة طيبة. ولما كان بالحقيقة متهمكاً بل شيء الطويَّة إلى حدِّ فإنَّ الذين خدعوا مثلي بما ييدي من مظاهر القدِّيس «لويس» يقيم العدالة في ظلِّ سندية وبنغمات صوته السريعة الإشفاق التي كانت تخرج من فمه الرخيم يجاوز قليلاً الحد اللازم كانوا يظنونها خيانة حقيقة حينما يطلعون على قدح بحقهم صادر عن رجل بدا بالأمس وكأنَّه يضع قلبه في أقواله. كانت صنوف القدح تلك كثيرة إلى حدِّ لديه. ولكنَّما لا يحول ذلك دون أن ييدي ضرورياً من الودِّ وأنَّ يمتدح من يحبهم ويسره أن يبدو صاحب معروف إزاءهم.

وقالت لي السيِّدة «دو غيرمات»: «ليس يدهشني على أيِّ حال أن يقدَّرَكَ، فإنَّه ذكِّي». وأضافت من أجل الآخرين وهي تشير إلى مشروع زواج كنت أجهله: «وإنِّي أدرك تماماً أن تبدو له عمَّتِي، وهي لاتسره كثيراً كعمشيقة قديمة، عديمة النفع كزوجة جديدة، ولاسيَّما أنَّها لم تعد تلك حالها، حتَّى كعمشيقة، منذ زمن طويل فهي تفيض من حلاوة التقوى. ويستطيع «بوعز - نوربوا»^(*) أن يقول كما ورد في أبيات فيكتور هوغو:

«هو ذا قد انقضى زمن طويل منذ أن هجرت فراشي إليك،

يارب، تلك التي اضطجعت معها».

حقاً إن عمَّتِي لشبيهة بهؤلاء الفنَّانين الطليعيين الذين هاجموا الأكاديمية طوال حياتهم ثم هم يؤسسون في أواخر سنيهم أكاديميتهم الخاصة؛ أو هؤلاء الذين خلعوا ثوب الرهبان ويصنعون لنفسهم ديناً شخصياً. لقد كان من الأجدى إذ ذاك الاحتفاظ بالثوب أو الامتناع عن الزواج. وأضافت الدوقة بهيئة حاملة: «ومن ذا يدري، ربَّما كان ذلك استشفافاً لترمِّل آت. وليس أبعث على الغم من حداد لاستطيع أن تلبسه».

فقال اللواء «دو سان جوزيف»: «آه! إن أضحت السيِّدة «دو فيلباريزيس» السيِّدة «دو نوربوا» فأظنَّ أن ابن عمنا «جيلبير» سوف يصاب بمرض من جرَّاء ذلك».

وقالت الأميرة «دو بارما»: «إن الأمير» «دو غيرمات» ظريف ولكنَّه بالفعل شديد الحرص على مسائل المولد واللياقة. لقد ذهبت لقضاء يومين في منزله الريف في أثناء ما كانت الأميرة مريضة لسوء الحظ. كانت «الصغيرة» ترافقني (وكان ذلك لقباً يطلقونه على السيِّدة «دو نولشتاين» لأنَّها كانت ضخمة). لقد جاء الأمير ينتظرني في أسفل الدرج وقدم لي ذراعه وتظاهر بأنَّه لا يرى الصغيرة. وصعدنا إلى الطابق الأول حتَّى مدخل الصالات وحيثُ قال وهو يتنحَّى ليفسح لي الطريق: «آه! صباح الخير سيِّدة «دو نولشتاين» (فهو لا يناديها البتَّة إلا هكذا منذ افتراقه)، متظاهراً بأنَّه يلمح الصغيرة آنذاك فقط كي يبرهن أنَّه لا يقع عليه الذهاب لتحيتها في الأسفل».

— «ذلك لا يدهشني إطلاقاً، ولا حاجة بي أن أقول لك»، يقول الدوق الذي كان يخال أنَّه عصري جداً وأنَّه يزدرى أكثر من أيِّ سواه كرم المولد، بل أنَّه جمهوري، «إنِّي لا أشاطر ابن عمِّي الكثير من الأفكار. تستطيع سيِّدتي أن تخمِّن أننا نكاد نتفق حول جميع الأمور مثلما النهار والليل، بيد أنَّه ينبغي أن أقول إنِّي سوف انحاز هذه المرَّة إلى رأي «جيلبير» إن تزوجت عمَّتِي «نوربوا» فإن تكون ابنة «فلوريمون دو غيز» وتقدم على زواج كهذا إنَّما يضحك منَّا الدجاج على حدِّ قولهم، ماذا عساك تريدني أن أقول؟» (كانت هذه الكلمات الأخيرة التي ينطق بها الدوق عامَّة في سط الجملة لاجدوى منها ههنا. ولكنَّما كانت به حاجة مستمرة إلى قولها تحمله على دفعها إلى آخر المقطع إن لم تجد مكاناً في محلٍّ آخر. كان ذلك بالنسبة إليه، من بين ما كان، أشبه بمسألة أوزان شعريَّة). وأضاف يقول: «لاحظي أن آل «نوربوا» نبلاء طيِّبون من بيت

(*) بوعز: هو في الكتاب المقدس زوج راعوث وقد خصه فيكتور هوغو بفصل في ملحمة «أساطير القرون».

كريم وأصل عريق».

وقالت السيدة «دو غيرمانت»: «اسمع يا «بازان»، لاداعي للسخرية من «جيلبير» والتحدّث على غرار» ، وكانت عراقة المولد في نظرها، ولا تقلّ عن عراقة أحد الخمر، إنّما تقوم بالضبط، شأنها في نظر الأمير ونظر الدوق «دو غيرمانت» في قدمها. ولكنّها كانت تصرّ، وهي أقلّ صراحة من ابن عمّها وأكثر رهاقة من زوجها، على ألاّ تكذب في حديثها روح آل «غيرمانت» فكانت تزدرى المكانة في أقوالها على أن تجلّها بأفعالها.

وسأل اللواء «دو سان جوزيف»: «أليس أنكما حتّى على بعض قرابة خوّلة؟ يبدو لي أن «نوربوا» سبق أن تزوّج واحدة من آل «لا روشفوكو».

فأجاب الدوق:

- ولكن لم تكن القرابة بتاتاً بالطريقة تلك. فقد كانت من فرع دوقة «دولاروشفوكو»، وجذّتي من دوقة «دودوفيل»، إنّها جدّة «ادوار كوكو» الرجل الأكثر حكمة في الأسرة، يجب الدوق الذي يحمل آراء بشأن الحكمة سطحية بعض الشيء، «ولم يلتق الفرعان منذ لويس الرابع عشر، وقد يكون ذلك بعيداً إلى حدّ ما».

وقال اللواء: «عجباً، هذا أمر مثير وما كنت أعرفه».

فأردف السيّد «دو غيرمانت» قائلاً: «كانت أمّه على أيّ حال باعتقادي شقيقة الدوق «دو مونمورانسي» وسبق أن تزوّجت بادی الأمر واحداً من أسرة «لانور دوفيرني». ولكن لما كاد هؤلاء «المونمورانسيون» لا يكونون من آل «مونمورانسي» وأنّ جماعة «لانور دو فيرنبي» ليسوا باتاً «لتوردوفيرني» فلست أرى أنّ ذلك يوفّر له مركزاً كبيراً. يقول، وقد يرثي الأمر أهمية أكبر، إنّهُ ينحدر من «سانتري»، وبما أنّنا ننحدر منهم على نحو مباشر...»

كان ثمة في «كومبريه» شارع باسم «دو سانتري» لم أكن قد عدت بالفكر إليه البتّة. وكان يقود من شارع «لابروتوتري» إلى شارع «الوازو». ولما كان «سانتري» رفيق «جان دارك» هذا قد أدخل في هذه الأسرة، بزواجه من «غيرمانتيّة»، دوقيّة «كومبريه» فقد كان شعاره يتوسّط شعار آل «غيرمانت» في أسفل زجاج ملوّن من كنيسة «سانت إيلير». وعدت فرأيت أدراجاً من حجر رمليّ ضارب إلى السواد فيما يعيد تموّج اسم «غيرمانت» هذا إلى النغمة المنسية التي كنت أسمعها فيها بالأمس وهي مختلفة جدّاً عن تلك التي يعني فيها المضيقين اللطيفين اللذين كنت أتعشّى هذا المساء في منزلهما. ولئن كان اسم الدوقة «دو غيرمانت» في نظري اسم جماعة فما كان ذلك في التاريخ فحسب باضافة جميع النساء اللواتي حملنه، بل على امتداد صباي القصير أيضاً الذي سبق أن رأى في الدوقة «دو غيرمانت» هذه وحدها العديد من النساء المختلفات يتناضدن، تزول الواحدة منهنّ بعدما يتفق للتالية ما يكفي من تماسك. إن الكلمات لاتغيّر من مدلولها على مدى قرون بقدر ما تغيّر الأسماء بالنسبة إلينا على مدى بضع سنين. وليست ذاكرتنا وقلبنا على اتّساع كافٍ ليتمكن أن يكونا أمينين. وليس لدينا في فكرنا الراهن ما يكفي من مكان لنحتفظ فيهما بالأموات إلى جانب

الأحياء. وإننا لنضطر أن نبني فوق ما سبق وما لا نعود فنعر عليه إلا اتفاقاً في عملية تنقيب من طراز تلك التي قام بها اسم «سانتراي» منذ قليل. ورأيت من غير المفيد أن أوضح كل ذلك بل إنني كذبت ضمناً قبل قليل حين لم أحر جواباً عندما قال لي السيد «دو غيرمانت»: «ألا تعرف ضيعتنا؟» وربما كان حتى على علم بأنني أعرفها ولم يلح بداعي حسن التهذيب على الأقل. وقطعت عليّ السيدة «دو غيرمانت» تأملاتي.

– إنني أنا أجد كل ذلك قاتلاً. اسمع، ليست الأمور دوماً مملة إلى هذا الحد في منزلي، وأملّي أنك ستعود بسرعة لتناول العشاء للتعويض عليك، ودون أنساب هذه المرة. وتقول لي الدوقة بصوت خافت، وهي عاجزة أن تدرك نوع الروعة التي يمكن أن ألقاها في منزلها وأن تتواضع في ألا تروقي إلا بمثابة معشبة مليئة بالنباتات القديمة العهد.

لقد كان ما تظنه السيدة «دو غيرمانت» مخيباً لآمالي، كان على العكس ما ينقد أُمسيتي في أواخرها – لأنّ الدوق واللواء لم يكفّا من بعد عن حديث الأنساب – من نخبة تامة. وكيف لي ألا أشعر بخيبة حتى ذاك؟ فكل واحد من المدعوين إلى العشاء إذ كان يلبس الاسم الزاخر بالأسرار الذي سبق أن عرفته به وحلمت به عن بعد فحسب جسماً وعقلاً مساويين لما يتفق منهما لجميع الناس الذين كنت أعرفهم أو هما أدنى إنما خلف لديّ انطباعاً بالتفاهة السخيفة التي يمكن أن يورثها الدخول في مرفأ «إيلسنور» الدانمركي لكل قارئ محموم لـ «هملت». وليس من شك أن تلك المناطق الجغرافية وذلك الماضي القديم التي كانت تضع أدواحاً وقباب أجراس قوطية في أسمائهم إنما ألقت إلى حد ما وجههم وعقلهم وآراءهم ولكنها لا تنظّل فيها إلا كالسبب في النتيجة، يعني أنه يمكن استخلاصها بالعقل لكنها غير محسوسة بالخيال.

وقد أعادت آراء الأُمس هذه فجأة إلى أصدقاء السيد «دو غيرمانت» وعقليته شاعريتهم المفقودة. صحيح أنّ المفاهيم التي يملكها النبلاء تجعل منهم المثقفين وعلماء أصول اللسان، لا فيما يخص الكلمات بل الأسماء (وبالنسبة إلى الوسطي الجاهل في البورجوازية فحسب، ذلك لأنه إن كان متدين، في تساوي الضحالة، أقدر من ملحد على إجابتك عن الطقوس الدينية فإنّ عالم آثار مناهض لرجال الدين غالباً ما يتمكن في المقابل أن يبرّكاهن رعيته في كل ما يتعلق حتى بكنيسة هذا الأخير)، تلك المفاهيم، إن شئت البقاء في دائرة الصواب، أي في دائرة العقل، لم تكن تملك حتى في نظر هؤلاء السادة العظام الروعة التي ربما ملكتها في نظر أحد البورجوازيين. ربما علموا خيراً منّي أنّ الدوقة «دو غير» كانت أميرة «كليف» و«أورليان» و«بورسيان» إلخ، ولكنهم كانوا قد عرفوا حتى قبل هذه الأسماء جميعاً وجه الدوقة «دو غير» الذي كان هذا الاسم يعكسه مذ ذاك لناظرهم. لقد بدأت بالجنّة وإن انبغى أن تزل بعد حين؛ أمّا هم فبالمرّة.

إننا نبصر أحياناً ضرورياً من الغيرة تنشأ في الأسر البورجوازية إن تزوّجت الشقيقة الصغرى قبل الكبرى. كذلك كان عالم الأرستقراطيين، ولاسيما آل «كورفوازييه»، بل آل «غيرمانت» أيضاً، يقلص عظمته الأرستقراطية إلى حدّ محض تفوّق في دنيا الخدم بموجب سخافة سبق أن عرفتها بادئ الأمر (وتلك كانت في نظري فتنها الوحيدة) في بطون الكتب. أليس يبدو أنّ «تالمان دي ريو» إنما يتحدث عن آل «غيرمانت» بدلاً من آل «روهان» حينما يروي بارتياح جلّي أنّ السيد «دو غيمينييه» كان يصرخ قاتلاً لأخيه: «تستطيع الدخول هنا، فليس هذا متحف اللوفر!» ويقول عن الفارس «دو روهان» (لأنه كان ابناً غير شرعي للدوق «دو

كليمون» «أما هو فأمر على الأقل! أما الأمر الوحيد الذي غمّني في ذاك الحديث فأن ألاحظ أن الحكايات اللامنتطقية المتعلقة بالدوق الأكبر الظريف وريث عرش «لوكسمبور» كانت نجد أذناً صاغية في هذه الصالة شأنها لدى رفقاء «سان لو». حقاً لقد كان ذلك وباءً لعله لن يدوم سوى سنتين ولكنه يمتد إلى الجميع. وأعادوا الحكايات الكاذبة نفسها وأضافوا أخرى إليها. وأدركت أن أميرة «و كسمبور» نفسها كانت توفّر، فيما تبدو وكأنها تدافع عن ابن اختها، أسلحة لمهاجمته. وقال لي السيد «دو غيرمانت» مثلما سبق أن فعل «سان لو»: «إنك مخطئ في الدفاع عنه. إليك مثلاً، فلندع جانباً حتى رأي أهلنا الإجماعي، حدث عنه خدمه، فهم في الأساس خير من يعرفنا. كانت السيدة «دو لو كسمبور» قد أعطت زنجيها الصغير لابن اختها. فعاد الزنجي باكياً يقول: «دوق أكبر يضرب أنا، أنا غير سافل، دوق أكبر شرير، بالبروعة!» وأستطيع التكلم عن ذلك كلام العارف فإنه ابن عم لـ «أوريان».

ولا يمكنني على أي حال أن أقول كم مرّة سمعت في هذه الأسمية لفظي ابن عم وابنة عم. فقد كان السيد «دو غيرمانت» من جهة يصرخ تقريباً لدى كل اسم ينطقون به: «ولكنه ابن عم لـ «أوريان»! بالابتهاج نفسه الذي يديه رجل ضلّ سبيله في غابة ويقرأ على طرف سهمين رتباً بالتعاكس فوق لوحة اتّجاه ويليهما عدد صغير جداً من الكيلو مترات: «منظرة كازيمير بيريه» و«صليب كبير الصيادين» فيدرك ذلك أنه على الدروب الصحيح. ومن جهة أخرى كانت لفظتا ابن عم وابنة عم تستخدمان بمقصد مغاير تماماً (وكان شاذاً ههنا) على لسان عقيلة سفير تركيا التي كانت قد جاءت بعد العشاء. كان يتأكلها الطموح الاجتماعي وقد وهبت ذكاء حقيقياً سريع التمثل وكانت تتعلم بالسهولة نفسها حكاية «تقهقر العشرة آلاف»^(*) أو الانحراف الجنسي لدى الطيور. ولعله كان يستحيل أن تخطئها حول أحدث الدراسات الألمانية، أبحث في الاقتصاد السياسي أم الأمراض العقلية أم مختلف أشكال الأوثانية أم فلسفة «ايكفور». وكانت إلى ذلك امرأة عاقبة الإصغاء إليها وخيمة فقد كانت، وهي أبداً على ضلال، تعدّ بمثابة نساء طائشات تماماً من يتحلّين بفضائل لا يداينها شكٌ وتحذرك من رجل تحرّكه أشرف المقاصد وتروي ضروباً من الحكايات تبدو وكأنها تخرج من بطون الكتب لامن جرّاء جديتها بل من جرّاء لامعقوليتها.

كانوا قليلاً ما يستقبلونها في تلك الفترة. كانت تتردّد بضعة أسابيع على نساء لامعات تماماً كالدوقة «دو غيرمانت» لكنّها اقتصرت بعامة وعلى الرغم منها، فيما يخص أكثر الأسر اراستقراطية، على فروع مغمورة لم يعد آل «غيرمانت» يتردّدون عليها. وكانت تأمل أن تبدو تماماً من دنيا المجتمعات الراقية بذكر أعظم الأسماء لأناس قليلاً ما يتم استقبالهم وكانوا أصدقاء لها. ويهتز السيد «دو غيرمانت» في الحال فرحاً أن يلقي نفسه في بلاد يعرفها ويطلق صيحة تجمّع ظناً منه أن الأمر يتعلق بأناس كثيراً ما يتناولون عشاءهم في منزله: «لكنه ابن عم لـ «أوريان»! إني أعرفه كما أعرف حبيبي، إنه يسكن في شارع «فانو» وكانت والدته الأنسة «دوزيس». وتضطرّ عقيلة السفير أن تقر بأن مثالها مأخوذ من حيوانات أدنى قدرأ. وكانت تحاول أن تربط بين أصدقائها وأصدقاء السيد «دو غيرمانت» بالحقاق به مواربة: «أعلم تماماً من تعني. لا، ليسوا هؤلاء، إنهم أبناء عم لهم». لكن هذه الجملة المرتدة التي تطلع بها السفيرة المسكينة سرعان ما تتلاشى. فقد كان السيد «دو

^(*) للمؤرخ اليوناني «كزيتوفون» Xenophon

غيرمانت» يجيب خائب الآمال: «آه! أنا لا أرى إذ ذاك من تقصدين». ولا تنبس السفيرة ببنت شفة لأنها إن لم تعرف في يوم سوى «ابناء عم» من كان ينبغي، فكثيراً ما لم يكن أبناء العم هؤلاء حتى من ذوي القربى. ثم ينطلق، فيما يخص السيد «دو غيرمانت» مدّ جديد من عبارات «ولكنّما هي ابنة عم لـ «أوريان» ، وهي كلمات تبدو وكأنّها توقّر للسيد «دو غيرمانت» في كلّ من جملة الفائدة نفسها التي توقّرها بعض النعوت المريحة لشعراء الرومان لأنها تزود أبياتهم السداسية المقاطع بتفعلية مناسبة»(*) .

على أن انطلاق «ولكنّما هي ابنة عم لـ «أوريان» بدت على الأقلّ طبيعيّة تماماً في انطباقها على الأميرة «دو غيرمانت» التي كانت بالفعل شديدة القربى من الدوقة. ولم يكن يبدو أنّ السفيرة تحبّ تلك الأميرة، فقد قالت لي بصوت خافت تماماً: «إنّها غبيّة. لا، ليست جميلة إلى هذا الحدّ، وتلك شهرة مغتصبة». وأضافت بلهجة يطبعها التروّي والاشمئزاز والتصميم: «وإنّها لتوحى إليّ على أيّ حال بنفور شديد». ولكنّ العمومة غالباً ما كانت تمتدّ إلى أبعد من ذلك بكثير إذ ترى السيّد «دو غيرمانت» من واجها أن تقول «عمّي» لنسوة ما كنت لتلقى لهنّ جدّاً مشتركاً معهم دون الرجوع أقلّه حتى لويس الخامس عشر، تماماً كما هي الحال في كل مرّة كانت مصائب الدهر تقضي أن تتزوّج ميلبارديرة أميراً، أي أمير، سبق أن تزوّج جدّة الثالث، شأن جدّ السيّد «دو غيرمانت» ، إحدى بنات «لوفوا» فتقوم إحدى مسرات الأميرة على استطلاعها، منذ أوّل زيارة لفندق آل «غيرمانت»، حيث يسيثون على أيّ حال استقبالها في كثير أو قليل ويجرحون في سلوكها في كثير أو قليل، أن تقول «يا عمّي» للسيّد «دو غيرمانت» التي تدعها تفعل بابتسامة أموميّة. ولكن قليلاً ما كان يهمّني ما عسى أن يكون «المولد» في نظر السيّد «دو غيرمانت» والسيّد «دو بوسيرفوي»، فما كنت أبحث في الأحاديث التي يتبادلانها بهذا الشأن إلا عن متعة شعريّة. كانا يوفّرانها لي، دون أن يعرفاهما، كما ربّما فعل فلاّحون أو بحّارة يتكلمون عن الزراعة وظاهرات المدّ والجزر، وهي حقائق قليلاً ما تنفصل عن ذواتهم حتى يمكنهم أن يتدوّقوا فيها الجمال الذي كنت أقوم شخصياً باستخلاصه منها.

كان الاسم يذكّر أحياناً بواقعة خاصّة، بتاريخ أكثر منه بسلالة. فحينما سمعت السيّد «دو غيرمانت» يذكّر بأنّ والدة السيّد «دو بريوتي» كانت من أسرة «شوازل» وجدّته من أسرة «لوساخ» خلّطني أبصر تحت القميص العادي ذي الأزوار اللؤلؤيّة البسيطة هاتين الذخيرتين الرفيعتين تقطران دماً داخل كرتين من الكريستال: قلب السيّد «دوبرالان» وقلب الدوق «دو بيرّي». كان ثمة أخرى أكثر إمتاعاً: الشعور الطويلة الناعمة للسيّد «تاليان» أو السيّد «دو سابران» .

وأحياناً لم يكن ما أرى محض ذخيرة. فقد كان السيّد «دو غيرمانت» ، وهو أكثر اطلاعاً من زوجته على ما كان عليه أجداده، يحمل ذكريات تضيء على حديثه مظهرها جميلاً لمسكن قديم نخال من الروائع الفنيّة الحقيقيّة ولكنّه مليء بلوحات أصيلة المستوى فخمة يخلف مجملها مظهرها جليلاً. فحينما سألت الأمير «داغريجان» لماذا قال الأمير س... في حديثه عن الدوق دومال «عمّي» أجاب السيّد «دو غيرمانت» قائلاً:

(*) بدا من العسير تقريب مارد في النص من إشارة إلى الشعر اليوناني واللاتيني حيث جاءت لفظة dactyle (وتعني مقطعاً يضم طويلة وقصيرتين) و spondee (وتعني مقطعاً يضم طوليتين) فاستبدلنا بهما التفعيلات.

«لأن شقيق والدته والدوق» دو فو تنبيرغ» سبق أن تزوج إحدى بنات «لويس فيليب» حينذاك تأملت مذخرة كاملة شبيهة بالتي كان يرسمها «كارباتشيو» أو «ميملنغ» من الخانة الأولى حيث تظهر الأميرة في احتفالات عرس شقيقها الدوق «دورليان» وهي تلبس فستان نزهة بسيط لتعرب عن استيائها إذ رأت مبعوثيها يردون على أعقابهم، وكانوا قد ذهبوا يطلبون من أجلها يد الأمير «دو سيراكوز»، إلى الأخيرة التي تقوم فيها من ولادة صبي، هو الدوق «دو فورتنبرغ» (عم الأمير الذي تعشيت وإياه منذ قليل)، في قصر «فانتيزي» هذا، وهو أحد الأمكنة الأرستقراطية، أرستقراطية بعض الأسر: فهي بدورها ترى على مدى أكثر من جيل أكثر من شخصية تاريخية ترتبط بها؛ ففي هذا الأخير على وجه الخصوص تعيش جنباً إلى جنب ذكريات دوقة «بايروت»، وهذه الأميرة الأخرى الغربية الأطوار بعض الشيء «شقيقة الدوق «دورليان» التي كانوا يقولون لها إن اسم قصر زوجها يروق الأسماع، وملك «البافير»، وأخيراً الأمير س.، وكان يشكل بالضبط العنوان الذي طلب منذ برهة إلى الدوق «دو غيرمانت» أن يرأسه إليه، إذ كان قد ورثه ولم يكن يؤجره إلا في أثناء عروض «فاغنة» للأمير «دو بولينياك»، وهو متطرف آخر ارتع. وكان الأمر واحداً كذلك حينما كان السيد «دو غيرمانت» يضطر في سبيل أن يوضح كيف أنه قريب للسيدة «دار باجون» أن يعود بعيداً جداً إلى الوراء وببساطة عظيمة، عن طريق سلسلة ثلاث أو خمس جدات وأيديهن المتشابكة، إلى «ماري لويز» أو «كولبير»؛ فلا يظهر الحدث التاريخي الكبير عرضاً في جميع تلك الحالات إلا من خلف قناع مشوهاً مقلصاً في اسم عقار وفي أسماء امرأة اختيرت على نحو ماهي عليه لأنها حفيدة «لويس فيليب» و«ماري أميلي» لا بوصفهما ملك فرنسا وملكتها بل بمقدار ماحلقاً ميراناً بوصفهما جدتين. (نشاهد لأسباب أخرى في قاموس لآثار «بلزك» لا تظهر فيه أكثر الشخصيات شهرة إلا بحسب صلاتهم بـ«الكوميديا البشرية»، نشاهد نابليون يحتل مكاناً أقل بكثير من «راستينياك» ولا يحتله إلا لأنه تحدث إلى النساء «دورسان سينتي»). كذلك الأرستقراطية، بينائها الثقيل الذي تنفتح فيه نوافذ قليلة تجلب اليسير من الضوء، وإذ تبرز القصور نفسه في الإنطلاقة ولكننا إلى ذلك القوة الكثيفة المعمدة التي تطيع الهندسة الرومانية، إنما نحتبس التاريخ كله وتسد عليه المنافذ وتوليه عبوساً.

وهكذا أخذت مساحات ذاكرتي تغطيها شيئاً فشيئاً الأسماء التي تتراتب ويتشكل بعضها بالنسبة إلى البعض الآخر وتترابط فيما بينها بصلات أكثر فأكثر تعدداً فتحاكي تلك الأعمال الفنية الكاملة حيث ليس من ضربة ريشة معزولة عن غيرها وحيث يأخذ كل جزء من الأجزاء الأخرى علة وجوده مثلما يفرض عليها علة وجوده.

وقد روت عقلية سفير تركيا، إذ عاد اسم السيد «دو لوكسمبور» على بساط البحث، أن جد المرأة الشابة (ذاك الذي كان يملك تلك الثروة الضخمة التي جاءت من الطحين والعجائن) دعا إلى مأدبة غداء السيد «دو لوكسمبور» فرفض هذا الأخير طالباً أن يوضع على المائدة: «السيد...، طحان»، الأمر الذي أجب عليه الجدل بما يلي: «إنما يزيد من اغتنامي أن لم تتمكن من المحي، يا صديقي العزيز، أنني كنت أستطيع الابتهاج بك في جو حميم، فقد كنتاً شلة صغيرة وما كان ليحضر المأدبة سوى الطحان وابنه وأنت» (*). ولم تكن تلك الرواية شنيعة فحسب في نظري أنا الذي كان يعلم الاستحالة الخلقية في أن يكتب عزيزي السيد «دو

(*) إشارة إلى أحد أمثال الشاعر الفرنسي «لافونتين» وهو بعنوان: «الطحان وابنه والحمار».

ناسو» إلى جدّ زوجته (وهو يعلم أنه سوف يرث منه) ناعثاً إيّاه بـ«الطحّان»، ولكنّ الغباء كان يبرز واضحاً منذ الكلمات الأولى إذ إن تسمية الطحّان قد وضعت على نحو جليّ جداً لاستدراج عنوان مثل «لافونتين». ولكنّ في حيّ «سان جيرمان» من الغباوة ما يجد كلّ بها، حينما يزيد منها سوء الطويّة، أنّها كانت «ضربة معلّم» وأنّ الجدّ الذي أعلن الجميع في الحال عن مصدر ثقة أنّه رجل مرموق قد أبدى نباهة أكبر من صهر ابنه. وشاء الدوق «دو شاتيلرو» أن يستغلّ هذه الحكاية ليروي تلك التي سبق أن سمعتها في المقهى: «كان الجميع يأوون إلى أسرّتهم»، ولكنّ الدوق أوقفته منذ الكلمات الأولى وبعدما نقل عن مطالبة السيّد «دو لوكسمبور» بأن ينهض السيّد «دو غيرمانت» قدام زوجته واحتجّت قائلة: «لا، إنّهُ سخيّف جداً ولكن ليس إلى هذا الحدّ». كنت مقتنعة في الصميم أن جميع الروايات المتعلقة بالسيّد «دولو كسمبور» كانت كاذبة على حدّ سواء وأنّني سوف أسمع التكذيب نفسه في كل مرّة أجدني فيها في حضرة أحد الممثلين أو الشهود. هلّي أنّي تساءلت إن كان تكذيب السيّد «دو غيرمانت» ناجماً عن حرصها على الحقيقة أو عن اعتزازها بنفسها. ولكنّ هذا الأخير تراجع أمام سوء الطويّة لأنها أضافت تقول ضاحكة: «لقد مُنيت على أي حال بإهاتني الصغيرة أيضاً فإنّه دعاني إلى العصريّة وهو راغب في أن يعرفني بالدوقة الكبرى «دو لوكسمبور»، إذ هكذا يطيب له أن يدعو زوجته وهو يكتب إلى عمته. وقد أجبته بأسفني وأضفت: «أمّا بشأن «الدوقة الكبرى دو لوكسمبور»، بين قوسين، فقل لها إن جاءت لزيارتي إنّني في منزلي بعد الساعة الخامسة من كل يوم خميس». بل لقد لحقت بي إهانة ثانية. فقد هتفت إليه وأنا في «اللوكسمبور» أن يجيء ويكلّمني على الهاتف. ولكن سمّوه يزع أن يتناول غداً، قد انتهى من تناول غدائه، وانقضت ساعتان دونما نتيجة فلجأت حينذاك إلى وسيلة أخرى: «هل تكرّمت بأن تقول للكونت «دو ناسو» أن يجيء ويكلّمني؟» وأسرع في الدقيقة نفسها وقد استشرته في الصميم. وضحك الجميع من حكاية الدوقة ومن أخرى مشابهة، يعني من أكاذيب، إنني مقتنعة بذلك، لأنّني لم التق يوماً رجلاً أشدّ ذكاءً وأفضل وأوفر رفاة، ولنقل الكلمة الفصل، أكثر روعة من هذا المدعو «لوكسمبور - ناسو». وسوف نرى ممّا يلي أنّي أنا من كان على حقّ. على أنّه يجدر بي الاعتراف بأن السيّد «دو غيرمانت» قد جادت بهجمة لطيفة وسط كلّ «غلاطاتها».

قالت: «لم يكن دوماً على هذه الشاكلة. فقبل أن يفقد رشده، وأن يكون، كما هي الحال في الكتب، الرجل الذي يظنّ أنّه أصبح ملكاً لم يكن غيباً بل كان يتحدّث في بدايات خطوبته». كان يتحدّث عنها حديثاً قريباً إلى القلب إلى حدّ ما وكأنّما عن سعادة غير متوقّعة: «إنّها حكاية جنّيات حقيقية وينبغي أن أدخل إلى اللوكسمبور في عربة جنّيات»، يقول لعمّه «دونيّسان» الذي أجابه، لأنّ اللوكسمبور كما تعلم ليس كبيراً: «عربة جنّيات، إنّني أخشى ألاّ تستطيع الدخول، وإنّني أنصحك بالأحرى بعربة الماعز». فلم يغضب الأمر «ناسو»، وليس ذلك فحسب بل كان أوّل من روى لنا الكلمة وضحك منها.

— «أو ريسان» يفيض ظرافة، ولديه من يورثه إيّاه فإنّ والدته من آل «مونيّو» إنّهُ على غير مايرام هذا المسكين «أوريسان».

وقد كان لهذا الاسم فضل قطع دابر الأذيّات التي كانت ستتوالى إلى مالانهاية. فقد أوضح السيّد «دو غيرمانت» بالفعل أن جدّة السيّد «دوريسان» الثانية كانت شقيقة «ماري دو كاستني مونيّو» زوجة «تيموليون

دو لورين» وعمّة «أوريان» بالنتيجة. وبذلك ارتدّ الحديث إلى الانساب فيما كانت سفيرة تركيا المعهودة تهمس في أذني: «يبدو لي أنك على أحسن اعتبار في أوراق الدوق «دو غيرمانت» فحذار، وإذ سألتها إيضاح ذلك قالت: «أقصد، وستفهمني بالتلميح، أنه رجل يمكنك ائتمانه دونما خطر على ابنتك لاعلى ابنك». وبعد، لئن كان ثمة رجل شغف يوماً، على العكس، بحبّ النساء حصراً فقد كان بالتأكيد الدوق «دو غيرمانت». ولكن الضلالة وعكس الحقيقة الذي يؤخذ بسذاجة إنما كان بالنسبة إلى السفيرة بمثابة الوسط الحيوي الذي لا يمكنها التحرك خارجه. «إن شقيقه «ميميه» الذي ينقري في الصميم لأسباب أخرى «ما كان يحييها» قد أورثه سلوك الدوق عمّاً حقيقياً. كذلك هو شأن عمتها «فيلباريزيس». آه! إني أعشقها. تلکم امرأة قديسة والنموذج الحقيقي لسيّدات الأُمس العظيمات. فليست الفضيلة بعينها فحسب بل الاحتشام. إنه لا تزال تقول: «ياسيدي» للسفير «نوربوا» الذي تلقاه كلّ يوم والذي خلّف في تركيا، بين قوسين، ذكراً طيباً.

ولكنني لم أحب السفيرة بغية سماع الأنساب. ولم تكن كلّها ذات شأن بل لقد اتّفق في أثناء الحديث أن إحدى المصاهرات اللامتوقّعة التي اطلعتني عليها السيّد «دو غيرمانت» كانت زواجاً غير متكافئ لكّنه لا يخلو من روعة إذ قرن في العهد الملكي الذي بدأ في تموّز الدوق «دو غيرمانت» والدوق «دوفرنزاك» بالابنتين الفاتنتين لأحد رجال البحر المرموقين فأضفى على هذا النحو على الدوقتين الإثارة اللامتوقّعة المنبعثة من ظرافة غريبة في طابعها البورجوازي من عصر لويس فيليب في طابعها الهندي. أو أن أحد آل «نوربوا» سبق أن تزوّج في عهد لويس الرابع عشر ابنة الدوق «دو مورتمار» الذي كان لقبه الشهير ينعكس، في أقاصي ذلك العهد، على اسم «نوربوا» الذي كنت أجده كامداً ويخيل إليّ أنه حديث العهد وينحت فيه بعمق جمال ميدالية. ولم يكن أقلّ الأسماء شهرة، في تلك الحالات، هو الذي يكسب فحسب من جرّاء التقارب، فقد كان الآخر، وقد أضحي عادياً من كثرة الألق، يدهشني أكثر فأكثر خلف هذا المظهر الجديد والأقلّ ذبوعاً مثلما يتّفق أحياناً أن يكون الأكثر روعة من بين لوحات رسّام خلاّب الألوان رسّم خطّ كلّه باللون الأسود. وما كان مردّ سرعة الحركة الجديدة الي يبدو لي أن تلك الأسماء تتسم بها إذ تقبل فتتخذ مكانها إلى جانب أخرى كنت ظننتها شديدة البعد عنها، ما كان مردّها جهلي فحسب؛ فهذه التقلّبات التي كانت تقوم بها في ذهني لم تفعلها بأقلّ يسراً في تلك العهود حيث كان اللقب دائم الارتباط بالأرض فيتبعها من أسرة إلى أخرى حتّى إني كنت أستطيع على سبيل المثال، داخل البناء الإقطاعي الجميل الذي يؤلفه لقب دوق «نومور» و دوق «شوفروز»، أن اكتشف على التوالي أفراداً من آل «غيز» وأميراً من آل «سافوا»، وآخرين من آل «أورليان» و«لوين» يقبعون وكأنا في دار مضيافة لأمثال «بيرنار» الناسك. وأحياناً يظلّ العديد منهم يتنافسون على قوقعة واحدة: فعلى أمانة «أورانج» الأسرة المالكة في البلاد المنخفضة والسادة «دو مائي - نيل»، وعلى دوقية «برابان» البارون «دو شارلوس» والأسرة المالكة في بلجيكا، وآخرون غيرهم ما أكثرهم على ألقاب أمانة «نابولي» ودوقية «بارما» ودوقية «ريجيو» ويتّفق العكس أحياناً، فالقوقعة قد خلت منذ زمن بعيد جداً من ملاكها الذين طواهم الموت منذ عهد بعيد إلى حدّ أنني لم أتنبه في يوم أن اسم القصر هذا أو ذاك كان يمكن أن يؤلّف في فترة هي بإجمال القول غير بعيدة جداً اسم إحدى الأسر. من ذلك أنّي، فيما كان السيّد «دو غيرمانت» يجيب عن سؤال للسيّد «دو مونسيرفوي»: «لا، لقد كانت ابنة عمّي ملكيّة مهووسة، فهي ابنة المركيز «دو فيتيرن» الذي قام بدور لا يستهان به في حرب الشوان»، حلّ بي لدى رؤية اسم «فيتيرن»، هذا الذي كان في نظري اسم قصر

منذ إقامتي في «باليك»، يضحي مالم يخطر لي البتة أنه يمكن أن يكون، أي اسماً لأسرة، حلّ بي مايجل من دهشة في مشهد خرافي تدبّ فيه الحركة في أبراج صغيرة وفسحة درج فتضحي أشخاصاً. ويمكننا أن نقول بهذا المعنى إن التاريخ، وحتى تاريخ الأنساب حصراً، إنما يعيد الحياة إلى الأحجار العتيقة. لقد كان في المجتمع الباريسي أناس لعبوا فيه دوراً مرموقاً ولاقوا فيه بداعي أنافتهم أو نباهتهم وذاً أكثر من الدوق «دو غيرمانت» أو الدوق «دولاتريمواي» وكانوا يمثل كريمة محتدهما. واليوم لقهم النسيان لأن اسمهم الذي لم يعد يسمع البتة بما أنهم لم يخلقوا ذرية إنما يتردد بمثابة اسم مجهول، ويظلّ على الأكثر اسم شيء لا يخطر لنا أن نكتشف خلفه اسم بشر ويطلق على قصر، أي قصر، على قرية بعيدة، وفي يوم قريب سوف يجهل المسافر الذي سيتوقف في أقاصي مقاطعة «بورغونيا» في قرية «شارلوس» الصغيرة بغية زيارة كنيسة أن اسم «شارلوس» هذا كان اسم رجل ماشى أعظم الرجال. وذكرني هذه الفكرة بأنه ينبغي لي أن أرحل وأن ساعة موعدي مع شقيق السيد «دو غيرمانت» كانت تقترب فيما أنا أصبني إلى حديثه عن الأنساب. وتابعت التفكير في نفسي قائلاً: من ذا يعلم إن كان «غيرمانت» سوف يبدو ذات يوم بدوره شيئاً مختلفاً عن اسم المكان، إلا في نظر علماء الآثار الذين توقّفوا صدفة في «كومبريه» وسوف يتوافر لهم أمام زجاج «جيلبير لو موفيه» الصبر للاستماع إلى خطابات خلف «تيودور» أو قراءة دليل الخوري. ولكن الاسم العظيم إنما يستبقي الذين حملوه، مادام بعد لم ينطفئ، في دائرة الضياء. وليس من شك أن الأهمية التي كانت توليها لناظري، في قسم منها، شهرة تلك الأسر أنك تستطيع انطلاقاً من يومنا هذا أن تتابعها بالارتفاع درجة فدرجة حتى مابعد القرن الرابع عشر وأن تعثر على مذكرات سائر جلود السيد «دو شارلوس» والأمير «داغريجان» والأميرة «دو بارما» ومراسلاتهم في ماضي ربما حجب فيه ليل دامس أصول أسرة بورجوازية وفيه نعيم خلف الارتسام المضيء الراجع لأحد الأسماء منشأ بعض السمات العصبية وبعض العيوب وفساد هذه الفئة أو تلك من آل «غيرمانت» واستمرارها جميعها. وإنهم ليثيرون، وهم يشبهون تقريباً على نحو مرضي جماعة اليوم، يثيرون من قرن إلى قرن اهتمام مراسليهم المحاذر سواء أكانوا سابقين للأميرة البالائنية والسيدة «دو موفيل» أو جاؤوا بعد الأمير «دولينبي».

كان فضولي التاريخي ضعيفاً على أي حال إذا ما قورن بالمتعة الجمالية. فقد كان من شأن الأسماء المذكورة أن تعري مدعوي الدوقة الذين أحالهم قناع الجسد والغباء أو الذكاء العادي أناساً، مطلق أناس عاديين، فلكتاني حططت على حصيرة الردهة في أقاصي عالم الأسماء المسحور لا على عتبة كما سبق وخيل إليّ. فقد تخلص الأمير «داغريجان»، ما أن سمعت أن والدته كانت من أسرة «داماس» وحفيدة الدوق «دو مودين»، من الهيبة والأقوال التي كانت تحول دون أن أتعرفه، وكأنا من رقيق كيميائي غير مستقر، وراح يؤلف مع لفظتي «داماس» و«مودين» اللتين كانتا من محض الألقاب مركباً أكثر روعة بما لا يقاس. كان كل اسم تحرّك من جرّاء اجتذاب آخر له ما ارتبت أن أيّ قارية تجمعه إليه يهجر المكان الثابت الذي كان يشغله في دماغي حيث كسسته العادة لونا كامداً ويروح يلحق بال «مورتمار» أو آل «ستيوار» أو آل «بوربون» ويرسم معهم فروعاً رشيقاً الأشكال متغيرة الألوان. واسم «غيرمانت» نفسه كان يكتسب من جميع الأسماء الجميلة التي انطفتأت وعادت فاشتعلت متزايدة اللهب لذلك والتي كان يبلغني فحسب أنه مرتبط بها بتحديداً جديداً شاعرياً صرفاً. كنت أستطيع على الأكثر أن أبصرها على طرف كل انتفاخ في الساق الشامخة تتفتح على هيئة ملك

حكيم أو أميرة مشهورة كوالد هنري الرابع أو الدوقة «دو لو نغفيل». ولما لم تكن أية بقية من خبرة مادية وضحالة مجتمعية تضخم في نظري تلك الوجوه، وهي مختلفة في ذلك عن وجوه المدعوين، فقد كانت تلبث بخطوطها الجميلة وألوانها المتغيرة مجانسة لتلك الأسماء التي كانت تنفصل على فترات منتظمة، كلّ بلون مختلف، عن شجرة عائلة «غيرمانت» ولاتعكر بأية مادة غريبة وعاتمة البراعم الشفافة المتعاقبة المتعددة الألوان التي كانت تزهر على كلا جانبي الشجرة الزجاجية مثلما جدود يسوع على زجاج «جيسيه» الملون العتيق.

كنت قد وددت مراراً وتكراراً أن انسحب وذلك، أكثر منّي لأي سبب آخر، من جرّاء التفاهة التي يفرض حضوري طابعها على هذا الاجتماع، مع أنّه واحد من تلك التي كثيراً ما تصوّرتها بالغة الجمال، ولعلّه كان دونما شكّ كذلك لو لم يكن ثمة شاهد مزعج. كان رجلي سوف يمكن المدعوين على الأقلّ، بعدما يغادر الغريب المكان، من أن يؤلّقوا أخيراً لجنة سرية. سوف يستطيعون الاحتفال بالأسرار التي اجتمعوا من أجل إقامة طقوسها لأنهم لم يفعلوا بالطبع للتحدّث عن «فرانس هالز» أو عن البخل وللتحدّث عنهما على نحو ما يفعل جماعة البورجوازيين. ما كانوا يقولون سوى التوافه لأنني كنت حاضراً، لاشكّ في ذلك، فيؤثّرني ضميري، إذ أرى كلّ هاتيك النساء الجميلات المتفرّقات، أن أحول بحضوري دون أن يحين حياة حيّ «سان جيرمان» الخفية في أبهى صالاتها. على أن ذلك الرحيل الذي كنت أبني تنفيذه في كلّ لحظة إنّما كان السيّد «دو غيرمانت» والسيدة عقلية يبلغان بروح التضحية حدّاً تأخيره بالاحتفاظ بي. والأمر الأكثر غرابة بعد أن العديد من السيدات اللائي جئن مسارات معتبطات مزينات مرصّعات بالأحجار الكريمة كي لا يشهدن بسببي سوى احتفال ما كان يختلف اختلافاً أكثر جوهرية من تلك التي تقام في غير حيّ «سان جيرمان» أكثر ممّا يحسّ المرء في «بالبيك» أنّه في مدينة تختلف عمّا تعودت عيوننا رؤيته - أن العديد من هؤلاء السيدات انسجن لاختابات الآمال كما كان ينبغي أن يكنّ بل شاكرات بحرارة للسيدة «دو غيرمانت» الأمسية البديعة التي قضيتها كما لو لم يكن يجري أمر آخر في الأيام الأخرى التي لم أكن فيها هنالك.

أفحقاً لمثل أعشية من نمط هذا الأخير كانت تتزيّن كلّ هذه النساء ويرفضن السماح لبورجوازيات بالدخول إلى صالاتهنّ المغلقة إلى هذا الحدّ؟ لأعشية من نمط هذا الأخير؟ وهي واحدة لو كنت غائبة؟ وداخلي لحظة من ذلك ارتياب ولكنّه كان مستحيلاً إلى أبعد الحدود وكان محض الحسّ السليم يمكنني من استبعاده. ثمّ إنّي لو أخذت به فما الذي كان بقي من اسم «غيرمانت» وقد دبّ فيه البلى منذ «كومبريه»؟

كان من اليسير إلى درجة غريبة على أيّ حال إرضاء تلك الفتيات الزهرات على يد شخص آخر بل كنّ هن راغبات في إرضائه، ذلك أنّ أكثر من واحدة من اللواتي لم أوجّه إليهنّ في كامل الأمسية إلّا جملتين أو ثلاثاً أنجلني غباؤها أصبرن قبل مغادرة الصالة على المجيء ليقطن لي، وهنّ يحدّثن إليّ بعيونهنّ الجميلة الناعمة فيما يرفعن شريط زهور الأوركيدا الذي يلفّ صدورهنّ، أية متعة شديدة أصبن من تعرفهنّ بي ويحدّثنني عن رغبتهنّ «في ترتيب شيء ما» بعدما يكنّ قد «حدّدن يومهنّ» مع السيدة «دو غيرمانت» وذلك تلميح من خلف ستار إلى دعوة عشاء.

لم ترحل أي من تلك السيدات الزهرات قبل الأميرة «دوبارما». فقد كان وجود هذه الأخيرة - إذ ينبغي ألا يمضي أحد قبل إحدى صاحبات السمو - واحداً من السبين اللذين لم أظنّ لهما واللذين ألحت

الدوقة من أجلهما كل هذا الإلحاح لكي أبقى. وما أن نهضت السيّدة «دو بارما» حتّى كان مايشبه الخلاص. فبعد ما نلت كلّ السيدات ركبتهنّ أمام الأميرة التي أنهضتني، نلن منها عبر قلبية، وكأنا تلك بركة طلبتها جانيات، الإذن في طلب معطفهنّ وخدمهنّ، وكان من جرّاء ذلك أمام الباب ما يشبه تلاوة مهتوفة لأسماء كبيرة في تاريخ فرنسا. وكانت الأميرة «دو بارما» قد منعت السيّدة «دو غيرمانت» من النزول لمرافقتها حتّى الردهة مخافة أن تصاب بالبرد فكان أن أضاف الدوق يقول: «هيا يا «أوريان»، بما أن سيّدي تأذن بذلك، وتذكّري ما قاله لك الدكتور».

«اعتقد أن الأميرة «دو بارما» قد سعدت جداً بتناول العشاء معنا». كنت أعرف العبارة، وقد اجتاز الدوق كامل الصالة كي يأتي وينطق بها في حضرتي بلهجة لطيفة مشبعة بما يقول، وكأنا يسلمني شهادة أو يقدم لي معجنات محمصة. وشعرت من المسرة التي كان يبدو وكأنه يحسّ بها في تلك اللحظة والتي كانت تضفي على وجهه تعبيراً مؤقّتا من العذوبة الشديدة أن نوع الاهتمامات التي يمثلها ذلك في نظره كان من تلك التي قد يفني بها حتى آخر لحظة في حياته شأن تلك الوظائف الفخرية السهلة التي يظلّ المرء يحتفظ بها حتّى في خروقه.

وفي اللحظة التي كنت أزمع فيها الذهاب عادت إلى الصالة وصيفة شرف الأميرة وقد نسيت أن تحمل معها أزهار قرنفل بدلية وردت من «غيرمانت»، وكانت الدوقة قد أعطتها للسيّدة «دو بارما» كانت وصيفة الشرف محمّرة الوجه إلى حدّ ما وكنت تحسّ أنّها استعجلت في ذلك لأن الأميرة التي كانت لطيفة جداً إزاء الجميع ما كانت تستطيع تمالك نفاذ صبرها إزاء حماقة وصيفتها. ولذلك فقد كانت هذه الأخيرة تجري بسرعة حاملة أزهار القرنفل، ولكنّها، بغية الاحتفاظ بمظهر الارتياح والمراحة لديها، ألقت هذه الكلمات وهي تمرّ أمامي: «ترى الأميرة أنني متأخّرة وتودّ أن نكون ذهبا ومعنا أزهار القرنفل مع ذلك. أنا لست بالطبع عصفوراً صغيراً ولا يمكنني أن أكون في أمكنة عدّة في آن واحد».

لم يكن سبب الإحجام عن القيام قبل إحدى صاحبات السموّ السبب الوحيد للأسف. فلم استطع الذهاب في الحال إذ كان ثمة سبب آخر قوامه أن ذلك البذخ المشهور والمجهول لدى آل «كورفوازييه» والذي كان آل «غيرمانت» المنعمون أو نصف المفلسين يجيدون إمتاع أصحابهم به لم يكن محض بذخ ماديّ ولكنّه إلى ذلك، كما سبق لي أن اختبرته مرّات عديدة لدى «روبير دو سان لو» ترف أقوال رائعة وأعمال لطيفة ومجمل أناقة كلاميّة يغذوها ثراء داخليّ حقيقيّ. ولكن بما أن هذا الثراء يظلّ دون استعمال في بطالة المجتمعات الراقية فقد كان أحياناً ينساب باحثاً عن تصريف في ضرب من الحنان العابر المتزايد فلقاً لذلك ولعلّه كان يمكن أن يوهم بالموّدة إن جاء على يد السيّدة «دو غيرمانت». كانت تحسّ بها على أيّة حال لحظة تدع لها أن تفيض إذ كانت تجد إذ ذاك في عشرة الصديق أو الصديقة التي تكون معها ضرباً من نشوة غير شهوانية على الإطلاق شبيهة بتلك التي تهبطها الموسيقى بعض الناس. فقد كان يتفق لها أن تنزع زهرة من صدارها، ميدالية كبيرة، وأن تعطيهما لمن لعلّها تمنّت أن تطيل السهرة معه فيما تشعر بمرارة بأنّ مثل هذا التطويل ما كان يمكن أن يقود إلى غير أحداث لا طائل تحتها ولن يتخللها شيء من المتعة العصبية والانفعال العابر، وهي شبيهة في ذلك بأول دفء الربيع بما يخلف من إحساس بالإرهاق والحزن. أمّا بشأن الصديق فما كان

ينبغي أن تضلله الوعود كثيراً، وهي أبعد نشوة في النفس من أيّ وعد سمعه في يوم، تنطق بها تلك النسوة اللواتي يشعرون شعوراً ما أشده بعدوبة إحدى اللحظات فيجعلهن منها بنعومة ونبل يتجهلهما المخلوقات العادية رائعة مؤثرة من الظرافة والطيبة ولا يظلل لديهن شيء يهينه من ذواتهن بعدما تحلّ لحظة أخرى. فوداهن لا يبقى بعد الحماسة التي تمليه، وإن رهاقة الفكر التي قادتهن آنذاك إلى استشفاف جميع الأمور التي كنت راعياً في سماعها وإلى اسماعك إياها سوف تمكنهن كذلك بعد بضعة أيام من الوقوف على مواطن الهزء فيك فيضحكن منها آخر من زوارهن يتذوقن بصحبته إحدى تلك «اللحظات الموسيقية» التي تتسم بالقصر الشديد.

وفي الردهة التي طلبت فيها إلى الحجاب حدائي الثلجي الذي كنت قد أخذته بدافع الحيلة من الثلج، وقد سبق أن تساقطت منه بعض رقع سرعان ما استحالت أرحالاً، دون أن انتبه إلى أن في الأمر قلة لياقة، شعرت من جرّاء ابتسامه متعالية صدرت عن الجميع بخجل بلغ أعلى درجاته حينما تبين أن السيدة «دو بارما» لم ترحل وكانت تراني انتعل حدائي المطاطي الأميركي. وعادت الأميرة إليّ وصاحت قائلة: «أوه! باللفكرة الجميلة، وكم هي عملية! إليكم رجلاً ذكياً». وقالت لوصيفتها: «سيدتي، ينبغي أن نبتاع ذلك»، فيما كانت سخريه الخدم تنقلب لإجلالاً ويسارع المدعوون من حولي كي يستفسروا مني أين أمكن أن أعثر على مثل هذه الغرائب. وقالت لي الأميرة: «بفضل هذا لن يصيبك ما تخشاه حتى وإن عادت إلى الإثلاج وذهبت أنت بعيداً».

وقاطعتها وصيفة الشرف بلهجة حاذقة: «يمكن لسموك الملكي أن يطمئن بهذا الشأن فلن يعود الثلج إلى التساقط».

وسألت الأميرة «دو بارما» الرائعة بلهجة حادة، وكان غباء وصيفتها يفلح وحده في أزعاجها: «وما عساك تدرين عن ذلك ياسيديتي؟»

- «أستطيع أن أؤكد الأمر لسموك الملكي، لا يمكن أن تعود إلى الإثلاج ففي ذلك استحالة مادية».

- «ولماذا؟».

- «لا يمكن أن تعود إلى الإثلاج فقد قاموا باللازم لذلك: لقد رشوا الملح على الأرض».

ولم تلاحظ السيدة الساذجة غضب الأميرة وابتهاج الآخرين لأنها قالت لي بابتسامة وديعة دون أن تأخذ في حسابها انكاري فيما يتصل بأمر البحر «دولا غرافير»: «وما هم على أية حال؟ لا بد أن للسيد قدماً بحارة، والأصيل يعمل بأصله».

بعدما صحب السيد «دو غيرمانت» الأميرة «دو بارما» قال لي وهو يأخذ معطفي: «سأساعدك على دخول قشرك». وما كان حتى يتسم وهو يستخدم هذا التعبير لأن أكثرها عامية قد أصبح من جرّاء ذلك، وبسبب تكلف آل «غيرمانت» البساطة، ارستقراطياً.

ولما كانت الحماسة لأنفذي إلا إلى الحزن لأنها كانت متصنعة فإن ذلك هو ما أحسست به، وإن على نحو يغاير تماماً حال السيدة «دو غيرمانت»، بعدما خرجت في نهاية المطاف من منزلها، داخل العربة التي

كانت تزعم نقلي إلى فندق السيد «دو شارلوس». ذلك أننا نستطيع باختيارنا أن نصرف إلى إحدى قوتين، أولاهما ترتفع من ذاتنا وتصدر عن انطباعاتنا العميقة، والثانية تجئنا من الخارج. فالأولى تحمل بالطبع معها فرحاً، ذلك الذي تبعثه حياة المبدعين. أما التيار الثاني الذي يحاول أن يدخل فينا الاضطراب الذي يهز الأشخاص الخارجيين فلا ترافقه المتعة. ولكننا نستطيع أن نضيف إليه متعة عن طريق الارتداد وبشوة متكلفة إلى حد أنها سرعان ما تنقلب ملأً وحزناً. ومن هنا ذلك الوجه المتجهم الذي يميز الكثيرين من رجال المجتمعات ومالديهم من الحالات العصبية الكثيرة التي يمكن أن تبلغ حد الانتحار. وقد كنت داخل العربة التي تقودني إلى منزل السيد «دو شارلوس» فريسة هذا النوع الثاني من الحماسة وهي مختلفة تماماً عن تلك التي يخلفها فينا انطباع شخصي كذلك الذي وافاني داخل عربات أخرى: فمرة في «كومبريه» داخل عربة الدكتور «بيرسييه» التي أبصرت منها قُبتي أجراس «مارتنفيل» ترسمات في الغروب؛ وذات يوم في «باليك» داخل عربة السيّد «دو فيلباريزيس» وأنا أحاول تمييز الذكرى التي يحملها إليّ ممر مشجر. فأما ما كان قبالة عيني فكري في هذه العربة الثالثة فالأحاديث التي سبق أن بدت لي مملة إلى هذا الحد في عشاء السيّد «دو غيرمانت»، كقصص الأمير «فون» مثلاً عن امبراطور ألمانيه واللواء «بوتا» والجيش الإنكليزي. لقد قمت بوضعها في المنظار المجسم الداخلي الذي نضفي بروزاً عبره، منذ اللحظة التي لم نعد فيها ذواتنا، ومنذ اللحظة التي نتخذ فيها نفساً مجتمعية فلا نبغي أن نجيشنا حياتنا من بعد إلا على يد الآخرين، نضفي بروزاً على ما قالوا وعلى ما فعلوا. وكمثل رجل ثمل يفيض رقة مشاعر إزاء نادل المقهى الذي قام على خدمته أخذت أذهل لسعادتي التي لم أشعر بها بالحقيقة في اللحظة ذاتها، سعادتي أن تناولت عشائي مع رجل كان يعرف حق المعرفة «غليوم الثاني» وقد روى عنه نواذر تتسم صدقاً بالظرف. وإذ تذكرت، بالإضافة إلى نبوة الأمير الألمانية، قصة اللواء «بوتا» أخذت أضحك بصوت عال كما لو كانت هذه الضحكة ضرورية لتلك القصة من أجل تدعيم مواطن الهزل فيها شأن بعض ضروب التصفيق التي تزيد من الأعجاب الداخلي. حتى ما سبق أن بدا لي من أحكام السيّد «دو غيرمانت» متسماً بالغباء (حول «فرانس هالز» مثلاً الذي ينبغي أن تراه من حافلة ترام) أخذ يكتسب حياة وعمقاً خارقين. ولا بد لي أن أقول إنَّ هذه الحماسة لم تكن مطلقة الحماسة وإن تهاوت بسرعة. ومثلما يمكن أن تسعدنا ذات يوم معرفة المرأة التي كنا نزديها أكثر ما نزدري إذ يتفق أن تكون على صلة بفتاة نحجها ويمكن أن نعرف بنا وتيسر لنا على هذا النحو الفائدة والمتعة، وهما أمران لعلنا ظنناهما خلت منهما إلى الأبد، فليس من أقوال ولا من علاقات يمكن أن نوقن أننا لن نستخلص منهما يوماً شيئاً ما. إنَّ ما قالته لي السيّد «دو غيرمانت» حول اللوحات التي ربما بدا مفيداً أن نراها حتى من حافلة ترام كان خطأ ولكنما يحتوي جزءاً من حقيقة كان بالنسبة إليّ كبير الأهمية فيما بعد.

وكذلك كانت أبيات «فيكتور هوغو» التي ذكرتها لي، ولا بد من الإقرار بذلك، من فترة سابقة لتلك التي أضحي فيها أكثر من رجل جديد وأبرز فيها عبر التطور نوعاً أدبياً مجهولاً بعد يمتاز بأدوات أكثر تعقيداً. ففي هذه القصائد الأولى لا زال «فيكتور هوغو» يفكر عوضاً عن أن يكتبني، شأن الطبيعة، بالدفع إلى التفكير. «فالفكر» إنما كان يعبر عنها حينذاك بأكثر الصيغ مباشرة وبما يقارب المعنى الذي كان يطلقه الدوق على اللفظة حينما كان يجد من قديم الطراز والإزعاج أن يقوم المدعوون إلى حفلاته الكبرى في «غيرمانت» باتباع توقيعهم على دفتر صور القصر بفكرة فلسفية شعرية فينبه الوافدين الجدد بلهجة متوسلة: «اسمك، يا عزيزي،

ولكن بدون فكرة! وكانت «فكر» فيكتور هوغو تلك (وهي غائبة تقريباً في «أسطورة القرون» غياب «الألحان» غيباب «الألحان» في طريقة «فاغنر» الثانية) هي التي كانت السيّد «دو غيرمانت» تحبها في طريقة «هوغو» الأولى، وما كانت على ضلال مطلق. فقد كانت مؤثرة، وكان تدفق الكلمات الكثيرة والقوافي الغنية المخارج من حولها، ودون أن يكون الشكل قد اكتسب بعد العمق الذي لن يبلغه إلا فيما بعد، يجعلها غير شبيهة بتلك الأبيات التي يمكن اكتشافها لدى أمثال «كورنيي» على سبيل المثال حيث لم تنفذ رومانتيكية متقطعة مكتومة، وهي لذلك أكثر تأثيراً فينا، لم تنفذ مع ذلك إلى منابع الحياة المادية ولم تغير الجسم اللاواعي القابل للتعميم الذي تقبع فيه الفكرة. وقد كنت لذلك غير محقّ في الاختصار حتّى ذاك على مجموعات «هوغو» الأخيرة. كان حديث السيّد «دو غيرمانت» لايزدان بالحقيقة إلا بجزء زهيد من الأولى. ولكنك إذا ذكرت على هذا النحو بيتاً معزولاً فإنما تضاعف بالضبط عشر مرّات قوّة الجذب فيه. وإنّ الذي ولج منها ذاكرتي أو عاد فولجها في أثناء ذلك العشاء إنّما كان يغمط بدوره ويستدعي إليه بقوة عظيمة المقطوعات التي تعود أن تضمّه إلى حدّ لم تستطع معه يداي المكهربتان أن تقاوم أكثر من ثمان وأربعين ساعة القوّة التي كانت تقودهما إلى المجلّد الذي جمعت فيه «الشرقيات» و«أناشيد الشفق». ولعنت خادماً «فرانسواز» الخاصّ أن أهدى مسقط رأسه نسختي من «أوراق الخريف» وأرسلته لبيتناج أخرى دون إضاعة لحظة واحدة. وقرأت هذه المجلّدات من أولها إلى آخرها ومامعدت فوجدت الطمأنينة إلا حينما أبصرت فجأة الأبيات التي ذكرتها لي السيّد «دو غيرمانت» وهي تنتظرني في الضياء الذي غمرتها بها. كانت المحادثات مع الدوقة تشبه، من جرّاء كامل تلك الأسباب، تلك المعلومات التي نستقيها من مكتبة قصر متقدمة العهد ناقصة عاجزة عن تكوين العقل ومجرّدة تقريباً عن كلّ مانحٍ ولكنّها تقدّم لنا أحياناً إحدى المعلومات الغريبة وحتّى استدكاراً لصفحة جميلة ما كنّا نعرفها وسعدنا فيما بعد أن نذكّر أنّنا مدينون في معرفتها لمسكن سيّدي رائع. وبغرينا إذ ذاك، لأننا وجدنا مقدّمة «بلواك» لكتاب «الشارتروز»^(*) أو رسائل لم تنشر بعد لـ«جوير»، أن نبالغ في تقدير الحياة التي قضيناها فيه والتي ننسى طيشها العقيم مقابل هذا الحظّ الذي أصبناه ذات مساء.

ولكن لم يستطع هذا العالم، من وجهة النظر هذه، أن يستجيب في الوهلة الأولى لما كان ينتظره خيالي وكان سيدهشني بالتالي في أوّل الأمر بما له من أسس يجمعه إلى جميع العوالم أكثر منه بما يختلف عنها فقد تكشف مع ذلك لناظري شيئاً فشيئاً على أنّه متميّز تماماً. إنّ الأسياد العظام هم الجماعة الوحيدة تقريباً التي يمكن أن نتعلّم منها بقدر ما نعلّم من الفلاحين، فحديثهم يزدان بكلّ ما يتعلّق بالأرض والمنازل وكيفية سكناها بالأمس وبالعادات القديمة وبكلّ ما يجعله عالم المال جهلاً عميقاً. فإنّ بلغ بأكثر الأرستقراطيين اعتدالاً في مطامحه أن يلحق بالعصر الذي يعيش فيه فإنّ أمّه وأعمامه وجذّات عمّاته يصلون بينه، حينما يتذكّر طفولته، وبين ما كان يمكن أن تكون عليه حياة مجهولة تقريباً في يومنا. ولعلّ السيّد «دو غيرمانت» ما كانت لتشير في غرفة أموات سجنٍ فيها ميت اليوم إلى جميع مواطن الإخلال بالعادات بل كانت أدركتها في الحال. فقد كان يصدمها أن تبصر النساء في جنازة يختلطن بالرجال في الوقت الذي ينبغي أن يقام فيه للنساء طقس خاصّ. أمّا الجلالة التي ربّما حسب «بلوك» دونما شكّ أن استخدامها كان وفقاً على الجنازات

(*) La chartreuse: هو دير مجس وعنوان رواية مشهورة! «ستندال».

بسبب أشرطة الجلالة التي يتحدثون عنها في محاضر المآتم فقد كان السيد «دو غيرمانت» لا يزال يستطيع أن يذكر الزمن الذي شاهدها فيه، وهو طفل بعد، مستخدمة في زفاف السيد «دوماي» - نيل». وفيما كان «سان لو» قد باع «شجرة نسيه» الثمينة ورسوماً قديمة لآل «بويون» ورسائل اللويس الثالث عشر لشراء لوحات لـ «كارير» وأثنا من طراز عصري، احتفظ السيد «دو غيرمانت» والسيدة عقيلته، يدفعهما شعور ربما كان فيه لحب الفن المتقد دور أدنى وجعلهما في صورة أكثر ضحالة، بأثاثهما الرائع الذي من طراز «دو بول» والذي يوفر مجموعة أكثر إغراء لعين الفنان. ولعل الأديب كذلك كان وجد فتنة في حديثهم الذي ربما ألف في نظره - إذ الجائع لا حاجة به إلى جائع آخر - قاموساً حياً لكل تلك العبارات التي يزداد كل يوم نسيانها؛ فريطات عتق من طراز «سان جوزيف» وأطفال حكم عليهم باللون الأزرق، مما لا تجده من بعد إلا لدى أولئك الذين جعلوا من أنفسهم المحافظين اللطفاء المتطوعين على الماضي. وإن المتعة التي يحس بها كاتب فيما بينهم أكثر مما بين كتاب آخرين، إن هذه المتعة ليست بمعزل عن الخطر إذ يحتمل أن يحسب أن أمور الماضي ترتدي روعة في حد ذاتها، وأن ينقلها على حالها إلى كتبه التي تموت في هذه الحالة منذ ولادتها وتبعث مللاً يتأسى عنه بقوله: «هذا جميل لأنه صحيح ويؤدي على هذا النحو». كانت تلك الأحاديث الأرسقراطية تتسم على أي حال في منزل السيدة «دو غيرمانت» بروعة أدائها بفرنسية ممتازة. وكانت بذلك تضفي، من جانب الدوقة، شرعية على ضحكها إزاء كلمات «نبوءاتي، كوئي، «بيشي»^(*)، فائق» التي كان يستخدمها «سان لو» وكذلك إزاء أثاثه الذي من عند «بينغ».

كانت الحكايات التي سبق أن سمعتها في منزل السيدة «دو غيرمانت»، وهي مختلفة في ذلك تمام الاختلاف عما أمكن أن أحس به أمام أزهير الزعرور أو لدى تذوقي إحدى الكعكات، كانت على الرغم من كل شيء غريبة عني. لكنّها، وقد داخلتني لحظة، أنا الذي لم تملكه إلا جسدياً، لكنّها (وهي من طبيعة اجتماعية وليس فردية) كانت في عجلة للخروج مني. وكنت أضطرب في العربة شأن إحدى العرافات. كنت انتظر مأدبة عشاء جديدة أستطيع أن أضحي فيها بدوري من أمثال الأمير س... والسيدة «دو غيرمانت» وأن أرويه. وبانتظار ذلك كانت ترجف شفتي اللتين تتمتمانها، وعبثاً أحاول أن أردّ فكري إليّ وقد جرفته على نحو مدوّخ قوة نابذة. فكان أن قرعت لذلك جرس السيد «دو شارلوس» بتلفه محموم إلى ألا أحمل عبثها وحدي فترة أطول في عربة كنت أشاغل النفس فيها على أي حال عن قلة الحديث بالكلام بصوت عال، وأن قضيت، في حوار طويل بيني وبين ذاتي كنت أردّد فيه لنفسني كل ما أزعج أن أقصّه عليه وأكاد لا أفكر من بعد بما يمكن أن يقوله لي، كامل الوقت الذي مكثت فيه في صالة أدخلني إليها خادماً خاص وكنت على أي حال أكثر اضطراباً من أن أفحصها. وكانت بي حاجة عظيمة إلى أن يصغي السيد «دو شارلوس» إلى القصص التي كنت أتحرق إلى روايتها له إلى حدّ أنني أصبت بخيبة قاسية إذ حسبت أن سيد البيت ربما كان نائماً وأنه لابدّ لي من العودة إلى منزلي أدفن فيه سكري الكلامي. فلقد تمّ لي أن ألاحظ بالفعل أنه انقضى خمس وعشرون دقيقة على وجودي هناك وآتهم ربما نسوني في هذه الصالة التي ربما أمكنني على الأكثر أن أقول على الرغم من ذلك الانتظار الطويل إنها كانت شاسعة ضاربة إلى الخضرة، إلى جانب بعض الرسوم. إن

(*) نسبة إلى «بيشا» التي كانت تنبأ في معبد «أبولو» في «دلفي».

الحاجة إلى الكلام لا تحول دون الإصغاء فحسب، بل دون الرؤية، وإن غياب أي وصف للوسط الخارجي في هذه الحالة إنما يؤلف مذ ذاك وصفاً لحالة داخلية. وكنت أوشك الخروج من الصالة لأحاول استدعاء أحدهم، فإن لم ألق أحداً فلاستدلال طريقي إلى الردهات والرجاء بأن يفتحوا لي حينما دخل خادم خاص، وهو بادي الاهتمام، في هذه اللحظة نفسها التي أقدمت فيها على النهوض والقيام ببضع خطوات على الأرض الخشبية المقطعة قطعاً صغيرة، وقال لي: «لقد شغل السيد البارون بمواعيد حتى الآن، ولا يزال ثمة عدة أشخاص ينتظرونه. سأبذل كل ما بوسعي كي يستقبل سيدي وقد أرسلت من هتف مرتين للسكترير».

- «لا، لا تزعج نفسك، لقد كنت على موعد مع السيد البارون ولكن الوقت تأخر كثيراً وبما أنه مشغول في هذا المساء فسوف أعود في يوم آخر».

فصاح الخادم يقول:

- «لا، لا يذهبن سيدي، فقد يستاء السيد البارون، سأحاول مرة ثانية».

وتذكرت ما سبق أن سمعته عن خدام السيد «دو شارلوس» وعن تفانيهم في سبيل سيدهم. لم يكن يمكن أن يقال عنه تماماً، شأن الأمير «دو كوتني»، إنه كان يحاول أن يروق الخادم والوزير على حد سواء ولكنه أحسن في أن يجعل من أقل الأمور التي يطلبها ضرباً من المنة إلى حد أنه حينما كان يقول، وقد تخلق حوله خدامه على مسافة يفرضها الاحترام وبعداً ينقل فيهم نظراته: «الشمعدان ياكوانيه» أو «القميص يادوكريه» فإنما كان الآخرون ينسحبون وهم يمددون غيرهم ويحسدون هذا الذي ميزه المعلم. بل كان ثمة اثنان، وكانا متكاهنين، يحاول كل منهما أن يخطف اللحظة من الآخر بالمبادرة لأنفه حجة إلى إبلاغ البارون بالأمر، إن كان صعد قبل ذلك، عسى أن يكلف في هذا المساء مهمة الشمعدان أو القميص. فإن وجه الحديث مباشرة إلى واحد منهم لأمر لا يدخل في نطاق الخدمة، بل أكثر من ذلك إن هو قال في فصل الشتاء وفي الحديقة، وهو يعلم أن أحد حوذييه يعاني من رشح، إن قال له بعد انقضاء عشر دقائق: «ضع قبعتك»، لم يعد الآخرون يكلمونه على مدى خمسة عشر يوماً من باب الغيرة وبسبب المنة التي نالها.

وانتظرت عشر دقائق أخرى ثم أدخلت بالقرب منه بعدما طلب إليّ ألا أمكث طويلاً جداً لأن السيد البارون قد اضطر، من تعب، أن يصرف عدة أشخاص من أكثرهم أهمية سبق أن حصلوا على موعد منذ أيام طويلة. كان ذلك الإخراج من حول السيد «دو شارلوس» يبدو وكأنه يتسم بعظمة تقل كثيراً عن بساطة أخيه «غيرمانت»، ولكن الباب كان قد فتح وأبصرت البارون بمبذل صيني مكشوف العنق مستلقياً على أريكة. وقد أدهشني في اللحظة نفسها رؤية بقعة رسمية بـ«ثماني لمعات» على كرسي إلى جانب فراء وكأنما عاد البارون منذ قليل. وانسحب الخادم الخاص. وظننت أن السيد «دو شارلوس» سيتقدم نحوي. فحدق إلي بعينين قاسيتين دون أن يقوم بحركة واحدة. واقتربت منه وحييته فلم يمد إليّ يداً ولم يجنبي ولم يسألني أن أتخذ لنفسني كرسيًا. وسألته بعد فترة، كما قد تفعل بطبيب سيء التهذيب، إن كان من الضرورة أن ألبث واقفاً. وقد فعلت ذلك دون نية سوء ولكننا بدا أن مظهر الغضب الهادئ الذي كان يداخل السيد «دو شارلوس» ازداد. وكنت أجهل على أي حال أنه تعود في بيته في الريف وفي قصر «شارلوس» أن يستلقي بعد العشاء، لشدة ما يحب

أن يلعب دور الملوك، على مقعد في حجرة التدخين تاركاً مدعوّيه وقوفاً من حوله. كان يسأل أحدهم تاراً ويقدم آخر سكاراً ثم يقول بعد بضع لحظات: «ولكن هيا اجلس يا «أرجنكور»، خذ كرسيّاً يا عزيزي، إلخ»، وقد أصرّ على إطالة وقتهم لمحض أن يرهّن لهم أن الإذن بالجلوس إنّما يجيئهم منه. وأجابني بلهجة أمرّة وبغية أن يرغمني على الابتعاد عنه أكثر منه ليدعوني إلى الجلوس: «اجلس في المقعد الذي من طراز لويس الرابع عشر». فأخذت مقعداً لم يكن بعيد. وصاح مستهزئاً: «آه! هذا ما تسميه مقعداً من طراز لويس الرابع عشر! أرى أنك شاب متعلم». وأصابني من الدهول ما لم أبحر معه مكاني، لا لأنصرف كما كان يجدر بي أن أفعل، ولا لأبدل مقعدي مثلما كان ينبغي. فقال لي وهو يزن جميع الألفاظ التي كان يضع في مقدّمة أكثرها وقاحة زوجاً مضاعفاً من السواكن: «ياسيد، إن الحديث الذي تنازلت فمحتك إياه تلبية لرجاء شخص يرغب ألاّ أسميه يشير إلى النقطة النهائية في علاقاتنا. ولن أكتفك أنني أملت أفضل من ذلك. وربما تحاملت قليلاً على معنى الكلمات، وهو ما لا يجدر أن نفعل حتّى مع من يجهل قيمتها ولمحض احترام ذواتنا، إن قلت لك إنّه سبق أن داخلني بعض الودّ لك. على أنني اعتقد أنّ «العطف» بما يتضمّن من معنى الرفق الأكثر فعالية قد لا يجاوز ما كنت أحس به ولا ما كنت عازماً على الإعراب عنه. لقد سبق أن أبلغتك منذ عودتي إلى باريس وفي «باليك» بالذات أنك تستطيع الاعتماد عليّ». أمّا أنا الذي كان يذكر بأيّ فلتة لسان فارقه السيد «دو شارلوس» في «باليك» فقد هممت بحركة تفيد الإنكار. فصرخ غاضباً: «ويحك!» وكان وجهة المنتشج الشاحب يختلف بالفعل عن وجهه العادي بمقدار ما يختلف البحر حينما تبصر في صبيحة عاصفة بدلاً من الصفحة المشرقة المعتادة ألف أفعى من رغبة وزبد، «تزعّم أنك لم تبليغ رسالتي - وهي تقارب البوح - في وجوب أن تتدكّرني؟ فما الذي كان بمثابة تزويق حول الكتاب الذي بعثت به إليك؟».

فقلت له: «مشيكات منمّقة في غاية الجمال».

فأجاب باردراً: «آه! معرفة الشبان الفرنسيين بروائع بلدنا يسيرة. ما عسى أن نقول عن برليني شاب لا يعرف الـ «الكيري»؟» (*) ؟ ولابد على أيّ حال أنك تملك عينين لا تبصر بهما بما أنك قلت لي إنك أمضيت ساعتين أمام هذه الرائعة الفنيّة. وأرى أنك لست أفضل خبرة في الأزهار منك في «الطرز». وصاح بلهجة حانقة حادة: «لا تتجنّب فيما يخص الطرز فأنت حتّى لا تعرف ما أنت جالس فوقه وتقدّم لعجزك كرسيّاً من طراز عصر المديرين بمثابة كرسيّ من طراز لويس الرابع عشر. وسوف يخيل إليك في يوم أن ركبتني السيّد «دو فيلباريزيس» هما المغسلة ولاندرى ما عسك تفعل بها. وأنت كذلك حتّى لم تتعرف في جلدة كتاب «بيرغوت» إفريز أزهار آذان الفار في كنيسة «باليك» فهل كان ثمة طريقة أكثر صفاء في أن أقول لك: «لا تنسني»؟. (*)

كنت أتأمل السيّد «دو شارلوس». صحيح أن رأسه البديع، والذي كان يبعث الاشتمزاز في النفس، كان يرجح على رأس جميع ذويه؛ لكنّه «أبولون» هرم، ولكنّ زبداً بلون الزيتون صفراً كان يبدو وكأنّه يوشك أن يطفر من فمه الشرير. فأما الذكاء فما كان بمقدور أحد أن ينكر أن ذكاءه كان يشرف بخطّة فرجار واسعة

(*) La Walkyrie هي اليوم الثاني لرباعية «فاغنر» مستوحاة من قصص «نيولونن».

(**) «لاتنسي» هو الاسم الآخر لزهرة آذان الفار.

على أمور كثيرة ربما ظلت على الدوام مجهولة لدى الدوق «دو غيرمانت». ولكن أية كانت الكلمات المعسولة التي يلون بها صنوف حقه فقد كنت تحس. وإن كان فيها شيء من الكبرياء المجروحة تارة، ومن الحب الخيب أخرى أو ضغينة أو سادية أو مشاكسة أو فكرة ثابتة، كنت تحس أن هذا الرجل قادر أن يقتل وأن يقيم البرهان لفرط المنطق والكلام المنتمى أنه كان محقاً في أن يفعل ولا يقلل ذلك من تفوقه مئة باع على شقيقه وزوجة شقيقه، إلخ. إلخ.

وأضاف يقول: «وكما هي الحال في «حراب» الرسام «فيلاسكير» فإن الغالب يتقدم باتجاه من كان الأكثر اتضاعاً، ومثلما يجدر بكل بشر نبيل، بما أتى كنت كل شيء ولم تكن شيئاً، فقد قمت أنا بالخطوات الأولى باتجاهك. وقد استجبت استجابة حمقاء لما لا يقع عليّ أنا أن أسمية رفعة النفس. ولكنني لم أدع لعزيمتي أن تنهار. إن ديننا يدعو إلى طول الأناة، وأملني أن ما أبدته أزعك من طول أناة سوف يحسب لي وأني لم أقابل بغير الابتسامة ما يمكن أن يوصف بالوقاحة لو كان في متناولك أن تبدي شيئاً منها تجاه من يفوقك بهذا القدر من الباعات. على أي حال لم يعد ذلك مسألة بحث. لقد أخضعتك للاختبار الذي يدعوه الرجل البارز الوحيد في عالمنا، يدعوه بذكاء اختبار اللطف المفرط والذي يعلن بحق أنه من أكثرها قسوة والوحيد الذي يستطيع أن يفصل الحنطة عن الزؤان. وأكداد لا ألومك على أنك لم تجتزه بنجاح لأن الذين يفلحون فيه قليلون جداً. ولكننا مرادي على الأقل، وتلك هي النتيجة التي أبغني استخلاصها من الكلمات الأخيرة التي ستبادلها على هذه الأرض، أن أكون بمأمن من اختلاقاتك واقتراكك».

لم يكن قد خطر لي حتى ذلك أن يكون سبب غضب السيد «دو شارلوس» مقالة مسيئة نقلوها إليه. وساءلت الذاكرة؛ ولم أكن قد كلمت أحداً عنه. لقد لفقها أحد الأشرار جملة وتفصيلاً. وأكدت محتجاً لدى السيد «دو شارلوس» أنني لم أقل شيئاً على الإطلاق. «لا أحسب أنه يمكن أن أكون أغظتكم بقولي للسيدة «دو غيرمانت» أنني على صلة صداقة بك». وابتسم بتعال وارتفع بصوته إلى أقصى درجاته وهنا أخذ بلطف على أكثر النغمات ارتفاعاً وأشدّها وقاحة وقال وهو يعود ببطء شديد إلى النبرة الطبيعية وكأنما به افتتان عارض لغرابة هذا السلم الموسيقي النازل:

«أوه! ياميد، في اعتقادي أنك تلحق الأذى بنفسك حينما تقرّ بأنك قلت إننا نربط بصلة صداقة. لست أتوقع صحة لفظة كبيرة جداً ممن قد يتخذ بسهولة قطعة أثاث من طراز «شيندال» بمثابة كرسي من طراز «الروكوكو». وأضاف يقول بتنغيمات صوتية متزايدة السخريّة يطفو منها على شفثيه ما يبلغ حدّ الإبتسامة الرائعة: «على أي لا أحسبك قلت أو صدقت أننا نربط بصلة صداقة! فأما أن تكون باهيت بأنك عرفت بي وأنتك تحدث إليّ وأنتك على معرفة قليلة بي وأنتك نلت دونما سعي تقريباً إمكان أن تكون يوماً في حمايتي فأنني أرى على العكس من الطبيعي جداً ومن قبيل الذكاء أن تكون فعلته. إن فارق السنّ العظيم الذي بيننا يخولني أن اعترف دونما سخريّة تصبيني أن هذا التعريف وهذه الأحاديث وهم بداية العلاقات هذا كانت بالنسبة إليك، ليس يجدر بي أنا أن أقول شرفاً، وإنما أقلّه مكسباً أرى أن غباوتك قامت لا على اذاعته بل على أنك لم تحسن الحفاظ عليه». وقال وهو ينتقل فجأةً للحظة من الغضب المتعالي إلى نعمة تلونها كتابة عظيمة إلى حدّ أنني ظننته يزعم أن يأخذ في البكاء: «بل سوف أضيف أنني، حينما تركت عرضي لك في باريس

دون جواب، إنما بدا لي الأمر لا يصدق فيما يخصك أنت الذي سبق أن تراءى لي حسن التهذيب ومن أسرة بورجوازية طيبة» (وكان لصوته أزة وقاحة على هذه الصفة وحدها)، «حتى بلغت بي السذاجة أن أصدق جميع المزحات التي لا تقع في يوم والرسائل المفقودة والعناوين الخاطئة. وإني أقر بأنها كانت سذاجة عظيمة فيما يخصني، ولكن القديس «بونفانتور» كان يفضل أن يصدق أن ثوراً يمكن أن يطير على إمكان أن يكذب أخوه. كل ذلك قد انقضى على أي حال والأمر لم يحسن في عينك ولم يعد موضع بحث غير أنه يبدو لي أنه كان بإمكانك»، (وحقاً كانت الدموع تبلل صوته) «إجلالاً لسني على الأقل، أن تكتب إلي. وكنت قد صممت بشأنك أموراً مغرية إلى ملاحود حاذرت تماماً أن أقولها لك. وقد فضلت أن ترفض دون أن تعلم، وذلك شأنك أنت. ولكن، مثلما أقول لك، الكتابة ممكنة دوماً. ولعلني في موقعك، وحتى في موقعي، كنت فعلت ذلك. وإني أفضل بسبب ذلك موقعي على موقعك، وأقول بسبب ذلك لأنني اعتقد أن جميع المواقع متساوية وإني لأود عاملاً ذكياً أكثر من العديد من الدوقة. ولكن بمقدوري أن أقول إنني أفضل موقعي لأن مافلته أعلم أنني ما فعلته قط في حياتي كلها التي أخذت تبدو طويلة إلى حد ما». (كان يدير رأسه في الظلام فلا أستطيع أن أبصر إن كانت عيناه تفيضان بالدمع مثلما يوحى بذلك صوته). «كنت أقول لك إنني قمت بمئة خطوة في ملاقاتك، الأمر الذي كان من شأنه أن دفعك إلى القيام بمئتي خطوة إلى الوراء. والآن جاء دوري في الإبتعاد ولن يعرف أحدنا الآخر من بعد. لن أحفظ اسمك، بل حالتك كي أتذكر في الأيام التي ربما أغرائني فيها الاعتقاد بأن الناس يملكون قلباً ويتسمون بالتهذيب، أو يملكون الفطنة فحسب في تجنب السماح لفرصة لاثانية لها بالإفلات منهم، أنني أضعمهم أعلى موقعاً مما ينبغي. لا، أن تكون قلت إنك تعرفني حينما كان ذلك صحيحاً - إذ سيكشف الأمر الآن عن كونه صحيحاً - فليس بمقدوري إلا أن أرى ذلك طبيعياً وإني أعدّه بمثابة تكريم أي على أنه يشرح الصدر. ولكنك لسوء الحظ تفوهت بأقوال مختلفة جداً في مكان آخر وظروف أخرى».

- «أقسم لك ياسيد أنني لم أقل شيئاً من شأنه إلحاق الإهانة بك».

فصاح بحق وهو ينتصب بعنف على الكرسي الطويل الذي كان قد مكث فيه حتى ذاك لا يدي حراكاً في حين كان صوته يضحي على التوالي حاداً وخفيضاً كعاصفة هائجة تصم الآذان، فيما تتلوى حيات وجهه الشاحبة المزبدة: «ومن ذا يقول إنني أحس في ذلك إهانة؟» (كانت الشدة التي يتحدث بها عادة والتي كانت تضطر الغرباء في الخارج إلى الالتفات تتضاعف مرة مثلما هي إشارة «بقوة» إن عزفتها الأوركسترا بدلاً من أن يعزفها البيانو وإن هي انقلبت فوق ذلك إلى إشارة «بقوة كبيرة». لقد كان السيد «دو شارلوس» يزق بأعلى صوته)، «أتحسب أن من شأنك إهانتني؟ أفلا تعلم إذن إلى من تحدثت؟ أو تظن أن الزبد المسموم يطلقه خمس مئة من الصبية أصدقاؤك الذين تكذس بعضهم فوق بعض قد يفلح حتى في بل أصابع قدمي؟».

كان قد أعقب منذ هنيهة رغتي في إقناع السيد «دو شارلوس» أنني لم أسئ مرة إليه ولا سمعت من يسئ إليه حتى معجون مبعثه الأقوال التي كانت تملئها عليه، فيما أرى، كبريائه اللا محدودة. وربما كانت في جزء منها على أي حال نتيجة تلك الكبرياء. وكان الباقي بأسره تقريباً ينجم عن شعور كنت أجهله وما

كان ذنبي إذن أنني لم أفرد له حصته. لعلمي كنت أستطيع على الأقل، في تعذر وجود الشعور المجهول، أن أمزج بالكبرياء، لو أنني تذكرت أقوال السيدة «دو غيرمانت»، قليلاً من الجنون. ولكن فكرة الكبرياء لم تخطر حتى على بالي في تلك اللحظة. فلم يكن في صدره حسبما أرى سوى الكبرياء، وفي صدري سوى الحق. ولم يقف هذا الحق (لحظة كان يكف السيد «دو شارلوس» عن الصباح كي يتحدث عن أصابع قدمه السامية بجلال ترافقه تكشيرة وإقياءة اشمزاز تجاه لاعنيه المغموين)، لم يقف عند حد من بعد. ووددت بحركة نزقة أن أضرب شيئاً ما وإذ دفعني بقية من رؤية إلى احترام رجل يكبرني بكثير وحتى أواني الخزف الألمانية الموضوعية من حوله بسبب رتبها الفنية انقضضت على قبة البارون الرسمية الجديدة وألقيت بها أرضاً ودستها بقدمي وانكبت عليها تقطيعاً ونزعت العمرة ومزقت التاج قسمين دون أن أصغي إلى زعاق السيد «دو شارلوس» المتوالي واجتزت الغرفة لأمضي في سبيلي ففتحت الباب. كان على جانبيه ما أثار كبير دهشتي، كان يقف خادمان خاصان ابتعدا ببطء كي يبدو وكأنهما وجدا هنا لحض مرورهما من أجل أمور وظيفتهما (وقد علمت مذ ذاك اسميهما، فالأول كان يدعى «بورنييه» والآخر «شارميل»). ولم ينطل علي لحظة واحدة ذلك التفسير الذي كانت تبدو مشيتهما الكسولة وكأنها تقدمه لي. فقد كان مستحيلاً. وبدأت ثلاثة أخرى أقل استحالة: أحدها أن البارون كان يستقبل أحياناً ضيوفاً كان يحكم من الضروري، إذ يمكن أن يحتاج إلى عون ضدهم (ولكن لماذا؟)، أن يتوافر له مركز نجدة قريب؛ والآخر أن الفضول قد اجتذبهما فأخذتا يتنصتان دون أن يخطر لهما أنني قد أخرج بهذه السرعة؛ وثالثها أن كامل الحق الذي أبداه لي السيد «دو شارلوس» كان مهياً سلفاً ومتكلاً وقد طلب إليهما بنفسه أن يتنصتا حباً بالعروض التي ربما اقترنت بـ Nunc eru di- mii (*) يفيد كل منه بدوره.

لم يكن غضبي قد هدأ غضب البارون، أما خروجي من الغرفة فقد بدا أنه يورثه ألماً شديداً فاستدعاني، وأمر من استدعيني وفاته أخيراً أنه ظن قبل لحظة، وهو يتحدث عن «أصابع قدميه السامية»، أنه سيجعل مني شاهداً على تأليهه فجرى بأقصى سرعته ولحق بي في الردهة واعترض سبيلي إلى الباب وقال لي: «هيا، لا تكن طفلاً، عد دقيقة واحدة، فخير الحبة في خير العقاب ولكن كنت عاقبتك فلأنما أحبك». وزال غضبي وتغاضيت عن كلمة «عقاب» وتبع البارون الذي نادى خادماً خاصاً وأمره دون أي اعتزاز بالنفس أن يحمل تنف القبة المتلفة التي استبدلت بها أخرى.

وقلت للسيد «دو شارلوس»: «إن تكلمت ياسيدي وقلت لي من الذي غدرني وافترى علي فأظلل لأعلم ذلك والحق الخزي بالنافق».

- «من؟ أليس تعرفه؟ أفلا تتذكر ما تقول؟ أو تحسب أن الذين يؤذون لي معروفاً بطلاعي على هذه الأمور لا يبدؤون بمطالبي بالسراً وتظن أنني سأخلف بما وعدت؟».

وسألت وأنا أبحث للمرة الأخيرة في رأسي (حيث لا أجد أحداً) إلى من أمكن أن اتخذت عن السيد «دو شارلوس»: «أستحيل أن تقول لي ذلك ياسيد؟».

(*) اثبتنا العبارة اللاتينية في النص عمداً لانصالها بلغة الأرستقراطيين وتعني: «الآن احطيم علماء».

فقال لي بصوت دأو: «ألم تسمع أنني وعدت مبلغني بالسر؟ وإني أرى أنك تجمع إلى ميلك إلى الأقوال الممجوجة ميلاً إلى الإلحاح اللامجدي. وحرى بك على الأقل أن تحسن الإفادة من محادثة أخيرة وأن تتكلم لتقول شيئاً لا يكون بالضبط لاشيء».

فأجبت وأنا ابتعد عنه: «إنك تشتمني ياسيد، وأرى أنني أعزل من السلاح بما أن عمرك أضعاف عمري فلا تكافؤ بيننا. وإني عاجز من جهة أخرى عن إقناعك وقد أقسمت لك أنني لم أقل شيئاً».

فصاح بصوت مخيف ووثب وثبة حطت به على خطوتين مني: «فأني أكذب إذا» - «لقد خدعوك».

حينئذ قال لي بصوت ناعم حنون كتيب كما هي الحال في هذه السمفونيات التي تُعزف دونما انقطاع بين مختلف المقطوعات حيث تعقب حركة سريعة رشيقة لطيفة شاعرية صواعق المقطوعة الأولى: «ذلك ممكن تماماً، فنادر ما يصدق قول منقول من حيث المبدأ. والحق عليك إن كنت لم تستغل الفرص التي وفرتها لك لزيارتي فلم تزودني» عبر تلك الكلمات الصريحة اليومية التي تصنع الثقة، بالواقعي الوحيد والمطلق في وجه قول كان يصورك بمثابة الخائن. وإن يكن صحيحاً أو باطلاً فقد فعل القول في جميع الأحوال فعلته. ولست أستطيع من بعد التخلص من الإنطباع الذي خلفه في نفسي. لست حتى أستطيع القول بأن خير المحبة في خير العقاب لأنني عاقبتك خير عقاب ولكنني لا أحبك من بعد. وفيما كان يقول هذه الكلمات أجبرني على الجلوس ثانية وقرع الجرس. ودخل خادم خاص جديد. «جيثونا شراباً وبلغوا بإسراج جياد العربية». وقلت إنني لم أكن عطشاً وإن الساعة تقدّمت بي كثيراً وإن لي عربة في جميع الأحوال. فقال لي: «لا بد أنهم نقدوها وروّوها فلا تهتم بها. لقد أمرت بالإسراج كي يعيدوك... وإن خشيت أن يكون الوقت قد تقدم... فلعلني أستطيع أن أقدم لك غرفة ههنا...» فقلت إن والدتي قد تعلق. «أجل، لقد فعل القول فعلته إن يكن صحيحاً أو كاذباً. لقد أزهروا ودي المبكر بعض الشيء قبل أوانه بكثير، وكمثل أشجار التفاح التي كنت تتحدث عنها في «البليك» لم يقو على مقاومة أول جمدة». ولو أن ود السيد «دو شارلوس» لم يتهتم لما استطاع مع ذلك أن يفعل غير ما يفعل إذ هو يحملني على البقاء والشراب، فيما هو يقول لي إننا على خلاف، ويسألني أن أنام ويجمع أن يطلب اعادتي إلى المنزل. بل كان يبدو أنه يخشى لحظة فراقني وأن يعود فيلقى نفسه وحيداً، من نوع الخشية تلك التي يشوبها بعض القلق والتي سبق أن بدا لي لساعة خلعت أن زوجة أخيه وابنة عمه «الغيرمانيّة» أحسّت بها حينما خطر لها أن ترغبني على البقاء قليلاً بعد بنوع من الميل العابر نفسه إليّ والجهد نفسه للإطالة دقيقة واحدة.

وعاد يقول: «ومن سوء الطالع أنني لا أملك موهبة أن أعيد الزهر إلى ما سبق أن ولى. لقد مات ودي لك موته الأخير وليس ما يقوى على بعثه من جديد. ولا أظن أن من غير اللائق بي الاعتراف بأنني آسف لذلك. فأني أحسني على الدوام مثل «بوغز» فيكتور هوغو إلى حد ما:

«إني أرمل وأنا وحيد وحولي يحلّ الظلام».

وعدت فاجتزت برفقته الصالة الكبيرة الخضراء. وقلت له على نحو عارض تماماً إلى أي حد كنت أراه جميلة. فأجاب: «أليس كذلك؟ لا بد لنا أن نحب شيئاً ما. إن الخشبيات من يد «باغار» وما هو لطيف إلى

حدّ ما، كما ترى، أنّها صنعت من أجل المقاعد التي من طراز «بوفيه» وطاولات الجدران. تلاحظ أنّها تكرّر موضوعها الترينيّ نفسه. ولم يظَلْ ثمة غير دارين بقي فيها الأمر على هذا النحو: اللوفر ومنزل السيّد «دينيسدال» ولكن ما أن عزمت على المحيي للسكني في هذا الشارع حتّى اتّفق لي بالطبع فندق قديم يدعى «شيميه» لم يكن قد رآه أحد بما أنّه لم يجرّ ههنا إلّا من أجلي. ذلك حسن باختصار القول. ربّما أمكن أن يكون أفضل، ولكن لا بأس على أيّ حال. أليس أنّ ثمة أشياء حلوة، رسم أعمامي، ملك بولونيا وملك انكلترا بريشة «مينيار» ولكن ما هذا الذي أقوله لك، إنّك تعرفه بقدر ما أعرفه بما أنّك انتظرت في هذه الصالة. لا؟ فهم وضعوك إذا في الصالة الزرقاء، يقول بلهجة تنم عن وقاحة إزاء خلويّ من الفضول ولمّا عن تفوق شخصي وأنّه لم يسأل عن المكان الذي طلب إليّ الانتظار فيه. «خذ مثلاً، في هذه الحجرة جميع القبعات التي اعتمرتها السيّد «اليزابيت» والأميرة «دو لامبال» والملكة. ذلك لا يثير اهتمامك، لكنّك لا تبصر. ربما عانيت من إصابة في العصب البصري. فان كنت أكثر حبّاً لهذا النوع من الجمال فهوذا قوس قزح بريشة «تورنر» أخذ يلعب بين هاتين اللوحيتين لـ «رامبرنت» وذلك كعنوان لمصالحتنا. أسمع: إن يتهوّن ينضمّ إليه». وكنا نميز بالفعل التناغمات الأولى من القسم الثالث في «السمفونية الرعويّة»، «الحبّ بعد العاصفة»، يعزفها موسيقيون غير بعيد عنّا، في الطابق الأول دون شك. وسألت بسذاجة بأيّ مصادفة يعزفون ذلك ومن كان الموسيقيون فقال لي بلهجة تشوبها بعض الوقاحة ولكنّها تذكر قليلاً مع ذلك بتأثير «سوان» ونبرته: «إيه! لاندري، لسنا ندري البتّة. إنّها من نوع الموسيقى الخفيّة. ولكنك لا تعبأ بها، شأن سمكة بتفاحة. إنّك تودّ العودة وإن قصّرت في واجب احترامك لبيتهوفن ولشخصي». وأضاف بلهجة وديّة حزينة حينما آن أوان رحيلي: «إنّك تصدر على نفسك الحكم وتدينها». وقال لي: «أعذر لي أنّي لا أصحيك مثلما يقضي عليّ حسن السلوك أن أفعل. فليس يهمني كثيراً، وأنا راغب ألا أراك من بعد، أن أقضي خمس دقائق إضافية وإيّاك. ولكنّي متعب ولدي عمل كثير». وإذا لا حظ أن الطقس جميل جداً: «ولكن بلّ، سأستقل العربية. ثمة ضياء قمر رائع وسأضي لأتأمله في الغاية بعدما أكون صحتك». وقال لي وهو يمسك بذقني بين أصبعين ممغنطين، إن جاز القول، صعدا، بعد مقاومة دامت لحظة، حتّى أدنّيت كأصابع الحلاقين: «عجباً! إنّك لا تعرف كيف تخلّق، وتحتفظ ببضع شعرات حتّى في مساء تتناول فيه عشاءك في المدينة». ثم قال لي بعددوة مفاجئة وكأنّما لا أراديّة: «آه! إنّها لمتعة أن أتأمل «ضياء القمر الأزرق» هذا في الغاية برفقة رجل مثلك»، ثم أضاف بهيئة حزينة: «لأنّك مع ذلك لطيف»؛ وأردف يقول وهو يرت أبويّاً على كتفي: «وربّما استطعت أن تكون أكثر لطفاً من سواك. وينبغي لي أن أقول إنّني كنت أراك بالأمر غير ذي شأن إلى أبعد حدّ. ولعلّه كان يجدر بي الظنّ بأنّه لا يزال يراني على مثل ذلك وما عليّ سوى أن اذكّر الحقن الذي حدّثني به لنصف ساعة خلت أولانكاد. وكان يخيّل إليّ مع ذلك أنّه صادق في هذه اللحظة وأن قلبه الطيب فاق ما كنت أعدّه بمثابة حالة تكاد تكون هذيانية من فرط الحساسية والكبرياء. كانت العربية أمامنا وهو لا يزال يطيل الحديث. وقال لي فجأة: «هيا، اصعد، بعد خمس دقائق سنكون في منزلك وسوف أحملك تحيّة تضع إلى الأبد حدّاً لعلاقاتنا. وخير لنا، بما أنّنا سنفرّق إلى الأبد، أن نفعل ذلك كما هي الحال في الموسيقى بتناغم تام». ولعلّني كنت أقسم، على الرغم من هذه التوكيدات الرسميّة بأنّنا لن نلتقي ثانية بعد اليوم، أنّ السيّد «دو شارلوس» ما كان ليغضبه أن نتلاقى مرّة أخرى، وقد أزعجه أن يكون نسي نفسه قبل قليل وهو يخشى أن يكون غمّي لم أكن مخطئاً إذ قال لي بعد لحظة: «ويحك! ها إنّني نسيت الأمر الرئيسي. فقد أمرت، تذكّراً للسيّد جدّتك، بتجليد طبعة غريبة للسيّد «دو سيفينييه» من أجلك. وهو ذا ما سيحول دون أن يكون هذا اللقاء هو الأخير. ولا بدّ أن يعزينا

عن ذلك قولنا إننا نادراً ما مانهني في يوم واحد مسائل معقدة. فانظر كم امتد مؤتمر فيينا».

فقلت بلطف: «ولكنني استطعت أن أبعث في جلبها دون أن أكلفك هذا العناء».

فأجاب بغيظ: «تفضل واصمت، أيها الغبي الصغير، ولا تبد مضحكاً في اعتبار شرف استقبالك المحتمل على يدي (ولست أقول الأكيد فربما كان خادماً خاصاً من سيحمل إليك المؤلفات) أمراً قليل الشأن».

وتمالك نفسه وقال: «لا أود أن أفارقك على هذه الكلمات. فلا نغم شاذ، وقبل الصمت الأبدي تنغم على العلامة الرئيسية! وإنما بدا أنه يخشى على أعصابه هو من العودة حالاً، بعد أقوال خلاف جافية، فقال لي بلهجة التأكيد لا الاستفهام، وليس ذلك فيما بدا لي لأنه لا يريد أن يوقر لي ما يقول بل لأنه يخشى أن تمنى عزّة نفسه بالرفض: «لا تريد أن تأتي حتى الغابة»؛ ثم قال لي وهو يتباطأ أيضاً: «هيا انتبه، إنها الفترة التي يعود فيها، حسبما يقول «ويستلر»، البورجوازيون» (ربما كان يؤدّ ارضاء اعتزازي بنفسي) «والتي يجدر بنا فيها أن نشرع في التأمل. ولكنك لا تعرف حتى من عساه يكون «ويستلر».

وغيرت موضوع الحديث وسألته إن كانت أميرة «إينا» امرأة ذكية. فاستوقفتني السيد «دو شالوس» وقال وهو يتخذ أكثر للهجاء التي عرفت لها لديه احتقاراً:

- «آه! ياسيد، إنك تلمح ههنا إلى رتبة من التسميات لاتعني على الإطلاق. ربما كان ثمة طبقة ارستقراطية لدى سكان «تاهيتي» ولكنني أقر بأنني لا أعرفها. والغريب مع ذلك أن الاسم الذي نطقت به منذ قليل قد دوى في مسمعي لبضعة أيام خلت. كانوا يسألونني إن كنت أنكرم بالموافقة على تقديم الدوق الشاب «دو غواستالا» لي. وقد أدهشني الطلب لأن الدوق «دو غواستالا» لاحاجة به البتة لأن يعرف بي والسبب أنه ابن عمي وقد عرفني على الدوام. إنه ابن الأميرة «دو بارما» ولا يفوته البتة بوصفه قريباً حسن التهذيب أن يجيء لي في بواجباته تجاهي في يوم رأس السنة. ولكننا الأمر، بعد حصولي على معلومات بهذا الشأن، لم يكن أمر قريب بل أمر ابن المرأة التي تعنيك. وإذ ليس من أميرة بهذا الاسم فقد افترضت أن الأمر يدور حول متسولة تنام تحت جسر «إينا» وأخذت على نحو مثير لقب أميرة «إينا»، كمثال قولهم فهد «باتينيول» و«ملك الفولاذ». والحقيقة أن لا، فقد كان ذلك شأن امرأة غنية أعجبت في أحد المعارض بأثاث لها جميل جداً يسمو على اسم صاحبه بأنه غير مزيف. فأما دوق «غواستالا» المزعوم فلا بد أنه مأمور صرافة أمين سري، إذ يوقر المال الكثير من الأمور. والحقيقة أن لا، فإنه الإمبراطور فيما يبدو الذي تلهي بتزويد هؤلاء الناس بلقب ليس بالضبط في المتناول. ربما دل على السلطان أو الجهل أو الخبث، ولكنني أرى على وجه الخصوص أنه شرك مكر نصبه على هذا النحو لهؤلاء المغتصبين رغماً عنهم. ولكنني لا أستطيع على أي حال تزويدك بايضاحات حول كل ذلك، فإن صلاحيتي تتوقف حتى عند حي «سان چيرمان» حيث أنت واحد بين جميع آل «كورفوازييه» وآل «غلاردون»، إن أفلحت في اكتشاف من يوصلك إليهم، عجائز شريات تم استخراجهن عمداً من «بلزاك» وسوف يشعن السرور في نفسك. كل ذلك بالطبع لايعني في شيء مهابة الأميرة «دو غيرمانت» ولكن مسكن هذه الأخيرة لايلج إليه بمعزل عني وعن «افتح ياسمسم» الذي أملكه».

- «حقاً إنه لجميل جداً، ياسيدي، فندق الأميرة «دو غيرمانت».

- «آه! ماهو بالجميل جداً، إنه ما كان الأكثر جمالاً، بعد الأميرة بالطبع».

- «أفتفوق الأميرة «دو غيرمانت» الدوقة «دو غيرمانت»؟

- «أوه! ليس ثمة من نسبة». (ينبغي أن نلاحظ أن جماعة المجتمعات الراقية ما أن يكونوا على شيء من الخيال حتى يتوجوا أو يخلعوا من كانت تبدو حالهم أكثر ما تكون صلابة وأوفر ثباتاً وذلك على هوى ضروب وذهم أو خلافهم). «إن الدوقة «دو غيرمانت» (وربما أراد، إذ لا يسميها «أوريان»، أن يزيد من المسافة بيني وبينها)، «رائعة وتفوق إلى حد بعيد ما أمكن أن تخمنه. ولكننا لا يمكن بأية حال أن نقاس بابتنة عمها. وهذه بالضبط ما يمكن أن يتصور جماعة «الهال» ما كانت عليه الأميرة «دو ميترينيخ» ولكن «ميترينيخ» هذه كانت تعتقد أنها شهرت «فاغتر» لأنها تعرف «فيكتور موريل». إن الأميرة «دو غيرمانت»، أو بالأحرى والدتها، قد عرفت الحقيقي؛ وذلك جاء، ناهيك عن جمال هذه المرأة الذي لا يصدق. تكفي حدائق «ايسستير» وحدها!».

- «ألا تمكن زيارتها؟».

- «لا، لا بد من دعوة، ولكن لدعوة البتة لأحد إلا أن أَدْخُلُ».

ولكنه سحب في الحال طعم هذا العرض بعدما ألقاه ومدّ إليّ يده لأننا كنّا قد بلغنا منزلي.

- «لقد انتهى دوري ياسيد، وإني أضيف إليه بضع الكلمات هذه فحسب. ربّما عرض آخر عليك ودّه ذات يوم مثلما فعلت. فليكن المثال الحاليّ عظة لك. لا تهمله. إن الوداد ثمين على الدوام، وما لاستطيع القيام به وحدنا في الحياة لأنّ ثمة أموراً لا يمكننا أن نطلبها أو نفعلها أو نبتغيها أو نتعلمها بأنفسنا، فأننا نستطيعه جماعة ودونما حاجة لأن نكون ثلاثة عشر كما في رواية «بلزاك» ولا أربعة كما في «الفرسان الثلاثة». إليّ اللقاء».

لا بدّ أنه كان متعباً وقد تخلى عن فكرة الذهاب لرؤية ضياء القمر إذ سألتني أن أقول للحوذيّ أن يعود. وقام في الحال بحركة مفاجئة وكأنما ينبغي التراجع، ولكنني كنت مذ ذاك قد أصدرت الأمر، وكلي لا أتأخر أكثر من ذلك مضيت أفرع بابي دون أن أكون فكّرت من بعد أنه كان عليّ أن أروي للسيد «دو شارلوس»، فيما يخصّ امبراطور ألمانيا واللواء «بوتا»، روايات كانت للتوّ تستحوذ عليّ إلى حدّ كبير ولكن استقباله اللا متوقّع الصاعق قد جعلها تفرّ بعيداً جداً عني.

ورأيت على مكتبي، وأنا أعود، رسالة كان قد كتبها خادماً «فرانسواز» الشاب إلى أحد أصدقائه ونسيها هناك. فمئذ أن غابت والدتي لم يكن يتراجع أمام أيّ فعلة لامبالية؛ وكنت أقبح ذنباً منه في أيّ قرأت غير مبال الكتاب الذي لم يوضع في مغلف، وكان مبسوطاً في كامل عرضه ويبدو، وذلك كان عذري الوحيد، وكأنه يقدم ذاته إليّ.

«صديقي وابن عمّي العزيز،

أمل أن صحَّك دوماً على مايرام وأن الأمر كذلك بالنسبة إلى كامل الأسرة الصغيرة وبشكل خاص فليوني الصغير جوزيف الذي لم أفرح بعد بمعرفته ولكن أفضَّله عليكم كلِّكم لأنَّه فليوني، إن بقي القلب^(*) هذه لها هي الأخرى تراها، فلا نرفع الأيدي على بقاياها المقدَّسة. وعلى أيِّ حال يا صديقي العزيز وابن عمِّي ومن يقول لك إنَّك لن تقذف غدن أنت وزوجتك العزيزة ابنة عمِّنا «ماري» إلى اعماق البحر مثل البحار المربوط في أعلا الصاري الكبير لأنَّ هذه الحياة ليس سوى وادي مظلم. صديقي العزيز، وجب أقول لك أن انشغالي الرئيسي وأنا متأكَّد من تعجُّبك هو الآن الشعر الذي احبَّه بابتهاج لأنَّو يجب تمضية الوقت. ولذلك يا صديقي العزيز لا تكون مدهوشاً إن كنت لم أجاب بعد على رسالتك الأخيرة فدع النسيان يفعل إن لم يكن ثمت عفو. كما تعلم والدة سيِّدتي توفَّاها الله في عذابات لا توصف أعتبتها قليلاً لأنَّها زارت حتَّى ثلاث أطباء. ويوم جنازتها كان يوم عظيم لأن جميع معارف سيِّدي جاؤوا جماعة وكذلك ثلاث وزراء. وقد قضينا أكثر من ساعتين للذهاب إلى المقبرة الأمر الذي سيجعلكم تفتحوا عيونكم واسعة في قريتمكم لأنَّو لن يفعلوا بالتأكيد كذلك للعمَّة «ميشو». ولذلك لن تكون حياتي من بعد سوى زفرة طويلة. إنِّي أتسلَّى كثيراً بالدراجة النارية التي تعلمت عليها مؤخراً وماذا تقولوا يا اصدقائي الأعزاء لو وصلت هكذا بأقصى السرعة إلى «ايكور»، ولكنني لن أسكت أكثر عن ذلك لأنِّي أحسُّ أن نشوة المصيبة تذهب بعقله. إنِّي أخاطب الدوقة «دو غيرمانت» وشخصيات ما سمعت قط حتَّى باسمها في مناطقنا الجاهلة. ولذلك سأرسل بكلِّ سرور كتباً لـ «راسين» و«فيكتور هوغو» وصفحات مختارة لـ «شيندوليه» و«ألفريد دو موسيه» لأنِّي أحبُّ أشفي البلد الذي رأيت فيه النور من الجهل الذي يقود حتماً إلى الجريمة. لا أرى شيء أقوله لك بعد وأبعث لك مثل البجعة التي أرهقتها رحلة طويلة تحيائي الطيبة وكذلك لزوجتك وفليوني وأختك «وردة». رجائي أن لا يقولوا عنها: «وردة لم تعش إلا ما تعيش الورود» مثلاً قالها «فيكتور هوغو» ومقطوعة «دارفير» و«ألفريد دو موسيه» وكلَّ هؤلاء العباقرة العظيمين الذين موتوهم على نار المحرقة مثل «جان دارك». فإني رسالتك القريبة وتقبَّل قبلائي كقبالات أخ. «بيرغو جوزيف».

إننا إنَّما نجتذبنا كلَّ حياة تمثِّل في نظرنا شيئاً مجهولاً من جِراء وهم أخير ينبغي القضاء عليه. وإن الكثير من الأمور التي قالها لي السيد «دو شالوس» قد حفزت خيالي حفزاً شديداً، وعندما أنسته إلى أيِّ حدِّ خيب الواقع ظنَّه في منزل الدوقة «دو غيرمانت» (فأمر الأشخاص ما كان من أمر أسماء البلدان) وجهته إلى ابنة عمِّ «أوريان». ولم يخدعني السيد «دو شارلوس» بعض الوقت على أيِّ حال حول قيمة رجال المجتمع الراقي وتنوعهم الوهميين إلا لأنَّه كان بدوره مضللاً. ورَّما كان ذلك لأنَّه ما كان يفعل شيئاً، لا يكتب ولا يرسم وهو حتَّى لا يقرأ أي شيء قراءة جدية عميقة. ولكنه إذ كان يفوق جماعة المجتمع الراقي عدَّة درجات فإنه وإن كان يستخلص مادَّة حديثه منهم ومن مشاهدتهم ما كان لذلك السبب مفهوماً لديهم. وإذا كان يتحدث حديث الفنانين فقد كان يستطيع على الأكثر استخلاص الروعة الخداعة لدى رجال المجتمعات الراقية، ولكنَّما الاستخلاص من أجل الفنانين فحسب الذين كان يمكن أن يؤدي فيما يخصُّهم الدور نفسه الذي يؤديه الأكل لجماعة الأسكيمو: فإن هذا الحيوان الثمين ينتزع من أجملهم عن صفحة الصخور المقفرة أشنيات وطحالب

(*) النص الفرنسي الأصلي زاخر بالأخطاء الاملائية والقواعدية الفاحشة وقد وضعنا في النص العربي شيئاً من هذا القبيل على أن ذلك من لغة الخادم صاحب الرسالة.

لا يفلحون لا في اكتشافها ولا في استخدامها ولكنها تضحي، بعدما يهضمها الأكل غذاء يمكن تمثله بالنسبة إلى سكان الشمال الأقصى.

وأضيف إلى ذلك أن تلك اللوحات التي كان السيد «دو شارلوس» يرسمها عن المجتمع الراقي إنما كان يداخلها الكثير من الحيوة من جراء اختلاط صنوف حقه الضاري بصنوف وداده المتبعد - والحقد موجه خصوصاً ضدّ الشبان والتعبّد تستثيره بصورة رئيسية بعض النسوة.

ولئن كانت الأميرة «دو غيرمانت» من بينهن قد وضعت على يد السيد «دو شارلوس» على أرفع عرش فإن أقواله الخفية حول «قصر علاء الدين لا يمكن بلوغه» والذي كانت تسكنه ابنة عمّة لاتكفي لتوضيح دهشتي التي سرعان ما أعقبتها خشية أن أكون ضحية خدعة شريره دبّرها من ريمّا ابتغى طردي من مسكن قد أذهب إليه دونما دعوة حينما قرأت، بعد قرابة شهرين عقب عشائي في منزل الدوقة وبينما كانت هذه الأخيرة في كان» وبعدها فضضت مغلقاً لم ينبثني مظهره بأي أمر غريب، قرأت هذه الكلمات المطبوعة على بطاقة: «الأميرة «دو غيرمانت»، دوقة منطقة «بافير» بالمولد، ستكون في منزلها في...». ليس من شك أن الدعوة إلى منزل الأميرة «دو غيرمانت» ربما لم تكن، على الصعيد المجتمعي، أمراً أكثر عسراً من تناول العشاء في منزل الدوقة وقد علمتني معلوماتي الضعيفة في دنيا الشعارات أن لقب أمير ليس أرفع من لقب دوق ثم إنني كنت أقول في نفسي إنه لا يمكن أن يكون ذكاء امرأة من المجتمع الراقي من ماهية تختلف عن ذكاء مثيلاتها بقدر ما يدعي السيد «دو شارلوس» ولكنّ خيالي، شأنه شأن «ابلسير» إذ يمضي في ترجمة بعض ما يوحى به المنظور دون أن يأخذ في اعتباره مفاهيم فيزيائية يمكن من جهة ثانية أن يكون محيطاً بها، كان يرسم لي لا ما كنت أعرفه بل ما كان يراه، ما كان يراه، يعني ما كان يريزه الاسم له. وإن اسم «غيرمانت» المسبوق بلقب أميرة قد ذكرني دوماً، حتّى حين لم أكن أعرف الدوقة، على نحو علامة موسيقية أو لون أو كمية تتبدّل تبدلاً عميقاً من جراء قيم محيطة ومن جراء الإشارة الرياضية أو الجمالية التي تؤثر فيها، بشيء مختلف تماماً. ولئن لنجده مقروناً بهذا اللقب في مذكرات عصر لويس الثالث عشر. ولويس الرابع عشر على وجه الخصوص. وكنت أتمثّل فندق الأميرة «دو غيرمانت» وكأنما تتردّد عليه، كثر أو قلّ التردّد، الدوقة «دو لو نغفيل» و«كونديه» الكبير اللذان كان وجودهما يقلّل إلى حدّ بعيد احتمال أن ألجأ في يوم.

وعلى الرغم من كلّ ما يتعلّق بمختلف وجهات النظر الذاتية التي سالتحدّث عنها في ضروب التضخيم المصطنعة فإنما يبقى شيء من الحقيقة الموضوعية في جميع تلك الكائنات، وبالتالي يظلّ فارق فيما بينها.

بل كيف يمكن أن تكون الأمور بخلاف ذلك؟ إن الإنسانية التي نخالطها والتي تشبه أقلّ الشبه أحلامنا هي مع ذلك الإنسانية نفسها التي شهدنا، في مذكرات رجال مرموقين وفي رسائلهم، وصفاً لها وتمنيّا أن نعرفها. إن أقلّ الشيوخ شأنًا من الذين نتناول عشاءنا وإياهم هو ذاك الذي قرأنا بانفعال، في كتاب حول حرب السبعين، رسالته المستكبرة إلى الأمير «فريدريك شارل» يداخلك الضجر في عشاء لأنّ الخيال غائب عنه وتلهو بصيغة كتاب لأنّ الخيال يصحبنا فيه. ولكن الأمر يدور حول الأشخاص عينهم نود لو أننا عرفنا السيّد «دو بومبادور» التي ناصرت الفنون إلى حدّ بعيد وربما أصابنا بالقرب منها ما يصيبنا من ملل بالقرب من ربات الإلهام المعاصرات اللواتي لانستطيع التصميم على العود إلىهنّ لشدة ضحالتهنّ. على أن

تلك الفوارق تظل قائمة مع ذلك. لا يشبه الناس تماماً بعضهم بعضاً وإن تصرّفهم إزاءنا، بمقدار متساو من الصداقة إن جاز القول، إنما يكشف عن فوارق تتولى التعويض في نهاية المطاف. لقد حلا للسيدة «دو مونمورانسي» حينما عرفتها أن تسمعتني أشياء مكّدة ولكنها، إن كانت بي حاجة إلى خدمة، كانت تلقي في سبيل الحصول عليها، وعلى نحو فعال، كامل ما تملك من نفوذ ولا توفّر شيئاً في هذا السبيل في حين أن أخرى غيرها، كالسيدة «دو غيرمانت»، ما كانت لتبغي في يوم أن تغمّي ولا تقول عني إلا ما يمكن أن يبهجي وتغدق عليّ جميع صنوف اللطف التي تؤلف نمط العيش الأدبيّ الغني لآل «غيرمانت»، ولكنها ما كانت، لو آتني سألتها أقلّ الأشياء فيما عدا ذلك، لتقوم بخطوة واحدة لتوفّر لي، كما هي الحال في تلك القصور التي يضعون بتصرفك فيها سيارة ووصيفاً ولكنّما يستحيل الحصول فيها على كروب من عصير التفاح لم يلحظ في ترتيب الاحتفالات. فمن كانت الصديقة الحقيقية بالنسبة إليّ، السيدة «دو مونمورانسي» السعيدة جداً بجرح مشاعري والمستعدة أبداً لتخدمني أم السيدة «دو غيرمانت» التي تعاني من أقلّ تقدير ربّما ألحق بي وتعجز عن أقلّ جهد في سبيل إفادتي؟ كانوا يقولون من جهة أخرى إن الدوقة «دو غيرمانت» تتحدث عن أمور طائشة فحسب وابنة عمّها عن أمور مهمّة أبداً بالفكر الأكثر ضخامة. إن صيغ الفكر متنوعة ومتعارضة لافي الأدب فحسب بل في الدنيا كذلك إلى حدّ أن ليس لـ «بودلير» و«ميريميه» وحدهما الحقّ في أن يحتقر أحدهما الآخر. وهذه الخصائص إنّما تؤلف لدى جميع الناس منظومة نظرات وأقوال وأفعال متماسكة مستبدة إلى حدّ أنها تبدو لنا، حينما يكون في حضرتها، فوق كل ماعداها أمّا لدى السيدة «دو غيرمانت» فإن أقوالها كانت تبدو لي، وهي مستنتجة شأن نظرية من نوعيّة تفكيرها، وكأنّها بالوحيدة التي كان ينبغي أن يقال. وقد كنت أساساً من رأيها حينما كانت تقول لي إن السيدة «دو مونمورانسي» بلهاء ومفتوحة الدهن لجميع الأمور التي لا تدركها، أو حينما كانت تقول لي الدوقة وقد بلغها إساءة منها: «هذا ماتدعوه امرأة طيبة وما أدعوه أنا مسخاً». ولكنّ استبداد الواقع هذا الذي يمثل أمامنا ووضوح ضوء المصباح هذا الذي يتضاءل به الفجر وقد تباعد مذ ذاك كأنّه محض ذكرى كانا يتلاشيان حينما أضحي بعيداً عن السيدة «دو غيرمانت» وتقول لي سيّدة مختلفة وهي تضع نفسها على قدم المساواة معي وشحّك أنّ الدوقة واقعة دوننا بكثير: «أوريان لا تهتمّ في الأساس بشيء ولا بأحد»، بل «هي متحلقة» (وهو ما لعلّه بدا في حضرة السيدة «دو غيرمانت» مستحيل التصديق لشدة ما تعلن العكس بنفسها). وإذ ليس من علوم رياضية تسمح لنا بتحويل السيدة «دار باجون» والسيدة «دو مونبانسييه» إلى كمّيّات متجانسة فقد كان يستحيل عليّ أن أجيب إن سئلت في أيهما تبدو لي متفوّقة على الأخرى.

فلقد كانت الميزة التي يذكرونها أكثر ما يذكرونها من بين الميزات الخاصة بصالة الأميرة «دو غيرمانت» استبداداً بالرأي ناجماً في جزء منه عن محند الأميرة الملكيّ، وبخاصّة التشدد المتحرّج تقريباً لآراء الأمير الأرستقراطية المسبقة (آراء لم يفت الدوق والدوقة على أيّ حال أن يسخرأ منها في حضرتي) والذي كان لا بدّ سيحملني بالطبع على أن اعتبر من قبيل اللامعقول أن يكون هذا الرجل قد دعاني وهو من كان لا يعد سوى أصحاب السمو والدوقة ويستشيط غيظاً في كلّ مأدبة عشاء لأنّه لم يخصّ على المائدة بالمكان الذي كان من حقّه في عهد لويس الرابع عشر، مكان كان يعرفه وحده بفضل تبحّره الواسع في مادّة التاريخ وعلم الأنساب. وكان الكثيرون بسبب ذلك يفصلون لصالح الدوق والدوقة في الفوارق التي تفصل بينهما وبين ابني

عمومتهما. «إنَّ الدوق والدوقة أكثر عصرية بكثير وأشدَّ ذكاء ولا يهتمان شأن الآخرين بمحض عدد مراتب النبالة، إن صالتهما تتقدَّم صالة ابن عمَّهما بثلاث مئة عام»، تلك التي كانت الجمل المعتادة التي كان ذكرها يبعث الرعدة في الآن وأنا أنظر إلى بطاقة الدعوة التي كانت توليها عدداً أكبر من احتمالات أن يكون بعث بها إليّ مضلل.

ولو أن الدوق والدوقة «دو غيرمانت» ما كانا في «كان» لتسنَّى لي أن أحاول أن أعلم بوساطتهما إن كانت الدعوة التي وردتني حقيقة. وليس هذا الشكُّ الذي كنت فيه، ليس حتَّى على الإطلاق، مثلما تبادر إليّ حيناً، شعوراً لا يحسُّ به رجل المجتمعات الراقية وينبغي للكاتب بنتيجة ذلك، وأن انتمى فيما عدا ذلك إلى طبقة رجال المجتمع الراقى، أن ينقله كي يبدو «موضوعياً» تماماً ويصور كل طبقة على نحو مختلف. فقد وجدت مؤخراً بالفعل في كتاب مذكرات رائع تسجيلاً لشكوك مماثلة لتلك التي كانت تزجني فيها بطاقة دعوة الأميرة. «أنا وجورج» أو أنا وهيلي فليس الكتاب في متناول يدي للتحقق، كنّا نتحرَّق أشدَّ التحرَّق إلى قبولنا في صالة السيِّدة «دولوسير» وقد رأينا من باب الحذر، بعدما وصلتنا دعوة منها، أن نتأكَّد كلَّ من جهته أننا لم نكن ضحيَّة إحدى كذبات نيسان وليس الراوي سوى الكونت «دوسو نفيل» (الذي تزوج ابنة الدوق «دو بروي»)، أمَّا الرجل الآخر الذي يمضي، «فيما يخصه»، للتأكَّد من أنه لم يقع ضحيَّة الخداع فهو، حسبما يدعى «جورج» أو «هيلي»، أحد صديقين لا ينفصلان عن السيِّد «دو سونفيل»؛ السيِّد «داركور» أو الأمير «دو شاليه».

وفي اليوم الذي كانت تزعم أن تُقام فيه الأمسية في منزل الأميرة «دو غيرمانت» بلغني أن الدوق والدوقة قد عادا إلى باريس منذ الليلة السابقة وعزمت أن أذهب لزيارتهما في الصباح. ولكنَّهما لم يكونا بعد قد عادا بعدما خرجا في ساعة مبكرة. فترقَّبت بادئ الأمر، من حجرة صغيرة كنت أحسبها مركز مراقبة ممتاز، وصول العربة. ولكنَّني كنت في الواقع قد اخترت مرصدي أسوأ اختيار إذ كدت لا أُميِّز منه باحتنا ولكنَّني رأيت منه عدَّة باحات أخرى، الأمر الذي ألْهاني فترة دونما فائدة تذكر. وليس يتوافر لنا في البندقية وحدها مشارف كهذه على عدَّة بيوت معاً أغرت الرسَّامين، بل في باريس أيضاً على السواء. ولست أقول البندقية اعتباطاً. فأنما تذكرنا بعض أحياء باريس الفقيرة في الصباح بأحيائها الفقيرة بمدانها العالية الموسَّعة القوَّاهات التي تضيء عليها الشمس الألوان الوردية الأكثر زهواً والحمراء الأكثر إشراقاً؛ إنَّها حديقة كاملة تزهر فوق البيوت، تزهر ألواناً متنوِّعة حتَّى لكأنَّها حديقة هاوي خزامي من «ديلفت» أو «هارلم» غرست فوق المدينة. وإن تقارب البيوت الشديد من جهة أخرى بنوافذها المتقابلة المطلَّة على باحة واحدة إنَّما يجعل من كلِّ نافذة الإطار الذي تخلم فيه طاهية وهي تنظر إلى الأرض، والذي تدع فيه فتاة أبعد منها شعرها تسرَّحه عجوز لها وجه ساحرة تكاد لا تميِّزه في الظلام؛ وهكذا تؤلَّف كلُّ باحة بالنسبة إلى جار المنزل، إذ تلغي الضجَّة بمسافتها الفاصلة وتبرز الحركات الصامتة ضمن مرَّع وضع تحت الزجاج من جرَّاء إقفال النوافذ، معرضاً من مئة لوحة هولندية متقابلة. صحيح أنَّه ما كان يتوافر من فندق «غيرمانت» نوع المناظر نفسه، ولكنَّما كان ثمة مناظر طريفة ولاسيَّما من النقطة الثلاثية الغربية التي كنت قد اتخذت مكاني فيها والتي ما كان يستوقف النظر فيها أيَّ شيء حتَّى المرتفعات البعيدة التي كان يؤلِّفها، إذ الأراضي المقفرة نسيباً التي تسبقها شديدة الانحدار، فندق الأميرة «دو سيلستري والمركيزة «دوبلاسك»، وهما ابتنا عم ارستقراطيَّان جداً للسيِّد «دو غيرمانت» وما كنت

أعرفهما. وحتى هذا الفندق (الذي كان فندق والدهما السيد «دو بريكني»)، لاشيء سوى كتل أبنية قليلة الارتفاع موجهة بأكثر الطرق اختلافاً وكانت تزيد من طول المسافة بمستوياتها المائلة ودون أن تستوقف النظر. وكان برج المرائب الذي يوقف فيها المركب «دو فريكور» عرباته، وهو من قرميد أحمر، كان ينتهي بمسلة أكثر ارتفاعاً ولكنها دقيقة حتى إنها لا تجذب شيئاً وتذكر بهذه الأبنية السويسرية القديمة الجميلة التي تندفع وحيدة على حضيض أحد الجبال. وكانت جميع هذه النقاط المبهمة المختلفة التي ترتاح فوقها العيون تبرز فندق السيدة «دو باسك» أكثر بعداً مما لو فصله عنا عدة شوارع أو عدة سلاسل جبلية، وهو في الواقع على شيء من القرب ولكننا نتخذ بعداً وهمياً كمنظر في جبال الألب. وحينما كانت نوافذة المربعة العريضة الملتصقة بالشمس كوريات بلور صخري مفتوحة من أجل تدير المنزل كنت تصيب في متابعة الخدام الذين يستحيل تمييزهم تمييزاً دقيقاً ولكنهم يقومون بطرق السجاد، كنت تصيب في متابعتهم في مختلف الطوابق المتعة نفسها التي تصيبها إذ تشاهد في منظر من أعمال «تورنر» أو «إيلستير» مسافراً في عربة أو دليلاً على ارتفاعات مختلفة من جبل «سان غوتارد». بيد أنني ربما أمكن ألا أرى من المكان المشرف الذي وقفت فيه السيدة أو السيدة «دو غيرمانت» في عودتهما، حتى أنني حينما أتيت لي بعد الظهر أن أعاد رصدي اتخذت مكاني بيساطة على الدرج حيث لا يمكن أن يخفى عليّ فتح البوابة، فكان أن وقفت في الدرج مع أنه لا تظهر منه مواطن الجمال «الألبي» في فندق «دو بريكني» وهي رائعة إلى حد بعيد بخدامها الذين جعلهم البعد صغاراً جداً وهم آخذون في التنظيف. وسوف يسفر هذا الانتظار على الدرج بالنسبة إليّ عن نتائج بالغة الأهمية ويكشف لي عن منظر ليس «تورنيا» من بعد بل أخلاقاً على جانب كبير من الأهمية يبدو من الأفضل معه تأجيل روايته بعض الوقت مسبقاً عليها بادئ الأمر قصة زيارتي لأسرة «غيرمانت» حينما علمت أنهم رجعوا.

كان الدوق وحده هو الذي استقبلني في مكتبته. وفي اللحظة التي دخلت فيها خرج رجل قصير أبيض الشعر تماماً فقير المظهر وله ربطة عتق سوداء كالتى كان يلبسها الكاتب العدل في «كومبريه» وعدة أصدقاء لجدي ولكن مظهره أكثر استحياء ولم يشأ البتة، فيما كان يحيني تحيات كبيرة، أن يتحدر قبل أن أكون مررت. وقد صرخ الدوق من المكتبة يطلب إليه أمراً لم أفهمه ردّ الآخر بتحيات جديدة وجهها إلى الحائط، لأنّ الدوق لا يستطيع أن يراه، ولكننا رددنا إلى مالا نهاية على الرغم من ذلك، شأن هذه الابتسامات النافلة لأولئك الذين يتحذرون ليك بالهاتف. كان له صوت رأسي وقد حياتي مرة ثانية بتواضع رجل الأعمال. وكان يمكن على أي حال أن يكون رجل أعمال في «كومبريه» لفرط ما يتصف بالطراز الرفي المتقادم العذب الذي يميز قراء القوم والشيوخ المتواضعين هناك.

وقال لي الدوق بعدما دخلت: «سوف تلتقي «أوريان» بعد قليل. فقد فضلت، بما أن «سوان» يزمع الحجيء عملاً قليل ليجلب لها مسودات دراسته حول عملات جمعية مالطا، بل ماهو أسوأ من ذلك، صورة شمسية ضخمة نسخ عليها تلك العملات، فضلت «أوريان» أن ترتدي ملابسها أولاً كي تستطيع المكوث معه إلى حين الذهاب إلى العشاء. إن بيتنا يزدحم بالحاجات حتى لانعلم أين نضعها وأتساءل أين ستحشر هذه الصورة. ولكن لدي زوجة مفرطة اللطف تبالغ في حبها إبهاج الغير. وقد ظننت من قبيل اللطف أن تسأل «سوان» إمكانية تأمل جميع أرباب هذه الجماعة العظام الذين لقي صورهم في «رودس» الواحد بجانب الآخر. كنت أقول مالطا، إنها رودس ولكنها جماعة القديس يوحنا الأورشليمي نفسها. وهي في

الأساس لانهتم بذلك إلا لأن «سوان» يهتّم به. إن لأسرتنا ضلعاً كبيراً في كلّ هذه القصّة. فشقيقي الذي تعرفه هو حتّى في يومنا هذا أحد أعلى أصحاب المراتب في جماعة مالطا. على أنّي لو تحدّثت عن كلّ ذلك لـ«أوريان» لما كانت حتّى أصغت إليّ. ولقد كان كافياً، في مقابل ذلك، أن تكون بحوث «سوان» حول الدّاويّة (فإن اندفاع اتباع دين معيّن إلى دراسة دين الآخرين من أغرب الغريب) قد قادته إلى تاريخ فرسان رودس ورثة الدّاويّة حتّى تبغي «أوريان» في الحال مشاهدة وجوه هؤلاء الفرسان. لقد كانوا قوماً صغاراً جدّاً إذا ما قيسوا بآل «لوزينيان» ملوك قبرص الذين تنحدر منهم على نحو مباشر. ولكنّ «سوان» لم يتهمّ بهم حتّى الآن ولذلك لا تريد «أوريان» أن تعرف شيئاً عن آل «لوزينيان».

لم يسعني أن أقول للدوق في الحال لأيّ سبب جئت. فقد جاءت بالفعل بضع صديقات أو قريبات، كالسيّدة «دو سيليستري» والدوقة «دو مونروز» للقيام بزيارة للدوقة التي كثيراً ما كانت تستقبل قبل العشاء ولما لم يجدنها مكثن برهة مع الدوق. كانت أولى تلك السيّدات (وهي الأميرة «دو سيليستري») بسيطة الملبس جافّة ولكنّها تبدو لطيفة وتمسك في يدها عصا. وخشيت بادئ الأمر أن تكون مصابة بجرح أو عاجزة. ولكنّها كانت على العكس رشيقة جدّاً. وحذّثت الدوق بكآبة عن ابن عم له - لامن جانب آل «غيرمانت» بل من جانب أكثر شهرة بعد إن كان ذلك ممكناً- تدهورت حالته الصحيّة فجأة بعد أن كان مرضه شديداً منذ بعض الوقت. وكان واضحاً أنّ الدوق فيما كان يرثي لمصير ابن عمّه ويردّد: «مسكين «ماما»! إنّه فتى شديد الطيبة» كان يشخصّ تشخيصاً مشجعاً. فقد كان العشاء الذي يزمع الدوق حضوره يهجه بالفعل ولا ترجعه الأمسيّة الكبرى في منزل الأميرة «دو غيرمانت»، ولكنّ كان على وجه الخصوص يزمع الذهاب في الواحدة صباحاً برفقة زوجته إلى عشاء كبير وحفلة راقصة تنكريّة تمّ من أجلها تجهيز حلّه له من طراز لويس الحادي عشر وللدوقة من طراز «إيزابو دو بافيري». وكان الدوق عازماً على ألاّ يلقى إزعاجاً في صنوف اللهو المتعدّدة هذه من جرّاء آلام «آمانيان دوسمون» الطيب القلب. وجاءت بعد ذلك سيّدتان من حاملات العصا، السيّدة «دو بلاسك» والسيّدة «دو تريم»، وكلتاها ابنتا الكونت «دوبريكني»، لزيارة «بازان» وأعلّنتا أن حالة «ماما» لم يظّل فيها أمل. وبعدما ارتفع الدوق بمنكيه سألها كيميّا يدلّ سياق الحديث إن كانتا ستذهبان في المساء إلى منزل «ماري چيلبير». فأجابتا أن لا بسبب حالة «دامانيان» التي كانت تداني الرّمق الأخير، بل هما اعتذرتا عن مادبة العشاء التي يذهب إليها الدوق والتي عدّتا له مدعوّهما، كشقيق الملك «تيودوز» وسليّة العرش «ماري كونيسيون» إلخ. ولما كان المركيز «دوسمون» على درجة أقلّ من القربي بالنسبة إليهما منه بالنسبة إلى «بازان» فقد بدا نكوصهما عن الحضور» في نظر الدوق بمثابة لوم غير مباشر لسلوكه فبدا قليل الأنس. ولذلك لم تمكثا طويلاً مع أنّهما انحدرتا من مرتفعات فندق «بريكنيني» للقاء «دوقة» (أو بالأحرى لإخبارها بالطابع المقلق والذي لا ينسجم بالنسبة إلى الأقرباء واللقاءات المجتمعيّة، طابع مرض ابن عمومتهما)، وعادت «البورچ» و«دورويّه» (وهما اسماء الشقيقتين) أدراجهما في طريق قمعهما الوعرة تحمّلان عصا متسلّقي الجبال. لم يخطر لي البتّة أن أسأل آل «غيرمانت» ما الذي كانت تعنيه تلك العصي وهي كثيرة جدّاً في بعض أجزاء حيّ «سان چيرمان». ربّما عدّتا كامل الرعيّة بمثابة ملك لهما وكانتا تقومان، وهما لا تحبان استقلال العربات، بمشاوير طويلة. جعلّ العصا ضروريّة فيها كسر قديم ناجم عن الافراط في مزاوله الصيد وما تتضمنه في الغالب من سقوط عن صهوة الجياد أو محض إصابات بالرّية تتأبى من رطوبة الضفّة اليسرى

— «السيدة الدوقة تبحث في سؤال الدوق إن كان السيد الدوق سيتلطف باستقبال السيد «سوان» لأنَّ السيدة الدوقة ليست جاهز بعد».

فقال الدوق بعد أن تبين في ساعته أنه لا يزال لديه بضع دقائق قبل أن يمضي لارتداء ملابسه: «أدخل السيد «سوان» زوجتي بالطبع غير جاهزة وهي التي قالت له أن يجيء» وقال لي الدوق: «لاداعي للتحذث أمام «سوان» عن أمسية «ماري چيلبير» ، فلست أعلم إن كان مدعوًا. إن «چيلبير» يحبه كثيراً لأنه يظنه حفيداً غير شرعي للدوق «دو بير» ، إنها قصة، أية قصة. (فكر، لولا ذاك! ابن عمي الذي يصاب بنوبة حينما يصبر يهودياً على بعد مئة متر). ولكن الأمور تتفاقم الآن من جرّاء مسألة «دريفس» وكان جديراً بـ«سوان» أن يدرك أنه ينبغي له أكثر من آخر سواء أن يقطع كل علاقة بهؤلاء الناس، وهو على العكس يتفوّه بأقوال مغیظة».

واستدعى الدوق الخادم الخاص من جديد ليعلم إن كان الذي سبق أن أرسله إلى منزل ابن العم «دوسمون» قد عاد. فقد كانت خطة الدوق بالفعل هي التالية: كان يهّمه، إذ يظنّ بحق أن ابن عمه على شفا الموت، أن يوافي بأخبار قبل الوفاة، يعني قبل الحداد الاضطراري. وما أن يحتمي خلف اليقين الرسمي بأن «أمانيان» لا يزال حيّاً حتّى ينطلق إلى مأدبة عشائه وأمسية الأمير والحفلة الراقصة التي سيرتدي فيها لباس لويس الحادي عشر ويتوافر له فيها الموعد الأشد إثارة بعشيقه جديدة ولا يسعى من بعد إلى أن يوافي بأخبار جديدة قبل الغد بعد أن تكون المسرات قد انتهت. حينذاك يتم لبس الحداد إن توفي في المساء. «لا ياسيدي الدوق، لم يعد بعد» — «يالعنة الله! إن الأمور لا تتم ههنا إلّا في الدقيقة الأخيرة» ، يقول الدوق وفي ظنّه أن «أمانيان» قد وسعه الوقت «لأن يرحل» على صفحات جريدة مسائية وأن يفوت عليه حفلته الراقصة. وأرسل في طلب صحيفة «الزمان» التي لم يجد فيها شيئاً.

لم أكن قد التقيت «سوان» منذ زمن طويل جداً وتساءلت لحظة إن كان بالأمس يقصّ شاره أو لم يكن قصير الشعر لأنني ألفتته على غير حاله بعض الشيء. وكان ذلك فقط لكونه بالفعل قد «تغيّر» كثيراً لأنه كان مريضاً جداً والمرض يخلف في الوجه تبدلات عميقة عمقها لو أنشأت تطيل لحيتك أو تبدّل مطرح مفرقك. (كان مرض «سوان» ذاك الذي سبق أن أودى بوالدته والذي أصيب به بالضبط في السن الذي كان فيه. وإن حياتنا في الواقع المليئة من جرّاء الوراثة بالأرقام الخفية وصنوف السحر كما لو كان ثمة بالحقيقة ساحرات. وكما أن ثمة مدّة معينة للعمر بالنسبة إلى البشرية عامّة، هنالك كذلك مدّة بالنسبة إلى الأسر خاصة، يعني، داخل هذه الأسر، بالنسبة إلى الأعضاء الذين يتشابهون.) كان «سوان» أنيق اللباس أناقة تجمع، شأن أناقة زوجته، إلى ما كان ما سبق أن كان. كان يشدّ جسمه داخل سترة رسمية رمادية بلون اللؤلؤ تبرز قامته المديدة، وكان رشيّق القوام يلبس قفازين أبيضين بخطوط سوداء ويعتمر قبعة رسمية رمادية موسّعة في أعلاها لا يصنعها «دو ليون» من بعد إلا له وللأمير «دو ساغان» والسيد «دو شارلوس» والمركز «دو مودين» والسيد «شارل هاز» والكونت «لويس دو تورين». وأدهشتني الابتسامة الفاتنة وشدة اليد الودّية التي ردّ بها على تحيّي، لأنني كنت أظنّ أنه ما كان ليعرفني في الحال بعد زمن طويل إلى هذا الحدّ. وأعربت له عن دهشتي، فتلقاها بقهقهة عالية وشيء من الاستنكار وشدّ من جديد على يدي كما لو أن الأمر من باب التشكيك

بسلامة دماغه وصدق مودته في افتراض أنه لا يتعرفني وهو مع ذلك ما كان، فإنه لم يعرفني، وقد علمت ذلك بعد زمن طويل، إلا بعد بضع دقائق إذ سمع من يذكر باسمي. بيد أنه لم ينبئ بالاكشاف الذي يسرته له كلمة قالها السيد «دو غيرمانت» أي تبدل في وجهه وفي أقواله وفي الأمور التي أفضى إلي بها لفرط ما كان يتمتع به من رباطة جأش وثقة في ممارسة الحياة المجتمعية. وكان يبرز فيها على أية حال تلك العفوية في التصرف وتلك المبادرات الشخصية، حتى فيما يخص اللباس، التي كانت تطبع طراز آل «دو غيرمانت». من ذلك أن التحية التي حياني بها، دون أن يتعرفني، رجل المنتديات العتيق لم تكن التحية الباردة الجافية التي لرجل المجتمعات الشكلي المخض، بل تحية تفيض باللطف الحقيقي والظرف الأكيد على غرار ماتبدي الدوقة «دو غيرمانت» مثلاً (التي يبلغ بها أن تبسم أول من يتسم قبل أن تكون حييتها حينما كانت تلتقي بك)، على عكس التحيات الأكثر آلية والمألوفة لدى سيدات حي «سان جيرمان». ومن ذلك أيضاً أن قبعته التي وضعها على الأرض بالقرب منه حسب عادة آخذة في الزوال كانت مبطنة بالجلد الأخضر، الأمر الذي لم يكن مرعي الاجراء ولكنما كان لأنه (فيما يقول) أقل توسيخاً وفي الواقع (وهو مالا يقوله) لأن الأمر لا يثق جداً.

— «هيا يا «شارل»، أنت الخبير الكبير، تعال وشاهد شيئاً ما. وبعد ذلك ياصغيري سأستأذنكما وأدعكما حيناً معاً فيما أمضي لارتداء بدلة. وأحسب على أي حال أن «أوريان» لن تتأخر. وعرض لوحة «فيلاسكيز» على «سوان»، فقال بتقطيب المرضى الذين يشكل الكلام بالنسبة اليهم لإرهاقاً: «ولكنما يبدو لي أنني أعرف هذا».

وقال الدوق وقد أولاها التأخير الذي يبيده الخبير في الإعراب عن إعجابه جدية: «أجل، لا بد أنك رأيتها في منزل «جيلبير».

— «آه! إنني أتذكر، بالفعل».

— «وما عساك تظن ذلك؟».

فقال «سوان» بمزيج من السخرية والإجلال إزاء صاحب سمّو لعله يجد من قبيل سوء التهذيب وإثارة الهزء أن يتجاهله ولكنه لا يريد بداعي حسن الدوق أن يتحدث عنه إلا كمن يلهو: «إذاً، إن كان ذلك في منزل «جيلبير» فلا بد أنه أحد أجدادك».

وقال الدوق بخشونة: «بالتأكيد. إنه «بوزون»، ولا أدري أي رقم يحمل بين آل «غيرمانت». ولكنني لا آبه لذلك، فأنت تعلم أنني لست قطاعي النزعة شأن ابن عمي. لقد سمعت من يلفظ اسم «ريغو» و«مينيار» وحتى «فيلاسكيز»! يقول الدوق وهو يحدق إلى «سوان» بنظرة المحقق والجلاد كي يحاول في الآن نفسه أن يقرأ أفكاره ويؤثر في جوابه. واختتم قائلاً (إذ كان قادراً، حينما يحملونه على استرجار مصطنع لرأي هو راغب فيه، أن يعتقد بعد بضع لحظات أنه قد صدر تلقائياً): «هيا على كل حال، وبدون تملق. أنظن أنها لأحد الأساطين العظام الذين أتيت على ذكرهم؟»

فقال «سوان»: «... لا... لا».

- «ولكن، على أيّ حال أنا لا أدري شيئاً من ذلك وليس لي أن أقرر لمن تكون هذه اللوحة. ولكن أنت الهاوي والمعلم في الموضوع إلى من عسك تنسبها؟».

وتردّد «سوان» لحظة أمام هذه اللوحة التي كان من الواضح أنّه يجدها قبيحة وقال: «إلى سوء الطويّة!» قال وهو يجيب الدوق ضاحكاً ولم يَسعَ هذا الأخير أن يدع المجال لحركة غاضبة تصدر عنه. وبعدما هدأت: «كلاكما بالغ اللطف، فانتظر «أوريان» برهة، سوف أرتدي بدلتني الرسميّة وأعود. وسأبعث من يقول لقرينيّ انكما تنتظرانها كلاكما».

وكلمت «سوان» برهة عن قضيّة «دريفوس» وسألته كيف يتفق أن يكون جميع آل «غيرمانت» مناهضين لـ«دريفوس». فأجاب «سوان»: «لأن هؤلاء القوم بادئ الأمر مناهضون للساميّة جميعهم في الأساس»، يقول وهو يعلم مع ذلك تمام العلم بالتجربة أن بعضهم على غير ذلك ولكنّه، شأن جميع الناس الذين يحملون رأياً حماسياً، كان يفضل كيما يفسّر أن بعض الناس لا يشاطرونه إيّاه، أن يفرض لديهم سبباً سابق التصور وتخيلاً لا يمكن أن تفعل شيئاً لإزائه أكثر منه أسباباً يمكن مناقشتها. لقد كان يمقت على أيّ حال، وقد بلغ نهاية حياته قبل الأوان، كان يمقت كحيوان متعب يمعنون في مطاردته تلك الاضطهادات ويعود إلى حظيرة آباءه الدينيّة.

وقلت: «فيما يخص الأمير «دو غيرمانت» صحيح، لقد قيل لي إنّ من أعداء الساميّة».

- «أوه: هذا الأخير، إنّي حتّى لا أحيي على ذكره.. فقد بلغ به، حينما كان ضابطاً وأصيب بألم أسنان مريع، أن فضل البقاء في عذابه على أن يستشير طبيب الأسنان الوحيد في المنطقة وكان يهودياً، وأن ترك فيما بعد للنيران جناحاً من قصره شبت النار فيه لأنّه كان ينبغي أن يطلب الإطفاء في القصر المجاور الذي يخص آل «روتشيلد».

- وهل أنت ذاهب هذا المساء إلى منزله؟».

فأجابني قائلاً: «أجل، مع أنّي أجدني متعباً جدّاً. ولكنّه بعث إليّ بعجالة ينبغني فيها أن لديه ما يقوله لي. وإنّي أحسّ أنّي سأكون شديد المرض في هذه الأيام كيما أذهب إلى هناك أو استقبله فسوف يهزني ذلك وأفضل التخلص منه في الحال».

- ولكن الدوق «دو غرمانت» ليس مناهضاً للساميّة».

- «ولكنك ترى تماماً أن بلى بما أنّه مناهض لـ«دريفوس» يجيني «سوان» دون أن ينتبه أنّه يقوم بمصادرة على المطلوب». وليس يحول ذلك دون اغتنامي لأنّي خيبت أمل هذا الرجل - ماذا أقول! هذه الدوق - إذ لم أعجب بلوحته المزعومة لـ«مينيار» ومالست أدري. وأردفت أقول وأنا أعود إلى قضيّة «دريفوس»: «ولكنّنا الدوقة ذكيّة فيما يخصّها».

- «أجل، إنّها رائعة، وقد كانت على أيّ حال أكثر من ذلك، فيما أرى، حينما كانت لاتزال تدعى

الأميرة «دي لوم». لقد اتخذ فكرها طابعاً أكثر تنوعاً، وكان كل ذلك أكثر رقة في السيدة الكبيرة الفتية. ولكن ما عسك تريد، جميع هؤلاء الناس، أكانوا أكثر شباباً أم أقلّ وسوءاً في ذلك الرجال أو النساء، هم من سلالة أخرى، فليس يمر ألف عام من الإقطاع في الدم بسلام. وهم يظنون بالطبع أن لا أثر لذلك البتة في رأيهم».

- «ولكن «روبير دو سان لو» مع ذلك مناصر لـ«دريفوس»؟

- «لحسن الحظّ لاسيّما أن والدته كما تعلم مناهضة شديدة له.

لقد سبق أن قيل لي إنّه على ذلك ولكنّي لم أكن متيقناً. إن ذلك يسرني كثيراً. وليس يدهشني الأمر فإنّه شديد الذكاء. وهذا شيء عظيم».

كانت الدريفوسية قد أولت «سوان» سداجة غريبة وأضفت على نظره إلى الأمور اندفاعاً وانحرافاً أكثر بروزاً ممّا فعل بالأمس زواجه بـ«أوديت». على أنّه من الخير أن يسمّى هذا الانحطاط إعادة اعتبار فما كان إلا مشرفاً بالنسبة إليه بما أنّه كان يرده إلى الطريق التي جاء منها ذروه والتي حرفته عنها مخالطاته الأرستقراطية. على أن «سوان» كان يدي في اللحظة نفسها التي قدر له فيها، وهو واضح الرؤية إلى حدّ بفضل المعطيات التي ورثها عن أجداده، أن يصير حقيقة لاتزال خافية على جماعة المجتمعات الراقية، كان يدي مع ذلك غباوة مضحكة. فقد أعاد جميع صنوف إعجابه وازدراؤه على محكّ معيار جديد هو الدريفوسية. فأن تكون نزعة السيدة «برنتان» المناهضة للدريفوسية قد جعلته يراها غيبة لم يكن أكثر إدهاشاً من أن يكون رآها ذكية بعدما تزوّج. ولم يكن من الخطورة بمكان كذلك أن تصيب الموجة الجديدة فيه كذلك أحكامه السياسية وأن تنسيه أنّه نعت «كليمانصو» برجل المال وبجاسوس لإنكلترا (وكانت تلك إحدى سخافات وسط آل «غيرمانت»)، «كليمانصو» الذي يعلن الآن أنّه عدّه على الدوام بمثابة الوجدان الحيّ والرجل الحديديّ شأن «كورنيلي». لا، لم أقل لك قطّ غير ذلك. إنك تخلط. ولكنّ الموجة كانت تتجاوز الأحكام السياسية وتقلب لدى «سوان» الأحكام الأدبية وحتى صيغة التعبير عنها فـ«باريس» قد افتقد كلّ موهبة، بل إن مؤلفات شبابه ضعيفة وتكاد لا تستطيع إعادة قراءتها. «حاول، ولن تستطيع المضي حتى النهاية. وأي فارق بينه وبين «كليمانصو»! لست شخصياً مناهضاً للإكليروس، ولكن كم تبيّن أن «باريس» لا تماسك لديه إلى جانبه! إنّه لرجل عظيم هذا العمّ «كليمانصو» وكم يحيط بلغته! وما كان لمناهضي «دريفوس» على أيّ حال الحقّ في انتقاد هذه الحماقات. فقد كانوا يفسرون انتصارك لـ«دريفوس» أنّك من أصل يهودي. فإن أصبر كاثوليكيّ ممارس من أمثال «سانيت» على إعادة النظر في الدّعوى فلائنه كان سجين السيدة «فيردوران» التي كانت تتصرّف تصرف راديكالية شرسة. فقد كانت قبل كلّ شيء ضدّ لابس القلنسوات. لقد كان «سانيت» غيباً أكثر منه شريراً وما كان يعلم الضرر الذي تلحقه به «رئة المنزل». فإن قال قائل إن «بريشو» كان صديق السيدة «فيردوران» بالمقدار نفسه وهو عضو في جماعة «الوطن الفرنسي» فذلك لأنّه أشدّ ذكاءً.

وقلت لـ«سوان» وأنا أنكلّم عن «سان لو»: «هل تراه أحياناً؟»

- «لا، إطلاقاً. لقد كتب إليّ ذاك اليوم كي أسأل الدوق «دو موشي» وآخرين غيره أن يصوتوا إلى جانبه في نادي الفروسية حيث سارت أموره على أيّ حال سير رسالة في البريد».

- «على الرغم من القضية!».

- «لم تُثر المسألة. وسوف أقول لك على أيّ حال إنّي منذ ذلك كله لا أطأ بقدمي ذلك المكان».

وعاد السيّد «دو غيرمانت»، وعادت بعد قليل زوجته وهي جاهزة تماماً مديدة القامة رائعة في فستان من الساتين الأحمر زركشت حاشية تتورته بالبروق. وكانت تضع في شعرها ريشة نعامة كبيرة صبغت باللون الأرجواني وعلى كتفها شال من التول باللون الأحمر نفسه. قالت الدوقة التي لم يكن يفوتها شيء: «ما أحسن أن يطرأ المرء قبعتّه بالأخضر. وعلى أيّ حال كل شيء فيك جميل يا «شارل»، سواء في ذلك ما تلبس وما تقول، ما تقرأ وما تفعل». أمّا «سوان» فكان يتأمل الدوقة، دون أن يبدو أنّه يسمع، كما لعله كان فعل بلوحة معلّم، ويبحث بعد ذلك عن عينها وهو يقوم بالتواءة في الفم تعني: «ياويحي!» وانفجرت السيّد «دو غيرمانت» ضاحكة: «إن لباسي يروقك وإنّي مغتبطة بذلك. ولكنّما يجدر بي أن أقول إنّه لا يروقني كثيرًا». تضيف قولها بهيئة متجهمة. «ياإلهي، ما أزعج أن يرتدي المرء ملابس وأني يخرج فيما يؤدّ إلى أبعد حدّ أن يظلّ في بيته!»

- «ما أروع هذه الياقوتات الحمراء!».

- «آه! يا «شارلي» الصغير، إنّ المرء ليصبر على الأقلّ أنّك خبير بها ولست كهذا الحيوان «دو مونسيير فوي» الذي كان يسألني إن كانت حقيقة. لا بدّ لي أن أقول إنّي ما رأيت قطّ بمثل جمالها. إنّها هديّة من الدوقة الكبرى. وهي ضخمة قليلاً بالنسبة إلى ما أشتهي وتشبه إلى حدّ ما كأس خمور مليء حتّى الحفاف ولكنّي وضعتها لأننا سوف نلقى في هذا المساء الدوقة الكبرى في منزل «ماري جيلبير»، تضيف السيّد «دو غيرمانت» دون أن ترتاب بأنّ هذا التوكيد إنّما يقضي على توكيدات الدوق.

وسأل «سوان» قائلاً: «وماذا لدى الأميرة؟»

فسارع الدوق إلى الإجابة وقد حمّله سؤال «سوان» على الظنّ بأنّه لم يكن مدعوّاً: «لا شيء تقريباً».

- «كيف ذلك يا «بازان»؟ أعني أنّ جميع الأنصار والمؤيدين مستعدون. ستكون ثمة مجزرة، وما يكفي لتودي بحياتك». وأضافت وهي تنظر إلى «سوان» نظرة رقيقة: «الجميل، إن لم تعبّ العاصفة الكامنة في الجو، سيكون تلك الحداث الرائعة. إنّك تعرفها. لقد كنت هنالك قبل شهر مضى أن كان الليلك مزهراً، ولا يمكن تكوين فكرة عمّا أمكن أن تكون عليه من جمال. ثمّ هنالك نافورة الماء، وخلاصة القول إنّها حقاً «فيرساي» في باريس».

وسألت: «أيّ نوع من النساء هي الأميرة؟».

- «ولكنك تعلم، بما أنّك التقيتها ههنا، أنّها جميلة كالنهار وأنّها كذلك على قليل من الغباء وهي شديدة اللطف على الرغم من كلّ تعاليها الجرمانّي، تفيض طيبة وهفوات».

كان «سوان» أكثر رهافة من ألاّ يتبين أنّ السيّد «دو غيرمانت» كانت تحاول في تلك اللحظة أن تبرز

الظرف الغيرمائي» ودون كبير عناء لأنها إنما كانت تعيد فحسب طُرفاً لها قديمة في صيغة أقلّ كملاً. ولكنه بغية أن يبرهن للدوقة أنه يدرك مقصدها في أن تبدو مستهجنة وكما لو كانت بالحقيقة كذلك ابتسم ابتسامة متكلفة فبعث في نفسه من جراء هذا النوع الخاص من قلة الصدق الضيق نفسه الذي كان ينتابني بالأمس لدى سماعي ذوي يتحدثون إلى السيد «فانتوي» عن فساد بعض الأوساط (فيما يعلمون تمام العلم أن ما يسود «موجو فان» أكبر منه) أو لحض سماعي السيد «لوغراندان» في المجتمعات الراقية يتّوع في إلقائه من أجل أغبياء وينتقي نوعاً رقيقة يعلم تماماً أنها لايمكن أن تدرك في جمهور ثري أ أنيق ولكنه جاهل.

وقال السيد «دو غيرمات»: «ويحك يا «أوريان»، ماذا تقولين؟ ماري غيبّة؟ لقد قرأت كلّ شيء وهي موسيقية كالكمّان».

— «ولكن يا بصغيري المسكين «بازان»، إنك طفل ولدت لثوّ. كما لو أنها لاستطيع أن تكون كلّ ذلك وعلى شيء من العناء والغباء مبالغ فيه على أيّ حال، لا إنها غائمة، إنها من أسرة «هيسه» — دار مشتات» وتحمل طابع الإمبراطورية المقدّسة والبلادة». إن محض تلفّظها يثير أعصابي. ولكنّي أعتزّ على أية حال أنها رائعة في غرابة أطوارها. وأول الأمر محض فكرة أن تكون انحدرت من عرشها الألماني لتأتي وتزوّج فرداً بسيطاً زواجاً بورجوازيّاً تماماً. صحيح أنها انتقته! وقالت وهي تلتفت صوبي: «ولكن، صحيح، أنت لاتعرف «چيلبير»! سأزودك في الحال بفكرة عنه: لقد لزم الفراش فيما مضى لأنني بعثت ببطاقة للسيدة «كارنو»... ثمّ قالت الدوقة بغية تغيير الحديث وإذ رأت أن حكاية بطاقتها بدت وكأنها تثير غضب السيد «دو غيرمات»: «ولكن يا «شارلي» الصغير تدري أنك لم ترسل صورة فرسان «رودس» الذين أحبهم بفضلك والذين أرغب أشدّ الرغبة في التعرّف بهم».

ولم يكن الدوق قد كفّ مع ذلك عن التحديق إلى زوجته:

— «أوريان، يجدر بك على الأقلّ أن تنقلي الحقيقة وألاً تبلي نصفها». وقال مصحّحاً وهو يلتفت إلى «سوان»: «ينبغي أن نقول إن سفيرة انكتره في تلك الفترة، وكانت امرأة بالغة الطيبة ولكنها تعيش بعض الشيء في القمر وقد تعودت هذا النوع من الهفوات، خطر لها هذا الخاطر الغريب إلى حد ما بأن تدعونا والرئيس وزوجته. وقد دهشنا، وحسّ «أوريان»، بعض الدهشة، يزيد منها أن السفيرة كانت تعرف معرفة كافية من نعرف من أشخاص كمي لاتدعونا بالضبط إلى اجتماع غريب إلى هذا الحدّ. كان لمة وزير قام باختلاس، وأنغاضى عن ذلك على أيّ حال، ولم نكن قد أخطرنا بذلك ووقعنا في الشرك، على أنه لابدّ من الإقرار بأنّ جميع هؤلاء الناس كانوا مهذبين أبعد التهذيب. كانت الأمور كافية إلى هذا الحدّ. ولكنّما بدا للسيدة «دو غيرمات» التي لاتوليني كثيراً شرف استشارتي أن من واجبها المبادرة إلى وضع بطاقة في غضون الأسبوع نفسه في قصر «الإيليزيه». ربّما بالغ «چيلبير» إذ رأى في الأمر كأنما لطخة تلطخ اسمنا. ولكنّما ينبغي ألا ننسى، إن وضعنا السياسة جانباً، أن «كارنو» الذي كان يشغل منصبه، من ناحية أخرى، على نحو مرضي جداً، هو حفيد أحد أعضاء المحكمة الثورية التي أهلكت في يوم واحد أحد عشر من جماعتنا».

— «فلماذا كنت تذهب إذاً يا «بازان» لتناول طعام العشاء في «شاتني» كلّ أسبوع؟ لقد كان الدوق

«دومال» بدوره حفيد أحد أعضاء المحكمة الثرية بفارق أن «كارنو» كان رجلاً طيب القلب و«فيليب-المساواة» نذلاً مريعاً.

وقال «سوان»: «اعتذر للمقاطعة كي أقول لك إنني بعثت بالصورة ولست أفهم أنهم لم يعطوك إيّاها». فقالت الدوقة: «لا يدهشني الأمر إلا جزئياً. فإن خدامي لا يقولون لي إلا ما يلقونه مناسباً. إنهم لابد لا يحبون جمعية القديس يوحنا». وقرعت الجرس.

— «تعلمين يا «أوريان» أنني حينما كنت أتناول العشاء في «شانتيني» إنما كنت أفعل دونما حماسة». — «دونما حماسة ولكن بقميص نوم كي نظلّ وتنام إن سألك الأمير ذلك، وقليلًا ما كان يفعل على أيّ حال بوصفه إنساناً فقط شأن جميع آل «أورليان».. وسألت السيّدة «دو غيرمانت» زوجها قائلة: «أتعلم مع من نتناول العشاء في منزل السيّدة «دو سانت أوفيرت»؟

— «فيما عدا الجلّساء الذين تعرفينهم سيكون ثمة شقيق الملك «تيودوز»، وهو مدعوّ الساعة الأخيرة». واكتست، لدى هذا الخبر، ملامح الدوقة بالرضى، وأقوالها بالسأم: «آه! يا إلهي. يزيدوننا أمراء». وقال «سوان»: «ولكنّ هذا الأخير لطيف وذكي».

فأجابت الدوقة وهي تبدو كمن يبحث عن كلماته كي تضيي جذّة أكبر على فكرتها: «ليس تماماً على أيّ حال. فهل لاحظت، بين الأمراء، أن أكثرهم لطفاً ليسوا لطفاء تماماً؟ بلى، أوكدّ لك ذلك! ينبغي أبداً أن يكون لهم رأي في كل شيء. وإذهم لا يملكون أيّ رأي فإنهم يقضون الجزء الأول من حياتهم في طلب آرائنا منا، والجزء الثاني في تقديمها ثانية لنا. لابدّ لهم حتماً أن يقولوا إن هذا الأمر قد تمّ القيام به خير قيام وإنّ ذاك أقلّ منه. وليس من فارق مطلقاً. خذ مثلاً شقيق «تيوز» الأصغر هذا (لست أذكر اسمه) الذي سألتني أيّ اسم يطلقون على اللحن المميّز للأوركسترا». وقالت الدوقة وقد التمعت عيناها وأطلقت ضحكة عالية من شفتيها الحمراءين الجميلتين: «فأجبتهم إنهم يطلقون عليه اسم اللحن المميّز للأوركسترا». ولكنّه في أساس الأمر لم يكن مسروراً. وأردفت السيّدة «دو غيرمانت» تقول بصوت واهن: «آه! يا «شارلي» الصغير، ما أكثر ما يبعث على السأم أن تتناول عشاءك في المدينة! ثمة أمسيات نفضّل فيها الموت! صحيح أنّ الموت ربّما كان مزعجاً بالمقدار نفسه إذ لانعلم ما عسى أن يكون».

وأقبل أحد الخدم. وكان الخطيب الشاب الذي سبق أن تخاصم مع البوّاب إلى أن أقامت الدوقة فيما بينهما بطيبة نفسها سلاماً ظاهراً.

وسأل قائلاً: «هل ينبغي لي أن استعلم في هذا المساء أخبار السيّد المركيز «دوسمون»؟

— «لا، على الإطلاق، لاشيء قبل صباح الغدا! إنني لا أريد حتّى أن تمكث ههنا هذا المساء. فعلى خادमे الخاصّ الذي تعرفه أن يجيء ويزودك بالأخبار ويقول لك أن تذهب وتأتي بنا. أخرج واذهب حيثما

تشاء افعل الموبقات ونم خارج المنزل، ولكني لا أريدك ههنا قبل صباح الغد».

وفاض وجه الخادم الخاص بفرح لاحد له. هاهو يستطيع أخيراً أن يقضي ساعات طويلة برفقة خطيبته التي كان لا يستطيع أن يلقاها من بعد مد أوضحت له الدوقة بلطف، على إثر شجار جديد مع البواب، أنه من الخير له ألا يخرج من بعد ليتجنب منازعات جديدة. كان يسبح، لدى التفكير بأنه ينال أخيراً أمسيته الحرة، في لجة سعادة لاحظتها الدوقة وفهمتها. وأحسّت بانقباض في الصدر وأكال في جميع الأعضاء لدى رؤية هذه السعادة التي يأخذونها على غير علم منها وبالخفية عنها والتي تبعث في صدرها الغيظ والغيرة. «لا، يا بازان» فليمكث ههنا ولا يرحن، على العكس، المنزل».

— «ولكن يا «أوريان»، ذلك غير معقول فخدمك كلهم حاضرون وسيجيئك بالإضافة إليهم في منتصف الليل الكاسية وصانح الملابس التنكرية من أجل حفلتنا الراقصة. إنه لا يمكن أن يفيد البتة في شيء، وبما أنه وحده صديق لخادم «ماما» الخاص فأني أفضل ألف مرة أن أرسله بعيداً عن هنا».

— «اسمع، دعني يا «بابال»، إن لدي بالضبط أمراً أريد أن ينقل إليه في السهرة ولست أدري تماماً في أي ساعة». وقالت للخادم اليائس: «خصوصاً لاتبرح المكان دقيقة واحدة».

لكن كان ثمة على الدوام مشاجرات ولعن مكثوا قليلاً في منزل الدوقة فإن الشخص الذي كان ينبغي أن تعزى إليه هذه الحرب الدائمة كان بالتأكيد غير قابل للعزل، على أنه لم يكن البواب. لاشك أن الدوقة، بالنسبة إلى الأعمال الشاقة وصنوف التعذيب التي يتطلب إنزالها مشقة أكبر المشاجرات التي تنتهي بالضرب، كانت تعهد بآلاتها الثقيلة إليه، وكان يقوم بدوره على أي حال دون أن يرتاب أن يكونوا عهدوا به إليه. كان ينظر باعجاب إلى طيبة الدوقة شأن الخدم. وكان الخدام القليلو التبصر يجيئون كثيراً بعد رحيلهم للقاء «فرانسواز» قائلين بأن منزل الدوق ربما كان أفضل مكان في باريس لو لم يكن ثمة المحفل. وكانت الدوقة تستخدم المحفل مثلما استخدمت على مدى فترة طويلة الإكليريكية والماسونية والخطر اليهودي، إلخ. ودخل أحد الخدم الخاصين.

— «لماذا لم يأتوني إلى فوق بالرزمة التي بعث بها السيد «سوان» إلي؟ ولكن، مادامنا بهذا الصدد «تدري يا «شارل» أن «ماما» مريض جداً»، «جول» هذا الذي ذهب يستعلم أخبار السيد المركيز «دو سمون» هل عاد؟».

— «لقد وصل لتو ياسيدي لدوق. إنهم ينتظرون بين لحظة وأخرى أن يفارق السيد المركيز».

فصاح الدوق برفرة ارتياح: «آه إنه على قيد الحياة. إنهم ينتظرون، إنهم ينتظرون! يالك من شيطان أنت». قال لنا الدوق بهيئة مبتهجة: «مادام ثمة حياة فثمة أمل. لقد صوّروه لي وكأنه قضى ووري تحت الثرى. في ثمانية أيام يكون أفضل عافية مني».

— «الأطباء هم الذين قالوا إنه لن يمضي السهرة. وكان أحدهم يعني العودة في الليل، ولكن رئيسهم قال إن الأمر لا يجدي. كان لابد أن يكون المركيز قد مات، ولم يبق على قيد الحياة إلا بفضل حقن شرجية

من الزيت الممزوج بالكافور» .

وصاح الدوق وهو في سورة الغضب: «اخرس، يالك من غبي! فمن ذا يطلب منك كل ذلك؟ إنك لم تفهم شيئاً مما قيل لك» .

- «ما قيل لي، بل لـ«جول» .

فزرع الدوق عالياً: «ألن تخرس؟» والتفت إلى «سوان»: «آية سعادة أن يكون حيّاً. سوف يستعيد قواه شيئاً فشيئاً. إنه على قيد الحياة بعد نوبة كهذه، والأمر مذ ذاك رائع، فلا يمكننا أن نطلب كل شيء دفعة واحدة.» وقال الدوق وهو يفرك يديه: «لابد أن حقنة طغيفة بالزيت الممزوج بالكافور ليست مزعجة. إنه على قيد الحياة، فماذا يردون أكثر من ذلك؟ إنها لتنتيجة طيبة جداً بعد أن قاسى ما قاسى. بل إنني أحسده أن يكون بمثل هذا المزاج. آه! للمرضى، إنهم يحيطونهم بعناية لا يحيطوننا بها. لقد حضر لي طاه في الصباح فخذَ خروف بالمرق الكثيف الحارّ ناجح أروع النجاح، إنني مقرّ بذلك، ولكنتي لهذا السبب بالضبط أخذت منه إلى الحد الذي لايزال يشغل معدتي. لكن ذلك لا يحول دون امتناعهم عن استعمال أخباري على نحو ما فعلوا لإزاء العزيز «أمانيان» إنهم حتى يجاوزون الحد، والأمر يرهقه. لابد أن يدعوا له أن يرتاح. إنهم يقتلون هذا الرجل إذ يوفدون دوماً من يسأل عنه» .

وقالت الدوقة للخادم الذي كان خارجاً: «ويحك! سبق أن طلبت أن تحملوا إليّ إلى فوق، الصورة المغلفة التي بعث بها إليّ السيد «سوان» .

- «سيدتي الدوقة، إنها ضخمة إلى حد أنني ما كنت أعلم إن هي ستعبر من الباب. لقد تركناها في الردهة. فهل تودّ سيدتي الدوقة أن أحملها إلى فوق؟» .

- «لا، في هذه الحال. وكان يجدر أن أبلغ ذلك، ولكن إن كانت كبيرة إلى هذا الحد فسوف أشاهدها عما قليل لدى نزولي» .

- «نسيت كذلك أن أقول لسيدتي الدوقة إن السيدة الكونتيسة «موليه» قد تركت في هذا الصباح بطاقة لسيدتي الدوقة» .

فقالت الدوقة بلهجة الاستياء ومن ترى أن امرأة شابة مثلها لا يمكن أن تسمح لنفسها بأن تترك بطاقات في الصباح: «كيف ذلك، في هذا الصباح؟» .

- «نحو الساعة العاشرة ياسيدتي الدوقة» .

- «أرني هذه البطاقات» .

وأردف الدوق يقول، وقد عاد إلى حديثه الأول: «على أي حال، حينما تقولين يا «أوريان» إن ماري قد راودتها فكرة غريبة في زواجها من «جيلبير» فأنت التي تنهج طريقة فريدة في كتابة التاريخ فإن كان ثمة غبي

في هذا الزواج فإنما «جيلبير» في زواجه من قريبة وثيقة القربى إلى هذا الحد بملك البلجيكيين الذي اغتصب اسم «يرابان» الذي نملكه. إننا باختصار القول من سلالة آل «هيس» نفسها ومن فرع البكورية. ثم قال وهو يوجه الحديث إلي: «إنه من قبيل الغباء دوماً أن يتحدث المرء عن نفسه، ولكننا حين ذهبنا لا إلى «دار مشنات» فحسب بل حتى إلى «كاسيل» وفي سائر أنحاء أمانة «هيس» فقد نلطف الأعيان جميعهم وتظاهروا على الدوام بتقديمنا عليهم وبايلاثنا مكان الصدارة بوصفنا من فرع البكورية».

- «ولكننا لن نقول لي يا «بازان» إن تلك المرأة التي كانت قائدة لجميع فيالق بلدها والتي خطبوها للملك «السويد»....

- «أوه! تبالغين يا «أوريان»، لكأنك لاتعلمين أن جدّ ملك «السويد» كان يزرع الأرض في مدينة «بو» حينما كنّا نحمل على مدى تسع مئة سنة خلت مكان الصدارة في أوروبا بأسرها».

- «ذلك لا يمنع أنه لو قيل في الشارع: «ويحك، إنه ملك السويد» فسوف يجري الجميع لرؤيته حتى إلى ساحة «الكوتكورد»، فإن قيل: «هو ذا السيد «دو غيرمانت»، فلن يعلم أحد من عساه يكون».

- «ياله من سبب!».

- «ولا يمكن أن أفهم على أية حال كيف تستطيع، بما أن لقب دوق «باربان» قد انتقل إلى الأسرة المالكة البلجيكية، أن تدعيه لنفسك».

وعاد الخادم الخاصّ ببطاقة الكونتيسة «موليه»، أو بالأحرى بما تركته بمثابة بطاقة. فقد تذرعت بأنها لاحتمل بطاقات معها وأخرجت من جيبها رسالة سبق أن وردتها فاحتفظت بالمضمون واقتطعت زاوية المغلف التي تحمل اسم: الكونتيسة «موليه». ولما كان المغلف كبير الحجم إلى حدّ ما حسب قياس ررق الرسائل الذي كان شائعاً في ذلك العام فإن هذه «البطاقة» التي سَطُرَتْ بخطّ اليد قد بلغت تقريباً ضعف حجم بطاقة الزيارة العادية.

فقالت الدوقة هازنة: «هذا ما يدعونه بساطة السيّد «موليه». تريدنا أن نعتقد أنها لم تكن تحمل بطاقات وأن تعرب عن تفرّدها. ولكننا نعرف كلّ ذلك، أليس أننا نعرفه يا عزيزي «شارل»؟ لقد بلغنا من السنّ وقدرنا من التفرد أكثر من أن نتعلّم النظرف على يد سيّد صغير خرجت إلى الدنيا منذ أربع سنوات. إنها فاتنة ولكننا لا يبدو لي أنها بلغت مع ذلك حجماً كافياً لتتصوّر أنها تستطيع إدهاش الناس بكلفة زهيدة إلى الحد الذي تترك فيه مغلفاً بمثابة بطاقة وترميها في العاشرة صباحاً. سوف تبرهن لها الفأرة العجوز أنها عارفة بهذا الشأن بمقدار ما تعرف».

ولم يتمالك «سوان» أن ضحك وهو يفكر أن الدوقة التي كانت غيرى بعض الشيء من نجاح السيدة «موليه» سوف يتجدد بالتأكيد في «ظرف آل غير مانت» جواباً وقحاً بحق هذه الزائرة.

وعاد الدوق يقول: «أما بخصوص لقب الدوق «دوبرابان»، فقد قلت لك مئة مرّة يا «أوريان»... ولكنّ

الدقة قطعت عليه الكلام دون أن تصغي.

- «ولكنني تواقّة إلى صورتك يا عزيزي «شارل».

فقال «سوان»: «آه! Extinctor draconis Iatrator Anubis»

- «أجل، جميل جداً ماقلته لي بهذا الشأن بالمقارنة مع القديس جاروجيوس في البندقية. ولكنني لا أفهم لماذا تقول «أنوبيس»(*)».

وسأل السيد «دو غيرمانت» قائلاً: «كيف هو من كان جدّ «بابال»؟

فقال السيد «دو غيرمانت» بلهجة جافّة لتعرب أنّها كانت تزدي هذا التلاعب اللفظي: «بؤدك أن ترى الجدة «بابال». وأضاف قولها: «أودّ لو أراهم جميعاً».

وقال الدوق: «اسمع يا «شارل»، هيّا نزل بانتظار أن يتمّ تقديم العربة وستقوم بزيارتك لنا في الردهة لأنّ زوجتي لن تدعنا بسلام مادامت لم تشاهد صورتك». وأضاف بلهجة الراضي عن نفسه: «إنني والحق يقال أطول بالاً، إنّي رجل هادئ أنا، ولكنّها قد توردنا حتفنا».

وقالت الدوقة: «إنّي أوافقك الرأي تماماً يا «بازان»، هيّا إلى الردهة، فإننا نعلم على الأقلّ لماذا ننحدر من حجرتك فيما لن ندرى في يوم لماذا ننحدر من كونتات آل «برابان».

فقال الدوق «فيما كنّا نمضي لمشاهدة الصورة وكنت أفكّر في تلك التي كان يحملها «سوان» إليّ في «كومبريه»: «لقد كرّرت لك مرّة كيف دخل اللقب بيت آل «هيسّه» بزواج أحد آل «برابان» في عام ١٢٤١ بابتة آخر أمير لمقاطعتي «توراج» و«هيسّه» حتّى إنّ لقب أمير «هيسّه» هو بالأخرى الذي دخل بيت «برابان» أكثر منه لقب دوق «برابان» بيت «هيسّه» وتذكرين على أيّ حال أنّ شعارنا الحربي كان شعار دوقة «برابان»: «ليمبور لمن احتلّها»، إلى أن استبدلنا بشعار آل «برابان» شعار آل «غيرمانت»، الأمر الذي أجد أنّنا كنّا فيه على غير حقّ، وإنّ مثلّ آل «غرامون» ليس من شأنه أن يحملني على تغيير رأيي».

وأجابت السيدة «دو غيرمانت»: «ولكن، بما أنّ ملك البلجيكيين هو الذي احتلّه... وعلى أيّ حال فوريت بلجيكا يدعى دوق «برابان».

- «ولكنّ ما تقولين يا صغيرتي لايقوم على أساس وهو خاطئ منذ البداية. فإنّك تعلمين مثلما أعلم أنّ ثمة ألقاباً مدعاة تبقى بكلّ تأكيد إن اتفق احتلال المنطقة على يد مغتصب. فملك إسبانيه مثلاً يسمّي نفسه دوق «برابان» متذرّعاً في ذلك بملكية أقلّ قدماً من ملكية أقلّ قدماً من ملكيتنا ولكنّها أكثر قدماً من ملكية

(*) باللاتينية في النص: «أنوبيس النباح يا مجنل التنين»، والاستشهاد من ملحمة «الانباذة» لفيرجيليوس» وهو غير دقيق، وقد عدت إلى الأصل اللاتيني فإذا هو كالتالي: «آلهة من جميع الأصناف الخرافية وفي عدادهم النباح أنوبيس يوجهون سهامهم إلى نبتون وفيونوس ومينيرفا».

ملك البلجيكيين. ويقول كذلك إنه دوق «برغونني» وملك الهند الغربية والشرقية ودوق «ميلانو». ولكنه لا يملك «برغونني» ولا الهند لا «برابان» أكثر مما أملك أنا هذا الأخير أو يملكه أمير «هيسه» ولا يحول ذلك دون أن يعلن ملك اسبانيه أنه ملك أورشليم، وكذلك يفعل ملك النمسا وليس يملك أورشليم هذا ولا ذاك.

وتوقف لحظة وبه ضيق أن يكون استطاع اسم أورشليم أن يزجج «سوان» بسبب «المسائل القائمة»، ولكنه عاد يتابع بسرعة أكبر: - «ماقولينه ههنا يمكن أن تقوله عن كل شيء. فقد كنا دوق «أومال»، هذه الدوقة التي انتقلت إلى أسرة «فرنسه» بمثل انتظام «جوانفيل» و«شوفروز» إلى أسرة «ألبير» وأتانا لانطالب بهذه الألقاب أكثر مما نطالب بلقب المركز «دونوار موتيه» الذي كان ملك أيدينا والذي أصبح على نحو نظامي تام وفقاً على أسرة «لاتريمواي»، ولكننا لاينتج عن كون بعض التنازلات مقبولة أنها جميعها كذلك». وقال وهو يلتفت صوبي: «إن ابن اخت زوجتي مثلاً يحمل لقب أمير «أغريجانت» الذي آل إلينا عن «جان المجنونة» مثلما آل إلى أسرة «لاتريمواي» لقب أمير «تارانت». ولكن نابليون قد منح لقب «تارانت» هذا أحد الجنود الذي ربما كان على أبيه حال جندياً ممتازاً، ولكن الإمبراطور قد تصرف في ذلك بما كان حتى أقل مآلاً إليه من نابليون الثالث يوم نصب دوقاً على «مونمورانسي» بما أن والدته الأميرة «بيريغور» كانت على الأقل من آل «مونمورانسي»، فيما لم يكن في «تارانت» نابليون الأول من أثر له «تارانت» سوى مشقة نابليون أن يكون كذلك. ولم يثن ذلك «شييه ديستاج»، وهو يلوح إلى عمك «كونديه»، عن سؤال المدعي الإمبراطري إن هو للمم لقب دوق «مونمورانسي» في حفر «فانسين».

- «اسمع يا «بازان»، لست أطلب خيراً من أن أتبعك في حفر «فانسين» وحتى إلى «تارانت». وبهذه المناسبة، ياعزيزي «شارل»، ذلك بالضبط ما كنت أنوي قوله لك حينما كنت تخذلني عن القديس جاورجيوس الذي في البندقية، ذلك أن في نيتنا أنا و«بازان» قضاء الربيع القادم في إيطاليا وصقلية. فلو تجيء معنا، فكم سيكون الأمر مختلفاً! إنني لا أتحدث عن سروري بلقاءك فحسب، ولكن تصور تصوراً الذي تضمحي عليه رحلة كهذه نقضيها برفقتك بالإضافة إلى كل ما رويته لي في العديد من المرات عن ذكريات الاحتلال النورماندي والدكريات القديمة! أعني أن «بازان» نفسه، ماذا أقول، و«جيلبير» قد يفيدان من ذلك لأنني أحس أنه ربما أثارت اهتمامي حتى مطالباتنا بعرض «نابولي» وسائر تلك الأمور إن شرحتها لي أنت في كنائس رومانية قديمة أو في قرى صغيرة جائمة شأنها في لوحات الأوائل. ولكننا سنشاهد صورتك». وقالت الدوقة لأحد الخدم الخاصين: «انزع الغلاف».

وتوسل إليها الدوق الذي سبق أن توجه إلى بإشارات مدعورة وهو يصبر ضخامة الصورة: «ولكن لا يمكن الأمر في هذا المساء يا «أوريان».

- «ولكننا يسرني أن أشاهد ذلك برفقة «شارل»، تقول الدوقة بانتسامة متكلفة في رغبتها مرهفة في عمقها النفسي، فقد كانت تتحدث، وسط رغبتها في التجب لـ«سوان»، عن المتعة التي ستصحبها من مشاهدة هذه الصورة وكأنما عن المتعة التي يحس مريض أنه سيصحبها من أكل برتقالة أو كما لو أنها دبرت في الآن نفسه طلعة برفقة أصدقاء وأطلعت كاتب سيرة على ميول لها تشرّفها.

وأعلن الدوق، فاضطرت زوجته إلى موافقته، أعلن قائلاً: «سوف يجيء إذا خصيصاً ليراك». وأضاف بسخرية: «وتقضيان ثلاث ساعات معاً أمامها إن حلا لك. ولكن أين تضعين لعبة بهذا الحجم؟»

— «في غرفتي بالطبع، فاني أود الاحتفاظ بها أمام عيني».

— «آه! على قدر ما تشائين إن كانت في غرفتك، فمن المحتمل ألا أشاهدها في يوم»، يقول الدوق دون أن يفتن إلى التصريح الذي يعلن به على هذا النحو الطائش عن الطابع السليبي لعلاقته الزوجية.

وأمرت السيدة «دو غيرمانت» الخادمة قائلة (وكانت تضاعف التوصيات بداعي التودد لـ «سوان»): «انزع هذا إذن باهتمام بالغ، ولا تلتف الغلاف كذلك».

وهمس الدوق في أذني وهو يرفع ذراعيه إلى السماء: «ينبغي لنا حتى أن نحترم الغلاف!» ثم أضاف قوله: «ولكن يا «سوان»! أنا الذي لا يعدو كونه زوجاً مسكيناً وعادياً جداً إنما يثير إعجابي في ذلك أنك استطعت العثور على غلاف بمثل هذا الحجم. فأين اكتشفت ذلك؟»

— «إنها دار حفر الرواسم التي كثيراً ما تقوم بهذا النوع من الإرساليات. ولكنه رجل فظ، فاني أرى أنه كتب عليها: «الدوقة «دو غيرمانت» وأغفل «السيدة»».

وقالت الدوقة ساهية: «إنني أصفح عنه»، ثم بدا فجأة وكأنها أدهشتها فكرة أشاعت السرور في نفسها فكتمت ابتسامة خفيفة وسرعان ما عادت تقول لـ «سوان»: «عجبا! لا تقول إن كنت ستجيء معنا إلى إيطاليا؟».

— «أظنّ يأسديتي أن الأمر لن يكون ممكناً».

— «إذاً فالسيدة «دو مونمورانسي» أوفر حظاً. لقد ذهبت برفقتها إلى البندقية و«فيسانس». وقد قالت لي إنَّ المرء يشاهد معك أشياء ما كان ليراهها في يوم لولا ذاك ولم يتحدث أحد عنها قط، وإنك أريتها أموراً لا تصدق وأنها استطاعت حتى في الأمور المعروفة أن تدرك تفاصيل لعلها لولاك كانت مرتّ عشرين مرة أمامها دون أن تلاحظها البتة. لقد كانت بالتأكيد أكثر حظوة منّا...» وقالت للخادم: «خذ غلاف صور «سوان» الضخم واذهب وضعها، بعدما أطوي أنا زاويتها، في منزل السيدة الكونتيسة «موليه» في العاشرة والنصف من هذا المساء».

وانفجر «سوان» بالضحك.

وسألته السيدة «دو غيرمانت»: «أودّ مع ذلك أن أعلم كيف تستطيع قبل عشرة أشهر أن تعلم أن الأمر سيكون مستحيلاً».

— «سوف أقول لك ذلك يادوقتي العزيزة إن كنت تصرّين عليه، ولكنك ترين، بادئ الأمر، أنني مريض جداً»

- «أجل، يا عزيزي «شارل»، إني أرى أنك لست البتة على مايرام ولست مسرورة من لون وجهك، ولكنني لا أسألك ذلك إلى ما بعد ثمانية أيام، إني أسألك ذلك إلى مابعد عشرة أشهر. وفي عشرة شهور، تدري، يتسع الوقت للمعالجة».

وجاء خادماً خاصاً يعلن في تلك اللحظة أن العربة قد جيء بها. فقال الدوق الذي كان قد أخذ منذ فترة يضرب الأرض بقدمه من نفاذ صبر كما لو كان هو نفسه أحد الأحصنة التي تنتظر: «هيا يا «أوريان»، إلى الجياد».

وسألت الدوقة وهي تنهض لتستأذنا: حسن! والسبب بمختصر القول؟ الذي سيحول دون مجيئك إلى ابطياليه؟.

فأجاب «سوان» وهو يتسهم، فيما كان الخادم يفتح باب الردهة المزجج ليسمح للدوقة بالمرور: «ذلك لأنني، يا صديقتي العزيزة، أكون قد فارقت منذ عدة شهور. ففي رأي الأطباء الذين استشرتهم لن يدع لي المرض الذي بي، والذي يمكن على أي حال أن يقضي علي في الحال، أكثر من ثلاثة شهور أو أربعة وذلك كحد أقصى».

وصاحت الدوقة وهي تتوقف ثانية في سيرها إلى العربة وترفع عينيها الزرقاوين الجميلتين الحزبتين اللتين امتلأتا حيرة. فإذا ألقت نفسها لأوّل مرة في حياتها واقعة بين واجبين مختلفين اختلاف استقلال عربتها للمبادرة إلى تناول العشاء في المدينة والإعراب عن اشفاقها لرجل تدنو منيته لم تكن ترى شيئاً في مرمة اللياقات يشير إلى الاجتهاد الواجب أتباعه، ولما لم تعلم أيهما تفضل ظنت من واجبها أن تتظاهر بأنها لاتصدق امكانية طرح الخيار الثاني كيما تنصاع للأوّل الذي كان يقتضيها في هذه اللحظة جهداً أقلّ وحسبت أن خير طريقة لحلّ النزاع تكمن في إنكاره: «ماهذا الذي تقوله لي؟» ثم قالت لـ«سوان»: «مراكم أن تمزح؟».

فأجاب «سوان» بلهجة ساخرة: «قد يكون ذلك مزاحاً رائع الدوق. لست أدري لماذا أقول لك ذلك فلم أحدثك عن مرضي حتى الآن. ولكن مادمت سألتني عن ذلك وأنه يمكن الآن أن أموت بين يوم وآخر... ولكنني فوق كل شيء لا أود أن تتأخري فإنك تتعشّين في المدينة، يضيف قوله لأنه كان يعلم أن الالتزامات المجتمعية في نظر الآخرين تسمو على موت أحد الأصدقاء وأنه كان يفضل تهذيبه يضع نفسه في مكانهم. على أن تهذيب الدوقة كان يمكنها بدورها أن تتبين على نحو مبهم أن العشاء الذي تمضي إليه هو لابد أقلّ وزناً في نظر «سوان» من موته. ولذلك فقد خفضت منكبها فيما توالي طريقها إلى العربة وقالت: «لاتشغل بالك بهذا العشاء فلا أهمية له البتة!» ولكن هذه الكلمات عكّرت مزاج الدوق الذي صاح قائلاً: «هيا يا «أوريان»، لا توالي الثرثرة هكذا وتبادل المراتي مع «سوان»، مع أنك تعلمين تماماً أن السيّد «دو سانت أوفيرت» يحرص أن يجلس إلى المائدة في الساعة الثامنة تماماً. لابد أن تعلمي أي أمر تريدن فقد انقضت خمس دقائق وجيادك تنتظر». ثم قال وهو يلتفت إلى «سوان»: «إني استميتك عنراً يا «شارل» ولكن الساعة بلغت الثامنة إلا عشرًا؛ إن «أوريان» متأخرة على الدوام ويقتضينا الأمر أكثر من خمس دقائق للذهاب إلى

منزل العمّة «دو سانت أوفيرت».

وتقدّمت السيّدة «دو غيرمانت» بثبات إلى العربية واستودعت «سوان» مرّة أخيرة. «تدري، سوف نعاود الحديث عن ذلك، إنّي لا أصدّق كلمة واحدة مما تقول، ولكن لا بدّ أن نتحدّث عن ذلك سوّية. فربّما أشاعوا الرعب في نفسك بغياء، تعال للغداء وفي اليوم الذي تريد» (كان كلّ شيء يلقي حله على الدوام في حفلات غداء)، «وتبلغني باليوم والساعة»، ورفعت تنوّرتها الحمراء ووضعت قدمها على المرقاة. كانت على وشك أن تدخل العربية حينما صرخ الدوق بصوت مخيف إذ أبصر هذه القدم: «أوريان، ما الذي كنت تزمعين الإقدام عليه أيتها التعيسة. لقد احتفظت بحذاءك الأسود! مع ملابس حمراء! هيا اصعدي ثانية لانتعال حذاءك الأحمر، أو قل في الحال لوصيفة السيّدة الدوقة»، يقول للخادم الخاص، «أن تجيء بالحذاء الأحمر».

وأجابت الدوقة بلطف وقد أربكها أن تلاحظ أنّ «سوان» الذي كان يخرج برفقتي ولكنه شاء أن يسمح للعربة بالمرور أمامنا قد سمع: «ولكن يا صديقي مادمنّا تأخرنا...».

- «لا، الوقت كلّهُ يتّسع لنا. فلم تتجاوز الساعة الثامنة إلّا عشراً ولن نقضي عشر دقائق للذهاب إلى حديقة «مونسو»، ثمّ ماعساك تبغين، سوف ينتظرون وإن بلغت الساعة الثامنة والنصف فلا يمكنك الذهاب بفسطان أحمر وحذاء أسود. ومهما يكن من أمر فلن نكون آخر القوم، اطمئني، هنالك أسرة «ساسناج»، فأنت تعلمين أنّهم لا يحضرون قبل التاسعة إلّا ثلاثاً».

وعادت الدوقة إلى غرفتها.

وقال لنا السيّد «دو غيرمانت»: «يا للأزواج المساكين، يسخرون منهم ولكنّنا فيهم بعض الخير مع ذلك. كانت «أوريان» ترمع تناول عشائها بحذاء أسود».

وقال «سوان»: «ليس ذلك قبيحاً، فقد سبق أن لاحظت الحذاء الأسود الذي لم يصدمني على الإطلاق».

فقال الدوق: «لست أقول العكس، ولكنّنا يبدو أكثر أناقة أن يكون من لون الفسطان. اطمئنّ على أياه حال، فلو أنّها وصلت قبل الألوان للاحظت ذلك في الحال واضطرت أنا أن آتي لجلب الحذاء، وكنت تعشيت في التاسعة». وقال لنا وهو يدفعنا بلطف: «إلى اللقاء يا أبنائي الصغار، هيا اذهبا قبل أن تنزل «أوريان». وليس يعني ذلك أنّها لا تحبّ لقاء كما كليكما. إنّها على العكس تحبّ لقاء كما كثيراً. فإن وجدتكما بعد ههنا فسوف تعود إلى الحديث، إنّها متعبة جدّاً وستصل إلى العشاء فاقدة الأنفاس. ثمّ إنّي سأقرّ لكما بصراحة أنّني أنا أموت جوعاً. فقد تغدّيت أسوأ غداء هذا الصباح وأنا أغادر القطار. صحيح أنّه كان ثمة مرق كفيف حارّ مشووم، ولكنّي على الرغم من ذلك لن يغصبني البتّة، أقول البتّة، أن أجلس إلى المائدة، الثامنة إلّا خمساً! آه! بالنساء! سوف تلحق الأذى بمعدتنا كلينا. إنّها أقل عافية ممّا يعتقدون».

لم يكن الدوق يحسّ أيّ حرج في التحدّث عن متاعب زوجته ومتاعبه إلى مشرف على الموت لأنّ الأولى التي تثير اهتمامه بقدر أكبر كانت تبدو له أكثر أهميّة. ولذلك فقد صاح بداعي حسن التهذيب

والعافية فحسب وبعدما صرفنا بلطف، صاح كأنما في الفراغ وبصوت جهوري من الباب إلى «سوان» الذي كان مذ ذاك في الباحة:

— «وأنت لاتسمح بأن تؤثّر فيك سخافات الأطباء، باللعنة! إنهم حمير هؤلاء. صحتك أمتن من «الجرس الجديد» وسوف تدفننا جميعاً».



المحتويات

٩ القسم الأول
٢١١ القسم الثاني
٢١٣ الفصل الأول
٢٣٧ الفصل الثاني



مطابع انترناشيونال پريس ت : ۲۶۷۶۲۵۹

عيون الأدب الأجنبي

صدر منها

♦ عبدة الصفر

الان نادو

ترجمة : البستاني والبطراوي

♦ مدام بوقاري

جوستاف فلوبر

ترجمة : محمد مندور

♦ الكلمات

جان بول سارتر

ترجمة : خليل صابات

♦ الأحمر والأسود

ستاندال

ترجمة : عبد الحميد الدواخلي

♦ المكان

أني إرنو

ترجمة : أمينة رشيد

وسيد البحراوي

♦ الآثار الشعرية الكاملة

إديت سودجران

ترجمة : محمد عفيفي مطر

ومحمد عيد إبراهيم

♦ چاز

توني موريسون

ترجمة : محمد عيد إبراهيم



دار شرقيات للنشر والتوزيع

~~Amica regent
Longinque
de la...
d'Amica
Amica ion.
Lue de...
- la... de pl
e-pl e porma
et q. f. et
for... ce adde
- les traces
et up...
de fort... et
Ces...
ils a d'phoe~~

finis que bon
 avoyez en
 stable le
 temps que
 bon avoyez
 si en cette
 hôte, j'ay
 bon, avoyez le
 d'un de
 bon à un
 que c'est
 et bon pas
 j'ay bon
 bon, que bon
 bon avoyez
 bon, tunc
 bon, avoyez
 bon, finis
 bon, avoyez
 bon, finis

[illegible]